الرافدين على الجلالين

بسم الله الرحمن الرحيم

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الأولى

١٤٣٦هـ-٢٠١٥م

رقم الإيداع: ٢٠١٣/٨٣٤٠م

الترقيم الدولي: ٨-٢٥-٦٢٥٤-٩٧٧-٩٧٨

ISBN 978-977-6254-25-8

002-0122-165-3339

Email: abdallaelnady@gmail.com

الرافدين على الجلالين

تأليف

محمد بن نصر أبي جبل

الجزء العشرون

الدار العلمية للنشر والتعليم

العلمية للثقافة الدولية

بسم الله الرحمن الرحيم

فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا (٦).

{فَلَعَلَّك بَاخِع} مُهْلِك {نَفْسك عَلَى آثَارهمْ} بَعْدهمْ أَيْ بَعْد تَوَلِّيهمْ عَنْك {إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيث} الْقُرْآن {أَسَفًا} غَيْظًا وَحُزْنًا مِنْك لِحِرْصِك عَلَى إِيمَانهمْ وَنَصْبهُ عَلَى الْمَفْعُول لَهُ[1].

---

(١) ذكر سبب النزول.

عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما؛ قال: اجتمع عتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة وأبو جهل بن هشام والنضر بن الحارث وأبو البختري في نفر من قريش، وكان رسول الله ﷺ قد كَبُرَ عليه ما يرى من خلاف قومه إياه وإنكارهم ما جاء به من النصيحة، فأحزنه حزنًا شديدًا ... فأنزل الله تعالى: {فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ} الآية.

ذكره السيوطي في "الدر المنثور" (٥/ ٣٦٠) ونسبه لابن مردويه. وتفرد ابن مردويه - في الأعم الأغلب - مظنة النكارة والضعف الشديد.

* قوله تعالى: {فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ} [الكهف: ٦]، أي:"فلعلك - أيها الرسول- مُهْلِك نفسك غمًّا وحزنًا على أثر تولِّي قومك وإعراضهم عنك".

قال الطبري:"فلعلك يا محمد قاتلٌ نفسك ومهلكها على آثار قومك الذين قالوا لك: {لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الأَرْضِ يَنْبُوعًا}، تمردا منهم على ربهم، إن هم لم يؤمنوا بهذا الكتاب الذي أنزلته عليك، فيصدقوا بأنه من عند الله حزنا وتلهفا ووجدا، بإدبارهم عنك، وإعراضهم عما أتيتهم به وتركهم الإيمان بك".

قال ابن كثير:"يقول تعالى مسليًا رسوله ﷺ في حزنه على المشركين، لتركهم الإيمان وبعدهم عنه، كما قال تعالى: {فَلا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ} [فاطر: ٨]، وقال {وَلا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ} [النحل: ١٢٧]، وقال {لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ أَلا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ} [الشعراء: ٣]".

=

=

قال الزمخشري:"شبهه وإياهم حين تولوا عنه ولم يؤمنوا به وما تداخله من الوجد والأسف على توليهم، برجل فارقه أحبته وأعزته فهو يتساقط حسرات على آثارهم ويبخع نفسه وجدا عليهم وتلهفا على فراقهم".

وفي قوله تعالى: {فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ} [الكهف: ٦]، وجهان:

أحدهما: مهلك وقاتل نفسك، قاله أبو عبيدة، وابن قتيبة، وأنشدوا قول ذي الرُّمَّةِ:

ألا أَيُّهَذَا الباخِعُ الوَجْدُ نَفْسَهُ... بِشَيْءٍ نَحَتْهُ عَنْ يديك المقادر

وروي عن قتادة: " {فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ}، يقول: قاتل نفسك".

وقال الضحاك:"قاتل نفسك عليهم حرصا".

قال القاسم بن سلام:"{باخع نفسك}، أي: قاتل نفسك بلغة قريش".

قال ابن كثير:"باخع: أي: مهلك نفسك بحزنك عليهم".

الثاني: أن الباخع المتحسر الأسِف، حكاه الماوردي عن ابن بحر.

وقرئ: «باخع نفسك»، على الأصل، وعلى الإضافة.

وفي قوله تعالى: {عَلَى آثَارِهِمْ} [الكهف: ٦]، وجهان:

أحدهما: على آثار كفرهم.

الثاني: بعد موتهم.

قوله تعالى: {إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا} [الكهف: ٦]، أي:"إن لم يصدِّقوا بهذا القرآن ويعملوا به".

قال ابن إسحاق:"يعاتبه على حزنه عليهم حين فاته ما كان يرجو منهم: أي لا تفعل".

قال ابن كثير:"يقول: لا تهلك نفسك أسفًا".

وفي قوله تعالى: {إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا} [الكهف: ٦]، وجوه من التفسير:

=

=

أحدها: أي: غضبًا، قاله قتادة.

الثاني: جزعًا، قاله مجاهد.

الثالث: أنه غمًّا، قاله السدي.

الرابع: حزنًا، قاله الحسن، وقتادة ايضا، وبه قال ابن قتيبة.

قال الزجاج:"«الأسَف»: المبالغة في الحزن أو الغَضَبِ. يقَال: قد أَسِفَ الرجل فهو أسيفٌ وآسِفٌ. قال الشاعر:

أَرَى رَجُلًا منهم أَسِيفًا كأَنَّمَا... يَضُمُّ إلى كَشْحَيْه كَفًّا مُخَضَّبا".

عن عائشة رضي الله عنها قالت: "قال النبي ﷺ في مرضه: «مروا أبا بكر فليصل بالناس»، فقلت: إنه رجل أَسيف..". الحديث

الخامس: أي: ندما وتلهّفا، وأسى. قاله أبو عبيدة.

قال الطبري:"وهذه معاتبة من الله عزّ ذكره على وجده بمباعدة قومه إياه فيما دعاهم إليه من الإيمان بالله، والبراءة من الآلهة والأنداد، وكان بهم رحيما".

* قوله تعالى: (فلعلك باخع نفسك على آثارهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفا) لفظ (لعل) هنا للإشفاق عليه ﷺ، وقيل: هي في الآية للنهي، وعلى هذا القول فالمعنى: لا تبخع نفسك لعدم إيمانهم.

(باخع) مهلك، أي مهلك نفسك من شدة الأسف على عدم إيمانه.

والمعنى: أي: لا تهلك نفسك- أيها الرسول الكريم- هما وغما، بسبب عدم إيمان هؤلاء المشركين. وبسبب إعراضهم عن دعوتك فإنما عليك البلاغ وعلينا الحساب، وإنك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء.

قال الزمخشري: شبهه سبحانه وإياهم حين تولوا عنه ولم يؤمنوا به، وما داخله من الوجد والأسف على توليهم، برجل فارقته أحبته وأعزته فهو يتساقط حسرات على آثارهم ويبخع نفسه وجدا عليهم، وتلهفا على فراقهم.... (الوسيط).

=

=

- **قال الشنقيطي**:... فاعلم أن ما ذكره فيها جل وعلا من شدة حزن نبيه ﷺ عليهم، ومن نهيه له عن ذلك مبين في آيات أخر كثيرة:

كقوله (فلا تذهب نفسك عليهم حسرات).

وكقوله (لعلك باخع نفسك ألا يكونوا مؤمنين).

وكقوله (ولا تحزن عليهم واخفض جناحك للمؤمنين)، وكقوله: فلا تأس على القوم الكافرين).

وكقوله (قد نعلم إنه ليحزنك الذي يقولون).

وكقوله (ولقد نعلم أنك يضيق صدرك بما يقولون).

- **وقال العثيمين**: قوله تعالى: (فَلَعَلَّكَ) الخِطاب للرسول ﷺ (بَاخِعٌ نَفْسَكَ) مهلكٌ نفسَك، لأنه كان ﷺ إذا لم يجيبوه حَزِنَ حَزنًا شديدًا، وضاق صدره حتى يكادَ يَهلك، فسلَّاه الله وبيّن له أنه ليس عليه من عدم استجابتهم من شيء، وإنما عليه البلاغ وقد بلَّغ.

(عَلَى آثَارِهِمْ) أي باتباع آثارهم، لعلَّهم يرجعون بعد عدم إجابتهم وإعراضهم.

(إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيث) أي إن لم يؤمنوا بهذا القرآن.

(أَسَفًا)) مفعول من أجله، العامل فيه: (بَاخِعٌ) المعنى أنه لعلك باخع نفسك من الأسف إذا لم يؤمنوا بهذا مع أن الرسول ﷺ ليس عليه من عدم استجابتهم من شيء، ومهمة الرسول ﷺ البلاغ. قال تعالى: (فإنما عليك البلاغ) (الرعد: ٤٠)، وهكذا ورثته من بعده: العلماء، وظيفتهم البلاغ وأما الهداية فبيد الله، ومن المعلوم أن الإنسان المؤمن يحزن إذا لم يستجبِ الناس للحق، لكنَّ الحازنَ إذا لم يقبل الناس الحق على نوعين:

١- نوع يحزن لأنه لم يُقبل.

٢- ونوع يحزن لأن الحق لم يُقبل.

=

إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا (٧).

{إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْض} مِنْ الْحَيَوَان وَالنَّبَات وَالشَّجَر وَالْأَنْهَار وَغَيْر ذَلِكَ {زِينَة لَهَا لِنَبْلُوَهُمْ} لِنَخْتَبِر النَّاس نَاظِرِينَ إِلَى ذَلِكَ {أَيّهمْ أَحْسَن عَمَلًا} فِيهِ أَيْ أَزْهَد لَهُ.

وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا (٨).

{وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا} فُتَاتًا {جُرُزًا} يَابِسًا لَا يُنْبِت[1].

=

والثاني هو الممدوح لأن الأول إذا دعا فإنما يدعو لنفسه، والثاني إذا دعا فإنما يدعو إلى الله ﷻ، ولهذا قال تعالى: (أدع الى سبيل ربك) (النحل: ١٢٥.

لكن إذا قال الإنسان أنا أحزن؛ لأنه لم يُقبل قولي؛ لأنه الحق ولذلك لو تبين لي الحق على خلاف قولي أخذت به فهل يكون محمودًا أو يكونُ غير محمود؟.

الجواب: يكون محمودًا لكنه ليس كالآخرِ الذي ليس له همٌّ إلَّا قَبول الحق سَواء جاء من قِبَله أو جاء من قبل غيره.

(١) قوله تعالى: {إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا} [الكهف: ٧]، أي:"إنَّا جعلنا ما على وجه الأرض من المخلوقات جَمالا لها، ومنفعة لأهلها".

قال الطبري:"يقول عز ذكره: إنا جعلنا ما على الأرض زينة للأرض".

عن مجاهد: {مَا عَلَى الأَرْضِ زِينَةً لَهَا}، قال: ما عليها من شيء".

قال قتادة:"ذكر لنا أن نبيّ الله ﷺ كان يقول: «إنَّ الدُّنْيا خَضِرَةٌ حُلْوَةٌ، وَإنَّ اللهَ مُسْتَخْلِفَكُمْ فِيها، فَناظِرٌ كَيْفَ تَعْمَلُونَ، فاتَّقُوا الدُّنْيا، واتَّقُوا النِّساء»".

قوله تعالى: {لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا} [الكهف: ٧]، أي:"لنختبرهم: أيُّهم أحسن عملا بطاعتنا، وأيهم أسوأ عملا بالمعاصي، ونجزي كلا بما يستحق".

قال الطبري:"يقول: لنختبر عبادنا أيهم أترك لها وأتبع لأمرنا ونهينا وأعمل فيها

=

=

بطاعتنا".

قال الزمخشري:"حسن العمل: الزهد فيها وترك الاغترار بها".

وفي قوله تعالى: {لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا} [الكهف: ٧]، وجوه من التفسير:

أحدها: أيهم أحسن إعراضًا عنها وتركًا لها، قاله ابن عطاء.

وري عن أبي أصم العسقلاني:"أترك لها".

وقال سفيان الثوري:"أزهدهم في الدنيا".

وقال الحسن:"أشدهم للدنيا تركا".

الثاني: اختبارا لهم أيهم أتبع لأمري وأعمل بطاعتي. قاله ابن إسحاق.

وقال يحيى بن سلام:"أيهم أطوع لله، وقد علم ما هم فاعلون".

الثالث: أيهم أحسن إعراضا عن الدنيا، وما يوجب الاشتغال عن الله تعالى، وإخباتا وسكونا إلينا، وعلينا توكلا وإقبال. قاله سهل بن عبد الله.

الرابع: أيهم أتم عقلا. قاله قتادة.

روي عن ابن عمر قال: "تلا رسول الله ﷺ هذه الآية: {لنبلوهم أيهم أحسن عملا}، فقلت: ما معنى ذلك يا رسول الله؟ قال: «ليبلوكم أيكم أحسن عقلا وأورع عن محارم الله وأسرعكم في طاعة الله».

الخامس: أيهم أصفى قلبًا وأهدى سمتًا. حكاه الماوردي.

السادس: لنختبرهم أيهم أكثر اعتبارًا بها. أفاده الماوردي.

السابع: لنختبرهم في تجافي الحرام منها. أفاده الماوردي.

* قوله تعالى: (صَعِيدًا) ترابًا. (جُرُزًا) الْأَرْضُ الَّتِي لَا نَبَاتَ بِهَا.

(إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الأَرْضِ) من حيوان وجماد، وبساتين وأنهار، ونبات وأشجار، وأموال ومعادن، ومآكل ومشارب ومساكن ومراكب، وغير ذلك من زخارف الدنيا وزينتها.

=

=

وذهب بعض المفسرين: إلى أن قوله (ما على الأرض) مما يصلح أن يكون زينة لها ولأهلها.

والصحيح القول الأول وهو العموم. ورجحه: البغوي، وابن عطية، والرازي، والقرطبي، وابن عاشور، والشنقيطي.

- **قال الشنقيطي**: قله تعالى (إنا جعلنا ما على الأرض زينة لها...) قال الزمخشري في معنى هذه الآية الكريمة: «ما عليها» يعني ما على الأرض مما يصلح أن يكون زينة لها ولأهلها من زخارف الدنيا وما يستحسن منها.

وقال بعض العلماء: كل ما على الأرض زينة لها من غير تخصيص، وعلى هذا القول فوجه كل الحيات وغيرها مما يؤذي زينة للأرض ؛ لأنه يدل على وجود خالقه، واتصافه بصفات الكمال والجلال، ووجود ما يحصل به هذا العلم في شيء زينة له. (أضواء).

(زينة لها) أي: زينة للأرض يتزين بها الناس في هذه الحياة الدنيا.

كما قال تعالى (لمال والبنون زينة الحياة الدنيا).

وقوله (والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة).

وقوله تعالى (زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث ذلك متاع الحياة الدنيا والله عنده حسن المآب).

وقال ﷺ (إن هذه الدنيا حلوة خضرة.....).

(لنبلوهم) اللام للتعليل: أي لأجل أن نختبرهم.

(أيهم أحسن عملا) أيهم أخلص عملا وأصوبه، ولم يقل أكثر عملا، لأن العبرة بالأحسن لا بالأكثر.

(فائدة): قال ﷺ لمعاذ (إني أحبك في الله، فلا تدعن دبر كل صلاة أن تقول: اللهم

=

=

أعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك) رواه أبو داود.

وفي حديث شداد بن أوس قال: سمعت النبي ﷺ يقول (إذا كنز الناس الذهب والفضة فاكنزوا أنتم هؤلاء الكلمات:.... وأسألك شكر نعمتك، وحسن عبادتك..) رواه أحمد.

وكان السلف يوصون بإتقان العمل وتحسينه دون مجرد الإكثار منه، فإن العمل القليل مع التحسين والإتقان أفضل من الكثير مع عدم الإتقان.

قال بعض السلف: إن الرجلين ليقومان في الصف وبين صلاتيهما كما بين السماء والأرض.

قال ابن رجب: والحامل على ذلك أن يعبد العبد ربه كأنه يراه.

وعلم ﷺ معاذا أن يقول (اللهم أعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك).

وقد وصى ﷺ رجلا أن يصلي صلاة مودع، يعني يستشعر أنه يصلي صلاة لا يصلي بعدها صلاة أخرى، فيحمله على ذلك إتقانها وتكميلها وإحسانها.

وقد وردت أحاديث في فضائل الأعمال مقيدة بإحسان العمل.

كما في حديث أبي سعيد الخدري أنه سمع رسول الله ﷺ يقول (إذا أسلم العبد فحسن إسلامه يكفر الله عنه كل سيئة كان زلفها، وكان بعد ذلك القصاص، الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف، والسيئة بمثلها إلا أن يتجاوز الله عنها).

وعن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ (إذا أحسن أحدكم إسلامه، فكل حسنة يعملها تكتب له بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف، وكل سيئة يعملها تكتب له بمثلها) متفق عليه.

وعن عثمان. قال: قال ﷺ (من توضأ فأحسن الوضوء، خرجت خطاياه من جسده..) رواه مسلم.

وعن عبد الله بن بسر قال. قال ﷺ (خير الناس من طال عمره وحسن عمله) رواه

=

=

الترمذي.

وكان السلف يوصون بإتقان العمل وتحسينه دون مجرد الإكثار منه، فإن العمل القليل مع التحسين والإتقان أفضل من الكثير مع عدم الإتقان.

قوله تعالى: {وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا} [الكهف: ٨]

قال ابن عباس:"يقول: يهلك كلّ شيء عليها ويبيد".

قال ابن إسحاق:"يعني: الأرض، إن ما عليها لفان وبائد، وإن المرجع لإليّ، فلا تأس، ولا يحزنك ما تسمع وترى فيها".

قال الجصاص:"فيه بيان أن ما جعله زينة لها من النبات والحيوان وغير ذلك سيجعله صعيدا جرزا".

وفي تفسير «الصعيد»، أقوال:

أحدها: الأرض التي ليس فيها شجر ولا نبات. قاله قتادة.

وقال ابن زيد:"«الجرز»: الأرض التي ليس فيها شيء، ألا ترى أنه يقول: {أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا}، قال: والجرز: لا شيء فيها، لا نبات ولا منفعة".

قال الزجاج:"«الصعيد» الطريق الذي لا نبات فيه".

الثاني: الأرض المستوية، قاله ابن زيد، ومقاتل.

الثالث: هو وجه الأرض لصعوده، قاله ابن قتيبة، والنحاس.

قال النحاس:"الصعيد في اللغة وجه الأرض ومنه قيل للتراب: «صعيد»".

الرابع: أنه التراب، قاله قتادة، وأبان بن تغلب.

وفي تفسير «الجُرُز» أقوال:

أحدها: بلقعًا، قاله مجاهد.

الثاني: ملساء، ليس عليها جبل ولا نبت كما خلقت أول مرة. قاله مقاتل.

=

=

الثالث: محصورة، حكاه الماوردي عن ابن بحر.

الرابع: يعني بالـ «جرز»: الخراب. قاله سعيد بن جبير، وحكاه يحيى بن سلام عن الحسن.

الخامس: أنها اليابسة التي لا نبات بها ولا زرع. وهذا قول قتادة، وابن زيد، وبه قال الزجاج.

قال ابن زيد:"الجرز: الأرض التي ليس فيها شيء، ألا ترى أنه يقول: {أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا}، قال: والجرز: لا شيء فيها، لا نبات ولا منفعة".

قال الزجاج:"«الجرز»: الأرض التي لا تنبت شيئا، كأنها تأكل النبت أكلا، يقال أرض جرز، وأرضون أجراز".

قال أبو عبيدة:"أي غلظا لا ينبت شيئا والجميع أرضون أجراز، ويقال للسنة المجدبة: جرز وسنون أجراز لجدوبها ويبسها وقلّة مطرها، قال ذو الرّمّة:

طوى النّحر والأجراز ما فى عروضها... فما بقيت إلا الصدور الجراشع

وقال:

قد جرّفتهن السّنون الأجراز".

* (وإنا لجاعلون ما عليها) أي: وإنا لمصيرون جميع ما على الأرض من جميع المخلوقات، مما يصلح أن يكون زينة لها ولأهلها من زخارف الدنيا وما يستحسن منها.

- (صعيدا) ترابا.

(جرزا) أي: لا نبات فيها.

كما قال تعالى (أولم يروا أنا نسوق المآء إلى الأرض الجرز فنخرج به زرعا تأكل منه أنعامهم وأنفسهم أفلا يبصرون) أي: اليابسة الجرداء التي لا حياة فيها ولا

=

أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا (٩).

{أَمْ حَسِبْت} أَيْ ظَنَنْت {أَنَّ أَصْحَاب الْكَهْف} الْغَار فِي الْجَبَل {وَالرَّقِيم} اللَّوْح الْمَكْتُوب فِيهِ أَسْمَاؤُهُمْ وَأَنْسَابهمْ وَقَدْ سُئِلَ ﷺ عَنْ قِصَّتهمْ {كَانُوا} فِي قِصَّتهمْ {مِنْ} جُمْلَة {آيَاتنَا عَجَبًا} خَبَر كَانَ وَمَا قَبْله حَال أَيْ كَانُوا عَجَبًا دُون بَاقِي الْآيَات أو أعجبها ليس الأمر كذلك.

إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا (١٠).

اذكر {إِذْ أَوَى الْفِتْيَة إِلَى الْكَهْف} جَمْع فَتًى وَهُوَ الشَّابّ الْكَامِل خَائِفِينَ عَلَى

=

نبات.

- **قال الزمخشري** في تفسير هذه الآية الكريمة (وإنا لجاعلون ما عليها) من هذه الزينة صعيدا جرزا، أي مثل أرض بيضاء لا نبات فيها بعد أن كانت خضراء معشبة، في إزالة بهجته وإماطة حسنه، وإبطال ما به كان زينة من إماتة الحيوان، وتجفيف النبات والأشجار. اهـ

وهذا المعنى المشار إليه هنا جاء مبينا في مواضع أخر:

كقوله (إنما مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض مما يأكل الناس والأنعام حتى إذا أخذت الأرض زخرفها وازينت وظن أهلها أنهم قادرون عليها أتاها أمرنا ليلا أو نهارا فجعلناها حصيدا كأن لم تغن بالأمس كذلك نفصل الآيات لقوم يتفكرون)

وكقوله تعالى (واضرب لهم مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض فأصبح هشيما تذروه الرياح وكان الله على كل شيء مقتدرا) إلى غير ذلك من الآيات. (أضواء البيان).

إيمَانهمْ مِنْ قَوْمهمْ الْكُفَّار {فَقَالُوا رَبّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْك} مِنْ قِبَلك {رَحْمَة وَهَيِّئْ} أَصْلِحْ {لَنَا مِنْ أَمْرنَا رَشَدًا} هِدَايَة.

فَضَرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا (١١).

{فَضَرَبْنَا عَلَى آذَانهمْ} أَيْ أَنَمْنَاهُمْ {فِي الْكَهْف سِنِينَ عَدَدًا} مَعْدُودَة.

ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَى لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا (١٢).

{ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ} أَيْقَظْنَاهُمْ {لِنَعْلَم} عِلْم مُشَاهَدَة {أَيّ الْحِزْبَيْنِ} الْفَرِيقَيْنِ الْمُخْتَلِفَيْنِ فِي مُدَّة لُبْثهمْ {أَحْصَى} أَفْعَل بِمَعْنَى أَضْبَط {لِمَا لَبِثُوا} لِلُبْثِهِمْ مُتَعَلِّق بِمَا بَعْده {أَمَدًا} غَايَة[1].

---

(١) قوله تعالى: {أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا} [الكهف: ٩]

قال الطبري: "يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: أم حسبت يا محمد أن أصحاب الكهف والرقيم كانوا من آياتنا عجبا، فإن ما خلقت من السماوات والأرض، وما فيهنّ من العجائب أعجب من أمر أصحاب الكهف، وحجتي بكل ذلك ثابتة على هؤلاء المشركين من قومك، وغيرهم من سائر عبادي".

وفي قوله تعالى: {كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا} [الكهف: ٩]، وجهان:

أحدهما: أم حسبت يا محمد أن أصحاب الكهف والرقيم كانوا من آياتنا عَجَبا، فإن الذي آتيتك من العلم والحكمة أفضل منه. قاله ابن عباس.

قال ابن عباس: "يقول: الذي آتيتك من العلم والسنة والكتاب أفضل من شأن أصحاب الكهف والرقيم".

الثاني: معناه: أحسبت أنهم أعجب آياتنا وليسوا بأعجب خلقنا، فإن ما خلقت من السماوات والأرض، وما فيهنّ من العجائب أعجب من أمر أصحاب الكهف، =

=

وحجتي بكل ذلك ثابتة على هؤلاء المشركين من قومك، وغيرهم من سائر عبادي. وهذا معنى قول مجاهد، وقتادة، وابن إسحاق.

قال ابن إسحاق:"أي: وما قدروا من قَدْر فيما صنعت من أمر الخلائق، وما وضعت على العباد من حججي ما هو أعظم من ذلك".

قال قتادة:"يقول: قد كان من آياتنا ما هو أعجب من ذلك".

وقال قتادة:"ليسوا بأعجب آياتنا، كانوا من أبناء الملوك".

قال مجاهد:"كانوا يقولون هم عجب".

قال الطبري:"إن القول الأول أولى بتأويل الآية، لأنّ الله ﷻ أنزل قصة أصحاب الكهف على نبيه احتجاجا بها على المشركين من قومه على ما ذكرنا في الرواية عن ابن عباس، إذ سألوه عنها اختبارا منهم له بالجواب عنها صدقه، فكان تقريعهم بتكذيبهم بما هو أوكد عليهم في الحجة مما سألوا عنهم، وزعموا أنهم يؤمنون عند الإجابة عنه أشبه من الخبر عما أنعم الله على رسوله من النعم".

وفي تفسير «الرقيم»، أقوال:

أحدها: أنه اسم القرية التي كانوا منها، قاله كعب، وابن عباس.

الثاني: أنه اسم جبل أصحاب الكهف، رواه ابن جريج عن ابن عباس، وبه قال الحسن.

قال ابن عباس:"قيل: إن اسمه بنجلوس".

روي عن شعيب الجَبئي: "أن اسم جبل الكهف: بناجلوس. واسم الكهف: حيزم. والكلب: حُمران".

الثالث: أنه اسم الوادي، قاله قتادة، والضحاك، وعطية.

وقال ابن عباس:"الرقيم: واد بين عُسْفان وأيَلة دون فلسطين، وهو قريب من أيَلة".

=

=

قال الضحاك:"الكهف: فهو غار الوادي، والرقيم: اسم الوادي".

الرابع: أنه اسم كلبهم. قاله سعيد بن جبير.

الخامس: أن الرقيم الكتاب الذي كتب فيه شأنهم، قاله ابن عباس أيضا، وسعيد بن جبير، ومجاهد، وابن زيد، ومقاتل.

قال القاسم بن سلام:"{الرقيم}: الكتاب بلغة الروم".

قال سعيد بن جبير:"الرقيم: لوح من حجارة كتبوا فيه قصص أصحاب الكهف، ثم وضعوه على باب الكهف".

قال مقاتل:"يعني بـ«الرقيم»: الكتاب الذي كتبه القاضيان مثل قوله- ﷻ-: {كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٍ وَمَا أَدْرَاكَ مَا سِجِّينٌ كِتَابٌ مَرْقُومٌ} [المطففين: ٧ - ٩]، يعني: كتاب مكتوب".

قال الماوردي:"ماخوذ من الرقم في الثوب، وقيل كان الكتاب لوحًا من رصاص على باب الكهف، وقيل في خزائن الملوك لعجيب أمرهم".

السادس: «الرقيم»: الدواة بالرومية، قاله أبو صالح.

السابع: أن «الرقيم»: قوم من أهل الشراة كانت حالهم مثل حال أصحاب الكهف، قاله سعيد بن جبير.

الثامن: أن «الرقيم»: هو رئيسهم. قاله سهل بن عبد الله.

قال ابن عباس:": كل القرآن أعلمه، إلا «حنانا»، و «الأوّاه»، و «الرقي «»".

وقال ابن عباس:"ما أدري ما «الرقيم»، أكتاب، أم بنيان؟".

قال الطبري:"وأولى هذه الأقوال بالصواب في الرقيم أن يكون معنيا به: لوح، أو حجر، أو شيء كُتب فيه كتاب، وقد قال أهل الأخبار: إن ذلك لوح كتب فيه أسماء أصحاب الكهف وخبرهم حين أوَوْا إلى الكهف. ثم قال بعضهم: رُفع ذلك اللوح في خزانة الملك، وقال بعضهم: بل جُعل على باب كهفهم، وقال

=

=

بعضهم: بل كان ذلك محفوظا عند بعض أهل بلدهم، وإنما الرقيم: فعيل، أصله: مرقوم، ثم صُرف إلى فعيل، كما قيل للمجروح: جريح، وللمقتول: قتيل، يقال منه: رقمت كذا وكذا: إذا كتبته، ومنه قيل للرقم في الثوب رقم، لأنه الخطّ الذي يعرف به ثمنه، ومن ذلك قيل للحيَّة: أرقم، لما فيه من الآثار، والعرب تقول: عليك بالرقمة، ودع الضفة: بمعنى عليك برقمة الوادي حيث الماء، ودع الضفة الجانبة. والضفتان: جانبا الوادي، وأحسب أن الذي قال الرقيم: الوادي، ذهب به إلى هذا، أعني به إلى رقمة الوادي".

* قوله تعالى: (أم حسبت أن أصحاب الكهف والرقيم كانوا من آياتنا عجبا) يقول الله لنبيه ﷺ: إن قصة أصحاب الكهف وإن استعظمها الناس وعجبوا منها، فليست شيئا عجبا بالنسبة إلى قدرتنا وعظيم صنعنا، فإن خلقنا للسموات والأرض، وجعلنا ما على الأرض زينة لها، وجعلنا إياها بعد ذلك صعيدا جرزا، أعظم وأعجب مما فعلنا بأصحاب الكهف، ومن كوننا أنمناهم هذا الزمن الطويل، ثم بعثناهم، ويدل لهذا الذي ذكرنا آيات كثيرة:

منها: أنه قال: (إنا جعلنا ما على الأرض زينة لها - إلى قوله - صعيدا جرزا) ثم أتبع ذلك بقوله (أم حسبت أن أصحاب الكهف) فدل ذلك على أن المراد أن قصتهم لا عجب فيها بالنسبة إلى ما خلقنا مما هو أعظم منها.

ومنها: أنه يكثر في القرآن العظيم تنبيه الناس على أن خلق السموات والأرض أعظم من خلق الناس، ومن خلق الأعظم فهو قادر على الأصغر بلا شك:

كقوله تعالى (لخلق السماوات والأرض أكبر من خلق الناس).

وكقوله (أأنتم أشد خلقا أم السماء بناها - إلى قوله - متاعا لكم ولأنعامكم).

ومن خلق هذه المخلوقات العظام: كالسماء والأرض وما فيهما فلا عجب في إقامته أهل الكهف هذه المدة الطويلة، ثم بعثه إياهم، كما هو واضح.... (أضواء

=

=

البيان)

- والكهف: النقب المتسع في الجبل، فإن لم يك واسعا فهو غار.

- قوله تعالى (والرقيم) اختلف فيه:

فقيل: الرقيم اسم كلبهم.

ورجح هذا: ابن جزي، والزمخشري، والقاسمي، والآلوسي.

وقيل: اسم الجبل الذي فيه الكهف، وقيل: اسم للوادي الذي فيه الكهف، والأقوال فيه كثيرة.

والصحيح: أن المراد به اللوح الذي كتبت فيه أسماؤهم وأنسابهم وقصتهم، فيكون الرقيم بمعنى المرقوم.

قال ابن كثير: هذا هو الظاهر من الآية، وترجيح ابن جرير.

ورجح هذا ابن القول: ابن جرير، والسمرقندي، وابن عاشور، والشنقيطي.

- **قال الشنقيطي**: والظاهر أن أصحاب الكهف والرقيم: طائفة واحدة أضيفت إلى شيئين: أحدهما معطوف على الآخر، خلافا لمن قال: إن أصحاب الكهف طائفة، وأصحاب الرقيم طائفة أخرى وأن الله قص علة نبيه في هذه السورة الكريمة قصة أصحاب الكهف ولم يذكر له شيئا عن أصحاب الرقيم: وخلافا لمن زعم أن أصحاب الكهف هم الثلاثة الذين سقطت عليهم صخرة فسدت عليهم باب الكهف الذي هم فيه، فدعوا الله بأعمالهم الصالحة: وهم الابر بوالديه، والعفيف، والمستأجر. وقصتهم مشهورة ثابتة في الصحيح، غلا أن تفسير الآية بأنهم هو المراد - بعيد كما ترى.

- **قال الرازي**: اعلم أن القوم تعجبوا من قصة أصحاب الكهف وسألوا عنها الرسول على سبيل الامتحان فقال تعالى: أم حسبت أنهم كانوا عجبا من آياتنا فقط، فلا تحسبن ذلك فإن آياتنا كلها عجب، فإن من كان قادرا على تخليق

=

=

السموات والأرض ثم يزين الأرض بأنواع المعادن والنبات والحيوان ثم يجعلها بعد ذلك صعيدا جرزا خالية عن الكل كيف يستبعدون من قدرته وحفظه ورحمته حفظ طائفة مدة ثلاثمائة سنة وأكثر في النوم، هذا هو الوجه في تقرير النظم، والله أعلم.

- **وقال ابن الجوزي**: قال المفسرون: معنى الكلام: أحسبت أنهم كانوا أعجب آياتنا؟! قد كان في آياتنا ما هو أعجب منهم، فإن خلق السموات والأرض وما بينهما أعجب من قصتهم.

قوله تعالى: {إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ} [الكهف: ١٠]، أي:"اذكر -أيها الرسول- حين لجأ الشبَّان المؤمنون إلى الكهف؛ خشية من فتنة قومهم لهم، وإرغامهم على عبادة الأصنام".

قال الزجاج:"معنى: «أووا إليه»: صاروا إليه وجعلوه مأواهم، و «الفتية» جمع «فتى» مثل: غلام وغلمة".

واختلف في سبب إيوائهم إلى «الكهف» على ثلاثة أقوال:

أحدها: أن أصحاب الكهف كانوا "أبناء عظماء مدينتهم، وأهل شرفهم، فخرجوا فاجتمعوا وراء المدينة على غير ميعاد، فقال رجل منهم هو أسنهم: إني لأجد في نفسي شيئا ما أظنُّ أن أحدا يجده، قالوا: ماذا تجد؟ قال: أجد في نفسي أن ربي ربّ السماوات والأرض، وقالوا: نحن نجد، فقاموا جميعا، فقالوا: {رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ لَنْ نَدْعُوَ مِنْ دُونِهِ إِلَهًا لَقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا} فاجتمعوا أن يدخلوا الكهف، وعلى مدينتهم إذ ذاك جبار يقال له دقينوس، فلبثوا في الكهف ثلاث مئة سنين وازدادوا تسعا رقدا. قاله مجاهد، وعبد الله بن عبيد بن عمير.

قال عبد الله بن عبيد بن عمير: "كان أصحاب الكهف فتيانا ملوكا مُطَوّقين مُسَوّرين ذوي ذوائب، وكان معهم كلب صيدهم، فخرجوا في عيد لهم عظيم في

=

=

زيّ وموكب، وأخرجوا معهم آلهتم التي يعبدون، وقذف الله في قلوب الفتية الإيمان فآمنوا، وأخفى كلّ واحد منهم الإيمان عن صاحبه، فقالوا في أنفسهم من غير أن يظهر إيمان بعضهم لبعض: نخرج من بين أظهر هؤلاء القوم لا يصيبنا عقاب بجرمهم، فخرج شاب منهم حتى انتهى إلى ظلّ شجرة، فجلس فيه، ثم خرج آخر فرآه جالسا وحده، فرجا أن يكون على مثل أمره من غير أن يظهر منه، فجاء حتى جلس إليه، ثم خرج الآخرون، فجاؤوا حتى جلسوا إليهما، فاجتمعوا، فقال بعضهم: ما جمعكم؟ وقال آخر: بل ما جمعكم؟ وكل يكتم إيمانه من صاحبه مخافة على نفسه، ثم قالوا: ليخرج منكم فَتَيان، فيخْلُوَا، فيتواثقا أن لا يفشيَ واحد منهما على صاحبه، ثم يفشي كل واحد منهما لصاحبه أمره، فإنا نرجو أن نكون على أمر واحد، فخرج فتيان منهم فتواثقا، ثم تكلما، فذكر كل واحد منهما أمره لصاحبه، فأقبلا مستبشرَين إلى أصحابهما قد اتفقا على أمر واحد، فإذا هم جميعا على الإيمان، وإذا كهف في الجبل قريب منهم، فقال بعضهم لبعض: ائتوا إلى الكهف {يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيُهَيِّئْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مِرفَقًا} فدخلوا الكهف، ومعهم كلب صيدهم فناموا، فجعله الله عليهم رقدة واحدة، فناموا ثلاث مئة سنين وازدادوا تسعا، قال: وفقدهم قومُهم فطلبوهم وبعثوا البرد، فعمى الله عليهم آثارهم وكهفهم، فلما لم يقدروا عليهم كتبوا أسماءهم وأنسابهم في لوح: فلان ابن فلان، وفلان ابن فلان أبناء ملوكنا، فَقَدناهم في عيد كذا وكذا في شهر كذا وكذا في سنة كذا وكذا، في مملكة فلان ابن فلان، ورفعوا اللوح في الخزانة، فمات ذلك الملك وغلب عليهم ملك مسلم مع المسلمين، وجاء قرن بعد قرن، فلبثوا في كهفهم ثلاث مئة سنين وازدادوا تسعا".

الثاني: أنه كان مصيرهم إلى الكهف هربا من طلب سلطان كان طلبهم بسبب دَعوى جناية ادّعى على صاحب لهم أنه جناها. وهذا قول وهب بن منبه.

=

=

الثالث: أنهم كانوا مسلمين على دين عيسى، وكان لهم ملك عابد وَثَن، دعاهم إلى عبادة الأصنام، فهربوا بدينهم منه خشية أن يفتنهم عن دينهم، أو يقتلهم، فاستخفوا منه في الكهف، قاله ابن عباس وزدناه

، والحسن، وعمرو، وابن إسحاق.

قوله تعالى: {فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً} [الكهف: ١٠]، أي:"ربنا أعطنا مِن عندك رحمة، تثبتنا بها، وتحفظنا من الشر".

قال مقاتل:"يعني: رزقا".

قال الزجاج:"أي: أعطنا من عندك رحمة، أي: مغفرة ورزقا".

قوله تعالى: {وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا} [الكهف: ١٠]، أي:"ويسِّر لنا الطريق الصواب الذي يوصلنا إلى العمل الذي تحب، فنكون راشدين غير ضالين".

قال مقاتل:"يعني: تيسيرا".

قال الزجاج:"أي: أرشدنا إلى ما يقرب منك ويزلف عندك".

قال يحيى بن سلام:"كانوا قوما قد آمنوا، فروا بدينهم من قومهم، وإن قومهم على الكفر وخشوا على أنفسهم القتل".

* (إذ أوى الفتية إلى الكهف) أي: اذكر حين التجأ الشبان إلى الغار في الجبل، وجعلوه مأواهم.

(فقالوا ربنا آتنا من لدنك رحمة) أي: فقالوا حين دخلوا الكهف ربنا أعطنا وهب لنا من عندك رحمة ترحمنا بها، وتثبتنا بها على ديننا، وتحفظنا بها عن قومنا.

والرحمة هنا: تشمل الرزق والهدى والحفظ مما هربوا خائفين منه من أذى قومهم والمغفرة.

- **قال ابن عاشور**:... ودعوا الله أن يؤتيهم رحمة من لدنه، وذلك جامع لخير الدنيا والآخرة، أي أن يمن عليهم برحمة عظيمة تناسب عنايته باتباع الدين الذي

=

=

أمر به، فزيادة من لدنك للتعلق بفعل الإيتاء تشير إلى ذلك، لأن في (من) معنى الابتداء وفي (لدن) معنى العندية والانتساب إليه، فذلك أبلغ مما لو قالوا: آتنا رحمة، لأن الخلق كلهم بمحل الرحمة من الله، ولكنهم سألوا رحمة خاصة وافرة في حين توقع ضدها، وقصدوا الأمن على إيمانهم من الفتنة، ولئلا يلاقوا في اغترابهم مشقة وألما، وأن لا يهينهم أعداء الدين فيصيروا فتنة للقوم الكافرين... ثم سألوا الله أن يقدر لهم أحوالا تكون عاقبتها حصول ما خولهم من الثبات على الدين الحق والنجاة من مناوأة المشركين. فعبر عن ذلك التقدير بالتهيئة التي هي إعداد أسباب حصول الشيء.

- **قال الآلوسي**: قوله (من لدنك) إيماء إلى أن ذلك من باب التفضل لا الوجوب فكأنهم قالوا ربنا تفضل علينا برحمة.

- **قال الرازي**: أي رحمة من خزائن رحمتك وجلائل فضلك وإحسانك وهي الهداية بالمعرفة والصبر والرزق والأمن من الأعداء.

- **قال القرطبي**: هذه الآية صريحة في الفرار بالدين وهجرة الأهل والبنين والقرابات والأصدقاء والأوطان والأموال خوف الفتنة وما يلقاه الإنسان من المحنة.

وقد خرج النبي ﷺ فارا بدينه، وجلس في الغار.

وكذلك أصحابه، وهجروا أوطانهم وتركوا أرضهم وديارهم وأهاليهم وأولادهم وقراباتهم وإخوانهم، رجاء السلامة بالدين والنجاة من فتنة الكافرين.

فسكنى الجبال ودخول الغيران، والعزلة عن الخلق والانفراد بالخالق، وجواز الفرار من الظالم هي سنة الأنبياء صلوات الله عليهم والأولياء.

وقد فضل رسول الله ﷺ العزلة، وفضلها جماعة العلماء لا سيما عند ظهور الفتن وفساد الناس، وقد نص الله تعالى عليها في كتابه فقال (فأووا إلى الكهف).

=

=

قال العلماء: الاعتزال عن الناس يكون مرة في الجبال والشعاب، ومرة في السواحل والرباط، ومرة في البيوت؛ وقد جاء في الخبر: "إذا كانت الفتنة فأخف مكانك وكف لسانك"، ولم يخص موضعا من موضع.

وقال عقبة بن عامر لرسول الله ﷺ: ما النجاة يا رسول الله؟ فقال (يا عقبة أمسك عليك لسانك وليسعك بيتك وابك على خطيئتك) رواه الترمذي.

وقال ﷺ (يأتي على الناس زمان خير مال الرجل المسلم الغنم يتبع بها شعف الجبال ومواقع القطر يفر بدينه من الفتن) رواه البخاري.

قلت: أحوال الناس في هذا الباب تختلف، فرب رجل تكون له قوة على سكنى الكهوف والغيران في الجبال، وهي أرفع الأحوال لأنها الحالة التي اختارها الله لنبيه ﷺ في بداية أمره، ونص عليها في كتابه مخبرا عن الفتية، فقال (وإذ اعتزلتموهم وما يعبدون إلا الله فأووا إلى الكهف).

ورب رجل تكون العزلة له في بيته أخف عليه وأسهل؛ وقد اعتزل رجال من أهل بدر فلزموا بيوتهم بعد قتل عثمان فلم يخرجوا إلا إلى قبورهم.

ورب رجل متوسط بينهما فيكون له من القوة ما يصبر بها على مخالطة الناس وأذاهم، فهو معهم في الظاهر ومخالف لهم في الباطن.

وذكر ابن المبارك حدثنا وهيب بن الورد قال: جاء رجل إلى وهب بن منبه فقال: إن الناس وقعوا فيما فيه وقعوا وقد حدثت نفسي ألا أخالطهم.

فقال: لا تفعل! إنه لا بد لك من الناس، ولا بد لهم منك، ولك إليهم حوائج، ولهم إليك حوائج، ولكن كن فيهم أصم سميعا، أعمى بصيرا، سكوتا نطوقا.

وقد قيل: إن كل موضع يبعد عن الناس فهو داخل في معنى الجبال والشعاب؛ مثل الاعتكاف في المساجد، ولزوم السواحل للرباط والذكر، ولزوم البيوت فرارا عن شرور الناس.

=

=

وإنما جاءت الأحاديث بذكر الشعاب والجبال واتباع الغنم والله أعلم لأن ذلك هو الأغلب في المواضع التي يعتزل فيها؛ فكل موضع يبعد عن الناس فهو داخل في معناه؛ كما ذكرنا، والله الموفق وبه العصمة.... (تفسير القرطبي)

(وهيئ لنا من أمرنا رشدا) أي: يسر وسهل لنا من شأننا صوابا وتوفيقا للحق، واجعل عاقبتنا ومآل أمرنا رشدا وخيرا.

- **قال السعدي**: فجمعوا بين السعي والفرار من الفتنة، إلى محل يمكن الاستخفاء فيه، وبين تضرعهم وسؤالهم الله تيسير أمورهم، وعدم اتكالهم على أنفسهم وعلى الخلق، فلذلك استجاب الله دعاءهم وقيض لهم ما لم يكن في حسابهم.

- **قال ابن عاشور**: والرشد بفتحتين: الخير وإصابة الحق والنفع والصلاح.

- **قال الشنقيطي**: والتهيئة: التقريب والتيسير: اي يسر لنا وقرب لنا من أمرنا رشدا. والرشد: الاهتداء والديمومة عليه.

- واعلم أن قصة أصحاب الكهف وأسماؤهم، وفي اي محل من الأرض كانوا - كل ذلك لم يثبت فيه عن النبي ﷺ شيء زائد على ما في القرآن، وللمفسرين في ذلك أخبار كثيرة إسرائيلية أعرضنا عن ذكرها لعدم الثقة بها. (أضواء).

قوله تعالى: {فَضَرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ} [الكهف: ١١]، أي:"فألقينا عليهم النوم العميق في الكهف".

قال ابن قتيبة:"أي أنمناهم. ومثله قول أبي ذر: «قد ضرب الله على أصمختهم»".

قال الطبري:"أي: ألقينا عليهم النوم، كما يقول القائل لآخر: ضربك الله بالفالج، بمعنى ابتلاه الله به، وأرسله عليه".

قال الزجاج:"أي: منعناهم - أن يسمعوا، لأن النائم - إذا سمع انتبه. فالمعنى أنمناهم، ومنعناهم السمع".

قوله تعالى: {سِنِينَ عَدَدًا} [الكهف: ١١]، أي:"فبقوا في الكهف سنين كثيرة".

=

=

قال الطبري:"يعني: سنين معدودة".

قال الفراء:"العدد هاهنا في معنى معدودة".

قال الأخفش:"أي: نعدها عددا".

وفي قوله تعالى: {سِنِينَ عَدَدًا} [الكهف: ١١]، وجهان:

أحدهما: إحصاء.

الثاني: سنين كاملة ليس فيها شهور ولا أيام.

قال مقاتل:"يعنى: ثلاثمائة سنة وتسع سنين".

قال ابن عباس:"غزونا مع معاوية غزوة المضيق نحو الروم فمررنا بالكهف الذي فيه أصحاب الكهف الذي ذكر الله في القرآن، فقال معاوية: لو كشف لنا عن هؤلاء فنظرنا إليهم! فقال له ابن عباس: ليس ذلك لك، قد منع الله ذلك عمن هو خير منك. فقال: لو اطلعت عليهم لوليت منهم فرارا ولملئت منهم رعبا فقال معاوية: لا أنتهي حتي أعلم علمهم. فبعث رجالا فقال: اذهبوا فادخلوا الكهف فانظروا. فذهبوا، فلما دخلوا الكهف بعث الله عليهم ريحا فأخرجتهم. فبلغ ذلك ابن عباس فأنشأ يحدث عنهم فقال: إنهم كانوا في مملكة ملك من الجبابرة يعبد الأوثان، وقد أجبر الناس على عبادتها، وكان هؤلاء الفتية في المدينة، فلما رأوا ذلك خرجوا من تلك المدينة فجمعهم الله على غير ميعاد، فجعل بعضهم يقول لبعض: أين تريدون؟ أين تذهبون!؟ فجعل بعضهم يخفي على بعض لأنه لا يدري هذا على ما خرج هذا، ولا يدري هذا. فأخذوا العهود والمواثيق إن يخبر بعضهم بعضا، فإن اجتمعوا على شيء وإلا كتم بعضهم بعضا. فاجتمعوا على كلمة واحدة: {فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ}.... إلى قوله: {مِرْفَقًا}، قال: فقعدوا فجاء أهلهم يطلبونهم لا يدرون أين ذهبوا، فرفع أمرهم إلى الملك فقال: ليكونن لهؤلاء القوم بعد اليوم شأن... ناس خرجوا لا يدرى أين ذهبوا في

=

=

غير خيانة ولا شيء يعرف... !! فدعا بلوح من رصاص فكتب فيه أسماءهم ثم طرح في خزانته. فذلك قول الله أم حسبت إن أصحاب الكهف والرقيم والرقيم، هو اللوح الذي كتبوا. فانطلقوا حتى دخلوا الكهف فضرب الله على آذانهم فقاموا. فلو إن الشمس تطلع عليهم لأحرقتهم، ولولا أنهم يقلبون لأكلتهم الأرض. ذلك قول الله: {وَتَرَى الشَّمْس....} الآية. قال: ثم إن ذلك الملك ذهب وجاء ملك آخر فعبد الله وترك تلك الأوثان، وعدل في الناس، فبعثهم الله لما يريد، قال قائل منهم كم لبثتم فقال بعضهم: يوما. وقال بعضهم يومين. وقال بعضهم: أكثر من ذلك. فقال كبيرهم: لا تختلفوا، فإنه لم يختلف قوم قط إلا هلكوا، فابعثوا أحدكم بورقكم هذه إلى المدينة. فرأي شارة أنكرها ورأى بنيانا أنكره، ثم دنا إلى خباز فرمى إليه بدرهم وكانت دراهمهم كخفاف الربع- يعني ولد الناقة- فأنكر الخباز الدرهم فقال: من أين لك هذا الدرهم؟ لقد وجدت كنزا لتدلني عليه أو لأرفعنك إلى الأمير. فقال: أو تخوفني بالأمير؟ وأتى الدهقان الأمير، قال: من أبوك؟ قال: فلان. فلم يعرفه. قال: فمن الملك؟ قال: فلان. فلم يعرفه، فاجتمع عليهم الناس فرفع إلى عالمهم فسأله فأخبره فقال: علي باللوح، فجيء به فسمى أصحابه فلانا وفلانا. وهم مكتوبون في اللوح، فقال للناس: إن الله قد دلكم على إخوانكم. وانطلقوا وركبوا حتى أتوا إلى الكهف، فلما دنوا من الكهف قال الفتى: مكانكم أنتم حتى أدخل أنا على أصحابي، ولا تهجموا فيفزعون منكم وهم لا يعلمون إن الله قد أقبل بكم وتاب عليكم. فقالوا: لتخرجن علينا قال: نعم إن شاء الله. فدخل فلم يدروا أين ذهب، وعمي عليهم فطلبوا وحرضوا فلم يقدروا على الدخول عليهم فقالوا لنتخذن عليهم مسجدا فاتخذوا عليهم مسجدا فجعلوا يصلون عليهم ويستغفرون لهم". وإسناد صحيح كما قال الحافظ في التغليق (٤/ ٢٤٦).

* (فضربنا على آذانهم في الكهف سنين عددا) أي: أنمناهم نوما عميقا في الكهف

=

=

بحيث لا يسمعون من حولهم.

قال المفسرون: معناه أنمناهم وتقدير الكلام أنه تعالى ضرب على آذانهم حجابا يمنع من أن تصل إلى أسماعهم الأصوات الموقظة.

- **قال الشنقيطي**: وضربه جل وعلا على آذانهم في هذه الآية كناية عن كونه أنامهم ومفعول " ضربنا " محذوف، أي ضربنا على آذانهم حجابا مانعا من السماع فلا يسمعون شيئا يوقظهم. والمعنى: أنمناهم إنامة ثقيلة لا تنبههم فيها الأصوات.

(سنين عددا) أي: استمروا في نومهم العميق هذا (سنين) ذات عدد كثير، بينها سبحانه بعد ذلك في قوله (ولبثوا في كهفهم....

- قال الزجاج: المعنى: أنمناهم ومنعناهم السمع، لأن النائم إذا سمع انتبه.

- **قال الماوردي**: قوله ﷻ (فضربنا على آذانهم في الكهف سنين عددا) والضرب على الآذان هو المنع من الاستماع، فدل بهذا على أنهم لم يموتوا وكانوا نياما.

- قال ابن عطية: وأما تخصيص " الآذان " بالذكر فلأنها الجارحة التي منها عظم فساد النوم، وقلما ينقطع نوم نائم إلا من جهة أذنه، ولا يستحكم نوم إلا مع تعطل السمع، ومن ذكر الأذن في النوم قوله ﷺ : ذلك رجل بال الشيطان في أذنه " أشار عليه السلام إلى رجل طويل النوم لا يقوم بالليل.

قوله تعالى: {ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَى لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا} [الكهف: ١٢]

قال الطبري:"ثم بعثنا هؤلاء الفتية الذين أوَوْا إلى الكهف بعد ما ضربنا على آذانهم فيه سنين عددا من رقدتهم، لينظر عبادي فيعلموا بالبحث، أيُّ الطائفتين اللتين اختلفتا في قدر مبلغ مكث الفتية في كهفهم رقودا: {أَحْصَى لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا} يقول: أصوب لقدر لبثهم فيه أمدا، ويعني بالأمد: الغاية، كما قال النابغة:

إلا لِمِثْلِكَ أوْ مَنْ أنْتَ سابِقُهُ... سَبْقَ الجَوَادِ إذا اسْتَوْلَى على الأمَدِ".

وفي «الحزبين»، أقوال:

=

=

أحدها: أن الحزبين هما المختلفان في أمرهم من قوم الفتية، قاله مجاهد.

الثاني: أن أحد الحزبين الفتية.

والثاني: من حضرهم من أهل ذلك الزمان.

الثالث: أن أحد الحزبين مؤمنون، والآخر كفار.

الرابع: أن أحد الحزبين الله تعالى، والآخر الخلق، وتقديره: أنتم أعلم أم الله.

قال قتادة:"ما كان لواحد من الفريقين علم، لا لكفارهم ولا لمؤمنيهم".

وفي قوله تعالى: {أَمَدًا} [الكهف: ١٢]، وجهان:

أحدهما: معناه: بعيدا. قاله ابن عباس.

الثاني: معناه: عددا. قاله مجاهد.

قال الزجاج:"«الأمد»: الغاية.. المعنى: أيّ الحزبين أحصى للبثهم في الأمد".

* (ثم بعثناهم لنعلم أي الحزبين أحصى لما لبثوا أمدا) أي: ثم أيقظناهم بعد نومهم الطويل.

- **قال الماوردي**: يعني بالعبث إيقاظهم من رقدتهم.

- قال ابن الجوزي: (ثم بعثناهم) من نومهم، يقال لكل من خرج من الموت إلى الحياة، أو من النوم إلى الانتباه: مبعوث، لأنه قد زال عنه ما كان يحبسه عن التصرف والانبعاث.

(لنعلم أي الحزبين أحصى لما لبثوا أمدا) بيان للحكمة التي من أجلها أيقظهم الله من نومهم.

وقد اختلفوا في الحزبين:

فقيل: أصحاب الكهف، وأهل المدينة الذين أيقظ الله أهل الكهف من رقاهم في عهدهم.

وقيل: هما حزبان من المؤمنين كانوا موجودين في زمن بعث هؤلاء الفتية.

=

نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُمْ بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى (١٣).
{نَحْنُ نَقُصّ} نَقْرَأ {عَلَيْك نَبَأَهُمْ بِالْحَقِّ} بِالصِّدْقِ {إنهم فتية آمنوا بربهم

=

- قال ابن عطية:.... والظاهر من الآية أن الحزب الواحد هم الفتية، إذ ظنوا لبثهم قليلا، والحزب الثاني هم أهل المدينة الذين بعث الفتية على عهدهم حين كان عندهم التاريخ بأمر الفتية، وهذا قول الجمهور من المفسرين.

- **قال الشنقيطي**:... وإذا علمت ذلك فاعلم أنه تعالى هنا في هذه الآية الكريمة بين من حكم بعثهم إظهاره للناس: اي الحزبين أحصى لما لبثوا أمدا. وقد بين لذلك حكما أخر في غير هذا الموضع.

منها: أن يتساءلوا عن مدة لبثهم، كقوله (وكذلك بعثناهم ليتسآءلوا بينهم).

ومنها: إعلام الناس أن البعث حق، وأن الساعة حق لدلالة قصة أصحاب الكهف على ذلك. وذلك في قوله: (وكذلك أعثرنا عليهم ليعلموا أن وعد الله حق وأن الساعة لا ريب فيها).

فإن قيل: أي فائدة مهمة في معرفة الناس للحزب المحصى أمد اللبث من غيره، حتى يكون علة غائية لقوله (ثم بعثناهم لنعلم) الآية؟ وأي فائدة مهمة في مساءلة بعضهم بعضا، حتى يكون علة غائية لقوله (وكذلك بعثناهم ليتسآءلوا بينهم)؟.

فالجواب - أنا لم نر من تعرض لهذا. والذي يظهر لنا -والله تعالى أعلم- أن ما ذكر من إعلام الناس بالحزب الذي هو أحصى أمدا لما لبثوا، ومساءلة بعضهم بعضا عن ذلك، يلزمه أن يظهر للناس حقيقة أمر هؤلاء الفتية، وأن الله ضرب على آذانهم في الكهف ثلاثمائة سنين وازدادوا تسعا ثم بعثهم أحياء طرية أبدانهم. لم يتغير لهم حال. وهذا من غريب صنعه جل وعلا الدال على كمال قدرته، وعلى البعث بعد الموت. ولاعتبار هذا اللازم جعل ما ذكرنا علة غائية والله تعالى أعلم.... (أضواء).

وزدناهم هدى}.

وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَنْ نَدْعُوَ مِنْ دُونِهِ إِلَهًا لَقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا (١٤).

{وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبهمْ} قَوَّيْنَاهَا عَلَى قَوْل الْحَقّ {إِذْ قَامُوا} بَيْن يَدَيْ مَلِكهمْ وَقَدْ أَمَرَهُمْ بالسجود للأصنام {فقالوا ربنا رب السماوات وَالْأَرْض لَنْ نَدْعُوَ مِنْ دُونه} أَيْ غَيْره {إِلَهًا لَقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا} أَيْ قَوْلًا ذَا شَطَط أَيْ إِفْرَاط فِي الْكُفْر إِنْ دَعَوْنَا إِلَهًا غَيْر الله فَرْضًا.

هَؤُلَاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِمْ بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِبًا (١٥).

{هَؤُلَاءِ} مُبْتَدَأ {قَوْمنَا} عَطْف بَيَان {اتَّخَذُوا مِنْ دُونه آلِهَة لَوْلَا} هَلَّا {يَأْتُونَ عَلَيْهِمْ} عَلَى عِبَادَتهمْ {بِسُلْطَانٍ بَيِّن} بِحُجَّةٍ ظَاهِرَة {فَمَنْ أَظْلَم} أَيْ لَا أَحَد أَظْلَم {مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى الله كَذِبًا} بِنِسْبَةِ الشَّرِيك إِلَيْهِ تَعَالَى قَالَ بَعْض الْفِتْيَة لِبَعْضٍ[1].

---

(١) قوله تعالى: {نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُمْ بِالْحَقِّ} [الكهف: ١٣]، أي:"نحن نقصُّ عليك -أيها الرسول- خبرهم بالصدق".

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: نحن يا محمد نقص عليك خبر هؤلاء الفتية الذين أَوَوْا إلى الكهف بالحق، يعني: بالصدق واليقين الذي لا شك فيه".

قوله تعالى: {إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ} [الكهف: ١٣]، أي:"إن أصحاب الكهف شُبَّان صدَّقوا ربهم وامتثلوا أمره".

قال مقاتل:"يعني: صدقوا بتوحيد ربهم".

=

=

قال الطبري:"يقول: إن الفتية الذين أَوَوْا إلى الكهف الذين سألك عن نبئهم الملأ من مشركي قومك، فتية آمنوا بربهم".

قال ابن كثير:"أي: اعترفوا له بالوحدانية، وشهدوا أنه لا إله إلا هو، ذكر تعالى أنهم فتية - وهم الشباب - وهم أقبل للحق، وأهدى للسبيل من الشيوخ، الذين قد عتوا وعَسَوا في دين الباطل؛ ولهذا كان

أكثر المستجيبين لله ولرسوله ﷺ شبابًا. وأما المشايخ من قريش، فعامتهم بَقُوا على دينهم، ولم يسلم منهم إلا القليل. وهكذا أخبر تعالى عن أصحاب الكهف أنهم كانوا فتية شبابًا".

قال سهل: إنما سماهم «فتية»، لأنهم آمنوا به بلا واسطة، وقاموا إليه بإسقاط العلائق عن أنفسهم".

قال مجاهد: "بلغني أنه كان في آذان بعضهم القرطة"، يعني: "الحَلَق، فألهمهم الله رشدهم وآتاهم تقواهم".

قال ابن عباس: "ما بعث الله نبيا إلا وهو شاب، ولا أوتي العلم عالم إلا وهو شاب وقرأ: {قالوا سمعنا فتى يذكرهم يقال له إبراهيم}، {وإذ قال موسى لفتاه}، {إنهم فتية آمنوا بربهم}".

قوله تعالى: {وَزِدْنَاهُمْ هُدًى} [الكهف: ١٣]، أي:"وزِدْناهم هدى وثباتًا على الحق".

قال الربيع:"إخلاصا".

قال يحيى بن سلام:"يعني: إيمانا".

قال سهل: "أي: بصيرة في الإيمان".

قال مقاتل:"حين فارقوا قومهم".

قال الطبري:"يقول: وزدناهم إلى إيمانهم بربهم إيمانا، وبصيرة بدينهم، حتى

=

=

صبروا على هجران دار قومهم، والهرب من بين أظهرهم بدينهم إلى الله، وفراق ما كانوا فيه من خفض العيش ولينه، إلى خشونة المكث في كهف الجبل".

قال الشافعي رحمه الله: ولو كان هذا الإيمان كله واحدا لا نقصان فيه ولا زيادة، لم يكن لأحد فيه فضل، واستوى الناس، وبطل التفضيل، ولكن بتمام الإيمان دخل المؤمنون الجنة، وبالزيادة في الإيمان تفاضل المؤمنون بالدرجات عند الله في الجنة، وبالنقصان من الإيمان دخل المفرطون النار".

وقوَّينا قلوبهم بالإيمان، وشددنا عزيمتهم به، حين قاموا بين يدي الملك الكافر، وهو يلومهم على تَرْكِ عبادة الأصنام فقالوا له: ربنا الذي نعبده هو رب السموات والأرض، لن نعبد غيره من الآلهة، لو قلنا غير هذا لكُنَّا قد قلنا قولا جائرًا بعيدًا عن الحق.

* قوله تعالى: (نحن نقص عليك نبأهم بالحق) أي: نحن يا محمد نقص ونقرأ عليك يا محمد خبرهم بالحق الثابت والصدق المطابق للواقع.

- **قال ابن عاشور**: والنبأ: الخبر الذي فيه أهمية وله شأن.

(إنهم فتية) أي: شباب.

(آمنوا بربهم) أي: آمنوا وصدقوا بالله تعالى، وانقادوا لشرعه.

قال ابن كثير:.... ذكر تعالى أنهم فتية وهم الشباب، وهم أقبل للحق وأهدى للسبيل من الشيوخ الذين قد عتوا وانغمسوا في دين الباطل، ولهذا كان أكثر المستجيبين لله تعالى ولرسوله ﷺ شبابا، وأما المشايخ من قريش، فعامتهم بقوا على دينهم ولم يسلم منهم إلا القليل. وهكذا أخبر تعالى عن أصحاب الكهف أنهم كانوا فتية شبابا، وقال مجاهد: بلغني أنه كان في آذان بعضهم القرطة يعني الحلق، فألهمهم الله رشدهم وآتاهم تقواهم، فآمنوا بربهم أي اعترفوا له بالوحدانية، وشهدوا أنه لا إله إلا هو وزدناهم هدى.

=

=

(وزدناهم هدى) أي: وزدناهم هداية على هدايتهم وإيمانا على إيمانهم بسبب هذا إخلاص لله تبارك وتعالى.

- قال ابن عطية: أي يسرناهم للعمل الصالح والانقطاع إلى الله ﷻ ومباعدة الناس والزهد في الدنيا، وهذه زيادات على الإيمان.

- ويفهم من هذه الآية الكريمة أن من آمن بربه وأطاعه زاده ربه هدى ؛ لأن الطاعة سبب للمزيد من الهدى والإيمان.

وهذا المفهوم من هذه الآية الكريمة جاء مبينا في مواضع أخر:

كقوله تعالى (والذين اهتدوا زادهم هدى وآتاهم تقواهم).

وقوله: والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا).

وقوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا إن تتقوا الله يجعل لكم فرقانا).

وقوله (فأما الذين آمنوا فزادتهم إيمانا وهم يستبشرون).

وقوله تعالى (هو الذي أنزل السكينة في قلوب المؤمنين ليزدادوا إيمانا مع إيمانهم).

وقوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وآمنوا برسوله يؤتكم كفلين من رحمته ويجعل لكم نورا تمشون به. (أضواء).

قوله تعالى: {وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ} [الكهف: ١٤]، أي:"وقوَّينا قلوبهم بالإيمان، وشددنا عزيمتهم به".

قال الطبري:"يقول عز ذكره: وألهمناهم الصبر، وشددنا قلوبهم بنور الإيمان حتى عزفت أنفسهم عما كانوا عليه من خفض العيش".

عن قتادة:"{وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ}، يقول: بالإيمان".

قال النحاس:"أي: شددناها حتى قالوا بين يدي الكفار: {ربنا رب السماوات والأرض لن ندعوا من دونه إلها لقد قلنا إذا شططا}".

=

=

قال ابن كثير:"يقول تعالى: وصَبَّرناهم على مخالفة قومهم ومدينتهم، ومفارقة ما كانوا فيه من العيش الرغيد والسعادة والنعمة".

قوله تعالى: {إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ} [الكهف: ١٤]، أي:"حين قاموا بين يدي الملك الكافر، وهو يلومهم على تَرْكِ عبادة الأصنام فقالوا له: ربنا الذي نعبده هو رب السموات والأرض".

قال الطبري:"يقول: حين قاموا بين يدي الجبار دقينوس، فقالوا له إذ عاتبهم على تركهم عبادة آلهته {رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ}، يقول: قالوا ربنا ملك السماوات والأرض وما فيهما من شيء، وآلهتك مربوبة، وغير جائز لنا أن نترك عبادة الربّ ونعبد المربوب".

قوله تعالى: {لَنْ نَدْعُوَ مِنْ دُونِهِ إِلَهًا} [الكهف: ١٤]، أي:"لن نعبد غيره من الآلهة".

قال الطبري:"يقول: لن ندعو من دون ربّ السموات والأرض إلها، لأنه لا إله غيره، وإن كلّ ما دونه فهو خلقه".

قال ابن كثير:"«لن»: لنفي التأبيد، أي: لا يقع منا هذا أبدًا؛ لأنا لو فعلنا ذلك لكان باطلا، فإنه قد ذكر غير واحد من المفسرين من السلف والخلف أنهم كانوا من أبناء ملوك الروم وسادتهم، وأنهم خرجوا يومًا في بعض أعياد قومهم، وكان لهم مجتمع في السنة يجتمعون فيه في ظاهر البلد، وكانوا يعبدون الأصنام والطواغيت، ويذبحون لها، وكان لهم ملك جبار عنيد يقال له: "دقيانوس"، وكان يأمر الناس بذلك ويحثهم عليه ويدعوهم إليه. فلما خرج الناس لمجتمعهم ذلك، وخرج هؤلاء الفتية مع آبائهم وقومهم، ونظروا إلى ما يصنع قومهم بعين بصيرتهم، عرفوا أن هذا الذي يصنعه قومهم من السجود لأصنامهم والذبح لها، لا ينبغي إلا لله الذي خلق السموات والأرض. فجعل كل واحد منهم يتخلص من قومه، وينحاز

=

=

منهم ويتبرز عنهم ناحية. فكان أول من جلس منهم وحده أحدهم، جلس تحت ظل شجرة، فجاء الآخر فجلس عنده، وجاء الآخر فجلس إليهما، وجاء الآخر فجلس إليهم، وجاء الآخر، وجاء الآخر، وجاء الآخر، ولا يعرف واحد منهم الآخر، وإنما جمعهم هناك الذي جمع قلوبهم على الإيمان، كما جاء في الحديث الذي رواه البخاري تعليقًا، من حديث يحيى بن سعيد، عن عمرة، عن عائشة، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، قالت: قال رسول الله ﷺ: «الأرواح جنود مُجَنَّدة، فما تعارف منها ائتلف، وما تناكر منها اختلف». والناس يقولون: الجنسية علة الضم.

والغرض أنه جعل كل أحد منهم يكتم ما هو فيه عن أصحابه، خوفًا منهم، ولا يدري أنهم مثله، حتى قال أحدهم: تعلمون - والله يا قوم - إنه ما أخرجكم من قومكم وأفردكم عنهم، إلا شيء فليظهر كل واحد منكم بأمره. فقال آخر: أما أنا فإني والله رأيت ما قومي عليه، فعرفت أنه باطل، وإنما الذي يستحق أن يعبد وحده ولا يشرك به شيء هو الله الذي خلق كل شيء: السموات والأرض وما بينهما. وقال الآخر: وأنا والله وقع لي كذلك. وقال الآخر كذلك، حتى توافقوا كلهم على كلمة واحدة، فصاروا يدًا واحدة وإخوان صدق، فاتخذوا لهم معبدًا يعبدون الله فيه، فعرف بهم قومهم، فوشوا بأمرهم إلى ملكهم، فاستحضرهم بين يديه فسألهم عن أمرهم وما هم عليه فأجابوه بالحق، ودعوه إلى الله ﷻ؛ ولهذا أخبر تعالى عنهم بقوله: {وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ لَنْ نَدْعُوَ مِنْ دُونِهِ إِلَهًا}".

قوله تعالى: {لَقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا} [الكهف: ١٤]، أي:"لو قلنا غير هذا لكُنَّا قد قلنا قولا جائرًا بعيدًا عن الحق".

قال الطبري:"يقول جل ثناؤه: لئن دعونا إلها غير إله السموات والأرض، لقد قلنا إذن بدعائنا غيره إلها، شططا من القول: يعني غاليا من الكذب، مجاوزا مقداره في

=

=

البطول والغلوّ".

وفي قوله تعالى: {شَطَطًا} [الكهف: ١٤]، وجوه:

أحدها: كذبًا، قاله قتادة.

قال القاسم بن سلام:"{شططا}: كذبا بلغة خثعم".

الثاني: خطأ. و «الشطط:»: الخطأ من القول. قاله ابن زيد.

الثالث: جورًا، قاله الضحاك، والسدي، ومقاتل، والزجاج، ومن ذلك قوله تعالى: {فَاحْكُمْ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَاهْدِنَا إِلَى سَوَاءِ الصِّرَاطِ} [ص: ٢٢]، وقوله تعالى: {وَأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى اللهِ شَطَطًا} [الجن: ٤].

وقال يحيى بن سلام:"جورا، أي: كذبا".

الرابع: غلوًّا، يقال: قد أشط علي: إذا غلا في القول. قاله ابن قتيبة.

الخامس: جورا وغلوّا. قاله أبو عبيدة، وأنشد قول الشاعر:

ألا يا لقوم قد أشطّت عواذلى... ويزعمن أن أودى بحقي باطلى

ويلحيننى فى اللهو أن لا أحبّه... وللهو داع دائب غير غافل.

وقال ابن قتيبة:"أي: غلوا في الكذب والجور".

* (وربطنا على قلوبهم) أي: ثبتنا قلوبهم وقويناها على الصبر، حتى لا يجزعوا ولا يخافوا من أن يصدعوا بالحق، ويصبروا على فراق الأهل والنعيم، والفرار بالدين في غار في جبل لا أنيس به، ولا ماء ولا طعام.

وأصل الربط الشد، يقال: ربطت الدابة: أي شددتها برباط.

- قال ابن عطية: عبارة عن شدة عزم وقوة صبر أعطاها الله لهم.

- وقال أبو السعود: أي قويناها حتى اقتحموا مضايق الصبر على هجر الأهل والأوطان والنعيم والإخوان، واجترأوا على الصدع بالحق من غير خوف، وحذروا الرد على دقيانوس الجبار.

=

=

- وقال الآلوسي: قويناها بالصبر فلم تزحزحها عواصف فراق الأوطان وترك الأهل والنعيم والإخوان ولم يزعجها الخوف من ملكهم الجبار ولم يرعها كثرة الكفار، وأصل الربط الشد المعروف واستعماله فيما ذكر مجاز كما قال غير واحد.

ويفهم من هذه الآية الكريمة: أن من كان في طاعة ربه جل وعلا أنه تعالى يقوي قلبه، ويثبته على تحمل الشدائد، والصبر الجميل.

(إذ قاموا) اختلف في هذا القيام:

يحتمل القيام أن يكون مقامهم بين يدي الملك الكافر دقيانوس، فإنه مقام محتاج إلى الربط على القلب حيث صلبوا عليه وخلعوا دينه ورفضوا في ذات الله هيبته.

- قال الشوكاني: قال أكثر المفسرين: إنه كان لهم ملك جبار يقال له: دقيانوس، وكان يدعو الناس إلى عبادة الطواغيت، فثبت الله هؤلاء الفتية وعصمهم حتى قاموا بين يديه (فقالوا ربنا رب السموات والارض).

ويحتمل أن يكون عبارة عن انبعاثهم بالعزم إلى الهروب إلى الله ومنابذة الناس كما يقال: قام فلان إلى كذا إذا اعتزم عليه بغاية الجد.

- **قال ابن عاشور**: (إذ قاموا) ظرف للربط، أي كان الربط في وقت في قيامهم، أي كان ذلك الخاطر الذي قاموا به مقارنا لربط الله على قلوبهم، أي لولا ذلك لما أقدموا على مثل ذلك العمل وذلك القول.

والقيام يحتمل أن يكون حقيقيا، بأن وقفوا بين يدي ملك الروم المشرك، أو وقفوا في مجامع قومهم خطباء معلنين فساد عقيدة الشرك.

ويحتمل أن يكون القيام مستعارا للإقدام والجسر على عمل عظيم، وللاهتمام بالعمل أو القول، تشبيها للاهتمام بقيام الشخص من قعود للإقبال على عمل ما.

(فقالوا ربنا رب السماوات والأرض) أي: خالقنا ورازقنا والمتصرف فينا هو رب

=

=

السماوات والأرض، خالقهما وموجدهما.

(لن ندعو من دونه إلها) أي: لن نشرك معه غيره فهو واحد بلا شريك.

- قال ابن كثير: ولن لنفي التأبيد أي: لا يقع منا هذا أبدا، لأنا لو فعلنا ذلك لكان باطلا، ولهذا قال عنهم: لقد قلنا إذا شططا أي باطلا وكذبا وبهتانا.

(لقد قلنا إذا شططا) أي: باطلا وكذبا وبهتانا.

- **قال ابن عاشور**: والشطط: الإفراط في مخالفة الحق والصواب.

وهذه الآية الكريمة تدل دلالة واضحة على أن من أشرك مع خالق السموات والأرض معبودا آخر، فقد جاء بأمر شطط بعيد عن الحق والصواب في غاية الجور والتعدي ؛ لأن الذي يستحق العبادة هو الذي يبرز الخلائق من العدم إلى الوجود ؛ لأن الذي لا يقدر على خلق غيره مخلوق يحتاج إلى خالق يخلقه ويرزقه ويدبر شئونه.

وهذا المعنى الذي دلت عليه هذه الآية الكريمة جاء مبينا في آيات أخر كثيرة:

كقوله (يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون الذي جعل لكم الأرض فراشا والسماء بناء وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقا لكم فلا تجعلوا لله أندادا وأنتم تعلمون).

وقوله تعالى (أفمن يخلق كمن لا يخلق أفلا تذكرون).

وقوله تعالى (هذا خلق الله فأروني ماذا خلق الذين من دونه بل الظالمون في ضلال مبين).

وقوله تعالى (أم جعلوا لله شركاء خلقوا كخلقه فتشابه الخلق عليهم قل الله خالق كل شيء وهو الواحد القهار)، أي الواحد القهار الذي هو خالق كل شيء هو المستحق للعبادة وحده جل وعلا.

وقوله جل وعلا (أيشركون ما لا يخلق شيئا وهم يخلقون).

=

=

وقوله تعالى (واتخذوا من دونه آلهة لا يخلقون شيئا وهم يخلقون).

وقوله تعالى (يا أيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذبابا ولو اجتمعوا له).

وقوله (أم خلقوا من غير شيء أم هم الخالقون أم خلقوا السماوات والأرض).

وقوله (والذين يدعون من دون الله لا يخلقون شيئا وهم يخلقون أموات غير أحياء).

فهذه الآيات تبين أن الذي يستحق أن يعبد هو من يخلق الخلق، ويبرزهم من العدم إلى الوجود. أما غيره فهو مخلوق مربوب، محتاج إلى من يخلقه، ويدبر شئونه.

قوله تعالى: {هَؤُلَاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً} [الكهف: ١٥]، أي:"هؤلاء أهل بلدنا عبدوا الأصنام تقليدًا من غير حجة".

قال الطبري:"هؤلاء قومنا اتخذوا من دون الله آلهة يعبدونها من دونه".

قال الواحدي:"هذا من قول أصحاب الكهف، ويعنون الذين كانوا في زمان دقيانوس عبدوا الأصنام".

قال الزجاج:"أنكر الفتية عبادة قومِهم، وأن يعبدوا مع الله غيره".

قوله تعالى: {لَوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِمْ بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ} [الكهف: ١٥]، أي:"هلاّ يأتون على عبادتهم لها ببرهان ظاهر".

قال الطبري:"يقول: هلا يأتون على عبادتهم إياها بحجة بينة".

قال الزجاج:"المعنى: هلَّا يأتون عليهم بحجة بَيِّنَةٍ، ومعنى {عليهم}، أي: على عبادة الآلهة".

عن قتادة، قوله:"{لولا يأتون عليهم بسلطان بين}، يقول: بعذر بين".

عن أبي مالك، ومحمد بن كعب، وعكرمة، وسعيد بن جبير، والضحاك، والنضر

=

=

بن عربي:"كل سلطان في القرآن حجة".

قوله تعالى: {فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِبًا} [الكهف: ١٥]، أي:"لا أحد أظلم ممن كذب على الله بنسبة الشريك إليه تعالى".

قال الطبري:"ومن أشد اعتداء وإشراكا بالله، ممن اختلق، فتخرص على الله كذبا، وأشرك مع الله في سلطانه شريكا يعبده دونه، ويتخذه إلها".

قال البغوي:"قالوا ذلك لأن قومهم كانوا يعبدون الأوثان".

قال عطاء الخراساني:"كان قوم الفتية يعبدون الله ويعبدون معه آلهة شتى، فاعتزلت الفتية عبادة تلك الآلهة ولم تعتزل عبادة الله".

قال ابن عباس: "هذا من قول تمليخا، وهو رئيس أصحاب الكهف، قال لهم: {وإذا اعتزلتموهم}، أي: فارقتموهم وتنحيتم عنهم جانبًا، يعني: عبدة الأصنام".

وروى عطاء عن ابن عباس في قوله: {وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللهَ} قال: "يريد لم يعبد أصحاب الكهف إلا الله".

قال قتادة:"هي في مصحف عبد الله: «ومَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ الله» هذا تفسيرها".

* (هؤلاء قومنا اتخذوا من دونه آلهة لولا يأتون عليهم بسلطان بين) «لولا» للتحضيض، وهو الطلب بشدة والمقصود بالتحضيض هنا: الإنكار والتعجيز، إذ من المعلوم أن قومهم لن يستطيعوا أن يقيموا الدليل على صحة ما هم عليه من شرك.

والمراد بالسلطان البين: الحجة الواضحة.

والمعنى: أن أولئك الفتية بعد أن اجتمعوا، وتعاهدوا على عبادة الله تعالى وحده، ونبذ الشرك والشركاء قالوا على سبيل الإنكار والاحتقار لما عليه قومهم: هؤلاء قومنا بلغ بهم السفه والجهل، أنهم اتخذوا مع الله تعالى أصناما يشركونها معه في العبادة، هلا أتى هؤلاء السفهاء بحجة ظاهرة تؤيد دعواهم بأن هذه الأصنام

=

وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللهَ فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيُهَيِّئْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مِرْفَقًا (١٦).

{وَإِذْ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا الله فَأْوُوا إِلَى الْكَهْف يَنْشُر لَكُمْ رَبّكُمْ مِنْ رَحْمَته وَيُهَيِّئ لَكُمْ مِنْ أَمْركُمْ مِرْفَقًا} بِكَسْرِ الْمِيم وَفَتْح الْفَاء وَبِالْعَكْسِ مَا تَرْتَفِقُونَ بِهِ مِنْ غداء وعشاء[1].

=

تصلح آلهة لا شك أنهم لن يستطيعوا ذلك.

وشبيه بهذه الآية في تعجيز المشركين وتجهيلهم:

قوله تعالى (قل هل عندكم من علم فتخرجوه لنا، إن تتبعون إلا الظن، وإن أنتم إلا تخرصون).

وقوله تعالى (قل أرأيتم ما تدعون من دون الله، أروني ماذا خلقوا من الأرض، أم لهم شرك في السماوات، ائتوني بكتاب من قبل هذا أو أثارة من علم إن كنتم صادقين).... (الوسيط)

(فمن أظلم ممن افترى على الله كذبا) أي: لا أحد أشد ظلما من قوم افتروا على الله تعالى الكذب، حيث زعموا أن له شريكا في العبادة والطاعة، مع انه- جل وعلا- منزه عن الشريك والشركاء: ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين.

(١) قوله تعالى: (وإذ اعتزلتموهم) هذا من قول الفتية ووصية بعضهم لبعض، أي: قال بعضهم لبعض: وإذ اعتزلتموهم) أي: وإذا اعتزلتم قومكم المشركين وفارقتموهم وابتعدتم عنهم بأبدانكم.

- قال أبو حيان: قوله تعالى (إذ اعتزلتموهم) خطاب من بعضهم لبعض والاعتزال يشمل مفارقة أوطان قومهم ومعتقداتهم فهو اعتزال جسماني وقلبي.

(وما يعبدون إلا الله) أي: واعتزلتم وفارقتم الذي يعبدونه من الآلهة غير الله.

=

=

- **قال ابن عاشور**: والاعتزال: التباعد والانفراد عن مخالطة الشيء، فمعنى اعتزال القوم ترك مخالطتهم.

ومعنى اعتزال ما يعبدون: التباعد عن عبادة الأصنام.

قوله تعالى: {فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ} [الكهف: ١٦]، أي:"فالجؤوا إلى الكهف في الجبل لعبادة ربكم وحده".

قال الطبري:"فصيروا إلى غار الجبل الذي يسمى بنجلوس".

قال النحاس:"أي: صيروه مأواكم".

قال مجاهد:"كان كهفهم بين جبلين".

قال الفراء:"قوله: {فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ}، جواب لـ (إذْ) كما تَقُولُ: إذ فعلت ما فعلت فتُبْ".

قوله تعالى: {يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ} [الكهف: ١٦]، أي:"يَبْسطْ لكم ربكم من رحمته ما يستركم به في الدارين".

قال الطبري:"يقول: يبسط لكم ربكم من رحمته بتيسيره لكم المخرج من الأمر الذي قد رُمِيتم به من الكافر دقينوس وطلبه إياكم لعرضكم على الفتنة".

قوله تعالى: {وَيُهَيِّئْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مِرْفَقًا} [الكهف: ١٦]، أي:"ويسهل لكم من أمركم ما تنتفعون به في حياتكم من أسباب العيش".

وقال ابن عباس::"يسهل عليكم ما خوفكم من الملك وظلمه، ويأتيكم من الله اليسر والرفق واللطف".

قال مقاتل:"يعنى ما يرفق بكم فهيأ الله لهم الرقود في الغار".

وعن السدي قوله: " {ويهيئ لكم من امركم مرفقا}، يقول: غذاء".

قال الكلبي::يعني: غداء يأكلونه".

قال الطبري:"يقول: وييسر لكم من أمركم الذي أنتم فيه من الغمِّ والكرب خوفا

=

=

منكم على أنفسكم ودينكم مرفقا، ويعني بالمرفق: ما ترتفقون به من شيء".

قال السعدي:"فجمعوا بين التبري من حولهم وقوتهم، والالتجاء إلى الله في صلاح أمرهم، ودعائه بذلك، وبين الثقة بالله أنه سيفعل ذلك، لا جرم أن الله نشر لهم من رحمته، وهيأ لهم من أمرهم مرفقا، فحفظ أديانهم وأبدانهم، وجعلهم من آياته على خلقه، ونشر لهم من الثناء الحسن، ما هو من رحمته بهم، ويسر لهم كل سبب، حتى المحل الذي ناموا فيه، كان على غاية ما يمكن من الصيانة".

قرأ نافع وابن عامر {مرفقا} بفتح الميم وكسر الفاء، والباقون بكسر الميم وفتح الفاء.

* (فأووا إلى الكهف) أي: انضموا إليه واذهبوا إليه واجعلوه مأواكم.

- **قال القرطبي**: ومضمن هذه الآية أن بعضهم قال لبعض: إذا فارقنا الكفار وانفردنا بالله تعالى فلنجعل الكهف مأوى ونتكل على الله؛ فإنه سيبسط لنا رحمته، وينشرها علينا، ويهيئ لنا من أمرنا مرفقا.

وهذا كله دعاء بحسب الدنيا، وعلى ثقة كانوا من الله في أمر آخرتهم.

(ينشر لكم ربكم من رحمته) أي: يبسط عليكم رحمة يستركم بها من قومكم.

(ويهيئ لكم من أمركم مرفقا) الذي أنتم فيه (مرفقا) أي أمرا ترتفقون به.

- قال أبو حيان: قوله (ينشر...) فيه ما كانوا عليه من التوكل حيث أووا إلى كهف، ورتبوا على مأواهم إليه نشر رحمة الله عليهم وتهيئة رفقه تعالى بهم لأن من أخرجه من ظلمة الكفر إلى نور الإيمان لا يضيعه، والمعنى أنه تعالى سيبسط علينا رحمته ويهيئ لنا ما نرتفق به في أمر عيشنا.

قال ابن عباس (ويهيئ لكم) يسهل عليكم ما تخافون من الملك وظلمه، ويأتيكم باليسر والرفق واللطف.

- **قال السعدي**: وفيما تقدم، أخبر أنهم دعوه بقولهم (ربنا آتنا من لدنك رحمة

=

=

وهيئ لنا من أمرنا رشدا) فجمعوا بين التبري من حولهم وقوتهم، والالتجاء إلى الله في صلاح أمرهم، ودعائه بذلك، وبين الثقة بالله أنه سيفعل ذلك، لا جرم أن الله نشر لهم من رحمته، وهيأ لهم من أمرهم مرفقا، فحفظ أديانهم وأبدانهم، وجعلهم من آياته على خلقه، ونشر لهم من الثناء الحسن، ما هو من رحمته بهم، ويسر لهم كل سبب، حتى المحل الذي ناموا فيه، كان على غاية ما يمكن من الصيانة.

- قال ابن كثير: فعند ذلك خرجوا هرابا إلى الكهف فأووا إليه، ففقدهم قومهم من بين أظهرهم وتطلبهم الملك، فيقال إنه لم يظفر بهم وعمى الله عليه خبرهم كما فعل بنبيه محمد ﷺ وصاحبه الصديق حين لجئا إلى غار ثور، وجاء المشركون من قريش في الطلب فلم يهتدوا إليه مع أنهم يمرون عليه، وعندها قال النبي ﷺ حين رأى جزع الصديق في قوله: يا رسول الله لو أن أحدهم نظر إلى موضع قدميه لأبصرنا، فقال: «يا أبا بكر ما ظنك باثنين الله ثالثهما؟» «١» وقد قال تعالى: إلا تنصروه فقد نصره الله إذ أخرجه الذين كفروا ثاني اثنين إذ هما في الغار إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا فأنزل الله سكينته عليه وأيده بجنود لم تروها وجعل كلمة الذين كفروا السفلى وكلمة الله هي العليا والله عزيز حكيم).

فقصة هذا الغار أشرف وأجل وأعظم وأعجب من قصة أصحاب الكهف.

وقد قيل: إن قومهم ظفروا بهم ووقفوا على باب الغار الذي دخلوه، فقالوا: ما كنا نريد منهم من العقوبة أكثر مما فعلوا بأنفسهم، فأمر الملك بردم بابه عليهم ليهلكوا مكانهم ففعلوا ذلك، وفي هذا نظر، والله أعلم، فإن الله تعالى قد أخبر أن الشمس تدخل عليهم في الكهف بكرة وعشيا.... (تفسير ابن كثير).

وفي هذا دليل على أن اعتزال المؤمن قومه الكفار ومعبوديهم من أسباب لطف الله به ورحمته.

ويدل على هذا:

=

وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَتْ تَزَاوَرُ عَنْ كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَتْ تَقْرِضُهُمْ ذَاتَ الشِّمَالِ وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِنْهُ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللهِ مَنْ يَهْدِ اللهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْشِدًا (١٧).

{وَتَرَى الشَّمْس إذَا طَلَعَتْ تَزَّاوَر} بِالتَّشْدِيدِ وَالتَّخْفِيف تَمِيل {عَنْ كَهْفهمْ ذَات الْيَمِين} نَاحِيَته {وَإِذَا غَرَبَتْ تَقْرِضهُمْ ذَات الشِّمَال} تَتْرُكهُمْ وَتَتَجَاوَز عَنْهُمْ فَلَا تُصِيبهُمْ الْبَتَّة {وَهُمْ فِي فَجْوَة مِنْهُ} مُتَّسَع مِنْ الْكَهْف يَنَالهُمْ بَرْد الرِّيح وَنَسِيمهَا {ذَلِكَ} الْمَذْكُور {مِنْ آيَات الله} دَلَائِل قُدْرَته {من يهد الله فهو المهتد ومن يضلل فلن تجد له وليا مرشدا}[1].

=

قوله تعالى (وأعتزلكم وما تدعون من دون الله وأدعو ربي عسى ألا أكون بدعاء ربي شقيا فلما اعتزلهم وما يعبدون من دون الله وهبنا له إسحاق ويعقوب وكلا جعلنا نبيا ووهبنا لهم من رحمتنا وجعلنا لهم لسان صدق عليا).

(تنبيه): قال القاسمي: زعم قوم أن الآية تفيد مشروعية العزلة واستحبابها مطلقا. وهو خطأ. فإنها تشير إلى التأسي بأهل الكهف في الاعتزال، إذا اضطهد المرء في دينه وأريد على الشرك. وممن رد الاحتجاج بهذه الآية على تفضيل العزلة، الغزالي حيث قال في " إحيائه ": وأهل الكهف لم يعتزل بعضهم بعضا وهم مؤمنون. وإنما اعتزلوا الكفار. أي: ولا ريب في مشروعيته فرارا من الفتن.

(١) قوله تعالى: {وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَتْ تَزَاوَرُ عَنْ كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ} [الكهف: ١٧]، أي:"وترى -أيها المشاهد لهم- الشمس إذا طلعت من المشرق تميل عن مكانهم إلى جهة اليمين".

قال مقاتل:"يعني: تميل عن كهفهم فتدعهم ذات اليمين".

قال الطبري: معناه: " وترى الشمس إذا طلعت تعدل عن كهفهم، فتطلع عليه من

=

=

ذات اليمين، لئلا تصيب الفتية، لأنها لو طلعت عليهم قبالهم لأحرقتهم وثيابهم، أو أشحبتهم".

قال السعدي:"أي: حفظهم الله من الشمس فيسر لهم غارا إذا طلعت الشمس تميل عنه يمينا".

قوله تعالى: {وَإِذَا غَرَبَتْ تَقْرِضُهُمْ ذَاتَ الشِّمَالِ} [الكهف: ١٧]، أي:"وإذا غربت تتركهم إلى جهة اليسار".

قال ابن عباس:"يقول: تذرهم".

قال سعيد بن جبير ومجاهد:"تتركهم ذات الشمال".

قال قتادة:"تدعهم ذات الشمال".

قال مقاتل:"يعني: تدعهم ذات الشمال".

قال الطبري: أي:"وإذا غربت تتركهم بذات الشمال، فلا تصيبهم".

قال السعدي:"وعند غروبها تميل عنه شمالا، فلا ينالهم حرها فتفسد أبدانهم بها".

وفي قوله تعالى: {وَإِذَا غَرَبَتْ تَقْرِضُهُمْ ذَاتَ الشِّمَالِ} [الكهف: ١٧]، وجوه:

أحدها: معنى: «تقرضهم»، تحاذيهم، و «القرض» المحاذاة، حكاه الماوردي عن الكسائي والفراء.

الثاني: معناه: تخلّفهم شمالا وتجاورهم وتقطعهم وتتركهم عن شمالها، يقال: هل مررت بمكان كذا وكذا، فيقول المسئول: قرضته ذات اليمين ليلا. وهذا قول أبو عبيدة، وأنشد قول ذي الرّمّة:

إلى ظُعْن يَقْرِضْنَ أجْوَاز مُشْرِفٍ... شِمالا وعن أيمانِهنَّ الفوارِسُ

وقال ابن قتيبة:"تعدل عنهم وتجاوزهم".

الثالث: معناه: تعطيهم اليسير من شعاعها ثم تأخذه بانصرافها، مأخوذ من قرض الدراهم التي ترد لأنهم كانوا في مكان موحش، وقيل لأنه لم يكن عليهم سقف

=

=

يظلهم ولو طلعت عليهم لأحرقتهم.

قال الراغب:"«القرض»: ضرب من القطع، وسمي «قطع المكان وتجاوزه» قرضا، كما سمي: قطعا. قال: {وإذا غربت تقرضهم ذات الشمال} [الكهف: ١٧]، أي: تجوزهم وتدعهم إلى أحد الجانبين، وسمي ما يدفع إلى الإنسان من المال بشرط رد بدله قرضا، قال: {من ذا الذي يقرض الله قرضا حسنا} [البقرة: ٢٤٥]، وسمي المفاوضة في الشعر مقارضة، والقريض للشعر، مستعار استعارة النسج والحوك".

قوله تعالى: {وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِنْهُ} [الكهف: ١٧]، أي:"وهم في متسع من الكهف، فلا تؤذيهم حرارة الشمس ولا ينقطع عنهم الهواء".

قال الطبري:"يقول: والفتية الذين أووا إليه في متسع منه يُجْمَع: فَجَوات، وفِجَاء ممدودا".

قال السعدي:"أي: من الكهف، أي: مكان متسع، وذلك ليطرقهم الهواء والنسيم، ويزول عنهم الوخم والتأذي بالمكان الضيق، خصوصا مع طول المكث".

وفي قوله تعالى: {وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِنْهُ} [الكهف: ١٧]، وجوه من التفسير:

أحدها: يعني: في فضاء من الكهف، قاله قتادة.

الثاني: داخل منه، قاله سعيد بن جبير.

وروي عن مجاهد:"{وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِنْهُ}، قال: المكان الذاهب".

الثالث: أنه المكان الموحش. حكاه الماوردي.

الرابع: يعني: في زاوية من الكهف. قاله مقاتل.

وقال سعيد بن جبير:"يعني بالفجوة: الخلوة من الأرض. ويعني بالخلوة: الناحية من الأرض".

الخامس: أنه ناحية متسعة، قاله الفراء، وأبو عبيدة، ومنه قول الشاعر:

=

=

ونحن ملأنا كلَّ وادٍ وفجوةٍ... رجالًا وخيلًا غير ميلٍ ولا عُزْلِ

قوله تعالى: {ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللهِ} [الكهف: ١٧]، أي:"ذلك الذي فعلناه بهؤلاء الفتية من دلائل قدرة الله".

قال السعدي:"وذلك من آيات الله الدالة على قدرته ورحمته بهم، وإجابة دعائهم وهدايتهم حتى في هذه الأمور".

قال الطبري:"يقول عز ذكره: فعلنا هذا الذي فعلنا بهؤلاء الفتية الذين قصصنا عليكم أمرهم من تصييرناهم، إذ أردنا أن نضرب على آذانهم بحيث تزاور الشمس عن مضاجعهم ذات اليمين إذا هي طلعت، وتقرضهم ذات الشمال إذا هي غَرَبت، مع كونهم في المتسع من المكان، بحيث لا تحرْقهم الشمس فتُشحبهم، ولا تبلى على طول رقدتهم ثيابهم، فتعفَّن على أجسادهم، من حجج الله وأدلته على خلقه، والأدلة التي يستدل بها أولو الألباب على عظيم قدرته وسلطانه، وأنه لا يعجزه شيء أراده".

قال ابن كثير:"حيث أرشدهم تعالى إلى هذا الغار الذي جعلهم فيه أحياء، والشمس والريح تدخل عليهم فيه لتبقى أبدانهم".

قوله تعالى: {مَنْ يَهْدِ اللهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ} [الكهف: ١٧]، أي:"من يوفقه الله للاهتداء بآياته فهو الموفَّق إلى الحق".

قال الطبري:"يقول ﷻ: من يوفقه الله للاهتداء بآياته وحججه إلى الحق التي جعلها أدلة عليه، فهو المهتدي: يقول: فهو الذي قد أصاب سبيل الحقّ".

قال السعدي:"أي: لا سبيل إلى نيل الهداية إلا من الله، فهو الهادي المرشد لمصالح الدارين".

قوله تعالى: {وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْشِدًا} [الكهف: ١٧]، أي:"ومن لم يوفقه لذلك فلن تجد له معينًا يرشده لإصابة الحق".

=

=

قال الطبري:"يقول: ومن أضله الله عن آياته وأدلته، فلم يوفقه للاستدلال بها على سبيل الرشاد، فلن تجد له يا محمد خليلا وحليفا يرشده لإصابتها، لأن التوفيق والخِذْلان بيد الله، يوفق من يشاء من عباده، ويخذل من أراد، يقول: فلا يَحْزنُك إدبار من أدبر عنك من قومك وتكذيبهم إياك، فإني لو شئت هديتهم فآمنوا، وبيدي الهداية والضلال".

قال السعدي:"أي: لا تجد من يتولاه ويدبره، على ما فيه صلاحه، ولا يرشده إلى الخير والفلاح، لأن الله قد حكم عليه بالضلال، ولا راد لحكمه".

قال ابن قتيبة:"قد قال قوم بقصور العلم وسوء النظر في قوله تعالى: {وَتَرَى الشَّمْسَ إِذا طَلَعَتْ تَتَزاوَرُ عَنْ كَهْفِهِمْ ذاتَ الْيَمِينِ وَإِذا غَرَبَتْ تَقْرِضُهُمْ ذاتَ الشِّمالِ} [الكهف: ١٧]: وما في هذا الكلام من الفائدة؟.

وما في الشمس إذا مالت بالغداة والعشيّ عن الكهف من الخبر؟.

ونحن نقول: وأيّ شيء أولى بأن يكون فائدة من هذا الخبر؟

وأيّ معنى ألطف مما أودع الله هذا الكلام؟.

وإنما أراد ﷻ: أن يعرّفنا لطفه للفتية، وحفظه إياهم في المهجع، واختياره لهم أصلح المواضع للرّقود، فأعلمنا أنه بوّأهم كهفا في مقنأة الجبل، مستقبلا بنات نعش، فالشمس تزورّ عنه وتستدبره: طالعة، وجارية، وغاربة. ولا تدخل عليهم فتؤذيهم بحرّها وتلفحهم بسمومها، وتغيّر ألوانهم، وتبلي ثيابهم. وأنهم كانوا في فجوة من الكهف- أي متّسع منه- ينالهم فيه نسيم الريح وبردها، وينفي عنهم غمّة الغار وكربه".

* قوله تعالى: (وترى...) هنا جمل محذوفة دل عليها ما تقدم، والتقدير (فأووا إلى الكهف) فألقى الله عليهم النوم واستجاب دعاءهم وأرفقهم في الكهف بأشياء.

=

=

- قال أبو السعود (وترى الشمس) بيان لحالهم بعد ما أووا إلى الكهف، ولم يصرح به إيذانا بعدم الحاجة إليه لظهور جريانهم على موجب الأمر به لكونه صادرا عن رأي صائب وتعويلا على ما سلف من قوله سبحانه (إذ أوى الفتية إلى الكهف).

(وترى الشمس إذا طلعت) أي: عند طلوعها.

(تزاور عن كهفهم ذات اليمين) أي: تميل عن كهفهم ذات اليمين.

- **قال القرطبي**: أي ترى أيها المخاطب الشمس عند طلوعها تميل عن كهفهم، والمعنى: إنك لو رأيتهم لرأيتهم كذا؛ لا أن المخاطب رآهم على التحقيق.

(وإذا غربت تقرضهم ذات الشمال) أي: وإذا غربت تقطعهم وتبعد عنهم جهة الشمال.

والغرض أن الشمس لا تصيبهم عند طلوعها ولا عند غروبها كرامة لهم من الله لئلا تؤذيهم بحرها.

- قال ابن كثير: وقد أخبر الله تعالى بذلك، وأراد منا فهمه وتدبره، ولم يخبرنا بمكان هذا الكهف في أي البلاد من الأرض، إذ لا فائدة لنا فيه ولا قصد شرعي.

وقد تكلف بعض المفسرين فذكروا فيه أقوالا، فتقدم عن ابن عباس أنه قال: هو قريب من أيلة. وقال ابن إسحاق: هو عند نينوى. وقيل: ببلاد الروم. وقيل: ببلاد البلقاء، والله أعلم بأي بلاد الله هو، ولو كان لنا فيه مصلحة دينية لأرشدنا الله تعالى ورسوله إليه، فقد قال ﷺ: «ما تركت شيئا يقربكم إلى الجنة ويباعدكم من النار إلا وقد أعلمتكم به» فأعلمنا تعالى بصفته، ولم يعلمنا بمكانه. (ابن كثير)

(وهم في فجوة منه) أي: وهم في فضاء ومتسع من الكهف، بحيث يطرقه الهواء والنسيم داخل الكهف وليسوا على بابه، وذلك أحفظ لهم.

- **قال ابن عاشور**: هذا وضع عجيب يسره الله لهم بحكمته ليكون داخل الكهف

=

=

بحالة اعتدال فلا ينتاب البلى أجسادهم، وذلك من آيات قدرة الله.

والفجوة: المتسع من داخل الكهف، بحيث لم يكونوا قريبين من فم الكهف.

وفي تلك الفجوة عون على حفظ هذا الكهف كما هو.

- **قال الرازي**: للمفسرين ههنا قولان:

القول الأول: أن باب ذلك الكهف كان مفتوحا إلى جانب الشمال فإذا طلعت الشمس كانت على يمين الكهف وإذا غربت كانت على شماله فضوء الشمس ما كان يصل إلى داخل الكهف، وكان الهواء الطيب والنسيم الموافق يصل، والمقصود أن الله تعالى صان أصحاب الكهف من أن يقع عليهم ضوء الشمس وإلا لفسدت أجسامهم فهي مصونة عن العفونة والفساد.

والقول الثاني: أنه ليس المراد ذلك، وإنما المراد أن الشمس إذا طلعت منع الله ضوء الشمس من الوقوع، وكذا القول حال غروبها، وكان ذلك فعلا خارقا للعادة وكرامة عظيمة خص الله بها أصحاب الكهف، وهذا قول الزجاج واحتج على صحته بقوله: {ذلك من آيات الله} قال ولو كان الأمر كما ذكره أصحاب القول الأول لكان ذلك أمرا معتادا مألوفا فلم يكن ذلك من آيات الله.

ورجح هذا الشوكاني فقال: ويؤيد هذا القول قوله [ذلك من آيات الله] فإن صرف الشمس عنهم مع توجه الفجوة إلى مكان تصل إليه عادة أنسب بمعنى كونها آية، ويؤيده أيضا إطلاق الفجوة وعدم تقييدها بكونها إلى جهة كذا.

ورجح هذا القول الشنقيطي.

وقال - في التفسير الوسيط - معلقا على كلام الرازي: ومن هذين الرأيين يتبين لنا أن أصحاب الرأي الأول، يرجعون عدم وصول حر الشمس إلى هؤلاء الفتية إلى أسباب طبيعية حماهم الله تعالى بها ومن بينها أن الكهف كان مفتوحا إلى جهة الشمال.

=

=

أما أصحاب الرأي الثاني فيردون عدم وصول أشعة الشمس إليهم إلى أسباب غير طبيعية، بمعنى أن الفتية كانوا في متسع من الكهف، أي: في مكان تصيبه الشمس، إلا أن الله تعالى بقدرته التي لا يعجزها شيء، منع ضوء الشمس وحرها من الوصول إليهم، خرقا للعادة على سبيل التكريم لهم.

ومع وجاهة الرأيين: إلا أن النفس أميل إلى الرأي الثاني، لأن قوله تعالى (وهم في فجوة منه) يشير إلى أنهم مع اتساع المكان الذي ينامون فيه-وهو الفجوة- لا تصيبهم الشمس لا عند الطلوع ولا عند الغروب، وهذا أمر خارق للعادة، ويدل على عجيب حالهم، كما أن قوله تعالى بعد ذلك (ذلك من آيات الله) يشعر بأن أمر هؤلاء الفتية فيه غرابة، وليس أمرا عاديا مألوفا.

- **قال الآلوسي**: وأكثر المفسرين على أنهم لم تصبهم الشمس أصلا، وإن اختلفوا في منشأ ذلك واختار جمع منهم، أنه لمحض حجب الله- تعالى- الشمس على خلاف ما جرت به العادة، والإشارة تؤيد ذلك أتم تأييد، والاستبعاد مما لا يلتفت إليه، لا سيما فيما نحن فيه، فإن شأن أصحاب الكهف كله على خلاف العادة..)..... (التفسير الوسيط)

ورجح هذا القول: الطبري، والقرطبي، والثعلبي، والزمخشري، وابن جزي، والخازن، والزجاج، والنسفي.

ورجح القول بأن الباب كان إلى الشمال: أبو حيان، ابن كثير، ابن عطية، والبيضاوي، وابن عاشور.

- قال ابن الجوزي: قال المفسرون: كان كهفهم بإزاء بنات نعش في أرض الروم، فكانت الشمس تميل عنهم طالعة وغاربة لا تدخل عليهم فتؤذيهم بحرها وتغير ألوانهم.

ثم أخبر أنهم كانوا في متسع من الكهف ينالهم فيه برد الريح، ونسيم الهواء، فقال:

=

=

(وهم في فجوة منه) قال أبو عبيدة: أي: في متسع، والجمع: فجوات، وفجاء بكسر الفاء.

- وقال الزجاج: إنما صرف الشمس عنهم آية من الآيات، ولم يرض قول من قال: كان كهفهم بازاء بنات نعش.

(ذلك من آيات الله) أي: ما صنعه الله بهم، من ازورار الشمس وقرضها طالعة غاربة، آية من آياته.

- قال ابن الجوزي: يشير إلى ما صنعه بهم من اللطف في هدايتهم، وصرف أذى الشمس عنهم، والرعب الذي ألقى عليهم حتى لم يقدر الملك الظالم ولا غيره على أذاهم.

"من آيات الله" أي: من دلائله على قدرته ولطفه.

(من يهد الله) إلى الحق.

(فهو المهتد) الذي ظفر بالهدى وأصاب الرشد والفلاح، فلا سبيل إلى نيل الهداية إلا من الله، فهو الهادي المرشد لمصالح الدارين.

- قال ابن كثير: أي هو الذي أرشد هؤلاء الفتية إلى الهداية من بين قومهم، فإنه من هداه الله اهتدى، ومن أضله فلا هادي له.

- قال ابن الجوزي: هذا بيان أنه هو الذي تولى هداية القوم، ولولا ذلك لم يهتدوا.

(ومن يضلل فلن تجد له وليا مرشدا) أي: ومن يضلله الله بسوء عمله فلن تجد له من يهديه.

- **قال الشنقيطي**: بين جل وعلا في هذه الآية الكريمة: أن الهدى والإضلال بيده وحده جل وعلا، فمن هداه فلا مضل له، ومن أضله فلا هادي له.

وقد أوضح هذا المعنى في آيات كثيرة جدا:

=

وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ وَكَلْبُهُمْ بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا (١٨).

{وَتَحْسَبهُمْ} لَوْ رَأَيْتهمْ {أَيْقَاظًا} أَيْ مُنْتَبِهِينَ لِأَنَّ أَعْيُنهمْ مُنْفَتِحَة جَمْع يَقِظ بِكَسْرِ الْقَاف {وَهُمْ رُقُود} نِيَام جَمْع رَاقِد {وَنُقَلِّبهُمْ ذَات الْيَمِين وَذَات الشِّمَال} لِئَلَّا تَأْكُل الْأَرْض لُحُومهمْ {وَكَلْبهمْ بَاسِط ذِرَاعَيْهِ} يَدَيْهِ {بِالْوَصِيدِ} بِفِنَاءِ الْكَهْف وَكَانُوا إِذَا انْقَلَبُوا انْقَلَبَ هُوَ مِثْلهمْ فِي النَّوْم وَالْيَقَظَة {لَوْ اطَّلَعْت عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْت مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْت} بِالتَّشْدِيدِ وَالتَّخْفِيف {مِنْهُمْ رُعْبًا} بِسُكُونِ الْعَيْن وَضَمّهَا مَنَعَهُمْ الله بِالرُّعْبِ مِنْ دُخُول أَحَد عليهم[1].

=

كقوله تعالى (ومن يهد الله فهو المهتد ومن يضلل فلن تجد لهم أولياآء من دونه ونحشرهم يوم القيامة على وجوههم عميا وبكما وصما)

وقوله (من يهد الله فهو المهتدي ومن يضلل فأولئك هم الخاسرون).

وقوله (إنك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشآء).

وقوله (ومن يرد الله فتنته فلن تملك له من الله شيئا).

وقوله تعالى (فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقا حرجا كأنما يصعد في السمآء).

ويؤخذ من هذه الآيات وأمثالها في القرآن - بطلان مذهب القدرية: أن العبد مستقل بعمله من خير أو شر، وأن ذلك ليس بمشيئة الله بل بمشيئة العبد، سبحانه جل وعلا عن أن يقع في ملكه شيء بدون مشيئته! وتعالى عن ذلك علوا كبيرا! وسيأتي بسط هذا المبحث إن شاء الله تعالى.

(١) قوله تعالى (وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ)،

=

=

قال مكي:"أي: تظنهم يا محمد لو رأيتهم أيقاظًا، أي: أعينهم مفتوحة فتظنهم لذلك منتبهين".

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: وتحسب يا محمد هؤلاء الفتية الذين قصصنا عليك قصتهم، لو رأيتهم في حال ضربنا على آذانهم في كهفهم الذي أووا إليه أيقاظا. والأيقاظ: جمع يَقِظ، ومنه قول الراجز:

وَوَجدُوا إخْوَتَهُمْ أيْقاظا... وسَيْفَ غَيَّاظٍ لَهُمْ غَيَّاظا".

وفيما تحسبهم من أجله أيقاظًا وهم رقود قولان:

أحدهما: لانفتاح أعينهم.

قال يحي بن سلام:"مفتحة أعينهم وهم موتى".

الثاني: لتقليبهم ذات اليمين وذات الشمال.

قال السعدي:": تحسبهم أيها الناظر إليهم كأنهم أيقاظ، والحال أنهم نيام، قال المفسرون: وذلك لأن أعينهم منفتحة، لئلا تفسد، فالناظر إليهم يحسبهم أيقاظا، وهم رقود".

قوله تعالى: {وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ} [الكهف: ١٨]، أي:"ونُقَلِّبهم حال نومهم مرة للجنب الأيمن ومرة للجنب الأيسر؛ لئلا تأكلهم الأرض".

قال السعدي:"وهذا أيضا من حفظه لأبدانهم، لأن الأرض من طبيعتها، أكل الأجسام المتصلة بها، فكان من قدر الله، أن قلبهم على جنوبهم يمينا وشمالا بقدر ما لا تفسد الأرض أجسامهم، والله تعالى قادر على حفظهم من الأرض، من غير تقليب، ولكنه تعالى حكيم، أراد أن تجري سنته في الكون، ويربط الأسباب بمسبباتها".

قال مكي:"أي: نقلبهم في حال رقادهم مرة للجنب اليمين ومرة للجنب الأيسر".

قال ابن عباس:"ستة أشهر على ذي الجنب، وستة أشهر على ذي الجنب".

=

=

قال ابن عياض:"في كل عام مرتين".

عن مجاهد: " {ونقلبهم}، قال: في التسع سنين ليس فيما سواه".

قوله تعالى: {وَكَلْبُهُمْ بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ} [الكهف: ١٨]، أي:"وكلبهم الذي صاحَبهم مادٌّ ذراعيه بفناء الكهف".

قال السعدي:"أي: الكلب الذي كان مع أصحاب الكهف، أصابه ما أصابهم من النوم وقت حراسته، فكان باسطا ذراعيه بالوصيد، أي: الباب، أو فنائه، هذا حفظهم من الأرض. وأما حفظهم من الآدميين".

قال مقاتل:"كان الكلب لمكسلمينا، وكان راعي غنم، فبسط الكلب ذراعيه على باب الكهف ليحرسهم وأنام الله- ﷻ- الكلب في تلك السنين كما أنام الفتية".

عن عبد الله بن حميد المكي قوله: " {وكلبهم باسط ذراعيه بالوصيد}، قال: جعل رزقه في لحس ذراعيه".

وفي «كلبهم»، قولان:

أحدهما: أنه كلب من الكلاب كان معهم، وهو قول الجمهور.

قال مجاهد:"اسم كلبهم قطمور".

قال الحسن:"اسم كلب أصحاب الكهف، قطمير".

قال ابن جريج:"قلت لرجل من اهل العلم: زعموا إن كلبهم كان أسدا، قال: لعمر الله ما كان أسدا، ولكنه كان كلبا أحمر خرجوا به من بيوتهم يقال له، قطمور".

وقيل: "إن اسمه كان حمران".

أخرج ابن ابي حاتم من طريق سفيان قال: "قال رجل بالكوفة يقال له: عبيد، وكان لا يتهم بكذب، قال: رأيت كلب أصحاب الكهف أحمر كأنه كساء انبجاني".

الثاني: أنه إنسان من الناس كان طباخًا لهم تبعهم، وقيل: بل كان راعيًا. حكاه الطبري.

=

=

وفي «الوصيد»، أقوال:

أحدها: أنه العتبة.

الثاني: أنه الفناء. قاله ابن عباس، وسعيد بن جبير، ومجاهد، وقتادة، والضحاك، وبه قال الفراء.

وقال مقاتل:"يعني: الفضاء الذي على باب الكهف".

قال ابن جريج:"يمسك باب الكهف".

وقال عطية:"بفناء باب الكهف".

قال القاسم بن سلام:"{بالوصيد}: بالفناء بلغة مذحج".

الثالث: أنه الحظير، حكاه اليزيدي.

الرابع: أن «الوصيد»: الصعيد التراب، قاله ابن عباس أيضا، سعيد بن جبير، وعمرو.

الخامس: أنه الباب، قاله ابن عباس في رواية عكرمة، ومنه قول الشاعر:

بأرض فضاءَ لا يُسَدُّ وَصيدها... عليَّ ومعروفي بها غيرُ مُنْكَرِ

السادس: على الباب وبفناء الباب جميعا، لأن الباب يوصد، أي: يغلق. قاله أبو عبيدة.

قال الطبري:"وأولى الأقوال في ذلك بالصواب، قول من قال: الوصيد: الباب، أو فناء الباب حيث يغلق الباب، وذلك أن الباب يُوصَد، وإيصاده: إطباقه وإغلاقه من قول الله ﷻ: {إِنَّهَا عَلَيْهِمْ مُؤْصَدَةٌ} وفيه لغتان: الأصيد، وهي لغة أهل نجد، والوصيد: وهي لغة أهل تهامة وذُكِر عن أبي عمرو بن العلاء، قال: إنها لغة أهل اليمن، وذلك نظير قولهم: ورّخت الكتاب وأرخته، ووكدت الأمر وأكدته، فمن قال الوصيد، قال: أوصدت الباب فأنا أُوصِده، وهو مُوصَد، ومن قال الأصيد، قال: آصدت الباب فهو مُؤْصَد، فكان معنى الكلام: وكلبهم باسط ذراعيه بفناء

=

=

كهفهم عند الباب، يحفظ عليهم بابه".

قوله تعالى: {لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا} [الكهف: ١٨]، أي:"لو عاينتهم لأدبرت عنهم هاربًا، ولَمُلِئَتْ نفسك منهم فزعًا".

قال الطبري:"يقول: لو اطلعت عليهم في رقدتهم التي رقدوها في كهفهم، لأدبرت عنهم هاربا منهم فارّا ولملئت نفسُك من اطلاعك عليهم فَزَعا، لما كان الله ألبسهم من الهيبة، كي لا يصل إليهم واصل، ولا تلمِسهم يد لامس حتى يبلغ الكتاب فيهم أجله، وتوقظهم من رقدتهم قدرته وسلطانه في الوقت الذي أراد أن يجعلهم عبرة لمن شاء من خلقه، وآية لمن أراد الاحتجاج بهم عليه من عباده، ليعلموا أن وعد الله حق، وأنّ الساعة آتية لا ريب فيها".

قال سهل بن عبد الله:"يعني: لو اطلعت عليهم بنفسك لوليت منهم فرارا، ولو اطلعت عليهم بالحق لوقفت على حقائق الوحدانية فيهم منه".

وفي قوله تعالى: {لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا} [الكهف: ١٨]، وجهان:

أحدهما: لطول أظفارهم وشعورهم يأخذه الرعب منهم فزعًا.

الثاني: لما ألبسهم الله تعالى من الهيبة التي ترد عنهم الأبصار لئلا يصل إليهم أحد حتى يبلغ الكتاب فيهم أجله.

قال السعدي:"أخبر أنه حماهم بالرعب، الذي نشره الله عليهم، فلو اطلع عليهم أحد، لامتلأ قلبه رعبا، وولى منهم فرارا، وهذا الذي أوجب أن يبقوا كل هذه المدة الطويلة، وهم لم يعثر عليهم أحد، مع قربهم من المدينة جدا، والدليل على قربهم، أنهم لما استيقظوا، أرسلوا أحدهم، يشتري لهم طعاما من المدينة، وبقوا في انتظاره، فدل ذلك على شدة قربهم منها".

قال ابن عباس:"غزونا مع معاوية غزوة المضيق نحو الروم فمررنا بالكهف الذي

=

=

فيه أصحاب الكهف الذي ذكر الله في القرآن، فقال معاوية: لو كشف لنا عن هؤلاء فنظرنا إليهم! فقال له ابن عباس: ليس ذلك لك، قد منع الله ذلك عمن هو خير منك. فقال: لو اطلعت عليهم لوليت منهم فرارا ولملئت منهم رعبا فقال معاوية: لا أنتهي حتي أعلم علمهم. فبعث رجالا فقال: اذهبوا فادخلوا الكهف فانظروا. فذهبوا، فلما دخلوا الكهف بعث الله عليهم ريحا فأخرجتهم".

قال الماوردي:"وقيل إن هذه المعجزة من قومهم كانت لنبي قيل إنه كان أحدهم وهو الرئيس الذي اتبعوه وآمنوا به".

قال شهر بن حوشب:"كان لي صاحب شديد النفس، فمر بجانب كهفهم فقال: لا أنتهي حتى أنظر إليهم، فقيل له: لا تفعل... أما تقرأ: {لو اطلعت عليهم لوليت منهم فرارا ولملئت منهم رعبا}، فأبى إلا إن ينظر، فأشرف عليهم فابيضت عيناه وتغير شعره، وكان يخبر الناس بعد يقول: عدتهم سبعة".

* قوله تعالى: (وتحسبهم أيقاظا وهم رقود) أي: وتحسبهم وتظنهم أيها المخاطب لو رأيتهم أيقاظا والحال أنهم رقود.

قيل في سبب ظن الرائي أنهم أيقاظ: هو أنهم نيام وأعينهم مفتحة، ولكثرة تقلبهم.

- قال البقاعي: قوله تعالى (وتحسبهم أيقاظا) لانفتاح أعينهم للهواء ليكون أبقى لها، ولكثرة حركاتهم.

- قال ابن كثير: ذكر بعض أهل العلم أنهم لما ضرب الله على آذانهم بالنوم، لم تنطبق أعينهم لئلا يسرع إليها البلى، فإذا بقيت ظاهرة للهواء كان أبقى لها.

وقيل: لكثرة تقلبهم.

- قال ابن عطية: كانت أعينهم مفتوحة وهم نائمون، فلذلك كان الرائي يحسبهم (أيقاظا).

ويحتمل أن يحسب الرائي ذلك لشدة الحفظ الذي كان عليهم وقلة التغير، وذلك

=

=

أن الغالب على النوام أن يكون لهم استرخاء وهيئات تقتضي النوم، ورب نائم على أحوال لم يتغير عن حالة اليقظة فيحسبه الرائي يقظانا وإن كان مسدود العينين، ولو صح فتح أعينهم بسند يقطع العذر كان أبين في أن يحسب عليهم التيقظ.

- **قال ابن عاشور**: والمعنى: أن الله أجرى عليهم حال الأحياء الأيقاظ فجعلهم تتغير أوضاعهم من أيمانهم إلى شمائلهم والعكس، وذلك لحكمة لعل لها أثرا في بقاء أجسامهم بحالة سلامة.

(وكلبهم باسط ذراعيه بالوصيد) أي: وكلبهم الذي تبعهم باسط يديه بالوصيد وهو الفناء وهو الباب.

- قال أبو حيان: والظاهر أن قوله (وكلبهم) أريد به الحيوان المعروف، وأبعد من ذهب إلى أنه أسد، وأبعد من ذلك قول من ذهب إلى أنه رجل طباخ لهم تبعهم، أو أحدهم قعد عند الباب طليعة لهم.

- قال ابن عطية في الرد على من قال إنه كان رجلا طباخا لهم: وهذا القول يضعفه بسط الذراعين، فإنهما في العرف من صفة الكلب حقيقة.

- اختلف ما المراد بالوصيد:

١- أن الوصيد: فناء الكهف.

وهذا القول هو المروي عن ابن عباس - رضي الله عنهما - وسعيد بن جبير، ومجاهد، وقتادة، والضحاك.

وبه قال: الفراء، وأبو عبيدة معمر بن المثنى، والواحدي، والنسفي.

ورجحه ابن كثير بقوله: (والصحيح أنه بالفناء، وهو الباب، ومنه قوله تعالى: {إنها عليهم مؤصدة} [الهمزة: ٨] أي مطبقة مغلقة).

٢- أن الوصيد: الباب. وهذا القول روي عن ابن عباس أيضا.

=

=

٣- أن الوصيد هو الصعيد وهو التراب. وهذا القول روي عن سعيد بن جبير.

٤- أنه عتبة الباب. وهذا القول نسب إلى عطاء.

قال ابن الجوزي: (قال ابن قتيبة: وهذا أعجب إلي؛ لأنهم يقولون: أوصد بابك، أي: أغلقه، ومنه قوله تعالى: {إنها عليهم مؤصدة} [الهمزة: ٨] أي: مطبقة مغلقة، وأصله أن تلصق الباب بالعتبة إذا أغلقته، ومما يوضح هذا أنك إذا جعلت الكلب بالفناء كان خارجا من الكهف، وإن جعلته بعتبة الباب أمكن أن يكون داخل الكهف، والكهف وإن لم يكن له باب وعتبة، فإنما أراد أن الكلب موضع العتبة من البيت فاستعير).

وقال الطبري: (وأولى الأقوال في ذلك بالصواب قول من قال: الوصيد: الباب، أو فناء الباب حيث يغلق، وذلك أن الباب يوصد، وإيصاده: إطباقه وإغلاقه من قول الله ﷻ: {إنها عليهم مؤصدة} [الهمزة: ٨]).

- واختلف في هذا الكلب:

فقيل: كان كلب صيد لأحدهم، ورجحه ابن كثير.

وقيل: كلب طباخ الملك، وقد كان وافقهم على الدين وصحبه كلبه.

- **قال القرطبي**: أكثر المفسرين على أنه كلب حقيقة، وكان لصيد أحدهم أو لزرعه أو غنمه؛ على ما قال مقاتل.

- فيه فائدة صحبة الأخيار:

- قال ابن كثير: وشملت كلبهم بركتهم فأصابه ما أصابهم من النوم على تلك الحال، وهذا فائدة صحبة الأخيار، فإنه صار لهذا الكلب ذكر وخبر وشأن.

- قال أبو الفضل الجوهري: إن من أحب أهل الخير نال من بركتهم، كلب أحب أهل فضل وصحبهم فذكره الله في محكم تنزيله.

- قال القرطبي بعد إيراده لكلام الجوهري: إذا كان بعض الكلاب قد نال هذه

=

=

الدرجة العليا بصحبته ومخالطته الصلحاء والأولياء، حتى أخبر الله بذلك في كتابه جل وعلا، فما ظنك بالمؤمنين الموحدين المخالطين المحبين للأولياء والصالحين.

قال الراغب الأصبهاني: قال بعض الحكماء: من جالس خيرا أصابته بركته، فجليس أولياء الله لا يشقى، وإن كان كلبا ككلب أصحاب الكهف.

(لو اطلعت عليهم لوليت منهم فرارا ولملئت منهم رعبا) أي: أنه تعالى ألقى عليهم المهابة، بحيث لا يقع نظر أحد عليهم إلا هابهم، لما ألبسوا من المهابة والذعر لئلا يدنو منهم أحد، ولا تمسهم يد لا مس، حتى يبلغ الكتاب أجله، وتنقضي رقدتهم التي شاء تبارك وتعالى فيهم، لما له في ذلك من الحكمة البالغة والرحمة الواسعة.

أما ما ذهب إليه بعضهم أنه ذلك لطول أظفارهم وشعورهم... أو لوحشة مكانهم، فهي أقوال ضعيفة.

لأنهم لما استيقظوا قال بعضهم لبعض: لبثنا يوما أو بعض يوم، ودل هذا على أن شعورهم وأظفارهم كانت بحالها.

- وقال ابن عطية: وقالت فرقة إنما حفهم هذا الرعب لطول شعورهم وأظفارهم، ذكره المهدوي والزجاج، وهذا قول بعيد، ولو كانت حالهم هكذا، لم يقولوا (لبثنا يوما أبو بعض يوم) وإنما الصحيح في أمرهم، أن الله ﷻ حفظ لهم الحالة التي ناموا عليها، لتكون لهم ولغيرهم فيهم آية، فلم يبل لهم ثوب، ولا تغيرت صفة، ولا أنكر الناهض إلى المدينة إلا معالم الأرض والبناء، ولو كانت في نفسه حالة ينكرها لكانت عليه أهم، ولروي ذلك.

* مسألة: ثبت في الشريعة: أن الأصل في اقتناء الكلب المنع؛ وذلك لما ثبت في الصحيحين، عن أبي هريرة رضي الله عنه؛ قال: قال رسول الله ﷺ: (من اتخذ كلبا، إلا

=

=

كلب ماشية قال أو صيد أو زرع، انتقص من أجره كل يوم قيراط).

وفي الصحيحين من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا؛ قال: قال رسول الله ﷺ: (لا تدخل الملائكة بيتا فيه كلب ولا صورة).

وامتناع الملائكة عن الدخول دليل على دخول الشياطين وحضورها؛ وهذا دليل على عدم جواز دخولها بلا حاجة، وأكثر العلماء على التحريم.

ومن العلماء -كابن عبد البر - من حمل الحديث على الكراهة، لأن الحديث يفيد نقصان الأجر، ونقصان الأجر لا يلزم منه ارتكاب المحرم، ولو كان يحمل الإثم، لكان ذكر الإثم أولى من ذكر نقصان الأجر.

والأظهر التحريم؛ لأنه لا تحبط أعمال بمثل هذا القدر الدائم وهو قيراط إلا عن إثم، والأصل أنه لا يحبط الحسنات إلا السيئات، والأجور تنقص لسببين:

الأول: تنقص بسبب في العمل الصالح أو لازم لها؛ كعدم الخشوع في الصلاة؛ فإنه ينقص الأجر؛ فلا يقبل منها إلا ربعها أو ثلثها؛ كما لي حديث عمار، وكذلك المن الذي يتبع الصدقة؛ فقد قال تعالى: {لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى} [البقرة: ٢٦٤]، فهذا يحبط أجرها، ولا يلزم إلحاق وزر بصاحبها.

الثاني: تنقص الأجور بسبب خارج عن العمل وغير لازم له، كإحباط الجهاد بالربا، وإحباط أجور بعض الأعمال باقتناء الكلب كما هنا، فإذا انفك السبب الناقص لأجر العمل عن العمل، ولم يكن لازما له، فهذه أمارة على كونه محرما.

وأما القول بأن ذكر الإثم أولى من ذكر نقصان الأجر، فهذا ليس بلازم؛ فلا أعظم من الشرك وقد ذكر الله إحباطه للعمل.

وإذا كان الله يحبط السيئات بالحسنات، فرحمته سبقت غضبه، فلا يحبط الحسنات بالسيئات إلا بما هو أعظم من إحباط الحسنة للسيئة.

والقيراط غبر محدود القدر، ولا ينبغي حمله على قيراط شهود الجنازة واتباعها

=

=

وأنه كجبل أحد؛ فرحمة الله أعظم من ذلك، وإنما المراد قدر مقدر ونصيب محدد يؤخذ منه كل يوم.

وإنما ذكر النبي ﷺ إحباط الأجر؛ للترهيب منه وبيان خطورته، وإذا اقترن بعدم دخول الملائكة ولزوم ذلك لدخول الشياطين، كان القول قويا في التحريم.

وظاهر الآية: أن الكلب في قوله: {وكلبهم باسط ذراعيه بالوصيد} كلب حراسة لهم، وقد اختلف العلماء في اقتناء كلب الحراسة الذي يحمي به الرجل نفسه من لص أو معتد أو من حيوان مفترس.

وأما الكلاب التي تقتني للمرافقة والمصاحبة والأنس والمداعبة ويحميها صاحبها أكثر من أن تحميه هي، فهي محرمة، ولا ينبغي أن يكون في ذلك خلاف؛ لظاهر الدليل.

وأما كلاب الحراسة التي تحمي هي صاحبها أكثر مما يحميها هو، فقد اختلف العلماء في ذلك على قولين:

القول الأول: قال بعض العلماء: بتحريم اقتناء كل كلب غير ما استثناه الدليل، على خلاف عندهم في عدد ما استثناه، بسبب اختلاف الروايات في ذلك؛ فعن ابن عمر أنه لم يرخص إلا بكلب الصيد والماشية، ولم يرخص بكلب الزرع.

وأكثر ما استثناه الفقهاء من الكلاب المحرمة ثلاثة أنواع، وهي: الصيد والماشية والزرع؛ لحديث أبي هريرة، وعبد الله بن مغفل، ولبعض الروايات في حديث ابن عمر.

القول الثاني: قالوا بالجواز، وأن كل ما قامت فيه حاجة مساوية أو أشد من الحاجة لكلب الصيد والزرع والماشية، فإنه يأخذ حكمه؛ وذلك أن حاجة الإنسان في حراسة أهله ونفسه أولى من حراسة ماشيته وزرعه، وإنما ذكر النبي ﷺ الماشية والزرع والصيد؛ لأنها الغالبة في الاستعمال، وقد يوجد في الناس مثلها بحسب

=

=

تغير الأحوال واختلاف البلدان.

ومن القرائن على ذلك: أنه ليس كل الأحاديث تذكر الأنواع الثلاثة المأذون بها، وهي الصيد والزرع والماشية؛ ففي بعضها ذكر اثنين؛ كما في "الصحيحين"؛ من حديث ابن عمر؛ قال: قال رسول الله ﷺ: (من اقتنى كلبا، إلا كلب ماشية أو ضاريا، نقص من عمله كل يوم قيراطان)، فذكر كلب الصيد والماشية، ولم يذكر الزرع؛ كما في حديث أبي هريرة السابق، وفي رواية لمسلم؛ من حديث ابن عمر ذكر الثلاثة، وفي رواية في حديث أبي هريرة في "الصحيحين"؛ قال: (إلا كلب حرث، أو ماشية)، ولم يذكر كلب الصيد؛ وهذا يدل على أن المقصود التمثيل بالحاجات لا الحصر.

ويدخل في الحاجات من اقتناء الكلب: الكلاب المدربة على معرفة المسكرات والمخدرات واكتشاف المتفجرات؛ فإن نوعا من الكلاب يدرب على إطعامه أو تشميمه نوعا من المواد المسكرة والمخدرة أو فيها متفجرات؛ حتى يعتاده، ثم يدمن عليه، فإذا وجد رائحته، نبح واتجه إليه، وهذا أعظم حاجة من كلب الزرع والماشية والصيد، وفيه تحقيق مصالح عامة عظيمة، بخلاف الصيد والزرع والماشية، فهي مصالح خاصة لا عامة، ولا خلاف أن المصالح العامة مقدمة على المصالح الخاصة.

وكل ما أمر بقتله في الشرع، فلا يجوز اقتناؤه ولا يدخل في الاستثناء؛ وذلك كالكلب الأسود البهيم؛ فقد جاء الأمر بقتله، وما أمر بقتله لا يدخل في الرخصة، قال أحمد بن حنبل: "ما أعلم أحدا يرخص في أكل ما قتل الكلب الأسود من الصيد".

وبهذا قال غير واحد من السلف؛ كقتادة والحسن البصري وإبراهيم النخعي وإسحاق.

=

وَكَذَلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَابْعَثُوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ هَذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنْظُرْ أَيُّهَا أَزْكَى طَعَامًا فَلْيَأْتِكُمْ بِرِزْقٍ مِنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا (١٩).

=

وقد أمر النبي ﷺ بقتل ثلاثة من الكلاب:

- الأسود البهيم؛ وذلك كما جاء في "المسند" و"السنن"؛ من حديث عبد الله بن مغفل، عن النبي ﷺ؛ قال: (لولا أن الكلاب أمة من الأمم، لأمرت بقتلها؛ فاقتلوا منها الأسود البهيم).

- وأمر بقتل ذي النقطتين البيضاوين؛ كما في مسلم، عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه؛ قال: أمرنا رسول الله ﷺ بقتل الكلاب، حتى إن المرأة تقدم من البادية بكلبها فنقتله، ثم نهى النبي ﷺ عن قتلها، وقال: (عليكم بالأسود البهيم ذي النقطتين؛ فإنه شيطان).

- وأمر بقتل الكلب العقور، وهو ما فيه سعار وعدوان على الناس بالهجوم عليهم وعضهم وتمزيق ثيابهم وقتل مواشيهم؛ وذلك لما ثبت في "الصحيحين"، عن عائشة رضي الله عنها؛ قالت: قال رسول الله ﷺ: (خمس فواسق يقتلن في الحل والحرم: الحية، والغراب الأبقع، والفأرة، والكلب العقور، والحديا) (٤).

ومن جاز له اقتناء الكلب لحاجة، فلا يجوز له أن يتعدى حاجته؛ فمن اتخذه للزرع أو الماشية أو الصيد، فلا يجوز له أن يتخذه في غير موضعه؛ كمن يصطحب كلب الماشية في سفر لا ماشية فيه، أو يصطحب كلب صيد في السوق والطرقات التي لا صيد فيها؛ وذلك لما روى أبو هريرة رضي الله عنه؛ أن رسول الله ﷺ قال: (لا تصحب الملائكة رفقة فيها كلب ولا جرس).

{وَكَذَلِكَ} كَمَا فَعَلْنَا بِهِمْ مَا ذَكَرْنَا {بَعَثْنَاهُمْ} أَيْقَظْنَاهُمْ {لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنهمْ} عَنْ حَالهمْ وَمُدَّة لُبْثهمْ {قَالَ قَائِل مِنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْض يَوْم} لِأَنَّهُمْ دَخَلُوا الْكَهْف عِنْد طُلُوع الشَّمْس وَبُعِثُوا عِنْد غُرُوبهَا فَظَنُّوا أَنَّهُ غُرُوب يَوْم الدُّخُول ثُمَّ {قَالُوا} مُتَوَقِّفِينَ فِي ذَلِكَ {رَبّكُمْ أَعْلَم بِمَا لَبِثْتُمْ فَابْعَثُوا أَحَدكُمْ بِوَرِقِكُمْ} بِسُكُونِ الرَّاءِ وَكَسْرهَا بِفِضَّتِكُمْ {هَذِهِ إِلَى الْمَدِينَة} يُقَال إِنَّهَا الْمُسَمَّاة الْآن طَرَسُوس بِفَتْحِ الرَّاء {فَلْيَنْظُرْ أَيّهَا أَزْكَى طَعَامًا} أَيْ أي أطعمة المدينة أحل {فليأتكم برزق منه وليتلطف ولا يشعرن بكم أحدا}.

إِنَّهُمْ إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَنْ تُفْلِحُوا إِذًا أَبَدًا (٢٠).

{إِنَّهُمْ إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ} يَقْتُلُوكُمْ بِالرَّجْمِ {أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتهمْ وَلَنْ تُفْلِحُوا إِذًا} أي إن عدتم في ملتهم {أبدا}[1].

---

(١) قوله تعالى: {وَكَذَلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ} [الكهف: ١٩]، أي:"وكما أنمناهم وحفظناهم هذه المدة الطويلة أيقظناهم مِن نومهم على هيئتهم دون تغيُّر؛ لكي يسأل بعضهم بعضًا عن مدة مكثهم وإقامتهم في الغار".

قال ابن كثير:"يقول تعالى: وكما أرقدناهم بعثناهم صحيحة أبدانهم وأشعارهم وأبشارهم، لم يفقدوا من أحوالهم وهيئاتهم شيئًا، وذلك بعد ثلاثمائة سنة وتسع سنين".

قال السعدي:"يقول تعالى: {وكذلك بعثناهم} أي: من نومهم الطويل {ليتساءلوا بينهم} أي: ليتباحثوا للوقوف على الحقيقة من مدة لبثهم".

قوله تعالى: {قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ} [الكهف: ١٩]، أي:"قال أحدهم: كم مكثنا في هذا الكهف؟".

=

=

قال الطبري: "فتساءلوا فقال قائل منهم لأصحابه: {كَمْ لَبِثْتُمْ} وذلك أنهم استنكروا من أنفسهم طول رقدتهم".

قال ابن كثير: "أي: كم رقدتم؟".

قوله تعالى: {قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ} [الكهف: ١٩]، أي: "فقالوا مكثنا فيه يومًا أو بعض يوم".

قال الطبري: "فأجابه الآخرون فقالوا: لبثنا يوما أو بعض يوم، ظنا منهم أن ذلك كذلك كان".

قال ابن كثير: "كان دخولهم إلى الكهف في أول نهار، واستيقاظهم كان في آخر نهار؛ ولهذا استدركوا فقالوا: {أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ}".

قوله تعالى: {قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ} [الكهف: ١٩]، أي: "قال بعضهم، الله أعلم بمدة إقامتنا".

قال الطبري: "فقال الآخرون: {رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ} فسلّموا العلم إلى الله".

قال ابن كثير: "أي: الله أعلم بأمركم، وكأنه حصل لهم نوع تَرَدّد في كثرة نومهم، فالله أعلم".

وفي قوله تعالى: {قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ} [الكهف: ١٩]، ثلاثة أقوال:

أحدهما: أنه حكاية عن الله تعالى أنه أعلم بمدة لبثهم. حكاه الماوردي.

الثاني: أنه قول بعضهم لبعض. قاله الطبري.

الثالث: أنه قول كبيرهم مكسلمينا حين رأى الفتية مختلفين فيه فقال: {ربكم أعلم بما لبثتم}، فنطق بالصواب ورد الأمر إلى الله عالمه، وهذا قول ابن عباس، ومقاتل.

قال السعدي: "فردوا العلم إلى المحيط علمه بكل شيء، جملة وتفصيلا ولعل الله تعالى -بعد ذلك- أطلعهم على مدة لبثهم، لأنه بعثهم ليتساءلوا بينهم، وأخبر

=

=

أنهم تساءلوا، وتكلموا بمبلغ ما عندهم، وصار آخر أمرهم، الاشتباه، فلا بد أن يكون قد أخبرهم يقينا، علمنا ذلك من حكمته في بعثهم، وأنه لا يفعل ذلك عبثا. ومن رحمته بمن طلب علم الحقيقة في الأمور المطلوب علمها، وسعى لذلك ما أمكنه، فإن الله يوضح له ذلك، وبما ذكر فيما بعده من قوله. {وكذلك أعثرنا عليهم ليعلموا أن وعد الله حق وأن الساعة لا ريب فيها} فلولا أنه حصل العلم بحالهم، لم يكونوا دليلا على ما ذكر".

قوله تعالى: {فَابْعَثُوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ هَذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ} [الكهف: ١٩]، أي:"فأرسلوا واحدًا منكم إلى المدينة بهذه النقود الفضية".

قال الطبري:"يعني: مدينتهم التي خرجوا منها هِرابا، التي تسمى أفسوس".

قال ابن كثير:"ثم عدلوا إلى الأهم في أمرهم إذ ذاك وهو احتياجهم إلى الطعام والشراب، فقالوا: {فَابْعَثُوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ} أي: فضتكم هذه. وذلك أنهم كانوا قد استصحبوا معهم دراهم من منازلهم لحاجتهم

إليها، فتصدقوا منها وبقي منها؛ فلهذا قالوا: {فَابْعَثُوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ هَذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ} أي: مدينتكم التي خرجتم منها والألف واللام للعهد".

وقرأ ابو عمر وابو بكر وحمزة: {بورقكم}، باسكان الراء، والباقون بكسرها.

قوله تعالى: {فَلْيَنْظُرْ أَيُّهَا أَزْكَى طَعَامًا فَلْيَأْتِكُمْ بِرِزْقٍ مِنْهُ} [الكهف: ١٩]، أي:"فلينظر: أيَّ أهل المدينة أحلُّ وأطيب طعامًا؟ فليأتكم بقوت منه".

قال الطبري:"ذكر أنهم هبوا من رقدتهم جِياعا، فلذلك طلبوا الطعام".

قال الزجاج:"أي: أيّ أهلها أزكى طعاما".

وفي قوله تعالى: {فَلْيَنْظُرْ أَيُّهَا أَزْكَى طَعَامًا} [الكهف: ١٩]، وجوه:

أحدها: أيها أكثر طعامًا، وهذا قول عكرمة، وأبو عبيدة، ومنه قول الشاعر:

قَبائِلُنا سَبْعٌ وأنْتُمْ ثَلاثَة... وَللسَّبْعُ أزْكَى مِن ثَلاثٍ وأكثر

=

=

الثاني: أيها أحل طعامًا، وهذا قول ابن عباس، وسعيد بن جبير.

قال ابن عباس:"أحل ذبيحة، وكانوا يذبحون للطواغيت".

قال يحيى بن سلام:"وقد كان من طعام قومهم ما لا يستحلون أكله".

قال الزجاج:"ذكروا أن القوم كان أكثرهم مجوسا، وكانوا لا يستنظفون ذبائحهم".

الثالث: أطيب طعامًا، قاله الكلبي، ومقاتل، واختاره ابن كثير.

الرابع: خير طعاما. قاله قتادة.

الخامس: أي: طعاما لم يؤخذ من غصب، ولا هو من جهة لا تحل. حكاه الزجاج.

روي عن ابن عباس:"يعني: أطهر لأنهم كانوا يذبحون الخنازير".

السادس: أرخص طعامًا. حكاه الماوردي.

قال الطبري:"وأولى الأقوال عندي في ذلك بالصواب: قول من قال: معنى ذلك: أحلّ وأطهر، وذلك أنه لا معنى في اختيار الأكثر طعاما للشراء منه إلا بمعنى إذا كان أكثرهم طعاما، كان خليقا أن يكون الأفضل منه عنده أوجد، وإذا شرط على المأمور الشراء من صاحب الأفضل، فقد أمر بشراء الجيد، كان ما عند المشتري ذلك منه قليلا الجيد أو كثيرا، وإنما وجه من وجه تأويل أزكى إلى الأكثر، لأنه وجد العرب تقول: قد زكا مال فلان: إذا كثر".

قوله تعالى: {فَلْيَأْتِكُمْ بِرِزْقٍ مِنْهُ} [الكهف: ١٩]، أي:"فليأتكم بقوت منه".

قال الطبري:"يقول: فليأتكم بقوت منه تقتاتونه، وطعام تأكلونه".

عن عبد الله بن عبيد بن عمير:"{فَلْيَأْتِكُمْ بِرِزْقٍ مِنْهُ}، قال: بطعام".

قوله تعالى: {وَلْيَتَلَطَّفْ} [الكهف: ١٩]، أي:"وليتلطف في دخول المدينة وشراء الطعام".

=

=

قال الطبري:"يقول: وليترفق في شرائه ما يشتري، وفي طريقه ودخوله المدينة".

وفي قوله تعالى: {وَلْيَتَلَطَّفْ} [الكهف: ١٩]، وجوه:

أحدها: وليسترخص.

الثاني: وليترفق حتى لا يفطن له. قاله مقاتل.

الثالث: وليتلطف في إخفاء أمركم.

قال الماوردي:"وهذا يدل على جواز اشتراك الجماعة في طعامهم وإن كان بعضهم أكثر أكلًا وهي المناهدة، وكانت مستقبحة في الجاهلية فجاء الشرع بإباحتها".

قوله تعالى: {وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا} [الكهف: ١٩]، أي:"حتى لا يشعر بأمرنا أحد".

قال أبو عبيدة:"لا يعلمنّ بكم، يقال: شعرت بالأمر، أي: علمت به، ومنه الشاعر".

قال الطبري:"يقول: ولا يعلمنّ بكم أحدا من الناس".

قال الزجاج:"أي: إن ظهر عليه فلا يوقعن إخوانه فيما يقع فيه".

قال الطبري:"وأولى الأقوال في ذلك بالصواب عندي قول من قال: إن الله تعالى بعثهم من رقدتهم ليتساءلوا بينهم كما بيَّنا قبل، لأن الله عزّ ذكره، كذلك أخبر عباده في كتابه، وإن الله أعثر عليهم القوم الذين أعثرهم عليهم، ليتحقق عندهم ببعث الله هؤلاء الفتية من رقدتهم بعد طول مدتها بهيئتهم يوم رقدوا، ولم يشيبوا على مرّ الأيام والليالي عليهم، ولم يهرموا على كرّ الدهور والأزمان فيهم قدرته على بعث من أماته في الدنيا من قبره إلى موقف القيامة يوم القيامة، لأن الله عزّ ذكره بذلك أخبرنا، فقال: {وَكَذَلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لا رَيْبَ فِيهَا}".

=

=

* قوله تعالى: (وكذلك بعثناهم) يقول تعالى كما أرقدناهم بعثناهم صحيحة أبدانهم وأشعارهم وأبصارهم لم يفقدوا من أحوالهم وهيآتهم شيئا وذلك بعد ثلاثمائة سنة وتسع سنين، ولهذا تساءلوا بينهم كم لبثتم أي كم رقدتم؟.

قله تعالى: (ليتساءلوا بينهم) أي بعثناهم فتساءلوا، فاللام للعاقبة وليست للتعليل.

- قال ابن عطية: واللام في قوله (ليتساءلوا) لام الصيرورة، لأن بعثهم لم يكن لنفس تساؤلهم.

وفائدة ذلك: لما يترتب على ذلك من انكشاف الحال، وظهور القدرة الباهرة.

(قال قائل منهم كم لبثتم) أي: كم رقدتم.

(قالوا لبثنا يوما أو بعض يوم) لأنه كان دخولهم إلى الكهف في أول النهار، واستيقاظهم كان في آخر النهار، ولهذا استدركوا فقالوا (أو بعض يوم).

- قال المفسرون: إنهم دخلوا الكهف غدوة وبعثهم الله في آخر النهار، فلذلك قالوا لبثنا يوما فلما رأوا الشمس باقية قالوا أو بعض يوم.

(قالوا ربكم أعلم بما لبثتم) أي: الله أعلم بأمركم، وكأنه حصل لهم نوع تردد في كثرة نومهم، فالله أعلم.

وقد أخبر الله كم لبثوا وأنها ثلثمائة سنة وتسع.

ثم عدلوا إلى الأهم في أمرهم ذاك، وهو احتياجهم إلى الطعام والشراب، فقالوا:

(فابعثوا أحدكم بورقكم هذه إلى المدينة) أي: أرسلوا واحدا منكم، (إلى المدينة) أي مدينتكم التي خرجتم منها.

(فلينظر أيها أزكى طعاما) أي: أيها أطيب طعاما لكونه حلالا.

وقول: المراد بكونه أزكى أنه أكثر، ضعيف.

(فليأتكم برزق منه) أي: فليشتر لنا منه.

وليتلطف) أي: في خروجه وذهابه وشرائه وإيابه حتى لا يعرف.

=

=

وهذا القول هو الصحيح في أمره بالتلطف:

ويؤيده (ولا يشعرن بكم أحدا) أي: لا يفعلن ما يؤدي إلى الشعور ويتسبب له، فهذا النهي يتضمن التأكيد للأمر بالتلطف.... (قاله الشوكاني).

وهذا ما اختاره أكثر المفسرين، أي: حتى لا يعرف.

ورجحه الطبري، والسمرقندي، وابن عطية، وابن الجوزي، وابن كثير، والشوكاني، والآلوسي، والقاسمي، لدلالة السياق عليه.

ويؤيد هذا المعنى قوله (ولا يشعرن بكم أحدا).

وقيل: حتى لا يغبن في الشراء، وهذا ضعيف.

(ولا يشعرن بكم أحدا) أي: ولا يعلمن بكم أحد.

قوله تعالى: {إِنَّهُمْ إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ} [الكهف: ٢٠]، أي:"إن قومكم إن يطَّلعوا عليكم يرجموكم بالحجارة، فيقتلوكم".

قال الطبري:"يعنون بذلك: دقينوس وأصحابه، قالوا: إن دقينوس وأصحابه إن يظهروا عليكم، فيعلموا مكانكم، يرجموكم شتما بالقول".

وفي قوله تعالى: {إِنَّهُمْ إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ} [الكهف: ٢٠]، ثلاثة وجوه:

أحدها: يرجموكم بأيديهم استنكارًا لكم، قاله الحسن.

الثاني: يشتموكم بالقول، يؤذوكم، قاله ابن جريج.

الثالث: يقتلوكم بالرجم، و «الرجم» أحد أسباب القتل ومن أخبث القتل. قاله الزجاج.

قوله تعالى: {أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ} [الكهف: ٢٠]، أي:"أو يردوكم إلى دينهم، فتصيروا كفارًا".

قال الطبري:"يقول: أو يردّوكم في دينهم، فتصيروا كفارا بعبادة الأوثان".

=

=

قوله تعالى: {وَلَنْ تُفْلِحُوا إِذًا أَبَدًا} [الكهف: ٢٠]، أي:"ولن تفوزوا بمطلبكم مِن دخول الجنة -إن فعلتم ذلك- أبدًا".

قال الطبري:"يقول: ولن تدركوا الفلاح، وهو البقاء الدائم والخلود في الجنان، إذن: أي إن أنتم عُدْتم في ملتهم أبدا: أيام حياتكم".

قال الزجاج:"أي: ولن تفلحوا إن رجعتم إلى ملتهم".

قال مقاتل:"كان هذا من قول مكسلمينا يقوله للفتية".

* (إنهم إن يظهروا عليكم) أي إن يطلعوا عليكم ويعلموا بمكانكم، يعني أهل المدينة.

(يرجموكم) يقتلوكم بالرجم، وهذه القتلة هي أخبث قتلة.

- **قال القرطبي**: قال الزجاج: معناه بالحجارة، وهو أخبث القتل، وقيل: يرموكم بالسب والشتم؛ والأول أصح، لأنه كان عازما على قتلهم كما تقدم في قصصهم.

ورجح القول أن المقصود الرمي بالحجارة: الرازي، وابن عطية، وابن جزي، والقرطبي، والبيضاوي، والشوكاني، والآلوسي، وابن عاشور.

- قال ابن جزي: أي إن يظفروا بكم يقتلوكم بالحجارة، وقيل المعنى: يرجموكم بالقول، والأول أظهر. واستدلوا:

أ- النظير القرآني: جاء في مواضع أخر أنه فعل الكفار مع الرسل وأتباعهم ومنها: كقوله تعالى (ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم إن استطاعوا).

ب- الرجم بمعنى القتل كثير في القرآن.

كقوله تعالى (.... ولولا رهطك لرجمناك..). وقوله تعالى (.... أن ترجمون).

ج- الرجم بالحجارة من أخبث القتل.

وقيل: المراد الرجم بالقول، أي: السب والشتم، ورجحه الطبري.

(أو يعيدوكم في ملتهم) أن يردوكم إلى دينهم.

=

=

- قال القاضي: ما على المؤمن الفار بدينه أعظم من هذين فأحدهما فيه هلاك النفس وهو الرجم الذي هو أخبث أنواع القتل، والآخر هلاك الدين بأن يردوا إلى الكفر.

(ولن تفلحوا إذا أبدا) أي إن وافقتموهم على العود في الدين فلا فلاح لكم في الدنيا ولا في الآخرة.

وهذا عمل الكفار مع الرسل وأتباعهم.

كما قال تعالى (وقال الذين كفروا لرسلهم لنخرجنكم من أرضنا أو لتعودن في ملتنا).

وقال تعالى (و قال الملأ الذين استكبروا من قومه لنخرجنك يا شعيب والذين آمنوا معك من قريتنا أو لتعودن في ملتنا)

وقال تعالى (ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم إن استطاعوا).

مسألة: في هذه الآية: دليل على جواز الوكالة، وهو أن ينوب أحد عن أحد فيما يريده منه، ومن معنى الوكالة: قوله تعالى: {والعاملين عليها} [التوبة: ٦٠]؛ فإنها تتضمن نيابة ووكالة، وقريب منها قوله: {اجعلني على خزائن الأرض} [يوسف: ٥٥]، وقوله: {اذهبوا بقميصي هذا} [يوسف: ٩٣]، وقوله تعالى: {فابعثوا حكما من أهله} [النساء: ٣٥].

والأصل في الوكالة: الجواز بلا خلاف؛ كما حكاه ابن عبد البر، وابن قدامة؛ وذلك لظاهر القرآن والسنة، وقد أناب النبي ﷺ عن نفسه ووكل غيره عنها، في بيع وشراء ونكاح وقضاء دين؛ ومن ذلك ما رواه الشيخان؛ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه؛ قال: كان لرجل على النبي ﷺ سن من الإبل، فجاءه يتقاضاه، فقال: (أعطوه)، فطلبوا سنه، فلم يجدوا له إلا سنا فوقها، فقال: (أعطوه)، فقال: أوفيتني أوفي الله بك، قال النبي ﷺ: (إن خياركم أحسنكم قضاء).

=

=

وقد وكل النبي ﷺ عروة البارقي ليشتري شاة بدينار، فاشترى شاتين بدينار، وباع واحدة بدينار، وجاء إلى النبي ﷺ بدينار وشاة.

وكان أبو رافع وكيلا بين النبي ﷺ وميمونة حين تزوجها، ووكل عمرو بن أمية الضمري في نكاح أم حبيبة رملة بنت أبي سفيان.

وقد وكل النبي ﷺ في إثبات الحدود واستيفائها؛ كما أرسل أنيسا، فقال له: (واغد يا أنيس إلى امرأة هذا، فإن اعترفت فارجمها).

والجمهور: على جواز ذلك في الحدود إثباتا واستيفاء؛ خلافا لأبي حنيفة؛ فقد فرق بين الإثبات والاستيفاء، وقصة أنيس فيهما جميعا.

وأرسل أقواما من أصحابه بكتبه إلى الملوك والرؤساء، وجلب الزكاة، وإبلاغ القبائل أمره ونهيه.

ولا تصح الوكالة إلا بصيغة صحيحة صريحة تتضمن الإيجاب والقبول بين الطرفين، وأن يكون الموكل فيه مملوكا للموكل؛ فلا تقبل الوكالة ممن لا يملك التصرف فيه؛ فإنه إن لم يصح منه، فلا يصح من غيره وكالة عنه.

وتصح الوكالة العامة من غير تعيين شيء معين ولا وصفه؛ كالوكالة في البيع والشراء كافة في قول الحنفية والمالكية؛ خلافا للحنابلة والشافعية الذين منعوا من التوكيل العام؛ لأنه يتضمن جهالة فاحشة تضر بالناس.

ويجوز توكيل جماعة على أمر واحد، ولا ينفرد الواحد منهم بالأمر عن غيره حتى يتفقوا فيه؛ لعموم الأدلة؛ وهذا قول جمهور الفقهاء.

وقد ذهب الحنفية إلى أنه ينفرد كل واحد عن الباقين ولو كانت الوكالة للجميع.

ولا يملك الوكيل توكيل غيره إلا أن يشاء الموكل.

(فائدة): قال الشنقيطي في دفع إيهام الاضطراب: قوله تعالى: {إِنَّهُمْ إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَنْ تُفْلِحُوا إِذًا أَبَدًا (٢٠)} [الكهف/

=

=

٢٠]. هذه الآية تدل بظاهرها على أن المكره على الكفر لا يفلح أبدًا.

وقد جاءت آية أخرى تدل على أن المكره على الكفر معذور إذا كان قلبه مطمئنًا بالإيمان، وهي قوله تعالى: {إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا} الآية [النحل/ ١٠٦].

والجواب عن هذا من وجهين:

الأول: أن رفع المؤاخذة مع الإكراه من خصائص هذه الأمة، فهو داخل في قوله تعالى: {وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ} [الأعراف/ ١٥٧].

ويدل لهذا قوله ﷺ: "إن الله تجاوز لي عن أمتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه"، فهو يدل بمفهومه على خصوصه بأمته ﷺ، وليس مفهوم لقب؛ لأن مناط التخصيص هو اتصافه ﷺ بالأفضلية على من قبله من الرسل، واتصاف أمته بها على من قبلها من الأمم. والحديث وإن أعله أحمد وابن أبي حاتم فقد تلقاه العلماء قديمًا وحديثًا بالقبول.

ومن أصرح الأدلة أن من قبلنا ليس لهم عذر بالإكراه: حديث طارق بن شهاب، في الذي دخل النار في ذباب قرَّبه لصنم، مع أنه قرَّبه ليتخلص من شر عبدة الصنم، وصاحبه الذي امتنع من ذلك قتلوه. فعُلِمَ أنه لو لم يفعل لقتلوه كما قتلوا صاحبه، ولا إكراه أكبر من خوف القتل، ومع هذا دخل النار ولم ينفعه الإكراه. وظواهر الآيات تدل على ذلك.

فقوله: {وَلَنْ تُفْلِحُوا إِذًا أَبَدًا (٢٠)} [الكهف/ ٢٠] ظاهرٌ في عدم فلاحهم مع الإكراه؛ لأن قوله: {يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ} صريحٌ في الإكراه.

وقوله: {رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا} [البقرة/ ٢٨٦] مع أنه تعالى قال: قد فعلت -كما ثبت في "صحيح مسلم"- يدل بظاهره على أن التكليف بذلك كان معهودًا قبل.

=

وَكَذَلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا إِذْ يَتَنَازَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ فَقَالُوا ابْنُوا عَلَيْهِمْ بُنْيَانًا رَبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَى أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِمْ مَسْجِدًا (٢١).

{وَكَذَلِكَ} كَمَا بَعَثْنَاهُمْ {أَعْثَرْنَا} أَطْلَعْنَا {عَلَيْهِمْ} قَوْمهمْ وَالْمُؤْمِنِينَ {لِيَعْلَمُوا} أَيْ قَوْمهمْ {أَنَّ وَعْد الله} بِالْبَعْثِ {حَقّ} بِطَرِيقِ أَنَّ الْقَادِر عَلَى إِنَامَتهمْ الْمُدَّة الطَّوِيلَة وَإِبْقَائِهِمْ عَلَى حَالهمْ بِلَا غِذَاء قَادِر عَلَى إِحْيَاء الْمَوْتَى {وَأَنَّ السَّاعَة لَا رَيْب} لَا شَكّ {فِيهَا إِذْ} مَعْمُولٌ لِأَعْثَرْنَا {يَتَنَازَعُونَ} أَيْ

=

وقوله تعالى: {وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ} [طه/ ١١٥]، مع قوله: {وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ} [طه/ ١٢١]، فأسند إليه النسيان والعصيان معًا، يدل على ذلك أيضًا. وعلى القول بأن المراد بالنسيان الترك، فلا دليل في الآية.

وقوله: {رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا} مع قوله: {كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا}.

ويستأنس لهذا بما ذكره البغوي في تفسيره عن الكلبي من أن المؤاخذة بالنسيان كانت من الإصر على من قبلنا، وكان عقابها يعجل لهم في الدنيا، فيحرم عليهم بعض الطيبات.

وقال بعض العلماء: إن الإكراه عذر لمن قبلنا. وعليه فالجواب هو:

الوجه الثاني: أن الإكراه على الكفر قد يكون سببًا لاستدراج الشيطان إلى استحسانه والاستمرار عليه، كما يفهم من مفهوم قوله تعالى: {وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ}.

وإلى هذا الوجه جنح صاحب "روح المعاني"، والأول أظهر عندي وأوضح. والله تعالى أعلم.

الْمُؤْمِنُونَ وَالْكُفَّار {بَيْنهمْ أَمْرهمْ} أَمْر الْفِتْيَة فِي الْبِنَاء حَوْلهمْ {فَقَالُوا} أَيْ الْكُفَّار {ابْنُوا عَلَيْهِمْ} أَيْ حَوْلهمْ {بُنْيَانًا} يَسْتُرهُمْ {رَبّهمْ أَعْلَم بِهِمْ قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَى أَمْرهمْ} أَمْر الْفِتْيَة وَهُمْ الْمُؤْمِنُونَ {لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِمْ} حَوْلهمْ {مَسْجِدًا} يُصَلَّى فِيهِ وَفُعِلَ ذَلِكَ عَلَى بَاب الكهف.

سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِمْ مَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَاهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِمْ مِنْهُمْ أَحَدًا (٢٢).

{سَيَقُولُونَ} أَيْ الْمُتَنَازِعُونَ فِي عَدَد الْفِتْيَة فِي زَمَن النَّبِيّ ﷺ أَيْ يَقُول بَعْضهمْ هُمْ {ثَلَاثَة رَابِعهمْ كَلْبهمْ وَيَقُولُونَ} أَيْ بَعْضهمْ {خَمْسَة سَادِسهمْ كَلْبهمْ} وَالْقَوْلَانِ لِنَصَارَى نَجْرَان {رَجْمًا بِالْغَيْبِ} أَيْ ظَنًّا فِي الْغَيْبَة عَنْهُمْ وَهُوَ رَاجِع إِلَى الْقَوْلَيْنِ مَعًا وَنَصْبهُ عَلَى الْمَفْعُول لَهُ أَيْ لِظَنِّهِمْ ذَلِكَ {وَيَقُولُونَ} أَيْ الْمُؤْمِنُونَ {سَبْعَة وَثَامِنهمْ كَلْبهمْ} الْجُمْلَة مِنْ الْمُبْتَدَأ وَخَبَره صِفَة سَبْعَة بِزِيَادَةِ الْوَاو وَقِيلَ تَأْكِيد أَوْ دَلَالَة عَلَى لُصُوق الصِّفَة بِالْمَوْصُوفِ وَوَصْف الْأَوَّلَيْنِ بِالرَّجْمِ دُون الثَّالِث دَلِيل عَلَى أَنَّهُ مَرْضِيّ وَصَحِيح {قُلْ رَبِّي أَعْلَم بِعِدَّتِهِمْ ما يعلمهم إلا قليل} قال بن عَبَّاس أَنَا مِنْ الْقَلِيل وَذَكَرَهُمْ سَبْعَة {فَلَا تُمَارِ} تُجَادِل {فِيهِمْ إِلَّا مِرَاء ظَاهِرًا} بِمَا أُنْزِلَ عَلَيْك {وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِمْ} تَطْلُب الْفُتْيَا {مِنْهُمْ} مِنْ أَهْل الْكِتَاب الْيَهُود {أَحَدًا} وَسَأَلَهُ أَهْل مَكَّة عَنْ خَبَر أَهْل الْكَهْف فَقَالَ أُخْبِركُمْ بِهِ غَدًا وَلَمْ يَقُلْ إِنْ شَاءَ الله فنزل[1].

---

(١) قوله تعالى: {وَكَذَلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا} [الكهف: ٢١]، أي:"وكما بعثناهم من نومهم كذلك أطلعنا الناس عليهم =

=

ليستدلوا بذلك على صحة البعث ويوقنوا أن القيامة لا شك فيها".

قال قتادة:"يقول: أطلعنا عليهم ليعلم من كذب بهذا الحديث، أن وعد الله حقّ، وأن الساعة لا ريب فيها".

قال مقاتل:"يقول: وهكذا أطلعنا عليهم ليعلم كفارهم ومكذبوهم بالبعث إذا نظروا إليهم {أن وعد الله حق} فى البعث أنه كائن، {وليعلموا أن الساعة آتية}، يعني: قائمة لا شك فيها في القيامة بأنها كائنة".

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: وكما بعثناهم بعد طول رقدتهم كهيئتهم ساعة رقدوا، ليتساءلوا بينهم، فيزدادوا بعظيم سلطان الله بصيرة، وبحسن دفاع الله عن أوليائه معرفة {وَكَذَلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ}، يقول: كذلك أطلعنا عليهم الفريق الآخر الذين كانوا في شكّ من قُدرة الله على إحياء الموتى، وفي مِرْية من إنشاء أجسام خلقه، كهيئتهم يوم قبضهم بعد البِلَى، فيعلموا أن وَعْد الله حق، ويُوقنوا أن الساعة آتية لا ريب فيها".

عن ابن عباس:"{وكذلك أعثرنا عليهم}، قال: أطلعنا".

وفي قوله تعالى: {لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا} [الكهف: ٢١]، وجهان:

أحدهما: ليعلم أهل بلدهم أن وعد الله حق في قيام الساعة وإعادة الخلق أحياء، لأن من أنامهم كالموتى هذه المدة الخارجة عن العادة ثم أيقظهم أحياء قادر على إحياء من أماته وأقبره.

الثاني: معناه: ليرى أهل الكهف بعد علمهم أن وعد الله حق في إعادتهم.

قال مقاتل:"فلما ذهب يمليخا إلى القرية أنكروا دراهم دقيوس الجبار، الذي فر «٤» منه الفتية، فلما رأوا ذلك قالوا هذا رجل وجد كنزا فلما خاف أن يعذب أخبرهم «٥» بأمر الفتية فانطلقوا معه إلى الكهف فلما انتهى يمليخا إلى الكهف

=

=

ودخل سد الله- ﷻ- باب الكهف عليهم فلم يخلص إليهم أحد".

قال السدي:"دعا الملك شيوخا من قومه فسألهم عن أمرهم فقالوا: كان ملك يدعى دقيوس، وأن فتية فقدوا في زمانه، وأنه كتب أسماءهم في الصخرة التي كانت على باب بالمدينة. فدعا بالصخرة فقرأها فإذا فيها

أسماؤهم، ففرح الملك فرحا شديدا وقال: هؤلاء قوم كانوا قد ماتوا فبعثوا، ففشا فيهم إن الله يبعث الموتى فذلك قوله: {وكذلك أعثرنا عليهم ليعلموا أن وعد الله حق وأن الساعة لا ريب فيها}".

قال يحيى بن سلام:"كانت تلك الأمة الذين هربوا منهم قد بادت وخلقت بعدهم أمة أخرى، وكانوا على الإسلام، ثم إنهم اختلفوا في البعث، فقال بعضهم: يبعث الناس في أجسادهم، وهؤلاء المؤمنون، وكان الملك منهم، وقال بعضهم: تبعث الأرواح بغير أجساد فكفروا، وهذا قول أهل الكتاب اليوم، فاختلفوا، فبعث الله أصحاب الكهف آية ليعلمهم أن الناس يبعثون في أجسادهم، وقال في آية أخرى: {يوم يقوم الروح} [النبأ: ٣٨] روح كل شيء في جسده، وهو قوله: {يوم يقوم الناس لرب العالمين} [المطففين: ٦]، فلما بعث أصحاب الكهف صاحبهم بالدراهم ليشتري لهم بها طعاما وهم يرون أنها تلك الأمة المشركة الذين فروا منهم، فأمروا صاحبهم أن يتلطف ولا يشعر بهم أحدا. فلما دخل المدينة، وهي مدينة بالروم يقال لها: فسوس، فأخرج الدراهم؛ ليشتري بها الطعام، استنكرت الدراهم وأخذ، فذهب به إلى ملك المدينة، فإذا الدراهم دراهم الملك الذي فروا منه. فقالوا: هذا رجل وجد كنزا. فلما خاف على نفسه أن يعذب أطلع على أصحابه. فقال لهم الملك: قد بين الله لكم ما اختلفتم فيه، فأعلمكم أن الناس يبعثون في أجسادهم. فركب الملك والناس معه حتى انتهوا إلى الكهف، وتقدم الرجل حتى إذا دخل على أصحابه فرآهم ورأوه ماتوا؛ لأنهم قد كانت أتت عليهم

=

=
آجالهم".
قوله تعالى: {إِذْ يَتَنَازَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ} [الكهف: ٢١]، أي:"حين تنازع القوم في أمر أهل الكهف بعد أن أطلعهم الله عليهم ثم قبض أرواحهم".
قال الطبري:"يعني: الذين أعثروا على الفتية يقول تعالى: وكذلك أعثرنا هؤلاء المختلفين في قيام الساعة، وإحياء الله الموتى بعد مماتهم من قوم تيذوسيس، حين يتنازعون بينهم أمرهم فيما الله فاعل بمن أفناه من عباده، فأبلاه في قبره بعد مماته، أمنشئهم هو أم غير منشئهم".
وفي تنازعهم قولان:
أحدهما: أنهم تنازعوا هل هم أحياء أم موتى.
الثاني: أنهم تنازعوا بعد العلم بموتهم هل يبنون عليهم بنيانًا يعرفون به أم يتخذون عليهم مسجدًا.
قال الماوردي: "وقيل: إن الملك أراد أن يدفنهم في صندوق من ذهب، فأتاه آت منهم في المنام فقال: أردت أن تجعلنا في صندوق من ذهب فلا تفعل فإنا من التراب خلقنا وإليه نعود فدعْنا".
قوله تعالى: {فَقَالُوا ابْنُوا عَلَيْهِمْ بُنْيَانًا} [الكهف: ٢١]، أي:"قال فريق من المطَّلِعين عليهم: ابنوا على باب الكهف بناءً يحجبهم".
قال الطبري:"يقول: فقال الذين أعثرناهم على أصحاب الكهف: ابنوا عليهم بنيانا".
قوله تعالى: {رَبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ} [الكهف: ٢١]، أي:"ربهم أعلم بحالهم".
قال الطبري:"يقول: ربّ الفتية أعلم بالفتية وشأنهم".
قوله تعالى: {قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَى أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِمْ مَسْجِدًا} [الكهف: ٢١]، أي:"قال الفريق الآخر وهم الأكثرية الغالبة: لنتخذنَّ على باب الكهف
=

=

مسجدًا نصلي فيه ونعبد الله فيه".

قال الطبري:"يقول جلّ ثناؤه: قال القوم الذين غلبوا على أمر أصحاب الكهف: {لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِمْ مَسْجِدًا}".

قال السعدي:"{لنتخذن عليهم مسجدا}، أي: نعبد الله تعالى فيه، ونتذكر به أحوالهم، وما جرى لهم، وهذه الحالة محظورة، نهى عنها النبي ﷺ، وذم فاعليها، ولا يدل ذكرها هنا على عدم ذمها، فإن السياق في شأن تعظيم أهل الكهف والثناء عليهم، وأن هؤلاء وصلت بهم الحال إلى أن قالوا: ابنوا عليهم مسجدا، بعد خوف أهل الكهف الشديد من قومهم، وحذرهم من الاطلاع عليهم، فوصلت الحال إلى ما ترى".

قال مقاتل:"فبنوا مسجدا على باب الكهف".

قال السدي:"فقال الملك: لأتخذن عند هؤلاء القوم الصالحين مسجدا، فلأعبدن الله فيه حتى أموت. فذلك قوله: {قال الذين غلبوا على أمرهم لنتخذن عليهم مسجدا}".

واختلف في قائلي هذه المقالة، على قولين:

أحدهما: يعني عدوّهم الكفار. قاله ابن عباس.

الثاني: أنهم الرهط المسلون. إذ عمَّى الله على الذين أعثرهم على أصحاب الكهف مكانهم، فلم يهتدوا، فقال المشركون: نبني عليهم بنيانا، فإنهم أبناء آبائنا، ونعبد الله فيها، وقال المسلمون: بل نحن أحق بهم، هم منا، نبني عليهم مسجدا نصلي فيه، ونعبد الله فيه. قاله عبد الله بن عبيد بن عمير.

وروي عن السدي:"قوله: {قال الذين غلبوا على أمرهم} قال: هم الأمراء، أو قال: السلاطين".

* انتقلت الآيات إلى جزء القصة الذي هو موضع عبرة أهل زمانهم بحالهم

=

=

وانتفاعهم باطمئنان قلوبهم لوقوع البعث يوم القيامة بطريقة التقريب بالمشاهدة وتأييد الدين بما ظهر من كرامة أنصاره. وقد كان القوم الذين عثروا عليهم مؤمنين مثلهم، فكانت آيتهم آية تثبيت وتقوية إيمان.... (ابن عاشور)

(وكذلك أعثرنا عليهم) أي أطلعنا الناس عليهم.

(ليعلموا) أي: ليعلم الملك ورعيته أن القيامة حق والبعث حق.

(أن وعد الله حق) وهو البعث، لأن حالهم في نومهم وانتباههم بعدها كحال من يموت ثم يبعث.

- قال ابن كثير: قد ذكر غير واحد من السلف أنه كان قد حصل لأهل ذلك الزمان شك في البعث وفي أمر القيامة، فبعث الله أهل الكهف حجة ودلالة وآية على ذلك.

- قال ابن الجوزي: قوله تعالى (ليعلموا) في المشار إليهم بهذا العلم قولان.

أحدهما: أنهم أهل بلدهم حين اختصموا في البعث، فبعث الله أهل الكهف ليعلموا (أن وعد الله) بالبعث والجزاء (حق) وأن القيامة لا شك فيها، هذا قول الأكثرين.

والثاني: أنهم أهل الكهف، بعثناهم ليروا بعد علمهم أن وعد الله حق، ذكره الماوردي.

- **قال القرطبي**: قوله تعالى (ليعلموا أن وعد الله حق) يعني الأمة المسلمة الذين بعث أهل الكهف على عهدهم.

وذلك أن دقيانوس مات ومضت قرون وملك أهل تلك الدار رجل صالح، فاختلف أهل بلده في الحشر وبعث الأجساد من القبور، فشك في ذلك بعض الناس واستبعدوه وقالوا: إنما تحشر الأرواح والجسد تأكله الأرض.... (القرطبي)

=

=

وهذا قول جماهير العلماء:

رجحه: الطبري، والبغوي، والرازي، والقرطبي، وابن كثير، والشوكاني، والآلوسي، وابن عاشور.

(وأن الساعة لا ريب فيها) أي وليعلموا أن القيامة لا شك في حصولها.

وقد ذكروا في كيفية إطلاع الناس عليهم روايات ملخصها:

أن زميلهم الذي أرسلوه بالدراهم إلى السوق ليشتري لهم طعاما عند ما وصل إلى سوق المدينة، عمد إلى رجل ممن يبيع الطعام، فدفع إليه ما معه من نقود لكي يأخذ في مقابلها طعاما، فلما رأى البائع النقود أنكرها- لأنها مصنوعة منذ زمن بعيد- وأخذ يطلع عليها بقية التجار، فقالوا له: أين وجدت هذه الدراهم؟ فقال لهم: بعت بها أمس شيئا من التمر، وأنا من أهل هذه المدينة، وقد خرجت أنا وزملائي إلى الكهف خوفا من إيذاء المشركين لنا، فأخذوه إلى ملكهم وقصوا عليه قصته. فسر الملك به، وذهب معه إلى الكهف ليرى بقية زملائه فلما رآهم سلم عليهم... ثم أماتهم الله تعالى.

(إذ يتنازعون بينهم أمرهم) أي حين تنازع القوم في أمر أهل الكهف بعد أن أطلعهم الله عليهم ثم قبض أرواحهم.

(فقالوا ابنوا عليهم بنيانا ربهم أعلم بهم) لئلا يتطرق الناس إليهم، وذلك أن الملك وأصحابه لما وقفوا عليهم وهم أحياء أمات الله الفتية، فقال بعضهم: ابنوا عليهم بنيانا يسترهم عن أعين الناس (ربهم أعلم بهم) قول طائفة منهم لقطع النزاع في شأنهم، وليفوضوا أمرهم إلى الله.

فقوله (ربهم أعلم بهم) من كلام المتنازعين كما هو ظاهر السياق.

ورجحه: أبو حيان، والرازي، والشوكاني، والآلوسي.

قال أبو السعود: هو كلام المتنازعين كأنهم لما رأوا عدم اهتدائهم إلى حقيقة

=

=

حالهم من حيث النسب ومن حيث اللبث في الكهف قالوا ذلك تفويضا للأمر إلى علام الغيوب.

وقيل: هو من كلام الله تعالى، رد للخائضين في شأنهم. ورجحه: الواحدي، والقاسمي.

(قال الذين غلبوا على أمرهم لنتخذن عليهم مسجدا) حكى ابن جرير في القائلين ذلك قولين:

أحدهما: أنهم المسلمون منهم، والثاني: أهل الشرك منهم، فالله أعلم.

والظاهر أن الذين قالوا ذلك هم أصحاب الكلمة والنفوذ.

(تنبيه): كان في أهل الكهف عبرة وعظة للناس، فعظموهم وأكبروا منزلتهم؛ حتى قال بعض كبارهم من الأمراء والسلاطين: لنتخذن عليهم مسجدا؛ التماسا لصلاحهم؛ لأن الله لا يجعل المعجزة والكرامة إلا لمن أحب؛ وهذا الأمر قاله كبراؤهم: {قال الذين غلبوا على أمرهم}؛ يعني: أهل الغلبة من ذوي الأمر والقهر.

وهذا الفعل استدل به بعض الجهال على جواز اتخاذ القبور مساجد، وعلى جواز دفن الصالحين فيها؛ وهذا لا حجة فيه؛ فإن الذين طلبوا ذلك ليسوا المسلمين الصالحين؛ وإنما أهل القهر والتسلط والاستبداد، كما في ظاهر الآية: {قال الذين غلبوا على أمرهم}، وقد قال ابن عباس كما في رواية العوفي عنه: "إن قائل ذلك عدوهم".

وما يذكر في القرآن من أحوال الأمم السابقة لا يجوز أخذه إن خالف ما جاءت به شرعة محمد ﷺ، ولو جاز ذلك، لجاز اتخاذ الأصنام؛ وذلك لقوله تعالى: {يعملون له ما يشاء من محاريب وتماثيل وجفان كالجواب وقدور راسيات اعملوا آل داوود شكرا وقليل من عبادي الشكور (١٣)} [سبأ: ١٣]، وقد كان

=

=

النبي ﷺ ينهى عن التصاوير واتخاذ الأصنام؛ بل يأمر بكسرها وطمسها؛ كما ثبت في "الصحيح"، عن أبي الهياج الأسدي، قال: "قال لي علي بن أبي طالب: ألا أبعثك على ما بعثني عليه رسول الله ﷺ؟ ! ألا تدع تمثالا إلا طمسته، ولا قبرا مشرفا إلا سويته".

ولا يختلف العلماء على النهي في اتخاذ القبور مساجد ولا وضعها فيها، وفي "الصحيحين"؛ من حديث عائشة مرفوعا: (لعن الله اليهود والنصارى؛ اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد)، قالت عائشة: لولا ذلك لأبرز قبره؛ خشي أن يتخذ مسجدا).

وكان النبي ﷺ يسمي من يفعل ذلك شرار الخلق؛ كما في "الصحيحين"؛ من حديث عائشة رضي الله عنها أن أم سلمة رضي الله عنها ذكرت لرسول الله ﷺ كنيسة رأتها بأرض الحبشة، يقال لها: مارية، فذكرت له ما رأت فيها من الصور، فقال رسول الله ﷺ: (أولئك قوم إذا مات فيهم العبد الصالح -أو الرجل الصالح- بنوا على قبره مسجدا، وصوروا فيه تلك الصور، أولئك شرار الخلق عند الله).

وقد كان السلف من الصحابة يطبقون على منع بناء المساجد في المقابر، وعلى منع وضع القبور في المساجد، ومنع الصلاة إليها ولو كان خارج المسجد؛ لأنه إنما نهي عن اتخاذ القبور مساجد؛ لعلة العبادة فيها، ولو لم تكن محل عبادة، لم ينه عن ذلك، ونهي عن البناء على القبور؛ خشية التعظيم الذي يتبعه عبادة ولو بعد قرون، وقد كان الصحابة ينهون عن الصلاة إلى القبر ولو لم يكن الرجل قاصدا؛ لأن في ذلك مشابهة بالمشركين، وقد روى مسلم؛ من حديث أبي مرثد؛ أن النبي ﷺ قال: (لا تجلسوا على القبور، ولا تصلوا إليها).

وروى ابن ماجه وغيره، عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه: "أن رسول الله ﷺ نهى أن يبنى على القبور، أو يقعد عليها، أو يصلي عليها".

=

=

وقد روي ثابت البناني، عن أنس ﷺ؛ قال: "كنت أصلي قريبا من قبر، فرآني عمر بن الخطاب، فقال: القبر القبر! فرفعت بصري إلى السماء وأنا أحسبه يقول: القمر! ؟".

وقد روى قتادة، عن أنس؛ أنه مر على مقبرة وهم يبنون مسجدا، فقال أنس: "كان يكره أن يبنى مسجد في وسط القبور".

وقال أشعث: عن ابن سيرين: "كانوا يكرهون الصلاة بين ظهراني القبور".

وعلى هذا ينص الأئمة على اختلافهم، وقد نقل النووي وغيره فتيا العلماء على إزالة ما يبنى على القبور ومن قباب مما صنعه جهال الملوك، والملبسون من العلماء، حتى نقل الهيتمي فتيا الأئمة بإزالة ما بني على قبر الشافعي وغيره بمصر.

وقد اختلف العلماء في الصلاة المؤداة في المقبرة: هل تصح أو تجب إعادتها؟ على قولين -هما روايتان عن أحمد-:

الأول: أنها لا تعاد؛ وهذا قول الأكثر؛ وهو قول مالك والشافعي.

الثاني: أنها تعاد؛ وهذا الأشهر عن أحمد، وعليه عامة أصحابه.

وروي عن أحمد: إعادة الصلاة على من صلى إلى القبور أو صلى بينها.

* الصلاة على الجنازة في المقبرة:

صلاة الجنازة أخف من غيرها؛ لأنه لا ركوع فيها ولا سجود، وقد اختلف العلماء في حكمها على قولين، -وهما روايتان عن أحمد-:

الأول: الكراهة؛ وهذا قول الشافعي، وبه قال من السلف: علي، وعبد الله بن عمرو، وعطاء؛ وذلك لأن صلاة الجنازة تسمى صلاة، وفيها من جنس الصلاة المعتادة، وقد جاء النهي عاما؛ كما رواه أحمد وأهل "السنن"؛ من حديث أبي سعيد الخدري، عن النبي ﷺ؛ قال: (الأرض كلها مسجد، إلا المقبرة والحمام).

وقد روى الطبراني، عن أنس بن مالك ﷺ: "أن النبي ﷺ نهى أن يصلى على

=

=

الجنائز بين القبور".

الثاني: الجواز؛ وهو مذهب أهل الرأي؛ وذلك أن النبي ﷺ كان يصلي الجنازة على القبور؛ كما صلى على المرأة التي كانت تقم المسجد، وكان أصحابه يصلون كذلك، وقد ذكر النبي ﷺ رجلا مات، فقال: (فدلوني على قبره)، فأتى قبره فصلى عليه؛ رواه الشيخان.

وعن ابن عباس: "أنه مر مع النبي ﷺ على قبر منبوذ، فأمهم، وصلوا خلفه".

وقد صلى على القبر جماعة من السلف صحابة وتابعين؛ كعلي وأنس وسلمان بن ربيعة وأبي حمزة ومعمر.

ولم تكن تلك الصلاة واجبة على النبي ﷺ حتى يؤديها، وهناك من يفرق بين الصلاة في المقبرة على الميت المدفون فيجيزونها، وعلى الميت البارز قبل الدفن، ولا شك أن المدفون أخف، والتفريق لا يخرج الأخرى من الجواز؛ للاشتراك في الصورة الظاهرة التي نهي لأجلها عن اتخاذ القبور مساجد.

وقد روى عبد الرزاق، عن ابن جريج؛ قال: "قلت لنافع: أكان ابن عمر يكره أن يصلي وسط القبور؟ قال: لقد صلينا على عائشة وأم سلمة وسط البقيع، قال: والإمام يوم صلينا على عائشة رضي الله عنها أبو هريرة، وحضر ذلك عبد الله بن عمر".

ولا خلاف عند أحمد أن صلاة الجنازة أخف، وأنها لو صليت لا تبطل، وإنما الخلاف عنده في الكراهة، ولو بطلت، لبطلت صلاة النبي ﷺ على القبر.

وأما حديث أنس عند الطبراني، ففي صحته نظر، والصواب فيه: أنه من مرسل الحسن؛ رجحه الدارقطني، وهو محمول إن صح على كراهة اتخاذ مواضع للصلاة على الجنائز وسط القبور، وقد روى ابن أبي شيبة، عن أنس: "أنه كان يكره أن يبنى مسجد بين القبور".

وصلاة الجنازة تختلف عن غيرها؛ فقصد صلاة الجنازة نفع الحي للميت، وقصد

=

=

الصلوات الأخرى عند القبور نفع الميت للحي، واختلاف العلة يغاير الحكم، وكان السلف يفرقون بين صلاة الجنازة وغيرها، وقد روى منصور، عن إبراهيم؛ قال: "كانوا إذا خرجوا من الجنائز، لم يصلوا بين المقابر تطوعا، فإذا حضرت صلاة مكتوبة، تنحوا عن القبور فصلوا".

وقد قال أحمد: "لا يصلى في مسجد ببن المقابر إلا الجنائز؛ لأن الجنائز هذه سنتها".

ولا خلاف عند العلماء على أنه لا يجوز دفن الميت قبل الصلاة عليه مع القدرة على ذلك، وأنه لا يجوز لهم إرجاء الصلاة عليه بعد الدفن وهم مختارون لها قبل ذلك.

قوله تعالى: {سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ} [الكهف: ٢٢]، أي:"سيقول بعض الخائضين في شأنهم من أهل الكتاب: هم ثلاثةٌ، رابعهم كلبهم".

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: سيقول بعض الخائضين في أمر الفتية من أصحاب الكهف، هم ثلاثة رابعهم كلبهم".

عن السدي قوله: " {سيقولون ثلاثة}، قال: اليهود".

وقال مقاتل:"يعني: نصارى نجران".

قوله تعالى: {وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ} [الكهف: ٢٢]، أي:"ويقول فريق آخر: هم خمسة، سادسهم كلبهم".

قال الطبري:"ويقول بعضهم: هم خمسة سادسهم كلبهم".

عن السدي قوله: " {ويقولون خمسة}، قال: النصارى".

قوله تعالى: {رَجْمًا بِالْغَيْبِ} [الكهف: ٢٢]، أي:"وكلام الفريقين قول بالظن من غير دليل".

وقال مقاتل:"يعني: قذفا بالظن لا يستيقنونه".

=

=

قال الطبري:"يقول: قذفا بالظنّ غير يقين علم، كما قال الشاعر:

وأَجْعَلُ مِنِّي الحَقَّ غَيْبا مُرَجَّمَا".

قال أبو عبيدة:"«الرجم»: ما لم تستيقنه، وقال: ظن مرجّم لا يدرى أحق هو أم باطل، قال زهير:

وما الجرب إلّا ما رأيتم وذقتم... وما هو عنها بالحديث المرجّم".

قال ابن كثير:"ضَعَّف القولين الأولين بقوله: {رَجْمًا بِالْغَيْبِ} أي: قولا بلا علم، كمن يرمي إلى مكان لا يعرفه، فإنه لا يكاد يصيب، وإن أصاب فبلا قصد".

عن قتادة:"{رَجْمًا بِالْغَيْبِ}: أي: قذفا بالظنّ".

قوله تعالى: {وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ} [الكهف: ٢٢]، أي:"وتقول جماعة ثالثة: هم سبعة، وثامنهم كلبهم".

قال الطبري:"يقول: ويقول بعضهم: هم سبعة وثامنهم كلبهم".

قال ابن كثير:"ثم حكى الثالث وسكت عليه أو قرره بقوله: {وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ} فدل على صحته، وأنه هو الواقع في نفس الأمر".

قوله تعالى: {قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِمْ} [الكهف: ٢٢]، أي:"قل -أيها الرسول-: ربي هو الأعلم بعددهم".

قال الطبري:"يقول عزّ ذكره لنبيه محمد ﷺ: قل يا محمد لقائلي هذه الأقوال في عدد الفتية من أصحاب الكهف رجما منهم بالغيب: {رَبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم}".

قال ابن جريج ومحمد بن إسحاق: "كانوا ثمانية، وجعلا قوله تعالى: {وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُم} [الكهف: ٢٢]، أي: صاحب كلبهم".

قوله تعالى: {مَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ} [الكهف: ٢٢]، أي:"ما يعلم عددهم إلا قليل من خلقه".

قال الطبري:"يقول: ما يعلم عددهم {إلا قَلِيلٌ} من خلقه".

=

=

قال قتادة:"يقول: قليل من الناس".

وفي قوله تعالى: {مَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ} [الكهف: ٢٢]، ثلاثة أقوال:

أحدها: أنهم أهل المدينة قبل الظهور عليهم. حكاه الماوردي.

الثاني: أنهم قليل من النسطورية وهم حزب من النصارى. قاله مقاتل.

الثالث: أنهم أهل الكتاب بعد طول العهد بهم. وهذا قول ابن عباس.

وقال ابن عباس:"أنا ممن استثناه الله، ويقول: عدتهم سبعة".

وقال ابن عباس:"أنا من أولئك القليل الذين استثنى الله، كانوا سبعة وثامنهم كلبهم".

وقال ابن مسعود:"أنا من القليل، كانوا سبعة".

قال الماوردي:"وكتب قومهم أسماءهم حين غابوا، فلما بان أمرهم كتبت أسماؤهم على باب الكهف".

قال ابن جريج: «أسماؤهم: مكسلمينا، ويمليخا: وهو الذي مضى بالورق يشتري به الطعام، ومطرونس، ومحسيميلنينا، وكشوطوش، وبطلنوس، ويوطونس، وبيرونس»".

قال مقاتل: "وكان الكلب لمكسلمينا، وكان راعي غنم، فبسط الكلب ذراعيه على باب الكهف ليحرسهم وأنام الله- ﷻ- الكلب في تلك السنين كما أنام الفتية".

قوله تعالى: {فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَاهِرًا} [الكهف: ٢٢]، أي:"فلا تجادل أهل الكتاب في عددهم إلا جدالا ظاهرًا لا عمق فيه، بأن تَقُصَّ عليهم ما أخبرك به الوحي فحسب".

قال ابن زيد:"قال: لا تمار في عدتهم".

قال الطبري:"يقول عز ذكره لنبيه محمد ﷺ: فلا تمار يا محمد: يقول: لا تجادل أهل الكتاب فيهم، يعني في عدة أهل الكهف، وحُذِفت العِدّة اكتفاء بذكرهم فيها

=

=

لمعرفة السامعين بالمراد".

وفي قوله تعالى: {فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَاهِرًا} [الكهف: ٢٢]، وجوه:

أحدها: إلا ما قد أظهرنا لك من أمرهم، قاله مجاهد.

الثاني: حسبك ما قصصا عليك من شأنهم، فلا تمار فيهم. قاله ابن عباس، وقتادة، والضحاك.

قال مقاتل:"عني لا تمار يا محمد النصارى في أمر الفتية {إلا مراء ظاهرا}، يعني: حقا بما في القرآن، يقول- سبحانه- حسبك بما قصصنا عليك من أمرهم".

الثالث: إلا مِراء ظاهرًا يعني بحجة واضحة وخبر صادق، قاله علي بن عيسى.

الرابع: لا تجادل فيهم أحدًا ألا أن تحدثهم به حديثًا، قاله ابن عباس.

الخامس: أن المِراء الظاهر هو أن يقول ليس كما تقولون، ونحو هذا من القول. وهذا قول ابن زيد.

السادس: هو أن تشهد الناس عليه. حكاه الماوردي.

قوله تعالى: {وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِمْ مِنْهُمْ أَحَدًا} [الكهف: ٢٢]، أي:"ولا تسألهم عن عددهم وأحوالهم؛ فإنهم لا يعلمون ذلك".

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: ولا تستفت في عدّة الفتية من أصحاب الكهف منهم، يعني من أهل الكتاب أحدا، لأنهم لا يعلمون عدتهم، وإنما يقولون فيهم رجما بالغيب، لا يقينا من القول".

وفي قوله تعالى: {وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِمْ مِنْهُمْ أَحَدًا} [الكهف: ٢٢]، وجهان:

أحدهما: ولا تستفت يا محمد فيهم أحدًا من أهل الكتاب، قاله ابن عباس، ومجاهد، وقتادة.

قال مجاهد:"ولا تسأل يهودَ عن أمر أصحاب الكهف، إلا ما قد أخبرتك من أمرهم".

=

=

عن قتادة:" {وَلا تَسْتَفْتِ فِيهِمْ مِنْهُمْ أَحَدًا} : من أهل الكتاب. كنا نحدّث أنهم كانوا بني الركنا والركنا: ملوك الروم، رزقهم الله الإسلام، فتفرّدوا بدينهم، واعتزلوا قومهم، حتى انتهوا إلى الكهف، فضرب الله على أصمختهم، فلبثوا دهرا طويلا حتى هلكت أمَّتهم وجاءت أمَّة مسلمة بعدهم، وكان ملكهم مسلما".

الثاني: أنه خطاب للنبي ﷺ ونهي لأمته. حكاه الماوردي.

عن عطاء بن خالد، قال: "يحج عيسى إذا نزل في سبعين ألفا، فيهم أصحاب الكهف فإنهم لم يموتوا ولم يحجوا".

* قوله تعالى: (سيقولون ثلاثة رابعهم كلبهم...) الضمير في قوله (سيقولون) يراد به أهل التوراة، من معاصري محمد ﷺ ، وذلك أنهم اختلفوا في عدد أهل الكهف هذا الاختلاف المنصوص.... (ابن عطية).

- **قال القرطبي**: الضمير في "سيقولون" يراد به أهل التوراة ومعاصري محمد ﷺ ، وذلك أنهم اختلفوا في عدد أهل الكهف هذا الاختلاف المنصوص.

وقيل: المراد به النصارى؛ فإن قوما منهم حضروا النبي ﷺ من نجران فجرى ذكر أصحاب الكهف.

وقيل: هو إخبار عن اليهود الذين أمروا المشركين بمسألة النبي ﷺ عن أصحاب الكهف.... (التفسير)

- وقال الشوكاني: هؤلاء القائلون بأنهم ثلاثة أو خمسة أو سبعة، هم المتنازعون في عددهم في زمن رسول الله ﷺ من أهل الكتاب والمسلمين، وقيل: هم أهل الكتاب خاصة، وعلى كل تقدير فليس المراد أنهم جميعا قالوا جميع ذلك، بل قال بعضهم بكذا، وبعضهم بكذا، وبعضهم بكذا.

- وقال ابن عاشور: لما شاعت قصة أهل الكهف حين نزل بها القرآن صارت حديث النوادي، فكانت مثار تخرصات في معرفة عددهم، وحصر مدة مكثهم في

=

=

كهفهم، وربما أملى عليهم المتنصرة من العرب في ذلك قصصا، وقد نبههم القرآن إلى ذلك وأبهم على عموم الناس الإعلام بذلك لحكمة، وهي أن تتعود الأمة بترك الاشتغال فيما ليست منه فائدة للدين أو للناس، ودل علم الاستقبال على أن الناس لا يزالون يخوضون في ذلك... وقد أعلم الله أن قليلا من الخلق يعلمون عدتهم وهم من أطلعهم الله على ذلك، وفي مقدمتهم محمد ﷺ لأن قصتهم جاءت على لسانه فلا شك أن الله أطلعه على عدتهم.

وروي أن ابن عباس قال: أنا من القليل.

وكأن أقوال الناس تمالأت على أن عدتهم فردية تيمنا بعدد المفرد، وإلا فلا دليل على ذلك دون غيره، وقد سمى الله قولهم ذلك رجما بالغيب.... (ابن عاشور)

- قوله (ويقولون سبعة وثامنهم كلبهم) هذا هو الحق في عدد أصحاب الكهف، ورجحه جمهور المفسرين.

رجحه: الطبري، والفراء، والزجاج، والسمرقندي، والواحدي، والبغوي، وابن عطية، والرازي، والقرطبي، وابن كثير، والشوكاني، والشنقيطي. ودليل هذا الترجيح ما يلي:

أ- أنه لم يوصف بكونه رجما بالغيب.

ب- أن هذا الاختيار هو الذي عليه أكثر الصحابة والتابعين وأئمة التفسير.

ج- قول ابن عباس: أنا من القليل الذي يعلمهم كانوا سبعة، وتفسير السلف وفهمهم لنصوص الوحي حجة على من بعدهم.

- قال ابن تيمية في مجموع الفتاوى ١٣/ ٣٦٧: عن هذه الآية: " فقد اشتملت هذه الآية الكريمة على الأدب في هذا المقام وتعليمهم ما ينبغي في مثل هذا؛ فإنه تعالى أخبر عنهم بثلاثة أقوال، ضعف القولين وسكت عن الثالث، فدل على صحته؛ إذ لو كان باطلًا لرده كما ردهما، ثم أرشد إلى أن الاطلاع على عدتهم لا طائل تحته،

=

=

فيقال في مثل هذا: فإنه ما يعلم بذلك إلا قليل من الناس، ممن أطلعه الله عليهم؛ فلهذا قال:

، أي: لا تجهد نفسك فيما لا طائل تحته، ولا تسألهم عن ذلك؛ فإنهم لا يعلمون من ذلك إلا رجم الغيب.

فهذا أحسن ما يكون في حكاية الخلافة: أن تُسْتوعَبَ الأقوال في ذلك المقام، وأن يُنَبهَ على الصحيح منها ويُبْطلَ الباطل وتُذكرَ فائدةُ الخلاف وثمرتُه؛ لئلا يطولَ النِّزاع والخلاف فيما لا فائدة تحته، فينشغل به عن الأهم.

- قال ابن كثير: يقول تعالى مخبرا عن اختلاف الناس في عدة أصحاب الكهف، فحكى ثلاثة أقوال، فدل على أنه لا قائل برابع، ولما ضعف القولين الأولين بقوله [رجما بالغيب] أي قولا بلا علم، كمن يرمي إلى مكان لا يعرفه، فإنه لا يكاد يصيب وإن أصاب فبلا صيد، ثم حكى الثالث وسكت عليه أو قرره بقوله [وثامنهم كلبهم] فدل على صحته، وأنه هو الواقع في نفس الأمر. (ابن كثير)

- قال القاسمي: ذهب أكثر المفسرين إلى أن قول الخائضين الأخير، وهو أنهم سبعة وثامنهم كلبهم، هو الحق. لأنه لم يوصف بكونه رجما بالغيب كما وصف الأولان.

ولتخصيصه بالواو في قوله: (وثامنهم) وهي الواو الداخلة على الجملة الواقعة صفة للنكرة، لإفادة تأكيد لصوق الصفة بالموصوف. والدلالة على أن اتصافه بها أمر ثابت مستقر. وأنه لا عدد وراءه.

وقيل: أنهم ثمانية؛ وهذا مروي عن ابن عباس ولكن سنده ضعيف، وهو قول ابن جريج، وابن إسحاق.

واستُدل لهذا القول بأن معنى قوله تعالى (وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ): أي: صاحب كلبهم، كما يقال: السخاء: حاتم، والشعر: زهير، أي: السخاء سخاء حاتم، والشعر شعر

=

=

زهير.

وهذا القول ظاهر الضعف، ومما يدل على ذلك أن الله - تعالى - ذكر اختلاف الناس في عدد أصحاب الكهف على ثلاثة أقوال؛ وهذا يدل على أنه لم يقل أحد بقول رابع.

وذهب بعضهم إلى التوقف عن ذكر عددهم، وردُّ العلمِ في ذلك إلى الله تعالى، وذلك لعدم وجود دليل صحيح في تعيين عددهم، وأما ما رُوي عن ابن عباس فهو مختلف عليه فيه، ذهب إلى ذلك القاسمي في تفسيره، وابن الحاجب في أماليه (١/ ٢٤٩)، حيث قال: " إن الله - تعالى - قال (مَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ): فلو جعلنا قوله: تصديقًا لمن قال سبعة لوجب أن يكون العالم بذلك كثيرًا؛ فإن أخبار الله تعالى صدق فدل على أنه لم يصدِّق منهم أحدًا؛ وإذا كان كذلك وجب أن تكون الجمل كلها متساوية في المعنى...".

والراجح - والله تعالى أعلم - هو القول الأول، وهو أنهم سبعة ثامنهم كلبهم، وذلك لأدلة منها:

١ - ما ذكره الشيخ - رحمه الله - من أن الله تعالى أخبر عنهم بثلاثة أقوال ضعَّف اثنين وسكت عن الثالث، فدل على صحته، وبهذا استدل جمهورُ المفسرين كابن عطية، والرازي، والقرطبي، وابن كثير، والشنقيطي.

٢- الواو في قوله تعالى (سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ): والاستدلال بها من وجوه:

أ - أن هذه الواو هي التي تدخل على الجملة الواقعة صفة للنكرة، كما تدخل على الواقعة حالًا من المعرفة، وفائدتها توكيد ثبوت الصفة للموصوف، والدلالة على أن اتصافه بها أمر ثابت مستقر؛ فكانت هذه الواو دالة على صدق الذين قالوا إنهم كانوا سبعة وثامنهم كلبهم، وأنهم قالوا قولًا متقررًا متحققًا، عن ثبات وعلم وطمأنينة نفس.

=

=

ب - أن الله - تعالى - خص هذا الموضع بهذا الحرف الزائد، وهو (الواو) فوجب أن تحصل به فائدة زائدة، صونًا للفظ عن التعطيل(١).

هذا وإن الخلاف في هذه المسألة ليس له ثمرة كبيرة، وليس في تعيين عددهم فائدة تعود على المكلفين في دنياهم ولا دينهم، ولكن نقل الخلاف عنهم في ذلك جائز.

- وقوله (رجما بالغيب) قولا بلا علم.

في هذا رد على القائلين بأنهم ثلاثة رابعهم كلبهم، وعلى القائلين بأنهم خمسة سادسهم كلبهم.

وأصل الرجم: الرمي بالحجارة، والمراد به هنا: القول بالظن والحدس والتخمين بدون دليل أو برهان.

أي: يرمون رميا بالخبر الغائب عنهم، والذي لا اطلاع لهم على حقيقته، شأنهم في ذلك شأن من يرمى بالحجارة التي لا تصيب المرمى المقصود.

(قل ربي أعلم بعدتهم) أي: قل- أيها الرسول الكريم- لمن خاضوا في عدة أصحاب الكهف: ربي- ﷻ- أقوى علما منكم بعدتهم- أيها المتنازعون، فإنكم إن علمتم عنهم شيئا علما ظنيا، فإن علم ربي بهم هو علم تفصيلي يقيني لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها.

(ما يعلمهم إلا قليل) أي من الناس.

قال ابن عباس: أنا من القليل الذي استثنى الله ﷻ كانوا سبعة.

قال ابن كثير: فهذه أسانيد صحيحة إلى ابن عباس أنهم كانوا سبعة، وهو موافق لما قلناه.

- ولا تعارض بين هذه الجملة وبين سابقتها، لأن علم هذا العدد القليل من الناس بعدة أصحاب الكهف، هو علم إجمالي ظني... أما علم الله تعالى فهو علم تفصيلي يقيني شامل لجميع الأزمنة... فضلا عن أن علم هؤلاء القلة من الناس

=

=

بعدة أصحاب الكهف، نابع من إعلام الله تعالى لهم عن طريق الوحي كالرسول ﷺ أو من يطلعه الرسول ﷺ على عدتهم.

قال ابن عباس: أنا من أولئك القليل، كانوا سبعة، ثم ذكر أسماءهم.... (الوسيط)

(فلا تمار) تجادل وتحاج.

(فيهم إلا مراء ظاهرا) أي سهلا هينا، فإن الأمر في معرفة ذلك لا يترتب عليه كبير فائدة.

- **قال السعدي**: أي مبنيا على العلم واليقين، ويكون أيضا فيه فائدة، وأما المماراة على الجهل والرجم بالغيب، أو التي لا فائدة فيها، إما أن يكون الخصم معاندا، أو تكون المسألة لا أهمية فيها، ولا تحصل فائدة دينية بمعرفتها، كعدد أصحاب الكهف ونحو ذلك، فإن كثرة المناقشات فيها والبحوث المتسلسلة تضييعا للزمان وتأثيرا في مودة القلوب بغير فائدة.

(ولا تستفت فيهم) أي في شأن أصحاب الكهف.

(منهم) أي من أهل الكتاب.

(أحدا) وذلك لأن مبنى كلامهم فيهم على الرجم بالغيب والظن، الذي لا يغني عن الحق شيئا.

(منبهة): من الشبه التي يستدل بها من يتخذ القبور مساجد كما تقدم قوله تعالى في سياق قصة أصحاب الكهف {قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَى أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا}.

قال أهل الباطل:- أي لنتخذ على باب الكهف مسجدًا ليصلي فيه المسلمون وجعلوا هذا القول صادرًا من أهل الإيمان، فبما أن أهل الإيمان قالوه ولم يتعرض الله جل وعلا للرد عليهم فهو دليل على جواز اتخاذ القبور مساجد وهذا كلام تافة سخيف ساقط لا حجة فيه البتة وبيان الرد على استدلالهم بذلك من

=

=

عدة وجوه:-

أحدها:- أن القول الصحيح والمعتمد في هذه المسألة أن القائلين {لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا} إنما هم أهل الغلبة والقهر وأصحاب الأهواء، وليس هو من فعل أهل العلم والفضل العارفين بالشرع، فهذا القول صدر من أهل الغلبة والبطر والبغي والعدوان الذين قال فيهم النبي ﷺ (لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد) ومن الذين قال في حقهم النبي ﷺ (ألا وإن من كان قبلكم كانوا يتخذون قبور أنبيائهم وصالحيهم مساجد) وحيث كان الأمر كذلك فكيف يستدل بقول الكفار على جواز ما قالوه من الإفك والإثم والعدوان؟.

ثانيها:- أن المعتمد عند أهل السنة أن الأحاديث النبوية تفسر القرآن وتوضح مجمله وتبين معناه وتزيل وجه الإشكال الذي قد يعرض في فهم بعض آياته، فلما رجعنا إلى السنة وجدنا أنها حافلة في النهي عن اتخاذ القبور مساجد، وذلك في نصوص كثيرة صحيحة صريحة في هذا النهي ولا تدع لمشككٍ مجالًا للتشكيك في هذه القضية الخطيرة وقد قدمنا لك الأحاديث في هذا الأمر، فكيف نسف هذا الفريق التافه جميع هذه الأحاديث واستدلوا بالآية فقط التي لا دليل فيها أصلًا على خلاف ما قضت به السنة، لكنها الأهواء التي تعصف بأصحابها فإن المبتدعة لا يرون الاحتجاج بالسنة كالرافضة والديوبندية ومن ضهاهم من المبتدعة وسار على دربهم الأعوج وفهمهم الأخرق، وأما المسلم السني المتبع فإنه يقف عند هذه الأحاديث القاضية بالمنع موقف الطائع المسلم لها، فهب أن الآية قد تحتمل ما قالوه فإن أحاديث المنع قد أزالت هذا الاحتمال وقطعت الطريق إلى تطرق ذلك للعقل لو كانوا يعقلون والله المستعان.

ثالثها:- سلمنا جدلًا أن الذين قالوا {لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا} هم المسلمون فهذا قصاراه إنما يدل على جواز ذلك في تلك الشريعة ونحن إنما نتبع شريعة الإسلام

=

=

الذي جاء به النبي ﷺ وقد تقرر عند أهل العلم رحمهم الله تعالى أن شرع من قبلنا شرع لنا ما لم يرد نسخه في شرعنا، فلو سلمنا جدلًا أن بناء المساجد على القبور كان جائزًا في تلك الشريعة فقد جاءت شريعتنا بنسخه وسد أبوابه ولعن فاعليه والإخبار بأنهم شرار الناس ونحن مأمورون باتباع هذه الشريعة، لكن هذا على فرض التسليم الجدلي و إلا فإن بناء المساجد على القبور محرم في كل الشرائع بدليل قوله (لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد) فهذا يفيد أنه ممنوع في كل الشرائع إذ لو كان ذلك جائز في شريعتهم لما استحقوا هذا اللعن وهذا واضح ولحديث (ألا إن من كان قبلكم كانوا يتخذون قبور أنبيائهم وصالحيهم مساجد ألا فلا تتخذوا القبور مساجد فإني أنهاكم عن ذلك) وهذا إخبار عن حال الأمم السابقة مع قبور أنبيائها وصالحيها على وجه الإنكار والذم فدل ذلك على أن الأمم السابقة كانوا منهيين عن هذا الاتخاذ ولكنهم خالفوا ذلك فحذرنا النبي ﷺ أن نسلك مسلكهم فيصيبنا من العذاب مثل ما أصابهم وهذا واضح أيضًا ولأن الحديث قال (أولئك شرار الخلق) وهذا فيه دليل على أنهم بهذا الفعل قد خالفوا ما عليه شرائعهم و إلا لما استحقوا أن يوصفوا بأنهم شرار الخلق، ولأن الذين يتخذون القبور مساجد إنما فعلوا ذلك ليعبدوا أصحاب هذه القبور وقد تقرر عند سائر أهل الإسلام أن الشرك ووسائله محرمة في كل أمة، لأن زبدة دعوة الرسل هي الدعوة إلى إفراد الله بالعبادة والنهي عن الشرك وسد جميع الطرق الموصلة إليه فكيف يقال إن اتخاذ القبور مساجد قد كان جائزًا في فترة من الفترات؟ فإن هذا القول يفضي إلى القول بأن الشرك قد كان جائزًا في فترة من الفترات وهذا باطل قطعًا وهو لازم فاسد وقد تقرر أن فساد اللازم دليل على فساد الملزوم، وهذا كله يوضح لك أن الذين قالوا {لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا} إنما هم الكفار المعتدون أهل الغلو، الذين خالفوا شريعة أنبيائهم وتنكبوا عن الصراط

=

وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا (٢٣).

{وَلَا تَقُولَن لِشَيْءٍ} أَيْ لِأَجْلِ شَيْء {إِنِّي فَاعِل ذَلِكَ غَدًا} أَيْ فِيمَا يُسْتَقْبَل مِنْ الزمان.

إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللهُ وَاذْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَى أَنْ يَهْدِيَنِ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَذَا رَشَدًا (٢٤).

{إِلَّا أَنْ يَشَاء الله} أَيْ إِلَّا مُلْتَبِسًا بِمَشِيئَةِ الله تَعَالَى بِأَنْ تَقُول إِنْ شَاءَ الله {وَاذْكُرْ رَبّك} أَيْ مَشِيئَته مُعَلِّقًا بِهَا {إِذَا نَسِيت} وَيَكُون ذِكْرهَا بَعْد النِّسْيَان كَذِكْرِهَا مَعَ الْقَوْل قَالَ الْحَسَن وَغَيْره مَا دَامَ فِي المجلس {وقل عسى أن يهدين رَبِّي لِأَقْرَب مِنْ هَذَا} مِنْ خَبَر أَهْل الْكَهْف فِي الدَّلَالَة عَلَى نُبُوَّتِي {رَشَدًا} هِدَايَة وَقَدْ فَعَلَ الله ذَلِكَ.

وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا (٢٥).

{وَلَبِثُوا فِي كَهْفهمْ ثَلَاث مِائَة} بِالتَّنْوِينِ {سِنِينَ} عَطْف بَيَان لِثَلَاثِمِائَةٍ وَهَذِهِ

=

المستقيم، فبان لك إن شاء الله تعالى أن الذي يستدل بهذه الآية على جواز اتخاذ المساجد على القبور إنما أتي من جهله وقلة فهمه وعناده واستكباره ومن إملاء شيطانه ورغبته في إحياء الوثنية و إلا فليس في هذه الآية ولا مطلق الدليل على ما فهمه، لكنه سقيم الفهم سيء النية وفهمه مردود عليه مضروب به في وجهه ولا كرامة له ولا لمن سار على نهجه واقتفى أثره، ألا فأبعده الله وأخزاه وأخرس لسانه وقطع بنانه الذي كتب به هذه الخرافات وسطر به هذه الترهات والله له بالمرصاد على عدوانه على كلام ربه وتحريفه له والله المستعان.

السِّنُونَ الثَّلَاثمِائَةِ عِنْد أَهْل الْكَهْف شَمْسِيَّة وَتَزِيد الْقَمَرِيَّة عَلَيْهَا عِنْد الْعَرَب تِسْع سِنِينَ وَقَدْ ذَكَرْت فِي قَوْله {وَازْدَادُوا تِسْعًا} أَيْ تِسْع سِنِينَ فَالثَّلَاثمِائَةِ الشَّمْسِيَّة ثَلَاثمِائَةِ وَتِسْع قَمَرِيَّة.

قُلِ اللهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا لَهُ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا (٢٦).

{قُلْ الله أَعْلَم بِمَا لَبِثُوا} مِمَّنْ اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُوَ مَا تَقَدَّمَ ذِكْره {لَهُ غَيْب السَّمَاوَات وَالْأَرْض} أَيْ عِلْمه {أَبْصِرْ بِهِ} أَيْ بِاَللهِ هِيَ صِيغَة تَعَجُّب {وَأَسْمِعْ} بِهِ كَذَلِكَ بِمَعْنَى مَا أَبْصَرَهُ وَمَا أَسْمَعهُ وَهُمَا عَلَى جِهَة الْمَجَاز وَالْمُرَاد أَنَّهُ تَعَالَى لَا يَغِيب عَنْ بَصَره وَسَمْعه شَيْء {مَا لَهُمْ} لِأَهْلِ السَّمَاوَات وَالْأَرْض {مِنْ دُونه مِنْ وَلِيّ} نَاصِر {وَلَا يُشْرِك فِي حُكْمه أَحَدًا} لِأَنَّهُ غَنِيّ عن الشريك[1].

---

(١) ذكر سبب النزول.

عن مجاهد: أن قريشًا اجتمعت، فقالوا: يا محمد! قد رغبت عن ديننا ودين آبائنا، فما الذي جئت به؟ قال: "هذا دين جئت به من الرحمن"، فقالوا: إنا لا نعرف الرحمن؛ إلا رحمن اليمامة؛ يعنون: مسيلمة الكذاب، ثم كاتبوا اليهود، فقالوا: قد نبغ فينا رجل يزعم أنه نبي، وقد رغب عن ديننا ودين آبائنا، ويزعم أن الذي جاء به من الرحمن. قلنا: لا نعرف الرحمن إلا رحمن اليمامة، وهو أمين لا يخون، وفيّ لا يغدر، صدوق لا يكذب، وهو في حسب وثروة من قومه، فاكتبوا إلينا بأشياء نسأله عنها، فاجتمعت يهود فقالوا: إن لوصفه وزمانه الذي يخرج فيه، فكتبوا إلى قريش: أن سلوه عن أمر أصحاب الكهف، وعن ذي القرنين، وعن الروح، فإن يكن الذي أتاكم به من الرحمن؛ فإن الرحمن هو الله ﷻ، وإن يكن من رحمن اليمامة؛ فينقطع، فلما أتى ذلك قريشًا أتى الظفر في أنفسها فقالوا: يا محمد! قد =

=

رغبت عن ديننا ودين آبائك ... فحدثنا عن أمر أصحاب الكهف وذي القرنين والروح، قال: "ائتوني غدًا"، ولم يستثن، فمكث جبريل عنه ما شاء الله لا يأتيه، ثم أتاه فقال: "سألوني عن أشياء لم يكن عندي بها علم فأجيب حتى شق ذلك عليّ، قال: ألم ترنا لا ندخل بيتًا فيه كلب ولا صورة" -وكان في البيت جرو كلب- ونزلت: {وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا (٢٣) إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللهُ وَاذْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَى أَنْ يَهْدِيَنِ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَذَا رَشَدًا}، من علم الذي سألتموني عنه أن يأتي قبل غد؟ ونزل ما ذكر من أصحاب الكهف؛ ونزل: {وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا (٨٥)} [الإسراء: ٨٥] الآية.

ذكره السيوطي في "الدر المنثور" (٥/ ٣٧٦) ونسبه لابن المنذر. وهو ضعيف لإرساله.

وعن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما؛ قال: إن النبي ﷺ حلف على يمين، فمضى له أربعون ليلة؛ فأنزل الله: {وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا (٢٣) إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللهُ وَاذْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَى أَنْ يَهْدِيَنِ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَذَا رَشَدًا (٢٤)}.

ذكره السيوطي في "الدر المنثور" (٥/ ٣٧٧)، و"الباب النقول" (ص ١٤٤) ونسبه لابن مردويه.

وعن الضحاك؛ قال: لما نزلت هذه الآية: {وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ}، فقالوا: أيامًا أو أشهر أو سنين؟ فأنزل الله تعالى: {سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا}.

أخرجه الطبري في "جامع البيان" (١٥/ ١٥٢، ١٥٣). وهو ضعيف؛ لإعضاله.

* قوله تعالى: {وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا (٢٣) إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللهُ} [الكهف: ٢٣ - ٢٤]، أي:"ولا تقولنَّ لشيء تعزم على فعله: إني فاعل ذلك الشيء غدًا إلا أن تُعَلِّق قولك بالمشيئة، فتقول: إن شاء الله".

=

=

قال يحيى بن سلام:"يقول: إلا أن تستثني، بلغنا أن اليهود لما سألت رسول الله ﷺ عن أصحاب الكهف قال لهم رسول الله: «أخبركم عنهم غدا»، فلم يستثن، فأنزل الله هذه الآية".

قال الفراء:"المعنى: لا تقولن لشيء: إني فاعل ذلك غدا إلا بالاستثناء: إلا أن تقول: إن شاء الله".

قال الطبري:"وهذا تأديب من الله عز ذكره لنبيه ﷺ عهد إليه أن لا يجزم على ما يحدث من الأمور أنه كائن لا محالة، إلا أن يصله بمشيئة الله، لأنه لا يكون شيء إلا بمشيئة الله، وإنما قيل له ذلك فيما بلغنا من أجل أنه وعد سائليه عن المسائل الثلاث اللواتي قد ذكرناها فيما مضى اللواتي، إحداهنّ المسألة عن أمر الفتية من أصحاب الكهف أن يجيبهم عنهنّ غد يومهم، ولم يستثن، فاحتبس الوحي عنه فيما قيل من أجل ذلك خمس عشرة، حتى حزنه إبطاؤه، ثم أنزل الله عليه الجواب عنهنّ، وعرف نبيه سبب احتباس الوحي عنه، وعلَّمه ما الذي ينبغي أن يستعمل في عداته وخبره عما يحدث من الأمور التي لم يأته من الله بها تنزيل، فقال: {وَلا تَقُولَنَّ} يا محمد {لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا} كما قلت لهؤلاء الذين سألوك عن أمر أصحاب الكهف، والمسائل التي سألوك عنها، سأخبركم عنها غدا {إِلا أَنْ يَشَاءَ اللهُ}، ومعنى الكلام: إلا أن تقول معه: إن شاء الله".

وهذا وإن كان أمرًا فهو على وجه التأديب والإرشاد أن لا تعزم على أمر إلا أن تقرنه بمشيئة الله تعالى لأمور:

أحدها: أن العزم ربما صد عنه بمانع فيصير في وعده مخلفًا في قوله كاذبًا، قال موسى عليه السلام: {قَالَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا} [الكهف: ٦٩]، ولم يصبر ولم يكن كاذبًا لوجود الاستثناء في كلامه.

الثاني: إذعانًا لقدرة الله تعالى، وإنه مدبر في أفعاله بمعونة الله وقدرته.

=

=

الثالث: يختص بيمينه إن حلف وهو سقوط الكفارة عنه إذا حنث.

قوله تعالى: {وَاذْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ} [الكهف: ٢٤]، أي:"واذكر مشيئة ربك إذا فرط منك نسيان ثم تذكرت ذلك".

قال يحيى بن سلام:"إذا نسيت الاستثناء".

قال المراغي:"وهذا أمر بالتدارك حين التذكر، سواء أطال الفصل أم قصر".

وفي قوله تعالى: {وَاذْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ} [الكهف: ٢٤]، وجوه من التفسير:

أحدها: أنك إذا نسيت الشيء فاذكر الله ليذكرك إياه، فإن فعل فقد أراد منك ما ذكرك، وإلا فسيدلك على ما هو أرشد لك مما نسيته، حكاه الماوردي عن بعض المتكلمين.

الثاني: واذكر ربك إذا عصيت، قاله عكرمة، ليزول عنك الغضب عند ذكره.

الثالث: معناه: استثن في يمينك إذا ذكرت أنك نسيت ذلك في حال اليمين. وهذا قول ابن عباس، والحسن، وأبي العالية.

روي عن ابن عباس، في الرجل يحلف، قال له: "أن يستثني ولو إلى سنة، وكان يقول: {واذكر ربك إذا نسيت} في ذلك".

عن أبي العالية:"{واذكر ربك إذا نسيت}، الاستثناء، ثم ذكرت فاستثن".

قال الزجاج:"أي: وقت ذكرت أنك لم تستثن، فاستثن، وقل: إن شاء الله".

الرابع: واذكر ربك إذا غضبت. قاله عكرمة-أيضا-.

الخامس: واذكر ربك إذا نسيت الاستثناء بمشيئة الله في يمينك.

قال الطبري: الصواب:"قول من قال: معناه: واذكر ربك إذا تركت ذكره، لأن أحد معاني النسيان في كلام العرب الترك".

وفي الذكر المأمور به، قولان:

أحدهما: أنه ما ذكره في بقية الآية: {وقل عسى أن يهديني ربي لأقرب من هذا

=

=

رشدًا}.

الثاني: أنه قول: «إن شاء الله» الذي كان نسيه عند يمينه.

واختلفوا في ثبوت الاستثناء بعد اليمين على خمسة أقوال:

أحدها: أنه يصح الاستثناء بها إلى سنة، فيكون كالاستثناء بها مع اليمين في سقوط الكفارة ولا يصح بعد السنة، قاله ابن عباس.

وقال ابن عباس:"إذا حلف ثم قال: «إن شاء الله» فليس عليه كفارة".

عن ابن عمر، قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا حلف أحدكم فقال إن شاء الله فهو بالخيار إن شاء فعل وإن شاء لم يفعل».

الثاني: يصح الاستثناء بها في مجلس يمينه، ولا يصح بعد فراقه، قاله الحسن، وعطاء.

الثالث: يصح الاستثناء بها ما لم يأخذ في كلام غيره.

قال يحيى بن سلام:"من حلف على يمين فاستثنى قبل أن يتكلم بين اليمين وبين الاستثناء بشيء فله ثنياه، ولا كفارة عليه، وإن كان استثنى بعد ما تكلم بعد اليمين قبل الاستثناء، متى ما استثنى فالكفارة لازمة له، ويسقط عنه المأثم حيث استثنى؛ لأنه كان ركب ما نهي عنه من تركه ما أمر به من الاستثناء، أي: لا يقول: إني أفعل حتى يقول: إن شاء الله، ولا يقول: لا أفعل حتى يقول: إن شاء الله".

الرابع: يصح الاستثناء بها مع قرب الزمان، ولا يصح مع بعده.

الخامس: أنه لا يصح الاستثناء بها إلا متصلًا بيمينه. وهو الظاهر من مذهب مالك والشافعي رحمهما الله.

قال إبراهيم:"ليس الاستثناء بشيء حتى تجهر به كما تجهر باليمين". قال يحيى: "يعني: أن استثناءه في قلبه ليس بشيء حتى يتكلم به لسانه".

قال الحسن:"من حلف على يمين فرأى غيرها خيرا منها فليأت الذي هو خير،

=

=

وليكفر يمينه، الإطلاق أو عتاق".

قوله تعالى: {وَقُلْ عَسَى أَنْ يَهْدِيَنِ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَذَا رَشَدًا} [الكهف: ٢٤]، أي:"وقل: عسى أن يهديني ربي لأقرب الطرق الموصلة إلى الهدى والرشاد".

قال الزجاج:"أي: قل عسى أن يعطيني من الآيات والدلالات على النبوة ما يكون أقرب في الرشد وأدل من قصة أصحاب الكهف".

* وقوله تعالى: (ولا تقولن لشيء إني فاعل ذلك غدا إلا أن يشاء الله) هذا إرشاد من الله تعالى لرسوله ﷺ إلى الأدب فيما إذا عزم على شيء ليفعله في المستقبل أن يرد ذلك إلى مشيئة الله، علام الغيوب، الذي يعلم ما كان وما يكون وما لم يكن لو كان كيف يكون.

الغد: المراد به ما يستقبل من الزمان لا بخصوص الغد.

وقد جاء في الصحيحين عن أبى هريرة عن النبي ﷺ قال (قال سليمان بن داود نبي الله لأطوفن الليلة على سبعين امرأة كلهن تأتى بغلام يقاتل في سبيل الله. فقال له صاحبه أو الملك قل إن شاء الله. فلم يقل ونسى. فلم تأت واحدة من نسائه إلا واحدة جاءت بشق غلام». فقال رسول الله ﷺ «ولو قال إن شاء الله. لم يحنث وكان دركا له في حاجته).

فكما عاتب الله نبيه محمد ﷺ عاتب نبيه سليمان.

وقد تقدم في أول السورة ذكر سبب نزول هذه الآية في قول النبي ﷺ لما سئل عن قصة أصحاب الكهف قال: غدا أجيبكم؟ فتأخر الوحي خمسة عشر يوما.

- **قال القرطبي**: قال العلماء: عاتب الله تعالى نبيه - عليه السلام - على قوله للكفار حين سألوه عن الروح والفتية وذي القرنين: غدا أخبركم بجواب أسئلتكم؛ ولم يستثن في ذلك، فاحتبس الوحي عنه خمسة عشر يوما حتى شق ذلك عليه وأرجف الكفار به، فنزلت عليه هذه السورة مفرجة.

=

=

- **قال الماوردي**: هذا وإن كان أمرا فهو على وجه التأديب والإرشاد أن لا تعزم على أمر إلا أن تقرنه بمشيئة الله تعالى لأمرين:

أحدهما: أن العزم ربما صد عنه بمانع فيصير في وعده مخلفا في قوله كاذبا، قال موسى - عليه السلام - (ستجدني إن شاء الله صابرا) ولم يصبر ولم يكن كاذبا لوجود الاستثناء في كلامه.

الثاني: إذعانا لقدرة الله تعالى، وإنه مدبر في أفعاله بمعونة الله وقدرته.

الثالث: يختص بيمينه إن حلف وهو سقوط الكفارة عنه إذا حنث.

(واذكر ربك إذا نسيت).اختلف العلماء في معنى هذه الآية:

فقيل: أن هذه الآية متعلقة بما قبلها، والمعنى: أنك إذا قلت سأفعل غدا كذا ونسيت أن تقول إن شاء الله، ثم تذكرت بعد ذلك فقل: إن شاء الله.

ويدل عليه قوله تعالى (ولا تقولن لشيء إني فاعل ذلك غدا إلا أن يشاء الله).

وهذا قول الجمهور.

رجحه: الرازي، والخازن، وابن الجوزي، والشوكاني، والشنقيطي.

قال الشنقيطي: أن هذه الآية الكريمة متعلقة بما قبلها، والمعنى: أنك إن قلت سأفعل غدا كذا ونسيت أن تقول إن شاء الله، ثم تذكرت فقل إن شاء الله... وهو قول الجمهور.

وقيل: اذكر ربك إذا غضبت.

وقيل: اذكر ربك إذا نسيت ذكره، أي: ارجع إلى الذكر إذا غفلت عنه، واذكره في كل حال.

ورجحه: الطبري، وأبو حيان، ابن جزي، والقاسمي.

وقيل: ويحتمل في الآية وجه آخر وهو أن يكون الله تعالى قد أرشد من نسي الشيء في كلامه إلى ذكر الله، لأن النسيان منشؤه الشيطان كما قال فتى موسى (وما

=

=

أنسانيه إلا الشيطان أن أذكره) وذكر الله يطرد الشيطان، فإذا ذهب الشيطان ذهب النسيان

(وقل عسى أن يهديني ربي لأقرب من هذا رشدا) أي لعل الله أن يوفقني ويرشدني إلى ما هو أصلح من أمر ديني ودنياي.

قوله تعالى: {وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا (٢٥)} [الكهف: ٢٥]

قال ابن قتيبة:"ولم يقل: «سنة». كأنه قال: ولبثوا في كهفهم ثلاثمائة. ثم قال: «سنين»، أي: ليست شهورا ولا أياما. ولم يخرج مخرج: ثلاثمائة درهم".

وفي قراءة ابن مسعود: «قالوا لبثوا في كهفهم». وفيه قولان:

أحدهما: أن هذا قول اليهود، وقيل بل نصارى نجران أنهم لبثوا في كهفهم ثلاثمائة سنين وازدادوا تسعًا، فرد الله تعالى عليهم قولهم وقال لنبيه: {قل الله أعلم بما لبثوا}، ولو كانوا لبثوا ذلك لما قال: {قل الله أعلم بما لبثوا}. وهذا قول ابن عباس، وقتادة، ومطر الوراق.

عن قتادة قوله:"{ولبثوا في كهفهم}، قال: في حرف ابن مسعود: «وقالوا: ولبثوا»، يعني: أنه قال الناس، ألا ترى أنه قال: {قل الله أعلم بما لبثوا}".

قال مطر الوراق:"إنما هو شيء قالته اليهود، فرده الله عليهم وقال: {قل الله أعلم بما لبثوا}".

والقول الثاني: أن هذا إخبار من الله تعالى بهذا العدد عن مدة بقائهم في الكهف من حين دخلوه إلى ما ماتوا فيه. قاله عبيد بن عمير، ومجاهد، والضحاك، وابن زيد.

قال الطبري:"وأولى الأقوال في ذلك بالصواب أن يقال كما قال الله عز ذكره: ولبث أصحاب الكهف في كهفهم رقودا إلى أن بعثهم الله، ليتساءلوا بينهم، وإلى أن أعثر عليهم من أعثر، ثلاث مئة سنين وتسع سنين، وذلك أن الله بذلك أخبر في

=

=

كتابه، وأما الذي ذكر عن ابن مسعود أنه قرأ «وقالوا: ولبثوا في كهفهم»، وقول من قال ذلك من قول أهل الكتاب، وقد رد الله ذلك عليهم، فإن معناه في ذلك: إن شاء الله كان أن أهل الكتاب قالوا فيما ذكر على عهد رسول الله ﷺ أن للفتية من لدن دخلوا الكهف إلى يومنا ثلاث مئة سنين وتسع سنين، فرد الله ذلك عليهم، وأخبر نبيه أن ذلك قدر لبثهم في الكهف من لدن أووا إليه أن بعثهم ليتساءلوا بينهم، ثم قال جل ثناؤه لنبيه ﷺ: قل يا محمد: الله أعلم بما لبثوا بعد أن قبض أرواحهم، من بعد أن بعثهم من رقدتهم إلى يومهم هذا، لا يعلم بذلك غير الله، وغير من أعلمه الله ذلك.

فإن قال قائل: وما يدل على أن ذلك كذلك؟ قيل: الدال على ذلك أنه جل ثناؤه ابتدأ الخبر عن قدر لبثهم في كهفهم ابتداء، فقال: {ولبثوا في كهفهم ثلاث مائة سنين وازدادوا تسعا} ولم يضع دليلا على أن ذلك خبر منه عن قول قوم قالوه، وغير جائز أن يضاف خبره عن شيء إلى أنه خبر عن غيره بغير برهان، لأن ذلك لو جاز جاز في كل أخباره، وإذا جاز ذلك في أخباره جاز في أخبار غيره أن يضاف إليه أنها أخباره، وذلك قلب أعيان الحقائق وما لا يخيل فساده.

فإن ظن ظان أن قوله: {قل الله أعلم بما لبثوا} دليل على أن قوله: {ولبثوا في كهفهم} خبر منه عن قوم قالوه، فإن ذلك كان يجب أن يكون كذلك لو كان لا يحتمل من التأويل غيره، فأما وهو محتمل ما قلنا من أن يكون معناه: قل الله أعلم بما لبثوا إلى يوم أنزلنا هذه السورة، وما أشبه ذلك من المعاني فغير واجب أن يكون ذلك دليلا على أن قوله: {ولبثوا في كهفهم} خبر من الله عن قوم قالوه، وإذا لم يكن دليلا على ذلك، ولم يأت خبر بأن قوله: {ولبثوا في كهفهم} خبر من الله عن قوم قالوه، ولا قامت بصحة ذلك حجة يجب التسليم لها، صح ما قلنا، وفسد ما خالفه".

=

=

عن ابن عباس قال: "إن الرجل ليفسر الآية يرى أنها كذلك، فيهوي أبعد ما بين السماء والأرض، ثم تلا: {ولبثوا في كهفهم} ... الآية، ثم قال: كم لبث القوم؟ قالوا: ثلاثمائة وتسع سنين. قال: لو كانوا لبثوا كذلك، لم يقل الله قل الله أعلم بما لبثوا ولكنه حكى مقالة القوم فقال: {سيقولون ثلاثة} إلى قوله: {رجما بالغيب}، وأخبر أنهم لا يعلمون قال سيقولون: {ولبثوا في كهفهم ثلاث مائة سنين وازدادوا تسعا}".

* وقوله (ولبثوا في كهفهم ثلاث مائة سنين وازدادوا تسعا) هذا خبر من الله تعالى بمقدار ما لبث أصحاب الكهف في كهفهم منذ أرقدهم إلى أن بعثهم الله وأعثر عليهم أهل ذلك الزمان، وأنه كان مقدار ثلثمائة سنة تزيد تسع سنين.

- **قال القرطبي**: هذا خبر من الله تعالى عن مدة لبثهم.

وفي قراءة ابن مسعود "وقالوا لبثوا".

- قال الطبري: إن بني إسرائيل اختلفوا فيما مضى لهم من المدة بعد الإعثار عليهم إلى مدة النبي ﷺ، فقال بعضهم: إنهم لبثوا ثلثمائة سنة وتسع سنين، فأخبر الله تعالى نبيه أن هذه المدة في كونهم نياما، وأن ما بعد ذلك مجهول للبشر.

فأمر الله تعالى أن يرد علم ذلك إليه.

قال ابن عطية: فقوله على هذا "لبثوا" الأول يريد في نوم الكهف، و"لبثوا" الثاني يريد بعد الإعثار إلى مدة محمد ﷺ، أو إلى وقت عدمهم بالبلاء.....

قوله تعالى: {قُلِ اللهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا} [الكهف: ٢٦].

وفي تفسير الآية وجهان:

أحدهما: بما لبثوا بعد مدتهم إلى نزول القرآن فيهم.

الثاني: الله أعلم بما لبثوا في الكهف وهي المدة التي ذكرها عن اليهود إذ ذكروا زيادة ونقصانًا.

=

=

قوله تعالى: {لَهُ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ} [الكهف: ٢٦]، أي:"ولله علم ما غاب في السماوات والأرض، وخفى من أحوال أهلهما، لا يعزب عنه علم شئ منه".

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: لله علم غيب السماوات والأرض، لا يعزب عنه علم شيء منه، ولا يخفى عليه شيء، يقول: فسلموا له علم مبلغ ما لبثت الفتية في الكهف إلى يومكم هذا، فإن ذلك لا يعلمه سوى الذي يعلم غيب السماوات والأرض، وليس ذلك إلا الله الواحد القهار".

قوله تعالى: {أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ} [الكهف: ٢٦]، أي:"تعجب من كمال بصره وسمعه وإحاطته بكل شيء".

قال الطبري:"تأويل الكلام: ما أبصر الله لكل موجود، وأسمعه لكل مسموع، لا يخفى عليه من ذلك شيء".

قال قتادة:"فلا أحد أبصر من الله ولا أسمع، تبارك وتعالى!".

قال ابن زيد:"يرى أعمالهم، ويسمع ذلك منهم سميعا بصيرا".

قوله تعالى: {مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ} [الكهف: ٢٦]، أي:"ليس للخلق أحد غيره يتولى أمورهم".

قال الطبري:"يقول جل ثناؤه: ما لخلقه دون ربهم الذي خلقهم ولي، يلي أمرهم وتدبيرهم، وصرفهم فيما هم فيه مصرفون".

قوله تعالى: {وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا} [الكهف: ٢٦]، أي:"وليس له شريك في حكمه وقضائه وتشريعه، سبحانه وتعالى".

قال الطبري:"يقول: ولا يجعل الله في قضائه، وحكمه في خلقه أحدا سواه شريكا، بل هو المنفرد بالحكم والقضاء فيهم، وتدبيرهم وتصريفهم فيما شاء وأحب".

* (قل الله أعلم بما لبثوا) أي إذا سئلت عن لبثهم وليس عندك علم في ذلك

=

=

وتوقيف من الله تعالى فلا تتقدم فيه بشيء بل قل (الله أعلم بما لبثوا) أي لا يعلم ذلك إلا هو ومن أطلعه عليه من خلقه.

- والمدة المشار إليها: هي مدة قيام أصحاب الكهف في كهفهم إلى أن أطلع الناس عليهم.

واختار هذا القول: أبو حيان، وابن عطية، والرازي، والقرطبي، وابن كثير، والشوكاني.

وذهب بعض العلماء: إلى أن المدة المشار إليها هي المدة من لدن دخولهم الكهف إلى زمن النبي عليه الصلاة والسلام.

ورجحه: ابن جرير، والماوردي.

(له غيب السموات والأرض) أي ما غاب فيهما وخفي من أحوال أهلها، أي أنه هو وحده العالم به.

كما قال تعالى (قل لا يعلم من في السموات والأرض الغيب إلا الله).

وقال تعالى (عالم الغيب والشهادة).

وقال تعالى (ولله غيب السماوات والأرض).

وقال تعالى (إن الله لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء).

(أبصر به وأسمع) أي إنه لبصير بهم سميع لهم، قال ابن جرير: وذلك في معنى المبالغة في المدح: كأنه قيل: ما أبصره وأسمعه، وتأويل الكلام: ما أبصر الله لكل موجود، وأسمعه لكل مسموع، لا يخفى عليه من ذلك شيء. كما قال تعالى (وهو السميع البصير).

- **قال الشنقيطي**: أي ما أبصره وما أسمعه جل وعلا.

وما ذكره في هذه الآية الكريمة من اتصافه جل وعلا بالسمع والبصر، ذكر ه ايضا في مواضع أخر:

=

=

كقوله (ليس كمثله شيء وهو السميع البصير).

وقوله (قد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها وتشتكي إلى الله والله يسمع تحاوركما إن الله سميع بصير).

وقوله تعالى (الله يصطفي من الملائكة رسلا ومن الناس إن الله سميع بصير).

(ما لهم من دونه من ولي) أي هو الذي تولى أصحاب الكهف بلطفه وكرمه ولم يكلهم إلى أحد من الخلق.

- **قال الشنقيطي**: ذكر جل وعلا في هذه الآية الكريمة - أن أصحاب الكهف ليس لهم ولي من دونه جل وعلا، بل هو ليهم جل وعلا.

وهذا المعنى مذكور في آيات أخر:

كقوله تعالى (الله ولي الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور).

وقوله تعالى (ألا إن أولياآء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون) فبيت أنه ولي المؤمنين، وأن المؤمنين أولياؤه - والولي: هو من انعقد بينك وبينه سبب يواليك وتواليه به.

فالإيمان سبب يوالي به المؤمنين ربهم بالطاعة، ويواليهم به الثواب والنصر والإعانة.

وبين في مواضع أخر: أن المؤمنين بعضهم أولياء بعض، كقوله (والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياآء بعض).

وقيل: إن الضمير في قوله (مالهم) راجع إلى أهل السموات والأرض المفهومين من قوله تعالى (له غيب السماوات والأرض).

أي ليس لأحد ممن في السموات والأرض ولي من دون الله، حتى الكفار وليهم الله.

قال تعالى (حتى إذا جاء أحدكم الموت توفته رسلنا وهم لا يفرطون ثم ردوا إلى

=

وَاتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ كِتَابِ رَبِّكَ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَلَنْ تَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا (٢٧).

{وَاتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْك مِنْ كِتَاب رَبّك لَا مُبَدِّل لِكَلِمَاتِهِ وَلَنْ تَجِد مِنْ دُونه ملتحدا} ملجأ[1].

=

الله مولاهم الحق).

وهذه هي الولاية العامة.

لأن الولاية تنقسم إلى قسمين:

ولاية عامة: مقتضاها أن يرزقهم ويعطيهم وأيضا القهر والسلطان والملك.

ولاية خاصة: وهذه خاصة بالمؤمنين مقتضاها النصر والتأييد والتسديد والتوفيق والإخراج من الظلمات إلى النور

كما قال تعالى (الله ولي الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور).

وقال تعالى (ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون).

وقال تعالى (ذلك بأن الله مولى الذين آمنوا وأن الكافرين لا مولى لهم).

(ولا يشرك في حكمه أحدا) أي لا يشرك الله جل وعلا في حكمه أحدا، بل الحكم له وحده جل وعلا لا حكم لغيره، فالحلال ما أحله والحرام ما حرمه والدين ما شرعه والقضاء ما قضاه.

كما قال تعالى (إن الحكم إلا لله).وقال تعالى (إن الحكم إلا لله عليه توكلت).

وقال تعالى (وما اختلفتم فيه من شيء فحكمه إلى الله) وقال تعالى (كل شيء هالك إلا وجهه له الحكم).

(١) ذكر سبب النزول.

عن سلمان الفارسي رضي الله عنه؛ قال: جاءت المؤلفة قلوبهم إلى رسول الله ﷺ: عيينة بن بدر، والأقرع بن حابس وذووهم، فقالوا: يا رسول الله! إنك لو جلست في

=

=

صدر المسجد ونفيت عنا هؤلاء وأرواح جبابهم؛ يعنون: أبا ذر، وسلمان، وفقراء المسلمين وكانت عليهم جباب صوف، ولم يكن عليهم غيرها؛ جلسنا إليك وحادثناك، وأخذنا عنك؛ فأنزل الله ﷻ: {وَاتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ كِتَابِ رَبِّكَ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَلَنْ تَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا (٢٧) وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا (٢٨)} إلى قوله: {أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا} يهددهم بالنار. فقام رسول الله ﷺ يلتمسهم حتى أصابهم في مؤخر المسجد يذكرون الله، فقال رسول الله ﷺ: "الحمد لله الذي لم يمتني حتى أمرني أن أصبر نفسي مع قوم من أمتي، معكم المحيا ومعكم الممات".

أخرجه الطبري في "جامع البيان" (١٥/ ١٥٦)، وأبو نعيم في "حلية الأولياء" (١/ ٣٤٥)، والبيهقي في "شعب الإيمان" (٧/ ٣٣٦، ٣٣٧ رقم ١٠٤٩٤)، والواحدي في "أسباب النزول" (ص ٢٠١)، و"الوسيط" (٣/ ١٤٥)، وابن عساكر في "تاريخ دمشق" (٦/ ١٩٩ - مختصر) من طريق سليمان بن عطاء الحراني عن مسلمة بن عبد الله الحنفي عن عمه أبي مشجعة بن ربعي عن سلمان به. وهذا سند ضعيف جدًا -وفي متنه نكارة واضحة-؛ فيه سليمان بن عطاء الحراني؛ قال ابن حبان في "المجروحين" (١/ ٣٢٩): "يروي عن مسلمة بن عبد الله الجهني عن عمه أبي مشجعة بن ربعي أشياء موضوعة لا تشبه حديث الثقات، فلست أدري: التخليط منه أو من مسلمة بن عبد الله؟!". وقال أبو حاتم في "الجرح والتعديل" (٤/ ١٣٣ رقم ٥٨٠): "منكر الحديث".

وكذا قال الساجي وابن حجر. وقال الذهبي في "ميزان الاعتدال" (رقم ١٧٦٥): "متهم بالوضع، واهٍ"، وقال في "المغني" (رقم ٢٦٠٨): "هالك، اتهم بالوضع".

وأبو مشجعة هذا؛ مجهول؛ لم يرو عنه إلا ابن أخيه مسلمة، ولم يوثقه أحد.

=

=

وعنه ﷺ قال: نزلت هذه الآية فيّ وفي رجل دخل على النبي ﷺ -ومعي شن خوص- فوضع مرفقه في صدري فقال: تنحّ حتى ألقاني على البساط، ثم قال: يا محمد! إنا ليمنعنا كثيرًا من أمرك هذا وضرباؤه، أن ترى لي قدمًا وسوادًا فلو نحّيتهم إذا دخلنا عليك، فإذا خرجنا أذنت لهم إذا شئت، فلما خرج أنزل الله: {وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ} إلى قوله: {وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا}.

ذكره السيوطي في "الدر المنثور" (٥/ ٣٨٠، ٣٨١) ونسبه لعبد بن حميد.

وعن عبد الرحمن بن سهل بن حنيف: أن هذه الآية لما نزلت على رسول الله ﷺ وهو في بعض أبياته: {وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ} فخرج يلتمسهم، فوجد قومًا يذكرون الله؛ منهم: ثائر الرأس، وجاف الجلد، وذو الثوب الواحد، فلما رآهم جلس معهم، فقال: "الحمد لله الذي جعل لي في أمتي من أمرني أن أصبر نفسي معهم".

أخرجه الطبري في "جامع البيان" (١٥/ ١٥٥)، والطبراني في "المعجم الكبير"؛ كما في "مجمع الزوائد" (٧/ ٢١)، و"تفسير القرآن العظيم" (٣/ ٨٥، ٨٦)، وأبو نعيم الأصبهاني في "معرفة الصحابة" (٤/ ١٨٢٩ رقم ٤٦١٧)، وابن منده في "معرفة الصحابة"؛ كما في "أسد الغابة" (٣/ ٣٥٣) من طريق ابن وهب أخبرني أسامة بن زيد عن أبي حازم عن عبد الرحمن به.

وسنده ضعيف؛ لإرساله؛ فعبد الرحمن هذا ليس صحابيًا، مع أن الطبراني ذكره في "الصحابة" وكذا ابن أبي داود؛ لكن رده أبو نعيم وابن الأثير وقالا: لا يصح.

وعن عبد الله بن عباس ﷺ في قوله: {وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا}؛ قال: نزلت في أمية بن خلف، وذلك أنه دعا النبي ﷺ إلى أمر كرهه الله: من طرد الفقراء عنه، وتقريب صناديد أهل مكة؛ فأنزل الله: {وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا}؛ يعني: من ختمنا على قلبه؛ يعني: التوحيد {وَاتَّبَعَ هَوَاهُ} يعني: الشرك {وَكَانَ أَمْرُهُ

=

=
فُرُطًا}؛ يعني: فرطًا في أمر الله وجهالة بالله.
أخرجه أبو الشيخ -وعنه الواحدي في "أسباب النزول" (ص ٢٠٢) -، وابن مردويه في "تفسيره"؛ كما في "لباب النقول" (ص ١٤٤)، و"الدر المنثور" (٥/ ٣٨٢) من طريق جويبر عن الضحاك عن ابن عباس. وهذا إسناد ضعيف جدًا؛ جويبر ذا واهٍ بمرة، والضحاك لم يلق ابن عباس.
وعن ابن جريج؛ قال: أخبرت أن عيينة بن حصن قال للنبي ﷺ قبل أن يسلم: لقد آذاني ريح سلمان الفارسي؛ فاجعل لنا مجلسًا منك لا يجامعونا فيه، واجعل لهم مجلسًا لا نجامعهم فيه؛ فنزلت الآية.
أخرجه الطبري في "جامع البيان" (١٥/ ١٥٥) من طريق سنيد صاحب "التفسير" ثني حجاج بن محمد المصيصي عن ابن جريج به. وهذا إسناد ضعيف جدًا؛ مسلسل بالعلل: الأولى: الإعضال مع ملاحظة أن ابن جريج مدلس وهو وحش التدليس. والثانية: حجاج -هذا- اختلط بآخره. والثالثة: سنيد -صاحب" التفسير"- ضعيف.
وعن ابن بريدة؛ قال: دخل عيينة بن حصن على النبي ﷺ في يوم حار، وعنده سلمان عليه جبة من صوف، فثار منه ريح العرق في الصوف، فقال عيينة: يا محمد! إذا نحن أتيناك فأخرج هذا وضرباؤه من عندك؛ لا يؤذونا، فإذا خرجنا فأنت وهم أعلم؛ فأنزل الله تعالى: {وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ} الآية.
ذكره السيوطي في "الدر المنثور" (٥/ ٣٨٣) ونسبه لابن أبي حاتم، وهو مرسل.

وعن الربيع بن أنس؛ قال: حدثنا أن النبي ﷺ تصدى لأمية بن خلف وهو ساه غافل عما يقال له؛ فأنزل الله: {وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ} الآية، فرجع إلى أصحابه وخلى عن أمية، فوجد سلمان يذكرهم؛ فقال: "الحمد لله الذي لم أفارق الدنيا
=

=

حتى أراني أقوامًا من أمتي أمرني أن أصبر نفسي معهم".

ذكره السيوطي في "الدر المنثور" (٥/ ٣٨٣) ونسبه لابن أبي حاتم، وهو مرسل.

وعن ابن جريج؛ قال: نزلت: {وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا} في عيينة بن حصن، قال للنبي ﷺ: لقد آذاني ريح سلمان الفارسي، فاجعل لنا مجلسًا معك لا يجامعنا فيه، واجعل لهم مجلسًا منك لا نجامعهم فيه؛ فنزلت.

ذكره السيوطي في "الدر المنثور" (٥/ ٣٨٤) ونسبه لابن المنذر. وهو معضل.

* قوله تعالى: {وَاتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ كِتَابِ رَبِّكَ} [الكهف: ٢٧]، أي:"واتل -أيها الرسول- ما أوحاه الله إليك من القرآن".

قال مقاتل:"يقول أخبر كفار مكة الذين سألوا عن أصحاب الكهف بما «١» أوحينا إليك من أمرهم لا تنقص ولا تزيد".

قوله تعالى: {لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ} [الكهف: ٢٧]، أي:"لا مبدِّل لكلماته لصدقها وعدلها".

قال مقاتل:"يقول: لا تحويل لقوله لأن قوله- تعالى ذكره- حق".

قال يحيى بن سلام:"لا يحكم في الآخرة بخلاف ما قال في الدنيا، هو كقوله: {ما يبدل القول لدي} [ق: ٢٩]".

قال الزجاج:"أي: لَنْ تَجِدَ مَعْدِلًا عَنْ أمره ونَهْيِه، أي: ما أخبر الله به، وما أمر به فَلَا مُبَدِّلَ له".

قال ابن عباس: "يريد لمواعيده".

وقال الكلبي: "لا مغير للقرآن".

قوله تعالى: {وَلَنْ تَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا} [الكهف: ٢٧]، أي:"ولن تجد من دون ربك ملجًا تلجأ إليه، ولا معاذًا تعوذ به".

قال الطبري:"يقول: وإن أنت يا محمد لم تتل ما أوحي إليك من كتاب ربك

=

=

فتتبعه وتأتم به، فنالك وعيد الله الذي أوعد فيه المخالفين حدوده، لن تجد من دون الله موئلا تئل إليه ومعدلا تعدل عنه إليه، لأن قدرة الله محيطة بك وبجميع خلقه، لا يقدر أحد منهم على الهرب من أمر أراد به".

وفي قوله تعالى: {وَلَنْ تَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا} [الكهف: ٢٧]، وجوه من التفسير:

أحدها: ملجأ، قاله مجاهد، وابن زيد، وبه قال الفراء، والزجاج، والنحاس، قال الشاعر:

لا تحفيا يا أخانا من مودّتنا... فما لنا عنك في الأقوام مُلتحد

قال النحاس: " قال مجاهد: «أي: ملجأ»، أي: يمنعك منه جل وعز، قال أبو جعفر النحاس: وهو حسن في اللغة وأصله في اللغة من «اللحد»: وهو من الميل، و «الملحد»: المائل عن الحق العادل عنه، فإذا ألحدت عبد الى الشئ فقد ملت إليه".

قال القاسم بن سلام:"{ملتحدا}: ملجأ بلغة هذيل".

قال الزجاج:"اشتقاقه من «اللحد»، وهو مثل: {لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَأً أَوْ مَغَارَاتٍ أَوْ مُدَّخَلً} [التوبة: ٥٧]، فالملتحد من جنس المدخل".

الثاني: مهربًا، قاله قطرب، قال الشاعر:

يا لَهْفَ نفسي ولَهْفي غيرُ مُجْدِيَةٍ... عَنِّي وما مِنْ قضاءِ الله مُلْتَحَدُ

الثالث: معدلًا، ومنه «اللّحد» و «الإلحاد»، قاله أبو عبيدة، وابن قتيبة، والأخفش.

وقال السجستاني:"معدلا ومميلا، أي: ملجأ تميل إليه فتجعله حرزا".

الرابع: وليًا، قاله قتادة.

الخامس: ملجأ ولا موئلا. قاله قتادة أيضا.

السابع: يعني: مدخلا. قاله مقاتل.

قال مقاتل:"يقول لا تقل في أصحاب الكهف إلا ما قد قيل لك، فإن فعلت فإنك

=

=

لن تجد من دون الله- ﷻ- ملجأ تلجأ إليه ليمنعك منا".

قال الماوردي:"ومعانيها متقاربة".

قال سهل بن عبد الله:"أمره بالافتقار واللجوء إليه، ثم بإظهارهما بقوله، ليزيد بذلك للكافرين ضلالا وللمؤمنين إرشادا، وهي كلمة الإخلاص في التوحيد. إذ حقيقة التوحيد هو النظر للحق لا غير، والإقبال عليه، والاعتماد، ولا يتم ذلك إلا بالإعراض عما سواه، وبإظهار الافتقار واللجوء إليه".

يبدل ذلك، فإذا قضى الله تعالى بالفقر؛ ما استطاع أحد أن يبدل ذلك، وإذا قضى الله تعالى بالجدب؛ ما استطاع أحد أن يبدل ذلك، وكل هذه الأمور التي تحدث في الكون؛ فإنها بقوله؛ لقوله تعالى: {إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون} [يس:٨٢].

- أما الكلمات الشرعية؛ فإنها قد تبدل من قبل أهل الكفر والنفاق، فيبدلون الكلمات: إما بالمعنى، وإما باللفظ إن استطاعوا، أو بهما.

* وقوله تعالى: (واتل ما أوحي إليك من كتاب ربك) هذا أمر من الله لنبيه ﷺ أن يتلو هذا القرآن الذي أوحاه إليه.

والأمر في قوله (واتل) شامل للتلاوة بمعنى القراءة، والتلاوة بمعنى الاتباع.

كما قال تعالى (اتل ما أوحي إليك من الكتاب وأقم الصلاة).

وقال تعالى (إنما أمرت أن أعبد رب هذه البلدة الذي حرمها وله كل شيء وأمرت أن أكون من المسلمين وأن أتلو القرآن فمن اهتدى فإنما يهتدي لنفسه ومن ضل فقل إنما أنا من المنذرين).

(لا مبدل لكلماته) أي لا يقدر أي أحد على تغييرها وتبديلها، لأن أخبارها صدق وأحكامها عدل كما قال تعالى (وتمت كلمت ربك صدقا وعدلا لا مبدل لكلماته).

=

وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا (٢٨).

{وَاصْبِرْ نَفْسك} احْبِسْهَا {مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبّهمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيّ يُرِيدُونَ} بِعِبَادَتِهِمْ {وَجْهه} تَعَالَى لَا شَيْئًا مِنْ أَعْرَاض الدُّنْيَا وَهُمْ الْفُقَرَاء {وَلَا تَعْدُ} تَنْصَرِف {عَيْنَاك عَنْهُمْ} عَبَّرَ بِهِمَا عَنْ صَاحِبهمَا {تُرِيد زِينَة الْحَيَاة الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبه عَنْ ذِكْرنَا} أَيْ الْقُرْآن هُوَ عُيَيْنَةُ بْنُ حِصْنٍ وَأَصْحَابه {وَاتَّبَعَ هَوَاهُ} في الشرك {وكان أمره فرطا} إسرافا[1].

=

صدقا: في الأخبار، وعدلا: في الأحكام.

(ولن تجد من دونه ملتحدا) الملتحد: الملتجأ والمعنى: أنك إن لم تتبع القرآن وتتله وتعمل بأحكامه لن تجد معدلا تعدل إليه ومكانا تميل إليه.

كما قال تعالى (قل إني لن يجيرني من الله أحد ولن أجد من دونه ملتحدا).

- قال ابن كثير: يقول تعالى آمرا رسوله ﷺ بتلاوة كتابه العزيز وإبلاغه إلى الناس لا مبدل لكلماته أي لا مغير لها ولا محرف ولا مزيل. وقوله: ولن تجد من دونه ملتحدا عن مجاهد ملتحدا قال: ملجأ. وعن قتادة: وليا ولا مولى. قال ابن جرير: يقول إن أنت يا محمد لم تتل ما أوحي إليك من كتاب ربك، فإنه لا ملجأ لك من الله، كما قال تعالى: يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما بلغت رسالته والله يعصمك من الناس).

قال الرازي: قوله تعالى (اتل) يتناول القراءة ويتناول الإتباع فيكون المعنى الزم قراءة الكتاب الذي أوحى إليك والزم العمل به.

(١) قوله تعالى: {وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ} [الكهف:

=

=

٢٨]، أي:"واصبر نفسك -أيها النبي- مع أصحابك مِن فقراء المؤمنين الذين يعبدون ربهم وحده، ويدعونه في الصباح والمساء".

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: {واصبر} يا محمد {نفسك مع} أصحابك {الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي} بذكرهم إياه بالتسبيح والتحميد والتهليل والدعاء والأعمال الصالحة من الصلوات المفروضة وغيرها".

وفي معنى «الدعاء» في قوله تعالى: {يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ} [الكهف: ٢٨]، وجوه من التفسير:

أحدها: أنه الصلاة المكتوبة، قاله ابن عمر، وابن عباس، والحسن، ومجاهد، وقتادة، وسعيد بن المسيب، وعبدالرحمن بن أبي عمرة، وعامر.

قال ابن كثير:"وهذا كقوله تعالى: {وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ} [غافر: ٦٠] أي: أتقبل منكم".

وفي رواية عن مجاهد، وقتادة، قالا: يعني "صلاة الصبح والعصر".

وزعم مقاتل أن الصلاة يومئذ كانت "ركعتين بالغداة وركعتين بالعشي ثم فرضت الصلوات الخمس".

ونقل ابن أبي زمنين عن الحسن:"يعني: صلاة مكة؛ حين كانت الصلاة ركعتين غدوة، وركعتين عشية، قبل أن تفترض الصلوات الخمس".

والثاني: أنه ذكر الله تعالى، قاله إبراهيم النخعي، وعنه كالقول الأول.

والثالث: أنه عبادة الله، قاله الضحاك، وعنه كالقول الاول.

والرابع: أنه تعلم القرآن غدوة وعشية، قاله أبو جعفر.

قال أبو جعفر:"أمر إن يصبر نفسه مع أصحابه يعلمهم القرآن".

وروي عن عبيد الله بن عبد الله بن عدى بن الخيار، قال: "هم الذين يقرءون القرآن".

=

=

والخامس: أنه دعاء الله بالتوحيد، والإخلاص له، وعبادته، قاله الزجاج.

والسادس: أنه يريد الدعاء في أول النهار وآخره، ليستفتحوا يومهم بالدعاء رغبة في التوفيق. ويختموه بالدعاء طلبا للمغفرة. أفاده الماوردي.

قال الطبري:"والصواب من القول في ذلك أن يقال: إن الله تعالى ذكره نهى نبيه محمدًا ﷺ أن يطرُد قومًا كانوا يدعون ربّهم بالغداة والعشي، و الدعاء لله، يكون بذكره وتمجيده والثناء عليه قولا وكلامًا وقد يكون بالعمل له بالجوارح الأعمالَ التي كان عليهم فرضُها، وغيرُها من النوافل التي ترضي عن العامل له عابدَه بما هو عامل له".

قوله تعالى: {يُرِيدُونَ وَجْهَهُ} [الكهف: ٢٨]، أي:"يريدون بذلك وجهه".

قال الطبري:"{يريدون} بفعلهم ذلك {وجهه}، لا يريدون عرضا من عرض الدنيا".

قال البغوي:"أي: يريدون الله بطاعتهم".

وقال ابن عباس: "يطلبون ثواب الله".

قال ابن كثير:"أي: يبتغون بذلك العمل وجه الله الكريم، فهم مخلصون فيما هم فيه من العبادات والطاعات".

قال الزجاج:"أي يريدون اللهويقصدون الطرق التي أمرهم بقصدها وإنما قدروا بهذا أن يباعدهم فتكون لهم حجةعليه".

قال الطبري: أي:"يلتمسون بذلك القربة إلى الله، والدنوّ من رضاه".

قال ابن عطية:"و {وجهه}، في هذا الموضع معناه: جهة التزلق إليه كما تقول خرج فلان في وجه كذا أي في مقصد وجهة".

وقال القرطبي:"{يريدون وجهه}: أي طاعته، والإخلاص فيها، أي: يخلصون في عبادتهم وأعمالهم لله، ويتوجهون بذلك إليه لا لغيره. وقيل: يريدون الله

=

=

الموصوف بأن له الوجه كما قال: {وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ} [الرحمن: ٢٧]، وهو كقوله:"والذين {وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ} [الرعد: ٢٢]".

قال سهل بن عبد الله:""أي: يريدون وجه الله ورضاه، ولا يغيبون عنه ساعة. ثم قال: أزهد الناس أصفاهم مطعما، وأعبد الناس أشدهم اجتهادا في القيام بالأمر والنهي، وأحبهم إلى الله أنصحهم لخلقه. وسئل عن العمر قال: الذي يضيع العمر".

قوله تعالى: {وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ} [الكهف: ٢٨]، أي:"واجلس معهم وخالطهم، ولا تصرف نظرك عنهم إلى غيرهم من الكفار".

قال ابن قتيبة:"أي: لا تتجاوزهم إلى زينة الحياة الدنيا".

وفي قوله تعالى: {وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ} [الكهف: ٢٨]، وجهان:

أحدهما: ولا تتجاوزهم بالنظر إلى غيرهم من أهل الدنيا طلبًا لزينتها، حكاه اليزيدي.

وروي عن ابن عباس، قال:"لا تتعداهم إلى غيرهم".

الثاني: ما حكاه ابن جريج أن عيينة بن حصن قال للنبي ﷺ قبل أن يسلم: لقد آذاني ريح سلمان الفارسي، فاجعل لنا مجلسا منك لا يجامعوننا فيه، واجعل لهم مجلسا لا نجامعهم فيه، فنزلت الآية".

قوله تعالى: {تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا} [الكهف: ٢٨]، أي:"تبتغي بمجالستهم الشرف والفخر".

قال ابن زيد:"تريد أشراف الدنيا".

قوله تعالى: {وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا} [الكهف: ٢٨]، أي:"ولا تُطِعْ من جعلنا قلبه غافلا عن ذكرنا".

=

=

قال مقاتل:"يعني: القرآن".

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره لنبيه ﷺ: ولا تطع يا محمد من شغلنا قلبه من الكفار الذين سألوك طرد الرهط الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي عنك، عن ذكرنا، بالكفر وغلبة الشقاء عليه".

قوله تعالى: {وَاتَّبَعَ هَوَاهُ} [الكهف: ٢٨]، أي:"وآثَرَ هواه على طاعة مولاه".

قال مقاتل:"يعني: وآثر هواه".

قال الطبري:"وترك اتباع أمر الله ونهيه، وآثر هوى نفسه على طاعة ربه، وهم فيما ذكر: عيينة بن حصن، والأقرع بن حابس وذووهم".

عن خباب:"{ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا}، قال: عيينة، والأقرع".

قال سهل بن عبد الله:"الغفلة إبطال الوقت بالبطالة. وقال: إن للقلب ألف موت، آخرها القطيعة عن الله ﷻ، وإن للقلب ألف حياة، آخرها لقاء الحق ﷻ، وإن في كل معصية للقلب موتا، وفي كل طاعة للقلب حياة".

قوله تعالى: {وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا} [الكهف: ٢٨]، أي:"وصار أمره في جميع أعماله ضياعًا وهلاكًا".

وفي قوله تعالى: {وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا} [الكهف: ٢٨]، وجوه من التفسير:

أحدها: ضياعا، وهو قول مجاهد.

قال مقاتل:"{وكان أمره} الذي يذكر من شرفه وحسبه {فرطا}، يعني: ضائعا في القيامة، مثل قوله: {مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ} [الأنعام: ٣٨]، يعني: ما ضيعنا".

قال يحيى بن سلام: يعني: "ضياعا. وكقوله في الزّمر: {مَا فَرَّطتُ فِي جَنبِ الله} يعني ضعت وقصرت".

الثاني: متروكًا، قد ترك فيه الطاعة وغفل عنها. قاله الفراء.

=

=

الثالث: ندمًا. قاله داود، وابن قتيبة.

الرابع: هلاكا. قاله خباب.

الخامس: سرفًا وتضيعا. قاله أبو عبيدة.

السادس: خلافا للحق. قاله ابن زيد.

السابع: سريعًا. يقال: أفرط إذا أسرف وفرط إذا قصر. حكاه الماوردي عن ابن بحر.

قال الطبري:"وأولى الأقوال في ذلك بالصواب، قول من قال: معناه: ضياعا وهلاكا، من قولهم: أفرط فلان في هذا الأمر إفراطا: إذا أسرف فيه وتجاوز قدره، وكذلك قوله (وكان أمره فرطا) معناه: وكان أمر هذا الذي أغفلنا قلبه عن ذكرنا في الرياء والكبر، واحتقار أهل الإيمان، سرفا قد تجاوز حده، فضيع بذلك الحق وهلك".

قال أبو بكر: "كان عيينة بن حصن يفخر بقول أنا وأنا".

قال قتادة:"لما نزلت {واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي} [الكهف: ٢٨] ، قال النبي ﷺ: «الحمد لله الذي جعل من أمتي من أمرت أن أصبر معه»".

* وقوله تعالى: (واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي) يأمر الله تعالى نبيه أن يحبس نفسه مع المؤمنين الذين يدعون ربهم أول النهار وآخره مخلصين له، لا يريدون بدعائهم إلا رضا ربهم.

قال الآلوسي: قوله تعالى (يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بالغداة والعشى) أي: يعبدونه دائمًا، وشاع استعمال مثل هذه العبارة للدوام وهي نظير قولهم: ضرب زيد الظهر والبطن يريدون به ضرب جميع بدنه، وأبقى غير واحد الغداة والعشي على ظاهرهما ولم يرد عموم الأوقات أي يعبدونه في طرفي النهار، وخصا بالذكر لأنهما

=

=

محل الغفلة والاشتغال بالأمور، والمراد بتلك العبادة قيل ذكر الله تعالى وروى ذلك من طريق مغيرة عن إبراهيم، وقيل: قراءة القرآن.... (الآلوسي).

وقد نزلت هذه الآية في فقراء المهاجرين كعمار وصهيب وبلال وابن مسعود ونحوهم، لما أراد صناديد الكفار من النبي ﷺ أن يطردهم عنه، ويجالسهم بدون حضور أولئك الفقراء المؤمنين.

وقد أمر الله نبيه بعدم طردهم:

كما قال تعالى (وَلاَ تَطْرُدِ الذين يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بالغداة والعشي يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِّن شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظالمين).

- وهكذا أهل الكفر يطلبون ذلك من أنبيائهم.

كما قال قوم نوح لنوح (قَالُوا أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ).

وكما قال سبحانه (فَقَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قِوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلاَّ بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلاَّ الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا).

قال نوح (مَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّهُم مُّلاَقُو رَبِّهِمْ).

(الغداة) أول النهار (العشي) آخره.

(ولا تعد عيناك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا) أي لا تتجاوز عيناك إلى غيرهم من الأغنياء وما لديهم من زينة الحياة الدنيا، أي تطلب مجالسة من لم يكن مثلهم من الأغنياء وأصحاب الدنيا.

وما نهى الله عنه نبيه ﷺ في هذه الآية الكريمة من طموح العين إلى زينة الحياة الدنيا، مع الاتصاف بما يرضيه جل وعلا من الثبات على الحق، كمجالسة فقراء المؤمنين - أشار له أيضًا في مواضع أخر:

كقوله (فاصبر على مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشمس وَقَبْلَ غُرُوبِهَا

=

=

وَمِنْ آنَآءِ الليل فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النهار لَعَلَّكَ ترضى وَلاَ تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إلى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ الحياة الدنيا).

وقوله تعالى (وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِّنَ المثاني والقرآن العظيم لاَ تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إلى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ).

- **قال الآلوسي**: قوله تعالى (وَلاَ تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ) أي لا تصرف عيناك النظر عنهم إلى أبناء الدنيا، والمراد النهي عن احتقارهم وصرف النظر عنهم لرثاثة حالهم إلى غيرهم.

- **قال ابن عاشور**: جملة (تريد زينة الحياة الدنيا) أي لا تكن إرادة الزينة سبب الإعراض عنهم لأنهم لا زينة لهم من بزة وسمت... هذا الكلام تعريض بحماقة سادة المشركين الذين جعلوا همهم وعنايتهم بالأمور الظاهرة وأهملوا الاعتبار بالحقائق والمكارم النفسية فاستكبروا عن مجالسة أهل الفضل والعقول الراجحة والقلوب النيرة وجعلوا همّهم الصور الظاهرة.

هذا نهي جامع عن ملابسة شيء مما يأمره به المشركون.

والمقصود من النهي تأسيس قاعدة لأعمال الرسول والمسلمين تُجاه رغائب المشركين وتأييس المشركين من نوال شيء مما رغبوه من النبي ﷺ.

(ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا) أي: شغل عن الدين وعبادة ربه بالدنيا، كأولئك الذين طلبوا منه أن ينحي الفقراء عن مجلسه، فإنهم طلبوا تنحية الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه وهو غافلون عن ذكر الله.

ذهب بعض العلماء: أن المراد بذلك عيينة بن حصن.

وقيل: المراد أمية بن خلف.

وقيل: المراد كفار قريش، ورجحه أبو حيان.

وقيل: إن الآية مطلقة من غير تقييد.

=

وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا (٢٩).

{وَقُلْ} لَهُ وَلِأَصْحَابِهِ هَذَا الْقُرْآن {الْحَقّ مِنْ رَبّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ} تَهْدِيد لَهُمْ {إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ} أَيْ الْكَافِرِينَ {نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقهَا} مَا أَحَاطَ بِهَا {وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ} كَعَكَرِ الزَّيْت {يَشْوِي الْوُجُوه} مِنْ حَرّه إِذَا قُرِّبَ إِلَيْهَا {بِئْسَ الشَّرَاب} هُوَ {وَسَاءَتْ} أَيْ النَّار {مُرْتَفَقًا} تَمْيِيز مَنْقُول عَنْ الْفَاعِل أَيْ قَبُحَ مُرْتَفَقهَا وَهُوَ مُقَابِل لِقَوْلِهِ الْآتِي فِي الْجَنَّة {وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا} وَإِلَّا فَأَيّ ارْتِفَاق فِي النَّار[1].

=

ورجحه: الواحدي، والرازي، وابن جزي، وابن كثير، والقاسمي، والسعدي.

(واتبع هواه) ممن اتبع هواه وآثره على الحق فاختار الشرك على التوحيد.

معنى اتبع هواه: أي اتبع ما تمليه إليه نفسه الأمارة بالسوء وتهواه من الشر كالكفر والمعاصي.

(وكان أمره فرطًا) أي أعماله وأفعاله سفه وتفريط وضياع.

قال الشيخ ابن عثيمين رحمه الله: وفي هذه الآية إشارة إلى أهمية حضور القلب عند ذكر الله، وأن الإنسان الذي يذكر الله بلسانه لا بقلبه تنزع البركة من أعماله وأوقاته حتى يكون أمره فرطا عليه، تجده يبقى الساعات الطويلة ولم يحصل شيئا ولكن لو كان أمره مع الله لحصلت له البركة في جميع أعماله.

(١) قوله تعالى: {وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ} [الكهف: ٢٩]، أي:"وقل لهؤلاء الغافلين: ما جئتكم به هو الحق من ربكم، فمن أراد منكم أن يصدق ويعمل به، فليفعل فهو خير له، ومن أراد أن يجحد فليفعل، فما ظَلَم إلا

=

=

نفسه".

قال قتادة:"الحق هو القرآن".

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: وقل يا محمد لهؤلاء الذين أغفلنا قلوبهم عن ذكرنا، واتبعوا أهواءهم، الحق أيها الناس من عند ربكم، وإليه التوفيق والحذلان، وبيده الهدى والضلال يهدي من يشاء منكم للرشاد، فيؤمن، ويضل من يشاء عن الهدى فيكفر، ليس إلي من ذلك شيء، ولست بطارد لهواكم من كان للحق متبعا، وبالله وبما أنزل علي مؤمنا، فإن شئتم فآمنوا، وإن شئتم فاكفروا".

عن ابن عباس، قوله: " {فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر}، يقول: من شاء الله له الإيمان آمن، ومن شاء الله له الكفر كفر".

وقال ابن عباس:"هذا تهديد ووعيد".

قال مجاهد:"وعيد من الله، فليس بمعجزي".

قال ابن زيد:"هذا كله وعيد ليس مصانعة ولا مراشاة ولا تفويضا".

قوله تعالى: {إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا} [الكهف: ٢٩]، أي:"إنا أعتدنا للكافرين نارًا شديدة أحاط بهم سورها".

قال الطبري:"فإنكم إن كفرتم فقد أعد لكم ربكم على كفركم به نار أحاط بكم سرادقها، وإن آمنتم به وعملتم بطاعته، فإن لكم ما وصف الله لأهل طاعته".

عن ابن زيد قوله: " {إنا أعتدنا للظالمين نارا أحاط بهم سرادقها}، قال: للكافرين".

وفي قوله تعالى: {إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا} [الكهف: ٢٩]، وجوه من التفسير:

أحدها: أن «سرادقها»: حائط من النار يطيف بهم، قاله ابن عباس.

=

=

قال يحيى بن سلام:"سورها، ولها عمد، فإذا مدت تلك العمد أطبقت على أهلها، وذلك حين يقول: {اخسئوا فيها ولا تكلمون} [المؤمنون: ١٠٨]، فإذا قال ذلك أطبقت عليهم، وهو قوله: {إِنَّهَا عَلَيْهِمْ مُؤْصَدَةٌ {٨} فِي عَمَدٍ مُمَدَّدَة} [الهمزة: ٨ - ٩]".

قال أبو عبيدة:"كسرادق الفسطاط، وهى الحجرة التي تطيف بالفسطاط، قال رؤبة:

يا حكم بن المنذر بن الجارود... أنت الجواد بن الجواد المحمود

سرادق المجد إليك ممدود

وقال سلامة بن جندل:

هو المولج النّعمان بيتا سماؤه... صدور الفيول بعد بيت مسردق

أي: له سرادق".

الثاني: هو دخانها ولهيبها قبل وصولهم إليها، وهو الذي قال الله تعالى فيه: {إِلَى ظِلٍّ ذِي ثَلَاثِ شُعَبٍ (٣٠) لَا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِي مِنَ اللَّهَبِ} [المرسلات: ٣٠ - ٣١]. قاله قتادة، وحكاه معمر.

الثالث: أنه يخرج عنق من النار فيحيط بهم، فذلك السرادق. قاله مقاتل.

الرابع: أنه البحر المحيط بالدنيا.

قال الطبري: معناه: " أحاط سرادق النار التي أعدها الله للكافرين بربهم، وذلك فيما قيل: حائط من نار يطيف بهم كسرادق الفسطاط، وهي الحجرة التي تطيف بالفسطاط".

قوله تعالى: {وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ} [الكهف: ٢٩]، أي:"وإن يستغث هؤلاء الكفار في النار بطلب الماء مِن شدة العطش، يُؤتَ لهم بماء كالزيت العَكِر شديد الحرارة يشوي وجوههم".

=

=

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: وإن يستغث هؤلاء الظالمون يوم القيامة في النار من شدة ما بهم من العطش، فيطلبون الماء يغاثوا بماء المهل، فيشوي ذلك الماء الذي يغاثون به وجوههم".

عن أبي سعيد، عن رسول الله ﷺ قال: «ماء كالمهل»، قال: «كعكر الزيت، فإذا قربه إليه سقط فروة وجهه فيه».

ويذكر عن أبي أمامة، عن النبي ﷺ، في قوله " {ويسقى من ماء صديد يتجرعه}، قال: يقرب إليه فيتكرهه، فإذا قرب منه، شوى وجهه، ووقعت فروة رأسه، فإذا شربه قطع أمعاءه، يقول الله: {وإن يستغيثوا يغاثوا بماء كالمهل يشوي الوجوه بئس الشراب}".

قال هارون: إذا جاع أهل النار، وقال جعفر: إذا جاء أهل النار استغاثوا بشجرة الزقوم، فأكلوا منها، فاختلست جلود وجوههم، فلو أن مارا مار بهم يعرفهم، لعرف جلود وجوههم فيها، ثم يصب عليهم العطش، فيستغيثون، فيغاثون بماء كالمهل، وهو الذي قد انتهى حره، فإذا أدنوه من أفواههم انشوى من حره لحوم وجوههم التي قد سقطت عنها الجلود".

وفي قوله تعالى: {وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ} [الكهف: ٢٩]، وجوه من التفسير:

أحدها: أنه القيح والدم، قاله مجاهد.

الثاني: أنه ماء غليظ مثل دردي الزيت، قاله ابن عباس.

الثالث: أنه كل شيء أذيب حتى انماع؛ قاله ابن مسعود.

قال قتادة:"ذكر لنا أن ابن مسعود أهديت إليه سقاية من ذهب وفضة، فأمر بأخدود فخد في الأرض، ثم قذف فيه من جزل حطب، ثم قذف فيه تلك السقاية، حتى إذا أزبدت وانماعت قال لغلامه: ادع من يحضرنا

=

=
من أهل الكوفة، فدعا رهطا، فلما دخلوا عليه قال: أترون هذا؟ قالوا: نعم، قال: ما رأينا في الدنيا شبيها للمهل أدنى من هذا الذهب والفضة، حين أزبد وانماع".

الرابع: هو الذي قد انتهى حره، قاله سعيد بن جبير، قال الشاعر:

شاب بالماء منه مهلًا كريهًا... ثم علّ المتون بعد النهال

قال الماوردي:"وجعل ذلك إغاثة لاقترانه بذكر الاستغاثة".

قال الطبري:"وهذه الأقوال وإن اختلفت بها ألفاظ قائليها، فمتقاربات المعنى، وذلك أن كل ما أذيب من رصاص أو ذهب أو فضة فقد انتهى حره، وأن ما أوقدت عليه من ذلك النار حتى صار كدردي الزيت، فقد انتهى أيضا حره.

قال الطبري:"وقد: حدثت عن معمر بن المثنى، أنه قال: سمعت المنتجع بن نبهان يقول: والله لفلان أبغض إلي من الطلياء والمهل، قال: فقلنا له: وما هما؟ فقال: الجرباء، والملة التي تنحدر عن جوانب الخبزة إذا ملت في النار من النار، كأنها سهلة حمراء مدققة، فهي أحمره، فالمهل إذا هو كل مائع قد أوقد عليه حتى بلغ غاية حره، أو لم يكن مائعا، فانماع بالوقود عليه، وبلغ أقصى الغاية في شدة الحر".

قال الضحاك:"ماء جهنم أسود، وهي سوداء، وشجرها أسود، وأهلها سود".

قوله تعالى: {بِئْسَ الشَّرَابُ} [الكهف: ٢٩]، أي:"قَبُح هذا الشراب الذي لا يروي ظمأهم بل يزيده".

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: بئس الشراب، هذا الماء الذي يغاث به هؤلاء الظالمون في جهنم الذي صفته ما وصف في هذه الآية".

قوله تعالى: {وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا} [الكهف: ٢٩]، أي:"وقَبُحَتْ النار منزلا لهم ومقامًا".

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: وساءت هذه النار التي أعتدناها لهؤلاء الظالمين
=

=
مرتفقا، والمرتفق في كلام العرب: المتكأ، يقال منه: ارتفقت إذا اتكأت، كما قال الشاعر:

قالت له وارتفقت ألا فتى... يسوق بالقوم غزالات الضحى

أراد: واتكأت على مرفقها، وقد ارتفق الرجل: إذا بات على مرفقه لا يأتيه نوم، وهو مرتفق، كما قال أبو ذؤيب الهذلي:

نام الخلي وبت الليل مرتفقا... كأن عيني فيها الصاب مذبوح

وأما من الرفق فإنه يقال: قد ارتفقت بك مرتفقا".

وفي قوله تعالى: {وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا} [الكهف: ٢٩]، وجوه:

أحدها: معناه: ساءت مجتمعًا، قاله مجاهد.

قال الطبري:"ولست أعرف الارتفاق بمعنى: «الاجتماع» في كلام العرب، وإنما الارتفاق: افتعال، إما من المرفق، وإما من الرفق".

قال الماوردي:"كأنه ذهب إلى معنى المرافقة".

الثاني: ساءت منزلًا. قاله قتادة، والكلبي، ومقاتل، والزجاج، مأخوذ من الارتفاق.

وقال الأخفش:"وساءت الدار مرتفقا".

الثالث: أنه من «الرفق». حكاه الماوردي.

الرابع: أنه من المتكأ، وهذا قول السدي، وأبي عبيدة، وأنشد الأخير قول أبي ذؤيب الهذليّ:

إنّى أرقت فبتّ الليل مرتفقا... كأنّ عينى فيها الصاب مذبوح

قال أبو عبيدة:"وذبحه: انفجاره، قال: وهو شديد وحكى عن أبى عمرو بن العلاء أو غيره يقال: انفقأت واحدة فقطّرت فى عينى فكأنه كان فى عينى وتد".

قال السدي:"عليها مرتفقون على الحميم حين يشربون، والارتفاق هو المتكأ".

الخامس: أي: ساءت مجلسا. وأصل «الارتفاق»: الاتكاء على المرفق. قاله ابن
=

=

قتيبة.

* وقوله تعالى: (وقل الحق من ربكم) يقول تعالى لرسوله محمد ﷺ: وقل يا محمد للناس هذا الذي جئتكم به من ربكم هو الحق الذي لا مرية فيه ولا شك.

كما قال تعالى (الحق من ربك فلا تكونن من الممترين).

(فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر) هذا من باب التهديد والوعيد الشديد، وهذا الأسلوب في اللغة المقصود به التهديد والدليل على ذلك: أنه أتبعه بقوله (إنا أعتدنا للظالمين..).

قال الشنقيطي: وهذا أصرح دليل على أن المراد التهديد والتخويف، إذ لو كان المراد التخيير على بابه لما توعد أحد الطرفين المخير بينهما بهذا العذاب الأليم.

(إنا أعتدنا) أي أرصدنا.

(للظالمين) المراد بالظالمين هنا الكفار، بدليل قوله قبله (ومن شاء فليكفر)، وقد يطلق الظلم على الكفر كما في قوله تعالى (والكافرون هم الظالمون).

- والظلم في لغة العرب: وضع الشيء في غير موضعه، ومن أعظم ذلك وضع العبادة في غير موضعها.

(نارا أحاط بهم سرادقها) أي أحدق بهم من كل جانب.

والسرادق: اختلف العلماء على أقوال كلها ترجع إلى شيء واحد: فقيل: سورها، وقيل: حائط من نار، والمراد أن النار محيطة بهم من كل جانب.

كما قال تعالى (لهم من فوقهم ظلل من النار ومن تحتهم ظلل).

قال السعدي: أي سورها المحيط بها، فليس لهم منفذ ولا طريق ولا مخلص منها تصلاهم النار الحامية.

(وإن يستغيثوا) أي يطلبوا الشراب ليطفئ ما نزل بهم من العطش الشديد.

(يغاثوا بماء كالمهل) المهل: كالرصاص المذاب أو كعكر الزيت من شدة

=

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا (٣٠).

=

حرارته.

كما قال تعالى (وسقوا ماء حميما فقطع أمعاءهم).

وقد ذهب أبو عبيد القاسم بن سلام أن المراد بالمهل في قوله تعالى: {بماء كالمهل}: كل شيء أذيب حتى انماع، معتمدا في ذلك قول ابن مسعود - رضي الله عنه -.

وروي عن مجاهد أن المراد به: القيح والدم.

وروي عن ابن عباس - رضي الله عنهما - أن المراد به: عكر الزيت.

وروي عن سعيد بن جبير أن المراد بقوله تعالى: {بماء كالمهل} قال: الذي انتهى حره.

وجميع الأقوال الواردة في معنى (المهل) صحيحة ومحتملة؛ مما يمكن من القول بها أو ببعضها عند تفسير الآية، فهي أقوال متقاربة المعنى لا ينفي أحدها الآخر.

قال الطبري: (وهذه الأقوال وإن اختلفت بها ألفاظ قائليها فمتقاربات المعنى).

وقال النحاس: (وهذه الأقوال متقاربة).

وقال القرطبي: (والمعنى في هذه الأقوال متقارب).

وقال ابن كثير: (وهذه الأقوال ليس شيء منها ينفي الآخر، فإن المهل يجمع هذه الأوصاف الرذيلة كلها).

* وهذا الأسلوب (يغاثوا..) يفيد أنه لا إغاثة لهم البتة.

(يشوي الوجوه) أي من حره، إذا أراد الكافر أن يشربه وقربه من وجهه شواه حتى تسقط جلدة وجهه فيه.

(بئس الشراب) أي بئس هذا الشراب الذي يفعل بهم هذا.

(وساءت مرتفقا) وساءت: أي النار، مرتفقا: أي موضعا ومنزلا ومقيلا ومجتمعا وموضعا للارتفاق كما في الآية الأخرى (إنها ساءت مستقرا ومقاما).

{إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَات إِنَّا لَا نُضِيع أَجْر مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا} الْجُمْلَة خَبَر إِنَّ الَّذِينَ وَفِيهَا إِقَامَة الظَّاهِر مَقَام الْمُضْمَر وَالْمَعْنَى أَجْرهمْ أَيْ نُثِيبهُمْ بِمَا تَضَمَّنَهُ.

أُولَئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِنْ سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ نِعْمَ الثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا (٣١).

{أُولَئِكَ لَهُمْ جَنَّات عَدْن} إِقَامَة {تَجْرِي مِنْ تَحْتهمْ الْأَنْهَار يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِر} قِيلَ مِنْ زَائِدَة وَقِيلَ لِلتَّبْعِيضِ وَهِيَ جَمْع أَسْوِرَة كَأَحْمِرَةٍ جَمْع سِوَار {مِنْ ذَهَب وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِنْ سُنْدُس} مَا رَقَّ مِنْ الدِّيبَاج {وَإِسْتَبْرَق} مَا غَلُظَ مِنْهُ وَفِي آيَة الرَّحْمَن {بَطَائِنهَا مِنْ إِسْتَبْرَق} {مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِك} جَمْع أَرِيكَة وَهِيَ السَّرِير فِي الْحَجَلَة وَهِيَ بَيْت يُزَيَّن بِالثِّيَابِ وَالسُّتُور لِلْعَرُوسِ {نِعْمَ الثَّوَاب} الجزاء الجنة {وحسنت مرتفقا}[1].

---

(١) قوله تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ} [الكهف: ٣٠]، أي:"إن الذين آمنوا بالله ورسوله وعملوا الأعمال الصالحات".

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: إن الذين صدقوا الله ورسوله، وعملوا بطاعة الله، وانتهوا إلى أمره ونهيه".

قال ابن كثير:"لما ذكر تعالى حال الأشقياء، ثنى بذكر السعداء، الذين آمنوا بالله وصدقوا المرسلين فيما جاؤوا به، وعملوا بما أمروهم به من الأعمال الصالحة".

قوله تعالى: {إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا} [الكهف: ٣٠]، أي:"إنا لا نضيع أجورهم، ولا ننقصها على ما أحسنوه من العمل".

قال مقاتل:"يقول: لا نضيع أجر من أحسن العمل ولكنا نجزيه بإحسانه".

=

=

قال الطبري:"إنا لا نضيع ثواب من أحسن عملا فأطاع الله، واتبع أمره ونهيه، بل نجازيه بطاعته وعمله الحسن جنات عدن تجري من تحتها الأنهار".

قال الحارث المحاسبي:"وأحسن الأعمال التوحيد".

قال سهل:"«حسن العمل»: الاستقامة عليه بالسنة، وإنما مثل السنة في الدنيا مثل الجنة في الآخرة، ومن دخل الجنة سلم، كذلك من لزم السنة في الدنيا سلم من الآفات. وقال مالك بن أنس رضي الله عنه: لو أن رجلا ارتكب جميع الكبائر ثم لم يكن فيه شيء من هذه الأهواء والبدع لرجوت له. ثم قال: من مات على السنة فليبشر ثلاث مرات. وقال سهل: لا يرفع الحجاب عن العبد حتى يدفن نفسه في الثرى. قيل له: كيف يدفن نفسه في الثرى؟ قال: يميتها على السنة، ويدفنها في اتباع السنة، لأن لكل شيء من مقامات العابدين مثل الخوف والرجاء والحب والشوق والزهد والرضا والتوكل غاية، إلا السنة فإنه ليست لها غاية ونهاية. وسئل عن معنى قوله: «ليست للسنة غاية» متى بن أحمد، فقال: لا يكون لأحد مثل خوف النبي ﷺ أو حبه أو شوقه، أو زهده أو رضاه أو توكله أو أخلاقه، وقد قال الله تعالى: {وإنك لعلى خلق عظيم} [القلم: ٤]. وسئل عن معنى قوله ﷺ: «أجيعوا أنفسكم وأعروها»، فقال: أجيعوا أنفسكم إلى العلم وأعروها عن الجهل".

* وقوله تعالى: (إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات) لما ذكر تعالى حال الأشقياء، ثنى بذكر حال السعداء الذين آمنوا بالله وصدقوا المرسلين فيما جاءوا به، وعملوا بما أمروهم به من الأعمال الصالحة.

(إنا لا نضيع أجر من أحسن عملا) أي لا يضيع الله أجره، أي جزاء عمله، بل يجازي بعمله الحسن الجزاء الأوفى

كما قال تعالى (فاستجاب لهم ربهم أني لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى بعضكم من بعض).

=

=

وقال تعالى (هل جزاء الإحسان إلا الإحسان).

(إنا لا نضيع أجر من أحسن عملا) ولم يقل [إنا لا نضيع أجرهم] لبيان العلة في ثواب هؤلاء وهو أنهم أحسنوا العمل.

وإحسان العمل يكون بأمرين:

بالإخلاص، وبالمتابعة للرسول ﷺ.

قوله تعالى: {أُولَئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ} [الكهف: ٣١]، أي:"أولئك الذين آمنوا لهم جنات يقيمون فيها دائمًا".

قال الزجاج: " جنات إقامة، وقيل في التفسير جنات عدن، جنات من الأربع الجنان التي أعدها الله لأوليائه".

قال مكي:"أي: جنات إقامة لا زوال منها".

قال أبو الليث السمرقندي:"«االعدن»: الإقامة، ويقال: العدن بطنان الجنة، وهي وسطها".

وفي "جَنَّاتِ عَدْنٍ"، وجوه:

أحدها: أن «عدن»: اسم قصر في الجنة، قاله الحسن.

الثاني: أنها مدينة الجنة، فيها الرُّسُل والأنبياء والشهداء، وأئمة الهدى، والناس حولهم بعدُ، والجنات حولها. قاله الضحاك.

الثالث: أنها اسم نهر في الجنة، جنّاته على حافتيه. قاله عطاء.

الرابع: أن جنة «عدن» في السماء العليا لا يدخلها إلا نبيّ أو صديق أو شهيد أو إمام عدل، وجنة المأوى في السماء الدنيا تأوي إليها أرواح المؤمنين. ذكره الماوردي وقال:"رواه معاذ بن جبل مرفوعًا".

قوله تعالى: {تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ} [الكهف: ٣١]، أي:"تجري من تحت غرفهم ومنازلهم الأنهار العذبة".

=

=

قال مقاتل:"يقول: تجري الأنهار من تحت البساتين".

قال ابن كثير:"أي: من تحت غرفهم ومنازلهم، قال لهم فرعون: {وَهَـٰذِهِ الأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي} [الزخرف: ٥١]".

قال مكي:"أي: من دونهم الأنهار. كما يقال: داري تحت دارك، أي: دونها".

عن أبي مالك قوله: " {تجري من تحتهم الأنهار}، يعني: تحت منازلهم وأرضهم".

قال مسروق: "أنهار الجنة تجري في غير أخدود، ثمرها كالقلال، كلما نزعت ثمرة عادت مثلها أخرى، والعنقود اثنا عشر ذراعا".

قوله تعالى: {يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ} [الكهف: ٣١]، أي:"يُزَيَّنون فيها بأساور الذهب".

عن الحسن: "الحلي في الجنة على الرجال أحسن منه على النساء".

عن أبي حازم، قال: "كنت خلف أبي هريرة وهو يتوضأ، وهو يمد الوضوء إلى إبطه، فقلت: يا أبا هريرة، ما هذا الوضوء؟ قال: يا بني فروخ، أنتم هاهنا لو علمت أنكم هاهنا ما توضأت هذا الوضوء، إني سمعت خليلي يقول: «تبلغ الحلية من المؤمن حيث يبلغ الوضوء»".

عن سعيد بن المسيب -من طريق يحيى بن سعيد- قال: "ليس مِن أهل الجنة أحدٌ إلا وفي يده ثلاثة أسورة: إسوار من ذهب، وإسوار من فضة، وإسوار من لؤلؤ. قال: وهو قوله: {يحلون فيها من أساور من ذهب ولؤلؤا} [فاطر: ٣٣]، وقوله: {وحلوا أساور من فضة} [الإنسان: ٢١]".

قال سعيد بن جبير: "يُحَلّى كلُّ واحد منهم ثلاثةً من الأساور: واحدًا من فضّة، وواحدًا من ذهب، ووحدًا من لؤلؤ ويواقيت".

عن مجاهد بن جبر، في قوله: " {أساور من ذهب}، قال: الأساور: المسك".

=

=

عن عكرمة مولى ابن عباس، قال: "إنّ أهل الجنة يحلون أسورة من ذهب ولؤلؤ وفضة، هي أخفُّ عليهم من كل شيء، إنما هي نور".

قوله تعالى: {وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِنْ سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ} [الكهف: ٣١]، أي:"ويَلْبَسون ثيابًا ذات لون أخضر نسجت من رقيق الحرير وغليظه".

وفي «السندس»، قولان:

أحدهما: أنه من ألطف من الديباج، قاله الكلبي.

الثاني: أنه رقيق الديباج، واحده «سندسة»، قاله ابن قتيبة، والطبري.

روي عن أبي عمران الجوني، قال: "السندس: هو الديباج المنسوج بالذهب".

عن أبي الخير مرثد بن عبد الله، قال: "في الجنة شجرة تنبت السُّندُسَ منه يكون ثياب أهل الجنة".

وفي «الاستبرق»، أيضا قولان:

أحدهما: أنه الديباج الغليظ، قاله الضحاك، وابن قتيبة،والطبري.

قال الضحاك:"الديباج الغليظ، وهو بلغة العجم استبره".

عن محمد بن السائب الكلبي -من طريق معمر- في قوله تعالى: " {من سندس واستبرق}، قال: الإستبرق: هو الديباج".

قال مقاتل:"يعني: الديباج بلغة فارس".

قال يحيى بن سلام: "سمعت بعض أهل الكوفة يقول: هي بالفارسية: استبره".

قال ابن قتيبة:"ويقول قوم: فارسي معرب، أصله: استبره، وهو الشديد".

وقد قال المرقش:

تَرَهُنَّ يَلْبَسْنَ المَشاعِرَ مَرَّةٌ... وإسْتَبْرَقَ الدّيباجِ طَوْرًا لِباسُها

يعني: وغليظ الديباج.

الثاني: أنه الحرير المنسوج بالذهب، حكاه الماوردي عن ابن بحر.

=

=

قال عبد الرحمن بن سابط: "يبعث الله إلى العبد من اهل الجنة بالكسوة فتعجبه، فيقول: لقد رأيت الجنان فما رأيت مثل هذه الكسوة قط! فيقول الرسول الذي جاء بالكسوة: إن ربك يأمر أن تهيئ لهذا العبد مثل هذه الكسوة ما شاء".

عن عقبة بن عامر: أنّ رسول الله ﷺ كان يمنع أهله الحِلية والحرير، ويقول: «إن كنتم تحبون حلية الجنة وحريرها فلا تلبسوهما في الدنيا».

قال كعب:"لو إن ثوبا من ثياب أهل الجنة نشر اليوم في الدنيا، لصعق من ينظر إليه وما حملته أبصارهم".

عن عبد الله بن عمرو، قال: قال رجل: يا رسول الله، أخبِرنا عن ثياب أهل الجنة، أَخَلْقٌ تُخْلَق أم نَسْجٌ تُنسَج؟ قال: «بل يشقق عنها ثمر الجنة».

عن أبي رافع، قال: قال رسول الله ﷺ: «مَن كفَّن ميتًا كساه الله من سندسِ وإستبرقِ الجنة».

قال سليم بن عامر: "إن الرجل من أهل الجنة يلبس الحلة من حلل اهل الجنة فيضعها بين أصبعيه، فما يرى منها شيء، وإنه يلبسها فيتعفر حتى تغطي قدميه، يكسى في الساعة الواحدة سبعين ثوبا... إن أدناها مثل شقيق النعمان، وأنه يلبس سبعين ثوبا يكاد إن يتوارى، وما يستطيع أحد في الدنيا يلبس سبعة أثواب ما يسعه عنقه".

قال ثابت: "بلغنا إن الرجل يتكئ في الجنة سبعين سنة، عنده من أزواجه وخدمه وما أعطاه الله من الكرامة والنعيم، فإذا حانت منه نظرة، فإذا أزواج له لم يكن يراهن من قبل ذلك فيقلن: قد إن لك إن تجعل لنا منك نصيبا".

قوله تعالى: {مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ} [الكهف: ٣١]، أي:"يتكئون فيها على الأسِرَّة المزدانة بالستائر الجميلة".

وفي قوله تعالى: {مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ} [الكهف: ٣١]، ثلاثة أقوال:

=

=

أحدها: أنها الحجال. قاله قتادة. والحسن.

عن أبي رجاء، قال: "سُئِل الحسن البصري عن (الأرائك). فقال: هي الحِجال، أهل اليمن يقولون: أريكة فلان".

الثاني: أنها الفُرُش في الحجال. قاله الزجاج.

الثالث: أنها السرر في جوف الحجال، عليها الفرش منضود في السماء فرسخ. قاله ابن عباس، وأبو عبيدة، وابن قتيبة، والطبري.

وقال ابن قتيبة:"{الأرائك} السرر في الحجال، واحدها «أريكة»".

وقد قال ذو الرمة:

خُدُودا جَفَتْ في السَّيْرِ حتى كأنَّما... يُبَّاشرن بالمَعْزاءِ مَسّ الأرَائك

وقال الأعشى:

بينَ الّرَواق وجانِبٍ مِن سِتْرها... مِنْها وبين أرِيكَةِ الأنْضَادِ

عن عبد الله بن عباس -من طريق مجاهد- قال: "لا تكون أريكة حتى يكون السرير في الحَجَلة، فإن كان سريرٌ بغير حَجلة لم يكن أريكة، وإن كانت حَجلة بغير سرير لم تكن أريكة، فإذا اجتمعتا كانت أريكة".

قال ابن كثير:"«الاتكاء»: قيل: الاضطجاع، وقيل: التربع في الجلوس. وهو أشبه بالمراد هاهنا، ومنه الحديث في الصحيح: «أما أنا فلا آكل متكئًا»، و «الأرائك»: جمع «أريكة»، وهي السرير تحت الحَجَلة، و «الحجلة» كما يعرفه الناس في زماننا هذا بـ «الباشخاناه»، والله أعلم".

عن معاذ بن جبل، قال: قال رسول الله ﷺ: «إنّ الرجل في الجنة لَيتنعم في تُكَأَةٍ واحدة سبعين عامًا».

قوله تعالى: {نِعْمَ الثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا} [الكهف: ٣١]، أي:"نِعْمَ الثواب ثوابهم، وحَسُنتِ الجنة منزلا ومكانًا لهم".

=

=

قال الطبري: "يقول: نعم الثواب جنات عدن، وما وصف جلّ ثناؤه أنه جعل لهؤلاء الذين آمنوا وعلموا الصالحات، وحسنت هذه الأرائك في هذه الجنان التي وصف تعالى ذكره في هذه الآية متكأ".

قال ابن كثير: "أي: نعمت الجنة ثوابًا على أعمالهم، {وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا} أي: حسنت منزلا ومقيلا ومقامًا".

* (أولئك) المذكورين سابقا: آمنوا وعملوا الصالحات.

(لهم جنات عدن) أي لهم الجنات: والجنة: هي الدار التي أعدها الله لأوليائه المتقين، فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر.

(عدن) أي جنات إقامة، يقال: عدن بالمكان: أي أقام به، فهو مكان إقامة لا رحيل بعدها ولا تحول.

كما قال تعالى (خالدين فيها لا يبغون عنها حولا).

(تجري من تحتهم الأنهار) أي تجري من سكانها وقصورها الأنهار.

وهذه الأنهار بينها الله بقوله (مثل الجنة التي وعد المتقون فيها أنهار من ماء غير آسن وأنهار من لبن لم يتغير طعمه وأنهار من خمر لذة للشاربين وأنهار من عسل مصفى).

(يحلون فيها) أي يلبسون في الجنة.

(من أساور من ذهب) أي يحلون في الجنة بأساور من ذهب.

وجاء في آية أخرى أن حليهم الذهب واللؤلؤ:

كما قال تعالى (جنات تجري من تحتها الأنهار يحلون فيها من أساور من ذهب ولؤلؤا ولباسهم فيها حرير).

وجاء في آية أخرى أن حليهم الفضة: كما قال تعالى (وحلوا أساور من فضة وسقاهم ربهم).

=

=

والجمع بين ذلك:

ذهب جماهير العلماء إلى أنه لا منافاة بين الآيات، لأنهم يسورون بهذه الأجناس الثلاثة، إما على المعاقبة، أو على الجمع، أو على التبعيض.

فعلى المعاقبة: فإنهم يحلون بسوارات الذهب تارة، وسوارات الفضة تارة، وسوارات اللؤلؤ تارة.

أما على الجمع: فيحلى كل واحد منهم بثلاثة من الأساور، فيكون في يد الواحد منهم سوار من ذهب، وسوار من فضة، وسوار من لؤلؤ.

أما على التبعيض: فهو أن يكون أساور البعض ذهبا، والبعض الآخر فضة، وذلك لاختلاف الأعمال.

(ويلبسون ثيابا خضرا من سندس وإستبرق) السندس: ما رق من الديباج، والإستبرق: ما غلظ منه.

- قال الطبري: معنى الآية: أنهم يلبسون من الحلي أساور من ذهب، ويلبسون من الثياب السندس وهو ما رق من الديباج، والإستبرق وهو ما غلظ فيه وثخن.

قال تعالى (ولباسهم فيها حرير).

(متكئين فيها على الأرائك) الاتكاء: قيل: الاضطجاع، وقيل: التربع في الجلوس.

قال ابن كثير: هو أشبه بالمراد ههنا.

(الأرائك): جمع أريكة وهي السرير المزين بالثياب الفاخرة، فلا تسمى أريكة حتى تكون كذلك.

- **قال السعدي**: وفي اتكائهم على الأرائك، ما يدل على كمال الراحة، وزوال النصب والتعب.

(نعم الثواب) أي نعم هذا الجزاء للعاملين المتقين.

(وحسنت مرتفقا) أي نعمت الجنة ثوابا على أعمالهم وحسنت مرتفقا ومنزلا

=

وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا رَجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا (٣٢).

{وَاضْرِبْ} اجْعَلْ {لَهُمْ} لِلْكُفَّارِ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ {مَثَلًا رَجُلَيْنِ} بَدَل وَهُوَ وَمَا بَعْده تَفْسِير لِلْمَثَلِ {جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا} الْكَافِر {جَنَّتَيْنِ} بُسْتَانَيْنِ {مِنْ أَعْنَاب وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنهمَا زَرْعًا} يَقْتَات بِهِ.

كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِمْ مِنْهُ شَيْئًا وَفَجَّرْنَا خِلَالَهُمَا نَهَرًا (٣٣).

{كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ} كِلْتَا مُفْرَد يَدُلّ عَلَى التَّثْنِيَة مُبْتَدَأ {آتَتْ} خَبَره {أُكُلهَا} ثَمَرهَا {وَلَمْ تَظْلِم} تنقص {منه شيئا وَفَجَّرْنَا} أَيْ شَقَقْنَا {خِلَالهمَا نَهَرًا} يَجْرِي بَيْنهمَا.

وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا (٣٤).

{وَكَانَ لَهُ} مَعَ الْجَنَّتَيْنِ {ثَمَر} بِفَتْحِ الثَّاء وَالْمِيم وَبِضَمِّهِمَا وَبِضَمِّ الْأَوَّل وَسُكُون الثَّانِي وَهُوَ جَمْع ثَمَرَة كَشَجَرَةٍ وَشَجَر وَخَشَبَة وَخَشَب وَبَدَنَة وَبَدَن {فَقَالَ لِصَاحِبِهِ} الْمُؤْمِن {وَهُوَ يُحَاوِرهُ} يُفَاخِرهُ {أَنَا أَكْثَر مِنْك مَالًا وَأَعَزّ نَفَرًا} عَشِيرَة.

وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا (٣٥).

{وَدَخَلَ جَنَّته} بِصَاحِبِهِ يَطُوف بِهِ فِيهَا وَيُرِيهِ أَثْمَارهَا وَلَمْ يَقُلْ جَنَّتَيْهِ إِرَادَة لِلرَّوْضَةِ وَقِيلَ اكْتِفَاء بِالْوَاحِدِ {وَهُوَ ظَالِم لِنَفْسِهِ} بِالْكُفْرِ {قَالَ ما أظن أن تبيد} تنعدم {هذه أبدا}.

وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُدِدْتُ إِلَى رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا (٣٦).

=

ومقيلا، بخلاف النار (ساءت مرتفقا).

{وَمَا أَظُنّ السَّاعَة قَائِمَة وَلَئِنْ رُدِدْت إِلَى رَبِّي} فِي الْآخِرَة عَلَى زَعْمك {لَأَجِدَن خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا} مَرْجِعًا.

قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلًا (٣٧).

{قَالَ لَهُ صَاحِبه وَهُوَ يُحَاوِرهُ} يُجَاوِبهُ {أَكَفَرْت بِالَّذِي خَلَقَك مِنْ تُرَاب} لِأَنَّ آدَم خُلِقَ مِنْهُ {ثُمَّ مِنْ نُطْفَة} مَنِيّ {ثُمَّ سَوَّاك} عدلك وصيرك {رجلا}.

لَكِنَّا هُوَ اللهُ رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا (٣٨).

{لَكِنَّا} أَصْله لَكِنْ أَنَا نُقِلَتْ حَرَكَة الْهَمْزَة إِلَى النُّون أَوْ حُذِفَتْ الْهَمْزَة ثُمَّ أُدْغِمَتْ النون في مثلها {هو} ضمير الشأن تفسيره الجملة بعده والمعنى أنا أقول {الله ربي ولا أشرك بربي أحدا}.

وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ إِنْ تَرَنِ أَنَا أَقَلَّ مِنْكَ مَالًا وَوَلَدًا (٣٩).

{وَلَوْلَا} هَلَّا {إِذْ دَخَلْت جَنَّتك قُلْت} عِنْد إِعْجَابك بِهَا هَذَا {مَا شَاءَ الله لَا قُوَّة إِلَّا بِاَللهِ} وَفِي الْحَدِيث مَنْ أُعْطِيَ خَيْرًا مِنْ أَهْل أَوْ مَال فَيَقُول عِنْد ذَلِكَ مَا شَاءَ الله لَا قُوَّة إِلَّا بِاَللهِ لَمْ يَرَ فِيهِ مَكْرُوهًا {إِنْ تَرَنِ أنا} ضمير فصل بين المفعولين {أقل منك مالا وولدا}.

فَعَسَى رَبِّي أَنْ يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِنْ جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِنَ السَّمَاءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا (٤٠).

{فعسى ربي أن يؤتين خَيْرًا مِنْ جَنَّتك} جَوَاب الشَّرْط {وَيُرْسِل عَلَيْهَا حُسْبَانًا} جَمَعَ حُسْبَانَة أَيْ صَوَاعِق {مِنْ السَّمَاء فَتُصْبِح صَعِيدًا زَلَقًا} أَرْضًا مَلْسَاء لَا يَثْبُت عليها قدم.

أَوْ يُصْبِحَ مَاؤُهَا غَوْرًا فَلَنْ تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَبًا (٤١).

{أَوْ يُصْبِح مَاؤُهَا غَوْرًا} بِمَعْنَى غَائِرًا عَطْف عَلَى يُرْسِل دُون تُصْبِح لِأَنَّ غَوْر الْمَاء لَا يَتَسَبَّب عَنْ الصَّوَاعِق {فَلَنْ تَسْتَطِيع لَهُ طَلَبًا} حِيلَة تُدْرِكهُ بِهَا.

وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَى مَا أَنْفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَالَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا (٤٢).

{وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ} بِأَوْجُهِ الضَّبْط السَّابِقَة مَعَ جَنَّته بِالْهَلَاكِ فَهَلَكَتْ {فَأَصْبَحَ يُقَلِّب كَفَّيْهِ} نَدَمًا وَتَحَسُّرًا {عَلَى مَا أَنْفَقَ فِيهَا} فِي عِمَارَة جَنَّته {وَهِيَ خَاوِيَة} سَاقِطَة {عَلَى عُرُوشهَا} دَعَائِمهَا لِلْكَرْمِ بِأَنْ سَقَطَتْ ثُمَّ سَقَطَ الْكَرْم {وَيَقُول يَا} للتنبيه {ليتني لم أشرك بربي أحدا}.

وَلَمْ تَكُنْ لَهُ فِئَةٌ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللهِ وَمَا كَانَ مُنْتَصِرًا (٤٣).

{وَلَمْ تَكُنْ} بِالتَّاءِ وَالْيَاء {لَهُ فِئَة} جَمَاعَة {يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُون الله} عِنْد هَلَاكهَا {وَمَا كَانَ مُنْتَصِرًا} عِنْد هَلَاكهَا بِنَفْسِهِ.

هُنَالِكَ الْوَلَايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا (٤٤).

{هُنَالِكَ} أَيْ يَوْم الْقِيَامَة {الْوَلَايَة} بِفَتْحِ الْوَاو النُّصْرَة وَبِكَسْرِهَا الْمِلْك {لِلَّهِ الْحَقّ} بِالرَّفْعِ صِفَة الْوَلَايَة وَبِالْجَرِّ صِفَة الْجَلَالَة {هُوَ خَيْر ثَوَابًا} مِنْ ثَوَاب غَيْره لَوْ كَانَ يُثِيب {وَخَيْر عُقْبًا} بِضَمِّ الْقَاف وَسُكُونهَا عَاقِبَة لِلْمُؤْمِنِينَ وَنَصْبهمَا على التمييز[1].

---

(١) قوله تعالى: {وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا رَجُلَيْنِ} [الكهف: ٣٢]، أي:"واضرب -أيها الرسول- لكفار قومك مثلا رجلين من الأمم السابقة: أحدهما مؤمن، والآخر كافر".

=

=

قال مقاتل:"يعني: وصف لأهل مكة شبها رجلين".

وفي ضرب المثل في هاتين الجنتين، قولان:

أحدهما: ما حكاه مقاتل بن سليمان: أنه إخبار الله تعالى عن أخوين كانا في بني إسرائيل، أحدهما مؤمن واسمه يمليخا، والآخر كافر واسمه فرطس، مات أبوهما، فورث كل واحد منهما عن أبيه أربعة آلاف دينار، فعمد المؤمن فأنفق ماله على الفقراء، واليتامى، والمساكين، وعمد الكافر فاتخذ المنازل، والحيوان، والبساتين، فكان من حاله ما ذكره الله من بعد، فجعله الله تعالى مثلًا لهذه الأمة.

والقول الثاني: أنه مثل ضربه الله تعالى لهذه الأمة، وليس بخبر عن حال متقدمة، ليزهد في الدنيا ويرغب في الآخرة، وجعله زجرًا وإنذارًا. حكاه الماوردي.

وقال الزجاج:"كان المشركون سألوا النبي ﷺ بمشورة إليهود عليهم أن يسألوا النبي ﷺ عن قصة أصحاب الكهف وعن الروح وعن هذين الرجلين، فأعلمه الله الجواب وأنه مثل له عليه السلام وللكفار، ومثل لجميع من آمن بالله وجميع من عند عنه وكفر به".

قوله تعالى: {جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ} [الكهف: ٣٢]، أي:"وقد جعلنا للكافر حديقتين من أعناب".

قال ابن كثير:"أي: بستانين من أعناب".

قال السدي:"إن الجنة هي البستان، فكان له بستان واحد وجدار واحد، وكان بينهما نهر ولذلك كان جنتين، فلذلك سماه جنة من قبل الجدار الذي يليها".

قوله تعالى: {وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ} [الكهف: ٣٢]، أي:"وأحطناهما بنخل كثير".

قال ابن كثير:"محفوفتين بالنخل المحدقة في جنباتهما".

قال الزجاج:"أي: جعلنا النخل مطيفا بهما، يقال: قد حف القوم بزيد، إذا كانوا مطيفين به".

=

=

قال أبو عبيدة:"أطفناهما وحجزناهما من جوانبهما، قال الطّرمّاح:

تظلّ بالأكمام محفوفة... ترمقها أعين جرّامها".

قوله تعالى: {وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا} [الكهف: ٣٢]، أي:"وأنبتنا وسطهما زروعًا مختلفة نافعة".

قال ابن كثير:"وفي خلالهما الزروع".

قال الزجاج:"فأعلم الله أن عمارتهما كاملة متصلة لا يفصل بينهما إلا عمارة، وأعلمنا أنهما كاملتان في تأدية حملهما من نخلهما وأعنابهما والزرع الذي بينهما".

* وقوله تعالى: (واضرب لهم مثلا) يقول تعالى بعد ذكره المشركين المستكبرين عن مجالسة الضعفاء والمساكين من المسلمين، وافتخروا عليهم بأموالهم وأحسابهم، فضرب لهم هذا المثل.

- **قال الرازي:** اعلم أن المقصود من هذا أن الكفار افتخروا بأموالهم وأنصارهم على فقراء المسلمين فبين الله تعالى أن ذلك مما لا يوجب الافتخار لاحتمال أن يصير الفقير غنيا والغني فقيرا، أما الذي يجب حصول المفاخرة به فطاعة الله وعبادته وهي حاصلة لفقراء المؤمنين وبين ذلك بضرب هذا المثل المذكور في الآية.

- قال ابن عطية: وظاهر هذا المثل أنه بأمر وقع وكان موجودا، وعلى ذلك فسره أكثر أهل هذا التأويل، ويحتمل أن يكون مضروبا بمن هذه صفته وإن لم يقع ذلك في وجود قط، والأول أظهر.

- **قال القرطبي:** هذا مثل لمن يتعزز بالدنيا ويستنكف عن مجالسة المؤمنين، وهو متصل بقوله (واصبر نفسك).

- **قال الآلوسي:** أي اضرب لهم مثلا من حيثية العصيان مع النعمة والطاعة مع

=

=

الفقر حال رجلين

(رجلين جعلنا لأحدهما جنتين) أي جعلنا لأحدهما - وهو الكافر - بساتين من شجر العنب.

وسمى البستان جنة لاستتار ما يستتر فيها بظل الأشجار وأصل الكلمة من الستر والتغطية.

(وحففناهما بنخل) أي أحطناهما بسياج من شجر النخيل.

- **قال الرازي**: أي وجعلنا النخل محيطا بالجنتين نظيره قوله تعالى (وترى الملائكة حافين من حول العرش).

- **قال ابن عاشور**: ومن محاسن الجنات أن تكون محاطة بالأشجار المثمرة.

(وجعلنا بينهما زرعا) أي وجعلنا وسط هذين البستانين زرعا.

قوله تعالى: {كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا} [الكهف: ٣٣]، أي:"وقد أثمرت كل واحدة من الحديقتين ثمرها".

قال مقاتل:"يعنى: أعطت ثمراتها كلها".

قال الفراء:"معناه: كل شيء من ثمر الجنتين آتى أكله".

قال البغوي:"أي: أعطت كل واحدة من الجنتين ثمرها تاما".

قال ابن كثير:"أي: خرجت ثمره، وكل من الأشجار والزروع مثمر مُقبلٌ في غاية الجود".

قوله تعالى: {وَلَمْ تَظْلِمْ مِنْهُ شَيْئًا} [الكهف: ٣٣]، أي:"ولم تُنْقِص منه شيئًا".

قال ابن عباس:"لم تنقص، كل شجر الجنة أطعم".

قال أبو عبيدة:"ولم تنقص، ويقال: ظلمنى فلان حقى أي نقصنى، وقال رجل لابنه:

تَظَلَّمَنِي مالي كَذَا وَلَوَى يَدِي... لَوَى يَدَهُ اللهُ الَّذِي لا يغالبه".

=

=

قال ابن كثير:"أي: ولم تنقص منه شيئًا".

قوله تعالى: {وَفَجَّرْنَا خِلَالَهُمَا نَهَرًا} [الكهف: ٣٣]، أي:"وشققنا بينهما نهرًا لسقيهما بسهولة ويسر".

قال أبو عبيدة:"أي: وسطهما، وبينهما، وبعضهم يسكّن هاء النهر".

قال ابن كثير:"أي: والأنهار تتخرق فيهما هاهنا وهاهنا".

عن السدي: قوله:"{وفجرنا خلالهما نهرا}، يقول: وسطهما".

قال الفراء:"يقال: كيف جاز التشديد وإنما النهر واحد؟

قلت: لأن النهر يمتد حتى صار التفجر كأنه فيه كله، فالتخفيف فيه والتثقيل جائزان. ومثله: {حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا} [الإسراء: ٩٠]، يثقل ويخفف".

* (كلتا الجنتين آتت أكلها) أي أخرجت ثمرها.

(ولم تظلم منه شيئا) أي ولم تنقص منه شيئا.

لان الظلم النقص: كما قال تعالى: (فلا يخاف ظلما ولا هضما).

قال ابن عقيل في الواضح ١/ ١٥١: (والظلم هو الانتقاص قال سبحانه: {ولم تظلم منه شيئا} [الكهف:٣٣]، وتقول العرب: من أشبه أباه فما ظلم، أي: ما انتقص من حق الشبه، ومن قال: إنه وضع الشيء في غير موضعه، فما خرج بهذا عن الانتقاص).

وقال الزجاج: ({ولم تظلم منه شيئا}، أي: لم تنقص منه شيئا).

وقال النحاس: ({ولم تظلم منه شيئا}، أي: ولم تنقص).

ومثلهما قال البغوي، والزمخشري، والرازي، والقرطبي، وابن منظور، وغيرهم، بل لم أجد من خالف في هذا المعنى.

قال ابن فارس: (ظلمه يظلمه ظلما، والأصل: وضع الشيء في غير موضعه؛ ألا

=

=

تراهم يقولون: من أشبه أباه فما ظلم، أي: ما وضع الشبه غير موضعه)، ومثله قال الجوهري.

(وفجرنا خلالهما نهرا) أي والأنهر متفرقة فيهما ههنا وههنا، ليدوم شربهما ويزيد بهاؤهما.

قال القاسمي: أي يسقي الأشجار والزروع، ويزيد في بهجة مرآهما، تتميما لحسنهما.

قوله تعالى: {وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ} [الكهف: ٣٤]، أي:"وكان لصاحب الحديقتين ثمر وأموال أخرى".

قال أبو عبيدة:"«ثَمَرٌ»: جماعة «الثّمر»".

قال مقاتل:"يقول: وكان للكافر مال من الذهب، والفضة وغيرها من أصناف الأموال فلما افتقر المؤمن أتى أخاه الكافر متعرضا لمعروفه فقال له المؤمن: إني أخوك. وهو ضامر البطن رث الثياب. والكافر ظاهر الدم غليظ الرقبة جيد المركب والكسوة. فقال الكافر للمؤمن:

إن كنت كما تزعم أنك أخي فأين مالك الذي ورثت من أبيك قال أقرضته إلهي الملي الوفي فقدمته لنفسي ولولدي، فقال: وإنك لتصدق أن الله يرد دين العباد، هيهات هيهات ضيعت نفسك وأهلكت مالك".

قال ابن كثير:"وقيل: الثمار وهو أظهر هاهنا، ويؤيده القراءة الأخرى: «وكان له ثُمْر» بضم الثاء وتسكين الميم، فيكون جمع ثَمَرَة، كَخَشَبَة وخُشب، وقرأ آخرون: {ثَمَرٌ} بفتح الثاء والميم".

قرأ عاصم «ثَمَر»، بفتح الثاء والميم، وقرأ أبو عمرو: «ثُمْر» بضم الثاء وإسكان الميم، وقرأ الباقون «ثُمُر» بضم الثاء والميم.

وفي اختلاف هاتين القراءتين بالضم والفتح، قولان:

=

=

أحدهما: معناهما واحد، فعلى هذا فيه ثلاثة وجوه من التفسير:

أحدها: أنه الذهب والفضة، لأنها أموال مثمرة. قاله مجاهد.

الثاني: أنه المال الكثير من صنوف الأموال، لأن تثميره أكثر. قاله ابن عباس، وقتادة.

قال قتادة:"«الثُّمُر»: المال كله، قال: وكلّ مال إذا اجتمع فهو ثُمُر إذا كان من لون الثمرة وغيرها من المال كله".

الثالث: أنه الأصل الذي له نماء، لأن في النماء تثميرا. قاله ابن زيد.

وروي عَنِ أَبِي يَزِيد المدني، "أنه كَانَ يقرؤها: «وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ»، قَالَ: الأصل، و «الثمر»، الثمرة".

والقول الثاني: أن معناهما بالضم وبالفتح مختلف، فعلى هذا في الفرق. بينهما، خمسة أوجه:

أحدها: أنه بالفتح جمع: «ثمرة»، وبالضم جمع «ثمار».

الثاني: أنه بالفتح: «ثمار النخيل» خاصة، وبالضم: «جميع الأموال»، حكاه الماوردي عن ابن بحر.

الثالث: أنه بالفتح ما كان ثماره من أصله، وبالضم ما كان ثماره من غيره.

الرابع: أن «الثمر» بالضم الأصل، وبالفتح «الفرع»، قاله ابن زيد.

الخامس: أن «الثمر»، المال والولدان والرقيق، و «الثمر»: الفاكهة. وهذا قول بشير بن عبيد.

وقال مجاهد:"ما كان في القرآن من ثمر بالضم فهو مال، وما كان من «ثمر» مفتوح فهو من الثمار".

وفي هذا «الثمر» المذكور أقوال:

أحدها: أنه ثمر الجنتين المتقدم ذكرهما، حكاه الماوردي عن الجمهور.

=

=

الثاني: أنه ثمر ملكه من غير جنتيه، وأصله كان لغيره كما يملك الناس ثمارًا لا يملكون أصولها، ليجتمع في ملكه ثمار أمواله وثمار غير أمواله فيكون أعم مِلكا، وهذا قول ابن عباس.

الثالث: أن ذكر «الثمر» دليل على كثرة ما يملك من الثمار في الجنتين وغيرهما، ذكره ابن الأنباري.

الرابع: أن المراد بـ«الثمر»: الأموال من الأنواع وذكرنا أنها الذهب، والفضة، وذلك يخالف الثمر المأكول. حكاه ابن الجوزي.

قال أبو علي الفارسي:"وكأنّ الذهب والورق، قيل له ثمر على التفاؤل، لأن الثمر نماء في ذي الثمر، ولا يمتنع أن يكون الثّمر جمع ثمرة، فالثمر الذي هو الجنا أشبه بالنخيل والأعناب، من الذهب والورق منهما وأشدّ مشاكلة، ويقوّي ذلك قوله في الأخرى في وصف جنّة: {أيود أحدكم أن تكون له جنة من نخيل وأعناب له فيها من كل الثمرات} [البقرة: ٢٦٦]، فكما أنّ الثمرات في هذه لا تكون إلّا الجنا، كذلك في الأخرى يكون إياه. ويقوي أن الثمر ليس بالذهب والورق هنا قوله: {وأحيط بثمره}، والإحاطة به إهلاك له، واستئصال بالآفة التي حلت بها كما حلّت بالأخرى في قوله: {فأصابها إعصار فيه نار فاحترقت} [البقرة: ٢٦٦]، وكما قال: {فأصبحت كالصريم} [القلم: ٢٠]، أي: سوداء كسواد الليل بالاحتراق، ويقوي ذلك قوله: {فأصبح يقلب كفيه على ما أنفق فيها} [الكهف/ ٤٢]، والإنفاق في الأمر العام إنّما يكون من الورق لا من الشجر".

قوله تعالى: {فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا} [الكهف: ٣٤]، أي:"فقال لصاحبه المؤمن، وهو يحاوره في الحديث -والغرور يملؤه-: أنا أكثر منك مالا وأعز أنصارًا وأعوانًا".

قال الطبري:"يقول ﷻ: فقال هذا الذي جعلنا له جنتين من أعناب، لصاحبه الذي

=

=

لا مال له وهو يخاطبه: {أنا أكثر منك مالا} وأعز عشيرة ورهطا".

قال قتادة:"وتلك والله أمنية الفاجر: كثرة المال، وعزة النفر".

(وكان له) أي ذلك الرجل.

(ثمر) أي عظيم كما يفيده التنكير، أي قد استكملت جنتاه ثمارهما، وارجحنت أشجارهما، ولم تعرض لهما آفة أو

نقص، فهذا غاية منتهى زينة الدنيا في الحرث.

(فقال) أي صاحب هذين الجنتين.

(لصاحبه) المؤمن.

(وهو يحاوره) أي يجادله ويخاصمه ويفتخر عليه ويترأس، تعييرا له بالفقر، وفخرا عليه بالمال والجاه.

(أنا أكثر منك مالا وأعز نفرا) أي أكثر خدما وحشما وولدا.

والنفر عشيرة الرجل وأصحابه الذين يقومون بالذب عنه وينفرون معه، وحاصل الكلام أن الكافر ترفع على المؤمن بجاهه وماله.

وهكذا الكفار يعتقدون أن المال ينفعهم كما قال تعالى (وقالوا نحن أكثر أموالا وأولادا وما نحن بمعذبين).

قوله تعالى: {وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ} [الكهف: ٣٥]، أي:"ودخل حديقته، وهو ظالم لنفسه بالكفر بالبعث، وشكه في قيام الساعة".

قال قتادة:"يقول: كفور لنعمة ربه".

قال يحيى بن سالم: {وهو ظالم لنفسه}، " يعني: بشركه".

قال ابن كثير:"أي: بكفره وتمرده وتكبره وتجبره وإنكاره المعاد".

قوله تعالى: {قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا} [الكهف: ٣٥]، أي:"وقال: ما أعتقد أن تَهْلِك هذه الحديقة مدى الحياة".

=

=

قال ابن كثير: "وذلك اغترار منه، لما رأى فيها من الزروع والثمار والأشجار والأنهار المطردة في جوانبها وأرجائها، ظن أنها لا تفنى ولا تفرغ ولا تهلك ولا تتلف وذلك لقلة عقله، وضعف يقينه بالله، وإعجابه بالحياة الدنيا وزينتها، وكفره بالآخرة".

عن السدي: "{ما أظن إن تبيد هذه أبدا}، يقول: تهلك".

* (ودخل جنته وهو ظالم لنفسه) أي بكفره وتمرده وتكبره وتجبره وإنكاره للمعاد.

- قال البقاعي: ظالم لنفسه: بالاعتماد على ماله والإعراض عن ربه.

- **قال الآلوسي**: وهو ضار لنفسه بكفره حيث عرضها للهلاك وعرض نعمتها للزوال أو واضع الشيء في غير موضعه حيث كان اللائق به الشكر والتواضع لا ما حكى عنه.

- قال القاسمي: وإفراد الجنة هنا مع أن له جنتين كما مر، إما لعدم تعلق الغرض بتعددها، وإما لاتصال إحداهما بالأخرى، وإما لأن الدخول يكون في واحدة فواحدة.

- **قال ابن عاشور**: وإنما أفرد الجنة هنا وهما جنتان لأن الدخول إنما يكون لإحداها لأنه أول ما يدخل إنما يدخل إحداهما قبل أن ينتقل منها إلى الأخرى، فما دخل إلا إحدى الجنتين.

(قال ما أظن أن تبيد) أي تنقطع وتضمحل.

(هذه أبدا) فاطمأن إلى هذه الدنيا ورضي بها، وأنكر البعث.

- **قال ابن عاشور**: وتبيد: تهلك وتفنى، والإشارة بهذا إلى الجنة التي هما فيها، أي لا أعتقد أنها تنتقض وتضمحل.

والأبد: مراد منه طول المدة، أي هي باقية بقاء أمثالها لا يعتريها ما يبيدها.

=

=

وهذا اغترار منه بغناه واغترار بما لتلك الجنة من وثوق الشجر وقوته وثبوته واجتماع أسباب نمائه ودوامه حوله، من مياه وظلال.

وانتقل من الإخبار عن اعتقاده دوام تلك الجنة إلى الإخبار عن اعتقاده بنفي قيام الساعة.

قوله تعالى: {وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً} [الكهف: ٣٦]، أي: وقال:"وما أعتقد أن القيامة واقعة".

قال مقاتل:"يعنى: القيامة كائنة".

قال ابن كثير:"أي: كائنة".

قال يحيى بن سلام: يقول:"وما أوقن أن الساعة قائمة. يجحد بالبعث".

قال مكي:"شك في قيام الساعة".

قوله تعالى: {وَلَئِنْ رُدِدْتُ إِلَى رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا} [الكهف: ٣٦]، أي:"وإن فُرِضَ وقوعها -كما تزعم أيها المؤمن- ورُجعتُ إلى ربي لأجدنَّ عنده أفضل من هذه الحديقة مرجعًا ومردًا؛ لكرامتي ومنزلتي عنده".

قال السدي:"ولئن كانت قائمة ثم رددت إلى ربي: {لأجدن خيرا منها منقلبا}".

قال يحيى بن سلام:"أي: ولكن ليس جنة ولا مرد".

قال مكي:"تحقيق المعنى: ولئن رددت إلى ربي، على قول صاحبي وقد أعطاني هذا في الدنيا فهو يعطيني في الآخرة أفضل من ذلك. فدل هذا على أن صاحبه المؤمن أعلمه أن ثم بعث ومجازاة. ومثله {أَيْنَ شُرَكَآئِيَ} [النحل: ٢٧]، فأضافهما إلى نفسه، والمعنى أين شركائي على قولكم".

قال ابن كثير:"أي: ولئن كان معاد ورجعة وَمَرَدٌّ إلى الله، ليكونَنّ لي هناك أحسن من هذا لأني مُحظى عند ربي، ولولا كرامتي عليه ما أعطاني هذا، كما قال في الآية الأخرى: {وَلَئِنْ رُجِعْتُ إِلَى رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لَلْحُسْنَى} [فصلت: ٥٠]، وقال

=

=

{أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لأوتَيَنَّ مَالا وَوَلَدًا} [مريم: ٧٧] أي: في الدار الآخرة، تألى على الله، ﷻ، وكان سبب نزولها في العاص بن وائل".

قال البغوي:"إن قيل: كيف قال: {ولئن رددت إلى ربي}، وهو منكر البعث؟

قيل: معناه: ولئن رددت إلى ربي -على ما تزعم أنت-يعطيني هنالك خيرا منها فإنه لم يعطني هذه الجنة في الدنيا إلا ليعطيني في الآخرة أفضل منها".

* (وما أظن الساعة قائمة) أي كائنة.

الشك بالبعث كفر كما قال تعالى (زعم الذين كفروا أن لن يبعثوا قل بلى وربي لتبعثن ثم لتنبؤن بما عملتم).

وقال تعالى (وقال الذين كفروا لا تأتينا الساعة قل بلى وربي لتأتينكم).

(ولئن رددت إلى ربي) أي وإن كان هناك بعث - على سبيل الفرض والتقدير -.

(لأجدن خيرا منها منقلبا) أي ليكونن لي هناك أحسن من هذا الحظ عند ربي، ولولا كرامتي عليه ما أعطاني هذا.

(منقلبا) أي مرجعا وعاقبة.

وهذا ظن الكفار يعتقدون أنهم في الآخرة سيكون لهم المال والنعيم كما في الدنيا.

كما قال تعالى (ولئن أذقناه رحمة منا من بعد ضراء مسته ليقولن هذا لي وما أظن الساعة قائمة ولئن رجعت إلى ربي إن لي عنده للحسنى).

وقال تعالى (أفرأيت الذي كفر بآياتنا وقال لأوتين مالا وولدا).

وقد بين الله تعالى أن إعطاءهم المال ليس لكرمهم ولكنه استدراج:

كما قال تعالى (ولا يحسبن الذين كفروا أنما نملي لهم خير لأنفسهم إنما نملي لهم ليزدادوا إثما ولهم عذاب مهين).

وقال تعالى (وما أموالكم ولا أولادكم بالتي تقربكم عندنا زلفى).

وقال تعالى (ما أغنى عنه ماله وما كسب).

=

=

قوله تعالى: {قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ} [الكهف: ٣٧]، أي:"قال له صاحبه المؤمن، وهو يحاوره واعظًا له".

قال مكي:"أي: قال: له صاحبه المؤمن وهو يخاطبه".

قال أبو عبيدة:"{وَهُوَ يُحاوِرُهُ}، أي: يكلّمه، ومعناه من المحاورة".

قوله تعالى: {أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلًا} [الكهف: ٣٧]، أي:"كيف تكفر بالله الذي خلقك مِن تراب، ثم مِن نطفة الأبوين، ثم سَوَّاك بشرًا معتدل القامة والخَلْق؟".

قال مكي:"{أَكَفَرْتَ بالذي خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ}، يعني: خلق آدم أباك من تراب {ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ} أي: خلقك أنت من نطفة الرجل والمرأة، {ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلًا} أي عدلك سويًا رجلًا لا امرأة، فكفرت به أن يعيدك خلقًا جديدًا بعد موتك".

قال ابن كثير:"وهذا إنكار وتعظيم لما وقع فيه من جحود ربه، الذي خلقه وابتدأ خلق الإنسان من طين وهو آدم، ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين، كما قال تعالى: {كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ} [البقرة: ٢٨٠] أي: كيف تجحَدُون ربكم، ودلالته عليكم ظاهرة جلية، كل أحد يعلمها من نفسه، فإنه ما من أحد من المخلوقات إلا ويعلم أنه كان معدومًا ثم وجد، وليس وجوده من نفسه ولا مستندًا إلى شيء من المخلوقات؛ لأنه بمثابته فعلم إسناد إيجاده إلى خالقه، وهو الله، لا إله إلا هو، خالق كل شيء".

* (قال له صاحبه وهو يحاوره) يخبر تعالى عما أجابه به صاحبه المؤمن، واعظا له وزاجرا عما هو فيه من الكفر بالله والاغترار.

(أكفرت بالذي خلقك من تراب) أي: خلق آدم الذي هو أصله من التراب.

كما قال تعالى (إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون).

=

=

وقال تعالى (يا أيها الناس إن كنتم في ريب من البعث فإنا خلقناكم من تراب).

- **قال ابن عاشور**: والظاهر أن الإنكار المدلول عليه بهمزة الإنكار في قوله (أكفرت بالذي خلقك من تراب) مضمن معنى الاستبعاد، لأنه يستبعد جدا كفر المخلوق بخالقه، الذي أبرزه من العدم إلى الوجود، ويستبعد إنكار البعث ممن علم الله أن الله خلقه من تراب، ثم من نطفة، ثم سواه رجلا. كقوله (يا أيها الناس إن كنتم في ريب من البعث فإنا خلقناكم من تراب).

- وقال رحمه الله: قوله تعالى (أكفرت بالذي خلقك) مستعمل في التعجب والإنكار، وليس على حقيقته، لأن الصاحب كان يعلم أن صاحبه مشرك بدليل قوله له: {ولا أشرك بربي أحدا}. فالمراد بالكفر هنا الإشراك الذي من جملة معتقداته إنكار البعث، ولذلك عرف بطريق الموصولية لأن مضمون الصلة من شأنه أن يصرف من يدركه عن الإشراك به، فإنهم يعترفون بأن الله هو الذي خلق الناس فما كان غير الله مستحقا للعبادة.

{لَكِنَّا هُوَ اللهُ رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا (٣٨)} [الكهف: ٣٨]

لكن أنا لا أقول بمقالتك الدالة على كفرك، وإنما أقول: المنعم المتفضل هو الله ربي وحده، ولا أشرك في عبادتي له أحدًا غيره.

قوله تعالى: {لَكِنَّا هُوَ اللهُ رَبِّي} [الكهف: ٣٨]، أي:"لكن أنا لا أقول بمقالتك الدالة على كفرك، وإنما أقول: المنعم المتفضل هو الله ربي وحده".

قال مكي:"أي: لكن أنا أقول هو الله ربي".

قال ابن كثير:"أي: أنا لا أقول بمقالتك، بل أعترف لله بالربوبية والوحدانية".

قوله تعالى: {وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا} [الكهف: ٣٨]، أي:"ولا أشرك في عبادتي له أحدًا غيره".

قال ابن كثير:"أي: بل هو الله المعبود وحده لا شريك له".

=

=

قال مكي:"وهذا يدل على أن صاحب المال كان مشركًا إذ نفى هذا المؤمن الإشراك عن نفسه".

قالت أسماء بنت عميس: "علمني رسول الله ﷺ كلمات أقولهن عند الكرب: «الله الله ربي لا أشرك به شيئا»".

قوله تعالى: {وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ} [الكهف: ٣٩]، أي:"وهلا حين دخَلْتَ حديقتك فأعجبتك حَمِدت الله، وقلت: هذا ما شاء الله لي، لا قوة لي على تحصيله إلا بالله".

قال مكي:"أي: هلا إذ دخلت بستانك فأعجبك ما رأيت فيه قلت: ما شاء الله كان ولا قوة على ما نحاول من الطاعة إلآ بالله".

قال الواحدي:"أقبل على أخيه يلومه، قال: {ولولا إذ دخلت جنتك}، بمعنى: «هلا»، وتأويله التوبيخ، أي: هلا قلت حين دخلتها: الأمر بمشيئة الله، وما شاء الله كان، يعني: إن شاء إخراب هذه الجنة وإهلاكها، كان ذلك بمشيئته".

قال ابن كثير:"هذا تحضيض وحث على ذلك، أي: هلا إذا أعجبتك حين دخلتها ونظرت إليها حمدت الله على ما أنعم به عليك، وأعطاك من المال و الولد ما لم يعطه غيرك، وقلت: {مَا شَاءَ اللهُ لا قُوَّةَ إِلا بِاللهِ}؛ ولهذا قال بعض السلف: من أعجبه شيء من حاله أو ماله أو ولده أو ماله، فليقل: {مَا شَاءَ اللهُ لا قُوَّةَ إِلا بِاللهِ} وهذا مأخوذ من هذه الآية الكريمة".

عن أنس رضي الله عنه قال: "من رأى شيئا من ماله فأعجبه فقال: «ما شاء الله لا قوة إلا بالله»، لم يصب ذلك المال آفة أبدا، وقرأ: {ولولا إذ دخلت جنتك}، الآية".

وعن أنس، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: "ما أنعم الله على عبد نعمة من أهل أو مال أو ولد، فيقول: {مَا شَاءَ اللهُ لا قُوَّةَ إِلا بِاللهِ} فيرى فيه آفة دون الموت".

عن زياد بن سعد قال: "كان ابن شهاب إذا دخل أمواله قال: «ما شاء الله لا قوة إلا

=

=

بالله»، ويتأول قوله: {ولولا إذ دخلت جنتك}، الآية".

عن مطرف قال: كان مالك إذا دخل بيته قال: «ما شاء الله»، قلت لمالك لم: تقول هذا؟ قال: ألا تسمع الله يقول: {ولولا إذ دخلت جنتك قلت ما شاء الله}".

عن حفص بن ميسرة قال: "رأيت على باب وهب بن منبه مكتوبا: «ما شاء الله»، وذلك قول الله: {ولولا إذ دخلت جنتك قلت ما شاء الله}".

قال عمر بن مرة: "إن من أفضل الدعاء قول الرجل: «ما شاء الله»".

قال إبراهيم بن أدهم: "ما سأل رجل مسألة أنجح من ان يقول: «ما شاء الله»".

قال: أبو عامر الباجي: "من أكثر من قول: «ما شاء الله» لم يصبه شيء إلا رضي به".

عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ أنه قال: "ألا أدلك على كنز من كنوز الجنة؟ لا قوة إلا بالله".

عن أبي موسى أن رسول الله ﷺ قال له: "ألا أدلك على كنز من كنوز الجنة؟ لا حول ولا قوة إلا بالله".

عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: " ألا أدلك على كنز من كنوز الجنة؟ " قلت: بلى. قال: " لا حول ولا قوة إلا بالله " قال: " أحسبه قال: " يقول الله ﷻ أسلم عبدي واستسلم".

قوله تعالى: {إِنْ تَرَنِ أَنَا أَقَلَّ مِنْكَ مَالًا وَوَلَدًا} [الكهف: ٣٩]، أي:"قال المؤمن للكافر: إن كنت ترى أنني أفقر منك وتعتزعليَّ بكثرة مالك وأولادك".

قوله تعالى: {فَعَسَى رَبِّي أَنْ يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِنْ جَنَّتِكَ} [الكهف: ٤٠]، أي:"إني أتوقع من صنع الله تعالى وإحسانه أن يقلب ما بي وما بك من الفقر والغنى فيرزقني جنةً خيرًا من جنتك لإيماني به، ويسلب عنك نعمته لكفرك به ويخرّب بستانك".

=

=

قال ابن كثير:"أي: في الدار الآخرة".

قوله تعالى: {وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِنَ السَّمَاءِ} [الكهف: ٤٠]، أي:"ويرسل عليها آفةً تجتاحها أو صواعق من السماء تدمّرها".

قال الطبري:"عذابا من السماء ترمي به رميا، وتقذف. والحسبان: جمع حُسْبانة، وهي المرامي".

قال ابن كثير:"أي: في الدار الآخرة".

وفي قوله تعالى: {وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِنَ السَّمَاءِ} [الكهف: ٤٠]، وجوه:

أحدها: يعني: عذابًا من السماء، قاله ابن عباس، وقتادة، والسدي، وابن زيد.

وقال ابن زيد:"الحُسبان: قضاء من الله يقضيه".

الثاني: نارًا من السماء. قاله الضحاك،والسدي-أيضا-، ويحيى بن سلام.

الثالث: جرادًا. حكاه الماوردي.

الرابع: يعني: «بردا» بلغة حمير. قاله القاسم بن سلام.

الخامس: معناه: عذاب حساب بما كسبت يداك، لأنه جزاء الآخرة. والجزاء من الله تعالى بحساب. قاله الزجاج.

قال الزجاج:"وهذا موضع لطيف يحتاج أن يشرح وهو أن «الحسبان» -في اللغة- هو الحساب، قال تعالى: {الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ} [الرحمن: ٥]، المعنى: بحساب، فالمعنى: في هذه الآية أن يرسل عليها عذاب حسبان، وذلك الحسبان هو حساب ما كسبت يداك".

الخامس: أنه المرامي، واحدتها: «حسبانة»، أي: نارا تحرقها. قاله أبو عبيدة، وابن قتيبة.

وحكي الماوردي عن الأخفش: أن" أصله الحساب وفي السهام التي يرمى بها في طلق واحد، وكان من رَمي الأساورة".

=

=

قال ابن كثير:"والظاهر أنه مطر عظيم مزعج، يقلع زرعها وأشجارها".

قوله تعالى: {فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا} [الكهف: ٤٠]، أي:"تصبح الحديقة أرضًا ملساء لا تثبت عليها قدم، جرداء لا نبات فيها ولا شجر".

قال الطبري:"يقول عز ذكره: فتصبح جنتك هذه أيها الرجل أرضا ملساء لا شيء فيها، قد ذهب كل ما فيها من غَرْس ونبت، وعادت خرابا بلاقع، زَلَقا، لا يثبت في أرضها قدم لاملساسها، ودروس ما كان نابتا فيها".

قال قتادة:"أي: قد حصد ما فيها فلم يترك فيها شيء".

عن ابن عباس:"{فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا}، قال: مثل الجُرُز".

قال ابن زيد:"«صعيدا زلقا» و «صعيدا جُرُزا»: واحد، ليس فيها شيء من النبات".

قال الحسن:"«الزلق»: التراب الذي لا نبات فيه".

قال السدي:"الصعيد الأملس، والزلق: التي ليس فيها نبات".

قال أبو عبيدة:"«الصعيد» وجه الأرض، و «الزّلق»: الذي لا يثبت فيه القدم".

قال ابن قتيبة:"«الصعيد»: الأملس المستوي، «الزلق»: الذي تزل عنده الأقدام".

قال الزجاج:"الصعيد الطريق الذي لا نبات فيه، وكذلك الزلق".

قال ابن كثير:"أي: بلقعًا ترابًا أملس، لا يثبت فيه قَدم".

قوله تعالى: {أَوْ يُصْبِحَ مَاؤُهَا غَوْرًا} [الكهف: ٤١]، أي:"يغور ماؤها في الأرض فيتلف كل ما فيها من الزرع والشجر".

قال أبو عبيدة:"أي: غائرا".

قال ابن كثير:"أي: غائرًا في الأرض، وهو ضد النابع الذي يطلب وجه الأرض، فالغائر يطلب أسفلها كما قال تعالى: {قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ مَعِينٍ} [الملك: ٣٠] أي: جار وسائج".

=

=

قال الطبري:"يقول: أو يصبح ماؤها غائرا، فوضع الغور وهو مصدر مكان الغائر، كما قال الشاعر:

تَظَلُّ جِيَادُهُ نَوْحا عَلَيْهِ... مُقَلَّدَةً أعِنَّتَها صُفُونا

بمعنى نائحة، وكما قال الآخر:

هَرِيقي مِنْ دُمُوعِهِما سَجَاما... ضُباعَ وجَاوِبي نَوْحا قِيامَا".

عن قتادة:"{أَوْ يُصْبِحَ مَاؤُهَا غَوْرًا}، أي: ذاهبا قد غار في الأرض".

قال الكلبي: "و «الغور»: الذي لا تناله الدلاء".

قوله تعالى: {فَلَنْ تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَبًا} [الكهف: ٤١]، أي:"وحينئذٍ لا تستطيع طلبه فضلًا عن إعادته وردّه".

قال الزجاج:"أي: يغور فلا تقدر على أثر تطلبه من أجله".

قال الطبري:"يقول: فلن تطيق أن تدرك الماء الذي كان في جنتك بعد غَوْره، بطلبك إياه".

* وقوله (إذ دخلت جنتك قلت ما شاء الله لا قوة إلا بالله) أي هلا إذ أعجبتك حين دخلتها ونظرت إليها حمدت الله على ما أنعم به عليك وأعطاك من المال والولد ما لم يعطه غيرك، وقلت ما شاء الله لا قوة إلا بالله.

قال بعض السلف: ما أعجبه شيء من حاله أو ولده أو ماله فليقل: ما شاء الله لا قوة إلا بالله.

(إن ترني أنا أقل منك مالا وولدا) أي قال المؤمن للكافر: إن كنت ترى أنني أفقر منك وتعنز علي بكثرة مالك وأولادك.

(فعسى ربي أن يؤتيني خيرا من جنتك) فعسى: تحتمل: أنها للترجي، وأن هذا دعاء أن يؤتيه الله خيرا من جنته، وأن يهلك جنة صاحبه.

ويحتمل: أن تكون للتوقع، والمعنى: أنه إذا كنت ترى هذا فإنه يتوقع أن الله يزيل

=

=

عني ما عبتني فيه ويزيل عنك ما تفتخر به

(ويرسل عليها) أي على جنتك.

(حسبانا من السماء) قال ابن كثير: الظاهر أنه مطر عظيم مزعج يقلع زرعها وأشجارها.

(فتصبح) بسبب ذلك.

(صعيدا زلقا) أي تصبح الحديقة أرضا ملساء لا تثبت عليها قدم.

الزلق: ما لا يثبت فيه القدم من الأرض.

(أو يصبح ماؤها غورا) أي غائرا في الأرض، وهو ضد النابع الذي يطلب وجه الأرض.

(فلن تستطيع له طلبا) أي غائرا لا يستطاع الوصول إليه، لا بالمعاول ولا بغيرها.

قال السعدي: إنما دعا على جنته المؤمن، غضبا لربه، لكونها غرته وأطغته واطمأن إليها، لعله ينيب ويراجع رشده ويتبصر في أمره.

قوله تعالى: {وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ} [الكهف: ٤٢]، أي:"هلكت جنته بالكلية واستولى عليها الخراب والدمار في الزروع والثمار".

قال السدي:"بثمر الجنتين فأهلكت".

قال مجاهد: يعني: «ذهبا وفضة أيضا».

قال قتادة:"الثمر من المال كله، يعني: الثمر، وغيره من المال كله".

قال ابن الجوزي:"أي: أحاط الله العذاب بثمره".

قال السعدي:"أي: أصابه عذاب، أحاط به، واستهلكه، فلم يبق منه شيء، والإحاطة بالثمر يستلزم تلف جميع أشجاره، وثماره، وزرعه".

قال الزمخشري:"{وأحيط به}: عبارة عن إهلاكه، وأصله من: أحاط به العدو، لأنه إذا أحاط به فقد ملكه واستولى عليه، ثم استعمل في كل إهلاك. ومنه قوله

=

=

تعالى: {إِلَّا أَنْ يُحَاطَ بِكُم} [يوسف: ٦٦]، ومثله قولهم: أتى عليه، إذا أهلكه، من أتى عليهم العدو: إذا جاءهم مستعليا عليهم"

قوله تعالى: {فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَى مَا أَنْفَقَ فِيهَا} [الكهف: ٤٢]، أي:"فصار الكافر يُقَلِّب كفيه حسرةً وندامة على ما أنفق فيها".

قال ابن الجوزي:"أي: يضرب بيد على يد، وهذا فعل النادم، {على ما أنفق فيها}، أي: في جنته".

قال السعدي:"{على ما أنفق فيها}، أي: على كثرة نفقاته الدنيوية عليها، حيث اضمحلت وتلاشت، فلم يبق لها عوض".

قال الزمخشري:"«تقليب الكفين»: كناية عن الندم والتحسر، لأن النادم يقلب كفيه ظهرا لبطن، كما كنى عن ذلك بعض الكف والسقوط في اليد، ولأنه في معنى الندم عدى تعديته بعلى، كأنه قيل: فأصبح يندم {على ما أنفق فيها}، أى: أنفق في عمارتها"

قوله تعالى: {وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا} [الكهف: ٤٢]، أي:"وهي خاوية قد سقط بعضها على بعض".

قال السدي:"قلب أسفلها أعلاها".

قال الزمخشري:"يعنى: أن كرومها المعرشة سقطت عروشها على الأرض، وسقطت فوقها الكروم. قيل: أرسل الله عليها نارا فأكلتها"

قوله تعالى: {وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا} [الكهف: ٤٢]، أي:"ويقول: يا ليتني عرفت نِعَمَ الله وقدرته فلم أشرك به أحدًا".

قال السعدي:"وندم أيضا على شركه، وشره".

قال الزمخشري:"تذكر موعظة أخيه فعلم أنه أتى من جهة شركه وطغيانه، فتمنى لو لم يكن مشركا حتى لا يهلك الله بستانه. ويجوز أن يكون توبة من الشرك،

=

=

وندما على ما كان منه، ودخولا في الإيمان".

قال السعدي:"ولا يستبعد من رحمة الله ولطفه، أن صاحب هذه الجنة، التي أحيط بها، تحسنت حاله، ورزقه الله الإنابة إليه، وراجع رشده، وذهب تمرده وطغيانه، بدليل أنه أظهر الندم على شركه بربه، وأن الله أذهب عنه ما يطغيه، وعاقبه في الدنيا، وإذا أراد الله بعبد خيرا عجل له العقوبة في الدنيا. وفضل الله لا تحيط به الأوهام والعقول، ولا ينكره إلا ظالم جهول".

* (وأحيط بثمره) أي أصابه عذاب، أحاط به واستهلكه، فلم يبق منه شيء.

- قال ابن عطية: قوله تعالى (وأحيط بثمره) هذا خبر من الله عن إحاطة العذاب بحال هذا المثل به، وقد تقدم القول في الثمر، غير أن الإحاطة كناية عن عموم العذاب والفساد.

- **قال ابن عاشور**: والإحاطة: الأخذ من كل جانب، مأخوذة من إحاطة العدو بالقوم إذا غزاهم.

والمعنى: أتلف ماله كله بأن أرسل على الجنة والزرع حسبان من السماء فأصبحت صعيدا زلقا وهلكت أنعامه وسلبت أمواله، أو خسف بها بزلزال أو نحوه.

- **قال السعدي**: والإحاطة بالثمر يستلزم تلف جميع أشجاره وثماره وزرعه، فندم كل الندامة.

(فأصبح يقلب كفيه على ما أنفق فيها) قال قتادة: يصفق كفيه متأسفا متلهفا على الأموال التي أذهبها عليها.

- **قال الرازي**: هو كناية عن الندم والحسرة فإن من عظمت حسرته يصفق إحدى يديه على الأخرى.

- وقال ابن عطية: و (يقلب كفيه) يريد يضع بطن إحداهما على ظهر الأخرى،

=

=

وذلك فعل المتلهف المتأسف على فائت وخسارة ونحوها، ومن عبر بيصفق فلم يتقن.

- وقال أبو حيان: قوله تعالى (فأصبح) والظاهر أن الإحاطة كانت ليلا لقوله (فأصبح) على أن أنه يحتمل أن يكون معنى (فأصبح) فصار فلا يدل على تقييد الخبر بالصباح

(وهي خاوية على عروشها) أي وهي خالية على نباتها وبيوتها.

العروش جمع عرش وهو السقف.

يريد أن السقوف وقعت، وهي العروش، ثم تهدمت الحيطان عليها، فهي خاوية، والحيطان على العروش.

(ويقول يا ليتني لم أشرك بربي أحدا) يتمنى هذا الكافر بعدما أصيب بجنته أنه لم يكن كان أشرك بربه أحدا، يعني هذا الكافر: إذا هلك وزالت عنه دنياه وانفرد بعمله، ود أنه لم يكن كفر بالله ولا أشرك به شيئا.

قوله تعالى: {وَلَمْ تَكُنْ لَهُ فِئَةٌ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللهِ} [الكهف: ٤٣]، أي:"ولم تكن له جماعة ممن افتخر بهم يمنعونه مِن عقاب الله النازل به".

قال الزجاج:"المعنى: ولم يكن له أقوام ينصرونه".

قال مقاتل:"يعني: جندا يمنعونه من عذاب الله الذي نزل بجنته".

قال أبو عبيدة:"أي: جماعة، وقال العجّاج:

كما يحوز الفئة الكميّ".

عن مجاهد:"{وَلَمْ تَكُنْ لَهُ فِئَةٌ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللهِ}، قال: عشيرته".

قال قتادة:"{وَلَمْ تَكُنْ لَهُ فِئَةٌ}، قال: عشيرة". وروي عن مجاهد مثله.

قال قتادة:"أي: جند ينصرونه".

وقال قتادة:"أي: جند يعينونه.

=

=

قال السعدي:"لما نزل العذاب بجنته، ذهب عنه ما كان يفتخر به من قوله لصاحبه: {أنا أكثر منك مالا وأعز نفرا}، فلم يدفعوا عنه من العذاب شيئا، أشد ما كان إليهم حاجة".

قرأ حمزة والكسائي: «ولم يكن له فئة» بالياء وحجتهما قوله {ينصرونه}، وقرأ الباقون «ولم تكن» بالتاء لتأنيث «الفئة».

قال قتادة:"أي: جند ينصرونه".

قوله تعالى: {وَمَا كَانَ مُنْتَصِرًا} [الكهف: ٤٣]، أي:"وما كان ممتنعًا بنفسه وقوته".

قال قتادة، ومقاتل:"يعني: ممتنعا".

قال الطبري:"يقول: ولم يكن ممتنعا من عذاب الله إذا عذّبه".

قال الزجاج:"وما كان هو أيضا قادرا على نصر نفسه".

قال الزمخشري:"وما كان ممتنعا بقوته عن انتقام الله".

قال السعدي:"وكيف ينتصر، أي: يكون له أنصارا على قضاء الله وقدره الذي إذا أمضاه وقدره، لو اجتمع أهل السماء والأرض على إزالة شيء منه، لم يقدروا؟".

* (ولم تكن له فئة ينصرونه من دون الله وما كان منتصرا) أي لما نزل العذاب بجنته، ذهب عنه ما كان يفتخر به من قوله (أنا أكثر منك مالا وأعز نفرا) فلم يدفعوا عنه من العذاب شيئا، وما كان بنفسه منتصرا.

وما ذكره جل وعلا عن هذا الكافر: من أنه لم تكن له فئة ينصرونه من دون الله - ذكر عن غيره من الكفار، كقوله في قارون (فخسفنا به وبداره الأرض فما كان له من فئة ينصرونه من دون الله وما كان من المنتصرين).

قوله تعالى: {هُنَالِكَ الْوَلَايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ} [الكهف: ٤٤]، أي:"في مثل هذه الشدائد تكون الولاية والنصرة لله الحق".

=

=

قال مقاتل:"ليس في ذلك اليوم سلطان غيره".

قال الزمخشري:"أى: في ذلك المقام وتلك الحال النصرة لله وحده، لا يملكها غيره، ولا يستطيعها أحد سواه".

عن مبشر بن عبيد، قال: "الولاية لدين والولاية ما أتولى".

قرأ ابن كثير، ونافع، وابن عامر، وعاصم: «الولاية» بفتح الواو، و «لله الحق» بكسر القاف أيضا. وقرأ حمزة «الولاية» بكسر الواو، و «الحق» بكسر القاف أيضا. وقرأ أبو عمرو بفتح واو الولاية، ورفع «الحق»، ووافقه الكسائي في رفع القاف، لكنه كسر «الولاية».

قال الزجاج:"المعنى: في مثل تلك الحال بيان الولاية لله، أي: عند ذلك يتيين نصره، ولي الله - يتولى الله إياه، فمن قرأ «الحق» بالرفع، فهو نعت للولاية، ومن قرأ «الحق»، فهو

بالجر فهو نعت لله - جل وعز".

فعلى قراءة الفتح، في معنى الكلام قولان:

أحدهما: أنهم يتولون الله تعالى في القيامة، ويؤمنون به، ويتبرؤون مما كانوا يعبدون، قاله ابن قتيبة.

قال يحيى بن سلام:"في الآخرة، هنالك يتولى الله كل عبد، لا يبقى أحد يومئذ إلا تولى الله، فلا يقبل ذلك من المشرك".

والثاني: هنالك يتولى الله أمر الخلائق، فينصر المؤمنين ويخذل الكافرين.

وعلى قراءة الكسر، يكون المعنى: هنالك السلطان لله.

قال أبو علي: " وأما من قال: «هنالك الولاية لله الحق»، فكسر «القاف»، فإنه جعله من وصف «الله» سبحانه، ومن رفعه جعله صفة للولاية".

قوله تعالى: {هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا} [الكهف: ٤٤]، أي:"هو خير جزاءً".

=

وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ وَكَانَ اللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقْتَدِرًا (٤٥).

{وَاضْرِبْ} صَيِّرْ {لَهُمْ} لِقَوْمِك {مَثَل الْحَيَاة الدُّنْيَا} مَفْعُول أَوَّل {كَمَاءٍ} مَفْعُول ثَانٍ {أَنْزَلْنَاهُ مِنْ السَّمَاء فَاخْتَلَطَ بِهِ} تَكَاثَفَ بِسَبَبِ نُزُول الْمَاء {نَبَات الْأَرْض} أَوْ امْتَزَجَ الْمَاء بِالنَّبَاتِ فَرَوِيَ وَحَسُنَ {فَأَصْبَحَ} صَارَ النَّبَات

=

قال الطبري: "يقول عزّ ذكره: خير للمنيبين في العاجل والآجل ثوابا".

قوله تعالى: {وَخَيْرٌ عُقْبًا} [الكهف: ٤٤]، أي: "وخير عاقبة لمن تولاهم من عباده المؤمنين".

قال الطبري: "يقول: وخيرهم عاقبة في الآجل إذا صار إليه المطيع له، العامل بما أمره الله، والمنتهي عما نهاه الله عنه، والعقب هو العاقبة، يقال: عاقبة أمر كذا وعُقْباه وعُقُبه، وذلك آخره وما يصير إليه منتهاه".

* (هنالك الولاية لله الحق) أي في ذلك المقام، وتلك الحال تكون الولاية من كل أحد لله، لأن الكافر إذا رأى العذاب رجع إلى الله.

أي كل أحد في ذلك اليوم يرجع إلى الله وإلى موالاته وإلى الخضوع له.

وعلى هذا المعنى فهذه الآية كقوله تعالى [فلما رأوا بأسنا قالوا آمنا بالله وحده وكفرنا بما كنا به مشركين].

وقوله في فرعون [حتى إذا أدركه الغرق قال آمنت أنه لا إله إلا الذي آمنت به بنو إسرائيل وأنا من المسلمين].

(هو خير ثوابا) أي جزاء.

(وخير عقبا) أي الأعمال التي تكون لله ﷻ، ثوابها خير وعاقبتها حميدة رشيدة كلها خير.

{هَشِيمًا} يَابِسًا مُتَفَرِّقَة أَجْزَاؤُهُ {تَذْرُوهُ} تَنْشُرهُ وَتُفَرِّقهُ {الرِّيَاح} فَتَذْهَب بِهِ الْمَعْنَى شَبَّهَ الدُّنْيَا بِنَبَاتٍ حَسَن فَيَبِسَ فَتَكَسَّرَ فَفَرَّقَتْهُ الرِّيَاح وَفِي قِرَاءَة الرِّيح {وَكَانَ الله عَلَى كُلّ شَيْء مُقْتَدِرًا} قَادِرًا(١).

---

(١) قوله تعالى: {وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ} [الكهف: ٤٥]، أي:"واضرب أيها الرسول للناس مثل هذه الحياة في زوالها وفنائها وانقضائها بماءٍ نزل من السماء فخرج به النبات وافيًا غزيرًا وخالط بعضه بعضًا من كثرته وتكاثفه".

قال الزمخشري:"{فاختلط به نبات الأرض}: فالتف بسببه وتكاثف حتى خالط بعضه بعضا. وقيل: نجع في النبات الماء فاختلط به حتى روى ورف رفيفا".

قال عكرمة:"ينزل الله الماء من السماء السابعة فتسع القطرة منه على السحابة مثل البعير".

قال عطاء:"أما اختلط به نبات الأرض: فاختلط فنبت بالماء من كل لون".

قوله تعالى: {فَأَصْبَحَ هَشِيمًا} [الكهف: ٤٥]، أي:"حتى صار هذا النبات يابسًا متكسرًا".

قال أبو عبيدة:"أي: يابسا متفتّتا، قال لبيد:

ولا للضّيف إن طرقت بليل... بأفنان العضاة وبالهشيم".

قال ابن قتيبة:"«الهشيم»: من النبت المتفتت. وأصله من: هشمت الشيء إذا كسرته. ومنه سمي الرجل: هاشما".

قال الزجاج:"الهشيم: النبات الجاف الذي تسفيه الريح".

قال الزمخشري:"الهشيم: ما تهشم وتحطم، الواحدة: هشيمة".

قوله تعالى: {تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ} [الكهف: ٤٥]، أي:"تنسفه الرياح إلى كل جهة".

قال ابن قتيبة:"أي: تنسفه".

=

=

قال أبو عبيدة:"أي: تطيّره وتفرقه، ويقال: ذرته الريح تذروه وأذرته تذريه".

قال الزمخشري:"شبه حال الدنيا في نضرتها وبهجتها وما يتعقبها من الهلاك والفناء، بحال النبات يكون أخضر وارفا ثم يهيج فتطيره الرياح كأن لم يكن".

وفي قراءة عبد الله: «تذريه الريح».

قوله تعالى: {وَكَانَ اللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقْتَدِرًا} [الكهف: ٤٥]، أي:"ذا قدرة عظيمة على كل شيء".

قال الزجاج والزمخشري:"أي: على الإنشاء، والإفناء، مقتدرا".

وقال الحسن:"أي: كان مقتدرا عليه قبل كونه".

قال الطبري:"يقول: وكان الله على تخريب جنة هذا القائل حين دخل جنته: {مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً}، وإهلاك أموال ذي الأَمْوَالِ الباخلين بها عن حقوقها، وإزالة دنيا الكافرين به عنهم، وغير ذلك مما يشاء قادر، لا يعجزه شيء أراده، ولا يعْييه أمر أراده.

يقول: فلا يفخر ذو الأموال بكثرة أمواله، ولا يستكبر على غيره بها، ولا يغترنّ أهل الدنيا بدنياهم، فإنما مَثَلُها مثل هذا النبات الذي حَسُن استواؤه بالمطر، فلم يكن إلا رَيْثَ أن انقطع عنه الماء، فتناهى نهايته، عاد يابسا تذروه الرياح، فاسدا، تنبو عنه أعين الناظرين، ولكن ليعمل للباقي الذي لا يفنى، والدائم الذي لا يبيد ولا يتغير".

قال المراغي: "وكان الله ذو الكمال والجلال قادرا على كل شئ إنشاء وإفناء وإعادة، فهو يوجد الأشياء ثم ينميها ثم يفنيها، وما حال الدنيا إلا هذه الحال، فهى تظهر أولا ناضرة زاهرة ثم تتزايد قليلا قليلا، ثم تأخذ فى الانحطاط إلى أن تصير إلى الهلاك والفناء، فلا ينبغى للعاقل أن يبتهج بما يحوزه منها أو يفخر به أو يصعر خذه استكبارا".

=

=

واختلف في المقصود بضرب هذا المثل على قولين:

أحدهما: أن الله تعالى ضربه مثلًا للدنيا ليدل به على زوالها بعد حسنها وابتهاجها.

الثاني: أن الله تعالى ضربه مثلاً لأحوال أهل الدنيا أن مع كل نعمة نقمة ومع كل فرحة ترحة.

* قوله تعالى: (واضرب لهم) يا محمد للناس.

(مثل الحياة الدنيا) في زوالها وفنائها وانقضائها.

(كماء أنزلناه من السماء) أي كمطر أنزلناه من السماء.

(فاختلط به نبات الأرض) أي ما فيها من الحب فشب وحسن، وعلاه الزهور والنور والنضرة، ثم بعد هذا كله:

(فأصبح هشيما) يابسا متفتتا.

(تذروه الرياح) أي تفرقه وتطرحه ذات اليمين وذات الشمال.

(وكان الله على كل شيء مقتدرا) أي والله على كل شيء يريده من الإنشاء والإفناء والإحياء والإغناء والإفقار ونحو ذلك قادر ففي هذا: التزهيد في الدنيا وعدم الاغترار فهي سريعة الفناء والقضاء.

كما في هذه الآية.

وقال تعالى (اعلموا أنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر في الأموال والأولاد كمثل غيث أعجب الكفار نباته ثم يهيج فتراه مصفرا ثم يكون حطاما وفي الآخرة عذاب شديد ومغفرة من الله ورضوان وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور).

وقال تعالى (إنما مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض مما يأكل الناس والأنعام حتى إذا أخذت الأرض زخرفها وازينت وظن أهلها أنهم قادرون عليهآ أتاها أمرنا ليلا أو نهارا فجعلناها حصيدا كأن لم تغن بالأمس كذلك

=

=

نفصل الآيات لقوم يتفكرون).

وقال سبحانه وتعالى عن مؤمن فرعون أنه قال لقومه (يا قوم إنما هذه الحياة الدنيا متاع وإن الآخرة هي دار القرار).

وقال القرطبي: متاع: أي يتمتع بها قليل ثم تنقطع وتزول. ودار الآخرة هي دار الاستقرار والخلود.

قال ﷺ (إن هذه الدنيا حلوة خضرة، وإن الله مستخلفكم فيها... فاتقوا الدنيا...).

وقال ﷺ (لو كانت الدنيا تزن عند الله جناح بعوضة ما سقى كافرا منها شربة ماء) رواه الترمذي.

وقال ﷺ (الدنيا ملعونة ملعون ما فيها إلا ذكر الله وما والاه...) رواه الترمذي.

عن مصعب كان سعد يأمر بخمس ويذكرهن عن النبي ﷺ أنه كان يأمر بهن: اللهم إني أعوذ بك من البخل وأعوذ بك من الجبن وأعوذ بك أن أرد إلى أرذل العمر وأعوذ بك من فتنة الدنيا يعني فتنة الدجال وأعوذ بك من عذاب القبر.

وقال ﷺ (الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر) رواه مسلم.

وقال ﷺ (ما مثلي ومثل الدنيا إلا كراكب استظل تحت شجرة ثم راح وتركها) رواه الترمذي.

وقال النبي ﷺ (ما الدنيا في الآخرة إلا كما يجعل أحدكم إصبعه في اليم فلينظر بما يرجع) رواه مسلم

قال النووي رحمه الله: ما للدنيا بالنسبة للآخرة في قصر مدتها وفناء لذاتها ودوام الآخرة ودوام لذاتها ونعيمها إلا كنسبة الماء الذي يعلق بالإصبع إلى باقي البحر.

وقال ﷺ لابن عمر (كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل) رواه البخاري.

وفي رواية عند الترمذي (وعد نفسك من أهل القبور).

=

الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا (٤٦).

{الْمَال وَالْبَنُونَ زِينَة الْحَيَاة الدُّنْيَا} يَتَجَمَّل بِهِمَا فِيهَا {وَالْبَاقِيَات الصَّالِحَات} هِيَ سُبْحَان الله وَالْحَمْد لِلَّهِ وَلَا إِلَه إِلَّا الله وَالله أَكْبَر زَادَ بَعْضهمْ وَلَا حَوْل وَلَا قُوَّة إِلَّا بِالله {خَيْر عِنْد رَبّك ثَوَابًا وَخَيْر أَمَلًا} أَيْ مَا يَأْمُلهُ الْإِنْسَان وَيَرْجُوهُ عِنْد الله تعالى[1].

=

هذه وصية النبي ﷺ لابن عمر، وهي في الواقع وصية له وللأمة من بعده رضي الله عنه وأرضاه، كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل وعد نفسك من أهل القبور.

قال النووي رحمه الله في معنى الحديث (لا تركن إلى الدنيا ولا تتخذها وطنا، ولا تحدث نفسك بطول البقاء فيها ولا بالاعتناء بها، ولا تتعلق منها إلا بما يتعلق به الغريب في غير وطنه).

(١) قوله تعالى: {الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا} [الكهف: ٤٦]، أي:"الأموال والأولاد جَمال وقوة في هذه الدنيا الفانية".

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: المال والبنون أيها الناس التي يفخر بها عيينة والأقرع، ويتكبران بها على سلمان وخباب وصهيب، مما يتزين به في الحياة الدنيا، وليسا من عداد الآخرة".

قال الماوردي:"لأن في المال جمالًا ونفعًا وفي «البنين» قوة ودفعًا فصارا زينة الحياة الدنيا".

عن سفيان الثوري، قال: "كان يقال: إنما سمي المال، لأنه يميل بالناس، وإنما سميت الدنيا، لأنها دنت".

عن عياض بن عقبة:"أنه مات له ابن يقال له: يحيي، فلما نزل في قبره قال له رجل:

=

=

والله إن كان لسيد الجيش فاحتسبه. فقال: وما يمنعني إن أحتسبه؟ وكان أمس من زينة الدنيا، وهو اليوم من الباقيات الصالحات".

عن علي بن أبي طالب، قال: "المال والبنون حرث الدنيا، والعمل الصالح حرث الآخرة، وقد يجمعهما الله لأقوام".

قوله تعالى: {وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا} [الكهف: ٤٦]، أي:"الأموال والأولاد جَمال وقوة في هذه الدنيا الفانية، والأعمال الصالحة - وبخاصة التسبيحُ والتحميد والتكبير والتهليل- أفضل أجرًا عند ربك من المال والبنين".

قال الطبري:"يقول: وما يعمل سلمان وخباب وصهيب من طاعة الله، ودعائهم ربهم بالغداة والعشيّ يريدون وجهه، الباقي لهم من الأعمال الصالحة بعد فناء الحياة الدنيا، خير يا محمد عند ربك ثوابا من المال والبنين التي يفتخر هؤلاء المشركون بها، التي تفنى، فلا تبقى لأهلها".

عن سعيد بن جبير، قوله:"{خير عند ربك ثوابا}، قال: خير جزاء من جزاء المشركين".

وفي قوله تعالى: {وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا} [الكهف: ٤٦]، وجوه:

أحدها: أنها الصلوات الخمس، قاله ابن عباس-في رواية-، وسعيد بن جبير، وإبراهيم، عمرو بن شُرَحبيل، وأبو ميسرة.

الثاني: أنها الأعمال الصالحة، قاله ابن عباس -في رواية أخرى-، وابن زيد.

عن عليّ، عن ابن عباس، قوله: " {وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ}، قال: هي ذكر الله قول لا إله إلا الله، والله أكبر، وسبحان الله، والحمد لله، وتبارك الله، ولا حول ولا قوة إلا بالله، وأستغفر الله، وصلى الله على رسول الله والصيام والصلاة والحجّ

=

=

والصدقة والعتق والجهاد والصلة، وجميع أعمال الحسنات، وهنّ الباقيات الصالحات، التي تبقى لأهلها في الجنة ما دامت السماوات والأرض".

الثالث: هي الكلام الطيب. وهذا مروي عن ابن عباس أيضًا، وقاله عطية العوفي.

الرابع: كل ما أريد به وجه الله. قاله قتادة.

الخامس: أنهنّ ذكر الله بالتسبيح والتحميد ونحو ذلك. قاله عثمان بن عفان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وابن عباس، وابن عمر، والحسن، ومجاهد، وقتادة، وعطاء بن ابي رباح، وسعيد بن المسيب.

وفي قول عثمان-رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ-: أنهنّ «لا إله إلا الله، سبحان الله، والحمد لله، والله أكبر، ولا حول ولا قوّة إلا بالله».

وفي قول ابن عباس والحسن، ومجاهد، وقتادة: أنهنّ «سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر». دون قول «ولا حول ولا قوّة إلا بالله».

وروي عن ابي سعيد، عن رسول اللهﷺ قال: «استكثر من الباقيات الصالحات: التسبيح والتهليل والتحميد والتكبير ولا حول ولا قوة إلا بالله».

قال الطبري:"وأولى الأقوال في ذلك بالصواب، قول من قال: هنّ جميع أعمال الخير، كالذي رُوي عن عليّ بن أبي طلحة، عن ابن عباس، لأن ذلك كله من الصالحات التي تبقى لصاحبها في الآخرة، وعليها يجازى ويُثاب، وإن الله عزّ ذكره لم يخصص من قوله {وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا} بعضا دون بعض في كتاب، ولا بخبر عن رسول الله ﷺ.

فإن ظنّ ظانّ أن ذلك مخصوص بالخبر الذي رويناه عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ، فإن ذلك بخلاف ما ظن، وذلك أن الخبر عن رسول الله ﷺ إنما ورد بأن قول: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، هنّ من الباقيات الصالحات، ولم يقل: هنّ جميع الباقيات الصالحات، ولا كلّ الباقيات

=

=

الصالحات، وجائز أن تكون هذه باقيات صالحات، وغيرها من أعمال البرّ أيضا باقيات صالحات".

وفي «الصالحات» وجهان:

أحدهما: أنها بمعنى: «الصالحين»، لأن الصالح هو فاعل الصلاح.

الثاني: أنها بمعنى: «النافعات»، فعبر عن المنفعة بالصلاح، لأن المنفعة مصلحة.

قوله تعالى: {وَخَيْرٌ أَمَلًا} [الكهف: ٤٦]، أي:"وهذه الأعمال الصالحة أفضل ما يرجو الإنسان من الثواب عند ربه، فينال بها في الآخرة ما كان يأمُله في الدنيا".

قال الطبري:"يقول: وما يؤمل من ذلك سلمان وصهيب وخباب، خير مما يؤمل عيينة والأقرع من أموالهما وأولادهما".

قال قتادة:"إن لكل عامل أملا يؤمله، وأن المؤمن من خير الناس أملا".

* قوله تعالى: (المال والبنون زينة الحياة الدنيا) أي: المال والبنون زينة يتزين بها الإنسان في هذه الحياة الدنيا، ويتباهى بها على غيره.

ومن شأن الزينة: الزوال وعدم الثبات، وإضافتها إلى الحياة الدنيا يقتضي دناءتها، فلا تعلق قلبك بها تعلقا يصرفك عما ينفعك، وليكن اهتمامك بالأعمال الصالحة فهي التي يبقى ثوابها ويؤمل نفعها في الدارين.

وإنما كانا كذلك، لأن في المال- كما يقول القرطبي- جمالا ونفعا، وفي البنين قوة ودفعا.

- **قال الماوردي**: لأن في المال جمالا ونفعا وفي {البنين} قوة ودفعا فصارا زينة الحياة الدنيا.

- **قال الرازي**:... وهو أن المال والبنون زينة الحياة الدنيا وكل ما كان من زينة الدنيا فهو سريع الانقضاء والانقراض ينتج إنتاجا بديهيا أن المال والبنين سريعة الانقضاء والانقراض.

=

=

- قال ابن الجوزي: هذا رد على المشركين الذين كانوا يفتخرون بالأموال والأولاد، فأخبر الله تعالى أن ذلك مما يتزين به في الدنيا، لا مما ينفع في الآخرة.

ب- ولحديث أبي هريرة - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ -، قال: قال رسول الله ﷺ (خذوا جنتكم». قلنا يا رسول الله: من عدو قد حضر؟ قال: " لا جنتكم من النار، قولوا: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، فإنها يأتين يوم القيامة منجيات ومقدمات وهن الباقيات الصالحات) رواه الحاكم.

القول الثاني: أن الباقيات الصالحات هي الصلوات الخمس.

القول الثالث: أن الباقيات الصالحات هي الأعمال الصالحة كلها.

وهذا اختيار ابن جرير، والواحدي، والزمخشري، وابن عطية، والرازي، والقرطبي، والبيضاوي، والشوكاني، والألوسي، والسعدي، والشنقيطي.

- ورجحه القرطبي فقال: وهو الصحيح إن شاء الله؛ لأن كل ما بقي ثوابه جاز أن يقال له هذا.

وقال علي - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ -: الحرث حرثان فحرث الدنيا المال والبنون؛ وحرث الآخرة الباقيات الصالحات، وقد يجمعهن الله تعالى لأقوام.

- وقال الشنقيطي: وأقوال العلماء في الباقيات الصالحات كلها راجعة إلى شيء واحد وهو الأعمال التي ترضي الله سواء قلنا إنها " الصلوات الخمس " كما هو مروي عن جماعة من السلف منهم: ابن عباس وسعيد بن جبير وأبو ميسرة وعمر بن شرحبيل، أو أنها: " سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم "، وعلى هذا القول جمهور العلماء، وجاءت دالة عليه أحاديث مرفوعة عن أبي سعيد الخدري وأبي الدرداء وأبي هريرة والنعمان بن بشير وعائشة - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ -.

قال مقيده - عفا الله عنه - والتحقيق: أن الباقيات الصالحات: لفظ عام يشمل

=

وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا (٤٧).

{و} اذكر {يوم تسير الْجِبَال} يُذْهَب بِهَا عَنْ وَجْه الْأَرْض فَتَصِير هَبَاء مُنْبَثًّا وَفِي قِرَاءَة بِالنُّونِ وَكَسْرِ الْيَاء وَنَصْب الْجِبَال {وَتَرَى الْأَرْض بَارِزَة} ظَاهِرَة لَيْسَ

=

الصلوات الخمس والكلمات الخمس المذكورة وغير ذلك من الأعمال التي ترضي الله تعالى؛ لأنها باقية لصاحبها غير زائلة ولا فانية كزينة الحياة الدنيا؛ ولأنها - أيضا - صالحة لوقوعها على الوجه الذي يرضي الله تعالى. (الأضواء).

ويشهد لذلك ما رواه الترمذي عن عائشة رضي الله عنها (أنهم ذبحوا شاة على عهد النبي ﷺ وتصدقوا بها إلا كتفها، فقال النبي ﷺ (ما بقي منها؟) قالت: عائشة: ما بقي منها إلا كتفها، قال: (بقي كلها غير كتفها).

- قال المباركفوري - رحمه الله -:أي: ما تصدقت به: فهو باق، وما بقي عندك: فهو غير باق، إشارة إلى قوله تعالى (ما عندكم ينفد وما عند الله باق).

- الأعمال الصالحة هي خير ما يقدمه الإنسان لنفسه؟ لماذا؟ لأنها هي التي تبقى، أما الدنيا وزينتها فزائلة.

كما قال تعالى هنا (والباقيات الصالحات خير عند ربك ثوابا وخير أملا).

وقال تعالى في سورة مريم (والباقيات الصالحات خير عند ربك ثوابا وخير مردا).

وقد جاءت نصوص كثيرة تبين ذلك:

قال رسول الله ﷺ (يتبع الميت ثلاثة: أهله وماله وعمله، فيرجع اثنان ويبقى واحد، يرجع أهله وماله ويبقى عمله).

ويروى أن سليمان عليه السلام مر بحراث - وكان مع سليمان جنوده وموكبه العظيم - فقال الحراث: لقد أوتي سليمان ملكا عظيما؟ فنزل سليمان إليه وقال: تسبيحة واحدة خير من ملك سليمان، لأن ملك سليمان يفنى والتسبيحة تبقى.

عَلَيْهَا شَيْء مِنْ جَبَل وَلَا غَيْره {وَحَشَرْنَاهُمْ} المؤمنين والكافرين {فلم نغادر} نترك {منهم أحدا}.

وَعُرِضُوا عَلَى رَبِّكَ صَفًّا لَقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّنْ نَجْعَلَ لَكُمْ مَوْعِدًا (٤٨).

{وَعُرِضُوا عَلَى رَبّك صَفًّا} حَال أَيْ مُصْطَفِّينَ كُلّ أُمَّة صَفّ وَيُقَال لَهُمْ {لَقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّل مَرَّة} أَيْ فُرَادَى حُفَاة عُرَاة غُرْلًا وَيُقَال لِمُنْكِرِي الْبَعْث {بَلْ زَعَمْتُمْ أ} ن مُخَفَّفَة مِنْ الثَّقِيلَة أَيْ أَنَّهُ {لَنْ نَجْعَل لَكُمْ مَوْعِدًا} لِلْبَعْثِ.

وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَاوَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا (٤٩).

{وَوُضِعَ الْكِتَاب} كِتَاب كُلّ امْرِئٍ فِي يَمِينه مِنْ الْمُؤْمِنِينَ وَفِي شِمَاله مِنْ الْكَافِرِينَ {فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ} الْكَافِرِينَ {مُشْفِقِينَ} خَائِفِينَ {مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ} عِنْد مُعَايَنَتهمْ مَا فِيهِ مِنْ السَّيِّئَات {يَا} لِلتَّنْبِيهِ {وَيْلَتنَا} هَلَكَتنَا وَهُوَ مَصْدَر لَا فِعْل لَه من لفظ {مَالِ هَذَا الْكِتَاب لَا يُغَادِر صَغِيرَة وَلَا كَبِيرَة} مِنْ ذُنُوبنَا {إِلَّا أَحْصَاهَا} عَدَّهَا وَأَثْبَتَهَا تَعَجَّبُوا مِنْهُ فِي ذَلِكَ {وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا} مُثْبَتًا فِي كِتَابهمْ {وَلَا يَظْلِم رَبّك أَحَدًا} لَا يُعَاقِبهُ بِغَيْرِ جُرْم وَلَا يَنْقُص مِنْ ثَوَاب مُؤْمِن[1].

---

(١) قوله تعالى: {وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ} [الكهف: ٤٧]، أي:"واذكر لهم يوم نُزيل الجبال عن أماكنها".

=

=

قال الطبري: "فنبسُّها بَسًّا، ونجعلها هباء منبثا".

وفي قوله تعالى: {وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ} [الكهف: ٤٧]، ثلاثة وجوه:

أحدها: «يسيرها»: من السير حتى تنتقل عن مكانها لما فيه من ظهور الآية وعظم الاعتبار.

الثاني: «يسيرها»، أي: يقللها حتى يصير كثيرها قليلًا يسيرًا.

الثالث: بأن يجعلها هباء منثورًا.

قال ابن عباس: تُسيَّر الجبال عن وجه الأرض، كما يُسيَّر السحاب في الدنيا، ثم تكسّر فتكون في الأرض كما خرجت منها".

قوله تعالى: {وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً} [الكهف: ٤٧]، أي: "وتبصر الأرض ظاهرة، ليس عليها ما يسترها مما كان عليها من المخلوقات".

قال أبو عبيدة: "أي: ظاهرة".

وفي قوله تعالى: {وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً} [الكهف: ٤٧]، وجهان:

أحدهما: أنه بروز ما في بطنها من الأموات بخروجهم من قبورهم، فصاروا على ظهرها، قاله الفراء، وحكاه الطبري.

قال الفراء: "يقول: أبرزنا أهلها من بطنها".

الثاني: أنها فضاء لا يسترها جبل ولا نبات، قاهل مجاهد، وقتادة.

قال مجاهد: "لا خَمْرَ فيها ولا غيابة ولا بناء، ولا حجر فيها".

قال قتادة: "ليس عليها بناء ولا شجر".

قال الفراء: "ويقال: سيرت عنها الجبال فصارت كلها بارزة لا يستر بعضها بعضا".

قوله تعالى: {وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا} [الكهف: ٤٧]، أي: "وجمعنا الأولين والآخِرين لموقف الحساب، فلم نترك منهم أحدًا".

=

=

قال الطبري:"يقول: جمعناهم إلى موقف الحساب، فلم نترك، ولم نبق منهم تحت الأرض أحدا، يقال منه: ما غادرت من القوم أحدا، وما أغدرت منهم أحدا، ومن أغدرت قول الراجز:

هَلْ لكِ والعارِضُ مِنكِ عائِضُ... في هَجْمَةٍ يُغْدِرُ مِنْها القابِضُ".

وفي قوله تعالى: {وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا} [الكهف: ٤٧]، ثلاثة وجوه:

أحدها: يعني: فلم نخلف منهم أحدًا، ومنه سمي «الغدير»، لأنه ماء تخلفه السيول. وهذا قول ابن قتيبة.

الثاني: فلم نستخلف منهم أحدًا، قاله الكلبي.

الثالث: معناه: فلم يبق منهم أحد إلا حشرناه، قاله مقاتل.

قال يحيى بن سلام:"أحضروا فلم يغب منهم أحد".

* قوله تعالى: (ويوم نسير الجبال) أي يزيلها عن أماكنها، يجعلها كثيبا، ثم يجعلها كالعهن المنفوش ثم تضمحل وتتلاشي.

كما قال تعالى (يوم تمور السماء مورا).

وقال تعالى (وسيرت الجبال فكانت سرابا وتسير الجبال سيرا).

وقال تعالى (وإذا الجبال سيرت).

وقال تعالى (ويسألونك عن الجبال فقل ينسفها ربي نسفا).

وقال تعالى (وترى الجبال تحسبها جامدة وهي تمر مر السحاب).

وذكر الله أنه سبحانه يفتتها حتى تذهب صلابتها الحجرية وتلين فتكون كالعهن المنفوش.

كما قال تعالى (وتكون الجبال كالعهن) والعهن الصوف.

ثم ذكر الله أنه يجعلها سرابا كما قال تعالى (وسيرت الجبال فكانت سرابا).

(وترى الأرض بارزة) أي بادية ظاهرة ليس فيها معلم لأحد، ولا مكان يواري

=

=

أحدا، بل الخلق كلهم ظاهرون لربهم لا تخفى عليه منهم خافية.

والبارزة: الظاهرة، أي الظاهر سطحها، إذ ليس عليها شيء يستر وجهها من شجر ونبات أو حيوان، كقوله تعالى (فإذا هم بالساهرة).

والبروز: الظهور، أي ترى الأرض ظاهر منكشفة لذهاب الجبال والظراب والآكام، والشجر والعمارات التي كانت عليها. وهذا المعنى الذي ذكره هنا - بينه أيضا في غير هذا الموضع. كقوله تعالى (ويسألونك عن الجبال فقل ينسفها ربي نسفا فيذرها قاعا صفصفا لا ترى فيها عوجا ولا أمتا) وأقوال العلماء في معنى ذلك راجعة إلى شيء واحد، وهو أنها أرض مستوية لا نبات فيها، ولا بناء ولا ارتفاع ولا انحدار.... (أضواء البيان)

- **قال الرازي**: أي أنه لم يبق على وجهها شيء من العمارات، ولا شيء من الجبال، ولا شيء من الأشجار، فبقيت بارزة ظاهرة ليس عليها ما يسترها، وهو المراد من قوله (لا ترى فيها عوجا ولا أمتا).

- قال ابن الجوزي: وفي معنى (بارزة) قولان:

أحدهما: [ظاهرة] فليس عليها شيء من جبل أو شجر أو بناء، قاله الأكثرون.

والثاني: بارزا أهلها من بطنها، قاله الفراء.

- وقال القرطبي: ومعنى (بارزة) ظاهرة، وليس عليها ما يسترها من جبل ولا شجر ولا بنيان؛ أي قد اجتثت ثمارها وقلعت جبالها، وهدم بنيانها؛ فهي بارزة ظاهرة، وعلى هذا القول أهل التفسير.... (التفسير)

- وقال الآلوسي:... أو تراها بارزة لذهاب جميع ما عليها من الجبال والبحار والعمران والأشجار وإنما اقتصر على زوال الجبال لأنه يعلم منه زوال ذلك بطريق الأولى، وقيل: إسناد البروز إلى الأرض مجاز، والمراد ترى أهل الأرض بارزين من بطنها وهو خلاف الظاهر.

=

=

- **قال الشنقيطي**: قول من قال: إن معنى (وترى الأرض بارزة) أي بارزا ما كان في بطنها من الأموات والكنوز - بعيدا جدا كما ترى.

وبروز ما في بطنها من الأموات والكنوز دلت عليه آيات أخر.

كقوله تعالى (وإذا الأرض مدت وألقت ما فيها وتخلت).

وقوله تعالى (أفلا يعلم إذا بعثر ما في القبور وحصل ما في الصدور) وقوله (وأخرجت الأرض أثقالها) وقوله (وإذا القبور بعثرت).... (أضواء البيان)

ومفهوم الآية أن الأرض الآن غير بادية لوجود الأشجار والأبنية والجبال وغيرها.

(وحشرناهم) الحشر: جمع الناس يوم القيامة لحسابهم.

والمعنى: جمعناهم الأولين منهم والآخرين.

فكل أحد يحشر من الإنس والجن والدواب والطير وغيرهم.

كما قال تعالى (وما من دآبة في الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم ما فرطنا في الكتاب من شيء ثم إلى ربهم يحشرون).

وقد دل على حشر البهائم خمسة أدلة:

أ- قال تعالى (وإذا الوحوش حشرت).

ب_ قوله تعالى (وما من دابة في الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم ما فرطنا في الكتاب من شيء ثم إلى ربهم يحشرون).

ج_ وحديث أبي ذر (أن النبي ﷺ رأى شاتين ينتطحان فقال: يا أباذر أتدري فيما ينتطحان؟ قال: قلت: لا، قال: لكن الله يدري وسيقضي بينهما) رواه أحمد.

د- وحديث (مانع صدقة الإبل والبقر والغنم وأنها تجيء يوم القيامة أعظم ما كانت وأسمنه تنطحه بقرونها وتطأوه بأظلافها). متفق عليه

هـ- الآثار الواردة في قوله تعالى (يوم ينظر المرء ما قدمت يداه ويقول الكافر يا ليتني كنت ترابا) وأن الله تعالى يجمع الوحوش ثم يقتص من بعضها لبعض، ثم

=

=

يقول لها: كوني ترابا، فتكون ترابا، فعندها يقول الكافر (يا ليتني كنت ترابا).

(فلم نغادر منهم أحدا) أي فلم نترك منهم أحدا لا صغيرا ولا كبيرا.

كما قال تعالى (ويوم نحشرهم جميعا).

قوله تعالى: {وَعُرِضُوا عَلَى رَبِّكَ صَفًّا} [الكهف: ٤٨]، أي:"وعُرِضوا جميعًا على ربك مصطَفِّين لا يُحجب منهم أحد".

قال الطبري:"يقول عزّ ذكره: وعُرض الخلق على ربك يا محمد صفا".

قال يحيى بن سلام: أي:"صفوفا".

وقال السدي: " {صفا}، يعني: جميعا".

قال الزجاج:"معناه: أنهم كلهم ظاهرون لله، ترى جماعتهم كما يرى كل واحد منهم. لا يحجب واحد واحدا".

وفي الحديث: «أهل الجنة عشرون ومائة صف أنتم منها ثمانون صفا».

وفي رواية: «أهل الجنة عشرون ومائة صف ثمانون منها من هذه الأمة وأربعون من سائر الأمم».

وفي رواية: «أهل الجنة مائة وعشرون صفا أنتم ثمانون صفا والناس سائر ذلك وأنتم وفاء سبعين أمة أنتم خيرها وأكرمها على الله».

قوله تعالى: {لَقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ} [الكهف: ٤٨]، أي:"لقد بعثناكم، وجئتم إلينا فرادى لا مال معكم ولا ولد، كما خلقناكم أول مرة".

قال الطبري:"يقول عزّ ذكره: يقال لهم إذ عُرضوا على الله: لقد جئتمونا أيها الناس أحياء كهيئتكم حين خلقناكم أوَّل مرة".

قال الزجاج:"أي: بعثناكم كما خلقناكم".

قال سعيد بن جبير:"كيوم ولد يرد عليه كل شيء نقص منه من يوم ولد".

وفي الحديث: «يا أيها الناس إنكم محشورون إلى الله حفاة عراة غرلا {كما بدأنا

=

=

أول خلق نعيده}، ألا وإن أول الخلائق يكسى يوم القيامة إبراهيم ألا وإنه يجاء برجال من أمتى فيؤخذ بهم ذات الشمال فأقول يا رب أصحابى فيقال إنك لا تدرى ما أحدثوا بعدك فأقول كما قال العبد الصالح {كنت عليهم شهيدا ما دمت فيهم فلما توفيتنى كنت أنت الرقيب عليهم}، فيقال إن هؤلاء لم يزالوا مرتدين على أعقابهم منذ فارقتهم».

وفي حديث عائشة-رضي الله عنها: «يبعث الناس يوم القيامة حفاة عراة غرلا، قالت عائشة: فكيف بالعورات؟، قال: {لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه} ».

وفي الحديث: «يبعث الناس يوم القيامة فأكون أنا وأمتى على تل ويكسونى ربى حلة خضراء ثم يؤذن لى فأقول ما شاء الله أن أقول فذلك المقام المحمود».

قوله تعالى: {بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّنْ نَجْعَلَ لَكُمْ مَوْعِدًا} [الكهف: ٤٨]، أي:"بل ظننتم أن لن نجعل لكم موعدًا نبعثكم فيه، ونجازيكم على أعمالكم".

قال الطبري:"هذا الكلام خرج مخرج الخبر عن خطاب الله به الجميع، والمراد منه الخصوص، وذلك أنه قد يرد القيامة خلق من الأنبياء والرسل، والمؤمنين بالله ورسله وبالبعث، ومعلوم أنه لا يقال يومئذ لمن وردها من أهل التصديق بوعد الله في الدنيا، وأهل اليقين فيها بقيام الساعة، بل زعمتم أن لن نجعل لكم البعث بعد الممات، والحشر إلى القيامة موعدا، وأن ذلك إنما يقال لمن كان في الدنيا مكذّبا بالبعث وقيام الساعة".

* (وعرضوا على ربك صفا) يحتمل أن يكون المراد جميع الخلائق يقومون بين يدي الله صفا واحدا كما قال تعالى (يوم يقوم الروح والملائكة صفا لا يتكلمون...).

ويحتمل أنهم يقومون صفوفا صفوفا كقوله تعالى (وجاء ربك والملك صفا صفا).

=

=

(لقد جئتمونا كما خلقناكم أول مرة) أي يقال لهم يوم القيامة: أي والله لقد جئتمونا كما خلقناكم أول مرة، أي حفاة عراة غرلا بهما، بلا مال، ولا ولد، ولا أهل، ولا عشيرة، ما معهم إلا الأعمال.

- قال ابن كثير: هذا تقريع للمنكرين للمعاد، وتوبيخ لهم على رؤوس الأشهاد.

كما قال تعالى (ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة وتركتم ما خولناكم وراء ظهوركم)

وقال تعالى (وكلهم آتيه يوم القيامة فردا).

وقال تعالى (كما بدأنا أول خلق نعيده وعدا علينا إنا كنا فاعلين).

وقال تعالى (كما بدأكم تعودون).

قوله وحشرناهم - وعرضوا - عبر بالماضي والمراد المستقبل، لتأكد وقوعه.

(بل زعمتم ألن نجعل لكم موعدا) أي ما كان هذا ظنكم أن هذا واقع بكم، ولا أن هذا كائن.

فالكفار زعموا أن الله لم يجعل لهم وقتا ولا مكانا لإنجاز ما وعدهم على ألسنة رسله من البعث والجزاء والحساب.

كما قال تعالى (زعم الذين كفروا أن لن يبعثوا قل بلى وربي لتبعثن ثم لتنبؤن بما عملتم وذلك على الله يسير).

وقال تعالى عنهم (وما نحن بمبعوثين).

قوله تعالى: {وَوُضِعَ الْكِتَابُ} [الكهف: ٤٩].

قال الطبري:"يقول عزّ ذكره: ووضع الله يومئذ كتاب أعمال عباده في أيديهم، فأخذ واحد بيمينه وأخذ واحد بشماله".

قال الزجاج:"معناه - والله أعلم - وضع كتاب كل امرئ بيمينه أو شماله".

قال الزمخشري:"«الكتاب»: للجنس، وهو صحف الأعمال".

=

=

وفي قوله تعالى: {وَوُضِعَ الْكِتَابُ} [الكهف: ٤٩]، وجهان:

أحدهما: أنها كتب الأعمال في أيدي العباد، قاله مقاتل.

قال يحيى بن سلام:"ما كانت تكتب عليهم الملائكة في الدنيا من أعمالهم".

الثاني: أنه وضع الحساب، فعبر عن «الحساب» بـ«الكتاب»، لأنهم يحاسبون على أعمالهم المكتوبة. قاله الكلبي.

قوله تعالى: {فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ} [الكهف: ٤٩]، أي:"فتبصر العصاة خائفين مما فيه بسبب ما قدموه من جرائمهم".

قال يحيى بن سلام:"المشركين، خائفين".

قال الطبري:"يقول عزّ ذكره: فترى المجرمين المشركين بالله مشفقين، يقول: خائفين وجلين مما فيه مكتوب من أعمالهم السيئة التي عملوها في الدنيا أن يؤاخذوا بها".

قوله تعالى: {وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا} [الكهف: ٤٩]، أي:"ويقولون حين يعاينونه: يا هلاكنا! ما لهذا الكتاب لم يترك صغيرة مِن أفعالنا ولا كبيرة إلا أثبتها؟!".

قال الطبري:"يعني: أنهم يقولون إذا قرءوا كتابهم، ورأوا ما قد كُتب عليهم فيه من صغائر ذنوبهم وكبائرها، نادوا بالويل حين أيقنوا بعذاب الله، وضجوا مما قد عرفوا من أفعالهم الخبيثة التي قد أحصاها كتابهم، ولم يقدروا أن ينكروا صحتها".

قال الزجاج:"كل من وقع في هلكة دعا بالويل".

قال الزمخشري:"يعنى: لا يترك شيئا من المعاصي إلا أحصاه، أى: أحصاها كلها كما تقول: ما أعطانى قليلا ولا كثيرا، لأن الأشياء إما صغار وإما كبار. ويجوز أن يريد: وإما كان عندهم صغائر وكبائر. وقيل: لم يجتنبوا الكبائر فكتبت عليهم

=

=

الصغائر وهي المناقشة".

قال قتادة: " اشتكى القوم كما تسمعون الإحصاء، ولم يشتك أحد ظلما، فإياكم والمحقَّرات من الذنوب، فإنها تجتمع على صاحبها حتى تهلكه".

قال الفضيل:"كان إذا قرأها قال: ضجوا والله من الصغائر قبل الكبائر".

ونظير هذا قول رسول الله ﷺ وقد سئل: أيحاسب الإنسان على ما يتكلم به؟ فقال ﷺ: «وهل يكب الناس فى النار على وجوههم أو على مناخرهم فى النار إلا حصائد ألسنتهم».

والحصائد جمع حصيدة: وهي الكلمة الهينة.

وفي معنى «الصغيرة» ها هنا وجوه:

أحدها: أنه الضحك، قاله ابن عباس، وأبو محمد بن عبدالرحمن.

وحكي عن الضحاك عن ابن عباس، قال:"الكبيرة: التبسم والاستهزاء بالمؤمنين".

الثاني: أنها المسيس. قاله سعيد بن جبير.

الثالث: أنها صغائر الذنوب التي تغفر باجتناب كبائرها.

وأما «الكبيرة»، ففيها أقوال:

أحدها: أنها القهقهة بالمؤمنين. قاله ابن عباس.

الثاني: أنها الزنا. قاله سعيد بن جبير.

الثالث: ما جاء النص بتحريمه.

الرابع: ما قرن بالوعيد والحَدِّ.

الخامس: أن الصغيرة الشهوة، والكبيرة العمل. أفاده الماوردي.

قال ابن الجوزي:"وقد يتوهم أن المراد بذلك صغائر الذنوب وكبائرها، وليس كذلك، إذ ليس الضحك والتبسم، بمجردهما من الذنوب، وإنما المراد أن التبسم

=

=

من صغار الأفعال، والضحك فعل كبير، وقد روى الضحاك عن ابن عباس، قال: الصغيرة: التبسم والاستهزاء بالمؤمنين، والكبيرة: القهقهة بذلك، فعلى هذا يكون ذنبا من الذنوب لمقصود فاعله، لا لنفسه".

قال الفخر:"«الإحصاء»: بمعنى لا يترك شيئا من المعاصي سواء كانت صغيرة أو كبيرة إلا وهي مذكورة في هذا الكتاب، ونظيره قوله تعالى: {وإن عليكم لحافظين كراما كاتبين يعلمون ما تفعلون} [الانفطار: ١٠ - ١٢] وقوله: {إنا كنا نستنسخ ما كنتم تعملون} [الجاثية: ٢٩]".

قوله تعالى: {وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا} [الكهف: ٤٩]، أي:"ووجدوا كل ما عملوه في الدنيا حاضرًا مثبتًا".

قال يحيى بن سلام:"في كتبهم".

قال الواحدي: " في الكتاب مكتوبًا".

قوله تعالى: {وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا} [الكهف: ٤٩]، أي:"ولا يظلم ربك أحدًا مثقال ذرة، فلا يُنقَص طائع من ثوابه، ولا يُزاد عاص في عقابه".

قال الواحدي: " لا يعاقب أحدًا بغير جرم".

قال الزجاج:"أي: إنما يعاقبهم فيضع العقوبة موضعها في مجازاة الذنوب، وأجمع أهل اللغة أن «الظلم»: وضع الشيء في غير موضعه".

* (ووضع الكتاب) أي كتاب الأعمال، الذي فيه الجليل والحقير، والفتيل والقطمير، والصغير والكبير.

المراد بالكتاب الجنس، فيشمل جميع الصحف التي كتبت فيها أعمال المكلفين في دار الدنيا.

كما قال تعالى (وكل إنسان ألزمناه طآئره في عنقه ونخرج له يوم القيامة كتابا يلقاه منشورا).

=

=

وجاء في آيات: أن البعض يأخذ كتابه بيمينه وبعضهم بشماله:

كما قال تعالى (وأما من أوتي كتابه بشماله فيقول يا ليتني لم أوت كتابيه).

وقال تعالى (فأما من أوتي كتابه بيمينه فسوف يحاسب حسابا يسيرا).

- **قال ابن عاشور**: والكتاب مراد به الجنس، أي وضعت كتب أعمال البشر، لأن لكل أحد كتابا، كما دلت عليه آيات أخرى منها قوله تعالى (وكل إنسان ألزمناه طائره في عنقه ونخرج له يوم القيامة كتابا يلقاه منشورا اقرأ كتابك).

(فترى المجرمين مشفقين مما فيه) أي فترى المشركين بالله مشفقين خائفين وجلين مما فيه مكتوب من أعمالهم السيئة وأفعالهم القبيحة وفضيحتهم على رؤوس الأشهاد.

وذكر بعض أهل العلم أن كل مجرم ذكر في القرآن، فالمراد به: الكافر.

والمجرمون: جمع المجرم، وهم اسم فاعل الإجرام. والإجرام: ارتكاب الجريمة، وهي الذنب العظيم الذي يستحق صاحبة عليه النكال.

- قال ابن عطية: إشفاق المجرمين ": فزعهم من كشفه لهم وفضحه فشكاية المجرمين إنما هي من الإحصاء لا من ظلم ولا حيف، وقدم الصغيرة اهتماما بها، لينبه منها، ويدل أن الصغيرة إذا أحصيت، فالكبيرة أحرى بذلك، والعرب أبدا تقدم في الذكر الأقل من كل مقترنين.

- **قال ابن عاشور**: والإشفاق: الخوف من أمر يحصل في المستقبل.

(ويقولون يا ويلتنا) يا حسرتنا وويلنا مما فرطنا في أعمارنا.

(مال هذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها) أي لا يترك ذنبا صغيرا ولا كبيرا ولا عملا وإن صغر إلا أحصاها أي ضبطها وحفظها.

- **قال ابن عاشور**: وتقديم ذكر الصغيرة لأنها أهم من حيث يتعلق التعجب من إحصائها.

=

=

- فيه أن الذنوب تنقسم إلى كبائر وصغائر:

قال تعالى (إن تجتنبوا كبآئر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم).

وقال تعالى (إن تجتنبوا كبآئر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم).

وقال تعالى (الذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش إلا اللمم).

والجمهور على أن المراد بـ(اللمم) ما دون الكبائر وهي صغائر الذنوب.

عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ (الصلوات الخمس والجمعة إلى الجمعة كفارات لما بينهن إذا اجتنبت الكبائر) رواه مسلم.

واختلف في تحديد الكبيرة على أقوال.

فقيل: الكبيرة كل ما نص على أنها من الكبائر.

كقوله في أكل أموال اليتامى (إنه كان حوبا كبيرا) وقوله ﷺ (ألا أنبئكم بأكبر الكبائر: الإشراك بالله، وعقوق الوالدين..) واختاره الطبري.

وقيل: الكبيرة: ما ترتب عليه عقوبة خاصة دينية أو دنيوية أو أخروية، وهذا اختيار شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله.

فالعقوبة الدينية كقوله ﷺ (ليس منا من لطم الخدود..) وقوله (لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه).

والعقوبة الدنيوية: كقتل القاتل، ورجم الزاني المحصن، وجلد الزاني غير المحصن، وقطع السارق.

(ووجدوا ما عملوا حاضرا) من خير وشر لا يقدرون على إنكاره.

كما قال تعالى (يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضرا وما عملت من سوء).

وقال تعالى (ينبأ الإنسان يومئذ بما قدم وأخر).

وقال تعالى (فيقول هاؤم اقرؤوا كتابيه).

=

=

وقال تعالى (يوم تبلى السرائر).

(ولا يظلم ربك أحدا) لكمال عدله.

- **قال القرطبي**: أي لا يأخذ أحدا بجرم أحد، ولا يأخذه بما لم يعمله؛ قاله الضحاك، وقيل: لا ينقص طائعا من ثوابه ولا يزيد عاصيا في عقابه.

- وقال أبو حيان (ولا يظلم ربك أحدا) فيكتب عليه ما لم يعمل أو يزيد في عقابه الذي يستحقه أو يعذبه بغير جرم.

- **قال الشنقيطي**: أي فلا ينقص من حسنات محسن، ولا يزيد من سيئات مسيء، ولا يعاقب على غير ذنب.

وأوضح هذا المعنى في مواضع أخر، كقوله (إن الله لا يظلم الناس شيئا ولكن الناس أنفسهم يظلمون).

وقوله تعالى (إن الله لا يظلم مثقال ذرة وإن تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجرا عظيما).

وقوله تعالى (ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئا وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين)

وقوله (وما ربك بظلام للعبيد) وقوله (وما ظلمهم الله ولكن كانوا أنفسهم يظلمون).

(تنبيه): قال الله تعالى: (إن الله لا يظلم مثقال ذرة) [النساء: ٤٠].

وقال تعالى: (ولا يظلم ربك أحدا) [الكهف: ٤٩].

وقال تعالى: (وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا) [الإسراء: ١٥].

وقد رد في الحديث عن أبي هريرة - رضي الله عنه -، عن النبي ﷺ قال: (اختصمت الجنة والنار إلى ربهما فقالت الجنة: يا رب ما لها لا يدخلها إلا ضعفاء الناس وسقطهم؟ وقالت النار: يعني أوثرت بالمتكبرين. فقال الله تعالى للجنة: أنت

=

=

رحمتي. وقال للنار: أنت عذابي أصيب بك من أشاء، ولكل واحدة منكما ملؤها. قال: فأما الجنة فإن الله لا يظلم من خلقه أحدا، وإنه ينشئ للنار من يشاء، فيلقون فيها فتقول: هل من مزيد ثلاثا، حتى يضع فيها قدمه، فتمتلئ ويرد بعضها إلى بعض، وتقول: قط قط قط) أخرجه البخاري (٧٤٤٩).

فظاهر الآيات الكريمة نفي الظلم عن الله تعالى، وأنه سبحانه لا يعذب أحدا من خلقه إلا بعد الإعذار إليه، وقيام الحجة عليه، وهذا الذي دلت عليه الآيات هو محل إجماع بين العلماء، من تنزيهه سبحانه عن الظلم، أو أن يعذب أحدا بغير ذنب ولا حجة.

وأما الحديث الوارد في المسألة فقد جاء فيه ما يوهم معارضة هذا الأصل الذي دلت عليه الآيات، وهو قوله: "وإنه ينشئ للنار من يشاء"، وهذا اللفظ يوهم أن الله تعالى يعذب في النار من لا ذنب له، وهو خلاف الآيات.

* مسالك العلماء في دفع التعارض بين الآيات والحديث:

للعلماء في دفع التعارض بين الآيات والحديث مسلكان:

الأول: مسلك تضعيف الحديث بهذا اللفظ، والجزم بوقوع الغلط فيه:

حيث ذهب جماعة من الأئمة إلى أن الحديث لا يصح بهذا اللفظ، وأنه مما وقع فيه الغلط من بعض الرواة، حيث انقلب عليه الحديث، فجعل الإنشاء للنار، والصواب أن الإنشاء للجنة، بدليل ما أخرجاه في الصحيحين - واللفظ للبخاري - من حديث عبد الرزاق، عن معمر، عن همام، عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: قال النبي ﷺ: "تحاجت الجنة والنار" فذكر الحديث إلى أن قال: "فأما النار فلا تمتلئ حتى يضع رجله فتقول: قط قط. فهنالك تمتلئ ويزوى بعضها إلى بعض، ولا يظلم الله ﷻ من خلقه أحدا، وأما الجنة فإن الله ﷻ ينشئ لها خلقا". أخرجه البخاري (٤٨٥٠)، ومسلم (٢٨٤٧).

=

=

نقل الحافظ ابن حجر هذا المذهب: عن أبي الحسن القابسي، وشيخه البلقيني.

وممن جزم بوقوع الغلط في الحديث: شيخ الإسلام ابن تيمية، وابن القيم، والحافظ ابن كثير، وابن الوزير اليماني.

قال أبو الحسن القابسي: "المعروف في هذا الموضع أن الله ينشئ للجنة خلقا؛ وأما النار فيضع فيها قدمه، ولا أعلم في شيء من الأحاديث أنه ينشئ للنار إلا هذا". اهـ

وقال ابن القيم: "وأما اللفظ الذي وقع في صحيح البخاري في حديث أبي هريرة: "وإنه ينشئ للنار من يشاء، فيلقون فيها فتقول: هل من مزيد"، فغلط من بعض الرواة، انقلب عليه لفظه، والروايات الصحيحة ونص القرآن يرده، فإن الله سبحانه أخبر أنه يملأ جهنم من إبليس وأتباعه، وأنه لا يعذب إلا من قامت عليه حجته، وكذب رسله، قال تعالى: (كلما ألقي فيها فوج سألهم خزنتها ألم يأتكم نذير) [الملك: ٨]، ولا يظلم الله أحدا من خلقه". اهـ

وقال الحافظ ابن كثير: "طعن جماعة من العلماء في اللفظة التي جاءت معجمة في صحيح البخاري... "، ثم ذكر الحديث وقال: "فهذا إنما جاء في الجنة؛ لأنها دار فضل، وأما النار فإنها دار عدل، لا يدخلها أحد إلا بعد الإعذار إليه، وقيام الحجة عليه، وقد تكلم جماعة من الحفاظ في هذه اللفظة وقالوا: لعله انقلب على الراوي...". اهـ

الثاني: مسلك قبول الحديث، والجمع بينه وبين الآيات:

وقد اختلف أصحاب هذا المسلك في الجمع على مذهبين:

الأول: مذهب قبول الرواية مع توجيهها وصرفها عن ظاهرها:

وهذا رأي الحافظ ابن حجر، حيث قال: "ويمكن التزام أن يكونوا من ذوي الأرواح، ولكن لا يعذبون؛ كما في الخزنة، ويحتمل أن يراد بالإنشاء ابتداء إدخال

=

=

الكفار النار، وعبر عن ابتداء الإدخال بالإنشاء، فهو إنشاء الإدخال، لا الإنشاء بمعنى ابتداء الخلق؛ بدليل قوله: "فيلقون فيها فتقول: هل من مزيد"، وأعادها ثلاث مرات ثم قال: "حتى يضع فيها قدمه فحينئذ تمتلئ"، فالذي يملؤها حتى تقول حسبي هو القدم، كما هو صريح الخبر...". اهـ

الثاني: مذهب قبول الرواية مطلقا:

وهذا رأي المهلب، حيث يرى أن هذه الرواية حجة لأهل السنة في قولهم: إن الله أن يعذب من لم يكلفه لعبادته في الدنيا؛ لأن كل شيء ملكه، فلو عذبهم لكان غير ظالم لهم.

وتعقب: بأن أهل السنة إنما تمسكوا في ذلك بقوله تعالى: (لا يسأل عما يفعل وهم يسألون (٢٣)) [الأنبياء: ٢٣]، وبقوله: (ويفعل الله ما يشاء) [إبراهيم: ٢٧]، وغير ذلك، وهو عندهم من جهة الجواز، وأما الوقوع ففيه نظر.

وممن ذهب إلى قبول الرواية مطلقا: القاضي عياض، والكرماني.

قال القاضي عياض في تعليقه على الرواية: "قال بعض المتعقبين: هذا وهم، والمعروف في الإنشاء إنما هو للجنة. قال القاضي: لا ينكر هذا، وأحد التأويلات التي قدمنا

في القدم - أنهم قوم تقدم في علم الله أنه يخلقهم لها - مطابق للإنشاء، وموافق لمعناه...، ولا فرق بين الإنشاء للجنة أو النار، لكن ذكر القدم بعد ذكر الإنشاء هنا يرجح أن يكون تأويل القدم بخلافه، بمعنى القهر والسطوة، أو قدم جبار وكافر من أهلها كانت النار تنتظر إدخاله إياها بإعلام الله لها، أو الملائكة الموكلين بما أمرهم...". اهـ

قلت: ما ذهب إليه القاضي رحمه الله من تأويل صفتي القدم والرجل لله تعالى هو مذهب أهل التأويل، والحق وجوب حملهما على الحقيقة من غير تأويل ولا

=

=

تعطيل ولا تكييف، كما هو مذهب أهل السنة.

قال فضيلة الشيخ محمد بن صالح العثيمين - رحمه الله تعالى - في شرح العقيدة الواسطية، ص (٤١٤): "في هذا الحديث من الصفات: أن لله تعالى رجلا وقدما حقيقية، لا تماثل أرجل المخلوقين....، وخالف الأشاعرة وأهل التحريف في ذلك فقالوا: (يضع عليها رجله) يعني: طائفة من عباده مستحقين للدخول....، وهذا تحريف باطل؛ لأن قوله: "عليها" يمنع ذلك، وأيضا لا يمكن أن يضيف الله ﷻ أهل النار إلى نفسه؛ لأن إضافة الشيء إلى الله تكريم وتشريف...". اهـ.

وقال الكرماني في تعليقه على الرواية: "قيل: هذا وهم من الراوي؛ إذ تعذيب غير العاصي لا يليق بكرم الله تعالى، بخلاف الإنعام على غير المطيع. قال: ولا محذور في تعذيب الله من لا ذنب له؛ إذ القاعدة القائلة بالحسن والقبح العقليين باطلة، فلو عذبه لكان عدلا، والإنشاء للجنة لا ينافي الإنشاء للنار، والله يفعل ما يشاء، فلا حاجة إلى الحمل على الوهم". اهـ

* والذي يظهر صوابه - والله تعالى أعلم - هو القول بضعف الحديث بهذا اللفظ، والجزم بوقوع الغلط فيه.

ويدل على وقوع الغلط فيه وجوه:

الأول: أن الحديث رواه ثلاثة من أصحاب النبي ﷺ، وقد روي عنهم من طرق متعددة على الوجه الصحيح، وليس في هذه الطرق ذكر لهذا اللفظ المشكل، مع اتحاد لفظ الحديث في أغلب هذه الأحاديث والطرق، وفيما يلي تفصيل هذه الطرق وبيان ألفاظها:

الأول: حديث أبي هريرة - رضي الله عنه -:

وقد روي عنه من ثلاثة طرق:

الأول: طريق الأعرج (عبد الرحمن بن هرمز)، عن أبي هريرة، به.

=

=

وقد روي عن الأعرج من طريقين:

١- طريق صالح بن كيسان، عن الأعرج، عن أبي هريرة، به.

وهذه الطريق هي التي وقع فيها اللفظ المشكل، وقد تقدم ذكر لفظها في أول المسألة.

٢- طريق أبي الزناد (عبد الله بن ذكوان)، عن الأعرج، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: "تحاجت النار والجنة فقالت النار: أوثرت بالمتكبرين والمتجبرين. وقالت الجنة: فما لي لا يدخلني إلا ضعفاء الناس وسقطهم وعجزهم؟ فقال الله للجنة: أنت رحمتي أرحم بك من أشاء من عبادي. وقال للنار: أنت عذابي أعذب بك من أشاء من عبادي، ولكل واحدة منكم ملؤها. فأما النار فلا تمتلئ، فيضع قدمه عليها فتقول: قط قط. فهنالك تمتلئ ويزوى بعضها إلى بعض". أخرجه مسلم (٢٨٤٦).

الثاني: طريق محمد بن سيرين، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: "احتجت الجنة والنار فقالت الجنة: يا رب ما لي لا يدخلني إلا فقراء الناس وسقطهم؟ وقالت النار: ما لي لا يدخلني إلا الجبارون والمتكبرون؟ فقال للنار: أنت عذابي أصيب بك من أشاء. وقال للجنة: أنت رحمتي أصيب بك من أشاء، ولكل واحدة منكما ملؤها. فأما الجنة فإن الله ينشئ لها ما يشاء، وأما النار فيلقون فيها وتقول هل من مزيد حتى يضع قدمه فيها، فهنالك تمتلئ ويزوى بعضها إلى بعض وتقول: قط قط قط". أخرجه مسلم في الموضع السابق(٢٨٤٦) بسنده دون متنه.

الثالث: طريق همام بن منبه، عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: قال النبي ﷺ: "تحاجت الجنة والنار، فقالت النار: أوثرت بالمتكبرين والمتجبرين. وقالت الجنة: ما لي لا يدخلني إلا ضعفاء الناس وسقطهم؟ قال الله تبارك وتعالى للجنة: أنت رحمتي، أرحم بك من أشاء من عبادي. وقال للنار: إنما أنت عذابي، أعذب

=

=

بك من أشاء من عبادي، ولكل واحدة منهما ملؤها. فأما النار فلا تمتلئ حتى يضع رجله فتقول: قط قط. فهنالك تمتلئ ويزوى بعضها إلى بعض، ولا يظلم الله ﷻ من خلقه أحدا، وأما الجنة فإن الله ﷻ ينشئ لها خلقا". أخرجه البخاري - واللفظ له - (٤٨٥٠)، ومسلم (٢٨٤٧).

الثاني: حديث أبي سعيد الخدري - رضي الله عنه -، أن رسول الله ﷺ قال: "افتخرت الجنة والنار فقالت النار: أي رب يدخلني الجبابرة والملوك والعظماء والأشراف. وقالت الجنة: أي رب يدخلني الفقراء والضعفاء والمساكين. فقال تبارك وتعالى للنار: أنت عذابي أصيب بك من أشاء. وقال للجنة: أنت رحمتي وسعت كل شيء، ولكل واحدة منكما ملؤها. فأما النار فيلقى فيها أهلها وتقول: هل من مزيد. حتى يأتيها تبارك وتعالى فيضع قدمه عليها فتزوى وتقول: قدني قدني. وأما الجنة فتبقى ما شاء الله أن تبقى ثم ينشئ الله لها خلقا بما يشاء". أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٣/ ٧٨).

الثالث: حديث أنس - رضي الله عنه -، عن النبي ﷺ قال: "لا يزال يلقى في النار وتقول: هل من مزيد، حتى يضع فيها رب العالمين قدمه، فينزوي بعضها إلى بعض ثم تقول:

قد قد بعزتك وكرمك. ولا تزال الجنة تفضل حتى ينشئ الله لها خلقا فيسكنهم فضل الجنة". أخرجه البخاري (٧٣٨٤)، ومسلم(٢٨٤٨).

ويتلخص من مجموع هذه الطرق أن حديث صالح بن كيسان، عن الأعرج، حديث منقلب لم يتابع عليه، فأما أبو هريرة فقد تخلص من الوهم برواية الثقات للحديث عنه على الصواب، وكذلك الأعرج فقد رواه عنه أبو الزناد بغير ذكره لتلك الزيادة المنكرة.

الوجه الثاني - من أدلة وقوع الغلط في الحديث -: أن راوي هذا الحديث

=

=

المقلوب جعل تنزيه الله تعالى من الظلم عند ذكره الجنة، فأوهم بذلك أن من أدخله الله تعالى الجنة بغير عمل كان ظلما، وهذا من أفحش الخطأ؛ فإن الحور العين والأطفال في الجنة بغير عمل، وهذا هو الموضع الذي لا يسمى ظلما عند أحد من المسلمين، ولا من العقلاء أجمعين، ولا أشار إلى ذلك شيء من القرآن، ولا من السنة، ولا من اللغة، ولا من العرف، وإنما ذكر هذا في النار إشارة إلى أن التعذيب بغير ذنب هو شأن الظالمين من الخلق، والله تعالى حرم الظلم على نفسه، وجعله بين خلقه محرما.

الوجه الثالث: أن الراوي قصر في سياقه للمتن فقال: وقالت النار. ولم يذكر ما قالت، ولا سكت من قوله قالت. قال ابن بطال: "وهو كذلك في جميع النسخ". وذكر هذا الراوي قول الله تعالى للجنة: أنت رحمتي. ولم يتمم قوله لها: أرحم بك من أشاء من عبادي. والنقص في الحفظ والركاكة في الرواية بين على حديثه.

الوجه الرابع: تجنب المحدثين لإخراج هذه الرواية، مثل مسلم والنسائي، مع روايتهما للحديث، ومثل أحمد بن حنبل في مسنده، مع توسعه فيه، وكذلك ابن الجوزي في جمعه أحاديث البخاري ومسلم ومسند أحمد، وكذلك ابن الأثير في جامع الأصول، وهو يعتمد الجمع بين الصحيحين للحميدي، والحميدي إنما يترك ما ليس على شرط البخاري مما ذكره في صحيحه.

الوجه الخامس: أنه قد ثبت بالنصوص والإجماع أن سنة الله تعالى أنه لا يعذب أحدا بغير ذنب ولا حجة، كما قال تعالى: (وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا) [الإسراء: ١٥]، وقال: (رسلا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل) [النساء: ١٦٥]، وفي الحديث: "ليس أحد أحب إليه العذر من الله، من أجل ذلك أنزل الكتاب، وأرسل الرسل" أخرجه البخاري (٧٤١٦)، ومسلم (٢٧٦٠).

=

وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا (٥٠).

{وَإِذْ} مَنْصُوب بِاذْكُرْ {قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اُسْجُدُوا لِآدَم} سُجُود انْحِنَاء لَا وَضْع جَبْهَة تَحِيَّة لَهُ {فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيس كَانَ مِنْ الْجِنّ} قِيلَ هو نَوْع مِنْ الْمَلَائِكَة فَالِاسْتِثْنَاء مُتَّصِل وَقِيلَ هُوَ مُنْقَطِع وَإِبْلِيس هُوَ أَبُو الْجِنِّ فَلَهُ ذُرِّيَّة ذُكِرَتْ مَعَهُ بَعْد وَالْمَلَائِكَة لَا ذُرِّيَّة لَهُمْ {فَفَسَقَ عَنْ أَمْر رَبّه} أَيْ خَرَجَ عَنْ طَاعَته بِتَرْكِ السُّجُود {أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّته} الْخِطَاب لِآدَم وَذُرِّيَّته وَالْهَاء فِي الْمَوْضِعَيْنِ لِإِبْلِيسَ {أَوْلِيَاء مِنْ دُونِي} تُطِيعُونَهُمْ {وَهُمْ لَكُمْ عَدُوّ} أَيْ أَعْدَاء حَال {بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا} إِبْلِيس وَذُرِّيَّته فِي إِطَاعَتهمْ بَدَل إِطَاعَة الله[1].

=

ومن جحد أن هذه سنة الله فقد جحد الضرورة، وإذا تقرر أنها سنة الله تعالى فقد قال تعالى: (فلن تجد لسنت الله تبديلا ولن تجد لسنت الله تحويلا) [فاطر: ٤٣]، وقال تعالى: (واتبعوا أحسن ما أنزل إليكم من ربكم) [الزمر: ٥٥]، وأحسن ما أنزل الله إلينا هو الثناء عليه، وتسبيحه، وتنزيه أفعاله وأقواله، من جميع صفات النقص، فكيف يعدل عن هذا كله - مع موافقة الرواية الصحيحة له - إلى رواية ساقطة مغلوطة مقلوبة، زل بها لسان بعض الرواة.

(١) قوله تعالى: {وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ} [الكهف: ٥٠]، أي:"واذكر حين أمرنا الملائكة بالسجود لآدم، تحية له لا عبادة، وأمرنا إبليس بما أُمِروا به".

و «السجود» في كلام العرب: التذلل والخضوع، قال الشاعر:

يجمع تضل البلق في حجراته... ترى الأكم فيها سجدا للحوافر

"الأكم": الجبال الصغار، جعلها سجدا للحوافر لقهر الحوافر إياها وأنها لا تمتنع

=

=

عليها. وعين ساجدة، أي: فاترة عن النظر، وغايته وضع الوجه بالأرض.

عن قتادة، قوله: {وإذْ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم} [البقرة:٣٣]، قال: "فكانت الطاعة لله، والسجدة لآدم، أكرم الله آدم أن أسْجَد له ملائكته".

أخرج الطبري " عن السُّدّيّ، قال: كان اسم إبليس «الحارث»، وإنما سمي إبليس حين أبلس متحيِّرًا".

وقال ابن عباس:"إبليس، أبلسه الله من الخير كله، وجعله شيطانًا رجيمًا عقوبة لمعصيته".

قوله تعالى: {فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ} [الكهف: ٥٠]، أي:"فسجد جميع الملائكة لكن إبليس الذي هو من الجن خرج عن طاعة ربه".

عن مجاهد:"{ففسق عن أمر ربه}، قال: في السجود لآدم".

قال مجاهد:"عصى في السجود لآدم".

قال أبو عبيدة:"«فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ»: جار عنه وكفر به، وقال رؤبة:

يهوين فى نجد وغورا غائرا... فواسقا عن قصدها جوائرا".

وفي قوله تعالى: {فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ} [الكهف: ٥٠]، ثلاثة أقوال:

أحدها: أنه كان من الجن على ما ذكره الله تعالى. قاله الحسن البصري، وسعد بن مسعود، وشَهر بن حَوْشب وابن زيد.

قال ابن زيد:"إبليس أبو الجن، كما آدم أبو الإنس".

قال شهر بن حوشب:"كان إبليس من الجن الذين طردتهم الملائكة، فأسره بعض الملائكة، فذهب به إلى السماء".

قال الحسن:"ما كان إبليسُ من الملائكة طرفةَ عين قطّ، وإنه لأصل الجنّ، كما أن

=

=
آدم أصل الإنس".
قال قتادة:"كان الحسن يقول في قوله:"{إلا إبليس كانَ من الجن}، ألجأه إلى نسبه".
وروي عن سعد بن مسعود، قال: "كانت الملائكة تقاتل الجنّ، فسُبِي إبليس وكان صغيرًا، فكان مع الملائكة فتعبَّد معها، فلما أمِروا بالسجود لآدم سجدوا. فأبى إبليس. فلذلك قال الله: {إلا إبليس كان من الجن}".
ومنع قائل هذا القول بعد ذلك أن يكون من الملائكة لأمرين:
أحدهما: أن له ذرية، والملائكة لا ذرية لهم، قال تعالى: {أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ} [الكهف: ٥٠].
الثاني: أن الملائكة رسل الله سبحانه ولا يجوز عليهم العصيان والكفر، قال تعالى: لَا يَعْصُونَ اللهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ} [التحريم: ٦] لَا يَعْصُونَ اللهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ} [التحريم: ٦]، وأما إبليس، فقد عصى وكفر، قال تعالى: {إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ} [البقرة: ٣٤]، وقوله: {إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ} [الكهف: ٥٠]، وقوله: {إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ} [ص: ٧٤].
ويضاف إلى الادلة السابقة:
أولا:- قول الله تعالى: {وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا} [الكهف: ٥٠]، فبين الله أن سبب فسقه كونه من الجن، أي أنه من عنصر أو من جنس آخر غير الملائكة، أما الاستثناء في قوله تعلى: (فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ)، فإنه استثناء منقطع أي أن (إلا) هنا بمعنى (لكن)، وهو كقوله تعالى: {لَا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا (٢٤) إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا (٢٥)} [النبأ: ٢٤ - ٢٥]،
=

=

هذا الاستثناء منقطع لأن الحميم والغساق ليس من البرد والشراب والمعنى: لكن يطعمون الحميم والغساق.

ثانيا:-: أن إبليس مخلوق من نار كما قال تعالى حاكيا عن إبليس: {قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ} [الأعراف: ١٢]، والملائكة مخلوقة من نور لما في صحيح مسلم عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أن النبي ﷺ قال:"خلقت الملائكة من نور وخلق الجن من نار وخلق آدم مما وُصف لكم". ففرق الرسول ﷺ بين خلق الملائكة وخلق الجن.

ثالثا:- أن الجن الذين هم ذرية إبليس، لهم شهوة للطعام والشراب وغيره، وليس للملائكة شهوة دل على ذلك عدة نصوص منها:

ـ أن الجن سألوا الرسول ﷺ لما اجتمعو به عن طعامهم فقال: "كل عظم ذكر اسم الله عليه يقع في أيديكم أوفر مايكون لحما، وكل بعرة علف لدوابكم.. فلاتستنجو بهما فإنهما طعام إخوانكم الجن".

وفي الحديث: "فإن الشيطان يأكل بشماله ويشرب بشماله".

القول الثاني: أنه كان من الملائكة، فلما عصى الله تعالى أخرجه من صف الملائكة. وهذا قول ابن مسعود، وابن عباس-في رواية عنه-، وقتادة، ومحمد بن إسحاق.

وقال ابن عباس:"إن من الملائكة قبيلةً من الجن، وكان إبليس منها، وكان يسوس ما بين السماء والأرض".

قال ابن عباس:"لو لم يكن من الملائكة لم يُؤمر بالسجود، وكان على خِزانة سماء الدنيا، قال: وكان قتادة يقول: جَنَّ عن طاعة ربه".

وقد تنوعت إجابات العلماء عن هذا الدليل:

فقال ابن تيمية عن إبليس: " كان منهم [أي من الملائكة] باعتبار صورته وليس

=

=

منهم باعتبار أصله".

وقال ابن كثير: "وذلك أنه [أي إبليس] كان قد توسّم بأفعال الملائكة وتشبه بهم وتعبد وتنسك فلهذا دخل في خطابهم، وعصى بالمخالفة".

ومن قالوا بهذا اختلفوا في معنى قوله تعالى: {كَانَ مِنَ الْجِن} [الكهف: ٥٠]، على أقوال:

أحدها: أنه كان من أفضل صنف من الملائكة يقال لهم «الجن». قاله ابن عباس، وقتادة.

قال ابن عباس:"إن إبليس كان من أشراف الملائكة وأكرمهم قبيلة".

وقال ابن عباس:"إن منَ الملائكة قبيلا يقال لهم: الجن، فكان إبليس منهم، وكان إبليس يسوس ما بين السماء والأرض، فعصَى، فمسخه الله شيطانًا رجيما".

الثاني: أنه كان من الملائكة من خزان الجنة ومدبر أمر السماء الدنيا فلذلك قيل: {من الجن} لخزانة الجنة، كما يقال مكي وبصري. وهذا مروي عن ابن عباس أيضا، وسعيد بن جبير، وسعيد بن المسيب.

قال سعيد بن المسيب:"كان إبليس رئيس ملائكة سماء الدنيا".

عن سعيد بن جبير:"{كَانَ مِنَ الْجِنِّ}، قال: من الجنانين الذين يعملون في الجنان".

قال ابن عباس:": كان خازن الجنان فسمي بالجنان".

قال ابن عباس:"كان إبليس من خزّان الجنة، وكان يدبر أمر سماء الدنيا".

عن ابن عباس: {كَانَ مِنَ الْجِنِّ}:"إنما يسمى بالجنان أنه كان خازنًا عليها، كما يقال للرجل مكي ومدَنيّ وكوفيّ وبصريّ".

قال ابن عباس: «كان إبليس من حَيٍّ من أحياء الملائكة يقال لهم"الحِنّ"، خُلقوا من نار السَّمُوم من بين الملائكة، قال: وكان اسمه الحارث، قال: وكان خازنًا من

=

=
خُزَّان الجنة. قال: وخُلقت الملائكة كلهم من نور غير هذا الحيّ. قال: وخلقت الجنّ الذين ذكروا في القرآن من مارج من نار - وهو لسان النار الذي يكون في طرفها إذا ألهبت. قال: وخُلق الإنسان من طين. فأوّل من سكن الأرضَ الجنُّ. فأفسدوا فيها وسفكوا الدماء وقتل بعضهم بعضًا. قال: فبعث الله إليهم إبليس في جند من الملائكة -وهم هذا الحي الذين يقال لهم «الحِن» - فقتلهم إبليس ومن معه حتى ألحقهم بجزائر البحور وأطراف الجبال. فلما فعل إبليس ذلك اغترّ في نفسه. وقال:"قد صنعتُ شيئًا لم يصنعه أحد"! قال: فاطَّلع الله على ذلك من قلبه، ولم تطلع عليه الملائكة الذين كانوا معه. فقال الله للملائكة الذين معه:"إني جاعلٌ في الأرض خليفة". فقالت الملائكة مجيبين له:"أتجعلُ فيها من يُفسد فيها ويَسفِك الدماء"، كما أفسدت الجن وسفكت الدماء، وإنما بُعثنا عليهم لذلك. فقال:"إني أعلم ما لا تعلمون"، يقول: إني قد اطلعتُ من قلب إبليس على ما لم تطلعوا عليه، من كبره واغتراره. قال: ثم أمر بتُربة آدم فرُفعت، فخلق الله آدم من طين لازب - واللازبُ: اللزِجُ الصُّلب، من حمأ مسنون - مُنْتِن. قال: وإنما كان حمأ مسنونًا بعد التراب. قال: فخلق منه آدم بيده، قال فمكث أربعين ليلة جسدًا ملقًى. فكان إبليس يأتيه فيضربه برجله فيُصَلصِل -أي فيصوّت- قال: فهو قول الله: {مِنْ صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ} [سورة الرحمن: ١٤]. يقول: كالشيء المنفوخ الذي ليس بمُصْمت. قال: ثم يَدخل في فيه ويخرج من دُبُره، ويدخل من دُبُره ويخرج من فيه، ثم يقول: لست شيئًا! -للصّلصَلة- ولشيء ما خُلقت! لئن سُلِّطتُ عليك لأهلكنك، ولئن سُلِّطتَ علي لأعصِيَنَّك. قال: فلما نفخ الله فيه من روحه، أتت النفخة من قبل رأسه، فجعل لا يجري شيء منها في جسده إلا صَار لحمًا ودمًا. فلما انتهت النفخة إلى سُرّته، نظر إلى جسده، فأعجبه ما رأى من حسنه، فذهب لينهضَ فلم يقدرْ، فهو قول الله: {وَكَانَ الإنْسَانُ عَجُولا} [سورة
=

=

الإسراء: ١١] قال: ضَجِرًا لا صَبرَ له على سَرَّاء ولا ضرَّاء. قال: فلما تمت النفخة في جسده عطس، فقال:"الحمد لله ربّ العالمين" بإلهام من الله تعالى، فقال الله له: يرحمُك الله يا آدم. قال: ثم قال الله للملائكة الذين كانوا مع إبليس خاصة دون الملائكة الذين في السموات: اسجدوا لآدم. فسجدُوا كلهم أجمعون إلا إبليس أَبَى واستكبر، لِما كان حدّث به نفسه من كبره واغتراره. فقال: لا أسجُد له، وأنا خير منه وأكبرُ سنًّا وأقوى خَلْقًا، خلقتني من نار وخلقته من طين -يقول: إن النار أقوى من الطين. قال: فلما أَبَى إبليس أن يسجد أبلسه الله- أي آيسه من الخير كله، وجعله شيطانًا رجيما عقوبةً لمعصيته. ثم علم آدم الأسماء كلها، وهي هذه الأسماء التي يتعارف بها الناس: إنسان ودابة وأرْض وسهلٌ وبحر وجبل وحمار، وأشباه ذلك من الأمم وغيرها. ثم عرض هذه الأسماء على أولئك الملائكة - يعني الملائكة الذين كانوا مع إبليس، الذين خلقوا من نار السموم- وقال لهم: أنبئوني بأسماء هؤلاء - يقول: أخبروني بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين، إن كنتم تعلمون أنِّي لمَ أجعلُ خليفة في الأرض. قال: فلما علمت الملائكة مؤاخذةَ الله عليهم فيما تكلموا به من علم الغيب، الذي لا يعلمه غيرُه، الذي ليس لهم به علم، قالوا: سبحانك، تنزيها لله من أن يكون أحد يعلم الغيب غيرُه - تبنا إليك، لا علم لنا إلا ما علمتنا، تبرِّيًا منهم من علم الغيب، إلا ما علمتنا كما علّمت آدم. فقال: يا آدم أنبئهم بأسمائهم - يقول: أخبرهم بأسمائهم. فلما أنبأهم بأسمائهم قال: ألم أقل لكم - أيها الملائكة خاصة - إني أعلم غيبَ السموات والأرض، ولا يعلمه غيري، وأعلم ما تبدون - يقول: ما تُظهرون - وما كنتم تكتمون - يقول: أعلم السرّ كما أعلم العلانية، يعني ما كتم إبليس في نفسه من الكبر والاغترار».

الثالث: أن الجن سبط من الملائكة خلقوا من نار وإبليس منهم، وخلق سائر الملائكة من نور، قاله ابن عباس -في رواية-، وسعيد من جبير.

=

=

قاله الحسن: "خلق إبليس من نار وإلى النار يعود".

قال ابن عباس:"كان إبليس من حي من أحياء الملائكة يقال لهم الجنّ، خُلقوا من نار السموم من بين الملائكة. قال: وخُلقت الجنّ الذين ذُكروا في القرآن من مارج من نار".

القول الثالث: أن إبليس لم يكن من الإنس ولا من الجن، ولكن كان من الجان. حكاه الماوردي.

والراجح-والله أعلم-: أن إبليس لم يكن من الملائكة، وهو الصحيح، لقوة أدلته. وهو الذي عليه المحققون من أهل العلم.

وفي قوله تعالى: {فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ} [الكهف: ٥٠]، وجهان:

أحدهما: أن «الفسق»: الاتساع، ومعناه: اتسع في محارم الله تعالى. حكاه الماوردي.

الثاني: أن «الفسق» الخروج، أي: خرج عن طاعة ربه، من قولهم: فسقت الرطبة إذا خرجت من قشرها، وسميت الفأرة «فُوَيْسِقة»، لخروجها من حجرها. وهذا قول الفراء، وابن قتيبة، والطبري، والنحاس.

قال الفراء:"وكأن الفأرة إنها سميت: «فويسقة» لخروجها من جحرها على الناس".

قال أبو عبيدة:"جار عنه وكفر به، وقال رؤبة:

يَهْوِينَ في نَجْدٍ وغَوْرًا غائرَا... فَوَاسقا عَنْ قَصْدِها جَوَائرَا".

يعني: بـ«الفواسق»: "الإبل المنعدلة عن قصد نجد، وكذلك الفسق في الدين، إنما هو الانعدال عن القصد، والميل عن الاستقامة".

قوله تعالى: {أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ} [الكهف: ٥٠]، أي:"أفتجعلونه -أيها الناس- وذريته أعوانًا لكم تطيعونهم وتتركون طاعتي، وهم

=

=

ألد أعدائكم؟".

قال الطبري: يقول:"أفتوالون يا بني آدم من استكبر على أبيكم وحسده، وكفر نعمتي عليه، وغره حتى أخرجه من الجنة ونعيم عيشه فيها إلى الأرض وضيق العيش فيها، وتطيعونه وذريته من دون الله مع عدواته لكم قديما وحديثا، وتتركون طاعة ربكم الذي أنعم عليكم وأكرمكم، بأن أسجد لوالدكم ملائكته، وأسكنه جناته، وآتاكم من فواضل نعمه ما لا يحصى عدده، وذرية إبليس: الشياطين الذين يغرون بني آدم".

قال مجاهد:"ذريته: هم الشياطين، وكان يعدهم "زلنبور " صاحب الأسواق ويضع رايته في كل سوق ما بين السماء والأرض، و "ثبر" صاحب المصائب، و "الأعور" صاحب الزنا و"مسوط" صاحب الأخبار، يأتي بها

فيلقيها في أفواه الناس، ولا يجدون لها أصلا و"داسم" الذي إذا دخل الرجل بيته ولم يسلم ولم يذكر الله بصره من المتاع ما لم يرفع، وإذا أكل ولم يذكر اسم الله أكل معه".

قال مجاهد:"هم أربعة ثبر، وداسم، وزلنبور، والأعور، ومسوط: أحدها".

قال ألأعمش:"إذا دخلت البيت ولم أسلم، رأيت مطهرة، فقلت: ارفعوا ارفعوا، وخاصمتهم، ثم أذكر فأقول: داسم داسم".

عن قتادة:"{فتتخذونه وذريته أولياء من دوني}، وهم يتوالدون كما تتوالد بنو آدم، وهم لكم عدو".

قال ابن زيد، في قوله: " {أفتتخذونه وذريته أولياء من دوني وهم لكم عدو}، وهو أبو الجن كما آدم أبو الإنس".

قوله تعالى: {بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا} [الكهف: ٥٠]، أي:"قَبُحَتْ طاعة الظالمين للشيطان بدلا عن طاعة الرحمن".

=

=

وفي قوله تعالى: {بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا} [الكهف: ٥٠]، وجهان من التفسير:

أحدهما: بئس ما استبدلوا بطاعة الله طاعة إبليس، قاله قتادة.

الثاني: بئس ما استبدلوا بالجنة النار. حكاه الماوردي.

* وقد اختلف في المراد بالملائكة:

فقيل: ملائكة الأرض.

وقيل: ملائكة الأرض والسماء.

ونسبه الرازي للأكثر.

ورجحه ابن كثير، لقوله تعالى (فسجد الملائكة كلهم أجمعون).

القاسمي: اختلفوا في الملائكة الذين أمروا بالسجود، فقيل: هم الذين كانوا مع إبليس في الأرض.

قال تقي الدين ابن تيمية: هذا القول ليس من أقوال المسلمين واليهود والنصارى، وقيل: هم جميع الملائكة حتى جبريل وميكائيل، وهذا قول العامة من أهل العلم بالكتاب والسنة. (تفسير القاسمي).

وقال ابن تيمية: ومن قال خلافه فقد رد القرآن بالكذب والبهتان، لأنه سبحانه قال (فسجد الملائكة كلهم أجمعون) وهذا تأكيد للعموم. (مجموع الفتاوي).

* اختلف ما المراد بالسجود:

فقيل: المراد بالسجود الخضوع لا الانحناء.

وقيل: كان آدم قبلة والسجدة لله.

وقيل: السجود لآدم إكراما واحتراما، وهي طاعة لله لأنها امتثال لأمر الله تعالى.

وهذا القول هو الراجح.

* هذا الأمر بالسجود كان قبل خلق آدم كما قال تعالى في الحجر (وإذ قال ربك للملائكة إني خالق بشرا من صلصال من حمإ مسنون فإذا سويته ونفخت فيه من

=

=

روحي فقعوا له ساجدين).

* قوله (فسجدوا إلا إبليس) لم يسجد كما قال تعالى (إلا إبليس أبى واستكبر).

بين الله تعالى سبب امتناعه في آية أخرى.

فقال تعالى عنه (قال أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين).

* قياس إبليس هذا قياس فاسد لأمور:

أولا: أنه في مقابلة النص، وأي قياس في مقابلة النص فاسد الاعتبار.

ثانيا: أنا لا نسلم أن النار خير من الطين، بل الطين خير من النار، لأن طبيعتها الطيش والإفساد والتفريق، وطبيعته الرزانة والإصلاح.

ثالثا: أنا لو سلمنا تسليما جدليا أن النار خير من الطين، فإنه لا يلزم من ذلك أن إبليس خير من آدم، لأن شرف الأصل لا يقتضي شرف الفرع.

(كان من الجن ففسق عن أمر ربه) أي هو من الجن خرج عن طاعة ربه، لأن الفسق الخروج عن طاعة الله.

قال ابن فارس في معجم مقاييس اللغة ٤/ ٥٠٢: (الفاء والسين والقاف كلمة واحدة، وهي الفسق، وهو الخروج عن الطاعة).

قال الطبري: ({ففسق عن أمر ربه} [الكهف:٥٠]، يعني به: خرج عن طاعته واتباع أمره).

وقال الراغب في المفردات ص ٤٢٥: (فسق فلان: خرج عن حجر الشرع، وذلك من قولهم: فسق الرطب، إذا خرج عن قشره، وهو أعم من الكفر).

وقال البغوي: ({ففسق عن أمر ربه} [الكهف:٥٠]، أي: خرج).

* وإبليس هو الشيطان، سمي إبليسا لأنه أبلس من رحمة الله، أي أيس منها يأسا لا رجاء بعده.

وقد استدل بهذه الآية من قال إن إبليس ليس من الملائكة بل هو من الجن، وقد

=

=

اختلف العلماء على قولين:

القول الأول: إن إبليس ليس من الملائكة بل هو من الجن.

أ- لهذه الآية (إلا إبليس كان من الجن) والجن غير الملائكة، وهذا نص قرآني صريح في محل النزاع.

ب- ولأن الملائكة معصومين من ارتكاب الكفر الذي ارتكبه إبليس كما قال تعالى عنهم (لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون).

ج- ولقوله ﷺ (خلقت الملائكة من نور، وخلق الجان من مارج من نار).

- قال ابن الجوزي: واحتج قائلو هذا بأن له ذرية وليس للملائكة ذرية وأنه كفر، والملائكة رسل الله، فهم معصومون من الكفر.

القول الثاني: إنه أصله كان من الملائكة.

ونسب هذا القول القرطبي لجمهور العلماء.

واستدلوا بقوله تعالى (وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس) قالوا فإخراجه بالاستثناء منهم دليل على أنه منهم.

- **قال الماوردي**: ومن قالوا بهذا اختلفوا في معنى قوله تعالى (كان من الجن) على ثلاثة أقاويل:

أحدها: ما قاله قتادة أنه كان من أفضل صنف من الملائكة يقال لهم الجن.

الثاني: ما قاله ابن عباس، أنه كان من الملائكة من خزان الجنة ومدبر أمر السماء الدنيا فلذلك قيل من الجن لخزانة الجنة، كما يقال مكي وبصري.

الثالث: أن الجن سبط من الملائكة خلقوا من نار وإبليس منهم، وخلق سائر الملائكة من نور، قاله سعيد من جبير، قاله الحسن: خلق إبليس من نار وإلى النار يعود.

والراجح القول الأول.

=

=

(أفتتخذونه وذريته أولياء من دوني وهم لكم عدو) الهمزة فيه للإنكار والتوبيخ، والمعنى: يقول تعالى: أفتوالون يا بني آدم من استكبر على أبيكم وحسده، وكفر نعمتي عليكم، وغره حتى أخرجه من الجنة، ونعيم عيشه فيها إلى الأرض وضيق العيش فيها وتطيعونه وذريته من دون الله مع عداوته لكم قديما وحديثا، وتتركون طاعة ربكم الذي أنعم عليكم وأكرمكم.

- قال ابن القيم: ويشبه أن يكون تحت هذا الخطاب نوع من العتاب لطيف عجيب وهو: أني عاديت إبليس إذ لم يسجد لأبيكم آدم مع ملائكتي، فكانت معاداته لأجلكم، ثم كان عاقبة هذه المعاداة أن عقدتم بينكم وبينه عقد المصالحة.

(بئس للظالمين بدلا) أي بئس البدل الذي صنع الظالمون، إذ حرصوا على ولاية الشيطان وذريته، وتركوا ولاية الله تعالى.

- قوله (للظالمين) لأنهم اعتاضوا الباطل من الحق، وجعلوا مكان ولايتهم لله ولايتهم لإبليس وذريته، وهذا من أشنع الظلم الذي هو في اللغة: وضع الشيء في غير موضعه.

- وقد جاء التحذير من اتباع الشيطان وذريته:

قال تعالى (إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدوا إنما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير).

وقال تعالى (ألم أعهد إليكم يا بني آدم أن لا تعبدوا الشيطان إنه لكم عدو مبين).

وقال تعالى (يا أيها الذين آمنوا لا تتبعوا خطوات الشيطان ومن يتبع خطوات الشيطان فإنه يأمر بالفحشاء والمنكر).

- **قال الشنقيطي**: قوله (وذريته) دليل على أن للشيطان ذرية، فادعاء أنه لا ذرية له مناقض لهذه الآية مناقضة صريحة، أما كيفية ولادة تلك الذرية فلم يثبت فيه نقل

=

مَا أَشْهَدْتُهُمْ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنْفُسِهِمْ وَمَا كُنْتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا (٥١).

{مَا أَشْهَدْتهمْ} أَيْ إبْلِيس وَذُرِّيَّته {خَلْق السَّمَاوَات وَالْأَرْض وَلَا خَلْق أَنْفُسهمْ} أَيْ لَمْ أُحْضِر بَعْضهمْ خَلْق بَعْض {وَمَا كُنْت مُتَّخِذ الْمُضِلِّينَ} الشَّيَاطِين {عَضُدًا} أَعْوَانًا فِي الْخَلْق فَكَيْفَ تُطِيعُونَهُمْ.

وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا شُرَكَائِيَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ مَوْبِقًا (٥٢).

{وَيَوْم} مَنْصُوب بِاذْكُرْ {يَقُول} بِالْيَاءِ وَالنُّون {نَادُوا شُرَكَائِيَ} الْأَوْثَان {الَّذِينَ زَعَمْتُمْ} لِيَشْفَعُوا لَكُمْ بِزَعْمِكُمْ {فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ} لَمْ يُجِيبُوهُمْ {وَجَعَلْنَا بَيْنهمْ} بَيْن الْأَوْثَان وَعَابِدِيهَا {مَوْبِقًا} وَادِيًا مِنْ أَوْدِيَة جَهَنَّم يَهْلِكُونَ فِيهِ جَمِيعًا وَهُوَ مِنْ وبق بالفتح هلك.

وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا (٥٣).

{ورأى الْمُجْرِمُونَ النَّار فَظَنُّوا} أَيْ أَيْقَنُوا {أَنَّهُمْ مُوَاقِعُوهَا} أَيْ وَاقِعُونَ فِيهَا {وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا} معدلا[1].

=

صحيح.

(١) قوله تعالى: {مَا أَشْهَدْتُهُمْ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ} [الكهف: ٥١].

قال السدي:"يقول: ما أشهدت الشياطين الذين اتخذتم معي هذا".

قال مكي:"أي: ما أشهدت إبليس وذريته {خَلْقَ السماوات والأرض}، أي ما أحضرتهم ذلك فاستعين بهم على خلقهما.. وقيل معنى: {مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ السماوات والأرض}: أي لم يكونوا موجودين إذ خلقهما".

=

=

قال ابن ابي زمنين:"وذلك أن المشركين قالوا: إن الملائكة بنات الله؛ أي: ما أشهدتهم شيئا من ذلك".

قال البغوي:"{مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ}، أي: ما"أحضرناهم، يعني: إبليس وذريته. وقيل: الكفار. وقال الكلبي: يعني الملائكة".

وقرأ أبو جعفر: «ما أشهدناهم»، بالنون والألف، على التعظيم.

قوله تعالى: {وَلَا خَلْقَ أَنْفُسِهِمْ} [الكهف: ٥١]، أي:"ولا أشهدت بعضهم خلق بعض فهم عبيد أمثالكم لا يملكون شيئًا".

قال مكي:"أي: ولا أحضرت بعضًا منهم خلق بعض فأستعين به على ذلك. بل هو منفرد بخلق جميع ذلك بغير معين ولا ظهير".

قال البغوي:"يقول: ما أشهدتهم خلقا فأستعين بهم على خلقها وأشاورهم فيها".

قال الزمخشري:"أى: ولا أشهدت بعضهم خلق بعض، كقوله: {وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُم} [النساء: ٢٩]".

قوله تعالى: {وَمَا كُنْتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا} [الكهف: ٥١]، أي:"وما كنت متخذ المضلِّين من الشياطين وغيرهم أعوانًا. فكيف تصرفون إليهم حقي، وتتخذونهم أولياء من دوني، وأنا خالق كل شيء؟".

قال مكي:"أي: وما كنت متخذ من لا يهدي إلى الحق أعوانًا وأنصارًا، وهو من قولهم: فلان يعضد فلانًا، إذا نصره وأعانه وقواه".

قال البغوي:"أي: الشياطين الذين يضلون الناس أنصارا وأعوانا".

قال الزجاج:"يخبر الله ﷻ بقدرته، وأنه لا يعتضد فيها ولا في نصرته بالمضلين و «الاعتضاد»: التقوى وطلب المعونة، يقال: اعتضدت بفلان، معناه استعنت به".

قال الزمخشري:"وضع «المضلين» موضع الضمير، ذما لهم بالإضلال، فإذا لم يكونوا عضدا لي في الخلق، فما لكم تتخذونهم شركاء لي في العبادة؟".

=

=

عن السدي:"{وما كنت متخذ المضلين}، قال: الشياطين، {عضدا}، قال: ولا اتخذتهم عضدا على شيء عضدوني عليه فأعانوني".

عن قتادة قوله: " {وما كنت متخذ المضلين عضدا}، قال: أعوانا".

وقرأ أبو جعفر وعاصم الجحدري: «ومن كنتَ»، بفتح التاء على المخاطبة للنبي ﷺ. أي: لست يا محمد متخذًا المضلين أنصارا، أو "وما صح لك الاعتضاد بهم، وما ينبغي لك أن تعتز بهم".

وقرأ على رضى الله عنه: «وما كنت متخذا المضلين»، بالتنوين على الأصل. وقرأ الحسن: «عضدا»، بسكون الضاد، ونقل ضمتها إلى العين. وقرئ: «عضدا»، بالفتح وسكون الضاد. «وعضدا»، بضمتين، و «عضدا» بفتحتين: جمع: عاضد، كخادم وخدم، وراصد ورصد، من عضده: إذا قواه وأعانه.

قال الماوردي:"قال بعض السلف: إذا كان ذنب المرء من قبل الشهوة فارْجُه، وإذا كان من قبل الكبر فلا ترْجه، لأن إبليس كان ذنبه من قبل الكبر فلم تقبل توبته، وكان ذنب آدم من قبل الشهوة فتاب الله عليه. وقد أشار بعض الشعراء إلى هذا المعنى فقال:

إذا ما الفتى طاح في غيّه... فَرَجِّ الفتى للتُّقى رَجّه

فقد يغلط الركب نهج الط... ريق ثم يعود إلى نهجه".

* قوله تعالى: (ما أشهدتهم خلق السموات والأرض).

- قال ابن الجوزي: في المشار إليهم أربعة أقوال:

أحدها: إبليس وذريته.

والثاني: الملائكة.

والثالث: جميع الكفار.

والرابع: جميع الخلق؛ والمعنى: إني لم أشاورهم في خلقهن؛ وفي هذا بيان للغناء

=

=

عن الأعوان، وإظهار كمال القدرة.

(ولا خلق أنفسهم) أي ولا أشهدتهم خلق أنفسهم، أي ما أشهدت بعضهم خلق بعض فأستعين به على خلقه، بل تفردت بجميع ذلك بغير معين ولا ظهير! فكيف تصرفون لهم حقي وتتخذونهم أولياء من دوني، وأنا خالق كل شيء؟

- قال البقاعي: (ولا خلق أنفسهم) إشارة إلى أنهم مخلوقون وأنه لا يصح في عقل عاقل أن يكون مخلوق شريكا لخالقه أصلا وما جاء في هذه الآية أن الله هو الخالق وحده لا شريك له جاء في مواضع:

كقوله تعالى (أفمن يخلق كمن لا يخلق أفلا تذكرون).

وقوله (قل أرأيتم ما تدعون من دون الله أروني ماذا خلقوا من الأرض).

وقال تعالى (هذا خلق الله فأروني ماذا خلق الذين من دونه بل الظالمون في ضلال مبين).

وقال تعالى (قل الله خالق كل شيء وهو الواحد القهار).

(وما كنت متخذ المضلين عضدا) أي معاونين، مظاهرين لله على شأن من الشؤون: أي ما ينبغي ولا يليق بالله أن يجعل لهم قسطا من التدبير، لأنهم ساعون في إضلال الخلق والعداوة لربهم.

قوله تعالى: {وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا شُرَكَائِيَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ} [الكهف: ٥٢]، أي:"واذكر لهم إذ يقول الله للمشركين يوم القيامة: نادوا شركائي الذين كنتم تزعمون أنهم شركاء لي في العبادة؛ لينصروكم اليوم مني".

قال الطبري:"{ويوم يقول} الله عز ذكره للمشركين به الآلهة والأنداد: ادعوا الذين كنتم تزعمون أنهم شركائي في العبادة لينصروكم ويمنعوكم مني".

قال مكي:"أي: نقول للمشركين نادوا الآلهة والأنداد التي عبدتموها، وجعلتموها شركاء لله ووعدتم أنفسكم بنصرتها لكم من عذاب الله".

=

=

قال الزمخشري:"إضافة «الشركاء» إليه على زعمهم: توبيخا لهم وأراد الجن".

قوله تعالى: {فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ} [الكهف: ٥٢]، أي:"فاستغاثوا بهم فلم يغيثوهم".

قال الطبري:"يقول: فاستغاثوا بهم فلم يغيثوهم".

قال مكي:"أي: فاستغاثوا بها ولم تغثهم".

قوله تعالى: {وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ مَوْبِقًا} [الكهف: ٥٢]، أي:"وجعلنا بين العابدين والمعبودين مهلكًا في جهنم يهلكون فيه جميعًا".

قال الزمخشري:"يعنى: وجعلنا بينهم واديا من أودية جهنم هو مكان الهلاك والعذاب الشديد مشتركا يهلكون فيه جميعا".

وفي قوله تعالى: {وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ مَوْبِقًا} [الكهف: ٥٢]، وجوه من التفسير:

أحدها: مجلسًا، قاله الربيع.

الثاني: مهلكًا، قاله ابن عباس، وقتادة، وابن زيد، وعرفجة، والفراء، وابن قتيبة، قال الشاعر:

استغفر الله أعمالي التي سلفت... من عثرةٍ إن تؤاخذني بها أبق

أي: أهلك، ومثله قول زهير:

ومن يشتري حسن الثناء بماله... يصن عرضَه من كل شنعاء موبق

قال الفراء: يقال: جعلنا تواصلهم في الدنيا مهلكا لهم في الآخرة".

قال ابن قتيبة:"أي: مهلكا بينهم وبين آلهتهم في جهنم. ومنه يقال: أوبقته ذنوبه. وقوله: {أو يوبقهن بما كسبوا}".

قال الزجاج:"«الموبق»: المهلك".

قال ابن زيد:"الموبق: المهلك، الذي أهلك بعضهم بعضا فيه، أوبق بعضهم بعضا، وقرأ: {وجعلنا لمهلكهم موعدا}".

=

=

الثالث: موعدًا، قاله أبو عبيدة، وأنشد:

وحاد شروري والسّتار فلم يدع... تعارا له والواديين بموبق

الرابع: عداوة، والمعنى: جعل بينهم عداوة يوم القيامة. قاله الحسن.

قال الزمخشري: معناه:"عداوة هي في شدتها هلاك، كقوله: لا يكن حبك كلفا، ولا بغضك تلفا".

الخامس: أنه واد في جهنم، قاله أنس بن مالك، وعبد الله بن عمرو، وعمرو البكالي، ومجاهد، ومقاتل، ويحيى بن سلام.

قال أنس:"واد في جهنم من قيح ودم".

قال مقاتل:"يعني: واديا عميقا في جهنم".

قال عمرو البكالي:"واد عميق فصل به بين أهل الضلالة وأهل الهدى، وأهل الجنة، وأهل النار".

وفي رواية ابن أبي حاتم عن عمرو البكالي قال: " «الموبق» الذي ذكر الله، واد في النار بعيد القعر يفرق به يوم القيامة بين أهل الإسلام، وبين من سواهم من الناس".

السادس: أنه نهر في النار يسيل نارا، على حافتيه حيات أمثال البغال الدهم، فإذا ثارت إليهم لتأخذهم، استغاثوا بالاقتحام في النار منها. قاله عكرمة.

السابع: أنه واد يفصل بين الجنة والنار، حكاه الماوردي عن بعض المتأخرين.

قال الطبري:"وأولى الأقوال في ذلك بالصواب، القول الذي ذكرناه عن ابن عباس، ومن وافقه في تأويل الموبق: أنه المهلك، وذلك أن العرب تقول في كلامها: قد أوبقت فلانا: إذا أهلكته، ومنه قول الله ﷻ: {أو يوبقهن بما كسبوا}، بمعنى: يهلكهن".

وقال الزمخشري:"ويجوز أن يريد الملائكة وعزيرا وعيسى ومريم، وبالموبق:

=

=

البرزخ البعيد، أى: وجعلنا بينهم أمدا بعيدا تهلك فيه الأشواط لفرط بعده، لأنهم في قعر جهنم وهم في أعلى الجنان".

* (ويوم يقول) أي: الله ﷻ للكافرين توبيخا وتعجيزا.

(نادوا شركائي الذين زعمتم) في دار الدنيا أنهم ينفعونكم ويشفعون لكم.

- قال ابن الجوزي: يعني يوم القيامة (نادوا شركائي) أضاف الشركاء إليه على زعمهم، والمراد: نادوهم لدفع العذاب عنكم، أو الشفاعة لكم.

(فدعوهم فلم يستجيبوا) أي فاستغاثوا بهم فلم يغيثوهم.

وقد أخبر الله في آيات عن حال الأتباع مع المتبوعين:

قال تعالى: (واتخذوا من دون الله آلهة ليكونوا لهم عزا. كلا سيكفرون بعبادتهم ويكونون عليهم ضدا).

وقال تعالى: (ومن أضل ممن يدعو من دون الله من لا يستجيب له إلى يوم القيامة وهم عن دعائهم غافلون. وإذا حشر الناس كانوا لهم أعداء وكانوا بعبادتهم كافرين).

وقال تعالى: (إذ تبرأ الذين اتبعوا من الذين اتبعوا ورأوا العذاب وتقطعت بهم الأسباب).

(وجعلنا بينهم موبقا) المعنى: وجعلنا بين الكفار وبين من كانوا يعبدونه ويشركونهم مع الله موبقا أي مهلكا، لأن الجميع يحيط بهم الهلاك من كل جانب.

كما قال تعالى (لهم من فوقهم ظلل من النار ومن تحتهم ظلل).

وقوله (لهم من جهنم مهاد ومن فوقهم غواش).

وقوله (إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم).

وأما (الموبق) فقيل: واد في جهنم، وقيل: مهلكا يفصل بينهم ويحيط بينهم.

أي وجعلنا بين الكفار وبين ما كانوا يعبدونهم ويشركونهم مع الله موبقا.

=

=

وعلى هذا فالضمير في قوله (بينهم) راجع للمشركين وما كانوا يعبدونه من دون الله.

كما قال تعالى (ويوم نحشرهم جميعا ثم نقول للذين أشركوا مكانكم أنتم وشركآؤكم فزيلنا بينهم وقال شركآؤهم ما كنتم إيانا تعبدون) أي فرقنا بينهم.

وقيل معنى (موبقا) عداوة كما قال تعالى (ثم يوم القيامة يكفر بعضكم ببعض ويلعن بعضكم بعضا).

وقال تعالى (الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو إلا المتقين).

قوله تعالى: {وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُوَاقِعُوهَا} [الكهف: ٥٣].

قال مقاتل:"يعني: فعلموا أنهم داخلوها".

قال الطبري:"يقول: وعاين المشركون النار يومئذ، فعلموا أنهم داخلوها".

عن قتادة قوله: " {فظنوا أنهم مواقعوها}، قال: علموا".

قال مجاهد: {أَنَّهُمْ مُوَاقِعُوهَا}، قال: "مُقتَحِمُوها".

قال ابن قتيبة:"(الظن) قد يكون بمعنى: (العلم)؛ قال: {وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُوَاقِعُوهَا}؛ وقال دُرَيْدٌ:

فقلت لهم: ظُنُّوا بأَلْفَيْ مُدَجَّجٍ... سرَاتُهُمُ في الفارِسِيِّ المُسَرَّدِ".

قوله تعالى: {وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا} [الكهف: ٥٣]، أي:"ولم يجدوا عنها معدلا للانصراف عنها إلى غيرها".

قال الطبري:"ولم يجدوا عن النار التي رأوا معدلا يعدلون عنها إليه".

قال مقاتل:"يقول: لم يقدر أحد من الآلهة أن يصرف النار عنهم".

قال أبو عبيدة:"أي: معدلا، وقال أبو كبير الهذليّ:

أزهير هل عن شيبة من مصرف... أم لا خلود لباذل متكلّف".

* (ورأى المجرمون النار فظنوا أنهم مواقعوها) أي: عاينوها وهي تتغيظ حنقا

=

وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا (٥٤).

{وَلَقَدْ صَرَّفْنَا} بَيَّنَّا {فِي هَذَا الْقُرْآن لِلنَّاسِ مِنْ كُلّ مَثَل} صِفَة لِمَحْذُوفٍ أَيْ مَثَلًا مِنْ جِنْس كُلّ مَثَل لِيَتَّعِظُوا {وَكَانَ الْإِنْسَان} أَيْ الْكَافِر {أَكْثَر شَيْء جَدَلًا} خُصُومَة فِي الْبَاطِل وَهُوَ تَمْيِيز مَنْقُول مِنْ اسْم كَانَ الْمَعْنَى وَكَانَ جَدَل الْإِنْسَان أَكْثَر شَيْء فِيهِ.

وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى وَيَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ

=

عليهم فأيقنوا أنهم داخلوها.

فالظن هنا بمعنى اليقين.

(ولم يجدوا عنها مصرفا) أي لم يجدوا عن النار مكانا ينصرفون إليه ويعدلون إليه ليتخذوه ملجأ ومعتصما ينجون فيه من عذاب الله.

- والظن هنا بمعنى اليقين.

والظن يطلق على اليقين.

كما في قوله تعالى (الذين يظنون أنهم ملاقوا ربهم وأنهم إليه راجعون).

وقال تعالى (الذين يظنون أنهم ملاقو الله كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين).

وقال تعالى (إني ظننت أني ملاق حسابيه).

وقد جاء في آية أخرى أن النار هي تراهم أيضا.

كما قال تعالى (وأعتدنا لمن كذب بالساعة سعيرا إذا رأتهم من مكان بعيد سمعوا لها تغيظا وزفيرا).

- قوله (ورأى) الرؤية البصرية، والتعبير بالماضي عن المستقبل لتحقق وقوعه.

الْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ قُبُلًا (٥٥).

{وَمَا مَنَعَ النَّاس} أَيْ كُفَّار مَكَّة {أَنْ يُؤْمِنُوا} مَفْعُول ثَانٍ {إِذْ جَاءَهُمْ الْهُدَى} الْقُرْآن {وَيَسْتَغْفِرُوا رَبّهمْ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمْ سُنَّة الْأَوَّلِينَ} فَاعِل أَيْ سُنَّتنَا فِيهِمْ وَهِيَ الْإِهْلَاك الْمُقَدَّر عَلَيْهِمْ {أَوْ يَأْتِيَهُمْ الْعَذَاب قُبُلًا} مُقَابَلَة وَعِيَانًا وَهُوَ الْقَتْل يَوْم بَدْر وَفِي قِرَاءَة بِضَمَّتَيْنِ جَمْع قَبِيل أَيْ أَنْوَاعًا[1].

---

(١) قوله تعالى: {وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ} [الكهف: ٥٤].

قال الطبري: "يقول عز ذكره: ولقد مثلنا في هذا القرآن للناس من كل مثل، ووعظناهم فيه من كل عظة، واحتججنا عليهم فيه بكل حجة ليتذكروا فينيبوا، ويعتبروا فيتعظوا، وينزجروا عما هم عليه مقيمون من الشرك بالله وعبادة الأوثان".

قال السعدي: "يخبر الله تعالى عن عظمة القرآن، وجلالته، وعمومه، وأنه صرف فيه من كل مثل، أي: من كل طريق موصل إلى العلوم النافعة، والسعادة الأبدية، وكل طريق يعصم من الشر والهلاك، ففيه أمثال الحلال والحرام، وجزاء الأعمال، والترغيب والترهيب، والأخبار الصادقة النافعة للقلوب، اعتقادا، وطمأنينة، ونورا، وهذا مما يوجب التسليم لهذا القرآن وتلقيه بالانقياد والطاعة، وعدم المنازعة له في أمر من الأمور، ومع ذلك، كان كثير من الناس يجادلون في الحق بعد ما تبين، ويجادلون بالباطل {ليدحضوا به الحق}".

قوله تعالى: {وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا} [الكهف: ٥٤]، أي: "وكان الإنسان أكثر المخلوقات خصومة وجدلا".

قال ابن عباس: "أراد النضر بن الحارث وجدالَه في القرآن".

قال الكلبي: "أراد به: أُبي بن خلف الجمحي".

قال الطبري: "يقول: وكان الإنسان أكثر شيء مراء وخصومة، لا ينيب لحق، ولا =

=

ينزجر لموعظة".

وقال الزجاج:"معناه: كان الكافر، ويدل عليه قوله: {وَيُجَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَق} [الكهف: ٥٦].

قال الزجاج: فإن قال قائل: وهل يجادل غير الإنسان؟

فالجواب في ذلك أن إبليس قد جادل، وأن كل ما يعقل من الملائكة والجن يجادل، ولكن الإنسان أكثر هذه الأشياء جدل".

قال الزمخشري:" {أكثر شيء جدلا}، أكثر الأشياء التي يتأتى منها الجدل إن فصلتها واحدا بعد واحد، خصومة ومماراة بالباطل. وانتصاب {جدلا} على التمييز، يعنى: أن جدل الإنسان أكثر من جدل كل شيء. ونحوه فإذا هو خصيم مبين".

قال السعدي:"أي: مجادلة ومنازعة فيه، مع أن ذلك، غير لائق بهم، ولا عدل منهم، والذي أوجب له ذلك وعدم الإيمان بالله، إنما هو الظلم والعناد، لا لقصور في بيانه وحجته، وبرهانه، وإلا فلو جاءهم العذاب، وجاءهم ما جاء قبلهم، لم تكن هذه حالهم".

قال ابن زيد:"«الجدل»: الخصومة، خصومة القوم لأنبيائهم، وردهم عليهم ما جاءوا به. وقرأ: {مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ}، وقرأ: {يُرِيدُ أَنْ يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُم}. وقرأ: حتى «تُوَفَّى»... الآية: {وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ}... الآية. وقرأ: {وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ}، قال: هم ليس أنت {لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَسْحُورُونَ}".

عن علي بن حسين ، قال: "دخل النبي ﷺ على علي وفاطمة وهما نائمان ، فقال: «ألا تصلون؟» ، فقال علي: يا رسول الله إنما أنفسنا بيد الله ، فإذا شاء أن يبعثها

=

=

بعثها ، فانصرف عنهم وهو يقول: {وكان الإنسان أكثر شيء جدلا} [الكهف: ٥٤]".

وفي رواية عن على رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: "إن النبي ﷺ- طرقه وفاطمة ليلا فقال: «ألا تصليان» فقلت: يا رسول الله، إنما أنفسنا بيد الله إن شاء إن يبعثنا بعثنا. وانصرف حين قلت ذلك ولم يرجع إلي شيئا، ثم سمعته يضرب فخذه ويقول: {وكان الإنسان أكثر شيء جدلا}".

* قوله تعالى: (ولقد صرفنا في هذا القرآن للناس من كل مثل) يقول تعالى: ولقد بينا للناس في هذا القرآن ووضحنا لهم الأمور وفصلناها كيلا يضلوا عن الحق ويخرجوا عن طريق الهدى، من الوعد والوعيد، والقصص، والأمثال، والمواعظ والأخبار، والآداب والتشريعات، ومع هذا البيان وهذا الفرقان، الإنسان كثير المجادلة والمخاصمة والمعارضة للحق بالباطل إلا من هدى الله وبصره لطريق النجاة.

- قال في الوسيط: ولقد كررنا ورددنا ونوعنا في هذا القرآن من أجل هداية الناس، ورعاية مصلحتهم ومنفعتهم، من كل مثل من الأمثال التي تهدى النفوس، وتشفى القلوب، لعلهم بذلك يسلكون طريق الحق، ويتركون طريق الباطل.

فالمقصود بهذه الجملة الكريمة: الشهادة من الله تعالى بأن هذا القرآن الذي أنزله سبحانه على نبيه ﷺ فيه من الأمثال الكثيرة المتنوعة النافعة، ما يرشد الناس إلى طريق الحق والخير، متى فتحوا قلوبهم له. وأعملوا عقولهم لتدبره وفهمه.

وذكر الله آيات أخرى كهذه الآية:

كقوله تعالى (ولقد صرفنا للناس في هذا القرآن من كل مثل فأبى أكثر الناس إلا كفورا).

وقال تعالى (ولقد صرفنا في هذا القرآن ليذكروا وما يزيدهم إلا نفورا).

=

=

- من عظمة القرآن: أن الله ﷻ نوع فيه الأساليب ترغيبا وترهيبا، وأمرا ونهيا، وأخبارا وأحكاما، وهذا كله لأجل هداية الخلق للطريق المستقيم، وفي هذا درس للمربي (والدا أو وليا أو معلما أو داعية... إلخ) أن يحرص على تنويع أساليبه في تربية من تحت يده فهو أدعى -بإذن الله وتوفيقه- لنجاحه في التربية، مع عدم إغفال دعاء الله له بالتوفيق في مسعاه.

(وكان الإنسان أكثر شيء جدلا) قال ابن جرير: وكان الإنسان أكثر شيء مراء وخصومة، لا ينيب لحق، ولا ينزجر لموعظة.

والمراد بالإنسان: الجنس، ويدخل فيه الكافر والفاسق دخولا أوليا.

- والمراد بالمجادلة مجادلة الكفار ومماراتهم بالباطل ليدحضوا به الحق.

كما قال تعالى (ويجادل الذين كفروا بالباطل ليدحضوا به الحق واتخذوا آياتي وما أنذروا هزوا).

وقال تعالى (أولم ير الإنسان أنا خلقناه من نطفة فإذا هو خصيم مبين).

- والجدل ينقسم إلى محمود ومذموم.

قوله تعالى: {وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى وَيَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ}.

قال الزمخشري: أي:"وما منع الناس الإيمان والاستغفار".

قال السعدي:"أي: ما منع الناس من الإيمان، والحال أن الهدى الذي يحصل به الفرق، بين الهدى والضلال، والحق والباطل، قد وصل إليهم، وقامت عليهم حجة الله، فلم يمنعهم عدم البيان، بل منعهم الظلم والعدوان، عن الإيمان".

قوله تعالى: {إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ} [الكهف: ٥٥]، أي:"إلا انتظارهم أن تأتيهم سنة الأولين وهي الإهلاك".

قال الزمخشري: أي:"أن تأتيهم سنة الأولين، وهي الإهلاك".

قال ابن كثير:"من غشيانهم بالعذاب وأخذهم عن آخرهم".

=

=

قال السعدي:"فلم يبق إلا أن تأتيهم سنة الله، وعادته في الأولين من أنهم إذا لم يؤمنوا، عوجلوا بالعذاب".

قال قتادة:"عقوبة الأولين".

قال النحاس:"و «سنة الأولين»: الاستئصال".

قوله تعالى: {أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ قُبُلًا} [الكهف: ٥٥]، أي:"يأتيهم عذاب الله عيانًا ومقابلة".

قال الزمخشري: أي:"أو انتظار أن يأتيهم عذاب الآخرة عيانا".

قال ابن كثير:"أي: يرونه عيانًا مواجهة ومقابلة".

قال السعدي:"أو يرون العذاب قد أقبل عليهم، ورأوه مقابلة ومعاينة، أي: فليخافوا من ذلك، وليتوبوا من كفرهم، قبل أن يكون العذاب الذي لا مرد له".

عن مجاهد: قوله: {أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ قُبُلًا}، قال:"فجأة".

وقال قتادة: أي:"عيانا".

وقال الأعمش:"جهارا".

وقال السدي:"مقابلهم فينظرون إليه".

قال أبو عبيدة:"أي: أولا، يقال: من ذى قبل، فإن فتحوا أولها فالمعنى: استئنافا، قال:

لن يغلب اليوم جباكم قبلى أي: استئنافى، وإن ضمّوا أوّلها فالمعنى: مقابلة، يقال: أقبل قبل فلان: انكسر، وله موضع آخر: أن يكون جميع: «قبيل»، فمعناه: أو يأتيهم العذاب قبلا، أي: قبيلا قبيلا، أي: ضربا ضربا ولونا لونا".

وقرئ «قبلا» أنواعا، جمع قبيل. و «قبلا» بفتحين: مستقبلا.

قال ابن قتيبة:"{قبلا}، أي: مقابلة وعيانا. ومن قرأ بفتح القاف والباء أراد استئنافا".

=

=

وروي عن مجاهد:"أنه قرأ: {أو يأتيهم العذاب قبلا}، قال: قبائل".

قال النحاس في معنى الآبة: "وهذا من المجاز لما كانوا قد جاءتهم البراهين وما ينبغي أن يؤمنوا به وما ينبغي أن يقبلوه كانوا بمنزلة من منعه أن يؤمن أحد هذين".

و في هذه الآية الكريمة وجهان من التفسير معروفان عند أهل العلم:

الأول منها: معنى الآية: وما منع الناس من الإيمان والاستغفار إذ جاءتهم الرسل بالبينات الواضحات، إلا ما سبق في علمنا: من أنهم لا يؤمنون، بل يستمرون على كفرهم حتى تأتيهم سنة الأولين أي سنتنا في إهلاكهم بالعذاب المستأصل. أو يأتيهم العذاب قبلا.

وعلى هذا القول فالآيات الدالة على هذا المعنى كثيرة جدا.

كقوله تعالى (إن الذين حقت عليهم كلمة ربك لا يؤمنون ولو جآءتهم كل آية حتى يروا العذاب الأليم).

وقوله (وما تغني الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون).

وقوله تعالى (إن تحرص على هداهم فإن الله لا يهدي من يضل وما لهم من ناصرين).

القول الثاني: أن في الآية الكريمة مضافا محذوفا، تقديره: وما منع الناس من الإيمان والاستغفار إلا طلبهم أن تأتيهم سنة الأولين، أو يأتيهم العذاب قبلا.

والآيات الدالة على طلبهم الهلاك والعذاب واستعجالهم ذلك كثيرة.

كقوله عن قوم شعيب (فأسقط علينا كسفا من السمآء إن كنت من الصادقين).

وكقوله عن قوم هود (قالوا أجئتنا لتأفكنا عن آلهتنا فأتنا بما تعدنآ إن كنت من الصادقين).

وكقوله عن قوم صالح (وقالوا يا صالح ائتنا بما تعدن إن كنت من المرسلين).

وكلمة (قبلا) قرأها عاصم والكسائي وحمزة- بضم القاف والباء- على أنها جمع

=

وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَيُجَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَمَا أُنْذِرُوا هُزُوًا (٥٦).

{وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ} لِلْمُؤْمِنِينَ {وَمُنْذِرِينَ} مُخَوِّفِينَ لِلْكَافِرِينَ {وَيُجَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ} بِقَوْلِهِمْ أَبَعَثَ الله بَشَرًا رَسُولًا وَنَحْوه {لِيُدْحِضُوا بِهِ} لِيُبْطِلُوا بِجِدَالِهِمْ {الْحَقّ} الْقُرْآن {وَاتَّخَذُوا آيَاتِي} أَيْ الْقُرْآن {وَمَا أُنْذِرُوا} بِهِ مِنْ النَّار {هُزُوًا} سخرية[1].

=

قبيل وهو النوع فيكون المعنى: أو يأتيهم العذاب على صنوف وأنواع مختلفة، ومن جهات متعددة يتلو بعضها بعضا.

وقرأها الباقون: - قبلا - بكسر القاف وفتح الباء- بمعنى عيانا ومواجهة.

(١) قوله تعالى: {وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ} [الكهف: ٥٦].

قال الطبري: "يقول عز ذكره: وما نرسل رسلنا إلا ليبشروا أهل الإيمان والتصديق بالله بجزيل ثوابه في الآخرة، ولينذروا أهل الكفر به والتكذيب، عظيم عقابه، وأليم عذابه، فينتهوا عن الشرك بالله، وينزجروا عن الكفر به ومعاصيه".

قال ابن كثير: "أي: قبل العذاب مبشرين من صدقهم وآمن بهم، ومنذرين مَنْ كذبهم وخالفهم".

قوله تعالى: {وَيُجَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ} [الكهف: ٥٦]، أي: "ومع وضوح الحق يخاصم الذين كفروا رسلهم بالباطل تعنتًا؛ ليزيلوا بباطلهم الحق الذي جاءهم به الرسول".

قال ابن كثير: "أخبر عن الكفار بأنهم يجادلون بالباطل {لِيُدْحِضُوا بِهِ} أي: ليضعفوا به {الْحَقَّ} الذي جاءتهم به الرسل، وليس ذلك بحاصل لهم".

قال الطبري: "يقول: ويخاصم الذين كذبوا بالله ورسوله بالباطل، ذلك كقولهم

=

=

للنبي ﷺ: أخبرنا عن حديث فتية ذهبوا في أول الدهر لم يدر ما شأنهم، وعن الرجل الذي بلغ مشارق الأرض ومغاربها، وعن الروح، وما أشبه ذلك مما كانوا يخاصمونه به، يبتغون إسقاطه، تعنيتا له ﷺ، فقال الله لهم: إنا لسنا نبعث إليكم رسلنا للجدال والخصومات، وإنما نبعثهم مبشرين أهل الإيمان بالجنة، ومنذرين أهل الكفر بالنار، وأنتم تجادلونهم بالباطل طلبا منكم بذلك أن تبطلوا الحق الذي جاءكم به رسولي، وعنى بقوله: {ليدحضوا به الحق}، ليبطلوا به الحق ويزيلوه ويذهبوا به. يقال منه: دحض الشيء: إذا زال وذهب، ويقال: هذا مكان دحض: أي مزل مزلق لا يثبت فيه خف ولا حافر ولا قدم، ومنه قوله الشاعر:

رديت ونجى اليشكري حذاره... وحاد كما حاد البعير عن الدحض

ويروى: ونحى، وأدحضته أنا: إذا أذهبته وأبطلته".

عن السُّدِّيّ {لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ}:"لِيُفْسِدوا".

قال يحيى بن سلّام: "قوله: {ويجادل الذين كفروا بالباطل ليدحضوا} ليذهبوا {به الحق} فيما يظنون ولا يقدرون على ذلك".

قوله تعالى: {وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَمَا أُنْذِرُوا هُزُوًا} [الكهف: ٥٦]، أي:"واتخذوا كتابي وحججي وما خُوّفوا به من العذاب سخرية واستهزاء".

قال مقاتل:"يعني: آيات القرآن وما أنذروا فيه من الوعيد استهزاء منهم أنه ليس من الله- ﷻ- يعني: القرآن والوعيد ليسا بشيء".

قال الطبري:"يقول: واتخذوا الكافرون بالله حججه التي احتج بها عليهم، وكتابه الذي أنزله إليهم، والنذر التي أنذرهم بها سخريا يسخرون بها، يقولون: {إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ} [الأنعام: ٢٥]، {اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا} [الفرقان: ٥]، {لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا} [الأنفال: ٣١]".

قال مكي:"أي: اتخذ الكافرون آيات الله -ﷻ- وحججه -سبحانه- سخريًا. و

=

=

«الهزؤ»: السخرية، كأنهم يسخرون به".

قال ابن كثير: "أي: اتخذوا الحجج والبراهين وخوارق العادات التي بعث بها الرسل وما أنذروهم وخوفوهم به من العذاب {هُزُوًا} أي: سخروا منهم في ذلك، وهو أشد التكذيب".

* قوله تعالى: (وما نرسل المرسلين) إلى الناس، والرسول: من أوحي إليه بشرع وأمر بتبليغه.

(إلا مبشرين ومنذرين) أي إلا من أجل تبشير من آمن بالجنة، وإنذار من كفر بالنار.

التبشير: الإخبار بما يسر.... الإنذار: الإعلام المقرون بتخويف.

(ويجادل الذين كفروا بالباطل ليدحضوا به الحق) أي مع وضوح الحق بإرسال الرسل والكتب، يجادل الكفار بالباطل ليغلبوا به الحق ويبطلوه.

ويأبى الله إلا أن يتم نوره كما قال تعالى (بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق ولكم الويل مما تصفون).

قوله (ويجادل) من المجادلة بمعنى المخاصمة والمنازعة. ومفعوله محذوف.

والباطل: هو الشيء الزائل المضمحل الذي هو ضد الحق والعدل.

والدحض: الطين الذي لا تستقر عليه الأقدام. فمعنى يدحضوا: يزيلوا ويبطلوا تقول العرب: دحضت رجل فلان، إذا زلت وزلقت.. ومنه قوله تعالى: حجتهم داحضة عند ربهم.

(واتخذوا آياتي وما أنذروا هزوا) أي: اتخذوا الحجج والبراهين وخوارق العادات التي بعثت بها الرسل وما أنذروهم وخوفوهم به من العذاب (هزوا) أي سخروا منهم في ذلك، وهو أشد التكذيب.

كما قال تعالى (ويصنع الفلك وكلما مر عليه ملأ من قومه سخروا منه قال إن

=

وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَى فَلَنْ يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا (٥٧).

{وَمَنْ أَظْلَم مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبّه فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ} مَا عَمِلَ مِنْ الْكُفْر وَالْمَعَاصِي {إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبهمْ أَكِنَّة} أَغْطِيَة {أَنْ يَفْقَهُوهُ} أَيْ مِنْ أَنْ يَفْهَمُوا الْقُرْآن أَيْ فَلَا يَفْهَمُونَهُ {وَفِي آذَانهمْ وقرا} ثقلا فلا يسمعونه {وَإِنْ تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَى فَلَنْ يَهْتَدُوا إِذًا} أي بالجعل المذكور {أبدا}.

وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُمْ بِمَا كَسَبُوا لَعَجَّلَ لَهُمُ الْعَذَابَ بَلْ لَهُمْ مَوْعِدٌ لَنْ يَجِدُوا مِنْ دُونِهِ مَوْئِلًا (٥٨).

{وَرَبّك الْغَفُور ذُو الرَّحْمَة لَوْ يُؤَاخِذهُمْ} فِي الدُّنْيَا {بِمَا كَسَبُوا لَعَجَّلَ لَهُمْ الْعَذَاب} فِيهَا {بَلْ لَهُمْ مَوْعِد} وَهُوَ يَوْم الْقِيَامَة {لَنْ يَجِدُوا مِنْ دُونه مَوْئِلًا} مَلْجَأ.

وَتِلْكَ الْقُرَى أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِمْ مَوْعِدًا (٥٩).

{وَتِلْكَ الْقُرَى} أَيْ أَهْلهَا كَعَادٍ وَثَمُود وَغَيْرهمَا {أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا} كَفَرُوا {وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِمْ} لِإِهْلَاكِهِمْ وفي قراءة بفتح الميم أي لهلاكهم

=

تسخروا منا فإنا نسخر منكم كما تسخرون)

وقال تعالى (إن الذين أجرموا كانوا من الذين آمنوا يضحكون).

وقال تعالى (ولقد استهزئ برسل من قبلك فحاق بالذين سخروا منهم ما كانوا به يستهزئون).

{موعدا}[1].

---

(١) قوله تعالى: {وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا} [الكهف: ٥٧].

قال ابن أبي زمنين:"أي: لم يؤمن بها؛ أي: لا أحد أظلم منه".

قال مقاتل:"يقول: فلا أحد أظلم ممن وعظ {بآيات ربه}، يعني: القرآن، فأعرض عن الإيمان بآيات الله القرآن فلم يؤمن بها".

قال مكي:"أي: أيُّ الناس أوضع للأشياء في غير موضعها ممن ذكره الله -ﷻ- آياته وحججه فدله على سبيل الرشاد، وأهداه إلى طريق النجاة، فأعرض عن ذلك ولم يقبله، وقيل المعنى: فمن أظلم لنفسه ممن ذكر بآيات ربه فأعرض عن قبولها".

قال الطبري:"يقول عز ذكره: وأي الناس أوضع للإعراض والصد في غير موضعهما ممن ذكره بآياته وحججه، فدله بها على سبيل الرشاد، وهداه بها إلى طريق النجاة، فأعرض عن آياته وأدلته التي في استدلاله بها الوصول إلى الخلاص من الهلاك".

قوله تعالى: {وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ} [الكهف: ٥٧]، أي:"ونسي ما قدَّمته يداه من الأفعال القبيحة فلم يرجع عنها".

قال الطبري:"يقول: ونسي ما أسلف من الذنوب المهلكة فلم يتب، ولم ينب".

قال مكي:"أي: ترك ما اكتسبت من الذنوب المهلكة له فلم يتب منها، وقيل: ترك كفره ومعاصيه لم يتب منها".

قال الحسن: "عمله السوء".

قال قتادة:"أي: نسي ما سلف من الذنوب الكثيرة".

قال مقاتل:"يعني: ترك ما سلف من ذنوبه فلم يستغفر منها".

قوله تعالى: {إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ} [الكهف: ٥٧]، أي:"إنَّا =

=

جعلنا على قلوبهم أغطية، فلم يفهموا القرآن، ولم يدركوا ما فيه من الخير".

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: إنا جعلنا على قلوب هؤلاء الذين يعرضون عن آيات الله إذا ذكروا بها أغطية لئلا يفقهوه، لأن المعنى أن يفقهوا ما ذكروا به".

قال مكي:"أي: إنا جازيناهم بإعراضهم عن الهدى وميلهم إلى الكفر بأن جعلنا على قلوبهم أغطية لئلا يفقهوه".

قال الزجاج:"هؤلاء قد أخبر الله عنهم أنهم من أهل الطبع فقال: {إنا جعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه}، {أكنة}، جمع: كنانة، وهو الغطاء، وهو مثل عنان وأعنة، فأعلم الله ﷻ أن هؤلاء بأعيانهم لن يهتدوا أبدا".

قوله تعالى: {وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا} [الكهف: ٥٧]، أي:"وجعلنا في آذانهم ما يشبه الصمم، فلم يسمعوه ولم ينتفعوا به".

قال الطبري:"يقول: في آذانهم ثقلا لئلا يسمعوه".

قال مكي:"أي: ثقلًا لئلا يسمعوه. فأعلم الله -ﷻ- نبيه ﷺ أن هؤلاء بأعيانهم لن يؤمنوا".

قال ابن أبي زمنين:"وهو الصمم عن الهدى".

قال الثعلبي: {وَقْرًا}، أي:"ثقلا وصمما".

قوله تعالى: {وَإِنْ تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَى فَلَنْ يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا} [الكهف: ٥٧]، أي:"وإن تَدْعُهم إلى الإيمان فلن يستجيبوا لك، ولن يهتدوا إليه أبدًا".

قال الطبري:"يقول عز ذكره لنبيه محمد ﷺ: وإن تدع يا محمد هؤلاء المعرضين عن آيات الله عند التذكير بها إلى الاستقامة على محجة الحق والإيمان بالله، وما جئتهم به من عند ربك، فلن يستقيموا إذا أبدا على الحق، ولن يؤمنوا بما دعوتهم إليه، لأن الله قد طبع على قلوبهم، وسمعهم وأبصارهم".

قال الثعلبي: أي:"وإن تدعهم يا محمد إلى الدين، فلن يرشدوا ولن يقبلوه".

=

=

قال مكي:"أي [وإن تدعوهم إلى] الاستقامة، فلن يؤمنوا أبدًا لأن الله -ﷻ- قد طبع على قلوبهم وآذانهم".

قال ابن أبي زمنين:"يعني: الذين يموتون على شركهم".

* قوله تعالى: (ومن أظلم ممن ذكر بآيات ربه فأعرض عنها) أي لا أحد أعظم ظلما ولا أكبر جرما، من عبد ذكر بآيات الله وبين له الحق من الباطل، والهدى من الضلال، فأعرض عنها، فلم يتذكر بما ذكر به.

والأكثرون على أن المراد بها القرآن العظيم لمكان (أن يفقهوه) فالإضافة للعهد.

- نتائج الإعراض:

أولا: أن صاحبه من أعظم الناس ظلما.

قال تعالى (ومن أظلم ممن ذكر بآيات ربه فأعرض عنها ونسي ما قدمت يداه).

ثانيا: جعل الأكنة على القلوب حتى لا تفقه.

قال تعالى (إنا جعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه).

ثالثا: انتقام الله.

كما قال تعالى (ومن أظلم ممن ذكر بآيات ربه ثم أعرض عنها إنا من المجرمين منتقمون).

رابعا: كون المعرض كالحمار.

كما قال تعالى (فما لهم عن التذكرة معرضين. كأنهم حمر مستنفرة).

خامسا: الإنذار بصاعقة مثل صاعقة عاد وثمود.

قال تعالى (فإن أعرضوا فقل أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود).

سادسا: المعيشة الضنك.

قال تعالى (ومن أعرض عن ذكري فإن له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى).

=

=

سابعا: سلكه العذاب الصعد.

كما قال تعالى (ومن عن ذكر ربه يسلكه عذابا صعدا).

(ونسي ما قدمت يداه) أي من الأعمال السيئة والأفعال القبيحة.

(إنا جعلنا على قلوبهم) أي قلوب هؤلاء.

(أكنة) أي أغطية وغشاوة.

والأكنة: جمع كنان بمعنى غطاء.

(أن يفقهوه) أي لئلا يفهموا هذا القرآن والبيان.

قال الطبري:... لئلا يفقهوه.

وقيل: المعنى: جعلنا على قلوبهم أكنة كراهة أن يفقهوه.

(وفي آذانهم وقرا) أي صمما معنويا عن الرشاد.

والوقر الثقل والصمم. يقال فلان وقرت أذنه، أي: ثقل سمعها وأصيبت بالصمم.

(وإن تدعهم إلى الهدى فلن يهتدوا إذا أبدا) أي وإن دعوتهم إلى الإيمان والقرآن فلن يستجيبوا لك أبدا، لأنهم لا يفقهون ولا يسمعون، فللهدى قلوب متفتحة مستعدة لقبول الإيمان وهؤلاء كالأنعام.

فإن قيل: إذا كانوا لا يستطيعون السمع ولا يبصرون ولا يفقهون، لأن الله جعل الأكنة المانعة من الفهم على قلوبهم. والوقر الذي هو الثقل المانع من السمع في آذانهم فهم مجبورون. فما وجه تعذيبهم على شيء لا يستطيعون العدول عنه والانصراف إلى غيره؟

فالجواب: أن الله جل وعلا بين في آيات كثيرة من كتابه العظيم أن تلك الموانع التي يجعلها على قلوبهم وسمعهم وأبصارهم، كالختم والطبع والغشاوة والأكنة، ونحو ذلك - إنما جعلها عليهم جزاء وفاقا لما بادروا إليه من الكفر وتكذيب الرسل باختيارهم، فأزاغ الله قلوبهم بالطبع والأكنة ونحو ذلك، جزاء على

=

=
كفرهم، فمن الآيات الدالة على ذلك:
قوله تعالى (بل طبع الله عليها بكفرهم) أي: بسبب كفرهم، وهو نص قرآني صريح في أن كفرهم السابق هو سبب الطبع على قلوبهم.
وقوله (فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم) وهو دليل أيضا واضح على أن سبب إزاغة الله قلوبهم هو زيغهم السابق.
وقوله (ذلك بأنهم آمنوا ثم كفروا فطبع على قلوبهم).
وقوله تعالى (في قلوبهم مرض فزادهم الله مرضا).
وقوله (ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة ونذرهم في طغيانهم يعمهون).
وقوله تعالى (كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون) إلى غير ذلك من الآيات الدالة على أن الطبع على القلوب ومنعها من فهم ما ينفع عقاب من الله على الكفر السابق على ذلك.
قوله تعالى: {وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ} [الكهف: ٥٨].
قال الطبري:"يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: وربك الساتر يا محمد على ذنوب عباده بعفوه عنهم إذا تابوا منها {ذو الرحمة}".
قال مكي:"أي: وربك يا محمد الساتر على ذنوب عباده بعفوه إذا تابوا منها ذو الرحمة بهم".
قال الزمخشري:"«الغفور»: البليغ المغفرة، «ذو الرحمة»: الموصوف بالرحمة".
قال سلمة بن وهرام صاحب طاووس:"أن الله تبارك وتعالى إنما سمى نفسه «العفو»، ليعفو، و «الغفور»، ليغفر".
قوله تعالى: {لَوْ يُؤَاخِذُهُمْ بِمَا كَسَبُوا لَعَجَّلَ لَهُمُ الْعَذَابَ} [الكهف: ٥٨]، أي:"لو يعاقب هؤلاء المعرضين عن آياته بما كسبوا من الذنوب والآثام لعجَّل
=

=

لهم العذاب".

قال الطبري:"{لو يؤاخذهم بما كسبوا} هؤلاء المعرضين عن آياته إذا ذكروا بها بما كسبوا من الذنوب والآثام، {لعجل لهم العذاب}، ولكنه لرحمته بخلقه غير فاعل ذلك بهم إلى ميقاتهم وآجالهم".

قال مكي: أي:"ولو أخذ هؤلاء المعرضين عن آياته بما اكتسبوا من الذنوب بالعذاب في الدنيا لعجّل لهم ذلك. لكنه برحمته وعفوه لم يعجل لهم ذلك".

قال الزمخشري:"ثم استشهد [على صفتي: الغفران والرحمة]، بترك مؤاخذة أهل مكة عاجلا من غير إمهال، مع إفراطهم في عداوة رسول الله ﷺ".

عن ابن عباس قوله: " {بما كسبوا}، يقول: بما عملوا".

قوله تعالى: {بَلْ لَهُمْ مَوْعِدٌ} [الكهف: ٥٨]، أي:"ولكنه تعالى حليم لا يعجل بالعقوبة، بل لهم موعد يجازون فيه بأعمالهم".

قال الطبري:"يقول: لكن لهم موعد، وذلك ميقات محل عذابهم، وهو يوم بدر".

قال الزمخشري:"وهو يوم بدر لن يجدوا من دونه منجى ولا ملجأ".

قوله تعالى: {لَنْ يَجِدُوا مِنْ دُونِهِ مَوْئِلًا} [الكهف: ٥٨]، أي:"لا مندوحة لهم عن ذلك الموعد ولا محيد".

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: لن يجد هؤلاء المشركون، وإن لم يعجل لهم العذاب في الدنيا من دون الموعد الذي جعلته ميقاتا لعذابهم، ملجأ يلجئون إليه، ومنجى ينجون معه، يعني أنهم لا يجدون معقلا يعتقلون به من عذاب الله".

قال مكي:"أي: لن يجدوا يعني هؤلاء المشركين من دون الموعد ملتحدًا ملجئًا يلجؤون إليه من العذاب".

قال الزجاج:"«الموئل»: المنجا، يقال: وأل يئل إذا نجا".

قال الزمخشري:" {لن يجدوا من دونه} منجى ولا ملجأ".

=

=

عن ابن عباس: قوله": {لن يجدوا من دونه موئلا}، قال: ملجأ".

عن مجاهد قوله: " {لن يجدوا من دونه موئلا}، قال: مجوزا".

قال قتادة:"أي: لن يجدوا من دونه وليا ولا ملجأ".

قال السدي:"الموعد يوم القيامة".

* (وربك الغفور ذو الرحمة) أي ربك يا محمد غفور ذو رحمة واسعة.

كما قال تعالى (ورحمتي وسعت كل شيء).

وقال تعالى (إن ربك واسع المغفرة).

وبين في مواضع أخر سعة مغفرته ورحمته: كقوله (إن ربك واسع المغفرة).

وقوله (إن الله يغفر الذنوب جميعا). ونحو ذلك من الآيات.

وبين في مواضع أخر أنه مع سعة رحمته ومغفرته: شديد العقاب.

كقوله (وإن ربك لذو مغفرة للناس على ظلمهم وإن ربك لشديد العقاب).

وقوله (غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب).

وقوله تعالى (نبئ عبادي أني أنا الغفور الرحيم وأن عذابي هو العذاب الأليم)، إلى غير ذلك من الآيات.

وفي الحديث قال ﷺ (لما خلق الله الخلق، كتب في كتابه فهو عنده فوق العرش: إن رحمتي تغلب غضبي).

(لو يؤاخذهم بما كسبوا لعجل لهم العذاب) أي لو يعاقبهم بما قدمت أيديهم من الذنوب لعجل لهم العذاب في الدنيا، لكن الله حليم لا يعجل بالعقوبة، بل يمهل ولا يهمل.

كقوله (ولو يؤاخذ الله الناس بظلمهم ما ترك عليها من دآبة ولكن يؤخرهم إلى أجل مسمى فإذا جآء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون).

وقوله (ولو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا ما ترك على ظهرها من دآبة).

=

=

(بل لهم موعد لن يجدوا من دونه موئلا) بل لهم موعد يجازون فيه بأعمالهم لا بد منه (لن يجدوا من دونه موئلا) أي: ملجا يلجؤون إليه فيعتصمون به من ذلك العذاب المجعول له الموعد المذكور.

كما قال تعالى (ولو يؤاخذ الله الناس بظلمهم ما ترك عليها من دآبة ولكن يؤخرهم إلى أجل مسمى فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون).

وقال تعالى (ولو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا ما ترك على ظهرها من دابة ولكن يؤخرهم إلى أجل مسمى فإذا جاء أجلهم فإن الله كان بعباده بصيرا).

قال السعدي: وهذه سنته تعالى في الأولين والآخرين، أن لا يعاجلهم بالعقاب، بل يستدعيهم إلى التوبة والإنابة، فإن تابوا وأنابوا غفر لهم ورحمهم، وإلا، فإن استمروا على ظلمهم وعنادهم، وجاء الوقت الذي جعله موعدا لهم، أنزل بهم بأسه.

قوله تعالى: {وَتِلْكَ الْقُرَى أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا} [الكهف: ٥٩].

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: وتلك القرى من عاد وثمود وأصحاب الأيكة أهلكنا أهلها لما ظلموا، فكفروا بالله وآياته".

قال مكي:"المعنى: وتلك القرى من عاد وثمود وأصحاب الأيكة وغيرهم أهلكنا أهلها، [لما] كفروا بالله -ﷻ- وآياته -سبحانه-".

قال الزمخشري:"يريد قرى الأولين من ثمود وقوم لوط وغيرهم: أشار لهم إليها ليعتبروا، والمعنى: وتلك أصحاب القرى أهلكناهم لما ظلموا مثل ظلم أهل مكة".

قوله تعالى: {وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِمْ مَوْعِدًا} [الكهف: ٥٩]، أي:"وجعلنا لهلاكهم ميقاتًا وأجلا حين بلغوه جاءهم العذاب فأهلكهم الله به".

قال القرطبي:"أي: وقتا معلوما لم تعد".

=

وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِفَتَاهُ لَا أَبْرَحُ حَتَّى أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا (٦٠).

{و} اذكر {إذ قال موسى} هو بن عِمْرَانَ {لِفَتَاهُ} يُوشَع بْن نُون كَانَ يَتْبَعهُ وَيَخْدُمهُ وَيَأْخُذ عَنْهُ الْعِلْم {لَا أَبْرَح} لَا أَزَال أَسِير {حَتَّى أَبْلُغ مَجْمَع الْبَحْرَيْنِ}

=

قال الطبري:"يعني: ميقاتا وأجلا حين بلغوه جاءهم عذاب فأهلكناهم به، يقول: فكذلك جعلنا لهؤلاء المشركين من قومك يا محمد الذين لا يؤمنون بك أبدا موعدا، إذا جاءهم ذلك الموعد أهلكناهم سنتنا في الذين خلوا من قبلهم من ضربائهم".

قال مكي:"أي: وجعلناه لوقت هلاكهم موعدًا، لا يتجاوزونه، أي: أجلًا ووقتًا. فكذلك جعلنا لهؤلاء المشركين موعدًا لإهلاكهم لا يتجاوزونه".

قال الزمخشري: أي:"وضربنا لإهلاكهم وقتا معلوما لا يتأخرون عنه كما ضربنا لأهل مكة يوم بدر. و «المهلك»: الإهلاك ووقته".

عن مجاهد:"{وجعلنا لمهلكهم موعدا}، قال: أجلا".

قال يحيى بن سلام:"الوقت الذي جاءهم فيه العذاب".

قال ابن عباس:"قضى الله العقوبة حين عصي، ثم أخرها حتى جاء أجلها، ثم أرسلها".

* (وتلك القرى أهلكناهم) أي الأمم السالفة والقرون الخالية أهلكناهم ودمرناهم.

(لما ظلموا) أي بسبب كفرهم وظلمهم وعنادهم.

(وجعلنا لمهلكهم موعدا) أي جعلناه إلى مدة معلومة ووقت معين، لا يزيد ولا ينقص.

مُلْتَقَى بَحْر الرُّوم وَبَحْر فَارِس مِمَّا يَلِي الْمَشْرِق أَيْ الْمَكَان الْجَامِع لِذَلِكَ {أَوْ أَمْضِي حُقُبًا} دَهْرًا طَوِيلًا فِي بُلُوغه إنْ بَعُدَ.

فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا (٦١).

{فلما بلغا مجمع بينهما} بين البحرين {نسياحوتهما} نَسِيَ يُوشَع حَمْله عِنْد الرَّحِيل وَنَسِيَ مُوسَى تَذْكِيره {فَاتَّخَذَ} الْحُوت {سَبِيله فِي الْبَحْر} أَيْ جَعَلَهُ بِجَعْلِ الله {سَرَبًا} أَيْ مِثْل السَّرَب وَهُوَ الشَّقّ الطَّوِيل لَا نَفَاذ لَهُ وَذَلِكَ أَنَّ الله تَعَالَى أَمْسَكَ عَنْ الْحُوت جَرْي الْمَاء فَانْجَابَ عَنْهُ فَبَقِيَ كَالْكُوَّةِ لَمْ يَلْتَئِم وَجَمَدَ مَا تَحْته مِنْهُ.

فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَاهُ آتِنَا غَدَاءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا (٦٢).

{فَلَمَّا جَاوَزَا} ذَلِكَ الْمَكَان بِالسَّيْرِ إلَى وَقْت الْغَدَاء مِنْ ثَانِي يَوْم {قَالَ} مُوسَى {لِفَتَاهُ آتِنَا غَدَاءَنَا} هُوَ مَا يُؤْكَل أَوَّل النَّهَار {لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرنَا هَذَا نَصَبًا} تَعَبًا وَحُصُوله بَعْد الْمُجَاوَزَة.

قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنْسَانِيهُ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا (٦٣) .

{قَالَ أَرَأَيْت} أَيْ تَنَبَّهْ {إذْ أَوَيْنَا إلَى الصَّخْرَة} بِذَلِكَ الْمَكَان {فَإِنِّي نَسِيت الْحُوت وَمَا أَنْسَانِيهِ إلَّا الشَّيْطَان} يُبْدَل مِنْ الْهَاء {أَنْ أَذْكُرَهُ} بَدَل اشْتِمَال أَيْ أَنْسَانِي ذِكْره {وَاتَّخَذَ} الْحُوت {سَبِيله فِي الْبَحْر عَجَبًا} مَفْعُول ثَانٍ أَيْ يَتَعَجَّب مِنْهُ مُوسَى وَفَتَاهُ لِمَا تَقَدَّمَ فِي بيانه.

قَالَ ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ فَارْتَدَّا عَلَى آثَارِهِمَا قَصَصًا (٦٤).

{قَالَ} مُوسَى {ذَلِكَ} أَيْ فَقَدْنَا الْحُوت {مَا} أي الذي {كنا نبغي} نَطْلُبهُ فَإِنَّهُ عَلَامَة لَنَا عَلَى وُجُود مَنْ نَطْلُبهُ {فَارْتَدَّا} رَجَعَا {عَلَى آثَارهمَا} يَقُصَّانِهَا

{قَصَصًا} فأتيا الصخرة.

فَوَجَدَا عَبْدًا مِنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا (٦٥).

{فَوَجَدَا عَبْدًا مِنْ عِبَادنَا} هُوَ الْخَضِر {آتَيْنَاهُ رَحْمَة مِنْ عِنْدنَا} نُبُوَّة فِي قَوْل وَوَلَايَة فِي آخَر وَعَلَيْهِ أَكْثَر الْعُلَمَاء {وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا} مِنْ قِبَلنَا {عِلْمًا} مَفْعُول ثَانٍ أَيْ مَعْلُومًا مِنْ الْمُغَيَّبَات رَوَى الْبُخَارِيّ حَدِيث إنَّ مُوسَى قَامَ خَطِيبًا فِي بَنِي إسْرَائِيل فَسُئِلَ أَيّ النَّاس أَعْلَم فَقَالَ أَنَا فَعَتَبَ الله عَلَيْهِ إذْ لَمْ يَرُدّ الْعِلْم إلَيْهِ فَأَوْحَى الله إلَيْهِ إنَّ لِي عَبْدًا بِمَجْمَعِ الْبَحْرَيْنِ هُوَ أَعْلَم مِنْك قَالَ مُوسَى يَا رَبّ كيف لِي بِهِ قَالَ تَأْخُذ مَعَك حُوتًا فَتَجْعَلهُ فِي مِكْتَل فَحَيْثُمَا فَقَدْت الْحُوت فَهُوَ ثَمَّ فَأَخَذَ حُوتًا فَجَعَلَهُ فِي مِكْتَل ثُمَّ انْطَلَقَ وَانْطَلَقَ مَعَهُ فَتَاهُ يُوشَع بْن نُون حَتَّى أَتَيَا الصَّخْرَة وَوَضَعَا رَأْسَيْهِمَا فَنَامَا وَاضْطَرَبَ الْحُوت فِي الْمِكْتَل فَخَرَجَ مِنْهُ فَسَقَطَ فِي الْبَحْر {فَاتَّخَذَ سَبِيله فِي الْبَحْر سَرَبًا} وَأَمْسَكَ الله عَنْ الْحُوت جَرْيَة الْمَاء فَصَارَ عَلَيْهِ مِثْل الطَّاق فَلَمَّا اسْتَيْقَظَ نَسِيَ صَاحِبه أَنْ يُخْبِرهُ بِالْحُوتِ فَانْطَلَقَا بَقِيَّة يَوْمهمَا وَلَيْلَتهمَا حَتَّى إذَا كَانَا مِنْ الْغَدَاة قَالَ مُوسَى لِفَتَاهُ {آتِنَا غَدَاءَنَا} إلَى قَوْله {وَاتَّخَذَ سَبِيله فِي الْبَحْر عَجَبًا} قَالَ وَكَانَ لِلْحُوتِ سَرَبًا وَلِمُوسَى وَلِفَتَاهُ عجبا إلخ.

قَالَ لَهُ مُوسَى هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا (٦٦).

{قَالَ لَهُ مُوسَى هَلْ أَتَّبِعك عَلَى أَنْ تعلمن مِمَّا عُلِّمْت رَشَدًا} أَيْ صَوَابًا أَرْشَد بِهِ وَفِي قِرَاءَة بِضَمِّ الرَّاء وَسُكُون الشِّين وَسَأَلَهُ ذلك لأن الزيادة في العلم مطلوبة.

قَالَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا (٦٧).

{قال إنك لن تستطيع معي صبرا.

وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا (٦٨).

{وَكَيْفَ تَصْبِر عَلَى مَا لَمْ تُحِطّ بِهِ خُبْرًا} فِي الْحَدِيث السَّابِق عَقِب هَذِهِ الْآيَة يَا مُوسَى إِنِّي عَلَى عِلْم مِنْ الله عَلَّمَنِيهِ لَا تَعْلَمهُ وَأَنْت عَلَى عِلْم مِنْ الله عَلَّمَكَهُ الله لَا أَعْلَمهُ وَقَوْله خُبْرًا مَصْدَر بِمَعْنَى لَمْ تُحِطّ أَيْ لَمْ تُخْبَر حقيقته.

قَالَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا (٦٩).

{قَالَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ الله صَابِرًا وَلَا أَعْصِي} أَيْ وَغَيْر عَاصٍ {لَك أَمْرًا} تَأْمُرنِي بِهِ وَقَيَّدَ بِالْمَشِيئَةِ لِأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ عَلَى ثِقَة مِنْ نَفْسه فِيمَا الْتَزَمَ وَهَذِهِ عَادَة الْأَنْبِيَاء وَالْأَوْلِيَاء أَنْ لَا يَثِقُوا إِلَى أَنْفُسهمْ طرفة عين.

قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا (٧٠).

{قَالَ فَإِنْ اتَّبَعْتنِي فَلَا تَسْأَلنِي} وَفِي قِرَاءَة بِفَتْحِ اللَّام وَتَشْدِيد النُّون {عَنْ شَيْء} تُنْكِرهُ مِنِّي فِي عِلْمك وَاصْبِرْ {حَتَّى أُحْدِث لَك مِنْهُ ذِكْرًا} أَيْ أَذْكُرهُ لَك بِعِلَّتِهِ فَقَبِلَ مُوسَى شَرْطه رِعَايَة لِأَدَبِ الْمُتَعَلِّم مَعَ الْعَالِم.

فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا (٧١).

{فَانْطَلَقَا} يَمْشِيَانِ عَلَى سَاحِل الْبَحْر {حَتَّى إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَة} الَّتِي مَرَّتْ بِهِمَا {خَرَقَهَا} الْخَضِر بِأَنْ اقْتَلَعَ لَوْحًا أَوْ لَوْحَيْنِ مِنْهَا مِنْ جِهَة الْبَحْر بِفَأْسٍ لَمَّا بَلَغَتْ اللُّجَج {قَالَ} لَهُ مُوسَى {أَخَرَقْتهَا لِتُغْرِق أَهْلهَا} وَفِي قِرَاءَة بِفَتْحِ التَّحْتَانِيَّة وَالرَّاء وَرَفْع أَهْلهَا {لَقَدْ جِئْت شَيْئًا إِمْرًا} أَيْ عَظِيمًا مُنْكَرًا رُوِيَ أن الماء لم يدخلها.

قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا (٧٢).

{قال ألم أقل إنك لن تستطيع معي صبرا}.

قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا (٧٣).

{قَالَ لَا تُؤَاخِذنِي بِمَا نَسِيت} أَيْ غَفَلْت عَنْ التَّسْلِيم لَك وَتَرْك الْإِنْكَار عَلَيْك {وَلَا تُرْهِقنِي} تُكَلِّفنِي {مِنْ أَمْرِي عُسْرًا} مَشَقَّة فِي صُحْبَتِي إيَّاكَ أَيْ عَامِلْنِي فِيهَا بِالْعَفْوِ وَالْيُسْر.

فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا لَقِيَا غُلَامًا فَقَتَلَهُ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا (٧٤).

{فَانْطَلَقَا} بَعْد خُرُوجهمَا مِنْ السَّفِينَة يَمْشِيَانِ {حَتَّى إِذَا لَقِيَا غُلَامًا} لَمْ يَبْلُغ الْحِنْث يَلْعَب مَعَ الصِّبْيَان أَحْسَنهمْ وَجْهًا {فَقَتَلَهُ} الْخَضِر بِأَنْ ذَبَحَهُ بِالسِّكِّينِ مُضْطَجِعًا أَوْ اقْتَلَعَ رَأْسه بِيَدِهِ أَوْ ضَرَبَ رَأْسَهُ بِالْجِدَارِ أَقْوَال وَأَتَى هُنَا بِالْفَاءِ الْعَاطِفَة لِأَنَّ الْقَتْل عَقِب اللِّقَاء وَجَوَاب إذا {قَالَ} لَهُ مُوسَى {أَقَتَلْت نَفْسًا زَاكِيَة} أَيْ طَاهِرَة لَمْ تَبْلُغ حَدّ التَّكْلِيف وَفِي قِرَاءَة زَكِيَّة بِتَشْدِيدِ الْيَاء بِلَا أَلِف {بِغَيْرِ نَفْس} أَيْ لَمْ تَقْتُل نَفْسًا {لَقَدْ جِئْت شَيْئًا نُكْرًا} بِسُكُونِ الْكَاف وَضَمّهَا أَيْ مُنْكَرًا.

قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا (٧٥).

{قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَك إنَّك لَنْ تَسْتَطِيع مَعِي صَبْرًا} زَادَ لَك عَلَى مَا قَبْله لِعَدَمِ الْعُذْر هُنَا.

قَالَ إِنْ سَأَلْتُكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْرًا (٧٦).

وَلِهَذَا {قَالَ إنْ سَأَلْتُك عَنْ شَيْء بَعْدهَا} أَيْ بَعْد هَذِهِ الْمَرَّة {فَلَا تُصَاحِبنِي} لَا تَتْرُكنِي أَتْبَعك {قَدْ بَلَغْت مِنْ لَدُنِّي} بِالتَّشْدِيدِ وَالتَّخْفِيف مِنْ قِبَلِي {عُذْرًا} فِي مُفَارَقَتك لِي.

فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَّ فَأَقَامَهُ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا (٧٧).

{فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا أَتَيَا أَهْل قَرْيَة} هِيَ أَنْطَاكِيَة {اسْتَطْعَمَا أَهْلهَا} طَلَبًا مِنْهُمْ الطَّعَام بِضِيَافَةٍ {فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا} ارْتِفَاعه مِائَة ذِرَاع {يُرِيد أَنْ يَنْقَضّ} أَيْ يَقْرُب أَنْ يَسْقُط لِمَيَلَانِهِ {فَأَقَامَهُ} الْخَضِر بِيَدِهِ {قَالَ} لَهُ مُوسَى {لَوْ شِئْت لَاتَّخَذْت} وَفِي قِرَاءَة لَتَخِذْت {عَلَيْهِ أَجْرًا} جُعْلًا حَيْثُ لَمْ يُضَيِّفُونَا مع جاجتنا إلى الطعام.

قَالَ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا (٧٨).

{قال} له الحضر {هَذَا فِرَاق} أَيْ وَقْت فِرَاق {بَيْنِي وَبَيْنك} فِيهِ إِضَافَة بَيْن إِلَى غَيْر مُتَعَدِّد سَوَّغَهَا تَكْرِيره بِالْعَطْفِ بِالْوَاوِ {سَأُنَبِّئُك} قَبْل فِرَاقِي لَك {بتأويل ما لم تستطع عليه صبرا}.

أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا (٧٩).

{أَمَّا السَّفِينَة فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ} عَشَرَة {يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْر} بِهَا مُؤَاجَرَة لَهَا طَلَبًا لِلْكَسْبِ {فَأَرَدْت أَنْ أَعِيبهَا وَكَانَ وَرَاءَهُمْ} إِذَا رَجَعُوا أَوْ أَمَامهمْ الْآن {مَلِك} كَافِر {يَأْخُذ كُلّ سَفِينَة} صالحة {غصبا} نَصْبه عَلَى الْمَصْدَر الْمُبَيِّن لِنَوْعِ الْأَخْذ.

وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَنْ يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا (٨٠).

{وَأَمَّا الْغُلَام فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَنْ يُرْهِقهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا} فَإِنَّهُ كَمَا فِي حَدِيث مُسْلِم طُبِعَ كَافِرًا وَلَوْ عَاشَ لَأَرْهَقَهُمَا ذَلِكَ لِمَحَبَّتِهِمَا لَهُ يَتَّبِعَانِهِ فِي ذَلِكَ.

فَأَرَدْنَا أَنْ يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا (٨١).

{فأردنا أن يدلهما} بِالتَّشْدِيدِ وَالتَّخْفِيف {رَبّهمَا خَيْرًا مِنْهُ زَكَاة} أَيْ صَلَاحًا

وَتُقًى {وَأَقْرَب} مِنْهُ {رُحْمًا} بِسُكُونِ الْحَاء وَضَمّهَا رَحْمَة وَهِيَ الْبِرّ بِوَالِدَيْهِ فَأَبْدَلَهُمَا تَعَالَى جَارِيَة تَزَوَّجَتْ نَبِيًّا فَوَلَدَتْ نَبِيًّا فَهَدَى الله تَعَالَى بِهِ أُمَّة.

وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا (٨٢).

{وَأَمَّا الْجِدَار فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَة وَكَانَ تَحْته كَنْز} مَال مَدْفُون مِنْ ذَهَب وَفِضَّة {لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا} فَحُفِظَا بِصَلَاحِهِ فِي أَنْفُسهمَا وَمَالهمَا {فَأَرَادَ رَبّك أَنْ يَبْلُغَا أَشَدّهمَا} أَيْ إينَاس رُشْدهمَا {وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزهمَا رَحْمَة مِنْ رَبّك} مَفْعُول لَهُ عَامِله أَرَادَ {وَمَا فَعَلْته} أَيْ مَا ذُكِرَ مِنْ خَرْق السَّفِينَةِ وَقَتْل الْغُلَام وَإِقَامَة الْجِدَار {عَنْ أَمْرِي} أَيْ اخْتِيَارِي بَلْ بِأَمْرِ إلْهَام مِنْ الله {ذَلِكَ تأويل ما لم تستطع عَلَيْهِ صَبْرًا} يُقَال اسْطَاعَ وَاسْتَطَاعَ بِمَعْنَى أَطَاقَ فَفِي هَذَا وَمَا قَبْله جَمْع بَيْن اللُّغَتَيْنِ وَنُوِّعَتْ الْعِبَارَة فِي فَأَرَدْت فَأَرَدْنَا فَأَرَادَ رَبّك[1].

---

(١) قوله تعالى: {وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِفَتَاهُ لَا أَبْرَحُ حَتَّى أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ} [الكهف: ٦٠].

قال الطبري: "يقول عز ذكره لنبيه ﷺ: واذكر يا محمد إذ قال موسى بن عمران لفتاه يوشع: {لا أبرح} يقول: لا أزال أسير {حتى أبلغ مجمع البحرين}".

قال مقاتل: "{وإذ قال موسى لفتاه} يوشع بن نون وهو ابن أخت موسى، من سبط يوسف بن يعقوب- عليهم السلام- {لا أبرح} يعني: لا أزال أطلب الخضر، وهو من ولد عاميل من بني إسرائيل، {حتى أبلغ مجمع البحرين}، يقال لأحدهما: الرش، وللآخر: الكر، فيجتمعان فيصيران نهرا واحدا ثم يقع في البحر من وراء أذربيجان".

=

=

قال الزجاج:"أحب الله ﷻ أن يعلم موسى - وإن كان قد أوتي التوراة أنه قد أوتي غيره من العلم أيضا ما ليس عنده، فوعد بلقاء الخضر".

قال الفراء:"وإنما سمي: «فتى موسى»، لأنه كان لازما له يأخذ عنه العلم. وهو يوشع بن نون".

عن عكرمة قال: "قيل لابن عباس: لم نسمع لفتى موسى يذكر من حديث، وقد كان معه، فقال ابن عباس فيما يذكر من حديث الفتى قال: شرب الفتى من الماء فخلد، فأخذه العالم فطابق به سفينة، ثم أرسله في البحر، فإنها لتموج به إلى يوم القيامة، وذلك أنه لم يكن له أن يشرب منه فشرب".

عن سعيد بن جبير قال قلت لابن عباس إن نوفا البكالي يزعم أن موسى - عليه السلام - صاحب بنى إسرائيل ليس هو موسى صاحب الخضر عليه السلام. فقال كذب عدو الله سمعت أبى بن كعب يقول سمعت رسول الله ﷺ يقول «قام موسى عليه السلام خطيبا في بنى إسرائيل فسئل أي الناس أعلم فقال أنا أعلم. قال فعتب الله عليه إذ لم يرد العلم إليه فأوحى الله إليه أن عبدا من عبادي بمجمع البحرين هو أعلم منك قال موسى أي رب كيف لي به فقيل له احمل حوتا في مكتل فحيث تفقد الحوت فهو ثم. فانطلق وانطلق معه فتاه وهو يوشع بن نون فحمل موسى - عليه السلام - حوتا في مكتل وانطلق هو وفتاه يمشيان حتى أتيا الصخرة.... قال يقصان آثارهما حتى أتيا الصخرة فرأى رجلا مسجى عليه بثوب فسلم عليه موسى. فقال له الخضر أنى بأرضك السلام قال أنا موسى. قال موسى بنى إسرائيل قال نعم. قال إنك على علم من علم الله علمكه الله لا أعلمه وأنا على علم من علم الله علمنيه لا تعلمه. قال له موسى - عليه السلام - هل أتبعك على أن تعلمني مما علمت رشدا....) متفق عليه.

قال القرطبي:"الجمهور من العلماء وأهل التاريخ أنه موسى بن عمران المذكور

=

=

في القرآن ليس فيه موسى غيره. وقالت فرقة منها نوف البكالي: إنه ليس ابن عمران وإنما هو موسى بن منشا بن يوسف بن يعقوب وكان نبيا قبل موسى ابن عمران. وقد رد هذا القول ابن عباس في صحيح البخاري وغيره. و «فتاه»: هو يوشع بن نون. وقد مضى ذكره في «المائدة»، وآخر «يوسف». ومن قال هو ابن منشا فليس الفتى يوشع بن نون".

وفي قوله تعالى: {لَا أَبْرَحُ} [الكهف: ٦٠]، وجوه من التفسير:

أحدها: لا أفارقك، حكاه الماوردي، والقرطبي، وانشدا قول الشاعر:

إذا أنت لم تبرح تؤدي أمانةً... وتحمل أُخرى أثقلتك الودائع

الثاني: لا أزال، قاله مقاتل، والفراء، والاخفش، والزجاج، ومنه قول الشاعر:

وأبرح ما أدام اللهُ قومي... بحمد الله منتطقًا مجيدًا

أي: لا أزل.

وقول الآخر:

وما برحوا حتى تهادت نساؤهم... ببطحاء ذي قار عياب اللطائم

أي: ما زالوا.

قال الزجاج:"معنى {لا أبرح}: لا أزال، ولو كان لا أزول كان محالا، لأنه إذا لم يزل من مكانه لم يقطع أرضا".

الثالث: لا أنتهي. وهذا قول ابن زيد.

قال ابن الجوزي:"المعنى: لا أزال أسير حتى أبلغ مجمع البحرين، أي: ملتقاهما، وهو الموضع الذي وعده الله بلقاء الخضر فيه".

وفي: {مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ} [الكهف: ٦٠]، ثلاثة أقوال:

أحدها: أنه مجمع النهرين: «الكُرّ والرَّسّ»، حيث يصبان في البحر. قاله السدي، ومقاتل.

=

=

وقال مقاتل:"الرس، والكر، فيجتمعان فيصيران نهرا واحدا ثم يقع في البحر من وراء أذربيجان".

قال أبو السعود والألوسي:"وقيل هما «الكُرّ والرَّسّ» بأرمينية".

وقيل: أنهما يصبان في بحر جرجان.

الثاني: أن المراد بـ«مجمع البحرين»: الخضرُ وإلياس، وهما بحران في العلم، حكاه الماوردي عن السدي.

قلت: وهذا القول ضعيف، لا يقتضيه اللفظ -والله أعلم-.

الثالث: أن المراد بـ«مجمع البحرين»: اجتماع موسى والخضر؛ لأنهما بحرا علم. حكاه القرطبي عن ابن عباس.

قال القرطبي:"وهذا قول ضعيف، لا يصح؛ فإن الأمر بيِّن من الأحاديث أنه إنما وُسم له بحر ماء".

وقال ابن حجر: "وهذا غير ثابت ولا يقتضيه اللفظ، وإنما يحسن أن يذكر في مناسبة اجتماعهما بهذا المكان المخصوص، كما قال السهيلي: اجتمع البحران بمجمع البحرين".

الثالث: أنه بحر الأندلس من البحر المحيط، قال القرطبي:"حكاه النقاش، وهذا مما يذكر كثيرا".

الرابع: يعني: بحر الروم وبحر فارس أحدهما قبل المشرق، والآخر قبل المغرب. قاله مجاهد، وقتادة، ويحيى بن سلام، والفراء.

قال ابن عطية:"«مجمع البحرين»: ذراع في أرض فارس من وراء أذربيجان يخرج من البحر المحيط من شماليه إلى جنوبيه مما يلي بر الشام".

قلت: لم يبين الله سبحانه وتعالى أي البحرين هما، ولا جاءنا خبر صحيح عن الرسول ﷺ في بيان ذلك، وعدم معرفة ذلك لا يضرنا شيئا؛ فإن معرفة ذلك

=

=

وعدمه لا يترتب عليه أمر ديني.

وفي اسم البلد الذي بمجمع البحرين، قولان:

أحدهما: أنه إفريقية، قاله أبي بن كعب.

والثاني: طنجة، قاله محمد بن كعب القرظي.

قوله تعالى: {أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا} [الكهف: ٦٠]، أي:"أو أسير زمانًا إلى أن أبلغ ذلك المكان".

قال الطبري:"يقول: أو أسير زمانا ودهرا".

وفي قوله تعالى: {أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا} [الكهف: ٦٠]، وجوه:

أحدها: أن «الحقب»: ثمانون سنة، قاله عبد الله بن عمرو، والزجاج.

الثاني: أنه سبعون سنة، قاله مجاهد.

الثالث: أن «الحقب» الزمان، قاله قتادة، وابن زيد، وأبو عبيدة.

الرابع: أنه الدهر، قاله ابن عباس، ومقاتل، واختاره الطبري، ومنه قول امرئ القيس:

نحن الملوك وأبناء الملوك، لنا... مِلكٌ به عاش هذا الناس أحقابا

الخامس: أن «الحقب» في لغة قيس: «سنة»، قاله الكلبي، والفراء.

وقرأ أبو رزين، والحسن، وأبو مجلز، وقتادة، والجحدري، وابن يعمر: «حقبا» بإسكان الكاف.

* قوله تعالى: (وإذ قال موسى) المراد به موسى بن عمران الرسول النبي رسول بني إسرائيل، وهذا مذهب أكثر العلماء.

ويدل عليه الحديث الذي رواه البخاري وسأذكره بعد قليل إن شاء الله.

(لفتاه) يوشع بن نون وهو من أنبياء بني إسرائيل، وقد ورد اسمه في الحديث الذي سأذكره بعد قليل.

=

=

- **قال الماوردي**: قوله تعالى (وإذ قال موسى لفتاه) يعني يوشع بن نون وهو ابن أخت موسى وسمي فتاه لملازمته إياه، قيل في العلم، وقيل في الخدمة، وهو خليفة موسى على قومه من بعده.

- وقال ابن عطية: والفتي في كلام العرب الشاب، ولما كان الخدمة أكثر ما يكونون فتيانا، قيل للخادم فتى، على جهة حسن الأدب، وندبت الشريعة إلى ذلك في قول النبي ﷺ: لا يقل أحدكم عبدي ولا أمتي وليقل فتاي وفتاتي "، فهذا ندب إلى التواضع، و" الفتى " في الآية هو الخادم. ومما ورد في قصة يوشع بن نون: أن الشمس قد حبست له.

فقد روى أحمد في مسنده أن النبي ﷺ قال (إن الشمس لم تحبس على بشر إلا ليوشع بن نون ليالي سار إلى بيت المقدس).

وقد جاء في الصحيحين من حديث أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ (غزا نبي من الأنبياء فقال لقومه لا يتبعني رجل قد ملك بضع امرأة وهو يريد أن يبنى بها ولما يبن ولا آخر قد بنى بنيانا ولما يرفع سقفها ولا آخر قد اشترى غنما أو خلفات وهو منتظر ولادها. قال فغزا فأدنى للقرية حين صلاة العصر أو قريبا من ذلك فقال للشمس أنت مأمورة وأنا مأمور اللهم احبسها على شيئا. فحبست عليه حتى فتح الله عليه -قال- فجمعوا ما غنموا فأقبلت النار لتأكله فأبت أن تطعمه فقال فيكم غلول فليبايعني من كل قبيلة رجل. فبايعوه فلصقت يد رجل بيده فقال فيكم الغلول فلتبايعني قبيلتك. فبايعته-قال فلصقت بيد رجلين أو ثلاثة فقال فيكم الغلول أنتم غللتم -قال- فأخرجوا له مثل رأس بقرة من ذهب -قال- فوضعوه في المال وهو بالصعيد فأقبلت النار فأكلته. فلم تحل الغنائم لأحد من قبلنا ذلك بأن الله تبارك وتعالى رأى ضعفنا وعجزنا فطيبها لنا...). متفق عليه.

(لا أبرح حتى أبلغ مجمع البحرين أو أمضي حقبا) لا أبرح: أي لا أزال سائرا

=

=

حتى (أبلغ مجمع البحرين): أي هذا المكان الذي فيه مجمع البحرين، أي ملتقاهما، وهذا الموضع هو الذي وعده الله بلقاء الخضر فيه. واختلف أين هما؟

فقيل: هما بحر فارس مما يلي المشرق وبحر الروم مما يلي المغرب.

وقيل: عند طنجة، يعني في أقصى المغرب. وقيل: غير ذلك.

(أو أمضي حقبا) أو أسير زمنا طويلا حتى أصل إلى العبد الصالح؛ لأتعلم منه ما ليس عندي من العلم.

قال الزجاج: قال عبد الله بن عمرو: الحقب ثمانون سنة، مجاهد: سبعون خريفا، قتادة: زمان.

النحاس: الذي يعرفه أهل اللغة أن الحقب والحقبة زمان من الدهر مبهم غير محدود؛ كما أن رهطا وقوما مبهم غير محدود: وجمعه أحقاب.... (تفسير القرطبي)

وسبب قول موسى ذلك: جاء بيانه في الحديث.

قوله تعالى: {فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا} [الكهف: ٦١].

قال الطبري:"يعني تعالى ذكره: فلما بلغ موسى وفتاه مجمع البحرين، تركا {حوتهما}".

عن مجاهد: قوله " {مجمع بينهما}، قال: بين البحرين، {نسيا حوتهما}، قال: أضلاه".

قال الفراء:"وإنما نسيه يوشع فأضافه إليهما، كما قال: {يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ} [الرحمن: ٢٢]، وإنما يخرج من الملح دون العذب"، ومثله في الكلام أن تقول: عندي دابتان أركبهما وأستقي عليهما، وإنما يركب إحداهما ويستقى على الأخرى وقد يمكن أن يكونا جميعا تركبان ويستقى عليهما. وهذا من سعة العربية التي يحتج بسعتها".

=

=

قال ابن قتيبة:"روي في التفسير: أن النّاسي كان يوشع بن نون ويدلّك قوله لموسى، ﷺ: {فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ} [الكهف: ٦٣]".

قال ابن عثيمين:"نسيان ذهول وليس نسيان ترك، وهذا من حكمة الله ﷻ، أن الله أنساهما ذلك لحكمة، وهذا الحوت قد جعله الله سبحانه وتعالى علامة لموسى، أنك متى فقدت الحوت فثَم الخضر، وهذا الحوت كان في مِكْتَل وكانا يقتاتان منه، ولما وصلا إلى مكان ما ناما فيه عند صخرة، فلما استيقظا وإذا الحوت ليس موجودًا، لكنه أي: الفتى لم يتفقد المكتل ونسي شأنه وأمره، هذا الحوت - سبحان الله - خرج من المكتل، ودخل في البحر وجعل يسير في البحر، والبحر ينحاز عنه".

قوله تعالى: {فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا} [الكهف: ٦١]، أي:"فاتخذ الحوت سبيله في البحر مسلكًا".

عن مجاهد:"{فاتخذ سبيله في البحر سربا}، قال: الحوت اتخذ".

قال الطبري:"يعني بالـ«سرب»: المسلك والمذهب، يسرب فيه: يذهب فيه ويسلكه".

قال أبو عبيدة:"أي: مسلكا ومذهبا أي يسرب فيه، وفى آية أخرى: {وَسَارِبٌ بِالنَّهَار} [الرعد: ١٠]".

قال ابن قتيبة:"أي: فاتخذ الحوت طريقه في البحر، مذهبا ومسلكا".

قال ابن عثيمين:"{سَرَبًا}، أي: مثل السرب، والسرب هو السرداب يعني أنه يشق الماء ولا يتلاءم الماء، وهذا من آيات الله، وإلا فقد جرت العادة أن الحوت إذا انغمر في البحر يتلاءم البحر عليه، لكن هذا الحوت من آيات الله، أولًا: أنه قد مات، وأنهما يقتاتان منه، ثم صار حيًا ودخل البحر ثانيًا: أنه صار طريقه على هذا الوجه، وهذا من آيات الله تبارك وتعالى".

=

=

وفي قوله تعالى: {فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا} [الكهف: ٦١]، ثلاثة وجوه:

أحدها: معناه: صار طريقه الذي يسلك فيه كالجحر. قاله ابن عباس.

قال ابن عباس:"جاء فرأى أثر جناحيه في الطين حين وقع في الماء، قال ابن عباس {فاتخذ سبيله في البحر سربا}، وحلق بيده".

عن أبي بن كعب، قال: قال رسول الله ﷺ حين ذكر حديث ذلك: "ما انجاب ماء منذ كان الناس غيره ثبت مكان الحوت الذي فيه فانجاب كالكوة حتى رجع إليه موسى، فرأى مسلكه، فقال: ذلك ما كنا نبغي".

الثاني: معناه: صار طريقه في البحر ماء جامدا. وهذا قول قتادة، وبه قال الفراء.

قال قتادة:"سرب من الجر حتى أفضى إلى البحر، ثم سلك، فجعل لا يسلك فيه طريقا إلا صار ماء جامدا".

قال الفراء:"كان مالحا فلما حيي بالماء الذي أصابه من العين فوقع في البحر جمد طريقه فى البحر فكان كالسرب".

الثالث: معناه: صار طريقه في البحر حجرا. وهذا القول مروي عن ابن عباس أيضا.

قال ابن عباس:"حمل الحوت لا يمس شيئا من البحر إلا يبس حتى يكون صخرة".

الرابع: معناه: اتخذ سبيله سربا في البر إلى الماء، حتى وصل إليه لا في البحر. وهذا قول ابن زيد.

قال ابن زيد:"حشر الحوت في البطحاء بعد موته حين أحياه الله، قال ابن زيد، وأخبرني أبو شجاع أنه رآه قال: أتيت به فإذا هو شقة حوت وعين واحدة، وشق آخر ليس فيه شيء".

وقال ابن زيد:"دخل الحوت في البطحاء بعد موته حين أحياه الله، ثم اتخذ فيها

=

=

سربا حتى وصل إلى البحر. والسرب، طريق حتى وصل إلى الماء وهي بطحاء يابسة في البر، بعد ما أكل منه دهرا طويلا وهو زاده، ثم أحياه الله".

قال الطبري: "والصواب من القول في ذلك أن يقال كما قال الله ﷻ: واتخذ الحوت طريقه في البحر سربا. وجائز أن يكون ذلك السرب كان بانجياب عن الأرض، وجائز أن يكون كان بجمود الماء، وجائز أن يكون كان بتحوله حجرا.

وأصح الأقوال فيه ما روي الخبر به عن رسول الله ﷺ الذي ذكرنا عن أبيّ عنه".

الخامس: يعني اتخذ الحوت طريقه في البحر كهيئة فم القربة. قاله مقاتل.

* (فلما بلغا مجمع بينهما نسيا حوتهما)) أي فلما بلغ موسى وفتاه مجمع البحرين نسي يوشع أن يخبر موسى بأمر الحوت وما شاهده منه من الأمر العجيب.

والحوت هو الذي أمر الله موسى باستصحابه معه ليكون له علامة على المكان الذي فيه الخضر كما تقدم في سياق الحديث.

قال ابن كثير: وذلك أنهما قد أمر بحمل حوت مملوح معه، وقيل له: متى فقدت الحوت فهو ثم، فسارا حتى بلغا مجمع البحرين، وهناك عين يقال لها عين الحياة، فناما هنالك، وأصابا الحوت من رشاش ذلك الماء، فاضطرب وكان في مكتل مع يوشع، وطفر من المكتل إلى البحر، فاستيقظ يوشع وسقط الحوت في البحر فجعل يسير في الماء والماء له مثل الطاق لا يلتئم بعده.

- قوله (نسيا...) النسيان كان من يوشع بن نون لوحده ونسب إليهما.

- قال الجصاص: قوله تعالى نسيا حوتهما) الناسي له كان يوشع بن نون، فأضاف النسيان إليهما كما يقال: نسي القوم زادهم، وإنما نسيه أحدهم، وكما قال النبي ﷺ لمالك بن الحويرث ولابن عم له (إذا سافرتما فأذنا وأقيما وليؤمكما أحدكما) وإنما يؤذن ويقيم أحدهما، وقال (يا معشر الجن والإنس ألم يأتكم

=

=

رسل منكم) وإنما هم من الإنس.

- وقال الشنقيطي: ولكنه تعالى أوضح أن النسيان واقع من فتى موسى ؛ لأنه هو الذي كان تحت يده الحوت، وهو الذي نسيه، وإنما أسند النسيان إليهما: لأن إطلاق المجموع مرادا بعضه أسلوب عربي كثير في القرآن وفي كلام العرب،... والدليل على أن النسيان إنما وقع من فتى موسى دون موسى قوله تعالى عنهما (فلما جاوزا قال لفتاه آتنا غداءنا لقد لقينا من سفرنا هذا نصبا قال أرأيت إذ أوينا إلى الصخرة فإني نسيت الحوت وما أنسانيه إلا الشيطان أن أذكره) لأن قول موسى: «آتنا غداءنا» يعني به الحوت فهو يظن أن فتاه لم ينسه، كما قاله غير واحد، وقد صرح فتاه: بأنه نسيه بقوله: فإني نسيت الحوت وما أنسانيه إلا الشيطان الآية.

(فاتخذ سبيله في البحر سربا) أي اتخذ الحوت سبيله في البحر مسلكا، قال المفسرون: كان الحوت مشويا فخرج من المكتل ودخل في البحر وأمسك الله جرية الماء على البحر فصار كالطاق عليه وجمد الماء حوله وكان ذلك آية من آيات الله الباهرة لموسى عليه السلام.

قوله تعالى: {فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَاهُ آتِنَا غَدَاءَنَا} [الكهف: ٦٢]، أي:"فلما فارقا المكان الذي نسيا فيه الحوت وشعر موسى بالجوع، قال لخادمه: أحضر إلينا غداءنا".

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: {فلما جاوزا} موسى وفتاه مجمع البحرين، {قال} موسى {لفتاه} يوشع: جئنا بغدائنا وأعطناه".

قوله تعالى: {لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا} [الكهف: ٦٢]، أي:"لقد لقينا من سفرنا هذا تعبًا".

قال مقاتل:"يعني: مشقة في أبداننا".

=

=

قال يحيى بن سلام:"شدة، يعني: نصب السفر".

قال الطبري:"يقول: لقد لقينا من سفرنا هذا عناء وتعبا، وقال ذلك موسى، فيما ذكر، بعد ما جاوز الصخرة، حين ألقي عليه الجوع ليتذكر الحوت، ويرجع إلى موضع مطلبه".

قال ابن عباس:"إن موسى عليه السلام شق الحوت وملحه وتغدى منه وتعشى، فلما كان من الغد قال لفتاه آتنا غداءنا لقد لقينا من سفرنا هذا نصبا".

قال سعيد بن جبير:"كان مملوحا [أي: الحوت] مشقوق البطن".

عن قتادة-من طريق سعيد- قال: ذُكر لنا: "أن موسى لَمّا قطع البحر، وأنجاه الله من آل فرعون؛ جمع بني إسرائيل، فخطبهم، فقال: أنتم اليوم خيرُ أهل الأرض وأعلمُه؛ قد أهلك الله عدوكم، وأقطعكم البحر، وأنزل عليكم التوراة. قال: فقيل له: إنّ هاهنا رجلًا هو أعلم منك. فانطلق هو وفتاه يوشع بن نون يطلبانه، وتزوَّدا مملوحة في مكتل لهما، وقيل لهما: إذا نسيتما بعض ما معكما لقيتما رجلًا عالِمًا يُقال له: خضر. فلما أتيا ذلك المكان ردَّ الله إلى الحوت روحَه، فسرب له من الجُدِّ حتى أفضى إلى البحر، ثم سلك، فجعل لا يسلك فيه طريقًا

إلا صار الماء جامدًا، ومضى موسى وفتاه، {فلما جاوزا قال لفتاه ءاتنا غداءنا لقد لقينا من سفرنا هذا نصبا}".

* (فلما جاوزا) أي موسى وفتاه جاوزا ذلك المكان وهو مجمع البحرين.

(قال) موسى لفتاه.

(لفتاه آتنا غداءنا لقد لقينا من سفرنا هذا نصبا) أي لقينا في هذا السفر التعب والعناء والمشقة.

قوله تعالى: {قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ} [الكهف: ٦٣].

=

=

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: قال فتى موسى لموسى حين قال له: آتنا غداءنا لنطعم: أرأيت إذا أوينا إلى الصخرة فإني نسيت الحوت هنالك".

عن السُّدِّيّ: " {قال أرأيت إذ أوينا}، يعني: إذ انتهينا، {فإني نسيت}، يعني: لم أحفظ ذكره".

قال مقاتل:"والصخرة بأرض تُسَمّى: مروان، على ساحل بحر أيلة، وعندها عين تسمى: عين الحياة... {قال} يوشع لموسى: {أرأيت إذ أوينا إلى الصخرة} يعني: انتهينا إلى الصخرة، وهي في الماء".

قال الزجاج:"والصخرة موضع المَوْعِد".

قال سفيان: "يزعم ناسٌ أنّ تلك الصخرة عندها عين الحياة، ولا يصيب ماؤها ميتًا إلا عاش. قال: وكان الحوت قد أُكِل منه، فلمّا قطر عليه الماء عاش".

قال هقل بن زياد: "هي الصخرة التي دون نهر الزيت".

عن محمد بن معقل، عن أبيه: "أنّ الصخرة التي أوى إليها موسى هي الصخرة التي دون نهر الزِّيبِ على الطريق".

قوله تعالى: {وَمَا أَنْسَانِيهُ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ} [الكهف: ٦٣]، أي:"وما أنساني أن أذكر ذلك لك إلا الشيطان".

قال الطبري:"وما أنساني أن أذكر الحوت إلا الشيطان".

قال الثعلبي:"يعني: ما أنسانيه لأن لا أذكره، وقيل: فيه تقديم وتأخير، مجازه: وما أنسانيه أن أذكره إلا الشيطان".

عن ابن عباس:": {وَمَا أَنْسَانِيهُ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ} لك".

وفي مصحف عبد الله: «وما أنسانيه أن أذكره إلا الشيطان».

وفي قراءة أبيّ: «وما أنسانيه إلا الشيطان إن أذكر له».

قوله تعالى: {وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا} [الكهف: ٦٣]، أي:"واتخذ الحوتُ

=

=

طريقة في البحر وكان أمره عجبًا".

قال الفراء:"يقول: اتخذ موسى سبيل الحوت {في البحر عجبا}".

عن مجاهد، قوله: " {في البحر عجبا}، قال: موسى يعجب من أثر الحوت في البحر ودوراته التي غاب فيها، فوجد عندها خضرا".

عن محمد بن معقل، عن أبيه: " يعجب منه".

قال قتادة:"أتي الحوت على عين في البحر يقال لها: عين الحياة، فلما أصاب تلك العين رد الله إليه روحه".

* (قال أرأيت إذ أوينا إلى الصخرة فإني نسيت الحوت) أي قال الفتى يوشع حين طلب موسى منه الحوت للغداء أرأيت حين التجأنا إلى الصخرة التي نمت عندها ماذا حدث من الأمر العجيب؟ لقد خرج الحوت من المكتل ودخل البحر وأصبح عليه مثل الكوة، وقد نسيت أن أذكر لك ذلك حين استيقظت.

(وما أنسانيه إلا الشيطان أن أذكره) لأنه هو السبب.

- **قال الشنقيطي**: في الآية دليل على أن النسيان من الشيطان كما دلت عليه آيات أخر، كقوله تعالى (وإما ينسينك الشيطان فلا تقعد بعد الذكرى مع القوم الظالمين) وقوله تعالى (استحوذ عليهم الشيطان فأنساهم ذكر الله).

(واتخذ سبيله في البحر عجبا) أي واتخذ الحوت طريقه في البحر وكان أمره عجبا.

- قال بعض العلماء وجه التعجب لأمور:

أولا: أن الحوت كان ميتا فأحياه الله ثم هرب الحوت إلى البحر.

الثاني: أن الله أمسك جرية الماء فلم ينضم الماء إلى بعض بعد سريان الحوت فيه بل كان مسيره خطا في الماء.

والثالث: أن الحوت كلما مر على شيء تجمد تحته ويبس.

قوله تعالى: {قَالَ ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ} [الكهف: ٦٤].

=

=

قال الطبري:"ف {قال} موسى لفتاه: نسيانك الحوت الذي كنا نلتمس ونطلب، لأن موسى كان قيل له صاحبك الذي تريده حيث تنسى الحوت".

قال الزجاج:"أي: ما كنا نريد، لأنه وعد بالخَضِر في ذلك المكان الذي تتسرب فيه السمكة".

قال مجاهد:"قال موسى: فذلك حين أخبرت أني واجد خضرا حيث يفوتني الحوت". وفي لفظ:"حيث يفارقني الحوت".

الأكثر في الوقف: {نَبْغِ} على اتباع المصحف. وبعد {نبغ} آيةً ويجوز وهو أحسن في العربية {ذلك ما كنا نبغي} في الوقف. أما الوصل فالأحسن فيه {نبغي} بإثبات الياء، وهذا مذهب أبي عمرو، وهو أقوى في العربية.

قوله تعالى: {فَارْتَدَّا عَلَى آثَارِهِمَا قَصَصًا} [الكهف: ٦٤]، أي:"فرجعا يقصان آثار مشيهما حتى انتهيا إلى الصخرة".

قال الطبري:"يقول: فرجعا في الطريق الذي كانا قطعاه ناكصين على أدبارهما يمصان آثارهما التي كانا سلكاهما".

قال الزجاج:"أي: رجعا في الطريق الذي سلكاه يقصان الأثَر قَصَصًا، و (القصص): اتباع الأثر".

عن قتادة:"{فَارْتَدَّا عَلَى آثَارِهِمَا قَصَصًا}، قال: عودهما على بدئهما".

قال مجاهد:"اتبع موسى وفتاه أثر الحوت، فشقا البحر راجعين".

قال سفيان: يزعم ناس إن تلك الصخرة عندها عين الحياة. ولا يصيب ماؤها ميتا إلا عاش. قال: وكان الحوت قد أكل منه. فما قطر عليه الماء عاش".

وقوله (قال ذلك ما كنا نبغ) قال موسى: أي هذا هو الذي نطلب.

(فارتدا على آثارهما قصصا) فارتدا: أي رجعا، على آثارهما: أي طريقهما، قصصا: أي يقصان أثار مشيهما ويقفوان أثرهما.

=

=

قوله تعالى: {فَوَجَدَا عَبْدًا مِنْ عِبَادِنَا} [الكهف: ٦٥].

قال قتادة:"لقيا رجلا عالما يقال له: خضر".

قال قتادة:"فلقيا رجلا عالما يقال له الخضر، فذكر لنا أن نبي الله ﷺ قال: "إنما سمي الخضر خضرا لأنه قعد على فروة بيضاء، فاهتزت به خضراء".

قال الزجاج:"وفيما فعله موسى - وهو من جلَّةِ الأنبياء، وقد أوتيَ التوراةَ- من طلبه العلم والرحلة في ذلك ما يدل على أنه لا ينبغي لأحَدٍ أن يترك طلب العلم. وإن كان قد بلغ نهايته وأحاط بأكثر ما يدركه أهل زمانه، وأنْ يتواضع لمن هو أعلم منه".

قوله تعالى: {آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا} [الكهف: ٦٥]، أي:"وهبناه نعمة عظيمة وفضلًا كبيرًا".

قال قتادة:"أي: من عندنا علما".

قال ابن عباس:"أعطيناه الهدى والنبوة".

قال مقاتل:"يقول: أعطيناه النِّعْمَة، وهي النبوة".

قال الطبري:"يقول: وهبنا له رحمة من عندنا".

* (فوجدا عبدا من عبادنا) وهو الخضر - عليه السلام -، في قول جمهور المفسرين. قاله الشوكاني. كما دل عليه الحديث الذي سبق، وفي الحديث (... حتى انتهيا إلى الصخرة، فإذا رجل مسجى بثوب فسلم عليه موسى، فقال الخضر: وأنى بأرضك السلام، فقال: أنا موسى، فقال: موسى بني إسرائيل؟ قال: نعم، أتيتك لتعلمني مما علمت رشدا).

- وسبب تسميته بذلك: ما رواه البخاري عن أبي هريرة. قال: قال رسول الله ﷺ (إنما سمي الخضر لأنه جلس على فروة بيضاء فإذا هي تهتز من خلفه خضراء).

- والمراد بالفروة البيضاء الحشيش الأبيض.

=

=

(آتيناه رحمة من عندنا) قال أكثر المفسرين الرحمة هنا النبوة كما في تفسير القرطبي.

استدل العلماء بهذه الآية على نبوة الخضر (وسيأتي بالفوائد بقية الأدلة إن شاء الله).

وقد جاءت الرحمة بمعنى النبوة في آيات:

كقوله تعالى (وقالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم. أهم يقسمون رحمة ربك).

وقوله تعالى (وما كنت ترجو أن يلقى إليك الكتاب إلا رحمة من ربك).

ومن رجح أن الرحمة هنا النبوة: القرطبي، والواحدي، والزمخشري، والرازي، وأبو حيان، والبيضاوي، والشنقيطي.

(وعلمناه من لدنا علما) المراد -والله أعلم- بعض ما يتعلق بعلم الغيب. (من لدنا) تفخيم لشأن ذلك العلم وتعظيم له.

- **قال السعدي**: وعلمناه من لدنا: أي من عندنا، علما: وكان قد أعطي من العلم ما لم يعط موسى، وإن كان موسى أعلم منه بأكثر الأشياء، خصوصا في العلوم الإيمانية والأصولية، لأنه من أولي العزم من المرسلين، الذين فضلهم الله على سائر الخلق بالعلم والعمل وغير ذلك.

فلما اجتمع به موسى، قال له على وجه الأدب:

قوله تعالى: {قَالَ لَهُ مُوسَى هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا (٦٦)} [الكهف: ٦٦]

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: قال موسى للعالم: {هل أتبعك على أن تعلمني} من العلم الذي علمك الله ما هو رشاد إلى الحق، ودليل على هدى؟".

قال مكي:"أي: قال: موسى للخضر هل أتبعك على أن تعلمني مما علمك الله

=

=

رشدًا إلى الحق ودليلًا على الهدى".

قال النحاس:"هذا سؤال الملاطف والمخاطب المبالغ في حسن الأدب والمعنى هل يتفق لك ويخف عليك أن تأذن لي في مرافقتك لأقتبس من علمك ما يرشدني".

قال ابن عباس:"فرجعا يقصان آثارهما حتى انتهيا إلى الصخرة، فإذا رجل مسجى بثوب فسلم عليه موسى، فقال الخضر: وأنى بأرضك السلام؟ قال: أنا موسى. قال: موسى بن إسرائيل؟ قال: نعم أتيتك لتعلمني مما علمت رشدا".

وفي رواية عن ابن عباس:"فسلم كل واحد منهما على صاحبه، فقال له موسى: إني أريد إن تصحبني".

قال قتادة: "لو كان أحد مكتفيًا من العلم لاكتفى موسى نبي الله حيث قال: {هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَنِ}".

وقوله (قال له موسى هل أتبعك على أن تعلمني مما علمت رشدا) يخبر تعالى عن قيل موسى عليه السلام لذلك الرجل العالم وهو الخضر، الذي خصه الله بعلم لم يطلع عليه موسى، كما أنه أعطى موسى العلم ما لم يعطه الخضر (هل أتبعك) سؤال تلطف لا على وجه الإلزام والإخبار، وهكذا ينبغي أن يكون سؤال المتعلم من العالم (أتبعك) أي أصحبك وأرافقك.

(على أن تعلمني مما علمت رشدا) أي مما علمك الله شيئا استرشد به في أمري من علم نافع وعمل صالح.

- **قال الرازي**: اعلم أن هذه الآيات تدل على أن موسى ﷺ راعى أنواعا كثيرة من الأدب واللطف عندما أراد أن يتعلم من الخضر.

فأحدها: أنه جعل نفسه تبعا له لأنه قال (هل أتبعك).

وثانيها: أن استأذن في إثبات هذا التبعية فإنه قال هل تأذن لي أن أجعل نفسي تبعا

=

=

لك وهذا مبالغة عظيمة في التواضع.

وثالثها: أنه قال على أن (تعلمني) وهذا إقرار له على نفسه بالجهل وعلى أستاذه بالعلم.

ورابعها: أنه قال (مما علمت) وصيغة من للتبعيض فطلب منه تعليم بعض ما علمه الله، وهذا أيضا مشعر بالتواضع كأنه يقول له لا أطلب منك أن تجعلني مساويا في العلم لك، بل أطلب منك أن تعطيني جزأ من أجزاء علمك، كما يطلب الفقير من الغني أن يدفع إليه جزأ من أجزاء ماله.

وخامسها: أن قوله (مما علمت) اعتراف بأن الله علمه ذلك العلم.

وسادسها: أن قوله (رشدا) طلب منه للإرشاد والهداية والإرشاد هو الأمر الذي لو لم يحصل لحصلت الغواية والضلال.

قوله تعالى: {قَالَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا (٦٧)} [الكهف: ٦٧]

قال ابن عباس:"يقول: لا تطيق ذلك"، "يا موسى، إني على علم من علم الله علمنيه لا تعلمه أنت، وأنت على علم من علم الله علمك الله لا أعلمه".

قال ابن عباس: "يريد: لن تصبر على صنيعي؛ لأني علمت علم غيب، علم ربي".

قال الزجاج:"هدا قول الخضر لموسى".

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: قال العالم: إنك لن تطيق الصبر معي، وذلك أني أعمل بباطن علم علمنيه الله، ولا علم لك إلا بظاهر من الأمور، فلا تصبر على ما ترى من الأفعال".

قال مكي:"أي: إني أعلم بباطن علم علمنيه الله -ﷻ- ولا تعلم أنت إلا بالظاهر من الأمور فلا تصبر على ما ترى مني لأن أفعالي بغير دليل في رأي العين".

أي (قال) الخضر لموسى. (إنك لن تستطيع معي صبرا) أي إنك لا تقدر على مصاحبتي لما ترى مني من الأفعال التي تخالف شريعتك، لأني على علم من علم

=

=

الله ما علمكه الله، وأنت على علم من علم الله ما علمنيه الله.

قوله تعالى: {وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا (٦٨)} [الكهف: ٦٨]

قال الطبري:"يقول عز ذكره مخبرا عن قول العالم لموسى: وكيف تصبر يا موسى على ما ترى مني من الأفعال التي لا علم لك بوجوه صوابها، وتقيم معي عليها، وأنت إنما تحكم على صواب المصيب وخطأ المخطئ بالظاهر الذي عندك، وبمبلغ علمك، وأفعالي تقع بغير دليل ظاهر لرأي عينك على صوابها، لأنها تبتدئ لأسباب تحدث آجلة غير عاجلة، لا علم لك بالحادث عنها، لأنها غيب، ولا تحيط بعلم الغيب علما".

قال الزجاج:"ثم أعلمه العلة في ترك الصبر فقال: وكيف تصبر على ما ظاهره منكر، والأنبياء والصالحون لا يصبرون على ما يرونه منكرا".

قال النحاس:"أعلمه العلة في ترك الصبر فقال: وكيف تصبر على ما ظاهره خطأ ولم تخبر بوجه الحكمة فيه والأنبياء لا يقرون على منكر ولا يسعهم التقرير، أي: لا يسعك السكوت جريا على عادتك وحكمك".

قال مقاتل:"قال الخضر- عليه السلام- كفى بالتوراة علما وببني إسرائيل شغلا، فأعاد موسى الكلام فقال الخضر: {إنك لن تستطيع معي صبرا}، قال موسى: ولم؟ قال: لأني أعمل أعمالا لا تعرفها ولا تصبر على ما ترى من العجائب حتى تسألني عنه {وكيف تصبر على ما لم تحط به خبرا}، يعني: علما".

قال النسفي: "علل ذلك بأنه تولى أمورا هي في ظاهرها مناكير والرجل الصالح لا يتمالك أن يجزع إذا رأى ذلك فكيف إذا كان نبيا".

أي: وكيف تصبر على أمر، ما أحطت بباطنه وظاهره، ولا علمت المقصود منه ومآله؟

قوله تعالى: {قَالَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللهُ صَابِرًا} [الكهف: ٦٩].

=

=

قال الطبري:"قال: {ستجدني إن شاء الله صابرا}، على ما أرى منك وإن كان خلافا لما هو عندي صواب".

قال النحاس:"هذا قول موسى للخضر، أي: سأصبر بمشيئة الله".

قال مكي:"أي: اصبرعلى ما أرى منك وإن كان خلافًا لحكم الظاهر".

قال النسفي: أي:"من الصابرين عن الانكار والاعتراض".

قوله تعالى: {وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا} [الكهف: ٦٩]، أي:"ولا أخالف لك أمرًا تأمرني به".

قال الطبري:"يقول: وأنتهي إلى ما تأمرني، وإن لم يكن موافقا هواي".

قال مكي:"أي: وأنتهي إلى ما تأمرني وإن كان مخالفًا لهواي".

قال النحاس:"أي: قد ألزمت نفسي طاعتك ولن أعصي أمرك إن شاء الله".

قال مقاتل:"فلم يصبر موسى ولم يأثم بقوله ستجدني إن شاء الله صابرا على ما أرى من العجائب فلا أسألك عنها {ولا أعصي لك أمرا}، فيما أمرتني به أو نهيتني عنه".

أي ولا أخالفك في شيء، فعند ذلك شارطه الخضر - عليه السلام -.

- **قال الزمخشري**: رجا موسى - عليه السلام - لحرصه على العلم وازدياده أن يستطيع معه صبرا.

وفي الحديث (يا موسى إني على علم من علم الله علمنيه لا تعلمه أنت وأنت على علم علمكه لا أعلمه).

قوله تعالى: {قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ} [الكهف: ٧٠].

قال ابن عباس:"يعني: عن شيء أصنعه".

قال مكي:"أي: إن رأيت ما تنكر فلا تسئلني وتعجل علي بالسؤال".

قال الطبري:"يقول تبارك وتعالى: قال العالم لموسى: فإن اتبعتني الآن فلا

=

=

تسألني عن شيء أعمله مما تستنكره، فإني قد أعلمتك أني أعمل العمل على الغيب الذي لا تحيط به علما".

قال النحاس:"أي: إن إنكرته هذه فلا تعجل بالمسألة الى أن أبين لك الوجه فيه، وحتى أكون أنا الذي أفسره لك.

قال النحاس: شرط عليه قبل بدء الرحله ألا يسأله ولا يستفسر عن شئ من تصرفاته حتى يكشف له عن سرها فقبل موسى شرطه رعاية لأدب المتعلم مع العالم".

قوله تعالى: {حَتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا} [الكهف: ٧٠]، أي:"حتى أبيِّن لك من أمره ما خفي عليك دون سؤال منك".

قال ابن عباس:"حتى أبين لك شأنه".

قال مكي:"حتى أبين لك وجهه وشأنه".

قال الطبري:"يقول: حتى أحدث أنا لك مما ترى من الأفعال التي أفعلها التي تستنكرها أذكرها لك وأبين لك شأنها، وأبتدئك الخبر عنها".

قال مقاتل:"يقول حتى أبين لك بيانه".

قال الفراء:"يقول: حتى أكون أنا الذي أسألك".

قال النسفي:"أي: فمن شرط اتباعك لي أنك إذا رأيت مني شيئا وقد علمت أنه صحيح إلا أنه خفي عليك وجه صحته فأنكرت في نفسك ألا تفاتحني بالسؤال ولا تراجعني فيه حتى أكون أنا الفاتح عليك وهذا من أدب المتعلم مع العالم والمتبوع مع التابع".

(قال فإن اتبعتني فلا تسألني عن شيء) ابتداء.

(حتى أحدث لك منه ذكرا) أي حتى أبدأك أنا به قبل أن تسألني.

قوله تعالى: {فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا} [الكهف: ٧١].

=

=

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: فانطلق موسى والعالم يسيران يطلبان سفينة يركبانها، حتى إذا أصاباها ركبا في السفينة، فلما ركباها، خرق العالم السفينة".

قال السدي:"إنما كانت معبرًا في ماء «الكُرِّ» فرسخٌ في فرسخٍ".

في حديث ابن عباس المرفوع: «فلمّا ركبوا في السفينة فلم يُفْجَأ إلا والخضِر قد قلع لوحًا من ألواح السفينة بالقَدّوم».

في حديث ابن عباس المرفوع -من وجه آخر-: «فانطلقا يمشيان على ساحل البحر، يتعرضان الناس، يلتمسان مَن يحملهما، حتى مرَّت بهما سفينة جديدة وثيقة، لم يمرَّ بهما مِن السفن شيء أحسن منها ولا أجمل ولا أوثق منها، فسألا أهلها أن يحملوهما، فحملوهما، فلمّا اطمأنا فيها ولججت بهما مع أهلها أخرج منقارًا له ومطرقة، ثم عمد إلى ناحية منها، فضرب فيها بالمنقار حتى خرقها، ثم أخذ لوحًا فطبقه عليها، ثم جلس عليها يرقعها».

عن عبد الله بن عباس -من طريق سعيد بن جبير- قال: فخرجا يمشيان حتى انتهيا إلى ساحل البحر، فإذا قوم قد ركبوا في سفينة يريدون أن يقطعوا البحر ركِبوا معهم، فلما كانوا في ناحية البحر أخذ الخضِر حديدة كانت معه، فخرق بها السفينة، قال: {أخرقتها لتغرق أهلها} الآية".

قوله تعالى: {قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا} [الكهف: ٧١]، أي:"فقال له موسى: أخرقت السفينة لتغرق الركاب؟".

قال الطبري:"قال له موسى: أخرقتها بعد ما لججنا في البحر (لتغرق أهلها}".

قال مقاتل:"وكان موسى - عليه السلام - يُنكِر الظلم، فقام موسى إلى الخضر؟، فأخذ بلحيته، و {قال} له موسى: {أخرقتها لتغرق أهلها}".

قوله تعالى: {لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا} [الكهف: ٧١]، أي:"لقد فعلت أمرًا منكرًا".

قال الطبري:"يقول: لقد جئت شيئا عظيما، وفعلت فعلا منكرا".

=

=

قال مقاتل:"يعني: لقد أتيت أمرا منكرا فالتزمه الخضر وذكره الصحبة وناشده بالله، وركب الخضر على الخرق لئلا يدخلها الماء".

قال الزمخشري:"فانطلقا على ساحل البحر يطلبان السفينة، فلما ركبا قال أهلها: هما من اللصوص، وأمروهما بالخروج، فقال صاحب السفينة: أرى وجوه الأنبياء. وقيل: عرفوا الخضر فحملوهما بغير نول، فلما لججوا أخذ الخضر الفأس فخرق السفينة بأن قلع لوحين من ألواحها مما يلي الماء فجعل موسى يسد الخرق بثيابه ويقول: {أخرقتها لتغرق أهلها}".

وقرئ: «لتغرق»، بالتشديد. و «ليغرق أهلها».

وفي قوله تعالى: {لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا} [الكهف: ٧١]، وجوه من التفسير:

أحدها: يعني: منكرًا، قاله مجاهد، ومقاتل.

الثاني: نكرا. قاله قتادة.

الثالث: عجبًا، قاله قتادة-أيضا-.

الرابع: عظيما. قاله أبو الصخر. ويحيى بن سلام.

وقال الزجاج:"شيئا عظيما من المنكر".

الخامس: أن الإمر: «الداهية العظيمة»، قاله أبو عبيدة، وأنشد:

قَدْ لَقِيَ الأَقْرَانُ مِنِّي نُكْرًا... دَاهِيَةٌ دَهْيَاءَ إِدًّا إمرًا

قال الماوردي: "وهو مأخوذ من: «الإمر» وهو الفاسد الذي يحتاج إلى الصلاح، ومنه: رجل إمر، إذا كان ضعيف الرأي، لأنه يحتاج أن يؤمر حتى يقوى رأيه، ومنه: أمِر القومُ، إذا أكثروا، لأنهم يحتاجون إلى من يأمرهم وينهاهم".

(فانطلقا حتى إذا ركبا في السفينة خرقها) وقد جاء في الحديث كيفية خرقها: (فلما ركبا في السفينة لم يفجأ إلا والخضر قد قلع لوحا من ألواح السفينة بالقدوم).

وجاء في الحديث كيف ركبوا السفينة: فانطلقا يمشيان على ساحل البحر ليس

=

=

لهما سفينة فمرت بهما سفينة فكلموهم أن يحملوهما فعرف الخضر فحملوهما بغير نول فجاء عصفور فوقع على حرف السفينة فنقر نقرة، أو نقرتين في البحر فقال الخضر يا موسى ما نقص علمي وعلمك من علم الله إلا كنقرة هذا العصفور في البحر فعمد الخضر إلى لوح من ألواح السفينة فنزعه).

فقال موسى منكرا:

(قال أخرقتها لتغرق أهلها) أي لتغرق الركاب.

(لقد جئت شيئا إمرا) أي عظيما شنيعا، وهذا من عدم صبره - عليه السلام -.

فعند ذلك قال له الخضر مذكرا بما تقدم من الشرط:

قوله تعالى: {قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا (٧٢)} [الكهف: ٧٢]

قال مقاتل: أي: "على ما ترى من العجائب، قال يوشع لموسى: اذكر العهد الذي أعطيته من نفسك".

قال الطبري: "{قَالَ} العالم لموسى إذ قال له ما قال {أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا} على ما ترى من أفعالي، لأنك ترى ما لم تُحِط به خبرا".

قال يحيى بن سلام وابن أبي زمنين: "وكان موسى ينكر الظلم".

قوله تعالى: {قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ} [الكهف: ٧٣]، أي: "قال موسى معتذرًا: لا تؤاخذني بنسياني شرطك عليَّ".

قال الزجاج: "فلما رأى موسى أن الخَرْقَ لم يَدْخل مِنْه الماء، وأنَّه لمْ يُضِر مَن فِي السفينة: {قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا}".

وفي قوله تعالى: {قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ} [الكهف: ٧٣]، وجوه:

أحدها: بما نسيته وغفلت عنه فلم أذكره، وقد رفعه أبي بن كعب.

أخرج الطبري عن ابن عباس، عن أبيّ بن كعب، عن رسول الله ﷺ: " {لا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ}، قال: «كانَتِ الأوَلى مِنْ مُوسَى نِسْيانا»".

=

=

الثاني: بما كأني نسيته، ولم أنسه في الحقيقة. وهذا قول أبيّ بن كعب.

قال أبيّ بن كعب:"لم ينس، ولكنها من معاريض الكلام".

الثالث: بما تركته من عهدك، مأخوذ من «النسيان» الذي هو «الترك»، لا من «النسيان» الذي هو من «السهو». وهذا قول ابن عباس.

قال الطبري:"والصواب من القول في ذلك أن يقال: إن موسى سأل صاحبه أن لا يؤاخذه بما نسي فيه عهده من سؤاله إياه على وجه ما فعل وسببه لا بما سأله عنه، وهو لعهده ذاكر للصحيح عن رسول الله ﷺ، بأن ذلك معناه من الخبر".

قوله تعالى: {وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا} [الكهف: ٧٣]، أي:"ولا تكلفني مشقةً في تعلُّمي منك، وعاملني بيسر ورفق".

قال الطبري:"يقول: لا تُغْشِني من أمري عسرا، يقول: لا تضيق علي أمري معك، وصحبتي إياك".

وفي قوله تعالى: {وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا} [الكهف: ٧٣]، وجوه:

أحدها: لا تعنفني على ما تركت من وصيتك، قاله الضحاك.

الثاني: لا تغشيني من قولي عسرا. قاله مقاتل، وأبو عبيدة، وابن قتيبة.

من قولهم: «غلام مراهق»، إذا قارب أن يغشاه البلوغ، ومنه حديث عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ قال: «ارهقوا القبلة»، أي: اغشوها واقربوا منها، ورهقت الكلاب الصيد إذا لحقته، وأرهقنا الصلاة أخرناها حتى تدنو من الأخرى.

وقال زهير:

ومُرَهَّق النِّيرانِ يُحْمَدُ في... اللأْواءِ غيرُ مُلَعَّنِ القِدْر

الثالث: لا تعجلني. قاله الفراء.

الرابع: معناه: عاملني باليسر لا بالعسر. قاله الزجاج، والنحاس.

الخامس: لا يلحقني منك طردي عنك. حكاه الماوردي.

=

=

(قال ألم أقل إنك لن تستطيع معي صبرا) يعني وهذا الصنيع فعلته قصدا، وهو من الأمور التي اشترطت معك أن لا تنكر علي فيها، لأنك لم تحط بها خبرا.

قال النبي ﷺ كانت الأولى من موسى نسيانا.

(قال) موسى.

(لا تؤاخذني بما نسيت ولا ترهقني من أمري عسرا) أي لا تضيق علي ولا تشدد علي.

قوله تعالى: {فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا لَقِيَا غُلَامًا فَقَتَلَهُ} [الكهف: ٧٤].

قال ابن كثير: "كان يلعب مع الغلمان في قرية من القرى، وأنه عمد إليه من بينهم، وكان أحسنهم وأجملهم وأوضأهم فقتله، فروي أنه احتز رأسه، وقيل: رضخه بحجر. وفي رواية: اقتطفه بيده. والله أعلم".

قال الأخفش: "قال {فقتله} لأن اللقاء كان علة للقتل".

واختلف في الغلام المقتول هل كان بالغًا، وفيه قولان:

أحدهما: -وهو قول ابن عباس - والحسن، أنه كان رجلًا شابًا قد قبض على لحيته، لأن غير البالغ لا يجري عليه القلم بما يستحق به القتل، وقد يسمى الرجل غلامًا، قالت ليلى الأخيلية في الحجّاج:

شَفَاهَا مِنَ الدَّاءِ الْعُضَالِ الَّذِي بِهَا... غُلَامٌ إِذَا هَزَّ القَنَاةَ سَقَاهَا

قال الحسن: "كان رجلًا".

وقال سعيد بن عبد العزيز: "كان غلاما ابن عشرين سنة".

عن السُّدِّيّ: "كان أحسنهم وجهًا، كان وجهه يَتَوَقَّد حُسنًا".

الثاني: -وهو قول الأكثرين -أنه كان صغيرًا غير بالغ وكان يلعب مع الصبيان، حتى مر به الخضر فقتله.

قال ابن عباس: "كان غلامًا لم يبلغ الحنث".

=

=

قال مقاتل: "والعربُ تُسَمِّي الغلام: غلامًا، ما لم تستوِ لحيته".

وفي سبب قتله، قولان:

أحدهما: لأنه طبع على الكفر. قاله ابن عباس.

عن ابن عباس -من طريق رجل مِن بني تميم- قال: "طُبِع الغلام كافرًا".

قال يحيى بن سلام:"قوله: طبع كافرا لعله لو بلغ كان يكون كافرا، مثل قوله: {ولا يلدوا إلا فاجرا كفارا} [نوح: ٢٧] أي: من بلغ منهم ثم كفر وفجر".

الثاني: لأنه أصلح بقتله حال أبويه. حكاه الماوردي.

وفي صفة قتله، أقوال:

أحدها: أنه وجد غلمانا يلعبون، فأخذ غلاما ظريفا فأضجعه ثم ذبحه بالسكين. قاله سعيد بن جبير.

قال سعيد بن جبير: " وجد الخضِر غِلمانًا يلعبون، فأخذ غلامًا ظريفًا وضِيء الوجه فأضجعه ثم ذبحه بالسكين".

وفي حديث ابن عباس المرفوع -من وجه آخر- {فانطلقا حتى إذا لقيا غلاما فقتله}: «ووجد غلمانًا يلعبون، فأخذ غلامًا كافرًا ظريفًا».

في حديث ابن عباس المرفوع -من وجه آخر-: «ثم خرجا من السفينة، فانطلقا حتى أتيا قريةً، فإذا غلمان يلعبون، فيهم غلام ليس في الغلمان غلامٌ أظرف منه ولا أوْضَأ منه».

الثاني: أنه أخذ حجرًا فقتل به الغلام، به قال مقاتل.

وفي حديث ابن عباس المرفوع -من وجه آخر-: «فأخذ بيده، وأخذ حجرًا، فضرب به رأسه حتى دَمَغَه، فقتله».

قال مقاتل:"ثم خرجا من السفينة على بحر أيلة «فانطلقا حتى «إذا لقيا غلاما» سداسيا فقتله الخضر بحجر أسود، واسم الغلام: «حسين» بن «كازري» واسم أمه

=

=

«سهوى»".

الثالث: أنه كان قتله قتل عنقه. قيل: ضرب برأسه الحائط. حكاه الزمخشري.

الرابع: -كما في حديث ابن عباس المرفوع-: «فأخذ الخضِر رأسَه بيده، فاقتلعه، فقتله».

قال شعيب الجبئي: "اسم الغلام الذي قتله الخضر: جيسور".

قوله تعالى: {قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ} [الكهف: ٧٤]، أي:"قال موسى: أقتلت نفسًا طاهرةً لم ترتكب جرمًا ولم تقتل نفسًا حتى تقتل به".

قال مقاتل:"يعني: لا ذنب لها ولم يجب عليها القتل بغير نفس".

واختلف هل قاله استخبارًا أو إنكارًا على قولين:

أحدهما: أنه قال ذلك استخبارًا عنه لعلمه بأنه لا يتعدى في حقوق الله تعالى.

الثاني: أنه قاله إنكارًا عليه لأنه قال: {لقد جئت شيئًا نُكرًا}.

قرأ أبو عمرو ونافع وابن كثير: «زاكية»، وقرأ حمزة وابن عامر وعاصم والكسائي «زكيّة»، بغير ألف.

واختلف في: «زاكية» - و «زكية»، على قولين:

أحدهما: -وهو قول الأكثرين - أن معناهما واحد، فعلى هذا اختلف في تفسير ذلك على ستة أوجه:

أحدها: أن «الزاكية»: التائبة، قاله ابن عباس-في رواية-، والحسن، وقتادة، والضحاك، وعطية.

قال قتادة:"الزاكية: التائبة".

عن الحسن البصري -من طريق معمر- في قوله: «نَفْسًا زاكِيَةً»، قال: تائبة. يعني: صبيًّا لم يبلغ".

عن عطية العوفي أنّه كان يقرأ: " «زاكِيَةً»، يقول: تائبة".

=

=

الثاني: أنها الطاهرة، حكاه الماوردي عن ابن عيسى.

وقال أبو عبيدة:"أي: مطهّرة".

الثالث: أنها النامية الزائدة، حكاه الماوردي عن كثير من المفسرين، قال نابغة بني ذبيان:

وَمَا أَخَّرْتَ مِنْ دُنْيَاكَ نَقْصٌ... وَإِن قَدَّمْتَ عَادَ لَكَ الزَّكاءُ

يعني: الزيادة.

الرابع: «الزاكية»، أي: المسلمة، لأن الغلام المقتول رجل. وهذا قول ابن عباس، وسعيد بن جبير.

الخامس: أن «الزاكية»: التي لم يحل دمها، قاله أبو عمرو بن العلاء.

السادس: أنها التي لم تبلغ الخطايا، قاله سعيد بن جبير.

قال يحيى بن سلّام: " {قالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً}، أي: لم تُذنِب".

قال الزجاج:"قالوا في {زكية}: بريئة، أي: لم ير ما يوجب قتلها".

وروي عن ابن أبي مليكة، قال:"سئل ابن عباس عن الوالدان في الجنة، قال: حسبك ما اختصم فيه موسى والخضر".

وقال عن ابن عباس:"فرأى موسى أمرا فظيعا لا صبر عليه، صبي صغير لا ذنب له {قال أقتلت نفسا زكية بغير نفس}، أي: صغيرة بغير نفس".

قال النحاس: " أي: قال له موسى أقتلت نفسا طاهرة بريئة لم تذنب قط ولم تقتل نفسا حتى تقتل به".

والقول الثاني: أن بين «الزاكية» و «الزكية» فرقًا، وفيه ثلاثة أوجه:

أحدها: أن «الزاكية» في البدن، و «الزكية» في الدين، وهذا قول أبي عبيدة.

الثاني: أن «الزكية» أشد مبالغة من «الزاكية»، قاله ثعلب.

الثالث: أن «الزاكية» التي لم تذنب، و «الزكية»: التي أذنبت ثم تابت فغفر لها، قاله

=

=

أبو عمرو بن العلاء.

قوله تعالى: {لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا} [الكهف: ٧٤]، أي:"لقد فَعَلْتَ أمرًا منكرًا عظيمًا".

وفي قوله تعالى: {لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا} [الكهف: ٧٤]، وجوه:

أحدها: شيئًا منكرًا، قاله الكلبي، وابن قتيبة.

وقال النحاس: أي:"لقد فعلت شيئا منكرا عظيما لا يمكن السكوت عنه".

الثاني: أي داهية: أمرا عظيما. قاله أبو عبيدة.

الثالث: أمرًا فظيعًا قبيحًا، وهذا معنى قول مقاتل.

الرابع: أنه الذي يجب أن ينكر ولا يفعل. حكاه الماوردي.

الخامس: أن «النكر» أشد من «الإِمْر»، قاله قتادة.

السادس: أن «النكر» أقل من «الإِمْر»، لأن تغريق من في السفينة كان عنده أنكر من قتل نفس واحدة. قاله الزجاج.

السابع: معناه: لقد جئت شيئا أنكر من الأمر الأول. حكاه الزجاج. وهو قريب من القول الخامس.

الثامن: أن «النكر» أنكر من «العجب». قاله قتادة أيضا.

عن أُبي بن كعب، قال: "لما قَتَل الخضِرُ الغلامَ ذَعَرَ موسى ذَعْرَةً منكرة".

عن عطاء، قال: "كتب نَجْدَةُ الحَرُورِيُّ إلى عبد الله بن عباس يسأله عن قتل الصبيان. فكتب إليه: إن كنت الخضِرَ تَعِرفُ الكافر مِن المؤمن؛ فاقتلهم".

عن يزيد بن هرمز، قال: "كتب نَجْدَةُ إلى عبد الله بن عباس يسأله عن قتل الوِلدان، ويقول في كتابه: إنّ العالم صاحب موسى قد قتل الوليد. قال يزيد: أنا كتبت كتابَ ابن عباس بيدي إلى نجدة: إنك كتبت تسأل عن قتل الولدان، وتقول في كتابك: إنّ العالم صاحب موسى قد قتل الوليد. ولو كنت تعلم مِن الولدان ما علِم ذلك

=

=

العالِم مِن ذلك الوليد؛ قتلته، ولكنك لا تعلم، قد نهى رسول الله ﷺ عن قتلهم؛ فاعتزِلْهُم".

قال الزمخشري: "فإن قلت: لم قيل: {حتى إذا ركبا في السفينة خرقها}، بغير «فاء»؟ و {حتى إذا لقيا غلاما فقتله}، بـ «الفاء»؟

قلت: جعل خرقها جزاء للشرط، وجعل قتله من جملة الشرط معطوفا عليه، والجزاء قال أقتلت.

فإن قلت: فلم خولف بينهما؟

قلت: لأن خرق السفينة لم يتعقب الركوب، وقد تعقب القتل لقاء الغلام".

(فانطلقا حتى إذا لقيا غلاما فقتله) أي قتل الخضر هذا الغلام الصغير.

وقد جاء في الحديث الصحيح كيفية قتله: (فانطلقا فإذا غلام يلعب مع الغلمان، فأخذ الخضر برأسه من أعلاه فاقتلع رأسه بيده).

فلما شاهد موسى هذا الأمر، أنكره أشد من الأول وبادر قائلا:

(قال أقتلت نفسا زكية) أي صغيرة لم تعمل الحنث، ولا عملت إثما بعد فقتلته.

(بغير نفس) أي بغير مستند لقتله.

(لقد جئت شيئا نكرا) أي ظاهر النكارة.

جمهور العلماء على أن الغلام لم يكن بالغا.

قال النووي: قال العلماء: وقوله: إذا غلام يلعب فقتله دليل على أنه كان صبيا ليس ببالغ؛ لأنه حقيقة الغلام، وهذا قول الجمهور أنه لم يكن بالغا. وزعمت طائفة أنه كان بالغا يعمل بالفساد.

- اختلف العلماء أيهما أبغ (إمرا) أو قوله (نكرا)؟

قيل: (إمرا) أفظع وأهول من حيث هو متوقع عظيم. ورجحه: ابن عطية، والقرطبي.

=

=

وقيل: النكر أشد وأعظم من الإمر.

ورجحه: الطبري، والسمرقندي، والنحاس، والبغوي، والكلبي، والألوسي، وابن عثيمين.

فقال له الخضر معاتبا:

قوله تعالى: {قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا (٧٥)} [الكهف: ٧٥]

التفسير:

في حديث ابن عباس المرفوع: «قال: {ألم أقل إنك لن تستطيع معي صبرا}، كانت الأولى نسيانًا، والوسطى شرطًا، والثالثة عمدًا».

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: قال العالم لموسى {ألم أقل لك إنك لن تستطيع معي صبرا} على ما ترى من أفعالي التي لم تحط بها خبرا".

قال ابن كثير:"يعني: وهذا الصنيع فعلته قصدًا، وهو من الأمور التي اشترطت معك ألا تنكر عليّ فيها، لأنك لم تحط بها خبرًا، ولها داخل هو مصلحة ولم تعلمه أنت".

قال البغوي:"قيل: زاد «لك»، لأنه نقض العهد مرتين، وفي القصة أن يوشع كان يقول لموسى: «يا نبي بالله اذكر العهد الذي أنت عليه»".

قال الزمخشري:"فإن قلت: ما معنى زيادة «لك»؟

قلت: زيادة المكافحة بالعتاب على رفض الوصية، والوسم بقلة الصبر عند الكرة الثانية".

قوله تعالى: {قَالَ إِنْ سَأَلْتُكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي} [الكهف: ٧٦].

قال الطبري:"يقول: بعد هذه المرة ففارقني، فلا تكن لي مصاحبا".

قال ابن كثير:"أي: إن اعترضت عليك بشيء بعد هذه المرة {فَلا تُصَاحِبْنِي}".

قال الواحدي:"{إن سألتك} سؤال توبيخٍ وإنكارٍ {عن شيء بعدها} بعد النَّفس

=

=

المقتولة {فَلا تُصَاحِبْنِي}".

عن أُبَيّ بن كعب، أنّ النبي ﷺ قرأ: {إن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ بَعْدَها} مهموزتين.

قوله تعالى: {قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْرًا} [الكهف: ٧٦]، أي:"قد بلغتَ العذر في شأني ولم تقصر؛ حيث أخبرتَني أني لن أستطيع معك صبرًا".

قال ابن عباس:"أي: قد أعذرتَ فيما بيني وبينك".

قال الطبري:"يقول: قد بلغت العذر في شأني".

قال ابن كثير:"أي: قد أعذرت إليّ مرة بعد مرة".

قال الواحدي: أي:"أعذرت فيما بيني وبينك حيث أخبرتني أنِّي لا أستطيع معك صبرًا".

عن أبي بن كعب، قال: "كان النبي ﷺ إذا ذكر أحدا فدعا له بدأ بنفسه، فقال ذات يوم: «رحمة الله علينا وعلى موسى، لو لبث مع صاحبه لأبصر العجب ولكنه قال: {إن سألتك عن شيء بعدها فلا تصاحبني قد بلغت من لدني عذرا}»".

عن أبي بن كعب، قال: قال رسول الله ﷺ: «رحمة الله علينا وعلى موسى -وكان إذا ذكر أحدًا مِن الأنبياء بدأ بنفسه-، لولا أنه عجَّل لرأى العجب، ولكنه أخذته من صاحبه ذمامة، قال: {إنْ سَأَلْتُكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَها فَلا تُصاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِن لَدُنِّي عُذْرًا}. فلو صبر لرأى العجب».

(قال إن سألتك عن شيء بعدها) أي إن اعترضت عليك بشيء بعد هذه المرة.

(فلا تصاحبني) فأنت معذور بذلك، وبترك صحبتي.

(قد بلغت من لدني عذرا) أي قد أعذرت مني ولم تقصر.

{فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَّ فَأَقَامَهُ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا (٧٧)} [الكهف: ٧٧]

=

=

في الحديث: "حتى إذا أتيا أهل قرية لئاما"، قال ابن كثير:"أي: بخلاء".

قال أيوب بن موسى: "بلغني إن المسألة للمحتاج حسنة، ألا تسمع إن موسى وصاحبه استطعما أهلها؟".

وفي هذه القرية، أقوال:

أحدها: أنها «أنطاكية»، قاله الكلبي، والواحدي.

قال قتادة: وحدثني رجل أنها إنطاكية".

الثاني: أنها الأُبُلَّة، قاله محمد بن سيرين.

قال محمد بن سيرين:"انتابوا الأيلة، فإنه قل من يأتيها فيرجع منها خائبا، وهي الأرض التي أبوا أن يضيفوهما، وهي أبعد أرض الله من السماء".

الثالث: أنها أبرقة. قاله ابن عباس.

الرابع: أنها «باجروان» بإرمينية، قاله السدي، ومقاتل.

قال السدي:"كانت القرية تسمى: باجروان، كان أهلها لِئامًا".

الخامس: أنها بلدة بالأندلس. قاله أبو هريرة.

قوله تعالى: {فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّفُوهُمَا} [الكهف: ٧٧]، أي:"فامتنع أهل القرية عن ضيافتهما".

قال مقاتل: " {فأبوا أن يضيفوهما}، يعني: أن يُطعِموهما".

عن أبي بن كعب، رفعه، في قوله: {فأبوا أن يضيفوهما}، قال: «كانوا أهلَ قريةٍ لِئامًا».

قال قتادة:"شرُّ القُرى التي لا تُضَيِّفُ الضيفَ، ولا تعرف لابن السبيل حقه".

عن أبي هريرة، قال: "طأطعمتهما امرأةٌ مِن أهل بربر، بعد أن طلبا مِن الرجال فلم يطعموهما، فدعا لنسائهم، ولَعَن رجالهم".

قوله تعالى: {فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَّ فَأَقَامَهُ} [الكهف: ٧٧]،

=

=

أي:"فوجدا فيها حائطًا مائلا يوشك أن يسقط، فعدَّل الخَضِر مَيْلَه حتى صار مستويًا".

عن السدي قوله: {يريد إن ينقض}، قال: يسقط". قال السدي: "بَلَّ طينًا، وجعل يبني الحائط".

قال سعيد بن جبير:"رفع الجدار بيده فاستقام".

قال ابن كثير:"أي: فردّه إلى حالة الاستقامة وقد تقدم في الحديث أنه ردّه بيديه، ودعمه حتى رد ميله. وهذا خارق".

قال وهب بن منبه: "كان جِدارًا طولُه في السماء مائة ذراع".

عن ابن عباس -من طريق سعيد بن جبير- أنه قال: "هدمه، ثُمَّ قعد يبنيه".

في حديث أبي بن كعب المرفوع:... {يريد أن ينقض فأقامه}، قال: «مائل. فقال الخضر بيده هكذا فأقامه، فقال موسى: قوم أتيناهم فلم يطعمونا، ولم يضيفونا!».

قال أبو عبيدة:"وليس للحائط إرادة ولا للموات، ولكنه إذا كان فى هذه الحال من ربه فهو إرادته،

وهذا قول العرب... فى غيره قال الحارثىّ:

يريد الرمح صدر بنى براء... ويرغب عن دماء بنى عقيل

قال الزجاج:"الإرادة: إنما تكون في الحيوان المبين، والجدار لا يريد إرادة حقيقية، إلا أن هيئته في التهيؤ للسقوط قد ظهرت كما تظهر أفعال المريدين القاصدين، فوصف بالإرادة إذ الصورتان واحدة، وهذا كثير في الشعر واللغة. قال الراعي يصف الإبل:

في مهمة قلقت به هاماتها... قلق الفؤوس إذا أردن نصولا".

قال الشيخ ابن عثيمين:"وكثيرا ما يحتج الناس فيقولون: كيف لا يكون في القرآن مجاز والله يقول: {فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقَض} [الكهف: ٧٧]، أي: مائلا،

=

=

والجدار ليس له إرادة؟

فالجواب:

أولا: نمنع قولك: الجدار ليس له إرادة. بل له إرادة، بلا شك، قال الله ﷻ: {تسبح له السماوات السبع والأرض ومن فيهن وإن من شيء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم} [الإسراء: ٤٤]، فهذه المخلوقات تسبح بإرادة بلا شك، وإلا لم يكن في هذا ثناء على الله.

ثانيا: نقول: ما الذي يمنع الإرادة في الجماد والنبي ﷺ ثبت عنه أنه قال في أحد، وهو جبل حصى: «جبل يحبنا ونحبه»، فأثبت المحبة لهذا الجبل، والمحبة أخص من الإرادة.

ثالثا: نقول: إرادة كل شيء بحسبه، فميل الجدار، يعني: أنه يريد أن يسقط، كميل الإنسان، فنعرف أنه يريد أن يركع مثلا، ولا مانع".

والمجاز مسألة طارئة لم تكن تعرف في القرون الثلاثة الفاضلة، وهي مصطلح أدبي اصطلح عليه أهل اللغة، والجمهور على أنه واقع في اللغة والقرآن.

عن أُبي بن كعب، عن رسول الله ﷺ، أنّه قرأ: (فَوَجَدا فِيها جِدارًا يُرِيدُ أن يَنقَضَّ فَهَدَمَهُ ثُمَّ قَعَدَ يَبْنِيهِ).

عن يحيى بن يَعْمَر، أنّه قرأ ذلك: (يُرِيدُ أن يَنقاصَ).

قوله تعالى: {قَالَ لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا} [الكهف: ٧٧]، أي:"قال له موسى: لو شئت لأخذت على هذا العمل أجرًا تصرفه في تحصيل طعامنا حيث لم يضيفونا".

قال ابن كثير:"أي: لأجل أنهم لم يضيفونا كان ينبغي ألا تعمل لهم مجانًا".

قال سعيد بن جبير -من طريق يعلى بن مسلم، وعمرو بن دينار-:"{لو شئت لاتخذت عليه أجرا}: أجرًا نأكله".

=

=

قال مقاتل بن سليمان: {لَو شئت لاتخذت عليه أجرًا}، أي: لو شئت أُعطِيتَ عليه شيئًا".

قال يحيى بن سلّام: " {قال} له موسى: {لو شئت لاتخذت عليه أجرا}، أي: ما يكفينا اليوم".

عن أُبي بن كعب، أنّ النبي ﷺ قرأ: «لَوْ شِئْتَ لَتَخِذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا» مخففة.

عن هارون، قال: في حرف عبد الله بن مسعود: «لَوْ شِئْتَ لَتَخِذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا».

عن الأصمعي، قال: وقرأ نافع: {لاتَّخَذتَّ عَلَيْهِ أَجْرًا}.

عن الأصمعي، قال: قرأ أبو عمرو: (ولَوْ شِئْتَ لاتَّخَذتَّ عَلَيْهِ أَجْرًا).

(فانطلقا) أي بعد المرتين الأوليين.

(فانطلقا حتى إذا أتيا أهل قرية استطعما أهلها فأبوا أن يضيفوهما) أي مشيا حتى وصلا إلى قرية، فطلبا طعاما، وكان أهلها لئاما لا يطعمون جائعا، ولا يستضيفون ضيفا، فامتنعوا عن إضافتهما أو إطعامهما.

(فوجدا فيها جدارا يريد أن ينقض) أي وجدا في القرية حائطا مائلا يوشك أن يسقط ويقع.

(فأقامه) أي: فرده إلى حال الاستقامة.

ذهب بعض المفسرين: أنه مسحه بيده فأقامه فقام. ورجحه ابن عطية، والقرطبي، وأبو حيان، والشوكاني. وقيل: هدمه ثم قعد يبنيه، والله أعلم.

- قال الطبري: والصواب من القول في ذلك أن يقال: إن الله عز ذكره أخبر أن صاحب موسى وموسى وجدا جدارا يريد أن ينقض فأقامه صاحب موسى، بمعنى: عدل ميله حتى عاد مستويا. وجائز أن يكون كان ذلك بإصلاح بعد هدم. وجائز أن يكون كان برفع منه له بيده، فاستوى بقدرة الله، وزال عنه ميله بلطفه، ولا دلالة من كتاب الله ولا خبر للعذر قاطع بأي ذلك كان من أي.

=

=

(قال) أي موسى للخضر.

(لو شئت لاتخذت عليه أجرا) لأجل أنهم لم يضيفونا، ينبغي ألا تعمل لهم مجانا.

قوله تعالى: {قَالَ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ} [الكهف: ٧٨].

قال الطبري: "قال صاحب موسى لموسى: هذا الذي قلته وهو قوله {لَوْ شِئْتَ لاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ}، يقول: فرقة ما بيني وبينك: أي: مفرق بيني وبينك".

قال ابن كثير: "أي: لأنك شرطت عند قتل الغلام أنك إن سألتني عن شيء بعدها فلا تصاحبني، فهو فراق بيني وبينك".

عن الربيع بن أنس: "... وإن خضِرًا أقبل عليه، فقال: قد وفيت لك بما جعلت على نفسي، {هذا فراق بيني وبينك}".

قال يحيى بن سلّام: "بلغني: أنّهما لم يفترقا حتى بعث الله طيرًا، فطار إلى المشرق، ثم طار إلى المغرب، ثم طار نحو السماء، ثم هبط إلى البحر، فتناول مِن ماء البحر بمنقاره وهما ينظران. فقال الخضِر لموسى: أتعلم ما

يقول هذا الطير؟ يقول: وربِّ المشرق، وربِّ المغرب، وربِّ السماء السابعة، وربِّ الأرض السابعة، ما عِلْمُك -يا خضِرُ- وعِلْمُ موسى في عِلْمِ الله إلا قدر هذا الماء الذي تناولته من البحر في البحر".

قوله تعالى: {سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا} [الكهف: ٧٨]، أي: "سأخبرك بما أنكرت عليَّ من أفعالي التي فعلتها، والتي لم تستطع صبرًا على ترك السؤال عنها والإنكار عليَّ فيها".

قال الطبري: "يقول: سأخبرك بما يئول إليه عاقبة أفعالي التي فعلتها، فلم تستطع على تَرك المسألة عنها، وعن النكير علي فيها صبرا، والله أعلم".

قال ابن كثير: "{بِتَأْوِيلِ}، أي: بتفسير".

=

=

تفسير السدي: " {سأنبئك بتأويل ما لم تستطع عليه صبرا}، يعني: عاقبته".

(قال هذا فراق بيني وبينك) أي لأنك شرطت عند قتل الغلام أنك إن سألتني عن شيء بعدها فلا تصاحبني فهو فراق بيني وبينك.

(سأنبئك بتأويل) أي بتفسير.

(ما لم تستطع عليه صبرا) ما لم تقدر على الصبر عليه؟.

قوله تعالى: {أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ} [الكهف: ٧٩].

قال الطبري:"يقول: أما فعلي ما فعلت بالسفينة، فلأنها كانت لقوم مساكين {يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ}".

عن عكرمة، قال: "قلت لابن عباس: في قوله تعالى: {أما السفينة فكانت لمساكين يعملون في البحر}، كانوا مساكين والسفينةُ تُساوي ألف دينار؟ قال: إنّ المسكينَ مسكينٌ وإن كان معه ألف دينار".

قال كعب الأحبار: "كانت لعشرة إخوة خمسة زَمْنى، وخمسة يعملون في البحر".

قوله تعالى: {فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا} [الكهف: ٧٩]، أي:"فأردت أن أعيبها بذلك الخرق".

قال الطبري:" {فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا}، بالخرق الذي خرقتها".

عن مجاهد:" {فأردت إن أعيبها}، قال: أخرقها".

قوله تعالى: {وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا} [الكهف: ٧٩]، أي:"لأن أمامهم ملكًا يأخذ كل سفينة صالحة غصبًا من أصحابها".

قال الطبري:"وكان أمامهم وقُدّامهم ملك [{يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا}]".

قال ابن كثير:"هذا تفسير ما أشكل أمره على موسى، عليه السلام، وما كان أنكر ظاهره وقد أظهر الله الخضر، عليه السلام، على باطنة فقال إن: السفينة إنما خرقتها لأعيبها؛ [لأنهم كانوا يمرون بها على ملك

=

=
من الظلمة، {يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ} صالحة، أي: جيدة {غَصْبًا}، فأردت أن أعيبها لأرده عنها لعيبها، فينتفع بها أصحابها المساكين الذين لم يكن لهم شيء ينتفعون به غيرها. وقد قيل: إنهم أيتام".

قال ابن عباس:"وإنما عبتها لأرده عنها".

قال ابن جريج:"فإذا خلفوه أصلحوها بزفت فاستمتعوا بها".

قال قتادة: "ولَعَمْرِي، لو عمَّ السُّفُنَ ما انفَلَتَتْ، ولكن كان يأخذ خِيار السفن".

عن سفيان بن حسين -من طريق ابن محصن-:"{وكان وراءهم}، قال: أمامهم".

عن قتادة بن دعامة -من طريق معمر-:"{وكان وراءهم ملك}، قال: أمامهم، ألا ترى أنه يقول: {من ورائهم جهنم} [الجاثية: ١٠]، وهي بين أيديهم".

روي عن شعيب الجَبَئِيّ:"أن اسم الرجل الذي كان يأخذ كل سفينة غصبا: هُدَدُ بنُ بُدد".

قال ابن كثير:"وهو مذكور في التوراة في ذرية «العيص بن إسحاق»، وهو من الملوك المنصوص عليهم في التوراة، والله أعلم".

عن سعيد بن جبير -من طريق يعلى بن مسلم، وعمرو بن دينار- قال: "إنّا لَعند عبد الله بن عباس في بيته... {وكان وراءهم ملك}... يزعمون أنه هُدَدُ بن بُدَدَ".

عن ابن عباس، ومجاهد، وعكرمة -مولى ابن عباس-، قالوا: {ظَهَرَ الفَسادُ فِي البَرِّ} بقتل ابن آدم أخاه، {والبَحْرِ} بالملِك الجائر الذي كان يأخذ كل سفينة غصبًا، واسمه: الجَلَندا، رجل مِن الأَزْد".

قال محمد بن إسحاق: "اسمه: متوله بن جَلَندِي الأزدي".

قال سعيد بن جبير: "وكان ابن عباس يقرأ: «وكان أمامهم ملك يأخذ كل سفينة صالحة غصبا»".

قال قتادة:"كانت تقرأ في الحرف الأول: «كُلَّ سَفِينَةٍ صالِحَةٍ غَصْبًا)»، قال: وكان
=

=

لا يأخذ إلا خيار السفن".

عن قتادة بن دعامة -من طريق سعيد- {مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا}، قال: في بعض القراءة: (وكانَ أمامَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ صالِحَةٍ غَصْبًا).

عن قتادة بن دعامة: وفي حرف عبد الله بن مسعود: (وكانَ ورَآءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ صالِحَةٍ غَصْبًا).

(أما السفينة فكانت لمساكين يعملون في البحر) أي كانت لأناس ضعفاء يشتغلون بها في البحر بقصد التكسب.

(فأردت أن أعيبها) أي أردت بخرقي لها أن أجعل فيها عيبا.

وفي قوله (فأردت أن أعيبها) دليل على الأدب مع الله، ولم يقل (فأراد ربك أن أعيبها).

(وكان وراءهم ملك) أي أمامهم. (يأخذ كل سفينة) جيدة صالحة.

(غصبا) أي يغتصبها، فأردت بعيبي لها، لتسلم من ذلك الظالم. فيه دفع أشد الضررين بأدناهما.

قال الشنقيطي في دفع إيهام الاضطراب: قوله تعالى: {فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا} [الكهف/ ٧٩].

هذه الآية تدل على أن عيبها يكون سببًا لترك الملك الغاصب لها، ولذلك خرقها الخضر.

وعموم قوله: {وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا} [الكهف/ ٧٩] يقتضي أخذ الملك للمعيبة والصحيحة معًا.

والجواب: أن في الكلام حذف الصفة. وتقديره: كلَّ سفينة صالحة صحيحة. وحذف النعت إذا دل المقام عليه جائز، كما أشار له ابن مالك في "الخلاصة" بقوله:

=

=

وما من المنعوت والنعت عُقِل ... يجوز حذفه وفي النعت يَقِل

ومن شواهد حذف الصفة قول الشاعر:

ورُبِّ أسيلة الخَدَّين بِكْرٍ ... مهفهفةٍ لها فرعٌ وجِيدُ

أي: لها فرعٌ فاحم وجِيدٌ طويل

وقول عبيد بن الأبرص الأسدي:

مَنْ قولُه قولٌ ومَنْ فعلُه ... فعلٌ ومَنْ نائلُه نائلُ

يعني: مَنْ قولُه قولٌ فصل، وفعلُه فعلٌ جميل، ونائلُه نائلٌ جزل. ا.هـ

قوله تعالى: {وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ} [الكهف: ٨٠].

عن شعيب الجبائي قال: "كان اسم الغلام الذي قتله الخضر جيسور".

في حديث ابن عباس المرفوع: "والغلام المقتول اسمه -يزعمون-: جيسور".

قال وهب بن منبه: "كان اسم أبيه: ملاسَ، واسم أمه: رحمى".

قال مقاتل بن سليمان: اسم الغلام: حسين بن كازري، واسم أمه: سهوى.. وكان الغلام كافرًا، يقطع الطريق، ويُحْدِثُ الحَدَث، ويلجأ إليهما، ويُجادلان عنه، ويحلفان بالله ما فعله، وهم يحسبون أنّه بريء مِن الشر".

قال محمد بن السائب الكلبي: "كان فتى يقطع الطريق، ويأخذ المتاع ويلجأ إلى أبويه فيحلفان دونه".

وروي سعيد بن جبير عن ابن عباس، أنه: " كان يقرأ: «وأما الغلام فكان كافرا وكان أبواه مؤمنين»".

قوله تعالى: {فَخَشِينَا أَنْ يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا} [الكهف: ٨٠]، أي:"فخشينا لو بقي الغلام حيًا لَحمل والديه على الكفر والطغيان؛ لأجل محبتهما إياه أو للحاجة إليه".

عن السدي:"قوله: {فخشينا}، قال: فأشْفَقْنا".

=

=

قال محمد بن السائب الكلبي: " {أن يرهقهما} يُكَلِّفهما {طُغْيانًا وكُفْرًا} ".

قال مقاتل: " {أن يرهقهما} يعني: يغشيهما {طُغيانًا} يعني: ظلمًا {وكفرا} ".

قال ابن كثير: "أي: يحملهما حبه على متابعته على الكفر".

قال سعيد بن جبير: "خشينا إن يحملهما حبه على إن يتابعاه على دينه".

قال الضحاك: "كان غلامًا يعمل بالفساد، وتأذّى منه أبواه، وكان اسمه خوش نوذ".

قال قتادة: "ولَعَمْرِي، ما قتله إلا على عِلْمٍ كان عنده".

قال مطر: "لو بقي كان فيه بوارُهما واستِئْصالُهما".

عن أبي بن كعب، عن النبي ﷺ، قال: «الغلام الذي قتله الخضِرُ طُبِع يوم طبع كافرًا، ولو أدرك لأرهق أبويه طغيانًا وكفرًا».

عن ابن عباس، قال: "الغلام الذي قتله الخضر طبع كافرًا، ولو عاش لأرهق أبويه طغيانًا وكفرا".

عن عبد الله بن عباس -من طريق سفيان، عن أبي إسحاق الهمداني، عن رجل من بني تميم- {فانطلقا حتى إذا لقيا غلاما فقتله}، قال: "طُبِع الغلام كافرًا".

قال المسيب: ذاكرتُ يوسف بن أسباط أمرَه، فقال: "لَمّا قتله الخضِر قال له موسى: {أقتلت نفسا زكية بغير نفس}؟ قال: فقلع الخضِر كتِف الغلام، فأراه موسى، فإذا في الكتِف: كافر".

قال مطرف بن الشخير: "إنا لنعلم أنهما قد فرحا به يوم ولد وحزنا عليه يوم قُتِل، ولو عاش لكان فيه هلاكهما. فرضي رجل بما قسم الله له فإن قضاء الله للمؤمن خير من قضائه لنفسه، وقضاء الله لك فيما تكره خير من قضائه لك فيما تحب".

وفي الحديث: " عجبت للمؤمن إن الله لم يقض له قضاء إلا كان خيرا له".

قال الأخفش: "{فخشينآ} فمعناه: كرهنا، لأن الله لا يخشى. وهو في بعض

=

=
القراءات: {فخاف ربك} وهو مثل: خفت الرجلين أن يقولا، وهو لا يخاف من ذلك اكثر من انه يكرهه لهما".
قال قتادة:"هي في مصحف عبد الله: «فَخافَ رَبُّكَ أن يُرْهِقَهُما طُغْيانًا وكُفْرًا»".
قال يحيى بن سلّام: تفسير: " (فَخافَ رَبُّكَ): فكره ربك. مثل قوله: {ولكن كره الله انبعاثهم} [التوبة: ٤٦]".
(وأما الغلام) الذي قتلته:
(فكان أبواه مؤمنين) صالحين.
وفي الحديث عن النبي ﷺ قال (الغلام الذي قتله الخضر طبع يوم طبع كافرا) رواه مسلم.
ومعنى قوله (فخشينا أن يرهقهما طغيانا وكفرا) أي يحملهما على الطغيان والكفر، إما لأجل لمحبتهما إياه، أو للحاجة إليه.
فقتلته: لاطلاعه على ذلك، سلامة لدين أبويه المؤمنين، وأي فائدة أعظم من هذه الفائدة الجليلة؟ وهو إن كان فيه إساءة إليهما، وقطع لذريتهما، فإن الله سيعطيهما من الذرية ما هو خير منه، ولهذا قال: (فأردنا أن يبدلهما ربهما خيرا منه زكاة وأقرب رحما) أي: ولدا صالحا، زكيا، واصلا لرحمه.
(تنبيه): اختلف العلماء على من يعود الضمير في قوله: {فخشينا} [الكهف:٨٠]؟ على قولين، ذكرهما أكثر العلماء:
القول الأول: أنه يرجع إلى الخضر، والدليل عليه، قوله تعالى في الآية التالية لها: {فأردنا أن يبدلهما ربهما} [الكهف:٨١]، فصرح بذكر الرب مما يدل على أن المتكلم هو الخضر.
قال القرطبي: (قوله تعالى: {فخشينا أن يرهقهما} [الكهف:٨٠] قيل: هو من كلام الخضر عليه السلام، وهو الذي يشهد له سياق الكلام، وهو قول كثير من
=

=

المفسرين).

وقال الشوكاني: (قيل: ويجوز أن يكون: {فخشينا} [الكهف:٨٠]، من كلام الله، ويكون المعنى: كرهنا كراهة من خشي سوء عاقبة أمره فغيره، وهذا ضعيف جدا، فالكلام كلام الخضر).

القول الثاني: أنه يعود إلى الله، وعلى هذا القول ليست الخشية هنا على بابها المعروف في ظاهر اللغة ومشهور الكلام، باتفاق المفسرين.

قال الطبري: "والخشية والخوف توجههما العرب إلى معنى الظن، وتوجه هذه الحروف إلى معنى العلم بالشيء الذي يدرك من غير جهة الحس والعيان، وقد بينا ذلك بشواهده في غير هذا الموضع، بما أغنى عن إعادته.

وكان بعض أهل العربية من أهل البصرة يقول: معنى قوله (خشينا) في هذا الموضع: كرهنا، لأن الله لا يخشى.

وقال في بعض القراءات: (فخاف ربك)، قال: وهو مثل خفت الرجلين أن يعولا، وهو لا يخاف من ذلك أكثر من أنه يكرهه لهما"، ا.هـ

وقال ابن قتيبة في تأويل مشكل القرآن: " و (خشيت) بمعنى: (علمت). قال: (فَخَشِينا أنْ يُرْهِقَهُما طُغْيانًا وكُفْرًا)، أي علمنا. وفي قراءة أبيّ: فخاف ربك.

ومثله: (إلّا أنْ يَخافا ألّا يُقِيما حُدُودَ اللهِ) وقوله: (فَمَن خافَ مِن مُوصٍ جَنَفًا أوْ إثْمًا) أي علم.

وقوله: (وأنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخافُونَ أنْ يُحْشَرُوا إلى رَبِّهِمْ)، لأنّ في الخشية والمخافة طرفا من العلم." ا.هـ

وقالَ يَحْيى بن سلام في تفسيره: "تَفْسِيرُ (فَخافَ رَبُّكَ): فَكَرِهَ رَبُّكَ، مِثْلُ قَوْلِهِ: (ولَكِنْ كَرِهَ اللهُ انْبِعاثَهُمْ)". ا.هـ

وقال أبو طالب المكي في قوت القلوب: "ومما يدلك أن الخوف اسم لحقيقة

=

=

العلم: أن في قراءة أبي بن كعب في قوله تعالى: (فَخَشِيْنَا أَنْ يُرْهِقَهُمَا) فخاف ربك أن يرهقهما.

وقال يحيى بن زياد النحوي: ومعناه فعلم ربك، وقال: الخوف من أسماء العلم، والله أعلم"، ا.هـ

وقال "الثعلبي": "قوله ﷻ: (وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا):

أي: فعلمنا، وفي مصحف أُبَيّ - رضي الله عنه - (فخاف ربك) أي علم، ونظائره كثيرة.

وقال قطرب: معناه فكرهنا، كما تقول: فرقت بين الرجلين خشية أن يقتتلا، وليست منك خشية ولكن كراهية أن يقتتلا"، انتهى.

ومن النظائر قوله تعالى: (إِلَّا أَنْ يَخَافَا) أي يعلما ويظنا، كما في "معاني القرآن" للفراء (٢/ ١٥٧).

والحاصل: أنه لا يجوز نسبة الخشية أو الخوف لله جل جلاله، بالمعنى المشهور في اللغة، ولم يقل بذلك أحد من أهل العلم،، وإنما "الخشية" المذكورة هنا، إن كانت مضافة إلى الله جل جلاله: فهي بمعنى: العلم، أو الكراهة للأمر. انتهى.

قوله تعالى: {فَأَرَدْنَا أَنْ يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِنْهُ زَكَاةً} [الكهف: ٨١].

قال مقاتل: {خَيْرًا مِنْهُ زَكَاةً}:"يعني: عملا".

قال الفراء:"{خيرا منه زكاة}: صلاحا".

قال الطبري:"يقول: خيرا من الغلام الذي قتله صلاحا ودينا".

قال عمرو بن قس:"بلغني أنها جارية".

قال ابن عباس:"أبدلهما جاريةً، فولدت نبيًّا مِن الأنبياء".

قال سعيد بن جبير ويعقوب بن عاصم:"أُبدِلا مكان الغلام جارية".

عن ابن عباس: {خَيْرًا مِنْهُ زَكَاةً}، "قال: دِينًا".

عن عطية: " {خَيْرًا مِنْهُ زَكَاةً}، قال: دينا".

=

=

وقال يحيى بن سلام:"في التقوى".

وروي عن ابن جريج، قوله: {فَأَرَدْنَا أَنْ يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِنْهُ زَكَاةً}، قال: الإسلام".

قال قتادة:"كانت أمه حُبلى يومئذ بغلام مسلم".

وقال قتادة:"قد فرح به أبواه حين ولد وحزنا عليه حين قتل، ولو بقي كان فيه هلاكهما، فليرض امرؤ بقضاء الله، فإن قضاء الله للمؤمن فيما يكره خير له من قضائه فيما يحب".

قوله تعالى: {وَأَقْرَبَ رُحْمًا} [الكهف: ٨١]، أي:"وأبرّ بوالديه".

قال الحسن:"يعني: برا".

قال قتادة:"أي: أقرب خيرا". وعنه -أيضا-:"أَبَرَّ بوالديه"

قال مقاتل:"يعني: وأحسن منه برا بوالديه وكان في شرف وعده".

قال الفراء:"يقول: أقرب أن يرحما به".

قال ابن قتيبة: "أي: رحمة وعطفا".

في قول الحسن البصري: {وأقرب رحما}، يعني: بِرًّا".

عن ابن عباس:"قوله:" {وَأَقْرَبَ رُحْمًا}: قال: مَوَدَّةً".

قال سعيد بن جبير ويعقوب بن عاصم:"أُبدِلا مكان الغلام جارية".

عن عطية العوفي، في قوله: " {وأقرب رحما}، قال: هما به أرحمُ منهما بالغلام. وفي لفظ قال: بِرُّ الوالدين".

عن عطية قوله: " {وأقرب رحما}، قال: مودة. فأبدلا جارية ولدت نبيا".

عن يوسف بن عمر -من طريق بسطام بن جميل- في الآية، قال: "أبدلهما مكان الغلام جارية ولَدَتْ نَبِيين".

عن جعفر بن محمد، عن أبيه [محمد الباقر]، قال: "أبدلهما الله جاريةً ولدت

=

=

سبعين نبيًّا".

عن يعقوب بن عاصم -من طريق سليمان بن أمية- قال:"أبدلا مكان الغلام جارية".

عن عمرو بن قيس [الملائي]-من طريق المبارك بن سعيد- في قوله: " {فأردنا أن يبدلهما ربهما خيرا منه زكاة وأقرب رحما}، قال: بلغني: أنّها جارية".

قال محمد بن السائب الكلبي: "أبدلهما الله جاريةً، فتزوجها نبيٌّ مِن الأنبياء، فوَلَدَتْ له نبيًّا، فهدى الله على يديه أُمَّةً مِن الأُمَم".

قوله تعالى: {وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ} [الكهف: ٨٢].

قال مقاتل:"يعني: في قرية تُسَمّى: باجروان، ويقال: هي أنطاكية".

قال ابن كثير: "في هذه الآية دليل على إطلاق القرية على المدينة؛ لأنه قال أولا {حَتَّى إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ} [الكهف: ٧٧] وقال هاهنا: {فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ} كما قال تعالى: {وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِنْ قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ} [محمد: ١٣]، {وَقَالُوا لَوْلا نزلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ} [الزخرف: ٣١] يعني: مكة والطائف".

قوله تعالى: {وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا} [الكهف: ٨٢]، أي:"وكان تحته كنز لهما من الذهب والفضة".

قال ابن كثير: أي: " أن هذا الجدار إنما أصلحه، لأنه كان لغلامين يتيمين في المدينة وكان تحته كنز لهما".

وفي هذا «الكنز»، ثلاثة أقوال:

أحدها: صحف فيها علم مدفونة، قاله ابن عباس، وسعيد بن جبير، ومجاهد، قال ابن عباس:"كان تحته كنز علم".

وقال ابن عباس:"ما كان الكنز إلا علما".

=

=

قال ابن عباس:"ما كان ذهبًا ولا فِضَّة، كان صُحُفًا عِلْمًا".

قال مجاهد:"صحف لغلامين فيها علم".

قال الضحاك:"صُحُفًا فيها العلم".

عن عكرمة: {وَكَانَ تَحْتَهُ كَنز لَهُمَا}، قال: " كَنزُ مالٍ". وروي عن الحسن مثله.

عن سعيد بن جبير -من طريق أبي حصين- {وكان تحته كنز لهما} قال: عِلْم".

قال الربيع بت أنس:"فسمِعنا أنّ ذلك الكنز كان عِلْمًا، فوَرِثا ذلك العلم".

الثاني: لوح من ذهب مكتوب فيه حِكَم، قاله الحسن، وجعفر بن محمد، وعمر بن عبد الله المدني. وآخرون.

عن نعيم العنبري -وكان من جلساء الحسن- قال: "سمعت الحسن البصري يقول في قوله: {وكان تحته كنز لهما}، قال: لوح من ذهب، مكتوب فيه: «بسم الله الرحمن الرحيم، عجِبت لمن يؤمن كيف يحزن؟! وعجبت لمن يوقن بالموت كيف يفرح؟! وعجبت لمن يعرف الدنيا وتقلبها بأهلها كيف يطمئن إليها؟! لا إله إلا الله، محمد رسول الله»".

عن مجاهد، قال: "كان الكنز لوحًا مِن ذهب، في أحد جانبيه: لا إله إلا الله، الواحد الصمد، الذي لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفوًا أحد. وكان في الجانب الاخر: عجبًا لمن أيقن بالموت كيف يفرح؟! وعجبًا لمن أيقن بالنار كيف يضحك؟! وعجبًا لمن رأى الدنيا وتقلبها بأهلها ثم هو يطمئن إليها! وعجبًا لمن أيقن بالحساب غدًا ثم لا يعمل!".

قال عمر مولى غفرة:"إن الكنز الذي قال الله في السورة التي يذكر فيها الكهف {وكان تحته كنز لهما}، قال: كان لوحا من ذهب مصمت، مكتوبا فيه: «بسم الله الرحمن الرحيم، عجب من عرف الموت ثم ضحك، عجب من أيقن بالقدر ثم نصب، عجب من أيقن بالموت، ثم أمن، أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدا عبده

=

=

ورسوله»".

عن هنادة ابنة مالك الشيبانية، قالت: "سمعت صاحبي حماد بن الوليد الثقفي، يقول: سمعت جعفر بن محمد، يقول في قول الله ﷻ: {وكان تحته كنز لهما}، قال: سطران ونصف، لم يتم الثالث: «عجبت للموقن بالرزق كيف يتعب، عجبت للموقن بالحساب كيف يغفل، وعجبت للموقن بالموت كيف يفرح». وقد قال: {وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين}".

الثالث: كنز مال مذخور من ذهب وفضة، قاله عكرمة، وقتادة، وبه قال ابن جرير الطبري، والزجاج.

قال ابن كثير:"وهذا ظاهر السياق من الآية، والذي ذكره هؤلاء الأئمة [أي: أن الكنز: صحف فيها علم]، وورد به الحديث المتقدم وإن صح، لا ينافي قول عكرمة: أنه كان مالا لأنهم ذكروا أنه كان لوحًا من ذهب، وفيه مال جزيل، أكثر ما زادوا أنه كان مودعًا فيه علم، وهو حكم ومواعظ، والله أعلم".

عن أبي الدرداء، في قوله: {وكان تحته كنز لهما}، قال:"أُحِلَّت لهم الكنوز، وحُرِّمت عليهم الغنائم، وأُحِّلت لنا الغنائم، وحُرِّمت علينا الكنوز".

قال قتادة:"مال لهما، أحل الكنز لمن كان قبلنا، وحرم علينا، فإن الله يحل من أمره ما يشاء، ويحرم، وهي السنن والفرائض، ويحل لأمة، ويحرم على أخرى، لكن الله لا يقبل من أحد مضى إلا الإخلاص والتوحيد له".

وفي رواية عن قتادة، قال:"كان الكنزُ لِمَن قبلنا، وحُرِّم علينا، وحُرِّمت الغنيمةُ على مَن كان قبلنا، وأُحِلَّت لنا، فلا تعجبنَّ للرجل يقول: ما شأن الكنز أُحِلَّ لِمن قبلنا وحُرِّم علينا؟ فإن الله يُحِلُّ مِن أمره ما يشاء، ويُحَرِّم ما يشاء، وهي السُّنَن والفرائض، تَحِلُّ لأُمَّة، وتَحْرُم على أخرى".

قال الزجاج:"قيل كان «الكنز» علما، وقيل كان «الكنز» مالا، والمعروف في اللغة

=

=

أن «الكنز» إذا أفرد فمعناه: المال المدفون والمدخر، فإذا لم يكن المال قيل: عنده علم وله كنز فهم، و «الكنز» ههنا بالمال أشبه، لأن العلم لا يكاد يتعدم إلا بمعلم، والمال لا يحتاج أن ينتفع فيه بغيره، وجائز أن يكون الكنز كان مالا مكتوبا فيه علم، لأنه قد روي أنه كان لوحا من ذهب عليه مكتوب: «لا إله إلا الله محمد رسول الله»، فهذا مال وعلم عظيم، هو توحيد الله ﷻ وإعلام أن محمدا مبعوث".

والصواب-والله أعلم- هو القول الثاني، "لأن المعروف من كلام العرب أن الكنز اسم لما يكنز من مال، وإن كل ما كنز فقد وقع عليه اسم كنز فإن التأويل مصروف إلى الأغلب من استعمال المخاطبين بالتنزيل، ما لم يأت دليل يجب من أجله صرفه إلى غير ذلك".

قوله تعالى: {وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا} [الكهف: ٨٢]، أي:"وكان أبوهما رجلا صالحًا".

قال سعيد بن جبير:"{وكان أبوهما صالحا}، قال: كان يؤدي الأمانات والودائع إلى أهلها".

عن السدي: قال: " {وكان أبوهما صالحا}، يعني: كان ذا أمانة".

قال ابن عباس:"حفظا بصلاح أبيهما، وما ذكر منهما صلاح".

قال ابن عباس:"إن الله يصلح بصلاح الرجل ولده وولد ولده ويحفظه في ذريته والدويرات حوله، فما يزالون في ستر من الله وعافية".

عن جعفر بن محمد: " ذكر أنهما حفظا بصلاح أبيهما، ولم يذكر منهما صلاح، وكان بينهما وبين الأب الذي حفظا به سبعة آباء، وكان نساجا".

عن أبي موسى، قال: قرأ الحسنُ البصريُّ هذه الآية: {وكان أبوهما صالحا}. قال: ما أسمعه ذَكَر في ولدهما خيرًا، حفظهما اللهُ بحفظ أبيهما".

عن كعب الأحبار، قال: "إنّ الله تعالى يخلف العبدَ المؤمن في ولده ثمانين عامًا".

=

=

قال ابن كثير: "فيه دليل على أن الرجل الصالح يحفظ في ذريته، وتشمل بركة عبادته لهم في الدنيا والآخرة، بشفاعته فيهم ورفع درجتهم إلى أعلى درجة في الجنة لتقر عينه بهم، كما جاء في القرآن ووردت السنة به".

عن خيثمة بن عبد الرحمن بن أبي سبرة، قال: "قال عيسى ابن مريم - عليه السلام - طُوبى لذُرِّيَّةٍ مؤمن، ثم طُوبى لهم، كيف يُحْفَظون مِن بعده! وتلا خيثمة: {وكان أبوهما صالحا}".

عن جابر بن عبد الله، قال: قال رسول الله ﷺ: «إنّ الله ﷻ يُصلِح بصلاح الرجل الصالح ولده، وولد ولده، وأهل دويرته، وأهل دويراتٍ حولَه، فما يزالون في حفظ الله تعالى ما دام فيهم». عن محمد بن المنكدر، موقوفًا.

عن سعيد بن المسيب -من طريق هشام الدستوائي عمن ذكره- أنه كان إذا رأى ابنه قال: أي بني؛ لأَزيدن صلواتي من أجلك رجاء أن أحفظ فيك. ويتلو هذه الآية".

عن وهب بن مُنَبِّه، قال: "إنّ الله لَيحفظ بالعبد الصالح القبيلَ مِن الناس".

عن وهب بن مُنَبِّه، قال: "إنّ الرَّبَّ -تبارك وتعالى- قال في بعض ما يقول لبني إسرائيل: إنِّي إذا أُطِعْتُ رَضِيت، وإذا رَضِيتُ باركتُ، وليس لبركتي نهاية، وإذا عُصِيتُ غَضِبتُ، وإذا غَضِبْتُ لَعَنتُ، ولعنتي تبلغ السابعَ مِن الولد".

عن وهب بن مُنَبِّه، قال: ي"قول الله: اتَّقوا غضبي؛ فإنّ غضبي يُدرَك إلى ثلاثة آباء، وأَحِبُّوا رضائي؛ فإنّ رضائي يُدرَك في الأُمَّة".

عن سليمان بن سليم بن سلمة -من طريق بقِيَّة- قال: "مكتوبٌ في التوراة: إنّ الله لَيحفظ القرنَ إلى القرن إلى سبعة قرون، وإنّ الله يُهْلِك القرنَ إلى القرن إلى سبعة قرون".

قوله تعالى: {فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا} [الكهف: ٨٢]،

=

=

أي:"فأراد ربك أن يكبَرا ويبلغا قوتهما، ويستخرجا كنزهما".

قال الطبري:"أراد ربك أن يدركا ويبلغا قوتهما وشدتهما، ويستخرجا حينئذ كنزهما المكنوز تحت الجدار الذي أقمته".

قال ابن كثير:"هاهنا أسند الإرادة إلى الله تعالى؛ لأن بلوغهما الحلم لا يقدر عليه إلا الله، وقال في الغلام: {فَأَرَدْنَا أَنْ يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِنْهُ} وقال في السفينة: {فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا}، فالله أعلم".

وفي تفسير «الأشد» في قوله تعالى: {أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا} [الأنعام: ١٥٢] [الكهف: ٨٢]، أقوال:

أحدها: أنه الحلم حين تكتب له الحسنات وعليه السيئات، قاله ربيعة، وزيد بن أسلم، ومالك، وعامر.

والثاني: أنه خمس عشرة سنة. وهذا قول محمد بن قيس.

والثالث: أنه ثماني عشرة سنة، وهذا قول سعيد بن جبير، وحكاه الماوردي عن علي بن عيسى، وبه قال مقاتل.

والرابع: أنه خمس وعشرون سنة. قاله عكرمة، وهو اختيار أبي حنيفة.

قال ابن العربي: "وعجبا من أبي حنيفة، فإنه يرى أن المقدرات لا تثبت قياسا ولا نظرا وإنما تثبت نقلا، وهو يثبتها بالأحاديث الضعيفة، ولكنه سكن دار الضرب فكثر عنده المدلس، ولو سكن المعدن كما قيض الله لمالك لما صدر عنه إلا إبريز الدين".

والخامس: أن الأَشُد: ثلاثون سنة، قاله السدي.

والسادس: أن الأشد: ثلاث وثلاثون سنة. وهذا مروي عن ابن عباس، ومجاهد، وقتادة.

والسابع: أنه أربعون سنة. وهذا قول الحسن.

=

=

والثامن: أنه ما بين الثمانية عشر سنة إلى ثلاثين سنة. قاله ابن عباس، والكلبي.

والتاسع: أنه حتى يعقل وتجتمع قوته. قاله أبو العالية.

والعاشر: أنه حتى: يتناهى في الثبات إلى حد الرجال.

والحادي عشر: أن بلوغ أشده: أن يؤنس منه الرشد مع أن يكون بالغا. قاله الزجاج.

والثاني عشر: أن انتهاء الكهولة فيها مجتمع الأشد، كما قال سحيم بن وثيل:

أَخُو خَمْسِينَ مُجْتَمِعٍ أَشُدِّي... وَنَجَّذَنِي مُدَاوَرَةُ الشُّؤُونِ

و «الأَشُدّ»: جمع «شَدٍّ»: أي: القوة، وهو استحكام قوة شبابه وسنه، كما: شَدُّ النهار، ارتفاعه وامتداده. يقال: أتيته شدَّ النهار ومدَّ النهار، وذلك حين امتداده وارتفاعه؛ وكان المفضل ينشد بيت عنترة:

عَهْدِي بِهِ شَدَّ النَّهَارِ كَأَنَّمَا... خُضِبَ اللَّبَانُ وَرَأْسُهُ بِالْعِظْلِمِ

ومنه قول الآخر:

تُطِيفُ بِهِ شَدَّ النَّهَارِ ظَعِينَةٌ... طَوِيلَةُ أَنْقَاءِ اليَدَيْنِ سَحُوقُ

قوله تعالى: {رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ} [الكهف: ٨٢]، أي:"رحمةً من الله بهما لصلاح أبيهما".

عن السدي:"قال: {رحمة من ربك} لهما".

قال مقاتل: " {رحمة من ربك}، يقول: نِعمة مِن ربِّك للغلامين".

قال الطبري:"يقول: فعلت فعل هذا بالجدار، رحمة من ربك لليتيمين".

قوله تعالى: {وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي} [الكهف: ٨٢]، أي:"وما فعلتُ يا موسى جميع الذي رأيتَني فعلتُه عن أمري ومن تلقاء نفسي، وإنما فعلته عن أمر الله".

قال الطبري:"يقول: وما فعلت يا موسى جميع الذي رأيتني فعلته عن رأيي، ومن تلقاء نفسي، وإنما فعلته عن أمر الله إياي به".

=

=

قال مقاتل: " {وما فعلته}: وما فعلت هذا {عن أمري}، ولكنَّ الله أمرني به".

عن محمد بن إسحاق -من طريق سلمة-:"{وما فعلته عن أمري}: ما رأيتَ أجمعَ ما فعَلتُه عن نفسي".

قال قتادة:"كان عبدا مأمورا، فمضى لأمر الله".

قال ابن كثير:"أي: هذا الذي فعلته في هذه الأحوال الثلاثة، إنما هو من رحمة الله بمن ذكرنا من أصحاب السفينة، ووالدي الغلام، وولدي الرجل الصالح، {وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي} لكني أمرت به ووقفت عليه، وفيه دلالة لمن قال بنبوة الخضر، عليه السلام، مع ما تقدم من قوله: {فَوَجَدَا عَبْدًا مِنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا}.

وقال آخرون: كان رسولا.

وقيل: بل كان ملكًا. نقله الماوردي في تفسيره.

وذهب كثيرون إلى: أنه لم يكن نبيًا. بل كان وليًا. فالله أعلم".

قوله تعالى: {ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا} [الكهف: ٨٢]، أي:"ذلك الذي بَيَّنْتُ لك أسبابه هو عاقبة الأمور التي لم تستطع صبرًا على ترك السؤال عنها والإنكار عليَّ فيها".

قال مقاتل: " {ذلك تأويل} يعني: عاقبة {ما لم تسطع عليه صبرا} يعني: هذا عاقبة ما رأيتَ مِن العجائب. نظيرها: {هل ينظرون إلا تأويله} [الأعراف: ٥٣]، يعني: عاقبة ما ذكر الله تعالى في القرآن من الوعيد".

قال يحيى بن سلّام: " {ذلك تأويل} تبيان {ما لم تسطع عليه صبرا}".

قال الطبري:"يقول: هذا الذي ذكرت لك من الأسباب التي من أجلها فعلت الأفعال التي استنكرتها مني، تأويل: يقول: ما تئول إليه وترجع الأفعال التي لم تسطع على ترك مسألتك إياي عنها، وإنكارك لها صبرا".

=

=

قال الطبري: "وهذه القصص التي أخبر الله ﷻ نبيه محمدا ﷺ بها عن موسى وصاحبه، تأديب منه له، وتقدم إليه بترك الإستعجال بعقوبة المشركين الذين كذبوه واستهزءوا به وبكتابه، وإعلام منه له أن أفعاله بهم وإن جرت فيما ترى الأعين بما قد يجري مثله أحيانا لأوليائه، فإن تأويله صائر بهم إلى أحوال أعدائه فيها، كما كانت أفعال صاحب موسى واقعة بخلاف الصحة في الظاهر عند موسى، إذ لم يكن عالما بعواقبها، وهي ماضية على الصحة في الحقيقة وآئلة إلى الصواب في العاقبة، ينبئ عن صحة ذلك قوله: {وربك الغفور ذو الرحمة لو يؤاخذهم بما كسبوا لعجل لهمالعذاب بل لهم موعد لن يجدوا من دونه موئلا}. ثم عقب ذلك بقصة موسى وصاحبه، يعلم نبيه أن تركه جل جلاله تعجيل العذاب لهؤلاء المشركين، بغير نظر منه لهم، وإن كان ذلك فيما يحسب من لا علم له بما الله مدبر فيهم نظرا منه لهم، لأن تأويل ذلك صائر إلى هلاكهم وبوارهم بالسيف في الدنيا واستحقاقهم من الله في الآخرة الخزي الدائم".

قال ابن كثير: "وذكر ابن قتيبة في «المعارف» أن اسم الخضر: بَلْيَا بن مَلْكان بن فالغ بن عامر بن شالخ بن أرفخشذ بن سام بن نوح، عليه السلام، قالوا: وكان يكنى أبا العباس، ويلقب بالخضر، وكان من أبناء الملوك، ذكره النووي في تهذيب الأسماء، وحكى هو وغيره في كونه باقيًا إلى الآن ثم إلى يوم القيامة قولين، ومال هو وابن الصلاح إلى بقائه، وذكروا في ذلك حكايات وآثارًا عن السلف وغيرهم وجاء ذكره في بعض الأحاديث. ولا يصح شيء من ذلك، وأشهرها أحاديث التعزية وإسناده ضعيف.

ورجح آخرون من المحدثين وغيرهم خلاف ذلك، واحتجوا بقوله تعالى: {وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ الْخُلْدَ} [الأنبياء: ٣٤]، وبقول النبي ﷺ يوم بدر: «اللهم إن تهلك هذه العصابة لا تعبد في الأرض»، وبأنه لم ينقل أنه جاء إلى رسول الله ﷺ

=

=

ولا حضر عنده، ولا قاتل معه.

ولو كان حيا لكان من أتباع النبي ﷺ وأصحابه؛ لأنه عليه السلام كان مبعوثًا إلى جميع الثقلين: الجنّ والإنس، وقد قال: «لو كان موسى وعيسى حَيَّيْن ما وسعهما إلا اتباعي»، وأخبر قبل موته بقليل: أنه لا يبقى ممن هو على وجه الأرض إلى مائة سنة من ليلته تلك عين تَطْرفُ، إلى غير ذلك من الدلائل".

أخرج ابن أبي حاتم عن أبي سعيد، قال: "سمعت إن آخر كلمة أوصى بها الخضر موسى حين فارقه: إياك إن تعير مسيئا بإساءته فتبتلى".

قوله تعالى (وأما الجدار) الذي أقمته.

(فكان لغلامين يتيمين في المدينة) أي أن هذا الجدار إنما أصلحته لأنه كان لغلامين يتيمين في المدينة.

(وكان تحته كنز لهما) كان تحته مال مدفون لهما، وهذا اختيار ابن جرير وابن كثير.

- **قال القرطبي**: وهو الظاهر من اسم الكنز، إذ هو في اللغة: المال المجموع.

قال بعض العلماء: المراد بالكنز العلم بدليل أنه قال (وكان أبوهما صالحا) والرجل الصالح يكون كنزه العلم لا المال.

والصحيح أن المراد بالكنز أنه المال لوجهين:

أولا: أن المفهوم من لفظ الكنز هو المال.

والثاني: أن قوله (ويستخرجا كنزهما) يدل على أن ذلك الكنز هو المال.

وهذا قول أكثر المفسرين.

رجحه الطبري، والواحدي، وابن جزي، والرازي، والقرطبي، والبيضاوي، وابن كثير.

قال الزجاج: والمعروف في اللغة أن الكنز إذا أفرد فمعناه: المال المدفون.

=

=

وقال النحاس: وهذا القول أقوى من جهة اللغة.

(وكان أبوهما صالحا) فيه دليل على أن الرجل الصالح يحفظ في ذريته.

(ف أراد ربك أن يبلغا أشدهما ويستخرجا كنزهما) أي فأراد الله بهذا الصنيع أن يكبرا ويشتد عودهما ويستخرجا كنزهما من تحت الجدار.

(رحمة من ربك) أي رحمة الله بالغلامين لصلاح أبيهما.

قال العلماء: فيه دليل على أن الرجل الصالح يحفظ في ذريته وتشمل بركة عبادته لهم في الدنيا والآخرة بشفاعته فيهم ورفع درجتهم إلى أعلى درجة في الجنة لتقر عينه بهم.

(وما فعلته عن أمري) أي ما فعلت من خرق السفينة، وقتل الغلام، وإقامة الجدار، من قبل نفسي، وإنما فعلته بأمر الله وإلهامه.

استدل بهذه الآية من قال بنبوة الخضر (وسيأتي بالفوائد مزيد بحث إن شاء الله).

(ذلك) الذي فسرته لك.

(تأويل ما لم تستطع عليه صبرا) أي هذا تفسير ما ضقت به ذرعا، ولم تصبر حتى أخبرك به ابتداء.

مسألة: هل الخضر نبي.

أكثر العلماء على نبوة الخضر.

قال ابن عطية: الخضر نبي عند الجمهور، وقيل هو عبد صالح غير نبي، والآية تشهد بنبوته لأن بواطن أفعاله هل كانت إلا بوحي الله.

وقال ابن كثير: فلو كان وليا وليس بنبي لم يخاطبه موسى بهذه المخاطبة، ولم يرد على موسى هذا الرد.... لا يجوز له الإقدام على قتل النفوس بمجرد ما يلقى في خلده، لأن خاطره ليس بواجب العصمة بل يجوز عليه الخطأ بالاتفاق.

وقال العلامة الشنقيطي - رحمة الله تعالى عليه - في تفسير قوله تعالى: {فوجدا

=

=

عبدا من عبادنا آتيناه رحمة من عندنا وعلمناه من لدنا علما} الكهف/ ٦٥: ولكنه يفهم من بعض الآيات أن هذه الرحمة المذكورة هنا رحمة نبوة، وأن هذا العلم اللدني علم وحي... ومعلوم أن الرحمة وإيتاء العلم اللدني أعم من كون ذلك عن طريق النبوة وغيرها، والاستدلال بالأعم على الأخص في أن وجود الأعم لا يستلزم وجود الأخص كما هو معروف، ومن أظهر الأدلة في أن الرحمة والعلم اللدني الذين امتن الله بهما على عبده الخضر عن طريق النبوة والوحي قوله تعالى: {وما فعلته عن أمري} الكهف / ٨٢، أي: وإنما فعلته عن أمر الله جل وعلا، وأمر الله إنما يتحقق بطريق الوحي، إذ لا طريق تعرف بها أوامر الله ونواهيه إلا الوحي من الله جل وعلا، ولا سيما قتل الأنفس البريئة في ظاهر الأمر، وتعييب سفن الناس بخرقها؛ لأن العدوان على أنفس الناس وأموالهم لا يصح إلا عن طريق الوحي من الله تعالى، وقد حصر تعالى طرق الإنذار في الوحي في قوله تعالى: (قل إنما أنذركم بالوحي) الأنبياء/ ٤٥، و " إنما " صيغة حصر.

وقال أيضا:"... وبهذا كله تعلم: أن قتل الخضر للغلام، وخرقه للسفينة وقوله: (وما فعلته عن أمري)، دليل ظاهر على نبوته، وعزا الفخر الرازي في تفسيره القول بنبوته للأكثرين، ومما يستأنس به للقول بنبوته تواضع موسى عليه الصلاة والسلام له في قوله: (هل أتبعك على أن تعلمني مما علمت رشدا) الكهف/ ٦٦، وقوله: (ستجدني إن شاء الله صابرا ولا أعصي لك أمرا) الكهف/ ٦٩، مع قول الخضر له: (وكيف تصبر على ما لم تحط به خبرا) الكهف/ ٦٨.".

وقال العلامة الألباني كما في موسوعته العقدية (٢/ ٥١٦): قال الحافظ ابن حجر رحمه الله في أول رسالته «الزهر النضر»: «باب ما ورد في كونه نبيًا، قال الله تعالى في خبره عن موسى حكاية عنه: {وما فعلته عن أمري}، وهذه ظاهرة أنه فعله بأمر من الله، والأصل عدم الوساطة، ويحتمل أن يكون بوساطة نبي آخر لم يذكره،

=

=

وهو بعيد، ولا سبيل إلى القول بأنه إلهام، لأن ذلك لا يكون من غير نبي وحيًا حتى يعمل به ما عمل؛ من قتل النفس، وتعريض الأنفس للغرق. فإن قلنا: إنه نبي، فلا إنكار في ذلك.

وأيضًا، كيف يكون غير النبي أعلم من النبي، وقد أخبر النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - في الحديث الصحيح: «أن الله تعالى قال لموسى: بلى عبدنا خضر»؟!. وأيضا فكيف يكون النبي تابعًا لغير نبي؟! وقال الثعلبي: هو نبي في جميع الأقوال. وكان بعض أكابر العلماء يقول: أول عقدة تحل من الزندقة اعتقاد كون الخضر نبيًا، لأن الزنادقة يتذرعون بكونه غير نبي إلى أن الولي أفضل من النبي! كما قال قائلهم وهو ابن عربي صاحب «الفصوص» و «الفتوحات المكية»:

مقام النبوة في برزخ... فويق الرسول ودون الولي

قلت: وهناك آية أخرى تدل على نبوته عليه الصلاة والسلام، وهي قوله تعالى في: {آتيناه رحمة من عندنا}، فقد ذكر العلامة الآلوسي في تفسيرها ثلاثة أقوال، أشار إلى تضعيفها كلها، ثم قال: «والجمهور على أنها الوحي والنبوة، وقد أطلقت على ذلك في مواضع من القرآن، وأخرج ذلك ابن أبي حاتم عن ابن عباس،... والمنصور ما عليه الجمهور، وشواهده من الآيات والأخبار كثيرة، وبمجموعها يكاد يحصل اليقين» روح المعاني (٥/ ٩٢ - ٩٣).

قلت: ولقد صدق رحمه الله تعالى، فإن المتأمل في قصته مع موسى عليهما الصلاة والسلام يجد أن الخضر كان مظهرًا على الغيب وليس ذلك لأحد من الأولياء، بدليل قوله تعالى: {عالم الغيب فلا يظهر على غيبة أحدًا إلا من ارتضى من رسول}، وذلك ظاهر في مواطن عدة من القصة، أذكر ما تيسر منها:

١ - قوله لموسى عندما طلب منه الصحبة {إنك لن تستطيع معي صبرا} فهذا الجزم منه عليه السلام لدليل واضح على أنه كان على علم بذلك، ولم يكن من باب

=

=

الظن والتخرص منه، حاشاه، ويؤيده زيادة جاءت في بعض طرق الحديث عقب هذه الآية بلفظ: «وكان رجلًا يعلم علم الغيب، قد علم ذلك».

٢- ومثله قوله في تأويله قتل الغلام: «وأما الغلام فطبع يوم طبع كافرًا، وكان أبواه قد عطفا عليه، فلو أنه أدرك، أرهقهما طغيانًا وكفرًا، فأردنا أن يبدلهما ربهما خيرًا منه زكاة وأقرب رحمًا». زاد في رواية: «ووقع أبوه على أمه فعلقت فولدت منه خيرًا منه زكاة وأقرب رحمًا». وإخباره عليه السلام أن الغلام طبع كافرًا، وأن أباه وقع على أمه فحملت وولدت خيرًا منه، لهو من الأمور الغيبية المحضة التي لا مجال للاطلاع عليها إلا من طريق النبوة والوحي، فذلك من أقوى الأدلة على أنه كان نبيًا، إن لم يكن رسولا.

٣- ومن ذلك قول - صلى الله عليه وآله وسلم -: «لما لقي موسى الخضر عليهما السلام، جاء طير، فألقى منقاره في الماء فقال الخضر لموسى: تدري ما يقول هذا الطير؟ قال: وما يقول؟ قال: يقول: ما علمك وعلم موسى في علم الله إلا كما أخذا منقاري من الماء». فهذا صريح في أن الخضر، قد علم منطق الطير، وهو من الغيب الذي لا يعلمه البشر، فهو في هذا على نحو النبي سليمان عليه الصلاة والسلام الذي حكى الله عنه في القرآن: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ} (النمل: ١٦). وخلاصة القول في هذه المسألة أن الأدلة المتقدمة إذا تأملها المسلم ووعاها بقلبه، تيقن أن الصواب القول بنبوة الخضر كما ذهب إليه جمهور العلماء ولذلك فعل ما فعل من العجائب التي لم يصبر لها موسى عليه الصلاة والسلام، وهو كليم الله تعالى، وبه نستطيع أن نحل تلك العقدة من الزندقة التي أشار إليها الحافظ ابن حجر فيما سبق، ونحوها مما يعتقده كثير من الصوفية من الاعتقاد بالظاهر والباطن، والحقيقة والشريعة التي أفسد عقيدة كثير من الخاصة فضلًا عن العامة، فاعتقدوا الصلاح بل الولاية في كثير من الفساق الذين لا يصلون

=

=

ولا يشهدون جماعات المسلمين ولا أعيادهم بدعوى الظاهر، وأنهم في الباطن من كبار أولياء الله، تعالى الله عما يقول الظالمون علوًا كبيرًا، وما قصة شيخ الإسلام ابن تيمية مع البطائحية الذين كانوا يتظاهرون في دمشق بالولاية والكرامة في زمانه حتى نصره الله عليهم، وقضى على باطنهم وباطلهم عن القارئ يعيد. {إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ} (ق: ٣٧).

مسألة: هل الخضر حي.

الصواب أن الخضر ميت وليس بحي خلافا لبعض العلماء الذين قالوا إنه حي حتى الآن.

وذهب بعض العلماء: إلى أنه حي. ورجحه القرطبي، وممن نصر القول بحياته: النووي في شرحه على مسلم، وابن الصلاح.

وممن قال بوفاته: الإمام البخاري، وإبراهيم الحربي، وابن الجوزي، وابن تيمية، وابن القيم، وابن العربي، وابن حجر، وابن عطية، وابن كثير، والشنقيطي.

قال شيخ الإسلام في مجموع الفتاوى (٢٧/ ١٨ - ١٩): وكذلك الذين يرون الخضر أحيانا هو جني رآه وقد رآه غير واحد ممن أعرفه وقال إنني الخضر وكان ذلك جنيا لبس على المسلمين الذين رأوه؛ وإلا فالخضر الذي كان مع موسى عليه السلام مات ولو كان حيا على عهد رسول الله ﷺ لوجب عليه أن يأتي إلى النبي ﷺ ويؤمن به ويجاهد معه؛ فإن الله فرض على كل أحد أدرك محمدا - ولو كان من الأنبياء - أن يؤمنوا به ويجاهدوا معه كما قال الله تعالى: {وإذ أخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنه قال أأقررتم وأخذتم على ذلكم إصري قالوا أقررنا قال فاشهدوا وأنا معكم من الشاهدين} قال ابن عباس رضي الله عنه لم يبعث الله نبيا إلا أخذ عليه الميثاق لئن بعث محمد وهو حي ليؤمنن به ولينصرنه وأمره أن يأخذ الميثاق على أمته لئن

=

=

بعث محمدا وهم أحياء ليؤمنن به ولينصرنه، ولم يذكر أحد من الصحابة أنه رأى الخضر ولا أنه أتى إلى النبي ﷺ فإن الصحابة كانوا أعلم وأجل قدرا من أن يلبس الشيطان عليهم؛ ولكن لبس على كثير ممن بعدهم فصار يتمثل لأحدهم في صورة النبي ويقول: أنا الخضر وإنما هو شيطان كما أن كثيرا من الناس يرى ميته خرج وجاء إليه وكلمه في أمور وقضى حوائج فيظنه الميت نفسه وإنما هو شيطان تصور بصورته وكثير من الناس يستغيث بمخلوق إما نصراني كجرجس أو غير نصراني فيراه قد جاءه وربما يكلمه وإنما هو شيطان تصور بصورة ذلك المستغاث به لما أشرك به المستغيث تصور له كما كانت الشياطين تدخل في الأصنام وتكلم الناس ومثل هذا موجود كثير في هذه الأزمان في كثير من البلاد ومن هؤلاء من تحمله الشياطين فتطير به في الهواء إلى مكان بعيد ومنهم من تحمله إلى عرفة فلا يحج حجا شرعيا ولا يحرم ولا يلبي ولا يطوف ولا يسعى؛ ولكن يقف بثيابه مع الناس ثم يحملونه إلى بلده. وهذا من تلاعب الشياطين بكثير من الناس كما قد بسط الكلام في غير هذا الموضع. والله أعلم بالصواب. وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

وقال ابن القيم في المنار الميف (٦٧): فصل ومنها الأحاديث التي يذكر فيها الخضر وحياته كلها كذب ولا يصح في حياته حديث واحد كحديث إن رسول الله ﷺ كان في المسجد فسمع كلاما من ورائه فذهبوا ينظرون فإذا هو الخضر وحديث يلتقي الخضر وإلياس كل عام وحديث يجتمع بعرفة جبريل وميكائيل والخضر الحديث المفترى الطويل.

سئل إبراهيم الحربي عن تعمير الخضر وأنه باق فقال من أحال على غائب لم ينتصف منه وما ألقى هذا بين الناس إلا شيطان وسئل البخاري عن الخضر وإلياس هل هما أحياء فقال كيف يكون هذا وقد قال النبي ﷺ لا يبقى على رأس

=

=

مئة سنة ممن هو اليوم على ظهر الأرض أحد وسئل عن ذلك كثير غيرهما من الأئمة فقالوا وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد أفإن مت فهم الخالدون وسئل عنه شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله فقال لو كان الخضر حيا لوجب عليه أن يأتي النبي ﷺ ويجاهد بين يديه ويتعلم منه وقد قال النبي ﷺ يوم بدر اللهم إن تهلك هذه العصابة لا تعبد في الأرض وكانوا ثلاث مئة وثلاثة عشر رجلا معروفين بأسمائهم وأسماء آبائهم وقبائلهم فأين كان الخضر حينئذ، قال أبو الفرج بن الجوزي والدليل على أن الخضر ليس بباق في الدنيا أربعة أشياء القرآن والسنة وإجماع المحققين من العلماء والمعقول.

أما القرآن فقوله تعالى وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد فلو دام الخضر كان خالدا

وأما السنة فذكر حديث أرأيتكم ليلتكم هذه فإن على رأس مئة سنة منها لا يبقى على ظهر الأرض ممن هو اليوم عليها أحد متفق عليه وفي صحيح مسلم عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال قال رسول الله ﷺ قبل موته بقليل ما من نفس منفوسة يأتي عليها مئة سنة وهي يومئذ حية.

وأما إجماع المحققين من العلماء فقد ذكر عن البخاري وعلي بن موسى الرضا أن الخضر مات وأن البخاري سئل عن حياته فقال وكيف يكون ذلك وقد قال النبي ﷺ أرأيتكم ليلتكم هذه فإن على رأس مئة سنة منها لا يبقى ممن على ظهر الأرض أحد قال وممن قال إن الخضر مات إبراهيم بن إسحاق الحربي وأبو الحسين بن المنادي وهما إمامان وكان ابن المنادي يقبح قول من يقول إنه حي وحكى القاضي أبو يعلى موته عن بعض أصحاب أحمد وذكر عن بعض أهل العلم أنه احتج بأنه لو كان حيا لوجب عليه أن يأتي إلى النبي ﷺ

وقال حدثنا أحمد حدثنا شريح بن النعمان حدثنا هشيم أخبرنا مجالد عن الشعبي عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال والذي نفسي بيده لو أن موسى

=

وَيَسْأَلُونَكَ عَنْ ذِي الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْرًا (٨٣).

{وَيَسْأَلُونَك} أَيْ الْيَهُود {عَنْ ذِي الْقَرْنَيْنِ} اسْمه الْإِسْكَنْدَر وَلَمْ يَكُنْ نَبِيًّا {قُلْ سَأَتْلُو} سَأَقُصُّ {عَلَيْكُمْ مِنْهُ} مِنْ حَاله {ذِكْرًا} خَبَرًا.

إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا (٨٤).

{إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْض} بِتَسْهِيلِ السَّيْر فِيهَا {وَآتَيْنَاهُ مِنْ كُلّ شَيْء} يَحْتَاج إِلَيْهِ {سَبَبًا} طَرِيقًا يُوصِلهُ إِلَى مُرَاده.

فَأَتْبَعَ سَبَبًا (٨٥).

{فَأَتْبَعَ سَبَبًا} سَلَكَ طَرِيقًا نَحْو الْغَرْب.

حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِنْدَهَا قَوْمًا قُلْنَا يَاذَا الْقَرْنَيْنِ إِمَّا أَنْ تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَنْ تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا (٨٦).

{حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَغْرِب الشَّمْس} مَوْضِع غُرُوبهَا {وَجَدَهَا تَغْرُب فِي عَيْن حَمِئَة} ذَات حَمْأَة وَهِيَ الطِّين الْأَسْوَد وَغُرُوبهَا فِي الْعَيْن فِي رَأْي الْعَيْن وَإِلَّا فَهِيَ أَعْظَم مِنْ الدُّنْيَا {وَوَجَدَ عِنْدهَا} أَيْ الْعَيْن {قَوْمًا} كَافِرِينَ {قُلْنَا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ} بِإِلْهَامٍ {إِمَّا أَنْ تُعَذِّب} الْقَوْم بِالْقَتْلِ {وَإِمَّا أَنْ تَتَّخِذ فِيهِمْ حُسْنًا}

=

كان حيا ما وسعه إلا أن يتبعني فكيف يكون حيا ولا يصلي مع رسول الله ﷺ الجمعة والجماعة ويجاهد معه ألا ترى أن عيسى عليه السلام إذا نزل إلى الأرض يصلي خلف إمام هذه الأمة ولا يتقدم لئلا يكون ذلك خدشا في نبوة نبينا ﷺ قال أبو الفرج وما أبعد فهم من يثبت وجود الخضر وينسى ما في طي إثباته من الإعراض عن هذه الشريعة

أما الدليل من المعقول فمن عشرة أوجه ثم ذكرها رحمه الله.

بِالْأَسْرِ.

قَالَ أَمَّا مَنْ ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَى رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُكْرًا (٨٧).

{قَالَ أَمَّا مَنْ ظَلَمَ} بِالشِّرْكِ {فَسَوْفَ نُعَذِّبهُ} نقلته {ثُمَّ يُرَدّ إِلَى رَبّه فَيُعَذِّبهُ عَذَابًا نُكْرًا} بِسُكُونِ الْكَاف وَضَمّهَا شَدِيدًا فِي النَّار.

وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءً الْحُسْنَى وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا (٨٨).

{وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاء الْحُسْنَى} أَيْ الْجَنَّة وَالْإِضَافَة لِلْبَيَانِ وَفِي قِرَاءَة بِنَصْبِ جَزَاء وَتَنْوِينه قَالَ الْفَرَّاء وَنَصْبه عَلَى التَّفْسِير أَيْ لِجِهَةِ النِّسْبَة {وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرنَا يُسْرًا} أَيْ نَأْمُرهُ بِمَا يَسْهُل عَلَيْهِ.

ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا (٨٩).

{ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا} نَحْو الْمَشْرِق.

حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَى قَوْمٍ لَمْ نَجْعَلْ لَهُمْ مِنْ دُونِهَا سِتْرًا (٩٠).

{حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَطْلِع الشَّمْس} مَوْضِع طُلُوعهَا {وَجَدَهَا تَطْلُع عَلَى قَوْم} هُمْ الزَّنْج {لَمْ نَجْعَل لَهُمْ مِنْ دُونهَا} أَيْ الشَّمْس {سِتْرًا} مِنْ لِبَاس وَلَا سَقْف لِأَنَّ أَرْضهمْ لَا تَحْمِل بِنَاء وَلَهُمْ سُرُوب يَغِيبُونَ فِيهَا عِنْد طُلُوع الشَّمْس وَيَظْهَرُونَ عِنْد ارْتِفَاعهَا.

كَذَلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا (٩١).

{كَذَلِكَ} أَيْ الْأَمْر كَمَا قُلْنَا {وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ} أَيْ عِنْد ذِي الْقَرْنَيْنِ مِنْ الآلات والجند وغيرهما {خبرا} علما.

ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا (٩٢).

{ثم أتبع سببا}.

حَتَّى إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِنْ دُونِهِمَا قَوْمًا لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا (٩٣).

{حَتَّى إِذَا بَلَغَ بَيْن السَّدَّيْنِ} بِفَتْحِ السِّين وَضَمّهَا هُنَا وَبَعْدهمَا جَبَلَانِ بِمُنْقَطَعِ بِلَاد التُّرْك سَدّ الْإِسْكَنْدَر مَا بَيْنهمَا كَمَا سَيَأْتِي {وَجَدَ مِنْ دُونهمَا} أَيْ أَمَامهمَا {قَوْمًا لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا} أَيْ لَا يَفْهَمُونَهُ إِلَّا بَعْد بُطْء وَفِي قِرَاءَة بِضَمِّ الْيَاء وَكَسْر الْقَاف.

قَالُوا يَاذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَى أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا (٩٤).

{قَالُوا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوج وَمَأْجُوج} بِالْهَمْزِ وَتَرْكه هُمَا اسْمَانِ أَعْجَمِيَّانِ لِقَبِيلَتَيْنِ فَلَمْ يَنْصَرِفَا {مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْض} بِالنَّهْبِ وَالْبَغْيِ عِنْد خُرُوجهمْ إِلَيْنَا {فَهَلْ نَجْعَل لَك خَرْجًا} جُعْلًا مِنْ الْمَال وَفِي قِرَاءَة خَرَاجًا {عَلَى أَنْ تَجْعَل بَيْنَنَا وَبَيْنهمْ سَدًّا} حَاجِزًا فَلَا يُصَلُّونَ إلينا.

قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا (٩٥).

{قَالَ مَا مَكَّنِّي} وَفِي قِرَاءَة بِنُونَيْنِ مِنْ غَيْر إِدْغَام {فِيهِ رَبِّي} مِنْ الْمَال وَغَيْره {خَيْر} مِنْ خَرْجكُمْ الَّذِي تَجْعَلُونَهُ لِي فَلَا حَاجَة بِي إِلَيْهِ وَأَجْعَل لَكُمْ السَّدّ تَبَرُّعًا {فأعينوني بقوة} لما أطلبه منكم {أجعل بَيْنكُمْ وَبَيْنهمْ رَدْمًا} حَاجِزًا حَصِينًا.

آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ حَتَّى إِذَا سَاوَى بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انْفُخُوا حَتَّى إِذَا جَعَلَهُ نَارًا قَالَ آتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا (٩٦).

{آتُونِي زُبَر الْحَدِيد} قِطَعه عَلَى قَدْر الْحِجَارَة التي يبني بها فبنى بِهَا وَجَعَلَ

بَيْنهَا الْحَطَب وَالْفَحْم {حَتَّى إِذَا سَاوَى بَيْن الصَّدَفَيْنِ} بِضَمِّ الْحَرْفَيْنِ وَفَتْحهمَا وَضَمّ الْأَوَّل وَسُكُون الثَّانِي أَيْ جَانِبَيْ الْجَبَلَيْنِ بِالْبِنَاءِ وَوَضْع الْمَنَافِخ وَالنَّار حَوْل ذَلِكَ {قَالَ انْفُخُوا} فَنَفَخُوا {حَتَّى إِذَا جَعَلَهُ} أَيْ الْحَدِيد {نَارًا} أَيْ كَالنَّارِ {قَالَ آتُونِي أُفْرِغ عَلَيْهِ قِطْرًا} هُوَ النُّحَاس الْمُذَاب تَنَازَعَ فِيهِ الْفِعْلَانِ وَحُذِفَ مِنْ الْأَوَّل لِإِعْمَالِ الثَّانِي النُّحَاس الْمُذَاب عَلَى الْحَدِيد الْمَحْمِيّ فَدَخَلَ بَيْن زُبَره فَصَارَا شَيْئًا واحدا.

فَمَا اسْطَاعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا (٩٧).

{فما اسطاعوا} أَيْ يَأْجُوج وَمَأْجُوج {أَنْ يَظْهَرُوهُ} يَعْلُوا ظَهْره لِارْتِفَاعِهِ وَمَلَاسَته {وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا} لِصَلَابَتِهِ وسمكه.

قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا (٩٨).

{قَالَ} ذُو الْقَرْنَيْنِ {هَذَا} أَيْ السَّدّ أَيْ الْإِقْدَار عَلَيْهِ {رَحْمَة مِنْ رَبِّي} نِعْمَة لِأَنَّهُ مَانِع مِنْ خُرُوجهمْ {فَإِذَا جَاءَ وَعْد رَبِّي} بخروجهم القريب من البعث {جعله دكا} مَدْكُوكًا مَبْسُوطًا {وَكَانَ وَعْد رَبِّي} بِخُرُوجِهِمْ وَغَيْره {حقا} كائنا قال تعالى[1].

---

(١) ذكر سبب النزول.

عن السدي؛ قال: قالت اليهودي للنبي ﷺ: يا محمد! إنما تذكر إبراهيم وموسى وعيسى والنبيين أنك سمعت ذكرهم منا، فأخبرنا عن نبي لم يذكره الله في التوراة إلا في مكان واحد، قال: "ومن هو؟ "، قالوا: ذو القرنين، قال: "ما بلغني عنه شيء"، فخرجوا فرحين وقد غلبوا في أنفسهم، فلم يبلغوا باب البيت حتى نزل جبريل بهؤلاء الآيات: {وَيَسْأَلُونَكَ عَنْ ذِي الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْرًا =

=

(٨٣)}.

ذكره السيوطي في "الدر المنثور" (٥/ ٤٣٥) ونسبه لابن أبي حاتم. وهو معضل.

* قوله تعالى: {وَيَسْأَلُونَكَ عَنْ ذِي الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْرًا (٨٣)} [الكهف: ٨٣]

قال الطبري: "يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: ويسألك يا محمد هؤلاء المشركون عن ذي القرنين ما كان شأنه، وما كانت قصته".

قال الزمخشري: "السائلون: هم اليهود سألوه على جهة الامتحان. وقيل: سأله أبو جهل وأشياعه، والخطاب في «عليكم»: لأحد الفريقين".

واختلف في سبب تسميته بـ «ذي القرنين» على أقوال:

أحدها: أنه دعا قومه إلى الله تعالى، فضربوه على قرنه فهلك، فغبر زمانا، ثم بعثه الله، فدعاهم إلى الله فضربوه على قرنه الآخر فهلك، فذانك قرناه، قاله علي رضي الله عنه.

الثاني: أنه سمي بـ «ذي القرنين»، لأنه سار إلى مغرب الشمس وإلى مطلعها، رواه أبو صالح عن ابن عباس.

عن محمد ابن شهاب الزهري، قال: "إنما سُمِّي: ذا القرنين؛ أنه بلغ قرن الشمس من مغربها، وقرن الشمس من مطلعها".

الثالث: لأن صفحتي رأسه كانتا من نحاس. قاله وهب بن منبه.

الرابع: لأنه رأى في المنام كأنه امتد من السماء إلى الأرض وأخذ بقرني الشمس، فقص ذلك على قومه، فسمي بذي القرنين.

وقال مقاتل: "وإنما سمى ذو القرنين، لأنه أتى قرني الشمس المشرق والمغرب".

الخامس: لأنه ملك الروم وفارس. حكاه وهب بن منبه.

وري عن قتادة: "أنّ ذا القرنين كان من سُوّاس الروم، يَسُوسُ أمورهم، فخُيِّر بين ذِلالِ السحاب وصِعابِها، فاختار ذِلالَها، فكان يركب عليها".

=

=

السادس: لأنه كانت له غديرتان من شعر، قاله الحسن.

عن يونس بن عبيد، قال: "إنّما سُمِّي: ذا القرنين؛ لأنه كان له غديرتان من رأسه مِن شعَر يطأ فيهما".

قال ابن الأنباري: "والعرب تسمي الضفيرتين من الشعر: غديرتين، وجميرتين، وقرنين قال: ومن قال: سمي بذلك لأنه ملك فارس والروم، قال: لأنهما عاليان على جانبين من الأرض يقال لهما: قرنان".

وعن إبراهيم بن علي بن عبد الله بن جعفر، قال: "إنما سمي ذو القرنين: ذا القرنين؛ لشجتين شُجَّهُما على قرنَيه في الله، وكان أسود".

السابع: لأنه كان في رأسه شبه القرنين. حكاه وهب بن منبه -أيضا-.

عن وهب بن منبه -من طريق عبد الصمد بن معقل- أنّه سُئِل عن ذي القرنين. فقال: "لم يُوحَ إليه، وكان ملكًا. قيل: فلِم سُمِّي: ذا القرنين؟ فقال: اختلف فيه أهل الكتاب. فقال بعضهم: ملك الروم وفارس. وقال بعضهم: إنّه كان في رأسه شبه القرنين".

عن عبيد بن تِعْلى، قال: "إنما سمي: ذا القرنين؛ لأنه كان له قرنان صغيران، تُواريهما العِمامة".

ورجّح ابنُ عطية -مستندًا إلى اللغة- في سبب تسمية ذي القرنين بهذا الاسم قول عبيد بن تعلى ومن وافقه، فقال: "فأحسن الأقوال أنه كان ذا ضفرتين مِن شعر هما قرناه، فسُمِّي بهما، ذكره المهدوي وغيره، والضفائر قرون الرأس، ومنه قول الشاعر:

فلثمت فاها آخذًا بقرونها... شرب النَّزيف لبرد ماء الحشرج

ومنه حديث في غسل بنت النبي ﷺ، قالت أم عطية: فضفرنا رأسها ثلاثة قرون. وكثيرًا تجيء تسمية النواصي: قرونًا".

=

=

الثامن: لأنه كان كريم الطرفين من أهل بيت ذوي شرف. قاله أبو إسحاق الثعلبي.

التاسع: لأنه انقرض في زمانه قرنان من الناس، وهو حي. قاله أبو إسحاق الثعلبي -أيضا-.

العاشر: لأنه سلك الظلمة والنور. قاله أبو إسحاق الثعلبي كذلك.

روي عن محمد بن إسحاق، عمَّن يسوق أحاديث الأعاجم مِن أهل الكتاب مِمَّن قد أسلم في ما توارثوا من علمه: "أنّ ذا القرنين كان رجلًا صالحًا مِن أهل مصر، اسمه: مَرْزَبي ابن مَرْذَبَة اليوناني، من ولد يونن بن يافث بن نوح".

وعن ابن عباس:"قال: ذو القرنين: عبد الله بن الضحاك بن معد".

عن قتادة، قال: "الإسكندر هو ذو القرنين".

عن جبير بن نُفَير: "أنّ ذا القرنين ملَك مِن الملائكة، أهبطه الله إلى الأرض، وآتاه من كل شيء سببًا".

عن عبيد بن عمير: "أنّ ذا القرنين حجَّ ماشيًا، فسمع به إبراهيم، فتَلَقّاه".

واختلفوا هل كان نبيا، أم لا؟ على قولين:

أحدهما: أنه كان نبيا، قاله عبد الله بن عمرو، والضحاك بن مزاحم.

الثاني: أنه كان عبدا صالحا، ولم يكن نبيا، ولا ملكا، قاله علي -رضي الله تعالى عنه-.

وقال وهب بن منبه: "كان ملكا".

عن وهب بن منبه، قال: "مَلَك ذو القرنين ثنتي عشرة سنة".

عن وهب بن منبه -من طريق عبد الصمد بن معقل- أنّه سُئِل عن ذي القرنين. فقال: "لم يُوحَ إليه، وكان ملكًا. قيل: فلِم سُمِّي: ذا القرنين؟ فقال: اختلف فيه أهل الكتاب. فقال بعضهم: ملك الروم وفارس. وقال بعضهم: إنّه كان في رأسه شبه القرنين".

=

=

وعن الحسن البصري، قال: "كان ذو القرنين مَلِكًا، وكان رجلًا صالِحًا".

عن الحسن البصري -من طريق قتادة- قال: "كان ذو القرنين مَلَك بعد نُمْرُود، وكان من معه أنّه كان رجلًا مسلمًا صالحًا، أتى المشرق والمغرب، مدَّ الله ﷻ له في الأجل، وبصره حتى قهر البلاد، واحتوى على الأموال، وفتح المدائن، وقتل الرجال، وجال في البلاد والقلاع، فصار حتى أتى المشرق والمغرب؛ فلذلك قول الله ﷻ: {ويسألونك عن ذي القرنين}".

عن الأحوص بن حكيم، عن أبيه، أنّ النبي ﷺ سُئِل عن ذي القرنين. فقال: «هو مَلِك مَسَح الأرض بالأسباب».

وأخرج ابن أبي حاتم عن بكر بن مضر أن هشام بن عبد الملك سأله عن ذي القرنين: أكان نبيا؟ فقال: لا، ولكنه إنما أعطي ما أعطي بأربع خصال كان فيه: كان إذا قدر عفا وإذا وعد وفى وإذا حدث صدق ولا يجمع اليوم لغد".

وفي زمان كونه ثلاثة أقوال:

أحدها: أنه من القرون الأول من ولد يافث بن نوح، قاله علي رضي الله تعالى عنه.

الثاني: أنه كان بعد ثمود، قاله الحسن.

قال ابن الجوزي:"يقال: كان عمره ألفا وستمائة سنة".

والثالث: أنه كان في الفترة بين عيسى ومحمد صلى الله عليهما وسلم، قاله وهب.

وروي عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم، قال: "كان نذيرٌ واحدٌ بلغ ما بين المشرق والمغرب، ذو القرنين بلغ السدين، وكان نذيرًا، ولم أسمع بحقٍّ أنه كان نبيًّا".

عن مجاهد -من طريق حصين بن عبد الرحمن- قال: لم يملك الأرضَ كلها إلا أربعة؛ مؤمنان وكافران، فالمؤمنان: سليمان بن داود، وذو القرنين، والكافران:

=

=
نُمْروذ بن كَوش، وبُخْتَنَصَّر".
قوله تعالى: {قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْرًا} [الكهف: ٨٣]، أي:"قل لهم: سأقصُّ عليكم منه ذِكْرًا تتذكرونه، وتعتبرون به".
قال مقاتل:"يعني: علما".
عن الحسن البصري -من طريق قتادة- في قوله: " {قل سأتلوا عليكم منه ذكرا}، يعني: خَبَرًا". وروي عن السدي مثله.
قال الطبري:"فقل لهم: سأتلو عليكم من خبره ذكرا يقول: سأقص عليكم منه خبرا".
قوله تعالى: {إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ} [الكهف: ٨٤].
قال الطبري:"يقول: إنا وطأنا له في الأرض".
قال أبو الليث:"أي: ملكناه وأعطيناه".
قال البغوي: أي:"أوطأنا، و «التمكين»: تمهيد الأسباب".
قال ابن الجوزي: أي:"سهلنا عليه السير فيها".
قوله تعالى: {وَآتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا} [الكهف: ٨٤]، أي:"وآتيناه من كل شيء أسبابًا وطرقًا، يتوصل بها إلى ما يريد مِن فَتْح المدائن وقهر الأعداء وغير ذلك".
قال الطبري:"يقول وآتيناه من كل شيء، يعني: ما يتسبب إليه وهو العلم به".
قال البغوي:"أي: أعطيناه من كل شيء يحتاج إليه الخلق".
قال البيضاوي:"{وآتيناه من كل شيء} أراده وتوجه إليه. {سببا} وصلة توصله إليه من العلم والقدرة والآلة".
وفي قوله تعالى: {وَآتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا} [الكهف: ٨٤]، وجوه:
أحدها: من كل شيء علمًا ينتسب به إلى إرادته، قاله ابن عباس، والحسن، وقتادة، والضحاك، والسدي، وابن زيد، وابن جريج.
=

=

قال الحسن:"أي: علمًا أن يطلب أسباب المنازل".

قال ابن جريج:"علم كل شيء".

قال الزجاج:"أي: علماً يوصله إلى حيث يريد، كما سخر الله ﷻ لسليمان الريح".

قال ابن زيد:"من ذلك تعليم الألسنة، كان لا يعرف قوما إلا كلمهم بلسانهم".

الثاني: بلاغا بحاجته. قاله الحسن.

الثالث: منازل الأرض وأعلامها. قاله قتادة.

وقال مجاهد:"منزلا وطرفا من المشرق إلى المغرب".

وقال مقاتل:"يعني: علم أسباب منازل الأرض وطرقها".

الرابع: ما يستعين به على لقاء الملوك وقتل الأعداء وفتح البلاد حكاه الماوردي.

الخامس: وجعلنا له من كل أرض وليها سلطانًا وهيبة. حكاه الماوردي.

عن سعيد بن أبي هلال:"أنّ معاوية بن أبي سفيان قال لكعب الأحبار: أنت تقول: إنّ ذا القرنين كان يربط خيله بالثريا؟! قال له كعب: إن كنتُ قلتُ ذاك فإنّ الله قال: {وآتيناه من كل شيء سببا}".

قال ابن كثير «وهذا الذي أنكره معاوية؟ على كعب الأحبار هو الصواب، والحقُّ مع معاوية في الإنكار؛ فإن معاوية كان يقول عن كعب: إن كنا لنبلو عليه الكذب. يعني: فيما ينقله، لا أنه كان يتعمد نقل ما ليس في صحيفته، ولكن الشأن في صحيفته أنّها مِن الإسرائيليات التي غالبها مُبَدَّل مُصَحَّف مُحَرَّف مُخْتَلَق. وتأويل كعب قول الله: {وآتَيْناهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا} واستشهاده في ذلك على ما يجده في صحيفته مِن أنّه كان يربط خيله بالثريا غير صحيح ولا مطابِق؛ فإنه لا سبيل للبشر إلى شيء من ذلك، ولا إلى التَّرَقِّي في أسباب السموات».

(إنا مكنا له في الأرض) أي أعطيناه ملكا عظيما ممكنا فيه من جميع ما يؤتى

=

=

الملوك من التمكين والجنود وآلات الحرب والحضارات، ولهذا ملك المشارق والمغارب من الأرض، ودانت له البلاد، وخضعت له ملوك البلاد.

(وآتيناه من كل شيء سببا) أي: أعطيناه علما يتوصل به إلى كل ما يريد، وقوة على ذلك ايضا.

قال ابن عباس: علما يتسبب به إلى ما يريد.

وقيل: هو العلم بالطرق والمسالك.

وقيل: من كل شيء يستعين به الملوك من فتح المدائن وقهر الأعداء.

قوله تعالى: {فَأَتْبَعَ سَبَبًا (٨٥)} [الكهف: ٨٥]

قال أبو عبيدة:"أي: طريقا وأثرا ومنهجا".

قال ابن قتيبة:"أي: طريقا".

قال الزجاج:"أي: فاتبع سببا من الأسباب التي أوتي".

قال البيضاوي:"أي: فأراد بلوغ المغرب فاتبع سببا يوصله إليه".

عن ابن عباس:"{فاتبع سببا}، يعني: بالسبب، المنزل".

قال ابن زيد:"هذه لأن الطريق كما قال فرعون لهامان: {ابن لي صرحا لعلي أبلغ الأسباب أسباب السموات} [غافر: ٣٦، ٣٧]: طريق السموات. قال: والشيء يكون اسمه واحدًا، وهو متفرق في المعنى. وقرأ: {وتقطعت بهم الأسباب} [البقرة: ١٦٦]. قال: أسباب الأعمال".

وفي {فَأَتْبَعَ سَبَبًا} [الكهف: ٨٥]، وجوه من التفسير:

أحدها: طرق الأرض ومعالمها. قاله الحسن.

الثاني: أن «السبب»، المنزل. قاله ابن عباس، والضحاك.

وقال قتادة: "اتبع منازل الأرض ومعالمها".

الثالث: يعني: طرقًا بين المشرق والمغرب، قاله مجاهد.

=

=

الرابع: طريقًا إلى ما أريد منه.

الخامس: قفا الأثر، حكاه ابن الأنباري.

قرأ أبو جعفر ونافع وابن كثير وأبو عمرو ويعقوب: {فَأَتْبَعَ سَبَبًا} [الكهف: ٨٥]، و {ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا} [الكهف: ٩٢] موصولة الألف مشددة التاء. وقرأ ابن عامر وعاصم وحمزة والكسائي وخلف {فاتبع} {ثُمَّ أَتْبَعَ} بقطع الألف وسكون التاء. قال الفراء:"«أتبع» أحسن من «اتبع»، لأن اتبعت الرجل إذا كان يسير وأنت تسير وراءه. وإذا قلت أتبعته بقطع الألف فكأنك قفوته".

قوله تعالى: {حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ} [الكهف: ٨٦].

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: {حتى إذا بلغ} ذو القرنين {مغرب الشمس}".

قوله تعالى: {وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ} [الكهف: ٨٦]، أي:"وجد الشمس في مرأى العين كأنها تغرب في عين حارة ذات طين أسود".

وفي قوله تعالى: {وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ} [الكهف: ٨٦]، وجوه:

أحدها: عين ماء ذات حمأة، قاله ابن عباس، وبه قال ابن قتيبة.

الثاني: يعني: طينة سوداء. قاله كعب، ومجاهد، والكلبي.

عن عطاء بن أبي رباح، عن ابن عباس، قال: "قرأت {في عين حمئة}، وقرأ عمرو بن العاص: «في عين حامية» فأرسلنا إلى كعب. فقال: إنها تغرب في حمأة طينة سوداء".

نافع بن أبي نعيم، قال:"سمعت عبد الرحمن الأعرج يقول: كان ابن عباس يقول: «في عين حمئة» ثم فسرها. ذات حمأة، قال نافع: وسئل عنها كعب، فقال: أنتم أعلم بالقرآن مني، ولكني أجدها في الكتاب تغيب في طينة سوداء".

عن عثمان بن حاضر، قال: "سمعت عبد الله بن عباس يقول: قرأ معاوية هذه الآية، فقال: «عين حامية»، فقال ابن عباس: إنها عين حمئة، قال: فجعلا كعبا

=

=

بينهما، قال: فأرسلا إلى كعب الأحبار، فسألاه، فقال كعب: أما الشمس فإنها تغيب في ثأط، فكانت على ما قال ابن عباس، والثأط: الطين".

قال ابن أبي حاضر:"لو أني عندكما أيدتك بكلام وتزداد به بصيرة في حمئة. قال ابن عباس: وما هو؟ قلت: فيما نأثر قول تبع فيما ذكر به ذا القرنين في كلفه بالعلم وإتباعه إياه:

قد كان ذو القرنين عمرو مسلما... ملكا تدين له الملوك وتحسد

فأتى المشارق والمغارب يبتغي... أسباب ملك من حكيم مرشد

فرأى مغيب الشمس عند غروبها... في عين ذي خلب وثاط حرمد

فقال ابن عباس: ما الخلب؟ قلت: الطين بكلامهم. قال: فما الثاط؟ قلت: الحمأة. قال: فما الحرمد؟ قلت: الأسود. فدعا ابن عباس رضي الله عنهما غلاما فقال له: اكتب ما يقول هذا الرجل".

الثالث: يعني: تغرب في عين حارة. وهذا مروي عن ابن عباس أيضا، والحسن.

وقال مقاتل:"يعني: حارة سوداء".

وفي قراءة معاوية، وقرأ عمرو بن العاص وابن الزبير والحسن «فِي عَيْنٍ حَامِيَةٍ».

وَقَرَأَ ابْن كثير وَنَافِع وَأَبُو عَمْرو {حمئة} وَكَذَلِكَ عَاصِم فى رِوَايَة حَفْص {حمئة} مَهْمُوزَة بِغَيْر ألف، وَقَرَأَ عَاصِم فى رِوَايَة أَبى بكر وَابْن عَامر وَحَمْزَة والكسائى {حمية} بِأَلف غير مَهْمُوزَة.

قال كعب: "ما سمعت أحدا يقرؤها كما في كتاب الله غير ابن عباس، فإنا نجدها في التوراة «تغرب في حمئة سوداء»".

عن ابن عباس قال: "كنا عند معاوية فقرأ «تغرب في عين حامية» فقلت له: ما نقرؤها إلا في عين حمئة فأرسل معاوية إلى كعب فقال: أين تجد الشمس في التوراة تغرب؟ قال: أما العربية فلا علم لي بها، وأما أنا فأجد الشمس في التوراة

=

=

تغرب في ماء وطين".

قال الزجاج:"من قرأ: «حامية» -بغير همز- أراد حارة، وقد تكون حارة ذات حمأة".

قال القتبي: "ويجوز أن تكون هذه العين من البحر، ويجوز أن تكون الشمس تغيب وراءها أو معها أو عندها، فيقام حرف الصفة مقام صاحبه".

عن عبد الله بن عمرو، قال: " نظر رسول الله ﷺ إلى الشمس حين غابت، فقال: في نار الله الحامية، في نار الله الحامية، لولا ما يزعها من أمر الله لأحرقت ما على الأرض".

قال ابنُ تيمية: «ومعنى {تغرب في عين} : أي: في رأي الناظر باتفاق المفسرين، وليس المراد أنها تسقط من الفلك فتغرب في تلك العين».

قوله تعالى: {وَوَجَدَ عِنْدَهَا قَوْمًا} [الكهف: ٨٦]، أي:"ووجد عند مغربها قومًا".

قال الطبري:"ذكر أن أولئك القوم يقال لهم: ناسك".

قال ابن جريج:"مدينة لها اثنا عشر ألف باب، لولا أصوات أهلها لسمع الناس دوي الشمس حين تجب".

عن سعيد بن المسيب قال: "لولا أصوات السّافِرةِ لسُمِع وجْبَةُ الشمس حين تقع عند غروبها".

قال سعد بن أبي صالح:"لولا لغط أهل الرومية سمع الناس وجبة الشمس حين تقع".

قوله تعالى: {قُلْنَا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِمَّا أَنْ تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَنْ تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا} [الكهف: ٨٦]، أي:"قلنا: يا ذا القرنين إما أن تعذبهم بالقتل أو غيره، إن لم يقروا بتوحيد الله، وإما أن تحسن إليهم، فتعلمهم الهدى وتبصرهم الرشاد".

قال الطبري:"يقول: إما أن تقتلهم إن هم لم يدخلوا في الإقرار بتوحيد الله،

=

=

ويذعنوا لك بما تدعوهم إليه من طاعة ربهم، وإما أن تأسرهم فتعلمهم الهدى وتبصرهم الرشاد".

قال الحسن: " {قلنا يا ذا القرنين إما أن تعذب}، يعني: القتل. وذلك حُكْمُ الله فيمَن أظهر الشِّرك، إلا من حُكِم عليه بالجزية مِن أهل الكتاب إذا لم يُسْلِم وأَقَرَّ بالجزية، ومَن تقبل منه الجزية اليوم".

عن السدي:" {وإما أن تتخذ فيهم حسنا}، يعني: العفو".

قال يحيى بن سلّام: "فحكَّموه، فحكم بينهم، فوافق حكمُه حكمَ الله".

(حتى إذا بلغ مغرب الشمس) أي نهاية الأرض من جهة المغرب.

(وجدها تغرب في عين حمئة) أي وجد الشمس تغرب في ماء وطين - حسب ما شاهد لا حسب الحقيقة - فإن الشمس أعظم من أن تدخل في عين من عيون الأرض.

- **قال السعدي**:... حتى رأى الشمس في مرأى العين كأنها تغرب في عين حمئة: أي سوداء، وهذا هو المعتاد لمن كان بينه وبين أفق الشمس الغربي ماء، رآها تغرب في نفس الماء، وإن كانت في غاية الارتفاع.

- هناك قراءة أخرى [حامية] ولا مانع من الجمع بين القراءتين فهي حارة لمجاورتها وهج الشمس عند غروبها وملاقاتها الشعاع بلا حائل، وحمئة في ماء وطين أسود.

(ووجد عندها) أي عند العين أو عند الشمس.

(قوما) أي أمة من الأمم، ذكروا أنها كانت أمة عظيمة من بني آدم.

قال الشوكاني: وكانوا كفارا فخيره الله بين أن يعذبهم وبين أن يتركهم فقال:

(قلنا يا ذا القرنين إما أن تعذب وإما أن تتخذ فيهم حسنا) معنى هذا أن الله مكنه منهم، وحكمه فيهم، وأظفره بهم، وخيره إن شاء قتل وسبى، وإن شاء اتخذ فيهم

=

=

أمرا حسنا، والمراد به دعوتهم إلى الحق.

قوله تعالى: {قَالَ أَمَّا مَنْ ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ} [الكهف: ٨٧].

قال الطبري:"يقول: أما من كفر فسوف نقتله".

عن الضحاك:"{أما من ظلم}، قال: من اشرك".

عن قتادة: " {فسوف نعذبه}، قال: القتل".

قال السدي:"كان عذابه إن يجعلهم في بقر من صفر، ثم توقد تحتهم النار حتى يتقطعوا فيها".

قوله تعالى: {ثُمَّ يُرَدُّ إِلَى رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُكْرًا} [الكهف: ٨٧]، أي:"ثم يرجع إلى ربه، فيعذبه عذابًا عظيمًا في نار جهنم".

قال الطبري:"يقول: ثم يرجع إلى الله تعالى بعد قتله، فيعذبه عذابا عظيما، وهو النكر، وذلك عذاب جهنم".

قال الزجاج:"وعَذَاب اللهِ إيَّاهُ بالنار أنْكَرُ من عذاب القتل".

قال يحيبن سلام: {عَذَابًا نُكْرًا}:"عظيما في الآخرة".

(قال) ذو القرنين مختارا للدعوة التي هي الشق الأخير.

(أما من ظلم) أي استمر على كفره وشركه بربه.

قال ابن عطية: (ظلم) في هذه الآية بمعنى كفر، ثم توعد الكافرين بتعذيبه إياهم قبل عذاب الله، وعقب لهم بذكر عذاب الله، لأن تعذيب ذي القرنين هو اللاحق عندهم، المحسوس لهم، الأقرب نكاية. (فسوف نعذبه) بالقتل في الدنيا. (ثم يرد إلى ربه) في الآخرة. (فيعذبه) فيها. (عذابا نكرا) أي عذابا شديدا بليغا فظيعا.

قوله تعالى: {وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا} [الكهف: ٨٨].

قال الطبري:"يقول: وأما من صدق الله منهم ووحده، وعمل بطاعته، فله عند الله الحسنى، وهي الجنة، جزاء يعني ثوابا على إيمانه، وطاعته ربه".

=

=

عن ابن عباس: "الأعمال الصالحة: سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر".

عن زيد بن أسلم:"{الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ}، قال: رسول الله ﷺ وأصحابه -رضي الله عنهم-".

قوله تعالى: {فَلَهُ جَزَاءً الْحُسْنَى} [الكهف: ٨٨]، أي:"فله الجنة ثوابًا من الله".

عن مسروق بن الأجدع، في قوله: " {فله جزاء الحسنى}، قال: الحسنى له جزاء".

عن مجاهد -من طريق ابن أبي نجيح-:"{وأما من آمن وعمل صالحا فله جزاء الحسنى}، قال: {فله جزاء الحسنى}، قال: هي لا إله إلا الله، أي: الحسنى: هي لا إله إلا الله".

عن مجاهد -من طريق سفيان، عن أبي هاشم صاحب الرُّمّان-: {فَلَهُ جَزَاءً الْحُسْنَى، قال: الجنة".

إسماعيل السدي: {فله جزاء الحسنى}، يعني: العفو".

قوله تعالى: {وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا} [الكهف: ٨٨]، أي:"وسنحسن إليه، ونلين له في القول ونيسِّر له المعاملة".

قال الطبري:"يقول: وسنعلمه نحن في الدنيا ما تيسر لنا تعليمه ما يقربه إلى الله ويلين له من القول. وكان مجاهد يقول نحوا مما قلنا في ذلك".

عن مجاهد:"{وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا}، قال: معروفا".

قال يحيى بن سلّام: " {وسنقول له من أمرنا} ما صَحِبْناه في الدنيا وصَحِبَنا {يسرا}، يعني: العارف".

(وأما من آمن وعمل صالحا) أي تابعنا على ما ندعوه إليه من عبادة الله وحده لا شريك له وعمل الأعمال الصالحات.

=

=

(فله جزاء الحسنى) أي في الدار الآخرة عند الله له الجنة كما قال تعالى (للذين أحسنوا الحسنى).

- قال ابن عطية: (جزاء الحسنى) بإضافة الجزاء إلى (الحسنى)، وذلك يحتمل معنيين: أحدهما أن يريد ب (الحسنى) الجنة، والجنة هي الجزاء، فأضاف ذلك كما قال " دار الآخرة " والدار هي الآخرة.

والثاني أن يريد بـ (الحسنى) أعمالهم الصالحة في إيمانهم، فوعدهم بجزاء الأعمال الصالحة.

(وسنقول له من أمرنا يسرا) أي نيسر عليه في الدنيا فلا نكلفه بما هو شاق بل بالسهل الميسر.

قوله تعالى: {ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا (٨٩)} [الكهف: ٨٩]

قال الطبري:"ثم سار وسلك ذو القرنين طرقا ومنازل".

قال الزجاج:"أي: سببًا آخر مما يوصله إلى قُطْر من أقطار الأرض".

قال ابن كثير:"يقول: ثم سلك طريقًا".

عن ابن عباس:"قوله: {ثم أتبع سببا}، يعني: منزلا".

قال قتادة:"منازل الأرض ومعالمها".

قال يحيى بن سلام:"طرق الأرض ومعالمها لحاجته، على ما وصفتُ من تفسيرهم فيها".

(ثم أتبع سببا) يقول تعالى: ثم سلك طريقا فسار من مغرب الشمس إلى مطلعها.

قال ابن عطية: المعنى: ثم سلك ذو القرنين الطرق المؤدية إلى مقصده، فيجيء سبب الوصول، وكان ذو القرنين، على ما وقع في كتب التواريخ يدوس الأرض بالجيوش الثقال، والسيرة الحميدة، والإعداد الموفي، والحزم المستيقظ المتقد، والتأييد المتواصل، وتقوى الله ﷻ، فما لقي أمة ولا مر بمدينة إلا دانت له،

=

=

ودخلت في طاعته، وكل من عارضه أو توقف عن أمره جعله عظة وآية لغيره.

قوله تعالى: {حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ} [الكهف: ٩٠].

قال ابن كثير:"فسار من مغرب الشمس إلى مطلعها، وكان كلما مرّ بأمة قهرهم وغلبهم ودعاهم إلى الله ﷻ، فإن أطاعوه وإلا أذلهم وأرغم آنافهم، واستباح أموالهم، وأمتعتهم واستخدم من كل أمة ما يستعين به مع جيوشه على أهل الإقليم المتاخم لهم. وذكر في أخبار بني إسرائيل أنه عاش ألفا وستمائة سنة يجوب الأرض طولها والعرض، حتى بلغ المشارق والمغارب".

قوله تعالى: {وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَى قَوْمٍ لَمْ نَجْعَلْ لَهُمْ مِنْ دُونِهَا سِتْرًا} [الكهف: ٩٠]، أي:"الشمس وجدها تطلع على قوم ليس لهم بناء يسترهم، ولا شجر يظلهم من الشمس".

قال الطبري:"ووجد ذو القرنين الشمس تطلع على قوم لم نجعل لهم من دونها سترا، وذلك أن أرضهم لا جبل فيها ولا شجر، ولا تحتمل بناء، فيسكنوا البيوت، وإنما يغورون في المياه، أو يسربون في الأسراب".

قال الزجاج:"أي: لم نجعل لهم شيئًا يُظلهُمْ من سقف ولا لباس".

قال الماوردي:"يعني: من دون الشمس ما يسترهم منها من بناء أو شجر أو لباس. وكانوا يأوون إذا طلعت عليهم إلى أسراب لهم، فإذا زالت عنهم خرجوا لصيد ما يقتاتونه من وحش وسمك".

قال ابن كثير:"أي: أمة ليس لهم بناء يكنهم، ولا أشجار تظلهم وتسترهم من حر الشمس".

قال سعيد بن جبير:"تطلع على قوم حمر قصار، ماكنهم الغيران، فيلقى لهم سمك أكثر معيشتهم".

قال قتادة:"ذكر لنا أنهم كانوا في مكان لا يستقرّ عليه البناء، وإنما يكونون في

=

=
أسراب لهم، حتى إذا زالت عنهم الشمس خرجوا إلى معايشهم وحروثهم". قال قتادة:"يقال: هم الزنج".

قال ابن جريج:"لم يبنوا فيها بناء قط، ولم يبن عليهم فيها بناء قط، وكانوا إذا طلعت عليهم الشمس دخلوا أسرابا لهم حتى تزول الشمس، أو دخلوا البحر، وذلك أن أرضهم ليس فيها جبل، وجاءهم جيش مرّة، فقال لهم أهلها: لا تطلعن عليكم الشمس وأنتم بها، فقالوا: لا نبرح حتى تطلع الشمس، ما هذه العظام؟ قالوا: هذه جيف جيش طلعت عليهم الشمس ها هنا فماتوا، قال: فذهبوا هاربين في الأرض".

عن سلمة بن كهيل في الآية قال: "ليست لهم أكناف، إذا طلعت الشمس طلعت عليهم، ولأحدهم أذنان يفترش واحدة ويلبس الأخرى".

قال محمد بن السائب الكلبي: "هم تاريس وتاويل ومنسك، عراةٌ حفاةٌ عماةٌ عن الحق".

(حتى إذا بلغ مطلع الشمس) أي انتهى إلى مطلعها. (وجدها تطلع على قوم) أي أمة.

(لم نجعل لهم من دونها سترا) أي ليس لهم بناء يكنهم ولا أشجار تظلهم وتسترهم من حر الشمس. وقيل: أن معناه أنه لا ثياب لهم، ويكونون كسائر الحيوانات عراة أبدا.

قوله تعالى: {كَذَلِكَ} [الكهف: ٩١]} [الكهف: ٩١].

قال الزجاج:"وجدها تطلع على قوم كذلك القبيل الذين كانوا عند مغرب الشمس، وأن حكمهم حكم أولئك".

وقد ذكر ابنُ عطية احتمالين في قوله: {كَذلِكَ}، فقال:

- «وقوله: {كَذلِكَ} معناه: فَعَل معهم كفعله مع الأولين أهل المغرب، فأوجز
=

=

بقوله: {كَذلِكَ} . ثم أخبر الله تعالى عن إحاطته بجميع ما لدى ذي القرنين، وما تصرف من أفعاله.

- ويحتمل أن يكون كَذلِكَ استئناف قول، ولا يكون راجعًا على الطائفة الأولى، فتأمله».

ثم رجّح الأول بقوله: «والأول أصوب».

قوله تعالى: {وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا} [الكهف: ٩١]، أي:"وقد أحاط عِلْمُنا بما عنده من الخير والأسباب العظيمة، حيثما توجَّه وسار".

قال الطبري:"يقول: وقد أحطنا بما عند مطلع الشمس علما لا يخفى علينا ما هنالك من الخلق وأحوالهم وأسبابهم، ولا من غيرهم شيء".

عن مجاهد وابن زيد، قوله: " {خُبْرًا}، قال: علما".

قال مقاتل:"يعني: بما عنده عِلمًا".

قال يحيى بن سلام:"أي: هكذا كان ما قصَّ مِن أمر ذي القرنين".

(كذلك) اختلف في ذلك: قيل: كما بلغ مغرب الشمس بلغ مطلعها.

وقيل: كما وجد أولئك عند مغرب الشمس وحكم فيهم، كذلك وجد هؤلاء عند مطلعها وحكم فيهم. وقيل: أن المعنى كذلك أمرهم كما قصصنا عليك.

(وقد أحطنا بما لديه خبرا) أي نحن مطلعون على جميع أحواله، وأحوال جيشه، لا يخفى علينا منها شيء، وإن تفرقت أممهم، وتقطعت بهم الأرض، فإنه تعالى (لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء).

قوله تعالى: {ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا (٩٢)} [الكهف: ٩٢]

قال الطبري:"ثم سار طرقا ومنازل، وسلك سبلا".

قال الزجاج:"أي: سببًا ثالِثًا مما يبلُغُهُ قُطرًا من أقطَارِ الأرْض".

قال ابن كثير:"أي: ثم سلك طريقًا من مشارق الأرض".

=

=

قال قتادة:"منازل الأرض ومعالمها".

قال الحسن:"طرق الأرض ومعالمها لحاجته".

(ثم أتبع سببا) أي سلك طريقا ثالثا بين المشرق والمغرب.

قوله تعالى: {حَتَّى إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ} [الكهف: ٩٣].

قال ابن كثير:"وهما جبلان متناوحان بينهما ثُغْرة يخرج منها يأجوج ومأجوج على بلاد الترك، فيعيثون فيهم فسادًا، ويهلكون الحرث والنسل، ويأجوج ومأجوج من سلالة آدم، عليه السلام، كما ثبت في الصحيحين: «إن الله تعالى يقول: يا آدم. فيقول: لبيك وسعديك. فيقول: ابعث بَعْثَ النار. فيقول: وما بَعْثُ النار؟ فيقول: من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعون إلى النار، وواحد إلى الجنة؟ فحينئذ يشيب الصغير، وتضع كل ذات حمل حملها، فيقال: إن فيكم أمّتين، ما كانتا في شيء إلا كثرتاه: يأجوج ومأجوج».

عن الضحاك:"{بين السدين}، يعني: بين جبلين".

عن قتادة، في قوله:"{بين السدين}، قال: وهما جبلان، يعني: بين الجبلين".

قال ابن عباس:"الجبلين الردم الذي بين يأجوج ومأجوج، أمتين من وراء ردم ذي القرنين: قال: الجبلان: أرمينية وأذربيجان".

قرأ ابن كثير وأبو عمرو: «السُّدَّيْنِ» بضم السين.

روي عن عكرمة، قال:"ما كان من صنعة بني آدم فهو «السَّدُّ»، -يعني بالفتح-، وما كان من صنع الله فهو «السدّ»".

وكان الكسائي يقول: "هما لغتان بمعنى واحد".

قوله تعالى: {وَجَدَ مِنْ دُونِهِمَا قَوْمًا لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا} [الكهف: ٩٣]، أي:"وجد من دونهما قومًا، لا يكادون يعرفون كلام غيرهم".

قال الطبري:"يقول عز ذكره: وجد من دون السدين قوما لا يكادون يفقهون قول

=

=

قائل سوى كلامهم".

قال مقاتل:"يعني: لم يكن أحد يعرف لغتهم".

قال ابن كثير:"لاستعجام كلامهم وبعدهم عن الناس".

قال يحيى بن سلّام: " {وجَدَ مِن دُونِهِما قَوْمًا لا يَكادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا}: كلام غيرهم".

عن ابن جريج، في قوله: " {قَوْمًا لا يَكادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا}، قال: الترك".

(حتى إذا بلغ بين السدين) وهما جبلان متناوحان، بينهما ثغرة يخرج منها يأجوج ومأجوج.

قال بعض العلماء: أي بين الجبلين الذين سد ما بينهما.

- قال ابن جرير: والسد الحاجز بين الشيئين وهما هنا جبلان سد ما بينهما، فردم ذو القرنين حاجزا.

واختلف في مكان هذا السد على أقوال لا يصح منها شيء، لأنه لم يرد في الكتاب والسنة تعيينه، فلا ينبغي الانشغال به.

(وجد من دونهما) أي من ورائهما.

(قوما) أمة من الناس.

(لا يكادون يفقهون قولا) لكون لغتهم غريبة مجهولة، ولقلة فطنتهم.

- **قال الرازي:** قرأ حمزة والكسائي (يفقهون) بضم الياء وكسر القاف على معنى لا يمكنهم تفهيم غيرهم والباقون بفتح الياء والقاف، والمعنى أنهم لا يعرفون غير لغة أنفسهم وما كانوا يفهمون اللسان الذي يتكلم به ذو القرنين.

- وقال الماوردي: وفي (يفقهون) قراءتان:

إحداهما: بفتح الياء والقاف يعني أنهم لا يفهمون كلام غيرهم.

والقراءة الثانية: بضم الياء وكسر القاف، أي لا يفهم كلامهم غيرهم.

=

=

- **قال القرطبي**: والقراءتان صحيحتان، فلا هم يفقهون من غيرهم ولا يفقهون غيرهم.

- قال ابن عطية: قوله (لا يكادون يفقهون قولا) عبارة عن بعد لسانهم عن ألسنة الناس، لكنهم فقهوا وأفهموا بالترجمة ونحوها.

- **وقال ابن الجوزي**: وقيل: كلم ذا القرنين عنهم مترجمون ترجموا.

قوله تعالى: {قَالُوا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ} [الكهف: ٩٤].

قال يحيى بن سلام:"يعني: يقتلون النَّاس في أرض العرب، أرض الإسلام".

قال قتادة:"إن الله جزأ الإنس عشرة أجزاء، تسعة منهم يأجوج ومأجوج، وجزء سائر الناس".

قال بعض العلماء: "هؤلاء من نسل يافث أبي الترك، قال: إنما سموا هؤلاء تركًا؛ لأنهم تركوا من وراء السد من هذه الجهة، وإلا فهم أقرباء أولئك، ولكن كان في أولئك بغي وفساد وجراءة".

قال ابن كثير:"حكى النووي، رحمه الله، في شرح «مسلم» عن بعض الناس: أن يأجوج ومأجوج خلقوا من مني خرج من آدم فاختلط بالتراب، فخلقوا من ذلك، فعلى هذا يكونون مخلوقين من آدم، وليسوا من حواء. وهذا قول غريب جدًا، ثم لا دليل عليه لا من عقل ولا من نقل، ولا يجوز الاعتماد هاهنا على ما يحكيه بعض أهل الكتاب، لما عندهم من الأحاديث المفتعلة، والله أعلم".

قال ابن كثير:"ذكر ابن جرير هاهنا عن وهب بن منبه أثرًا طويلا عجيبًا في سير ذي القرنين، وبنائه السد، وكيفية ما جرى له، وفيه طول وغرابة ونكارة في أشكالهم وصفاتهم، وطولهم وقصر بعضهم، وآذانهم. وروى ابن أبي حاتم أحاديث غريبة في ذلك لا تصح أسانيدها، والله أعلم".

=

=

واختلف أهل التفسير في معنى «الإفساد» الذي وصف الله به هاتين الأمتين، على قولين:

أحدها: أنهم كانوا يأكلون الناس. قاله سعيد بن عبد العزيز، وحبيب الأرجاني.

الثاني: معناه: أن يأجوج ومأجوح سيفسدون في الأرض، لا أنهم كانوا يومئذ يفسدون. حكاه الطبري.

واختلف في تكليف قوم «ياجوج ومأجوج» على قولين:

أحدهما: أنهم مكلفون لتمييزهم.

الثاني: أنهم غير مكلفين لأنهم لو كلفوا لما جاز ألاَّ تبلغهم دعوة الإسلام.

قوله تعالى: {فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَى أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا} [الكهف: ٩٤]، أي:"فهل نجعل لك أجرًا، ونجمع لك مالا على أن تجعل بيننا وبينهم حاجزًا يحول بيننا وبينهم؟".

قال الطبري:"قالوا له: هل نجعل لك خراجا حتى أن تجعل بيننا وبين يأجوج ومأجوح حاجزا يحجز بيننا وبينهم، ويمنعهم من الخروج إلينا. وهو السدّ".

قال ابن كثير:"يعني: أنهم أرادوا أن يجمعوا له من بينهم مالا يعطونه إياه، حتى يجعل بينهم وبينهم سدًا".

عن ابن عباس:"{فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرَاجًا}، قال: أجرا عظيما".

(قالوا) أي هؤلاء القوم الذين لا يفهمون قولا.

قيل: إن فهم ذي القرنين لكلامهم من جملة الأسباب التي أعطاه الله، وقيل: إنهم قالوا ذلك لترجمانهم.

(يا ذا القرنين إن يأجوج ومأجوج مفسدون في الأرض) يأجوج ومأجوج قبيلتان من بني آدم من كما في الحديث (إن الله تعالى يقول: يا آدم أخرج بعث النار، فيقول: وما بعث النار؟ فيقول: من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعون إلى النار

=

=
وواحد إلى الجنة،.... إن فيكم أمتين ما كانتا في شيء إلا كثرتاه، يأجوج ومأجوج).

واختلفوا في كيفية إفسادهم في الأرض فقيل: كانوا يقتلون الناس وقيل كانوا يأكلون لحوم الناس وقيل كانوا يخرجون أيام الربيع فلا يتركون لهم شيئا أخضر وبالجملة فلفظ الفساد محتمل لكل هذه الأقسام، والله أعلم بمراده.

- قال ابن عطية: واختلف الناس في " إفسادهم " الذي وصفوهم به، فقال سعيد بن عبد العزيز: " إفسادهم ": أكل بني آدم، وقالت فرقة " إفسادهم " إنما عندهم توقعا، أي سيفسدون، فطلبوا وجه التحرز منهم، وقالت فرقة: " إفسادهم " هو الظلم والغشم والقتل وسائر وجوه الإفساد المعلوم من البشر، وهذا أظهر الأقوال، لأن الطائفة الشاكية إنما تشكت من ضرر قد نالها.

(فهل نجعل لك خرجا) أي أجرا عظيما، يعني أنهم أرادوا أن يجمعوا له من بينهم مالا يعطونه إياه حتى يجعل بينه وبينهم سدا.

(على أن تجعل بيننا وبينهم سدا) أي لتجعل سدا يحمينا من شر يأجوج ومأجوج.

قوله تعالى: {قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ} [الكهف: ٩٥].

قال الطبري: "قال ذو القرنين: الذي مكنني في عمل ما سألتموني من السدّ بينكم وبين هؤلاء القوم ربي، ووطأه لي، وقوّانى عليه، خير من جُعلكم، والأجرة التي تعرضونها عليّ لبناء ذلك، وأكثر وأطيب".

قال القاسم بن سلام: "{خَيْرٌ} "يعني المال بلغة جرهم".

قال ابن كثير: "فقال ذو القرنين بعفة وديانة وصلاح وقصد للخير: {مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ} أي: إن الذي أعطاني الله من الملك والتمكين خير لي من الذي تجمعونه، كما قال سليمان عليه السلام: {أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَا آتَانِيَ اللهُ خَيْرٌ مِمَّا آتَاكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ} [النمل: ٣٦] وهكذا قال ذو القرنين: الذي أنا فيه خير من
=

=

الذي تبذلونه".

قرأ ابن كثير وحده: «ما مكننى»، بنونين وكذلك هى فى مصاحف أهل مكة، وقرأ الباقون: {ما مكني} مدغما.

قوله تعالى: {فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا} [الكهف: ٩٥]، أي:"فأعينوني بقوة منكم أجعل بينكم وبينهم سدًا".

قال ابن كثير:"ولكن ساعدوني بعملكم وآلات البناء".

قال الطبري:"أعينوني بفَعَلة وصناع يُحسنون البناء والعمل، أجعل بينكم وبين يأجوج ومأجوج ردما. و «الردم»: حاجز الحائط والسدّ، إلا أنه أمنع منه وأشد، يقال: رَدَّم ثوبه يردمه، وهو ثوب مُرَدّم: إذا كان كثير الرقاع، ومنه قول عنترة:

هَلْ غَادَرَ الشُّعَرَاءُ مِنْ مُتَرَدَّمِ... أَمْ هَلْ عَرَفْتَ الدَّارَ بَعْدَ تَوَهُّمِ".

قال الزجاج:"«الردم»: في اللغة أكثر مِنَ السد، لأنَّ الردم ما جُعِلَ بعضه على بعْضٍ يقال: ثوبٌ مُرَدَّمٌ، إذا كان قد رُقِعَ رُقعة فوق رُقعَة".

عن مجاهد:"{فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ}، قال: برجال".

عن ابن عباس، قوله:"{أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا}، قال: هو كأشد الحجاب".

قال قتادة:"ذكر لنا أن رجلا قال: يا نبي الله قد رأيت سدّ يأجوج ومأجوج، قال انْعَتْهُ لي قال: كأنه البرد المحبَّر، طريقة سوداء، وطريقة حمراء، قالَ قَدْ رأيتَهُ".

(قال ما مكني فيه ربي) أي إن الذي أعطاني الله من الملك والتمكين.

(خير) لي من الذي تجمعونه لي.

كما قال سليمان (فلما جاء سليمان قال أتمدونن بمال فما آتاني الله خير مما آتاكم).

وهكذا قال ذو القرنين: الذي أنا فيه خير من الذي تبذلونه.

- **قال القرطبي:** المعنى قال لهم ذو القرنين: ما بسطه الله تعالى لي من القدرة

=

=

والملك خير من خرجكم وأموالكم ولكن أعينوني بقوة الأبدان؛ أي برجال وعمل منكم بالأبدان، والآلة التي أبني بها الردم وهو السد، وهذا تأييد من الله تعالى لذي القرنين في هذه المحاورة؛ فإن القوم لو جمعوا له خرجا لم يعنه أحد ولوكلوه إلى البنيان، ومعونته بأنفسهم أجمل به وأسرع في انقضاء هذا العمل، وربما أربى ما ذكروه له على الخرج.

قوله تعالى: {آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ} [الكهف: ٩٦].

قال الطبري:"أي جيئوني بِزُبَرِ الحديد، وهي جمع زُبْرة، والزُّبْرة: القطعة من الحديد".

وفي قوله تعالى: {آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ} [الكهف: ٩٦]، وجوه:

أحدها: أنها قطع الحديد، قاله ابن عباس، ومجاهد، وقتادة-في رواية-، ومقاتل، وأبو عبيدة، ومنه قوله: {فتقطعوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ زُبُرًا}، يعني: "قطعا".

قال الزجاج:"واحد «الزبَرِ»: «زُبَرَة»، وهى: القطعة العظيمة".

الثاني: أنه فلق الحديد، قاله قتادة.

الثالث: أنه الحديد المجتمع، ومنه: «الزَّبور»، لاجتماع حروفه في الكتابة، حكاه الماوردي، وأنشد قول تبع اليماني:

ولقد صبرت ليعلموه وحولهم... زبر الحديد عشيةً ونهارًا

قال أبو هلال العسكري:"أصل «الزبر»: الكتب في الحجر، ثم كثر حتى جعل كل كتابة زبرا، يقال: زبرت الكتاب كتبته، وزبرته قرأته، والزبور فعول، بمعنى مفعول، أي: هو مزبور، كما قيل: ركوبة وحلوبة، وقد يقال: ركوبة، قال الله تعالى: {فَمِنْهَا رَكُوبُهُم} [يس: ٧٢].

وأصل الكلمة «الاجتماع»، ومنه قيل: زبرت البئر، إذا طويتها بالحجارة بجمعك الحجارة فيها، وزبرة الأسد الشَّعْر المجتمع على كاهله، وأسد أزبر ومزبر عظيم

=

=

الزبرة، والزبرة القطعة من الحديد، قال الله: {آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ}.

وروى الفقير الذي لا زبر له، أي: ليس له معتمد يجمع أمره، ومن ثم سُمي: الزبير، وأخذت الشيء بزوبره، أي: بأجمعه، والواو زائدة، ويجوز أن يكون أصل الكلمة الغلظ، ومنه قولهم: زبره إذا أغلظ له القول.

و «الزبر»، في القرآن على ثلاثة أوجه:

الأول: الكتب، قال الله: {بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ} [آل عمران: ١٨٤]، أي: أرسلناهم بالعلامات البينات، و «الزبر»، يعني: الكتب المضمنة للأمر والنهي، وقوله: {وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الْأَوَّلِينَ} [الشعراء: ١٩٦].

وقال بعض المفسرين: {وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ} [الأنبياء: ١٠٥] أنه يعني: بالزبور الكتب كلها، وليس بالوجه؛ لأن الظاهر لا يترك إلا بديل، ولا دليل إلا أن يكون القراءة في الزبور، جمع زبر مثل سفر وسفور، وليس ذلك المشهور، ولا ينبغي القراءة به عندنا.

الثاني: اللوح المحفوظ، قال الله: {وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ} [القمر: ٥٢]، هكذا جاء في التفسير.

الثالث: قوله تعالى: {فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ زُبُرًا} [المؤمنون: ٥٣]، ومن قرأ: «زبرا»، أراد قطعا، الواحدة زبرة، ومنه: {آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ}، ومن قرأ «زبرا»، أي: جعلوا دينهم كتبا مختلفة".

قوله تعالى: {حَتَّى إِذَا سَاوَى بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ} [الكهف: ٩٦]، أي:"حتى إذا جاؤوا به ووضعوه وحاذوا به جانبي الجبلين".

قال الطبري:"يقول عزّ ذكره: فآتو زُبَر الحديد، فجعلها بين الصدفين حتى إذا ساوى بين الجبلين بما جعل بينهما من زُبر الحديد، ويقال: سوّى".

قال مقاتل:"يعني: حشى بين الجبلين بالحديد، والصدفين الجبلين وبينهما واد

=

=

عظيم".

قال أبو عبيدة: «بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ»:"ما بين الناحيتين من الجبلين، وقال:

قدْ أَخَذَتْ ما بينَ عَرْضِ الصُّدُفَيْنِ... ناحِيَتَيْها وأعالي الرُّكْنَيْن".

عن ابن عباس، قوله:"{بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ}، يقول: بين الجبلين".

عن مجاهد، قوله: " {الصَّدَفَيْنِ}، رؤوس الجبلين".

عن الضحاك: قوله:"{بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ}، يعني الجبلين، وهما من قبل أرمينية وأذربيجان".

عن قتادة:"{حَتَّى إِذَا سَاوَى بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ}، وهما الجبلان".

عن إبراهيم أنه قرأها:"{بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ}، منصوبة الصاد والدال، وقال: بين الجبلين".

قال الزجاج "وتقرأ: «الصُّدُفَيْنِ» و «الصُّدْفَينِ».

قوله تعالى: {قَالَ انْفُخُوا} [الكهف: ٩٦]، أي:"قال للعمال: أجِّجوا النار".

قال الطبري:"انفخوا النار على هذه الزبر من الحديد".

قال الزجاج:"وهو أن أخذ قِطعَ الحديد العِظَامِ وجعل بينها الحطب والفَحْمَ ووضع

عليها المنافيخ حتى إذا صارت كالنار".

قوله تعالى: {حَتَّى إِذَا جَعَلَهُ نَارًا} [الكهف: ٩٦]، أي:"حتى إذا صار الحديد كله نارًا".

قال الطبري:"في الكلام متروك، وهو فنفخوا، حتى إذا جعل ما بين الصدفين من الحديد نارا".

قال الزجاج: " الحديد إذَا أُحْمِيَ بالفحم والمِنْفَاخِ صارَ كالنَّار".

قوله تعالى: {قَالَ آتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا} [الكهف: ٩٦]، أي:"قال: أعطوني

=

=

نحاسًا أُفرغه عليه".

قال الطبري:"يقول: أصبّ عليه قِطرا، والقِطْر: النحاس".

قال الزجاج: " المعنى: أعطوني قِطْرًا وهو النحاس. فصب النحاس المُذَابَ على الحديد الذي قد صار كالزيت فاختلط ولَصقَ بعْضُه ببعض حتى صار جبلًا صَلْدًا من حديد ونحاسٍ. ويقال إنه بناحية أرْمِينية".

وفي قوله تعالى: {قَالَ آتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا} [الكهف: ٩٦]، وجوه:

أحدها: أن القطر النحاس، قاله ابن عباس، ومجاهد، وقتادة، والضحاك، وعكرمة.

قال قتادة:"أي: النحاس ليلزمه به".

قال عكرمة:"نحاسا ليلزم بعضه بعضا".

الثاني: أنه الرصاص. حكاه ابن الأنباري.

الثالث: أنه الصفر المذاب، قاله مقاتل، ومنه قول الشاعر:

فألقى في مراجل من حديد... قدور القطر ليس من البراة

الرابع: أنه الحديد المذاب، قاله أبو عبيدة، وأنشد:

حُساما كَلَوْنِ المِلْحِ صَافٍ حَديدُه... جُزَارًا مِنْ أَقْطارِ الحَديدِ المُنَعَّت

قوله «أقطار»: جمع «قطر».

قال الماوردي:"وكان حجارته الحديد وطينه النحاس".

(فأعينوني بقوة) أي لا حاجة لي بالمال، فأعينوني بالأيدي والرجال.

(أجعل بينكم وبينهم ردما) والردم هو: ما جعل بعضه على بعض حتى يصبح كالحجاب المنيع، فالردم أكبر من السد.

- قال ابن عطية: و" الردم " أبلغ من السد، إذ السد كل ما سد به، و" الردم " وضع الشيء على الشيء من حجارة أو تراب أو نحوه حتى يقوم من ذلك حجاب

=

=

منيع.

(آتوني زبر الحديد) أي أعطوني وناولوني زبر الحديد. وزبر الحديد جمع زبرة وهي القطعة منه.

(حتى إذا ساوى بين الصدفين) أي حتى إذا ساوى البناء بين الجبلين، هو المروي عن ابن عباس - رضي الله عنهما - ومجاهد، وقتادة، والضحاك. وبه قال الطبري، والماوردي، وابن عطية، والبغوي.

يقول ابن عطية: (الصدفان: الجبلان المتناوحان، ولا يقال للواحد صدف، وإنما يقال: صدفان لاثنين لأن أحدهما يصادف الآخر).

وروي عن إبراهيم النخعي أن المراد بهما: جانبي الجبلين.

وبه قال أبو عبيدة معمر بن المثنى، والسمرقندي، والرازي، والألوسي.

يقول الرازي: (الصدفان بفتحتين جانبا الجبلين لأنهما يتصادفان أي يتقابلان).

وروي عن مجاهد أن المراد بهما: رأس الجبلين.

والذي يظهر - والله أعلم - أن الأقوال الواردة في المراد بالصدفين صحيحة ومحتملة، ويمكن القول بها أو ببعضها عند تفسير الآية، فجانبي الجبلين ورأسيهما إنما هي أجزاء من الجبلين، فهذه التفاسير إنما هي تعبير بالجزء عن الكل أو بالكل عن الجزء.

* قال ابن كثير: أي وضع بعضه على بعض من الأساس، حتى إذا حاذى به رؤوس الجبلين طولا وعرضا.

قوله تعالى: (قال انفخوا) أي قال للعملة انفخوا على هذه الزبر بالكيران.

(حتى إذا جعله نارا) أي جعل ذلك المنفوخ فيه وهو الزبر نارا: أي كالنار في حرها.

- وإسناد الجعل إلى ذي القرنين مجاز، لكونه الآمر بالنفخ.

=

=

(قال آتوني أفرغ عليه قطرا) أي أعطوني أصب عليه النحاس المذاب.

- قطرا: القطر: النحاس المذاب.

- **قال القرطبي**: والقطر عند أكثر المفسرين النحاس المذاب، وأصله من القطر؛ لأنه إذا أذيب قطر كما يقطر الماء.

- **قال السعدي**: فأفرغ عليه القطر، فاستحكم السد استحكاما هائلا، وامتنع به من وراءه من الناس من شر يأجوج ومأجوج.

قوله تعالى: {فَمَا اسْطَاعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ} [الكهف: ٩٧].

قال الطبري:"يقول: فما اسطاع يأجوج ومأجوج أن يعلوا الردم الذي جعله ذو القرنين حاجزا بينهم، وبين من دونهم من الناس، فيصيروا فوقه وينزلوا منه إلى الناس".

قال الزجاج:"أي: ما قَدَرُوا أن يعلو عليه لارتفاعه وامْلِسَاسِه".

عن قتادة:"{فَمَا اسْطَاعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ}، قال: ما استطاعوا أن ينزعوه".

وعن قتادة:"{أَنْ يَظْهَرُوهُ}، قال: أن يرتقوه".

عن ابن جريج: {فَمَا اسْطَاعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ}، قال: يعلوه".

قوله تعالى: {وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا} [الكهف: ٩٧]، أي:"وما استطاعوا أن ينقبوه من أسفله لبعد عرضه وقوته".

قال الطبري:"يقول: ولم يستطيعوا أن ينقبوه من أسفله".

قال الزجاج: أي: "وما استطاعوا أنْ يَنْقُبُوه".

عن قتادة:"{وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا}، أي: من أسفله".

عن ابن جريج: {وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا}، أي: ينقبوه من أسفله".

(فما اسطاعوا أن يظهروه وما استطاعوا له نقبا) قال ابن كثير: يقول تعالى عن يأجوج ومأجوج: إنهم ما قدروا على أن يصعدوا من فوق هذا السد ولا قدروا

=

=

على نقبه من أسفله، ولما كان الظهور عليه أسهل من نقبه، قابل كلا بما يناسبه فقال (فما اسطاعوا أن يظهروه وما استطاعوا له نقبا)، وهذا دليل على أنهم لم يقدروا على نقبه ولا على شيء منه.

- قال البقاعي: (أن يظهروه) أي يعلو ظهره لعلوه وملاسته (وما استطاعوا له نقبا) لثخنه وصلابته.

- **قال القرطبي**: (فما اسطاعوا أن يظهروه) أي: ما استطاع يأجوج ومأجوج أن يعلوه ويصعدوا فيه؛ لأنه أملس مستو مع الجبل والجبل عال لا يرام.

- قال أبو حيان (فما اسطاعوا) أي يأجوج ومأجوج (أن يظهروه) أي: يصلوا عليه لبعده وارتفاعه واملاسه، ولا أن ينقبوه لصلابته وثخانته فلا سبيل إلى مجاوزته إلى غيرهم من الأمم إلا بأحد هذين: إما ارتقاء وإما نقب وقد سلب قدرتهم على ذلك.

قوله تعالى: {قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي} [الكهف: ٩٨].

قال النحاس:"أي: هذا الفعل نعمة من الله ﷻ، والرحمة من الله جل وعز هي النعمة والإحسان".

قال الطبري:"يقول عزّ ذكره: فلما رأى ذو القرنين أن يأجوج ومأجوج لا يستطيعون أن يظهروا ما بنى من الردم، ولا يقدرون على نقبه، قال: هذا الذي بنيته وسويته حاجزا بين هذه الأمة، ومن دون الردم رحمة من ربي رحم بها من دون الردم من الناس، فأعانني برحمته لهم حتى بنيته وسوّيته ليكفّ بذلك غائلة هذه الأمة عنهم".

قوله تعالى: {فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ} [الكهف: ٩٨]، أي:"فإذا جاء وعد ربي بخروج يأجوج ومأجوج جعله دكاء منهدمًا مستويًا بالأرض".

قال الطبري:"يقول: فإذا جاء وعد ربي الذي جعله ميقاتا لظهور هذه الأمة

=

=

وخروجها من وراء هذا الردم لهم. {جعله دكاء}، يقول: سواه بالأرض، فألزقه بها".

وفي قوله تعالى: {فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي} [الكهف: ٩٨]، وجهان:

أحدهما: يوم القيامة، حكاه الماوردي عن ابن بحر.

الثاني: هو الأجل الذي يخرجون فيه. قاله مقاتل، والنحاس.

قال مقاتل:"يعني: الردم وقع فيخرجون إلى أرض المسلمين".

وفي قوله تعالى: {جَعَلَهُ دَكَّاءَ} [الكهف: ٩٨]، وجوه:

أحدها: أرضًا، قاله قطرب.

الثاني: قطعًا، قاله الكلبي.

الثالث: جعله طريقا كما كان. قاله عكرمة.

الرابع: معناه: لاصقا بالأرض، يقال: ناقة دكّاء أي لا سنام لها مستوية الظهر، قاله أبو عبيدة، والطبري، وابن قتيبة، والنحاس، ومنه قول الأغلب:

هل غيرغادٍ غارًا فانهدم

روي عن قتادة، قوله:"{فإذا جاء وعد ربي جعله دكاء}، قال: لا أدري الجبلين يعني به، أو ما بينهما".

قرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو وابن عامر {دكا} منونا غير مهموز ولا ممدود وقرأ حمزة والكسائى {دكاء} ممدودا مهموزا بلا تنوين، وهبيرة عن حفص عن عاصم {دكا} منونا غير ممدود، وقال غير هبيرة عن حفص عن عاصم {دكاء} ممدودا.

قوله تعالى: {وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا} [الكهف: ٩٨]، أي:"وكان وعده تعالى بخراب السدِّ وقيام الساعة كائنًا لا محالة".

قال الطبري:"يقول: وكان وعد ربي الذي وعد خلقه في دك هذا الردم، وخروج

=

=

هؤلاء القوم على الناس، وعيثهم فيه، وغير ذلك من وعده حقا، لأنه لا يخلف الميعاد فلا يقع غير ما وعد أنه كائن".

(قال هذا) أي هذا السد.

(رحمة من ربي) بالناس حيث جعل بينهم وبين يأجوج ومأجوج حائلا يمنعهم من العبث في الأرض والفساد.

قال السعدي: أي من فضله وإحسانه علي، وهذه حال الخلفاء الصالحين، إذا من الله عليهم بالنعم الجليلة، ازداد شكرهم وإقرارهم، واعترافهم بنعمة الله كما قال سليمان عليه السلام، لما حضر عنده عرش ملكة سبأ مع البعد العظيم، قال (هذا من فضل ربي ليبلوني أأشكر أم أكفر) بخلاف أهل التجبر والتكبر والعلو في الأرض فإن النعم الكبار، تزيدهم أشرا وبطرا.

كما قال قارون -لما آتاه الله من الكنوز، ما إن مفاتحه لتنوء بالعصبة أولي القوة- قال (إنما أوتيته على علم عندي).

(فإذا جاء وعد ربي) أي إذا اقترب الوعد الحق، وهو خروج يأجوج ومأجوج.

- قال الطبري: فإذا جاء وعد ربي الذي جعله ميقاتا لظهور هذه الأمة وخروجها من وراء هذا الردم لهم، جعله دكاء، يقول: سواه بالأرض، فألزقه بها، من قولهم: ناقة دكاء: مستوية الظهر لا سنام لها. وإنما معنى الكلام: جعله مدكوكا، فقيل: دكاء.

- وقال الشوكاني: (فإذا جاء وعد ربى) أي: أجل ربي أن يخرجوا منه، وقيل: هو مصدر بمعنى المفعول، وهو يوم القيامة.

(جعله) أي ذلك السد المحكم المتقن. وقيل: (جاء وعد ربي) أي: يوم القيامة.

ويقويه قوله تعالى (ونفخ في الصور). (دكاء) أي دكه فانهدم واستوى على الأرض، وكل ما انبسط من بعد ارتفاع فقد اندك.

=

وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا (٩٩).

{وَتَرَكْنَا بَعْضهمْ يَوْمئِذٍ} يَوْم خُرُوجهمْ {يَمُوج فِي بَعْض} يَخْتَلِط بِهِ لِكَثْرَتِهِمْ {وَنُفِخَ فِي الصُّور} أَيْ الْقَرْن لِلْبَعْثِ {فَجَمَعْنَاهُمْ} أَيْ الْخَلَائِق فِي مكان واحد يوم القيامة {جمعا}.

وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِلْكَافِرِينَ عَرْضًا (١٠٠).

{وعرضنا} قربنا {جهنم يومئذ للكافرين عرضا}.

الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَنْ ذِكْرِي وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا (١٠١).

{الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنهمْ} بَدَل مِنْ الْكَافِرِينَ {فِي غِطَاء عَنْ ذِكْرِي} أَيْ الْقُرْآن فَهُمْ عُمْي لَا يَهْتَدُونَ بِهِ {وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا} أَيْ لَا يَقْدِرُونَ أَنْ يَسْمَعُوا مِنْ النَّبِيّ مَا يَتْلُوهُ عَلَيْهِمْ بُغْضًا لَهُ فَلَا يُؤْمِنُونَ به.

أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ يَتَّخِذُوا عِبَادِي مِنْ دُونِي أَوْلِيَاءَ إِنَّا أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلًا (١٠٢).

{أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ يَتَّخِذُوا عِبَادِي} أَيْ مَلَائِكَتِي وَعِيسَى وَعُزَيْرًا {مِنْ دُونِي أَوْلِيَاء} أَرْبَابًا مَفْعُول ثَانٍ لِيَتَّخِذُوا وَالْمَفْعُول الثَّانِي لِحَسِبَ مَحْذُوف الْمَعْنَى أَظَنُّوا أَنَّ الِاتِّخَاذ الْمَذْكُور لَا يُغْضِبنِي وَلَا أُعَاقِبهُمْ عَلَيْهِ كَلَّا {إِنَّا أَعْتَدْنَا جَهَنَّم لِلْكَافِرِينَ} هَؤُلَاءِ وَغَيْرهمْ {نُزُلًا} أَيْ هِيَ مُعَدَّة لَهُمْ كَالْمَنْزِلِ الْمُعَدّ

=

- قال ابن كثير: تقول العرب ناقة دكاء إذا كان ظهرها مستويا لا سنام لها، وقال تعالى (فلما تجلى ربه للجبل جعله دكا). (وكان وعد ربي حقا) أي كائنا لا محالة.

لِلضَّيْفِ[1].

---

(١) قوله تعالى: {وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ} [الكهف: ٩٩].

قال الطبري: "يقول تعالى ذكره: وتركنا عبادنا يوم يأتيهم وعدنا الذي وعدناهم، بأنا ندكّ الجبال ونَنْسِفها عن الأرض نسفا، فنذرها قاعا صفصفا، بعضهم يموج في بعض، يقول: يختلط جنهم بإنسهم".

قال ابن كثير: "أي: الناس يوم يدك هذا السد ويخرج هؤلاء فيموجون في الناس ويفسدون على الناس أموالهم ويتلفون أشياءهم".

وفي قوله تعالى: {وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ} [الكهف: ٩٩]، ثلاثة أقوال:

أحدها: أنهم القوم الذين ذكرهم ذو القرنين يوم فتح السد يموج بعضهم في بعض. قاله السدي.

قال السدي: "ذلك حين يخرجون على الناس".

قال يحيى بن سلام: "يوم يخرجون من السد".

وقال مقاتل: "يعني: يوم فرغ ذو القرنين من الردم «يموج في بعض» يعني من وراء الردم لا يستطيعون الخروج منه".

الثاني: الكفار في يوم القيامة يموج بعضهم في بعض. حكاه الماوردي.

الثالث: أنهم الإنس والجن عند فتح السد. قاله ابن عباس.

قال ابن عباس: "الجن والإنس، يموج بعضهم في بعض".

قال ابن زيد: "هذا أول القيامة، ثم نفخ في الصور على أثر ذلك فجمعناهم جمعا".

قال الزجاج: "معنى: «يموجون في الشيء»: يخوضون فيه ويكثرون القول، فجائز أن يكون يعنى بـ «يومئذٍ»: يوم القيامة، ويكون الدليل على ذلك: {وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا}. ويجوز أن يكون {وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي

=
بَعْضٍ}، أي: يوم انقضاء أمر السَّدِّ، وقوله {يَمُوجُ}، ماجوا متعجبين مِنَ السَّد".
وفيه وجهان:
أحدهما: يختلط بعضهم ببعض.
الثاني: يدفع بعضهم بعضًا، مأخوذ من موج البحر.
قوله تعالى: {وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا} [الكهف: ٩٩]، أي:"ونفخ في «القرن» للبعث، فجمعنا الخلق جميعًا للحساب والجزاء".
قال الطبري:"يقول: فجمعنا جميع الخلق حينئذ لموقف الحساب جميعا".
عن عبد الله بن عمرو، عن النبي ﷺ:"أن أعرابيا سأله عن الصور، قال: «قرن ينفخ فيه»".
قال الزجاج:"قال أهل اللغة: الصور جمع صورة. والذي جاء في التفسير أن الصور قرن يَنْفُخ فيه إسرافيل - والله أعلم - إلا إن حملته أنه عند ذلك النفِخْ يكون بعث العباد ونشرهم".
عن قتادة: " {ونفخ في الصور}، أي: في الخلق".
عن مجاهد:"{ونفخ في الصور}، قال: كهيئة البوق".
عن مجاهد: " {الصور}: البوق".
قال مجاهد:"هو القرن، صاحبه آخذ به، فقبض مجاهد قبضتين بكفيه على طف القرن، بين طرفيه، وبين قدر قبضة أو نحوها قد برك على ركبة إحدى رجليه، فأشار فبرك على ركبة يسراه مقعيا على قدمي عقبه تحت فخذه وإليته وأطراف أصابعه في التراب، قد نصب ركبته اليمنى ووضع قدمها في التراب".
قال عكرمة:"الصور مع إسرافيل فيه أرواح كل شيء تكون فيه، ثم ينفخ فيه الصاعقة فإذا نفخ نفخة البعث قال: الله: بعزتي ليرجعن كل روح إلى جسده وداره... أعظم من سبع سموات ومن الأرض قال: فخلق الصور على في إسرافيل
=

=

وهو شاخص بصره متى يؤمر بالنفخ في الصور".

وفي حديث أبي سعيد:"كيف أنعم وصاحب القرن قد التقم القرن، وحنى ظهره وجحظ بعينيه، قالوا: ما نقول يا رسول الله؟ قال: قولوا: حسبنا الله، توكلنا على الله".

وعن ابن عباس، قال: قال رسول الله ﷺ: " كيف أنعم وصاحب القرن قد التقم القرن، وحنى جبهته يستمع متى يؤمر فينفخ فيه، فقال أصحاب رسول الله ﷺ: فكيف نقول؟ قال: تقولون: حسبنا الله ونعم الوكيل، توكلنا على الله".

قوله تعالى: (وتركنا بعضهم يومئذ يموج في بعض) اختلف العلماء في ذلك:

القول الأول: أن يوم السد كمل ماج بعضهم في بعض خلفه لما منعوا من الخروج.

ورجحه القرطبي.

القول الثاني: عند الخروج يموج بعضهم في بعض قيل إنهم حين يخرجون من وراء السد يموجون مزدحمين في البلاد يأتون البحر فيشربون ماءه ويأكلون دوابه.

ورجحه: الرازي، وأبو حيان، والشنقيطي، وابن عثيمين.

- قال أبو حيان: الأظهر كون الضمير ليأجوج ومأجوج أي وتركنا بعض يأجوج ومأجوج يموج في بعض آخر منهم حين يخرجون من السد مزدحمين في البلاد وذلك بعد نزول عيسى عليه السلام.

القول الثالث: أن المراد من قوله: (يومئذ) يوم القيامة، أي جعلنا بعض الخلق من الجن والإنس يموج في بعض.

ورجحه: الطبري، والزجاج.

- قال الطبري: يقول تعالى ذكره: وتركنا عبادنا يوم يأتيهم وعدنا الذي وعدناهم، بأنا ندك الجبال وننسفها عن الأرض نسفا، فنذرها قاعا صفصفا، بعضهم يموج في

=

=

بعض، يقول: يختلط جنهم بإنسهم.

(ونفخ في الصور) أي ونفخ إسرافيل النفخة الثانية لقيام الناس من قبورهم.

والدليل على أن المراد بالنفخة هذه هي الثانية قوله بعدها (فجمعناهم جمعا).

(فجمعناهم جمعا) أي جمعنا الخلائق بعد تلاشي أبدانهم ومصيرها ترابا جمعا تاما على أكمل صفة وأبدع هيئة.

الجمع: هو حشر الناس يوم القيامة للحساب.

قوله تعالى: {وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِلْكَافِرِينَ عَرْضًا (١٠٠)} [الكهف: ١٠٠]

قال الطبري:"يقول: وأبرزنا جهنم يوم ينفخ في الصور، فأظهرناها للكافرين بالله، حتى يروها ويعاينوها كهيئة السراب".

قال أبو هلال العسكري:"أي: فهيأناها لهم، ويجوز أن يكون المراد إنا أظهرناها لهم".

قال الزجاج: أي:"أظهرنا لهم جهنم حتى شاهدوها ورأوها".

قال الزمخشري: أي:"وبرزناها لهم فرأوها وشاهدوها".

(وعرضنا جهنم يومئذ للكافرين عرضا) المراد بالعرض هنا الإبراز والظهور، والمعنى: يقول تعالى مخبرا عما يفعله بالكفار يوم القيامة أنه يعرض عليهم جهنم، أي يبرزها لهم ويظهرها ليروا ما فيها من العذاب والنكال قبل دخولها، ليكون ذلك أبلغ في تعجيل الهم والحزن لهم.

كما قال تعالى (ويوم يعرض الذين كفروا على النار).

وقال تعالى (النار يعرضون عليها غدوا وعشيا).

في صحيح مسلم عن ابن مسعود. قال: قال رسول الله ﷺ (يؤتى بجهنم تقاد يوم القيامة بسبعين ألف زمام، مع كل زمام سبعون ألف ملك يجرونها).

- قال أبو السعود: أي عرضا فظيعا هائلا لا يقادر قدره، وتخصيص العرض بهم

=

=

مع أنها بمرأى من أهل الجمع قاطبة لأن ذلك لأجلهم خاصة.

قوله تعالى: {الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَنْ ذِكْرِي} [الكهف: ١٠١].

قال الطبري:"يقول تعالى: وعرضنا جهنم يومئذ للكافرين الذين كانوا لا ينظرون في آيات الله، فيتفكرون فيها ولا يتأملون حججه، فيعتبرون بها، فيتذكرون وينيبون إلى توحيد الله، وينقادون لأمره ونهيه".

قال الزمخشري: {عن ذكري}، أي:"عن آياتي التي ينظر إليها فأذكر بالتعظيم. أو عن القرآن وتأمل معانيه وتبصرها، ونحوه: {صُمٌّ بُكْمٌ عُمْي} [البقرة: ١٧١]".

قال مقاتل:"يعني: عليها غشاوة الإيمان بالقرآن، لا يبصرون الهدى بالقرآن.

قال قتادة:"كانوا عُمْيًا عن الحق فلا يُبصِرونه".

قال يحيى بن سلام:"كانت على أعينهم غشاوة الكفر. كقوله: {لقد كنت في غفلة من هذا فكشفنا عنك غطاءك} غطاء الكفر، {فبصرك اليوم حديد} [ق: ٢٢] أبصر حين لم ينفعه البصر".

قوله تعالى: {وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا} [الكهف: ١٠١]، أي:"، وكانوا لا يطيقون سماع حججي الموصلة إلى الإيمان بي وبرسولي".

قال الطبري:"وكانوا لا يستطيعون سمعا، يقول: وكانوا لا يطيقون أن يسمعوا ذكر الله الذي ذكرهم به، وبيانه الذي بينه لهم في آي كتابه، بخذلان الله إياهم، وغلبة الشقاء عليهم، وشغلهم بالكفر بالله وطاعة الشيطان، فيتعظون به، ويتدبرون، فيعرفون الهدى من الضلالة، والكفر من الإيمان".

قال الزمخشري: "يعنى: وكانوا سمعا عنه، إلا أنه أبلغ، لأن الأصم قد يستطيع السمع إذا صيح به، وهؤلاء كأنهم أصميت أسماعهم فلا استطاعة بهم للسمع".

قال قتادة:"كانوا صُمًّا عن الحق، فلا يسمعونه".

قال السدي:"يعني: سمع الإيمان، لا يسمعون الهدى بقلوبهم".

=

=

عن مجاهد، قوله:"{لا يستطيعون سمعا}، قال: لا يعقلون". وفي رواية:"لا يعقلون سمعًا".

وقال مجاهد:"لا يعقلون، ولا [يستطيعون] أن يسمعوا الخير".

قال ابن زيد:"هؤلاء أهل الكفر".

(الذين كانت) وهم في الدنيا. (أعينهم في غطاء عن ذكري) أي تغافلوا وتعاملوا وتصمموا عن قبول الهدى واتباع الحق.

كما قال تعالى (ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطانا فهو له قرين).

(وكانوا لا يستطيعون سمعا) أي لا يعقلون عن الله أمره ونهيه.

قال السعدي: أي معرضين عن الذكر الحكيم والقرآن الكريم.

قوله تعالى: {أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ يَتَّخِذُوا عِبَادِي مِنْ دُونِي أَوْلِيَاءَ} [الكهف: ١٠٢].

قال مقاتل:"يعنى: بالآلهة بأن ذلك نافعهم وأنها تشفع لهم".

قال الزجاج:"تأويله: أفحسبوا أن ينفعهم اتخاذهم عبادي أولياء".

قال الطبري:"يقول عز ذكره: أفظن الذين كفروا بالله من عبدة الملائكة والمسيح، أن يتخذوا عبادي الذين عبدوهم من دون الله أولياء، يقول كلا بل هم لهم أعداء".

قال ابن جريج:"يعني: من يعبد المسيح ابن مريم والملائكة، وهم عباد الله، ولم يكونوا للكفار أولياء".

قال ابن عباس:"يعني: الشياطين، تولوهم وأطاعوهم مِن دون الله".

قال ابن عباس:"يريد: إني لأغضب لنفسي. يقول: أفظن الذين كفروا أن يتخذوا غيري أولياء، وإني لا أغضب لنفسي ولا أعاقبهم".

عن قتادة بن دعامة، في قوله: {أفحسب الذين كفروا أن يتخذوا عبادي من دوني أولياء}، قال: ظنَّ كَفَرَة بني آدم أن يتخذوا الملائكة مِن دونه أولياء".

=

=

عن هارون، {أفحسب الذين كفروا أن يتخذوا عبادي من دوني أولياء}، قال: هي قراءة الحسن وأبي عمرو، وكذلك فسرها محمد بن السائب الكلبي: أفظنَّ الذين كفروا".

عن عكرمة:"أنه قرأ: {أفحسب الذين كفروا}، يقول: أفحسبهم ذلك".

قرأ الأعشى عن أبي بكر: «أَفَحَسْبُ الذين» ساكنة السين، مضمومة الباء، وهى قراءة علي بن أبي طالب -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- وعكرمة ومجاهد. وقرأ الباقون «أَفَحَسِبَ الذين كفروا» بكسر السين، وفتح الباء.

قال أبو منصور: مَنْ قَرَأَ: «أَفَحَسِبَ الذين»، فمعناه: أَفَظَن الذين كفروا، من حَسِبَ يَحْسَبُ ويحْسِبُ.

ومن قرأ: «أَفَحَسْبُ الذين كفروا»، فمعناه: أَفَيَكْفِيهم أن يتخذوا العبادَ أولياءَ من دون الله، ثم بَيَّن جزاءهم فقال: {إِنَّا أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلًا}.

قال الطبري:"أي: أفكفاهم أن يتخذوا عبادي من دوني أولياء من عباداتي وموالاتي".

قال الزجاج:"وقرئت - وهي جيدة - «أَفَحَسبَ الَّذِينَ كَفَرُوا»، تأويله: أفيكفيهم أن يتخذوا العباد - أولياء من دون الله".

ومن قرأ: «أَفَحَسِبَ»، فمعناه: أَفَحَسِبُوا أن ينفعهم اتخَاذُهم عبادِى أولياء.

قوله تعالى: {إِنَّا أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلًا} [الكهف: ١٠٢]، أي:"إنا أعتدنا نار جهنم للكافرين منزلا".

قال ابن عباس:"عباس: هي مثواهم".

قال الطبري:"يقول: أعددنا لمن كفر بالله جهنم منزلا".

قال البغوي:"أي: منزلا، قال ابن عباس: هي مثواهم. وقيل: النزل ما يهيأ للضيف يريد هي معدة لهم عندنا كالنزل للضيف".

=

=

(أفحسب الذين كفروا أن يتخذوا عبادي من دوني أولياء) الهمزة للإنكار والتوبيخ، أي أفظن! الكافرون أن يتخذوا بعض عبادي آلهة يعبدونهم دوني كالملائكة وعزير والمسيح ابن مريم، وأن ذلك ينفعهم أو يدفع عنهم عذابي؟؟

- **قال القرطبي**: جواب الاستفهام محذوف تقديره: أفحسبوا أن ذلك ينفعهم، أو لا أعاقبهم؟

قال تعالى (كلا سيكفرون بعبادتهم ويكونون عليهم ضدا).

فالمراد (بعبادي) هم الملائكة وعيسى وعزير.

وهذا قول أكثر المفسرين.

رجحه الطبري، والسمرقندي، والبغوي، وابن عطية، وابن الجوزي، والبيضاوي، والألوسي، والشنقيطي.

- **قال الشنقيطي**: والأظهر المتبادر من الإضافة في قوله: «عبادي» أن المراد بهم نحو الملائكة وعيسى وعزير، لا الشياطين ونحوهم ؛ لأن مثل هذه الإضافة للتشريف غالبا، وقد بين تعالى: أنهم لا يكونون أولياء لهم في قوله (ويوم يحشرهم جميعا ثم يقول للملائكة أهؤلاء إياكم كانوا يعبدون قالوا سبحانك أنت ولينا من دونهم).

(إنا أعتدنا) أي هيأنا.

(جهنم للكافرين نزلا) النزل: ما يقدم للضيف عند نزوله والقادم عند قدومه.

والمعنى: أي هيأنا جهنم وجعلناها ضيافة لهم كالنزل المعد للضيف.

قال بعض العلماء: وفيه تهكم بهم وتنبيه على أن لهم وراءها من العذاب ما تستحقر جهنم دونه.

وقيل (نزلا) أي منزلا لهم، لا منزل لهم غيرها.

* مباحث في الإيمان بالبعث.

=

=

مسألة: تعريف البعث.

يختلف تعريف البعث في اللغة باختلاف ما علق به، فقد يطلق ويراد به:

١- الإرسال: يقال بعثت فلانًا أو ابتعثته أي أرسلته.

٢- البعث من النوم: يقال: بعثه من منامه إذا أيقظه.

٣- الإثارة: وهو أصل البعث، ومنه قيل للناقة: بعثتها إذا أثرتها وكانت قبل باركة.

وفي هذا يقول الأزهري: (قال الليث: بعثت البعير فانبعث إذا حللت عقاله وأرسلته، لو كان باركًا فأثرته).

وقال أيضًا: (والبعث في كلام العرب على وجهين: أحدهما: الإرسال كقول الله تعالى: ثُمَّ بَعَثْنَا مِن بَعْدِهِم مُّوسَى وَهَارُونَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ بِآيَاتِنَا فَاسْتَكْبَرُواْ وَكَانُواْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ [الأعراف: ١٠٣]، معناه أرسلنا.

والبعث أيضًا الإحياء من الله للموتى، ومنه قوله جل وعز: ثُمَّ بَعَثْنَاكُم مِّن بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ [البقرة: ٥٦]، أي أحييناكم.

وقال أبو هلال: (بعث الخلق: اسم لإخراجهم من قبورهم إلى الموقف، ومنه قوله تعالى: قَالُوا يَا وَيْلَنَا مَن بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ [يس: ٥٢]).

ويقول الفيروز آبادي: (بعثه كمنعه: أرسله كابتعثه فانبعث، والناقة أثارها، وفلانًا من منامه: أهبه... وتبعث مني الشعر انبعث كأنه سال).

وقال الراغب: (أصل البعث إثارة الشيء وتوجيهه، يقال: بعثته فانبعث، ويختلف البعث بحسب ما علق به.

فبعثت البعير: أثرته وسيرته، وقوله ﷻ: إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ [الأنعام: ٣٦]. أي يخرجهم ويسيرهم إلى القيامة.

فالبعث ضربان: بشري كبعث البعير وبعث الإنسان في حاجة. وإلهي وذلك

=

=

ضربان:

أحدهما: إيجاد الأعيان والأجناس والأنواع عن ليس، وذلك يختص به الباري تعالى، ولم يقدر عليه أحدًا.

والثاني: إحياء الموتى، وقد خص بذلك بعض أوليائه كعيسى ﷺ والثاني، ومنه قوله ﷻ: فَهَذَا يَوْمُ الْبَعْثِ وَلَكِنَّكُمْ كُنتُمْ لا تَعْلَمُونَ [الروم: ٥٦]، يعني الحشر.

وقوله ﷻ: فَبَعَثَ اللهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الأَرْضِ [المائدة: ٣١]. أي قيضه.

وقوله تعالى: ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَى لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا [الكهف: ١٢]، وذلك إثارة بلا توجيه إلى مكان)

وأما البعث في الشرع فيراد به: إحياء الله للموتى وإخراجهم من قبورهم أحياء للحساب والجزاء.

قال الإمام ابن كثير - رحمه الله -: (البعث: وهو المعاد وقيام الأرواح والأجساد يوم القيامة)

وقال السفاريني: (أما البعث فالمراد به المعاد الجسماني؛ فإنه المتبادر عند الإطلاق؛ إذ هو الذي يجب اعتقاده ويكفر منكره)

فالبعث هو: المعاد الجسماني فإنه المتبادر عند الإطلاق إذ هو الذي يجب اعتقاده ويكفر منكره، قال الإمام المحقق ابن القيم في كتابه الروح: معاد الأبدان متفق عليه بين المسلمين، واليهود، والنصارى. وقال الجلال الدواني هو بإجماع أهل الملل وبشهادة نصوص القرآن بحيث لا يقبل التأويل كقوله تعالى: أَوَلَمْ يَرَ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ [يس:٧٨].

(فرع): النشر في اللغة يأتي بمعنى البسط، والانتشار، وتقلب الإنسان في حوائجه،

=

=

ويأتي بمعنى التفرق.

أما مجيئه بمعنى البسط فمثل قوله تعالى: وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ [التكوير: ١٠] ومنه قوله تعالى: وَالنَّاشِرَاتِ نَشْرًا [المرسلات: ٣] أي الملائكة التي تنشر الرياح أو الرياح التي تنشر السحاب.

وأما مجيئه بمعنى الانتشار فمثل قوله تعالى: وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِبَاسًا وَالنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُورًا [الفرقان: ٤٧] أي جعل فيه الانتشار وابتغاء الرزق.

وعن تقلب الإنسان في حوائجه قوله تعالى: فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلاةُ فَانتَشِرُوا فِي الأَرْضِ [الجمعة: ١٠] أي تفرقوا فيها.

قال الأزهري في باب (نشر): (قال الليث: النشر: نشر الريح الطيبة، وعن ثعلب عن ابن الأعرابي قال: النشر: الحياة، والنشر: الريح الطيبة).

قال الأزهري: يقال: أنشر الله الموتى فنشروا: إذا حيوا، كما قال الأعشى:

حتى يقول الناس مما رأوا... يا عجبًا للميت الناشر

وقال الزجاج: يقال: نشرهم الله أي بعثهم، كما قال الله تعالى: وَإِلَيْهِ النُّشُورُ [الملك: ١٥]).

وقال أبو هلال العسكري: (والنشور: اسم لظهور المبعوثين، وظهور أعمالهم للخلائق، ومنه قولك: نشرت اسمك ونشرت قضية فلان، إلا أنه قيل: أنشر الله الموتى - بالألف -، ونشرت الفضيلة الثوب، للفرق بين المعنيين).

وذكر الزمخشري في (أساس البلاغة): أن من معانيه أيضًا: إذاعة الخير ونشره في الناس.

والنشور في الاصطلاح يطلق ويراد به معنى البعث، وهو انتشار الناس من قبورهم إلى الموقف للحساب والجزاء.

=

=

وإذا كان المعنى اللغوي يراد به الانتشار والتفرق والانبساط والبعث، فهي معان عامة يدخل فيها المعنى الاصطلاحي وهو نشر الله للأموات وإحياؤهم من قبورهم، فالنشور يراد به سريان الحياة في الأموات، كما رأيناه في تعريفات العلماء السابقة من أنه يراد به البعث في اليوم الآخر وخروج الناس من قبورهم أحياء.

وعرفه البرديسي بأنه: (قيام الناس من قبورهم)

وقال السفاريني: (وأما النشور فهو يرادف البعث في المعنى، نشر الميت ينشر نشورًا: إذا عاش بعد الموت، وأنشره الله أي أحياه)

(فرع): المعاد في اللغة.

قال الفيروز أبادي: (والمعاد: الآخرة، والحج، ومكة، والجنة - وبكليهما فسر قوله تعالى: لَرَادُّكَ إِلَى مَعَادٍ [القصص: ٨٥]، والمرجع، والمصير.

وقال: وأعاده إلى مكانه: رجعه، والكلام: كرره، وتعاودوا في الحرب: عاد كل فريق إلى صاحبه)

وقال الراغب: (والمعاد يقال للعود وللزمان الذي يعود فيه، وقد يكون للمكان الذي يعود إليه)

وتدل تلك التعريفات للمعاد على أنه مصدر ميمي مأخوذ من العود، وهو رجوع الشيء إلى ما كان عليه أولًا.

وفي الاصطلاح: يطلق لفظ المعاد على الرجوع إلى الله تعالى في يوم القيامة، ورجوع أجزاء البدن المتفرقة إلى الاجتماع كما كانت في الدنيا، وحلول الروح فيه.

قال ابن الأثير: (وفي أسماء الله تعالى "المعيد" هو الذي يعيد الخلق بعد الحياة إلى الممات في الدنيا، وبعد الممات إلى الحياة يوم القيامة)

مسألة: ذكر بعض منكري البعث.

=

=

الصنف الأول أنكروا المبدأ والمعاد: وزعموا أنَّ الأكوان تتصرف بطبيعتها فتوجد وتعدم بأنفسها، ليس لها رب يتصرف فيها، إنما هي أرحام تدفع وأرض تبلع، وهؤلاء هم جمهور الفلاسفة الدَّهرية والطبائعية.

الصنف الثاني من الدهرية طائفة يقال لهم الدوريَّة: وهم منكرون للخالق أيضًا، ويعتقدون أنَّ في كل ستة وثلاثين ألف سنة يعود كل شيء إلى ما كان عليه. وزعموا أنَّ هذا قد تكرَّر مرات لا تتناهى فكابروا في المعقول وكذَّبوا المنقول، قبحهم الله تعالى. وهاتان الطائفتان يعمهم قوله ﷻ وَقَالُوا مَا هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلاَّ الدَّهْرُ [الجاثية:٢٤] ولهذا عن السلف الصالح فيها تفسيران: الأول معنى قولهم نَمُوتُ وَنَحْيَا أي يموت الآباء ويحيا الأبناء هكذا أبدًا، وهو قول الطائفة الأولى. والمعنى الثاني أنَّهم عَنَوْا كونهم يموتون ويحيون هم أنفسهم ويتكرر ذلك منهم أبدًا ولا حساب ولا جزاء، بل ولا موجد ولا معدم ولا محاسب ولا مجازي، وهذا قول الدورية.

المطلب الثالث: الصنف الثالث الدهرية من مشركي العرب ومن وافقهم:

وهم مقرون بالبداءة، وأنَّ الله تعالى: ربّهم وخالقهم وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللهُ [الزخرف:٨٧] ومع هذا قالوا: إِنْ هِيَ إِلاَّ مَوْتَتُنَا الأُولَى وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ [الدخان:٣٥] فأقروا بالبداءة والمبدئ، وأنكروا البعثَ والمعاد، وهم المذكورون في حديث أبي هريرة الصحيح: (وأما تكذيبه إيَّاي فقوله لَنْ يعيدني كما بدأني، وليس أوَّلَ الخلقِ بأهون عليَّ مِنْ إعادته).

الصنف الرابع ملاحدة الجهمية ومن وافقهم: أقروا بمعاد ليس على ما في القرآن ولا فيما أخبَرَتْ به الرسل عن الله ﷻ، بل زعموا أنَّ هذا العالم يعدم عدمًا محضًا، وليس المعاد هو بل عالم آخر غيره، فحينئذٍ تكون الأرض التي تحدّث أخبارها وتخبر بما عمل عليها من خير وشر ليست هي هذه، وتكون الأجساد التي تعذب

=

=

وتجازى وتشهد على من عمل بها المعاصي ليست هي التي أعيدت بل هي غيرها، والأبدان التي تنعم في الجنة وتثاب ليست هي التي عملت الطاعة ولا أنَّها تحولت من حال إلى حال، بل هي غيرها تُبتدأ ابتداءً محضًا، فأنكروا معاد الأبدان وزعموا أنَّ المعادَ بداءة أخرى!

مسألة: التعريف بالصور.

الصور في لغة العرب هو: القرن (يشبه البوق) وقد سئل رسول الله عن الصور ففسره بما تعرفه العرب من كلامها كما سيأتي، وأما الذي ينفخ فيه: فقد اشتهر أنه إسرافيل عليه السلام، ونقل بعض العلماء الإجماع على ذلك، ووقع التصريح به في بعض الأحاديث كما في الفتح (١١/ ٣٦٨)، وقد ورد في الصور أحاديث منها حديث (كيف أنعم وصاحب الصور قد التقم القرن، وحنى جبهته ينتظر متى يؤمر أن ينفخ؟، قال: قلنا: يا رسول الله، فما نقول يومئذ؟، قال: «قولوا: حسبنا الله ونعم الوكيل)

ومنها حديث حديث ابن عمرو رضي الله عنهما (الصور قرن ينفخ فيه)

لذا قال ابن ابن جرير في تفسيره (٧/ ٢٤١) وهو يتكلم عن الصور قد اختلفوا فيه فقال بعضهم: هو قرن ينفخ فيه نفختان، إحداهما لفناء من كان حيًا على الأرض، والثانية لنشر كل ميت، وقال آخرون: الصور في هذا الموضع: جمع صورة، ينفخ فيها روحها فتحيا.

ثم رجح ابن جرير القول الأول بقوله: والصواب من القول في ذلك عندنا ما تظاهرت به الأخبار عن رسول الله ﷺ أنه قال: (إن إسرافيل قد التقم الصور، وحنى جبهته ينتظر متى يؤمر فينفخ)، وأنه قال: (الصور قرن ينفخ فيه).

وقال ابن كثير في تفسيره (٣/ ٢٨١): واختلف المفسرون في قوله: {يوم ينفخ في الصور} فقال بعضهم: المراد بالصور هاهنا جمع صورة أي: يوم ينفخ فيها

=

=

فتحيا... والصحيح أن المراد بالصور: "القرن" الذي ينفخ فيه إسرافيل، عليه السلام.

وكذلك ذهب الآلوسي حيث قال في روح المعاني (٢٠/ ٣٠) عن قوله تعالى: ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى [الزمر: ٦٨]: (ظاهر في أن الصور ليس جمع صورة، وإلا لقال سبحانه (فيها) بدل (فيه)، وارتكاب التأويل يجعل الكلام من باب التمثيل ظاهر في إنكار أن يكون هناك صور حقيقة، وهو خلاف ما نطقت به الأحاديث الصحاح).

ثم قال الآلوسي: وقد قال أبو الهيثم - على ما نقل عنه القرطبي في تفسيره: من أنكر أن يكون الصور قرنًا، فهو كمن أنكر العرش والصراط والميزان، وطلب لها تأويلات ا. هـ

فكما يدخل في الإيمان باليوم الآخر الموت وما بعده من فتنة القبر ونعيمه أو عذابه وباللقاء والبعث والنشور والقيام من القبور كذلك يدخل في ذلك الإيمان بالصور والنفخ فيه الذي جعله الله سبب الفزع والصعق والقيام من القبور، وهو القرن الذي وكل الله تعالى: به إسرافيل كما تقدم في ذكر الملائكة. وقد ذكر الله ﷻ النفخ فيه في مواضع من كتابه، كقوله ﷻ: (وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الأَرْضِ إِلا مَنْ شَاءَ اللهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ) [الزمر:٦٨] الآيات، وقال تعالى: (وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلا مَنْ شَاءَ اللهُ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ) [النمل:٨٧] الآيات، وقال تعالى: (قَوْلُهُ الْحَقُّ وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ) [الأنعام:٧٣]. وغيرها من الآيات.

مسألة: في عدد النفخات في الصور هل هي ثلاث نفخات أم نفختان فقط؟

وقد ذهب أكثر العلماء إلى أن النفخ في الصور يكون مرتين: الأولى يحصل بها الصعق، والثانية يحصل بها البعث مستدلين بقوله تعالى: (ونفخ في الصور فصعق

=

=

من في السماوات ومن في الأرض إلا من شاء الله ثم نفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون) الزمر/ ٦٨.

وبما ورد في الأحاديث الصحيحة التي ذكرت هاتين النفختين وما يترتب عليهما من آثار فقد روى البخاري (٤٦٥١) ومسلم (٢٩٥٥) عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: (ما بين النفختين أربعون. قالوا: يا أبا هريرة أربعون يوما؟ قال: أبيت قالوا أربعون شهرا؟ قال: أبيت قالوا: أربعون سنة؟ قال: أبيت. ثم ينزل الله من السماء ماء فينبتون كما ينبت البقل. قال: وليس من الإنسان شيء إلا يبلى إلا عظما واحدا وهو عجب الذنب ومنه يركب الخلق يوم القيامة) قال النووي: ومعنى قول أبي هريرة (أبيت) أي أبيت أن أجزم أن المراد أربعون يوما أو سنة أو شهرا بل الذي أجزم به أنها أربعون مجملة. اهـ.

وفي صحيح مسلم (٢٩٤٠) عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (.. ثم ينفخ في الصور فلا يسمعه أحد إلا أصغى ليتا ورفع ليتا قال: وأول من يسمعه رجل يلوط حوض إبله قال فيصعق ويصعق الناس ثم يرسل الله أو قال ينزل الله مطرا كأنه الطل أو الظل (شك الراوي) فتنبت منه أجساد الناس ثم ينفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون) وقوله: (أصغى ليتا): أصغى أي أمال، والليت هو جانب العنق والمعنى فلا يبقى أحد إلا أمال عنقه، ورفع عنقه، وقوله: (يلوط حوض إبله): أي يطين ويصلح مجمع الماء الذي تشرب منه إبله. (شرح النووي على مسلم ١٨/ ٧٦)

ومن العلماء من قال: إنها ثلاث نفخات وزاد فيها نفخة الفزع وأنها تكون قبل نفخة الصعق ثم تليها نفخة الصعق مستندين على ما ورد في قوله تعالى: (ويوم ينفخ في الصور ففزع من في السماوات ومن في الأرض إلا من شاء الله وكل أتوه داخرين) النمل/ ٨٧

=

قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا (١٠٣).

=

ولكن لا يلزم من ذكر الصعق في آية والفزع في الأخرى أن لا يحصلا معا من النفخة الأولى بل هما متلازمان فإذا نفخ في الصور فزع الناس فزعا صعقوا منه وماتوا.

واستدلوا أيضا ببعض الأحاديث التي ورد فيها أن النفخات ثلاث، لكن الحديث الذي استدلوا به هو حديث الصور الطويل؛ وهو حديث ضعيف مضطرب كما يقول الحافظ ابن حجر رحمه الله. والله أعلم.

فيستفاد مما سبق أن الله تعالى إذا أذن بموت الأحياء أمر ملك الصور أن ينفخ فيه؛ فينفخ نفخة عظيمة تفزع جميع الخلائق فيصعقون منها ويهلكون، ثم يمكثون على ذلك مدة قدرها أربعين من غير تحديد بسنة أو شهر أو يوم ـ الله أعلم بمقدارها ـ فتتحلل أجسادهم في هذه المدة ولا يبقى منها إلا عجب الذنب وهو العظم المستدير الذي في أصل الظهر، ثم يرسل الله سحابا فتمطر مطرا فإذا أصاب الماء هذا العظم نبت منه الجسم كما ينبت النبات ويتركب الخلق من هذا العظم كما بدأ الله الخلق أول مرة يعيده وهو على كل شيء قدير، ثم ينفخ في الصور نفخة البعث فتعود الأرواح إلى الأجساد فيخرجون من القبور سراعا إلى أرض المحشر نسأل الله رحمته ولطفه.

وبعد فالواجب على المسلم أن يستعد لهذه اللحظات الحاسمة بالمبادرة للأعمال الصالحة، والمسارعة في الخيرات، والبعد عن الأمور المنكرة، و مجانبة السيئات، وإذا كان أخشى الخلق لله وأتقاهم له يقول: " كيف أنعم وقد التقم صاحب القرن القرن وحنى جبهته وأصغى سمعه، ينتظر أن يؤمر أن ينفخ فينفخ.. فكيف بحالنا نحن المقصرين الضعفاء؟! نسأل الله أن يجعلنا ممن لا يحزنهم الفزع الأكبر، وتتلقاهم الملائكة هذا يومكم الذي كنتم توعدون.. آمين.

{قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا} تَمْيِيز طَابَقَ الْمُمَيَّز وَبَيَّنَهُمْ بِقَوْلِهِ.
الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا (١٠٤).

{الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيهمْ فِي الْحَيَاة الدُّنْيَا} بَطَلَ عَمَلهمْ {وَهُمْ يَحْسَبُونَ} يَظُنُّونَ {أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا} عَمَلًا يُجَازَوْنَ عَلَيْهِ.

أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا (١٠٥).

{أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبّهمْ} بِدَلَائِل تَوْحِيده مِنْ الْقُرْآن وَغَيْره {وَلِقَائِهِ} أَيْ وَبِالْبَعْثِ وَالْحِسَاب وَالثَّوَاب وَالْعِقَاب {فَحَبِطَتْ أَعْمَالهمْ} بَطَلَتْ {فَلَا نُقِيم لَهُمْ يَوْم الْقِيَامَة وَزْنًا} أَيْ لَا نَجْعَل لهم قدرا.

ذَلِكَ جَزَاؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُوًا (١٠٦).

{ذَلِكَ} أَيْ الْأَمْر الَّذِي ذَكَرْت عَنْ حُبُوط أَعْمَالهمْ وَغَيْره مُبْتَدَأ خَبَره {جَزَاؤُهُمْ جَهَنَّم بِمَا كَفَرُوا وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُوًا} أَيْ مَهْزُوءًا بهما[1].

---

(١) قوله تعالى: {قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا} [الكهف:١٠٣].
قال السعدي:"أي: قل يا محمد، للناس -على وجه التحذير والإنذار-: هل أخبركم بأخسر الناس أعمالا على الإطلاق؟".
قوله تعالى: (قل هل ننبئكم) هل نخبركم. (بالأخسرين أعمالا) أي الذين أتعبوا أنفسهم في عمل يبغون به ربحا وفضلا، فنالوا به عطبا وهلاكا.
قوله تعالى: {الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا} [الكهف: ١٠٤]، أي:"إنهم الذين ضلَّ عملهم في الحياة الدنيا".
قال السعدي:"أي: بطل واضمحل كل ما عملوه من عمل".
=

=

قوله تعالى: {وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا} [الكهف: ١٠٤]، أي:"وهم يظنون أنهم محسنون في أعمالهم".

قال الزجاج:"أي: يظنون أنهم بصدهم عن النبي ﷺ أنهم يحسنون صنعا".

قال السعدي:"يحسبون أنهم محسنون في صنعه، فكيف بأعمالهم التي يعلمون أنها باطلة، وأنها محادة لله ورسله ومعاداة؟".

وفي المعنيين بقوله تعالى: {قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا} [الكهف:١٠٣]،، أقوال:

أحدها: أنهم القسيسون والرهبان، قاله علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وسعد بن أبي وقاص-في أحد قوليه، والضحاك.

قال بَزِيعٌ: "سأل رجل الضحاك بن مزاحم عن هذه الآية: {قل هل ننبئكم بالأخسرين أعمالا}. قال: هم القِسِّيسون، والرُّهبان".

قال علي-رضي الله عنه-:"هم الرهبان الذين حبسوا أنفسهم في الصوامع".

عن أبي خميصة عبد الله بن قيس، قال: سمعت علي بن أبي طالب يقول في هذه الآية: {قل هل ننبئكم بالأخسرين أعمالا}: إنهم الرهبان الذين حبسوا أنفسهم في السَّواري".

عن مصعب بن سعد، قال: "قلت لأبي {وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا}، أهم الحرورية؟ قال: هم أصحاب الصوامع".

الثاني: أنهم الكتابيون اليهود والنصارى، وهذا مروي أيضا عن علي بن أبي طالب، وسعد بن أبي وقاص، وابن عباس.

قال ابن عباس:"هم اليهود، والنصارى".

قال علي-رضي الله عنه- في رواية راذان:"هم كفرة أهل الكتاب، كان أوائلهم على حق، فأشركوا بربهم، وابتدعوا في دينهم، الذي يجتهدون في الباطل، ويحسبون أنهم

=

=

على حق، ويجتهدون في الضلالة، ويحسبون أنهم على هدى، فضل سعيهم في الحياة الدنيا، وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا، ثم رفع صوته، فقال: وما أهل النار منهم ببعيد".

عن مصعب بن سعد بن أبي وقاص، قال: "سألت أبي: {قل هل ننبئكم بالأخسرين أعمالا}، أهم الحرورية؟ قال: لا، هم اليهود والنصارى؛ أما اليهود فكذبوا محمدًا ﷺ، وأما النصارى فكفروا بالجنة، وقالوا: لا طعام فيها ولا شراب. والحرورية الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه. وكان سعد يسميهم: الفاسقين".

الثالث: هم أهل حروراء من الخوارج، وهذا مروي عن علي رضي الله عنه.

عن أبي الطفيل، قال: "سأل عبد الله بن الكواء عليا عن قوله: {قل هل ننبئكم بالأخسرين أعمالا}، قال: أنتم يا أهل حروراء".

وفي رواية:"أنت وأصحابك".

وفي رواية: "ويلك أهل حروراء منهم".

عن علي بن أبي طالب -من طريق أبي الطفيل- أنّه سُئِل عن هذه الآية: {قل هل ننبئكم بالأخسرين أعمالا}. قال: لا أظن إلا أنّ الخوارج منهم".

عن علي بن أبي طالب -من طريق أبي الطفيل- أنّه سُئِل عن هذه الآية: {قل هل ننبئكم بالأخسرين أعمالا}. قال: لا أظن إلا أنّ الخوارج منهم".

عن ابن الكواء أنّه قال لعلي بن أبي طالب: "يا أمير المؤمنين، مَن القوم {الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا}؟ قال: أولئك أقوام كانوا على حسنات مِن أعمالهم، فملُّوها، وبدَّلوها بغيرها، وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعًا. ثم أدخل عليٌّ أصبعيه في أذنيه، ثم هتف بصوته حتى خرج صوته من نواحي المسجد، ثم قال: وما ابن الكواء منهم ببعيد. ثلاث مرات".

=

=

عن ابن الكواء أنّه قال لعلي بن أبي طالب: "يا أمير المؤمنين، مَن القوم {الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا}؟ قال: أولئك أقوام كانوا على حسنات مِن أعمالهم، فملُّوها، وبدَّلوها بغيرها، وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعًا. ثم أدخل عليٌّ أصبعيه في أذنيه، ثم هتف بصوته حتى خرج صوته من نواحي المسجد، ثم قال: وما ابن الكواء منهم ببعيد. ثلاث مرات".

عن علي بن أبي طالب -من طريق زاذان- أنه سُئِل عن قوله: {قل هل ننبئكم بالأخسرين أعمالا}. قال: "هم كفرة أهل الكتاب؛ كان أوائلهم على حق، فأشركوا بربهم، وابتدعوا في دينهم، الذي يجتهدون في الباطل، ويحسبون أنهم على حق، ويجتهدون في الضلالة، ويحسبون أنهم على هدًى، فضَلَّ سعيهم في الحياة الدنيا، وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعًا. ثم رفع صوتَه، فقال: وما أهل النار منهم ببعيد".

عن مصعب بن سعد بن أبي وقاص قال: "قلت لأبي: {قل هل ننبئكم بالأخسرين أعمالا}، الحرورية هم؟ قال: لا، ولكنهم أصحاب الصوامع، والحرورية قوم زاغوا فأزاغ الله قلوبهم".

وعن أبي الطفيل، قال: سمعت علي بن أبي طالب، وسأله ابن الكوّاء فقال: من {هل ننبئكم بالأخسرين أعمالا}؟ قال: فَجَرَة قريش".

الرابع: هم أهل الأهواء.

الخامس: أنه من يصطنع المعروف ويمن عليه.

السادس: أنهم المنافقون بأعمالهم المخالفون باعتقادهم. أفاده الماوردي.

السابع: أنهم طالبو الدنيا وتاركو الآخرة. أفاده الماوردي.

والصواب -والله أعلم- أنه عني به "كل عامل عملا يحسبه فيه مصيبا، وأنه لله بفعله ذلك مطيع مرض، وهو بفعله ذلك لله مسخط، وعن طريق أهل الإيمان به

=

=

جائر كالرهابنة والشمامسة وأمثالهم من أهل الإجتهاد في ضلالتهم، وهم مع ذلك من فعلهم واجتهادهم بالله كفرة، من أهل أي دين كانوا".

قال صاحب المنار في تفسير هذه الآية:"لو كان التقليد عذرا مقبولا لكان أكثر كفار الأرض في جميع الأزمنة والأمكنة معذورين ناجين كالمؤمنين. ألم تر أن التقليد قد أضل الألوف التي لا تحصى من المسلمين الذين صدق عليهم الحديث الصحيح: «لتتبعن سنن من قبلكم شبرا بشبر وذراعا بذراع»، فتركوا هداية الكتاب والسنة وسيرة السلف الصالح، واتبعوا البدع المستحدثة، فإذا دعوا إلى الله ورسوله قالوا: قال الشيخ فلان، وفعل الولي الصالح فلان، وهؤلاء أعلم وأهدى منا بالسنة والقرآن. وإنما أمرهم الله أن يتبعوا ما أنزله إليهم ونهاهم أن يتبعوا من دونه أولياء كما تقدم في صدر هذه السورة، وما أضيع البرهان عند المقلد".

واختلف العلماء في المراد بهم كما تقدم:

فقيل: كفار مكة. ورجحه: ابن عطية، والقرطبي، والثعالبي، وابن جزي، وابن عاشور.

للقرينة بعده في قوله تعالى (أولئك الذين كفروا بآيات ربهم ولقائه).

وقيل: قال علي هم الخوارج أهل حروراء.

وقيل: هم الرهبان أهل الصوامع. ورجحه: الزمخشري، وابن الجوزي.

لأنهم يتعبدون ويظنون أن عبادتهم تنفعهم، وهي لا تقبل منهم.

وذهب بعض العلماء: إلى أن الآية عامة في كل من عبد الله على غير طريقة مرضية يحسب أنه مصيب فيها وأن عمله مقبول وهو مخطئ وعمله مردود. ورجحه: الطبري، وابن كثير، والشوكاني، والألوسي، والشنقيطي.

- قال الطبري: والصواب من القول في ذلك عندنا، أن يقال: إن الله ﷻ عنى بقوله:

=

=

{هل ننبئكم بالأخسرين أعمالا} كل عامل عملا يحسبه فيه مصيبا، وأنه لله بفعله ذلك مطيع مرض، وهو بفعله ذلك لله مسخط، وعن طريق أهل الإيمان به جائر كالرهابنة والشمامسة وأمثالهم من أهل الاجتهاد في ضلالتهم، وهم مع ذلك من فعلهم واجتهادهم بالله كفرة من أهل أي دين كانوا.

- وقال أبو حيان: وينبغي حمل هذه الأقوال على التمثيل لا الحصر، إذ الأخسرون أعمالا هم كل من دان بدين غير الإسلام، أو راءى بعمله، أو أقام على بدعة تؤول به إلى الكفر، والأخسر من أتعب نفسه فأدى تعبه به إلى النار.

- وقال الشوكاني: وقد اختلف السلف في تعيين هؤلاء الأخسرين أعمالا، فقيل: اليهود والنصارى، وقيل: كفار مكة، وقيل: الخوارج، وقيل: الرهبان أصحاب الصوامع، والأولى حمل الآية على العموم لكل من اتصف بتلك الصفات المذكورة.

- ومما يؤيد أن المراد بهم الكفار قوله بعدها (أولئك الذين كفروا بآيات ربهم ولقائه فحبطت أعمالهم فلا نقيم لهم يوم القيامة وزنا).

كما قال تعالى (وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثورا).

وقال تعالى (والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئا ووجد الله عنده فوفاه حسابه والله سريع الحساب).

- ومعنى ضل سعيهم: أي بطل واضمحل.

(وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا) أي يعتقدون أنهم على شيء وأنهم مقبولون محبوبون.

قال الشوكاني: والحال أنهم يظنون أنهم محسنون في ذلك منتفعون بآثاره.

قوله تعالى: {أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ} [الكهف: ١٠٥].

قال أبو الليث السمرقندي:"أي: بمحمد ﷺ والقرآن ولقائه، أي: البعث بعد

=

=

الموت".

قال السعدي:"أي: جحدوا الآيات القرآنية والآيات العيانية، الدالة على وجوب الإيمان به، وملائكته، ورسله، وكتبه، واليوم الآخر".

قوله تعالى: {فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ} [الكهف: ١٠٥]، أي:"فبطلت أعمالهم بسبب كفرهم".

قال أبو الليث السمرقندي:"أي: بطلت حسناتهم".

قال مقاتل:"يعني: فبطلت أعمالهم الحسنة فلا تقبل منهم لأنها كانت في غير إيمان".

قال الطبري:"يقول: فبطلت أعمالهم، فلم يكن لها ثواب ينفع أصحابها في الآخرة، بل لهم منها عذاب وخزي طويل".

قوله تعالى: {فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا} [الكهف: ١٠٥]، أي:"فلا نقيم لهم يوم القيامة قدرًا".

قال النسفي: أي:"فلا يكون لهم عندنا وزن ومقدار".

قال مقاتل:"من خير قدر مثقال جناح بعوضة".

قال أبو الليث السمرقندي:"أي: لا توزن أعمالهم مثقال ذرة، ويقال: لا نقيم لأعمالهم ميزانا".

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: فلا نجعل لهم ثقلا. وإنما عنى بذلك: أنهم لا تثقل بهم موازينهم، لأن الموازين إنما تثقل بالأعمال الصالحة، وليس لهؤلاء شيء من الأعمال الصالحة، فتثقل به موازينهم".

قال السعدي:"لأن الوزن فائدته، مقابلة الحسنات بالسيئات، والنظر في الراجح منها والمرجوح، وهؤلاء لا حسنات لهم لعدم شرطها، وهو الإيمان، كما قال تعالى: {وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا} [طه:

=

=
١١٢]، لكن تعد أعمالهم وتحصى، ويقررون بها، ويخزون بها على رءوس الأشهاد، ثم يعذبون عليها".

وفي قوله تعالى: {فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا} [الكهف: ١٠٥]، وجوه:

أحدها: لهوانهم على الله تعالى بمعاصيهم التي ارتكبوها يصيرون محقورين لا وزن لهم.

الثاني: أنهم لخفتهم بالجهل وطيشهم بالسفه صاروا كمن لا وزن لهم.

الثالث: أن حسناتهم تُحبَط بالكفر فتبقى سيئاتهم. فيكون الوزن عليهم لا لهم.

الرابع: أن المعاصي تذهب بوزنهم حتى لا يوازنوا من خفتهم شيئًا.

عن أبي هريرة، قال: قال رسول ﷺ " يؤتى بالأكول الشروب الطويل، فيوزن فلا يزن جناح بعوضة" ثم قرأ: {فلا نقيم لهم يوم القيامة وزنا}".

قال عبيد بن عمير: "يؤتى بالرجل العظيم الطويل الأكول الشروب، فلا يزن جناح بعوضة".

قال كعب: "يؤتى يوم القيامة برجل عظيم طويل، فلا يزن عند الله جناح بعوضة، اقرءوا: {فلا نقيم لهم يوم القيامة وزنا}".

قال عثمان بن العفان-رضي الله عنه-:"الربا سبعون بابا أهونهن مثل نكاح الرجل أمه. قال: وأربى الربى عرض أخيك المسلم تشتمه. قال: ويؤتى يوم القيامة بالعظيم الطويل الأكول الشروب الذي يشرب الظرف في المجلس فيوزن فلا يعدل جناح بعوضة، خاب ذلك وخسر، ثم تلا هذه الآية: فلا نقيم لهم يوم القيامة وزنا".

عن مصعب بن سعد، "أنّ رجلًا قال لسعد بن أبي وقاص: أشهد أنك مِن أئِمَّة الكفر. فقال له سعد: كذبت، ذاك أبو جهل وأصحابه. فقال رجل لسعد: هذا من {الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا}. قال سعد: لا، {أولئك الذين [كفروا بآيات ربهم ولقائه فـ]ـحبطت أعمالهم فلا نقيم
=

=

لهم يوم القيامة وزنا}".

(أولئك الذين كفروا بآيات ربهم ولقائه) أي جحدوا آيات الله في الدنيا وبراهينه التي أقام على وحدانيته وصدق رسله، وكذبوا بالبعث والدار الآخرة.

(فحبطت أعمالهم) أي ذهبت وبطلت.

وفي هذا دليل على أن الكفر بالله يحبط الأعمال كما سبق في الآيات السابقة.

(فلا نقيم لهم يوم القيامة وزنا) أي لا قدر لهم عند الله لحقارتهم بسبب كفرهم.

ليس لهم حسنات توزن في الكفة الأخرى في مقابل سيئاتهم.

كما قال تعالى (ومن خفت موازينه فأولئك الذين خسروا أنفسهم بما كانوا بآياتنا يظلمون).

وقال تعالى (وأما من خفت موازينه فأمه هاوية).

وفي الصحيحين عن أبي هريرة. قال: قال رسول الله ﷺ (إنه ليأتي الرجل العظيم السمين يوم القيامة لا يزن عند الله جناح بعوضة اقرءوا (فلا نقيم لهم يوم القيامة وزنا).

قوله تعالى: {ذَلِكَ جَزَاؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا} [الكهف: ١٠٦].

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: أولئك ثوابهم جهنم بكفرهم بالله".

قال أبو الليث السمرقندي:"أي: هكذا عقوبتهم. جهنم بما كفروا".

قال السعدي:"أي: حبوط أعمالهم، وأنه لا يقام لهم يوم القيامة، {وزنا} لحقارتهم وخستهم، بكفرهم بآيات الله".

قوله تعالى: {وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُوًا} [الكهف: ١٠٦]، أي:"وبسبب اتخاذهم آياته وحجج رسله استهزاءً وسخرية".

قال الطبري:"وباتخاذهم آيات كتابه، وحجج رسله سخريا، واستهزائهم برسله".

قال مقاتل:"{واتخذوا آياتي} يعني: القرآن، {ورسلي} يعني: محمدًا ﷺ

=

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا (١٠٧).

{إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَات كَانَتْ لَهُمْ} فِي عِلْم الله {جَنَّات الْفِرْدَوْس} هُوَ وَسَط الْجَنَّة وَأَعْلَاهَا وَالْإِضَافَة إِلَيْهِ لِلْبَيَانِ {نُزُلًا} مَنْزِلًا.

خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا (١٠٨).

{خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ} يَطْلُبُونَ {عَنْهَا حِوَلًا} تَحَوُّلًا إِلَى غَيْرهَا.

قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا (١٠٩).

{قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْر} أَيْ مَاؤُهُ {مِدَادًا} هُوَ مَا يُكْتَب بِهِ {لِكَلِمَاتِ رَبِّي} الدَّالَّة عَلَى حِكَمه وَعَجَائِبه بِأَنْ تُكْتَب بِهِ {لَنَفِدَ الْبَحْر} فِي كِتَابَتهَا {قَبْل أَنْ تَنْفَد} بِالتَّاءِ وَالْيَاء تَفْرُغ {كَلِمَات رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ} أَيْ الْبَحْر {مَدَدًا} زِيَادَة فِيهِ لَنَفِدَ وَلَمْ تَفْرُغ هِيَ وَنَصْبهُ عَلَى التَّمْيِيز.

قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ

=

{هزوا} يعني: استهزاء بهما أنهما ليسا من الله ﷻ".

قال أبو الليث السمرقندي:"أي: القرآن ومحمدا ﷺ استهزاء".

قال الثعلبي: {هُزُوًا} " يعني: سخرية".

قال السعدي:"واتخاذهم آياته ورسله، هزوا يستهزئون بها، ويسخرون منها، مع أن الواجب في آيات الله ورسله، الإيمان التام بها، والتعظيم لها، والقيام بها أتم القيام، وهؤلاء عكسوا القضية، فانعكس أمرهم، وتعسوا، وانتكسوا في العذاب".

(ذلك جزاؤهم جهنم) أي إنما جازيناهم بهذا الجزاء. (بما كفروا واتخذوا آياتي ورسلي هزوا) بسبب كفرهم واتخاذهم آيات الله ورسله هزوا.

كما قال تعالى (ذلك جزيناهم بما كفروا وهل نجازي إلا الكفور).

فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا (١١٠).

{قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَر} آدَمِيّ {مِثْلكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهكُمْ إِلَه وَاحِد} أَنَّ الْمَكْفُوفَة بِمَا بَاقِيَةٌ عَلَى مَصْدَرِيَّتهَا وَالْمَعْنَى يُوحَى إِلَيَّ وَحْدَانِيَّة الْإِلَه {فَمَنْ كَانَ يَرْجُو} يَأْمُل {لِقَاء رَبّه} بِالْبَعْثِ وَالْجَزَاء {فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِك بِعِبَادَةِ رَبّه} أَيْ فِيهَا بِأَنْ يُرَائِيَ {أحدا}[1].

---

(١) ذكر سبب النزول.

عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما؛ قال: كان جندب بن زهير إذا صلى أو صام أو تصدق فذكر بخير ارتاح له؛ فزاد في ذلك لمقالة الناس؛ فلامه الله؛ فنزل في ذلك: {فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا}.

أخرجه أبو نعيم الأصبهاني في "معرفة الصحابة" (٢/ ٥٨٠، ٥٨١ رقم ١٥٩١)، وابن منده في "معرفة الصحابة"، وابن عساكر في "تاريخ دمشق" (١٢/ ١٢٤) من طريق السدي الصغير عن الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس به. ومن دون ابن عباس كذابون متهم.

وعنه رضي الله عنه؛ قال: أنزلت في المشركين الذين عبدوا مع الله إلهًا غيره وليست هذه في المؤمنين.

أخرجه البيهقي في "شعب الإيمان" (٥/ ٣٤٠ رقم ٦٨٥٣ - دار الكتب العلمية)، وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه؛ كما في "الدر المنثور" (٥/ ٤٦٩) من طريق أبي حاتم الرازي وعثمان بن سعيد الدارمي وغيرهما عن أبي صالح عبد الله بن صالح المصري كاتب الليث بن سعد عن معاوية بن صالح عن علي بن أبي طلحة عن ابن عباس به. وإسناده ضعيف.

وعن طاووس؛ قال: قال رجل: يا نبي الله! إني أقف مواقف أبتغي وجه الله، وأحب أن يرى موطني، فلم يرد عليه رسول الله ﷺ شيئًا حتى نزلت هذه الآية: {فَمَنْ كَانَ =

=
يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا}.
أخرجه ابن المبارك في "الجهاد" (رقم ١٢) -ومن طريقه الحاكم (٤/ ٣٢٩، ٣٣٠)، وابن أبي حاتم في "تفسيره"؛ كما في "تفسير القرآن العظيم" (٣/ ١١٤) -، وعبد الرزاق في "تفسيره" (١/ ٢/ ٤١٤) -وعنه الطبري في "جامع البيان" (١٦/ ٣٢) - جميعهم من طريق معمر عن عبد الكريم الجزري عن طاوس به مرسلًا. وهذا مرسل صحيح الإسناد، كذا رواه مرسلًا ابن المبارك وعبد الرزاق وخالفهما نعيم بن حماد -وهو ضعيف-؛ فرواه عن معمر به موصولًا بذكر ابن عباس.
أخرجه الحاكم في "المستدرك" (٢/ ١١١) - وعنه البيهقي في "شعب الإيمان" (٥/ ٣٤١ رقم ٦٨٥٤). ومن هو نعيم مقابل ابن المبارك وعبد الرزاق؛ فالصواب الإرسال.
وعن مجاهد؛ قال: كان من المسلمين من يقاتل وهو يحب أن يرى مكانه؛ فأنزل الله تعالى: {فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ} الآية.
ذكره السيوطي في "الدر المنثور" (٥/ ٤٦٩)، و"لباب النقول" (ص ١٤٥) ونسبه لابن أبي حاتم. وهو ضعيف؛ لإرساله.
* قوله تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ} [الكهف: ١٠٧].
قال الطبري: "يقول تعالى ذكره: إن الذين صدقوا بالله ورسوله، وأقروا بتوحيد الله وما أنزل من كتبه وعملوا بطاعته".
عن زيد بن أسلم: "{الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ}، قال: رسول الله ﷺ وأصحابه رضي الله عنهم".
عن ابن عباس: "الأعمال الصالحة: سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر".
=

=

قوله تعالى: {كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا} [الكهف: ١٠٧]، أي:"لهم أعلى منازل الجنة وأوسطها، وهي أفضلها منزلًا".

قال الطبري: أي: " كانت لهم بساتين الفردوس"، " «نزلا» يقول: منازل ومساكن، والمنزل: من النزول، وهو من نزول بعض الناس على بعض، و «الفردوس»: معظم الجنة، كما قال أمية:

كانَتْ مَنازِلُهُمْ إذْ ذاكَ ظاهِرَةً... فِيها الفَراديسُ والفُومانُ والبَصَلُ".

قال شمر:"خلق الله جنة الفردوس بيده، فهو يفتحها في كل يوم خميس، فيقول: ازدادي طيبا لأوليائي، ازدادي حسنا لأوليائي".

وفي تفسير: «الْفِرْدَوْسِ»، أقوال:

أحدها: أن «الفردوس»: أفضل الجنة وأوسطها، قاله قتادة.

قال قتادة:"الفردوس: ربوة الجنة وأوسطها وأفضلها".

وعن أبي أمامة الباهلي، قال: " الفردوس: هي سرة الجنة".

الثاني: أن «الفردوس»: ربوة الجنة العليا التي هي أوسطها وأحسنها.

عن عبادة بن الصامت، عن النبي ﷺ قال: " الجنة مئة درجة، ما بين كل درجتين مسيرة عام والفردوس أعلاها درجة، ومنها الأنهار الأربعة، والفردوس من فوقها، فإذا سألتم الله فاسألوه الفردوس".

عن أبي هريرة، أو أبي سعيد الخدري، عن رسول الله ﷺ أنه قال: "إذا سألتم الله فاسألوه الفردوس، فإنها أوسط الجنة وأعلى الجنة، وفوقها عرش الرحمن تبارك وتعالى، ومنه تفجر أنهار الجنة".

عن معاذ بن جبل، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إنّ في الجنة مائة درجة، كل درجة منها ما بين السماء والأرض، وأعلاها الفردوس، وعليها يكون العرش، وهي أوسط شيء في الجنة، ومنها تفجر أنهار الجنة، فإذا سألتم الله فاسألوه

=

=

الفردوس».

وقال كعب:"ليس في الجنان جنة أعلى من جنة الفردوس، وفيها الآمرون بالمعروف، والناهون عن المنكر".

الثالث: أنه البستان بالرومية، قاله مجاهد.

الرابع: أنه البستان الذي يجمع كل ما يكون في البساتين، قاله الزجاج.

الخامس: أنه البستان الذي فيه الأعناب، قاله كعب.

واختلف في لفظ «الفردوس»،على أربعة أقوال:

أحدها: أنه عربي وقد ذكرته العرب في شعرها، قاله ثعلب.

الثاني: أنه بالرومية، ومعناه «البستان». قاله مجاهد.

الثالث: انه «الكرم» بالنبطية، وأصله «فرداسًا»، قاله السدي.

الرابع: بالسريانية، قاله أبو صالح.

قوله تعالى: (إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات كانت لهم جنات الفردوس نزلا) يخبر تعالى عن عبيده السعداء وهم الذين آمنوا بالله ورسوله وعملوا الصالحات أن لهم جنات الفردوس، نزلا: أي ضيافة.

فالإيمان بالله والعمل الصالح سبب لدخول الجنة، وقد ذكر الله ذلك في آيات كثيرة.

قال تعالى (بشر الذين آمنوا وعملوا الصالحات أن لهم جنات تجري من تحتها الأنهار).

وقال تعالى (والذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون).

وقال تعالى (الذين آمنوا وعملوا الصالحات سندخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين).

=

=

وقال تعالى (وأدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها).

والفردوس: اسم من أسماء الجنة ومعناه: البستان الذي يجمع كل ما فيه البساتين.

قوله تعالى: {خَالِدِينَ فِيهَا} [الكهف: ١٠٨]، أي:"ماكثين فيها أبدًا".

قال الطبري:"يقول: لابثين فيها أبدا".

عن سعيد بن جبير: {خَالِدِينَ فِيهَا}، يعني: لا يموتون".

عن السدي: " {هم خالدون}: خالدا أبدا".

قوله تعالى: {لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا} [الكهف: ١٠٨]، أي:"لا يريدون عنها تحوُّلا؛ لرغبتهم فيها وحبهم لها".

قال الطبري:"يقول: لا يريدون عنها تحولا".

وفي قوله تعالى: {لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا} [الكهف: ١٠٨]، وجوه:

أحدها: بدلًا، قاله الضحاك.

الثاني: تحولًا إلى غيرها، قاله مقاتل، والفراء، وأبو عبيدة، وابن قتيبة.

قال أبو عبيدة: أي:"لا يريدون ولا يحبّون عنها تحويلا".

الثالث: متحولا. قاله مجاهد.

الرابع: حيلة، أي: لا يحتالون منزلًا غيرها. حكاه الماوردي.

روي مخلد بن الحسين عن بعض أصحاب أنس، قال: "يقول أولهم دخولا إنما أدخلني الله أولهم، لأنه ليس أحد افضل مني، ويقول آخرهم دخولا إنما أخرني الله، لأنه ليس أحد أعطاه الله مثل الذي أعطاني".

(خالدين فيها) أي مقيمين ساكنين فيها لا يظعنون عنها أبدا.

(لا يبغون عنها حولا) أي: لا يختارون عنها غيرها ولا يحبون سواها.

كما قال تعالى (الذي أحلنا دار المقامة من فضله) أي الإقامة أبدا.

=

=

وقال تعالى (ما كثين فيه أبدا).

- قال ابن كثير: وفي قوله (لا يبغون عنها حولا) تنبيه على رغبتهم فيها وحبهم لها، مع أنه قد يتوهم فيمن هو مقيم في المكان دائما أنه قد يسأمه أو يمله، فأخبر أنهم مع هذا الدوام والخلود السرمدي لا يختارون عن مقامهم ذلك متحولا ولا انتقالا ولا ظعنا ولا رحلة ولا بدلا.

- قال البقاعي (عنها حولا) أي تحولا لأنه مزيد عليها، دفعا لما قد يتوهم من أن الأمر كما في الدنيا من أن كل أحد في أي نعيم كان يشتهي ما هو أعلى منه لأن طول الإقامة قد يورث السآمة، بل هم في غاية الرضى بها، لما فيها من أنواع الملاذ التي لا حصر لها ولا انقضاء، لا يشتهي أحد منهم غير ما عنده سواء كان في الفردوس أو فيما دونه.

- قال ابن الجوزي: فإن قيل: قد علم أن الجنة كثيرة الخير، فما وجه مدحها بأنهم لا يبغون عنها حولا؟

فالجواب: أن الإنسان قد يجد في الدار الأنيقة معنى لا يوافقه، فيحب أن ينتقل إلى دار أخرى، وقد يمل، والجنة على خلاف ذلك.

قوله تعالى: {قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي} [الكهف: ١٠٩].

قال الطبري: "يقول عز ذكره لنبيه محمد ﷺ: {قل} يا محمد: {لو كان البحر مدادا} للقلم الذي يكتب به".

عن عمرو بن مالك، قال: سمعت أبا الجوزاء يقول: في قوله: " {قل لو كان البحر مدادا لكلمات ربي}، قال: لو كان كل شجرة في الأرض أقلامًا، والبحر يمده من بعده سبعة أبحر لو كان مدادًا؛ لنفد الماء، وتكسرت الأقلام، قبل أن تنفد كلمات ربي".

وفي قوله تعالى: {قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي} [الكهف: ١٠٩]، ثلاثة

=

=

وجوه:

أحدها: أنه وعد بالثواب لمن أطاعه، ووعيد بالعقاب لمن عصاه، ومثله: {لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي}. حكاه الماوردي عن ابن بحر.

الثاني: أنه العلم بالقرآن، قاله مجاهد.

عن مجاهد:"{قل لو كان البحر مدادا لكلمات ربي}، يقول: عِلْم ربي".

عن مجاهد: قوله: " {قل لو كان البحر مدادا}،قال: «يعني: للقلم».

عن السُّدِّيّ: " {لو كان البحر مدادا لكلمات ربي} يعني: لعلم ربي وعجائبه".

الثالث: أنه تبعيد على خلقه أن يُحصوا أفعاله ومعلوماته -سبحانه وتعالى-، وإن كانت عنده ثابتة محصية. وهذا معنى قول ومقاتل، ويحيى بن سلام.

قال مقاتل:"يخبر الناس أنه لا يدرك أحد علم الله- ﷻ".

قال يحيى بن سلام:"{قُل لَّوْ كَانَ البحر مِدَادًا لِّكَلِمَاتِ رَبِّي} يعني لعلم ربِّي وعجائبه، {لَنَفِدَ البحر قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي} يعني علم ربِّي. وعجائبه".

قال سهل بن عبد الله:"إن من علمه كتابه، لو أن عبدا أعطي لكل حرف من القرآن ألف فهم لما بلغ نهايته علم الله فيه، لأنه كلامه القديم، وكلامه صفته، ولا نهاية لصفاته، كما لا نهاية له، وإنما يفهم على قدر ما يفتح الله على قلوب أوليائه من فهم كلامه".

عن عمرو بن مالك ، قال: "سمعت أبا الجوزاء ، يقول في قوله تعالى: {قل لو كان البحر مدادا لكلمات ربي} [الكهف: ١٠٩] ، قال: «لو كان كل شجرة في الأرض أقلاما ، والبحر يمده من بعده سبعة أبحر لو كان مدادا لنفد الماء ، وتكسرت الأقلام قبل أن تنفد كلمات ربي».

قوله تعالى: {لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي} [الكهف: ١٠٩]، أي:"لنفِد ماء البحر قبل أن تنفد كلمات الله".

=

=

قال الطبري:"يقول: ولو مددنا البحر بمثل ما فيه من الماء مددا، من قول القائل: جئتك مددا لك، وذلك من معنى الزيادة".

قال قتادة:"ينفد ماء البحر قبل إن ينفد كلام الله وحكمته".

عن السُّدِّيّ: " {لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربي} يعني: علم ربي وعجائبه".

قوله تعالى: {وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا} [الكهف: ١٠٩]، أي:"ولو جئنا بمثل البحر بحارًا أخرى مددًا له".

قال الطبري:"يقول: ولو مددنا البحر بمثل ما فيه من الماء مددا".

قال مقاتل:"بخبر الناس أنه لا يدرك أحد علم الله- ﷻ".

عن أبي البختري، قال: "صحِب سلمانَ رجلٌ ليتعلم منه، فانتهى إلى دجلة وهي تطفح، فقال له سلمان: انزل، فاشرب. فشرب، قال له: ازدد. فازداد، قال: كم تراك نقصت منها؟ قال: ما عسى أن أنقص مِن هذه؟ قال سلمان: فكذلك العلم، تأخذ منه ولا تُنقِصه".

(قل لو كان البحر مدادا لكلمات ربي لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربي) يقول تعالى: قل يا محمد لو كان ماء البحر مدادا للقلم الذي يكتب به كلمات الله وحكمه وآياته الدالة عليه، لنفد البحر قبل أن يفرغ كتابه ذلك.

(ولو جئنا بمثله مددا) أي بمثل البحر آخر، ثم آخر وهلم جرا بحور تمده ويكتب بها، لما نفدت كلمات الله.

كما قال تعالى (ولو أنما في الأرض من شجرة أقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر ما نفدت كلمات الله إن الله عزيز حكيم).

قال الشنقيطي: وقد دلت هذه الآيات على أن كلماته تعالى لا نفاد لها سبحانه وتعالى علوا كبيرا.

قوله تعالى: {قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ} [الكهف:

=

=

١١٠].

عن ابن عباس -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا-، قال: "قال رجل: يا رسول الله، إني أقف الموقف أريد وجه الله، وأريد أن يرى موطني، فلم يرد عليه رسول الله ﷺ شيئا حتى نزلت: {فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ، فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا، وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا}".

قال الطبري: "يقول تعالى ذكره: قل لهؤلاء المشركين يا محمد: إنما أنا بشر مثلكم من بني آدم لا علم لي إلا ما علمني الله وإن الله يوحي إلي أن معبودكم الذي يجب عليكم أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئا، معبود واحد لا ثاني له، ولا شريك".

قال النحاس: "أي: لست أقدر على أن أكرهكم ولا أن أجبركم على ما أدعوكم إليه".

قوله تعالى: {فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ} [الكهف: ١١٠]، أي: "فمَن كان يخاف عذاب ربه ويرجو ثوابه يوم لقائه".

قال الطبري: "يقول: فمن يخاف ربه يوم لقائه، ويراقبه على معاصيه، ويرجو ثوابه على طاعته".

عن سعيد بن جبير: "{فمن كان يرجوا لقاء ربه}، قال: ثواب ربه".

وفي قوله تعالى: {فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ} [الكهف: ١١٠]، وجهان:

أحدهما: معناه: فمن كان يخاف لقاء ربه، ومثله: {مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا} [نوح: ١٣]، أي: ما لكم لا تخافون لله عظمة. قاله ابن قتيبة، وحكاه الزجاج عن بعضهم، ومنه قول الهذلي:

إذا لَسَعَتْهُ النَّحْلُ لَمْ يَرْجُ لَسْعَهَا... وحَالَفَهَا في بيتِ نُوبٍ عَوَامِلِ

أي: لم يخف لسعها.

الثاني: معناه: فمن كان يرجو الثواب وصلاح المنقلب عند ربه، وهذا قول سعيد

=

=

بن جبير.

قال الزجاج:"فإذا رجاه خاف أيضا عذاب ربه".

وقال سعيد بن جبير:"مَن كان يخشى البعث في الآخرة".

وعن السدي:"يعني: فمَن كان يخشى البعث".

عن عبد الله بن المبارك -من طريق علي بن الباشاني- في قوله ﷻ: " {فمن كان يرجو لقاء ربه}، قال: مَن أراد النظر إلى وجه خالقه".

قوله تعالى: {فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا} [الكهف: ١١٠]، أي:"فليعمل عملا صالحًا لربه موافقًا لشرعه".

قال الطبري:"يقول: فليخلص له العبادة، وليفرد له الربوبية".

قال سهل بن عبد الله:"العمل الصالح: ما كان خاليا عن الرياء مقيدا بالسنة، والله سبحانه وتعالى أعلم".

قوله تعالى: {وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا} [الكهف: ١١٠]، أي:"ولا يشرك في العبادة معه أحدًا غيره".

قال الطبري:"يقول: ولا يجعل له شريكا في عبادته إياه، وإنما يكون جاعلا له شريكا بعبادته إذا راءى بعمله الذي ظاهره أنه لله وهو مريد به غيره".

عن السُّدِّيّ: " {ولا يشرك بعبادة ربه أحدا}، يقول: لا يريد بذلك غير الله".

قال الماتريدي:"جعل الإشراك في الألوهية والربوبية، والإشراك في العبادة واحدا؛ كله شرك بالله".

وفي قوله تعالى: {وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا} [الكهف: ١١٠]، وجهان:

أحدهما: أن الشرك بعبادته «الكفر»، ومعناه: ولا يشرك بالله جل وعز أحدا فيعبده معه، وهذا معنى قول ابن عباس.

قال ابن عباس:"نزلت في المشركين الذين عبدوا مع الله إلها غيره، وليست هذه في

=

=

المؤمنين".

الثاني: أنه الرياء، ومعناه: يخلص لله العمل ولا يرائي بعمله أحدًا، قاله الحسن، وسعيد بن جبير، ومجاهد، وسفيان.

عن كثير بن زياد، قال: "قلت للحسن البصري: قول الله: {فمن كان يرجوا لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ولا يشرك بعبادة ربه أحدا}. قال: في المؤمن نزلت. قلت: أَشْرَكَ بالله؟ قال: لا، ولكن أَشْرَكَ بذلك العمل؛ عمِل عملًا يريد اللهَ به والناس، فذلك يُرَدُّ عليه".

عن سفيان -من طريق عبد الرحمن-:"{ولا يشرك بعبادة ربه أحدا}، قال: لا يُرائِي".

قال سعيد بن جبير:"من كان يخشى البعث في الآخرة {فليعمل عملا صالحا ولا يشرك بعبادة ربه أحدا} من خلقه".

عن سعيد بن جبير، في قوله: " {فليعمل عملا صالحا ولا يشرك} قال: لا يرائي {بعبادة ربه أحدا}".

عن سعيد بن جبير، في قوله: {فليعمل عملا صالحا ولا يشرك بعبادة ربه أحدا}: لا يُرِد بعمله أحدًا من خلقه. قال النَّبي ﷺ: «إنّ ربكم يقول: أنا خير شريك؛ فمَن أشرك معي في عمله أحدًا مِن خلقي تركت العمل كله له، ولم أقبل إلا ما كان لي خالصًا». ثم قرأ النبي ﷺ: {فمن كان يرجوا لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ولا يشرك بعبادة ربه أحدا}".

عن علي بن الباشاني، قال: سألتُ عبد الله بن المبارك عن قوله ﷻ: {فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحا}. فقال عبد الله: "مَن أراد النَّظَرَ إلى وجه خالقه فليعمل عملًا صالحًا، ولا يُخْبِر به أحدًا".

عن عبد الواحد بن زيد قال: "قلت للحسن: أخبرني عن الرياء، أشرك هو؟ قال:

=

=

نعم يا بني، وما تقرأ: {فليعمل عملا صالحا ولا يشرك بعبادة ربه أحدا} ؟".

عن شداد بن أوس: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «أَتَخَوَّفُ على أمتي الشرك، والشهوة الخفية». قلت: أَتُشْرِكُ أُمَّتُك مِن بعدك؟ قال: «نعم، أما إنهم لا يعبدون شمسًا ولا قمرًا ولا حجرًا ولا وثنًا، ولكن يُراءون الناس بأعمالهم». قلت: يا رسول الله، ما الشهوة الخفية؟ قال: «يصبح أحدهم صائمًا، فتعرض له شهوة مِن شهواته، فيترك صومَه ويُواقِع شهوته».

عن شداد بن أوس، قال: "كُنّا نَعُدُّ الرياءَ على عهد رسول الله ﷺ الشِّرْكَ الأصغر".

عن أبي هريرة عن النبي ﷺ يرويه عن ربه قال: " «أنا خير الشركاء»، فمن عمل عملا أشرك فيه غيري فأنا بريء منه، وهو الذي أشرك»".

(قل) أي يا محمد قل للمشركين. (إنما أنا بشر مثلكم) أي إنسان مثلكم لست بملك.

(يوحى إلي) أي أن الله فضلني وخصني بالوحي.

كما قال تعالى في آيات أخرى:

قال تعالى (قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلي أنما إلهكم إله واحد فاستقيموا إليه واستغفروه).

وقال تعالى (قل سبحان ربي هل كنت إلا بشرا رسولا).

(أنما إلهكم) الذي أدعوكم إليه. (إله واحد) لا شريك له.

(فمن كان يرجو لقاء ربه) أي ثوابه وجزاءه الصالح.

(فليعمل عملا صالحا) موافقا لشرع الله، مخلصا لله، متابعا للرسول.

(ولا يشرك بعبادة ربه أحدا) أي لا يصرف شيئا من حقوق الله تعالى إلى أحد من خلقه، فإن الله لا يقبل من العمل إلا ما كان خالصا لله تعالى.

=

=

فمن يشرك بالله، ولا يرجو لقاء الله فلا خير له عند الله يوم القيامة.

كما قال تعالى (والذين كذبوا بآياتنا ولقاء الآخرة حبطت أعمالهم هل يجزون إلا ما كانوا يعملون).

وقال تعالى (وأما الذين كفروا وكذبوا بآياتنا ولقاء الآخرة فأولئك في العذاب محضرون).

(تتمة): قال الغرناطي في ملاك التأويل القاطع: الآية الأولى منها قوله تعالى: (سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ) (الكهف: ٢٢) يسأل عن اختصاص الثمانية بالواو؟ ولِمَ لم ترد الجملة من قوله تعالى: (وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ) صفة للنكرة قبلها كما تقدم فيما قبل؟ ولم عدل (إلى) العطف؟

وأظهر جواب عن هذا - والله أعلم - أن هذا الإخبار العليّ معرف باختلاف اليهود في فتيو الكهف، وإنهم أو أكثرهم لم يتحققوا عددهم، فحكى سبحانه قولهم، وانجر بإيماء وإشارة تقرير الصحيح من قولهم، مع أنهم أعني أكثر يهود غير عالمين بذلك ولا مرجحين، فأتى بالجملة الأولى وهي قوله: (سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ) أعني المحكية بعد القول، إذ التقدير: هم ثلاثة، ثم سيقت الجملة من قوله: (رَابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ) صفة للثلاثة، والجملة تقع صفة للنكرة وحالًا من المعرفة، ثم قال: (وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ)، فسادسهم صفة للنكرة كالمتقدمة، ثم أتبع هذا الكلام من اختلافهم بقوله: (رَجْمًا بِالْغَيْبِ) فأفهم - والله أعلم - أن هذا ليس من نمط ما تقدم، فكأن (قد) قيل: ويقولون سبعة وثامنهم كلبهم وأن هذا ليس داخلًا تحت ما تقدم من أنه رجم بالغيب وأن الوصف بتلك الحال إنما يرجع لما قبله من قولهم: ثلاثة رابعهم كلبهم وخمسة سادسهم كلبهم كلام ابن عباس، رضي الله عنه، ومن تبعه من المفسرين.

=

=

قلت حكى سيبويه أن العرب ستعمل الحذف كثيرًا في كلامهم، ومنه قولهم فيما حكى سيبويه، رحمه الله، (اللهم ضبعًا وذيبًا)، وإذا كان القائل يدعو بذلك على غنم رجل قال: وإذا سألتهم ما يعنون؟ قالوا: اللهم اجمع فيها ضبعًا وذيبًا، وحكى عن أبي الخطاب أنه سمع بعض العرب وقيل له: لم أفسدتم مكانكم فقال: الصبيان بأبي، كأنه حذر أن يلام فقال: لم الصبيان. وقيل لبعض العرب: أما بمكان كذا وكذا وجذ فقال بلى وحاذا (أي فاعرف بها وجاذا)، وهو المكان الممسك للماء، ويحذفون الجملة الاسمية برأسها إذا دل الدليل عليها كما يفعلون في الجملة الفعلية، قال تعالى: (وَاللَّائِي يَئِسْنَ مِنَ الْمَحِيضِ مِنْ نِسَائِكُمْ إِنِ ارْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ وَاللَّائِي لَمْ يَحِضْنَ) (الطلاق: ٤) أي فعدتهن ثلاثة أشهر، والحذف في كلامهم كثير إذا كان في الكلام ما يدل على المحذوف، فظهر لي هنا (والله أعلم) أن الواو في قوله: (وَثَامِنُهُمْ) إنما عطف بها على جملة اسمية محذوفة كما قدمنا، ومن المفسرين من جعل هذه الواو داخلة على الجملة الواقعة صفة للنكرة، كما تدخل (على الواقعة) حالًا عن المعرفة في نحو جاءني زيد ومعه أخوه، ومررت بزيد وفي يده سيف، ومنه قوله ﷻ: (وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَعْلُومٌ) (الحجر: ٤)، وفائدتها توكيد لصوق الصفة بالموصوف، والدلالة على أن اتصافه بها أمر ثابت مستقر، وهذه الواو وهي التي آذنت بأن الذين قالوا: (سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ) قالوا عن ثبات علم وطمأنينة نفس، ولم يرجموا بالظن كما فعل غيرهم، والدليل عليه أن الله سبحانه أتبع القولين الأولين بقوله: (رَجْمًا بِالْغَيْبِ)، وأتبع القول الثالث بقوله: (مَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ) (الكهف: ٢٢) وقال ابن عباس، ﵄: (حين وقعت الواو انقطعت العدة) أي لم يبق بعدها عدة عاد يلتفت إليها، وثبت أنهم سبعة وثامنهم كلبهم على القطع والثابت، وقيل: (إِلَّا قَلِيلٌ) أي من أهل الكتاب، والضمير في (سيقولون) على هذا لأهل الكتاب

=

=

خاصة، أي سيقول أهل الكتاب فيهم كذا وكذا، ولا علم لهم بذلك (إلا) في قليل منهم، وأكثرهم على ظن وتخمين. انتهى ما قاله الزمخشري وحكاه، وقد حصل منه أن قليلًا من أهل الكتاب قد كان يعلم عددهم وهذا لا ينافره المأخذ المتقدم. وحكى المفسرون أن ابن عباس، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، كان يقول في قوله: (مَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ) أنا من ذلك القليل، وهذا القدر كاف، والله أعلم.

الآية الثانية من سورة الكهف قوله تعالى في قصة صاحب الجنة: (وَلَئِنْ رُدِدْتُ إِلَى رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا) (الكهف: ٣٦)، وفي سورة حم السجدة: (وَلَئِنْ رُجِعْتُ إِلَى رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لَلْحُسْنَى) (فصلت: ٥٠)، للسائل أن يسأل عن اختصاص آية الكهف بقوله: (وَلَئِنْ رُدِدْتُ) واختصاص آية السجدة بقوله: (وَلَئِنْ رُجِعْتُ) (مع) أن الظاهر اتحاد المقصود في الآيتين؟

والجواب عن ذلك، والله أعلم، أن الآيتين وإن اتحدتا في الغاية الحاصل منها وصف حال الكافر المنكر للبعث الوارد في كل واحدة منهما في قوله: (وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً) (الكهف: ٣٦، فصلت: ٥٠)، إن آية الكهف منهما أقوى تعريفًا ببعد الكافر المضروب به المثل عن حال الإيمان. وأما آية السجدة فصالحة لاتصاف الكافر والمؤمن بحال المفتتحة بها من قوله: (لَا يَسْأَمُ الْإِنْسَانُ مِنْ دُعَاءِ الْخَيْرِ) (فصلت: ٤٩)، من حيث إن هذا الوصف وصف يعم المؤمن والكافر، ولهذا قال ابن عطية بعد أن ذر أن المراد بها الوليد بن المغيرة أو عتبة بن ربيعة: فإن أكثرها يعطي أن الآية نزلت في كفار، ثم قال: وإن تضمن أولها خلقًا ربما يشارك فيه بعض المؤمنين، فحصل من كلامه أن هذا التعريف بحال المضروب به المثل في هذه الآية أرجأ من حال المضروب به المثل في آية الكهف، ألا ترى أن آية الكهف لا يكاد شيء من كلمها يجري في وصف المؤمنين، ألا ترى ابتداء مطلع وصف المذكور فيها مخبرًا عنه بقوله: (وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ)

=

=
(الكهف: ٣٥)، وبقوله: (مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا * وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً) (الكهف: ٣٥ - ٣٦)، ثم حكم لنفسه بعد إنكاره العبث باستحقاق ما عجل له من جعل الجنتين كما وصفتا، فقال: (وَلَئِنْ رُدِدْتُ إِلَى رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا) (الكهف: ٣٦)، فتأمل ما بين هذه الكلم الواردة في وصف هذا الكافر والوادة في قوله في آية سورة السجدة (لَا يَسْأَمُ الْإِنْسَانُ مِنْ دُعَاءِ الْخَيْرِ) (فصلت: ٤٩)، أي من أن يدعو بالخير لنفسه ويستزيد منه، وهذه صفة توجد في المؤمنين، وبها افتتح الوصف المضروب به المثل في هذه الآية، ثم قال بعدما ذكر من كلامه: (وَلَئِنْ رُجِعْتُ إِلَى رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لَلْحُسْنَى) (فصلت: ٥٠)، فقوله: (إِنَّ لِي عِنْدَهُ لَلْحُسْنَى) ليس في موازنة قول الآخر في آية الكهف: (لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا) (الكهف: ٣٦) وإن خفي ما بينهما. فلما افترقت الآيتان فيما ذكر، ناسب آية الكهف قوله: (وَلَئِنْ رُدِدْتُ)، لما يشعر لفظ رددت ويحتمله من القهر والتعنيف وقوعًا أكثريًا لا بالوضع، بخلاف لفظ رجع إذا قلت منه: رجعته أو رجع فإنه لا يحتمل ولا يفهم من معنى القهر والتعنيف ما يحتمله ردّ، ألا ترى وروده في مثل قوله: (ثُمَّ يُرَدُّ إِلَى رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُكْرًا) (الكهف: ٨٧)، وقوله: (ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ) (التوبة: ٩٤)، وقوله بعد: (وَسَتُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ) (التوبة: ١٠٥)، وفي الصحيح قوله ﷺ في الشيطان حين تعرض (له) في صلاته، قال ﷺ: (فرده الله خاسئًا)، ففي كثرة ورود هذا حيث يراد هذا المعنى أدل دليل على ما أشير إليه. أما رجع وما تصرف منه فقل ما يرد لهذا، وإن ورد فليس ككثرة رد. فأما قوله تعالى: (وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللهِ) (البقرة: ٢٨١)، فهذا عام للمؤمن والكافر وإن كان أظهر في المؤمن، فلا معنى تعنيف فيه، فوضح التناسب في الآيتين.

الآية الثالثة من سورة الكهف قوله تعالى: (وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ
=

=

عَنْهَا) (الكهف: ٥٧)، وفي سورة سجدة لقمان: (وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا) (السجدة: ٢٢)، للسائل أن يسأل عن ورود آية الكهف بفاء التعقيب وآية السجدة بثم المقتضية المهلة؟

والجواب عن ذلك، والله أعلم: أن سورة الكهف مكية، والخطاب فيها من أولها إلى الآية المتكلم فيها لم يخرج إلى غير العرب، أعني أنه لم يتعرض فيها إلى إخبار بحال غيرهم، إلا ما عرفوه من قصة أهل الكهف وخبرهم، وهو من سؤالات قريش بتنبيه يهود إياهم حسبما وقع في الحديث، فقوله في الآية المذكورة: (بِآيَاتِ رَبِّهِ)، والمراد بالآيات القرآن ودلائله الواضحة، وإن كان اللفظ مقتضيًا كل ما يسمى آية إلا أن آية القرآن أعمد ما قصد هنا، ويشهد لذلك قوله ﷻ: (إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ) (الكهف: ٥٧)، وما تقدم الآية من قوله: (وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ) (الكهف: ٥٤) الآية من قوله: (وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى) (الكهف: ٥٥)، والمراد به القرآن، قال تعالى: (هَذَا هُدًى) (الجاثية: ١١)، والحجة قائمة عليهم عقب سماعهم وتدبرهم، فورد بالفاء المقتضية التعقيب على ما يجب.

وأما آية السجدة، وإن كانت السورة مكية أيضًا، فإن الآية عامة في حق العرب وغيرهم، والإخبار فيها إنما هو عن جميع من شاهد آية بينة وكذب، ودليل هذا ما تقدمة مما هو على إطلاقه في العرب وغيرهم من قوله تعالى: (أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا لَا يَسْتَوُونَ) (السجدة: ١٨)، هذا عام في المكلفين، ثم فصل حالهم فيما بعد، ثم قال معلمًا بحال الجميع على ما تورده العرب عند التعجب، ليباعد بين الأحوال: (وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا) (السجدة: ٢٢)، فالمراد بهذه الآيات كل ما قامت به الدلالة ووضح منه الشاهد، كناقة صالح، عليه السلام، وانفلاق صخرة عنها، وانقلاب العصا حية، وغير ذلك من آيات

=

=

موسى، عليه السلام، وبينات عيسى، عليه السلام، كإبراء الأكمة والأبرص، وإحياء الموتى، وانشقاق القمر لنبينا ﷺ، ونبع الماء من (بين الأصابع)، وتكليم الجمادات، ونطق الحيوان إليه، وانقلاب الأعيان، وتكثير الطعام القليل، إلى آيات الكتاب العزيز المتلوة قرآنًا، إلى ما لا يحصى من آيات الرسل والأنبياء عليهم الصلاة والسلام، فلما انطوت (الآيات) في قوله: (بِآيَاتِ رَبِّهِ) من التعميم بحسب الشاهد مما اقترن بها على ما لا يتوقف فيه ذو عقل إلا أن يمنعه مانع من ذلك، عظم مرتكب المعرض فعطف بثم، قال تعالى: (وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا) (السجدة: ٢٢) استبعادًا للتوقف عن الإيمان والتصديق عند مشاهدة ما لاغبار عليه من الدلائل، ولا إشكال فيه. قال الزمخشري: (ثم) في قوله: (ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا) للاستعباد قال: والمعنى أن الإعراض عن مثل آيات الله في وضوحها وإنارتها وإرشادها إلى سواء السبيل والفوز العظيم بالسعادة العظمى بعد التذكير بها مستبعد في العقل، كما تقول لصاحبك وجدت مثل تلك الفرصة ثم لم تنتهزها استبعادًا لتركه الانتهاز، وقال: ومنه (ثم) في بيت الحماسة: لا يكشف الغماء إلا ابن حرة يرى غمرات الموت ثم يزورها قال استبعد أن يزور غمرات الموت بعد أن رآها واستيقنها واطلع على شدتها.

انتهى نص كلامه إلا في لفظة أسقطها لجريها فيما لا يكاد ينفك عنه في إحراز مذهبه الخبيث، فتركها وإجحاضها لا يخل بشيء من المعنى، قلت والمراد أن ما ذكرنا من الاستبعاد والاستعظام الذي تقتضيه ثم هنا قائم مقام المهلة، فلتكاثر الآيات وتنويعها مستوضحة عظمت جريمة المتوقف عنها، فأشارت ثم لذلك، فافترق القصدان، وجاء كل على ما يناسب، والله أعلم.

وجواب ثان، وهو أنه لما ذكر في آية الكهف إرسال الرسل، عليهم السلام، في قوله تعالى: (وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَيُجَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ

=
لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ) (الكهف: ٥٦)، فذكر إرسالهم وتكذيب قومهم إياهم، وإنما وقع تكذيب المكذبين عند دعاء الرسل إياهم معقبًا به دعاءهم، فجرى مع هذا وناسبه قوله تعالى: (وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا) (الكهف: ٥٧)، لأنهم إنما أعرضوا عقب دعاء الرسل إياهم وعند جدالهم المذكور في قوله: (وَيُجَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ) (الكهف: ٥٦)، إنما ارتكبوا الجدال جوابًا للرسل ليدحضوا الحق بباطلهم، فالتعقيب هنا بين، فورد بالفاء.

وأما آية السجدة فلم يقع فيها ذكر إرسال الرسل، ولا جرى في الآية (ذكر تكذيب) ولا دعاء وإن كانت آيها عامة في العرب، وإنما ورد فيها انقسام المكلفين بحسب السوابق في إشارة قوله تعالى: (أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا لَا يَسْتَوُونَ) (السجدة: ١٨)، ثم ذكر تعالى مآل الفريقين، وأن الفاسقين مأواهم النار، وأن حالهم فيها كما ذكر تعالى: (كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا) (السجدة: ٢٠)، ولا شك أن استحقاق جزائهم بذلك إنما هو تماديهم على الكفر مدى حياتهم إلى الوفاة، ولم يقع هنا إشارة إلى مباشرتهم الرسل بالتكذيب، فلما لم يكن في الكلام ذكر مباشرة الرسل والمواجهة بالتكذيب، فلما لم يكن في الكلام ذكر مباشرة الرسل والمواجهة بالتكذيب صار إعراضهم وتكذيبهم كأنه إنما علم وتحصل بذكر الجزاء، وإن كان المؤمنون قد علموا ذلك بالخبر الصادق، وأما بتأخر العلم به (للمكذب) حتى يباشر الجزاء، والجزاء متأخر، فناسب ذلك العطف بثم المقتضية للمهلة، فقال تعالى: (وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا) (السجدة: ٢٢) فورد كل على ما يناسب، والله أعلم.

الآية الرابعة من سورة الكهف قوله تعالى مخبرًا عن قول موسى للخضر، عليهما السلام، حين خرق السفينة: (لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا) (الكهف: ٧١)، وقوله له عند قتل الغلام: (لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا) (الكهف: ٧٤)، للسائل أن يسأل عن الفرق بين
=

=

الموضعين الموجب لوصف كل من هذين الفعلين بما وصف به؟

والجواب، والله أعلم: أن خرق السفينة لم يبلغ بحيث يتلفها، وإنما قصد به الخضر عيبها ليزهد فيها مريد غصبها بدليل قوله بعد: (فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا) (الكهف: ٧٩)، فإنما أراد إبقاءها على مالكها ودفع هذا الغاصب إذا رأى ما بها من العيب المانع من الرغبة فيها، وهذا لا يبلغ ظاهره مبلغ ظاهر قتل الغلام بغير سبب ظاهر فوصف بإمر في قوله: (شَيْئًا إِمْرًا)، وهو دون النكر. وأما البادي الظاهر من قتل الغلال عند من يغيب عنه ما علمه من الخضر فشيء نكر، ومرتكب عند من لحظه بظاهره وغاب عنه ما في طيه شنيع ووزر، فوقع التعبير في الموضعين بما يناسب كلا الفلعلين، وعن قتادة رحمه الله: ((النكر أشد من الإمر)) فجاء كل على ما يلائم، ولم يكن ليحسن مجيء أحد الوصفين في اموضع الآخر، والله أعلم..

الآية الخامسة من سورة الكهف قوله تعالى في حكاية قول الخضر لموسى، عليهما السلام: {قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا (٧٢)} [الكهف: ٧٢]، ثم قوله بعد ذلك في قصة قتل الغلام: {أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا} للسائل أن يسأل عن الفرق الموجب لزيادة "لك" في هذا القول الثاني؟.

والجواب: أن الخضر قد كان قال ملوسى حين قال له موسى، عليه السلام: (هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا * قَالَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا) (الكهف: ٦ - ٦٧) فلما كان من موسى عند خرق السفينة ما كان من الإنكار بقوله: (خَرَقَهَا قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا) (الكهف: ٧١)، ذكره الخضر بما كان قد قاله له، من غير أن يزيده على إيراد ما كان قد قاله، فقال: (أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا) (الكهف: ٧٢). فاعتذر موسى، عليه السلام، بقوله: (لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا) (الكهف: ٧٣)، فلما وقع منه بعد ذلك

=

=

إنكار قتل الغلام بقوله: (أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ) (الكهف: ٧٤)، وأبلغ في وصف الفعلة بقوله: (لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا) (الكهف: ٧٤)، قابل الخضر ذلك بتأكيد الكلام المتقدم، فقال: (قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكَ)، فالضمير المجرورة بيان جيء به تأكيدًا، ليقابل بالكلام ما وقع جوابًا له من قوله موسى، عليه السلام، زيادة للتناسب، وتعلق المجرور الواقع بيانًا مختلف فيه، فمنهم من يعلقه بفعل مضمر، ومنهم من يجري حرف الجر الذي فيه كحرف الجر الزائد فلا يعلقه بشيء، وقوله: (إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا) على هذا لامأذخ معمولًا للقول من قوله: (أَلَمْ أَقُلْ).

ويمكن عندي فيه وجه آخر، وهو أن يكون قوله: (قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكَ) كلامًا مستقلًا، محذوفًا منه معمول القول، وكأنه في تقدير: ألم أقل لك ما قلت، ثم استأنف المقالة فقال: (إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا) على هذا ليس معمولًا للقول من قوله: (أَلَمْ أَقُلْ لَكَ)، إنما معمول (أَلَمْ أَقُلْ لَكَ)،

محذوف مقدر، كما حذف معمول القول من قوله تعالى: (قَالَ مُوسَى أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ أَسِحْرٌ هَذَا) (يونس: ٧٧) ومعمول القول محذوف تقديره: أتقولون للحق لما جاءكم سحر مبين، ثم قال لهم تقريعًا وتوبيخًا: (أَسِحْرٌ هَذَا) فسحر مبين المقد معمول للقول، وهو من قولهم، وقوله: (أَسِحْرٌ هَذَا) من قول موسى، عليه السلام، توبيخًا لهم كما ذكرنا. فكذا حذف من قوله: (أَلَمْ أَقُلْ لَكَ)، كما تقدم، والله أعلم.

الآية السادسة من سورة الكهف، قوله تعالى: (فَمَا اسْطَاعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا) (الكهف: ٩٧)، للسائل أن يسأل عن الفرق الموجب لمجيء استطاعوا بالتاء دون الآول؟

والجواب أنه يقال: أستطاع واستاع واسطاع، والأول الأصل، ثم يحذفون أحد الحرفين تخفيفًا، فجيء أولًا بالفعل مخففًا عند إرادة نفي قدرتهم على الظهور

=

=

على السدّ والصعود فوقه، ثم جيء بأصل الفعل مستوفى الحروف عند نفي قدرتهم على نقبه وخرقه، ولا شك أن الظهور أيسر من النقب، والنقب أشد عليهم وأثقل، فجيء بالفعل مخففًا مع الأخف، وجيء به تامًا مستوفى مع الأثقل، فتناسب، ولو قدر بالعكس لما تناسب. وأيضًا فإن الثاني في محل التأكيد لنفي قدرتهم على الاستيلاء على السد وتمكنهم منه، فناسب ذلك الإطالة، وهذا يفتقر إلى بسط وبيان، مع أن الأول أولى، فلنكتف بهذا، والله سبحانه أعلم بما أراد.

الآية السابعة: غ - قوله تعالى: (قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ) (الكهف: ١١٠) وفي سورة الآنبياء: (قُلْ إِنَّمَا يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ) (الأنبياء: ١٠٨)، فلم يقع في هذه الثانية لفظ (أَنَا بَشَرٌ) وورد في الأولى، فللسائل أن يسأل عن ذلك؟

والجواب عن ذلك: أنه لما تقدم في أول سورة الأنبياء إثبات كون الرسل، عليهم السلام، من البشر، فيما حكاه تعالى من قول الكفار بعضهم لبعض: (هَلْ هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ) (الأنبياء: ٣)، ثم قال تعالى رادًا لقولهم، مثبتًا كون الرسل من البشر: (وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ) (الأنبياء: ٧)، ثم تتابع في السورة ذكر الرسل من البشر) في عدة مواضع إفصاحًا وإشارة آخرها قوله تعالى: (وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ) (الأنبياء: ١٠٧) والخطاب لنبينا، ﷺ، قال تعالى بعد ذلك: (قُلْ إِنَّمَا يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ) (الأنبياء: ١٠٨، فلم يحتج هنا أن يذكر كونه، ﷺ، من البشر، إذ قد توالى ذكر ذلك جملة وتفصيلا.

أما سورة الكهف فلم يتقدم فيها مثل هذا، فكان مظنة الإعلام بكونه ﷺ من البشر إرغامًا لأعدائه، ولما في ذلك من تلطفه تعالى بالحق ورحمته إياهم، قال تعالى: (وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبِسُونَ) (الأنعام: ٩)، وقال تعالى: (وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبِسُونَ) (الأنعام: ٨)،

=

سُورَة مَرْيَم[1]

=

فكون الرسل من البشر من أعظم إنعامه سبحانه على الخلق، وخصت آية الكهف بذكر بشريته، عليهم السلام، لما بيناه، وورد كل ذلك على ما يناسب، ولم يكن عكس الوارد ليناسب، والله أعلم بما أراد. ا.هـ من ملاك التأويل (٢/ ٣١٧-٣٢٤).

(١) اختلف أهل التفسير في وقت نزول السورة على أقوال:

أحدها: أنها مكية جميعها. قاله ابن عباس، وابن الزبير، وعائشة، وبه قال يحيى بن سلام، والماتريدي، وأبو الليث السمرقندي، وابن أبي زمنين، والثعلبي، ومكي بن ابي طالب، والواحدي، وعبدالقاهر الجرجاني، والسمعاني، والبغوي، والرازي، وابن كثير، والسيوطي.

قال مكي:"سوره «مريم»: مكية، وكان نزولها قبل أن يهاجر أصحاب النبي ﷺ إلى أرض الحبشة، لأنهم قرأوا صدرها على النجاشي بعد هجرتهم إلى أرض الحبشة".

قال ابن كثير:"روى محمد بن إسحاق في السيرة من حديث أم سلمة، وأحمد بن حنبل عن ابن مسعود في قصة الهجرة إلى أرض الحبشة من مكة: أن جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه، قرأ صدر هذه السورة على النجاشي وأصحابه".

قال الفيروزآبادي: "السورة مكية إجماعا".

قال ابن الجوزي: "هي مكية بإجماعهم من غير خلاف علمناه".

الثاني: أنها مكية إلا آية سجدتها فإنها مدنية، وهي الآية (٥٨) من السورة، وتمامها قوله تعالى: {أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَّةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِنْ ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا} [مريم: ٥٨]. وهذا قول مقاتل.

=

=

قال ابن عطية:"هذه السورة مكية بإجماع إلا السجدة منها، فقالت فرقة هي مكية وقالت فرقة هي مدنية".

الثالث: أنها مكية إلا آيتي: (٥٨ و ٧١)، فمدنيتان. قاله الزمخشري، والمراغي.

الرابع: أنها مكية غير آيتي: (٥٩ و ٦٠)، فمدنيتان. حكاه ابن الجوزي عن هبة الله المفسر.

* عدد آياتها تسع وتسعون. وكلماتها أَلف ومائة واثنتان وتسعون. وحروفها ثلاثة آلاف وثمانمائة واثنان.

والآيات المختلف فيها ستَّة: (ع ص) {فِي الكتاب إِبْرَاهِيمَ} {الرحمان مَدًّا}.

مجموع فواصل آياتها (مدن) الآية الأُولى على الدَّال (صاد). وما قبل أَلف كلَّ آية آخرها على الأَلف حروف زيد.

* أسماء السورة:

تسمى سورة «مريم»: اسم هذه السورة في المصاحف وكتب التفسير واكثر كتب السنة: سورة «مريم»، وهو الاسم المشهور به.

وقد جاءت تسميتها بذلك في كلام بعض الصحابة-رضوان الله عليهم- وفي كلام السلف.

سميت سورة «مريم»، "لاشتمالها على قصتها مفصلة"، إذ اشتملت على قصة حمل السيدة مريم، وولادتها عيسى عليه السلام، من غير أب، وأصداء ذلك الحمل، وما تبعه ورافق ولادة عيسى من أحداث عجيبة، من أهمها كلامه وهو طفل في المهد.

قال المهايمي:"لأن قصتها تشير إلى أن من اعتزل من اهله لعبادة الله، وطلب بها إشراق نوره يرجى أن يكشف له صفات الحق وعن عالم الملكوت، وتظهر له الكرامات العجيبة، وهذا من أعظم مقاصد القرآن".

وقد تكرر اسم «مريم» في القران الكريم (٣٤) مرة، منها مرات في سورة «مريم»،

=

=

وأكثر سورة ورد فيها اسم «مريم»، هي سورة «المائدة»، إذ تكرر فيها مرات.

وقد جاء ذكر اسمها بصورة كاملة (مريم ابنة عمران) مرة واحدة فقط وذلك في الآية الاخيرة من سورة التحريم: {وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ} [التحريم: ١٢].

وتسمى سورة «كهيعص» كتبت هذه التسمية في مصحف نسخ في القرن الثاني عشر الهجري في شمال إفريقيا، وهو مخطوط على الورق بالخط الكوفي المغربي.

وهي تسمية اجتهادية من وضع الصحابة-رضوان الله عليهم-كما رويت عنهم، وذلك كما ياتي:

- ذكرت ام سلمة رضي الله عنها: "فقال النجاشي: هل معك مما جآء به عن الله من شئ؟ قالت: فقال جعفر: نعم. فقال النجاشي: اقرأه علي، فقرأ عليه صدرا من سورة (كهيعص) قالت: فبكى وألف الله النجاشي، حتى أخضل لحيته، وبكت الأساقفة حتى أخضلوا مصاحفهم، حين سمعوا ما تلا عليهم، ثم قال النجاشي: إن هذا والذي جاء به موسى ليخرج من مشكاة واحدة.... "، الحديث.

وكذلك وقعت تسميتها في "صحيح البخاري في "كتاب التفسير". وعدّها الألوسي الاسم الثاني للسورة، وذكرها السخاوي، والفيروزآبادي.

في حين لم يعدها السيوطي في كتابه "الإتقان" في عداد السور المسماة باسمين، ولعله لم ير الثاني اسمًا لها.

وسميت سورة «كهيعص»؛ لافتتاحها بها، وذلك في قوله: {كهيعص}.

* مقصود السّورة ومعظم المراد منها على سبيل الإجمال: وَعْد الله العباد بالكفاية والهداية، وإجابة دعاءِ زكريَّا، والمِنَّة عليه بولد: يحيى، وإعطائه علم الكتاب، وذكر عجائب ولادة عيسى وأُمّه والخبر عن أَحوال القيامة، ونصيحة إبراهيم لآزر

=

=

(ومناظرة آزر له) والإشارة إلى قُربة موسى، وذكر صدق وعد إسماعيل، وبيان رفعة درجة إدريس، والشكوى من الولد الخَلْف، وحكاية أَهل الجنَّة، وذلّ الكفَّار فى القيامة، ومرور الخَلْق على عَقَبة الصِّراط، وابتلاء بعضهم بالعذابِ، والرّد على الكفَّار فى افتخارهم بالمال، وذلّ الأَصنام، وعُبَّادها فى القيامةِ، وبيان حال أَهل الجنّة والنَّار، وصعوبة قول الكفَّار فى جُرْأتهم على إثبات الولد والشَّريك للواحد القهَّار، والمِنَّة على الرَّسول بتيسير القرآن على لسانه، وتهديد الكفَّار بعقوبة القرون الماضية، فى قوله: {هَلْ تُحِسُّ مِنْهُمْ مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا}.

* المتشابهات: قوله: {وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا} وبعده {وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا} لأَنَّ الأَوّل فى حقِّ يحيى. وجاءَ فى الحديث: ما من أَحد من بنى آدم إِلاَّ أَذنب أَوهَمّ بذنْب إِلا يحيى بن زكريَّا عليهما السّلام، فنفى عنه العصيان؛ والثَّانى فى حقِّ عيسى عليه السلام فنفى عنه الشقاوة، وأَثبت له السّعادة، والأَنبياءُ عندنا معصومون عن الكبائر دون الصَّغائر.

قوله: {وَسَلاَمٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ} فى قصّة يحيى {والسلام عَلَيَّ} فى قصة عيسى، فنكَّر فى الأَول، وعَرَّفَ فى الثانى؛ لأَنَّ الأَوّل من الله تعالى، والقليل منه كثير كقول القائل:

قليل منك يكفينى ولكنْ * قليلك لا يقال له قليل

ولهذا قرأَ الحسن {اهدنا صراطًا مستقيما} أَى نحن راضون منك بالقليل، ومثل هذا فى الشعر كثير، قال:

وإِنِّى لأَرضى منك يا هند بالذى * لو أبصره الواشى لقرَّت بلابلُه

بلا، وبأَن لا أَستطيع، وبالمنى، * وبالوعد حتى يسأَم الوعدَ آمِلُهْ

والثانى من عيسى، والأَلف واللام لاستغراق الجنس، ولو أَدخل عليه السّبعة والعشرين والفروع المستحسنة والمستقبحة، لم يبلغ عُشر معشار سلام الله.

=

=

ويجوز أَن يكون ذلك بوحى من الله ﷻ، فيقرُبَ من سلام يحيى. وقيل: إنما أَدخل الأَلِف واللام لأَنَّ النكرة إِذا تكرّرت تعرَّفت. وقيل: نكرة الجنس ومعرفته سواء: تقول: لا أشرب ماءً، ولا أَشرب الماءَ، فهما سواء.

قوله {فاختلف الأحزاب مِن بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا} وفى حم {لِّلَّذِينَ ظَلَمُوا}؛ لأَنَّ الكفر أَبلغ من الظُّلم، وقصّة عيسى فى هذه السّورة مشروحة، وفيها ذكر نسبتهم إِيّاه إِلى الله تعالى، حين قال: {مَا كَانَ للهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ}، فذكر بلفظ الكفر، وقصّة فى الزّخرف مجمَلة، فوصفهم بلفظ دونه وهو الظُّلم.

قوله: {وَعَمِلَ صَالِحًا} وفى الفرقان: {وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا} لأَنَّ ما فى هذه السّورة أَوجز فى ذكر المعاصى، فأَوجز فى التَّوبة، وأَطال (هناك فأَطال) والله أَعلم. بصائر ذوي التمييز (١/ ٣٠٥ - ٣٠٨).

(نتبيه): عن أبي بكر بن عبد الله بن أبي مريم الغساني عن أبيه عن جده؛ قال: أتيت رسول الله ﷺ فقلت: ولدت لي الليلة جارية؛ فقال: "والليلة أنزلت عليَّ سورة مريم، سمها مريم".

أخرجه ابن عدي (٢/ ٣٧)، و في "المعرفة والتأريخ" (٢/ ٤٤٠)، والطبراني في "المعجم الكبير" (٢٢/ ٢٧٤، ٢٧٥ رقم ٨٣٤)، و"مسند الشاميين" (٢/ ٣٥٠ رقم ١٤٧٨)، والدولابي في "الكنى والأسماء" (١/ ٥٣)، وأبو نعيم الأصبهاني في "معرفة الصحابة" (٦/ ٣٠١١ رقم ٦٩٨٨)، وأبو أحمد الحاكم في "كتاب الأسامي والكنى"، وابن منده في "المعرفة"؛ كما في "الإصابة" (٤/ ١٧٩) وإسناده واهٍ بمرة؛ أبو بكر بن أبي مريم متروك، وأبوه مجهول، والحديث ضعفه ابن عدي، والهيثمي في المجمع (٨/ ٥٨)، وكذا ضعفه الشيخ ناصر في الضعيفة (١٨٩٣).

مَكِّيَّة إِلَّا سَجْدَتهَا فَمَدَنِيَّة أَوْ إِلَّا {فَخَلَفَ مِنْ بَعْدهمْ خَلْف} الْآيَتَيْنِ فَمَدَنِيَّتَانِ وَهِيَ ثَمَان أَوْ تِسْع وَتِسْعُونَ آيَة نَزَلَتْ بعد فاطر.

بسم الله الرحمن الرحيم[1]

كهيعص (١).

{كهيعص} الله أعلم بمراده بذلك[2].

ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا (٢).

هذا {ذكر رحمت رَبّك عَبْده} مَفْعُول رَحْمَة {زَكَرِيَّا} بَيَان لَهُ.

إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا (٣).

{إِذْ} مُتَعَلِّق بِرَحْمَةِ {نَادَى رَبّه نِدَاء} مُشْتَمِلًا عَلَى دُعَاء {خَفِيًّا} سِرًّا جَوْف اللَّيْل لِأَنَّهُ أسرع للإجابة.

قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا (٤).

{قال رب إِنِّي وَهَنَ} ضَعُفَ {الْعَظْم} جَمِيعه {مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْس} مِنِّي {شَيْبًا} تَمْيِيز مُحَوَّل عَنْ الْفَاعِل أَيْ انْتَشَرَ الشَّيْب فِي شَعَره كَمَا يَنْتَشِر شُعَاع النَّار فِي الْحَطَب وَإِنِّي أُرِيد أَنْ أَدْعُوَك {وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِك} أَيْ بِدُعَائِي إِيَّاكَ {رب شقيا} أي خائبا فِيمَا مَضَى فَلَا تُخَيِّبنِي فِيمَا يَأْتِي.

وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا (٥).

---

(١) تقدم تفسير البسملة في أول سورة الفاتحة.

(٢) تقدم القول في الحروف المقطعة بتوسع تحت الآية رقم (١) من سورة البقرة.

{وَإِنِّي خِفْت الْمَوَالِيَ} أَيْ الَّذِينَ يَلُونِي فِي النَّسَب كَبَنِي الْعَمّ {مِنْ وَرَائِي} أَيْ بَعْد مَوْتِي عَلَى الدِّين أَنْ يُضَيِّعُوهُ كَمَا شَاهَدْته فِي بَنِي إِسْرَائِيل مِنْ تَبْدِيل الدِّين {وَكَانَتْ امْرَأَتِي عَاقِرًا} لَا تَلِد {فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْك} مِنْ عِنْدك {وَلِيًّا} ابْنًا.

يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا (٦).

{يَرِثنِي} بِالْجَزْمِ جَوَاب الْأَمْر وَبِالرَّفْعِ صِفَة وَلِيًّا {وَيَرِث} بِالْوَجْهَيْنِ {مِنْ آل يَعْقُوب} جَدِّي الْعِلْم وَالنُّبُوَّة {وَاجْعَلْهُ رَبّ رَضِيًّا} أَيْ مَرْضِيًّا عِنْدك[1].

---

(١) قوله تعالى: {ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا} [مريم: ٢]

أي: مما نقص عليك ذكر رحمة ربك عبده زكريا".

قال ابن عباس:"ذكره اللهُ برحمةٍ منه حيث دعاه".

الآية تحتمل وجهين من التفسير:

أحدهما: على الأمر، أي: اذكر لهم رحمة ربك عبده زكريا بالإجابة له عند سؤاله الولد في الوقت الذي أيس عن الولد في ذلك الوقت؛ فيكون فيه دلالة رسالته، حيث ذكر لهم رحمة ربه على زكريا، وأخبرهم على ما في كتبهم.

والثاني: {ذكر رحمت ربك}: هذا ذكر رحمة ربك لعبده زكريا في دعائه، وعلى هذا التأويل يكون الذكر هو القرآن، وقد سمى الله القرآن: ذكرا في غير آي من القرآن.

قال صاحب التسهيل:"وصفه بالعبودية تشريفا له، وإعلاما له بتخصيصه وتقريبه".

ومما يسأل عنه هاهنا أن يقال: بم ارتفع {ذِكْرُ رَحْمَتِ}؟

وفيه وجوه:

أحدها: أن يكون مرفوعا بقوله: «كهيعص». قاله الفراء.

=

=

قال الزجاج: "هذا محال، لأن «كهيعص» ليس هو مما أنبأنا الله جل وعز به عن زكرياء، وقد خبر الله جل وعز عنه وعما بشره به وليس «كهيعص» من قصته".

الثاني: أنه مرتفع بالمضَمر، المعنى: هذا الذي نتلوه عليك ذكر رحمة ربك عبده بالرحمة، لأن ذكر الرحمن إياه لا يكون إلا بالله ﷻ. قاله الزجاج.

الثالث: التقدير: فيما نقص عليكم ذكر رحمة ربك. قاله الأخفش.

ونصب {عَبْدَهُ} بـ «رحمة».

وقرئ «ذكر رحمة» على الماضي، و «ذكر» على الأمر.

عن يحيى بن يعمر: "أنه كان يقرأ: ذكر رحمة ربك عبده زكريا بنقل، يقول: لما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها فاكهة الشتاء في الصيف، وفاكهة الصيف في الشتاء. فقال: {ذكر رحمت ربك}".

عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ، قال: «كان زكريّا نجّارًا».

عن ابن عباس -من طريق مقاتل وجويبر عن الضحاك- قال: "إنّ زكريا بن دان أبا يحيى كان مِن أبناء الأنبياء الذين كانوا يكتبون الوحي ببيت المقدس".

فقوله (ذِكْرُ رَحْمَةِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا) أي: هذا {ذِكْرُ رَحْمَةِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا} سنقصه عليك، ونفصله تفصيلا يعرف به حالة نبيه زكريا، وآثاره الصالحة، ومناقبه الجميلة، فإن في قصها عبرة للمعتبرين، وأسوة للمقتدين، ولأن في تفصيل رحمته لأوليائه، وبأي: سبب حصلت لهم، مما يدعو إلى محبة الله تعالى، والإكثار من ذكره ومعرفته، والسبب الموصل إليه. وذلك أن الله تعالى اجتبى واصطفى زكريا عليه السلام لرسالته، وخصه بوحيه، فقام بذلك قيام أمثاله من المرسلين، ودعا العباد إلى ربه، وعلمهم ما علمه الله، ونصح لهم في حياته وبعد مماته، كإخوانه من المرسلين ومن اتبعهم إلى يوم الدين.

وقوله- تعالى-: (ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا) خبر لمبتدأ محذوف. أى: المتلو

=

=

عليك ذكر رحمة ربك عبده ذكريا.

ولفظ ذِكْرُ مصدر مضاف لمفعوله. ولفظ رَحْمَتِ مصدر مضاف لفاعله وهو ربك، وعَبْدَهُ مفعول به للمصدر الذي هو رحمة.

وزَكَرِيَّا هو واحد من أنبياء الله الكرام، وينتهي نسبه إلى يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم- عليهم السلام.

والمعنى: هذا الذي نذكره لك يا محمد، هو جانب من قصة عبدنا زكريا، وطرف من مظاهر الرحمة التي اختصصناه بها، ومنحناه إياها.

قوله تعالى: {إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا} [مريم: ٣]

قال الطبري:"يقول حين دعا ربه، وسأله بنداء خفي، يعني: وهو مستسرّ بدعائه ومسألته إياه ما سأل، كراهة منه للرياء".

قال الزمخشري:"راعى سنة الله في إخفاء دعوته، لأن الجهر والإخفاء عند الله سيان، فكان الإخفاء أولى، لأنه أبعد من الرياء وأدخل في الإخلاص".

قال السدي:"رغب زكريا في الولد، فقام فصلى، ثم دعا ربه سرّا، فقال: {رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي} .... إلى {وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا}".

قال ابن عباس:"يعني: دعا ربَّه دُعاءً خَفِيًّا في الليل، لا يُسْمِعُ أحدًا، أو يُسْمِع أذنيه".

وفي تفسير الآية أقوال:

أحدها: معناه: سرًا لا رياء فيه. قاله الحسن، ابن جريج.

قال الحسن:"دعاء لا رياء فيه".

قال قتادة:"أي: سرّا، وإن الله يعلم القلب النقيّ، ويسمع الصوت الخفي". وفي رواية:"أي: بقلبه سِرًّا، وإنّ الله يُحِبُّ الصوت الخَفِيّ، والقلب النَّقِيَّ".

عن عقبة بن عبد الغافر، قال: "دعوة السر أفضل من سبعين في العلانية".

=

=

الثاني: معناه: إذ دعا ربه دعاء سرا، وإنما دعا ربه- ﷻ- سرا لئلا يقول الناس انظروا إلى هذا الشيخ الكبير يسأل الولد على كبره. قاله مقاتل.

الثالث: أن إخفاء الدعاء أخلص للدعاء وأرجى للإجابة للسنة الواردة فيه: «إن ربكم ليس بأصم». أفاده الماوردي.

الرابع: أنه أسره من مواليه الذين خافهم. حكاه الزمخشري.

الخامس: أنه خفت صوته لضعفه وهرمه، كما جاء في صفة الشيخ: صوته خفات، وسمعه تارات. حكاه الزمخشري.

قال ابن العربي:"فأما دعاء زكريا فإنما كان خفيا، وهي:

المسألة الثانية: لوجهين:

أحدهما: أنه كان ليلا.

والثاني: لأنه ذكر في دعائه أحوالا تفتقر إلى الإخفاء، كقوله: {وإني خفت الموالي من ورائي}. وهذا مما يكتم ولا يجهر به، وقد أسر مالك القنوت، وجهر به الشافعي، والجهر أفضل؛ لأن النبي ﷺ كان يدعو به جهرا حسبما ورد في الصحيح. والله أعلم".

وقوله: إِذْ نادى رَبَّهُ نِداءً خَفِيًّا ظرف لرحمة ربك. والمراد بالنداء: الدعاء الذي تضرع به زكريا إلى ربه- ﷻ.

أى: هذا الذي قرأناه عليك يا محمد في أول هذه السورة. وذكرناه لك، هو جانب من رحمتنا لعبدنا زكريا. وقت أن نادانا وتضرع إلينا في خفاء وستر، ملتمسا منا الذرية الصالحة.

وإنما أخفى زكريا دعاءه، لأن هذا الإخفاء فيه بعد عن الرياء، وقرب من الإخلاص، وقد أمر الله- تعالى- به في قوله: ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ.

=

=

ويبدو أن هذا الدعاء قد تضرع به زكريا إلى ربه في أوقات ترددده على مريم، واطلاعه على ما أعطاها الله- تعالى- من رزق وفير.

ويشهد لذلك قوله- تعالى-: فَتَقَبَّلَها رَبُّها بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَها نَباتًا حَسَنًا وَكَفَّلَها زَكَرِيَّا، كُلَّما دَخَلَ عَلَيْها زَكَرِيَّا الْمِحْرابَ وَجَدَ عِنْدَها رِزْقًا، قالَ يا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هذا قالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللهِ، إِنَّ اللهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشاءُ بِغَيْرِ حِسابٍ. هُنالِكَ دَعا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعاءِ.

قوله تعالى: {قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي} [مريم: ٤].

قال الطبري: يعني"ضعف ورقّ [عظمي] من الكبر".

قال سعيد بن جبير:"ضعف"، وروي عن الحسن مثله.

قال قتادة: أي: ضعف العظم مني". وروي عن ابن عباس مثله.

قال قتادة: "اشتكى سقوطَ الأضراس".

قال مجاهد:"نحل العظم". وفي لفظ:"نحول العظم".

وقال مجاهد:"شَكا ذهابَ أضراسِه".

قوله تعالى: {وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا} [مريم: ٤]، أي:"وانتشر الشيب في رأسي".

قال مقاتل: " {واشتعل الرأس شيبا}، يعني: بياضًا".

قال ابن عباس:"يعني: غَلَبَ البياضُ السوادَ".

قال الثوري:"بلغني أن زكريا كان ابن سبعين سنة".

قال الزجاج:"المعنى: اشتعل الرأس من الشيب، يقال للشيب إذا كثر جِدا: قد اشتعل رأس فلان".

وقوله:"{وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا}:"فإتيه من أحسن الاستعارة، لأنه قد ينشر فيه الشيب كما ينشر في الحطب شعاع النار".

قوله تعالى: {وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا} [مريم: ٤]، أي:"ولم أكن من قبل

=

=

محرومًا من إجابة الدعاء".

وفي قوله تعالى: {وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا} [مريم: ٤]، جهان من التفسير:

أحدهما: أنك عودتني الإجابة، ولم تخيبني. وهذا قول الجمهور.

قال مقاتل:"يعني: خائبا فيما خلا، كنت تستجيب لي فلا تخيبني في دعائي إياك بالولد".

قال الفراء:"يقول: لم أشق بدعائك، أجبتني إذ دعوتك".

قال الطبري:"يقول: ولم أشق يا رب بدعائك، لأنك لم تخيب دعائي قبل إذ كنت أدعوك في حاجتي إليك، بل كنت تجيب وتقضي حاجتي قبلك".

قال ابن جريج:"يقول: قد كنت تعرّفني الإجابة فيما مضى".

قال ابن عيينة:"سعدت بدعائك وإن لم تعطني".

قال الزجاج:"أي: كنْتُ مستجاب الدعوة".

الثاني: يعني: لما دعوتني إلى الإيمان آمنت، ولم أشق بترك الإيمان. حكاه الزجاج.

قال الزجاج:"ويجوز أن يكون أراد {لَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا} أي من دعاك مخلصًا فقد وَحَّدك وعبدك، فلم أكن بعبادتك شَقِيًّا".

ثم بين- سبحانه- ما نادى به زكريا ربه فقال: قالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي ...

والوهن: الضعف. يقال: وهن الجسم يهن- من باب وعد- إذا ضعف.

وخص العظم بالذكر، لأنه دعامة البدن، وعماد الجسم، وبه قوامه، فإذ ضعف كان غيره من أجزاء الجسم أضعف. وإفراد لفظ العظم لإرادة الجنس.

وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا والمراد باشتعال الرأس شيبا: انتشار بياض الشيب فيه.

والألف واللام في لفظ الرَّأْسُ قاما مقام المضاف إليه.

والمراد: واشتعل رأسي شيبا، وهذا يدل على تقدم السن، كما يشهد له قوله-

=

=

تعالى- وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا وقوله- ﷻ: وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ....

قال الزمخشري: «شبه الشيب بشواظ النار في بياضه وإنارته وانتشاره في الشعر.. باشتعال النار، ثم أخرجه مخرج الاستعارة، ثم أسند الاشتعال إلى مكان الشعر ومنبته وهو الرأس، وأخرج الشيب مميزا ولم يضف إلى الرأس اكتفاء بعلم المخاطب أنه رأس زكريا، فمن ثم فصحت هذه الجملة وشهد لها بالبلاغة ...".

والشيب دليل الضعف والكبر، ورسول الموت ورائده، ونذيره، فتوسل إلى الله تعالى بضعفه وعجزه، وهذا من أحب الوسائل إلى الله، لأنه يدل على التبري من الحول والقوة، وتعلق القلب بحول الله وقوته.

وقوله: وَلَمْ أَكُنْ بِدُعائِكَ رَبِّ شَقِيًّا أى: ولم أكن فيما مضى من عمرى مخيب الدعاء وإنما تعودت منك يا إلهى إجابة دعائي، وما دام الأمر كذلك فأجب دعائي في الزمان الآتي من عمرى، كما أجبته في الزمان الماضي منه، وهذا توسل إلى الله بإنعامه عليه، وإجابة دعواته السابقة، فسأل الذي أحسن سابقا، أن يتمم إحسانه لاحقا.

فأنت ترى أن زكريا- عليه السلام- قد أظهر في دعائه أسمى ألوان الأدب مع خالقه، حيث توسل إليه- سبحانه- بضعف بدنه، وبتقدم سنه، وبما عوده إياه من إجابة دعائه في الماضي.

قوله تعالى: {وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائِي} [مريم: ٥].

قال الطبري:"يقول: وإني خفت بني عمي وعصبتي من ورائي: يقول: من بعدى أن يرثوني".

وفي قوله تعالى: {وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائِي} [مريم: ٥]، أقوال:

أحدها: العصبة، قاله مجاهد، وقتادة، والسدي، وأبو صالح -في رواية-.

الثاني: الكلالة، قاله ابن عباس، وأبو صالح، ومقاتل.

=

=

قال ابن عباس:"يعني بـ«الموالي»: الكلالة الأولياء أن يرثوه، فوهب الله له يحيى".

قال مقاتل:"يقول: خفت الكلالة -وهم العصبة- من بعد موتي أن يرثوا مالي".

الثالث: الأولياء أن يرثوا علمي دون من كان من نسلي. حكاه الماوردي، وأنشد قول لبيد:

ومَوْلَىً قد دَفَعْتُ الضَّيْمَ عنهُ... وقد أمْسَى بمنزلةِ المَضِيْمِ

الرابع: بنو العم، قاله الفراء، لأنهم كانوا شرار بني إسرائيل.

قال الماوردي:"وسموا «موالي»، لأنهم يلونه في النسب لعدم الصلب".

وفيما خافهم عليه قولان:

أحدهما: أنه خافهم على الفساد في الأرض.

الثاني: أنه خافهم على نفسه في حياته وعلى أشيائه بعد موته.

قال الماوردي:"ويجوز أن يكون خافهم على تبديل الدين وتغييره".

روى كثير ابن كلثمة أنه سمع علي بن الحسين عليهما السلام يقرأ: «وَإِنِّي خِفْتُ» بالتشديد بمعنى: قلّت.

قوله تعالى: {وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا} [مريم: ٥]، أي:"وكانت زوجتي عاقرًا لا تلد".

قال الطبري:"يقول: وكانت زوجتي لا تلد، يقال منه: رجل عاقر، وامرأة عاقر بلفظ واحد، كما قال الشاعر:

لَبِئسَ الفَتى أنْ كُنْتُ أعْوَرَ عاقِرً ا... جبَانا فَمَا عُذْرِي لَدَى كُلّ مَحْضَر".

قوله تعالى: {فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا} [مريم: ٥]، أي:"فارزقني مِن عندك ولدًا وارثًا ومعينًا".

قوله تعالى: {يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ} [مريم: ٦].

=

=

قال الطبري:"يقول: يرثني من بعد وفاتي مالي، ويرث من آل يعقوب النبوة، وذلك أن زكريا كان من ولد يعقوب".

وفي قوله تعالى: {يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ} [مريم: ٦]، وجوه من التفسير:

أحدها: يرثني مالي ويرث من آل يعقوب النبوة، قاله أبو صالح.

قال أبو صالح:"يرث مالي، ويرث من آل يعقوب النبوة".

قال أبو صالح:"يكون نبيا كما كانت آباؤه أنبياء".

الثاني: يرثني ويرث من آل يعقوب العلم والنبوة، قاله الحسن.

الثالث: يرثني العلم ويرث من آل يعقوب الملك، قاله ابن عباس.

الرابع: يرثني النبوة ويرث من آل يعقوب الأخلاق، قاله عطاء.

قال مجاهد:"كان وراثته علما، وكان زكريا من ذرية يعقوب".

وقال السدي:"يرث نبوتي ونبوة آل يعقوب".

وعن الضحاك قوله: " {ويرث من ال يعقوب}، قال: السنة، والعلم".

قال الكلبي: "وكان آل يعقوب أخواله وهو يعقوب بن ماثان وكان فيهم الملك، وكان زكريا من ولد هارون بن عمران أخي موسى".

قال مقاتل:"يرث مالي ويرث من آل يعقوب ابن ماثان علمهم ورياستهم فى الأحبار، وكان يعقوب وعمران «أبو مريم» أخوين ابنا ماثان ومريم ابنة عمران بن ماثان".

قوله تعالى: {وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا} [مريم: ٦]، أي:"واجعل هذا الولد مرضيًا منك ومن عبادك".

قال مقاتل:"يعني: صالحا".

قال الطبري:"يقول: واجعل يا رب الولي الذي تهبه لي مرضيا ترضاه أنت ويرضاه عبادك دينا وخلقا وخلقا".

=

=

ثم حكى- سبحانه- بعض الأسباب الأخرى لإلحاح زكريا في الدعاء فقال: وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوالِيَ مِنْ وَرائِي، وَكانَتِ امْرَأَتِي عاقِرًا فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ ...

والموالي: جمع مولى، والمراد بهم هنا: عصبته وأبناء عمومته الذين يلون أمره بعد موته، وكان لا يثق فيهم لسوء سلوكهم.

والعاقر: العقيم الذي لا يلد، ويطلق على الرجل والمرأة، يقال: امرأة عاقر، ورجل عاقر.

أى: وإنى- يا إلهى- قد خفت ما يفعله أقاربى مِنْ وَرائِي أى: من بعد موتى، من تضييع لأمور الدين، ومن عدم القيام بحقه وَكانَتِ امْرَأَتِي عاقِرًا لا تلد قط في شبابها ولا في غير شبابها، فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ أى: من عندك وَلِيًّا أى: ولدا من صلبي، هذا الولد يَرِثُنِي في العلم والنبوة وَيَرِثُ أيضا مِنْ آلِ يَعْقُوبَ ابن إسحاق بن إبراهيم العلم والنبوة والصفات الحميدة وَاجْعَلْهُ يا رب رَضِيًّا أى: مرضيا عندك في أقواله وأفعاله وسائر تصرفاته.

ففي هاتين الآيتين نرى زكريا يجتهد في الدعاء بأن يرزقه الله الولد، لا من أجل شهوة دنيوية، وإنما من أجل مصلحة الدين والخوف من تضييعه وتبديله والحرص على من يرثه في علمه ونبوته، ويكون مرضيا عنده- ﷻ.

قال الآلوسى ما ملخصه: «وقوله مِنْ وَرائِي المراد به من بعد موتى، والجار والمجرور متعلق بمحذوف ينساق إليه الذهن أى: خفت فعل الموالي من ورائي أو جور الموالي. وهم عصبة الرجل.. وكانوا على سائر الأقوال شرار بنى إسرائيل، فخاف أن لا يحسنوا خلافته في أمته».

وفي قوله فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا اعتراف عميق بقدرة الله- تعالى- لأن مثل هذا العطاء لا يرجى إلا منه- ﷻ، بعد أن تقدمت بزكريا السن، وبعد أن عهد من زوجه

=

=

العقم وعدم الولادة.

وقد أشار- سبحانه- في آية أخرى إلى أنه أزال عنها العقم وأصلحها للولادة فقال: وَزَكَرِيَّا إِذْ نادى رَبَّهُ رَبِّ لا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْوارِثِينَ فَاسْتَجَبْنا لَهُ وَوَهَبْنا لَهُ يَحْيى وَأَصْلَحْنا لَهُ زَوْجَهُ ... أى: وجعلناها صالحة للولادة بعد أن كانت عقيما من حين شبابها إلى شيبها..

وقد اختلف المفسرون كما تقدم في المراد بالميراث المذكور في الآية على أقوال ثلاثة:

القول الأول: أن المعنى: يرثني مالي، ويرث من آل يعقوب النبوة، رُوي عن ابن عباس - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا -، وبه قال أبو صالح، واختاره ابن جرير، وابن عاشور، وأجازه النحاس.

واستُدل لهذا القول بحديث الحسن، قال: قال رسول الله ﷺ: "رحم الله أخي زكريا، ما كان عليه من وَرَثة ماله حين يقول:".

ولكن هذا الحديث مرسل ضعيف.

وقد ردَّ هذا القول كثير من المفسرين لوجوه:

أحدها: أنه صح عن رسول الله ﷺ أنه قال: " نحن معاشرَ الأنبياء لا نُوْرَث، ما تركناه صدقة "، وهذا عام في جميع الأنبياء على الصحيح.

الثاني: أنه لا يليق بنبي أن يتأسف على مصير ماله بعد موته، إذا وصل إلى وارثه المستحق له شرعًا.

الثالث: أنه - عَلَيْهِ السَّلَامُ - لم يكن ذا مال، فقد قال ﷺ: " كان زكريا نجارًا".

الرابع: أن النبي لا يطلب ولدًا ليرث ماله؛ فإنه لو كان يُورث لم يكن بدٌّ من أن ينتقل المال إلى غيره، سواء كان ابنًا أو غيره.

الخامس: أنه لو كان المراد المال لما خصَّه من بين إخوته بذلك، ولما كان في

=

=

الإخبار بذلك كبيرُ فائدة، إذْ من المعلوم في جميع الشرائع أن الولد يرث أباه، فلولا أنها وراثة خاصة لما أخبر بها.

السادس: أن آل يعقوب انقرضوا عن زمان؛ فلا يورث عنهم إلا العلم والنبوة والدين.

القول الثاني: أن المعنى: يرثني العلم، ويرث من آل يعقوب الملك، فأجابه الله – تعالى – إلى وراثة العلم دون وراثة الملك؛ وهذا مروي عن ابن عباس – رضي الله

عنهما – أيضًا.

وقال مجاهد: " كانت وِرَاثَتُه علمًا، وكان زكريا من ذريّة يعقوب".

وقال الضحاك في قوله: " السُنَّة والعلم".

وقال ابن عطية: " والأظهر الأَلْيقُ بزكريا – عليه السلام – أن يريد وراثة العلم والدين"، واختاره الزمخشري.

القول الثالث: أن المعنى يرثني نبوّتي وعلمي، ويرث من آل يعقوب النبوّة أيضًا، قال الحسن: " نبوته وعلمه". وعن السدي: " يرث نبوتي، ونبوة آل يعقوب". واختاره الزجاج، وقال: " والمعنى: أنه خاف تضييع بني عمه دينَ الله وتغييرَ أحكامه على ما كان شاهده من بني إسرائيل من تبديل الدين وقتل الأنبياء، فسأل ربه ولدًا صالحًا يأمنه على أمّته، ويرث نبوته وعلمه لئلا يضيع الدين".

قال البغوي: "وهذا معنى قول عطاء عن ابن عباس رضي الله عنهما أي: برًا تقيًا".

واختاره أيضًا ابن جُزي، وابن كثير، والشوكاني، والقاسمي، والسعدي، والشنقيطي، واستدل بسياق الآية فقال: " معنى أي: خِفت أقاربي، وبني عمي، وعصبتي أن يضيِّعوا الدِّين بعدي، ولا يقوموا لله بدينه حق القيام، فارزقني ولدًا يقوم بعدي بالدِّين حق القيام، وبهذا التفسير تعلم أن معنى قوله: أنه إرث علم

=

=

ونبوة، ودعوة إلى الله والقيام بدينه، لا إرث مال".

واعترض على هذا القول النحاس بقوله: " فأما قولهم: وراثة نبوة محال؛ لأن النبوة لا تُورث، ولو كانت تورث لقال قائل: الناسُ كلهم ينتسبون إلى نوح ﷺ وهو نبي مرسل، ووراثة الحكمة والعلم مذهب حسن".

ويجاب عن هذا الاعتراض بأنه ليس المراد إرثُ النبوة بمجرد الولادة والنَّسب، بل بالاصطفاء.

فالمراد على الراجح بالوراثة في قوله يَرِثُنِي وراثة العلم والنبوة والصفات الحميدة.

قال ابن كثير ما ملخصه: «وقوله: وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوالِيَ مِنْ وَرائِي قرأ الأكثرون بنصب الياء من الموالي على أنه مفعول، وعن الكسائي أنه سكن الياء..

ووجه خوفه أنه خشي أن يتصرفوا من بعده في الناس تصرفا سيئا. فسأل الله ولدا يكون نبيا من بعده ليسوسهم بنبوته.. لا أنه خشي من وراثتهم له ماله. فإن النبي أعظم منزلة وأجل قدرا من أن يشفق على ماله إلى هذا الحد، وأن يأنف من وراثة عصبته له، ويسأل أن يكون له ولد ليحوز ميراثه دونهم.

وقد ثبت في الصحيحين من غير وجه أن رسول الله ﷺ قال: «لا نورث ما تركنا صدقة» وفي رواية عند الترمذي بإسناد صحيح: «نحن معاشر الأنبياء لا نورث».

وعلى هذا فتعين حمل قوله فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا يَرِثُنِي على ميراث النبوة ولهذا قال: وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ كقوله: وَوَرِثَ سُلَيْمانُ داوُدَ أي: في النبوة، إذ لو كان في المال لما خصه من بين إخوته بذلك، ولما كان في الإخبار بذلك كبير فائدة، إذ من المعلوم المستقر في جميع الشرائع والملل، أن الولد يرث أباه، فلولا أنها وراثة خاصة لما أخبر بها، وكل هذا يقرره ويثبته ما صح في الحديث: «نحن معاشر الأنبياء لا نورث، ما تركنا فهو صدقة».

=

=

وقال بعض العلماء ما ملخصه: ومعنى يَرِثُنِي أى: إرث علم ونبوة، ودعوة إلى الله والقيام بدينه، لا إرث مال، ويدل لذلك أمران:

أحدهما قوله: وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ ومعلوم أن آل يعقوب انقرضوا من زمان، فلا يورث عنهم إلا العلم والنبوة والدين.

والأمر الثاني ما جاء من الأدلة أن الأنبياء- صلوات الله وسلامه عليهم- لا يورث عنهم المال، وإنما يورث عنهم العلم والدين، فمن ذلك ما أخرجه الشيخان عن أبى بكر الصديق أن رسول الله ﷺ قال: «لا نورث ما تركنا صدقة».

قال شيخ الإسلام في منهاج السنة النبوية ٤/ ٢٢٤: وكذلك قوله عن زكريا ليس المراد به إرث المال؛ لأنه لا يرث من آل يعقوب شيئًا من أموالهم، بل إنما يرثهم ذلك أولادُهم وسائر ورثتهم لو ورثوا، ولأن النبي لا يطلب ولدًا ليرث ماله، فإنه لو كان يورث لم يكن بد من أن ينتقل المال إلى غيره، سواء كان ابنًا أو غيره، فلو كان مقصوده بالولد أن يرث ماله كان مقصوده أنه لا يرثه أحد غير الولد، وهذا لا يقصده أعظم الناس بخلًا وشحًا على من ينتقل إليه المال، فإنه لو كان الولد موجودًا وقصد إعطاءه دون غيره لكان المقصود إعطاء الولد، وأما إذا لم يكن له ولد، وليس مراده بالولد إلا أن يحوز المال دون غيره كان المقصود أن لا يأخذ أولئك المال، وقصد الولد بالقصد الثاني، وهذا يقبح من أقل الناس عقلًا ودينًا.

وأيضًا فزكريا عليه السلام لم يعرف له مال، بل كان نجارًا، ويحيى ابنه - عليه السلام - كان من أزهد الناس.

وأيضا فإنه قال: ومعلوم أنه لم يخف أن يأخذوا ماله من بعده إذا مات؛ فإن هذا ليس بمخوف ا.هـ

(منبهة): قال الله تعالى - فيما يحكيه عن زكريا عليه السلام -: (وإني خفت الموالي من ورائي وكانت امرأتي عاقرا فهب لي من لدنك وليا يرثني ويرث من آل يعقوب

=

=

واجعله رب رضيا) [مريم: ٥ - ٦].

وقال تعالى: (وورث سليمان داوود وقال يا أيها الناس علمنا منطق الطير وأوتينا من كل شيء إن هذا لهو الفضل المبين (١٦)) [النمل: ١٦].

وفي الحديث عن عائشة رضي الله عنها، أن فاطمة عليها السلام أرسلت إلى أبي بكر - رضي الله عنه - تسأله ميراثها من النبي ﷺ، فيما أفاء الله على رسوله ﷺ، تطلب صدقة النبي ﷺ التي بالمدينة وفدك، وما بقي من خمس خيبر، فقال أبو بكر: إن رسول الله ﷺ قال: "لا نورث، ما تركنا فهو صدقة، إنما يأكل آل محمد من هذا المال - يعني مال الله - ليس لهم أن يزيدوا على المأكل....". أخرجه البخاري في صحيحه، في كتاب المناقب، حديث (٣٧١٢)، ومسلم في صحيحه، في كتاب الجهاد والسير، حديث (١٧٥٩).

وعن عمر بن الخطاب، وأبي هريرة رضي الله عنهما، أن رسول الله ﷺ قال: "إنا معشر الأنبياء لا نورث، ما تركنا صدقة". حديث عمر بن الخطاب: أخرجه النسائي في السنن الكبرى (٤/ ٦٤)، من طريق سفيان بن عيينة، عن عمرو بن دينار، عن الزهري، عن مالك بن أوس، عن عمر، به.

قال الحافظ ابن حجر في التلخيص الحبير (٣/ ٢١٤): "إسناده على شرط مسلم".

وأخرجه ابن عبد البر في التمهيد (٨/ ١٧٥)، من طريق مالك بن أنس، عن الزهري، به.

وأخرجه الطبراني في الأوسط (٥/ ٢٦)، وتمام في فوائده (٢/ ٧٢)، وابن عساكر في تاريخه (٣٦/ ٣٠٩)، جميعهم من طريق تليد بن سليمان، عن عبد الملك بن عمير، عن الزهري، به.

وحديث أبي هريرة: أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٢/ ٤٦٣)، عن وكيع، عن

=

=

سفيان، عن أبي الزناد، عن الأعرج، عن أبي هريرة، به. وإسناده صحيح على شرط مسلم.

وأخرجه ابن عبد البر في التمهيد (٨/ ١٧٥)، من طريق الحميدي، عن سفيان، به.

(فائدة): اشتهر في كثير من كتب التفسير، وشروح الحديث، وكتب الأصول، رواية الحديث بلفظ: "نحن معاشر الأنبياء لا نورث"، وقد بين الحافظ ابن حجر في الفتح (١٢/ ١٠): أن لفظة "نحن" قد أنكرها جماعة من الأئمة، حيث لم يرد الحديث بهذا اللفظ في شيء من كتب السنة، وأما الحافظ ابن كثير فقد أشار في تفسيره (٣/ ١١٧) إلى أن الحديث رواه الترمذي بهذا اللفظ، لكن لم أقف عليه في سنن الترمذي، ولا في الشمائل، ولا في العلل له.

* فظاهر الحديثين الشريفين أن الأنبياء عليهم السلام لا يورثون، وأما الآيات الكريمة ففيها إثبات الإرث لهم، وهذا يوهم التعارض بين الآيات والأحاديث.

* مسالك العلماء في دفع التعارض بين الآيات والأحاديث:

اتفق أهل السنة على أن نبينا محمدا ﷺ لا يورث، أخذا بأحاديث المسألة، وشذت الشيعة، فقالوا: بل يورث. وأنكروا أحاديث المسألة، وطعنوا على أبي بكر الصديق - رضي الله عنه - في روايته لها.

واختلف أهل السنة في بقية الأنبياء - عليهم السلام - هل يورثون أم لا؟ على ثلاثة مذاهب:

الأول: أنهم لا يورثون مطلقا، كنبينا عليه وعليهم السلام.

وهذا مذهب جمهور العلماء من السلف والخلف.

وحكاه أبو الوليد الباجي، وابن القيم، والسيوطي إجماعا.

واحتج الجمهور على منع وراثة الأنبياء:

بأن النبي ﷺ قال: "لا نورث" حيث جمع الضمير باعتبار مشاركة بقية الأنبياء له

=

=

في ذلك.

قالوا: ويدل على العموم حديث: "إنا معشر الأنبياء لا نورث"، وحديث: "إن العلماء ورثة الأنبياء، إن الأنبياء لم يورثوا دينارا ولا درهما، إنما ورثوا العلم، فمن أخذ به أخذ بحظ وافر".

وأجابوا عن الآيات التي فيها نسبة الوراثة للأنبياء: بأن المراد إرث النبوة والعلم، لا إرث المال.

قالوا: وهذا المعنى هو المروي عن السلف في تفسير الآيات؛ كمجاهد، وقتادة، والحسن البصري في أصح الروايات عنه، والسدي.

قالوا: ومن الأدلة على أن المراد بالآيات إرث النبوة والعلم، لا إرث المال:

الأول: أنه لم يذكر أن زكريا عليه السلام كان ذا مال، بل كان نجارا يأكل من كسب يديه، ومثل هذا لا يجمع مالا، فكيف يورث منه، لا سيما والأنبياء عليهم السلام من أزهد الناس في الدنيا.

الدليل الثاني: أن إرث المال هو من الأمور العادية المشتركة بين الناس، كالأكل والشرب ودفن الميت، ومثل هذا لا يقص على الأنبياء؛ إذ لا فائدة فيه، وإنما يقص ما فيه عبرة وفائدة تستفاد، وإلا فقول القائل: مات فلان وورث ابنه ماله، مثل قوله: ودفنوه، ومثل قوله: أكلوا وشربوا وناموا ونحو ذلك مما لا يحسن أن يجعل من قصص القرآن.

الدليل الثالث: أن داود عليه السلام كان له أولاد كثير سوى سليمان، فلو كان الموروث هو المال لم يكن سليمان مختصا به دون بقية أخوته.

الدليل الرابع: أنه لا يجوز أن يتأسف نبي الله على مصير ماله بعد موته، إذا وصل إلى وارثه المستحق له شرعا.

الدليل الخامس: أنه قد صح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: "إنا معشر الأنبياء لا نورث"،

=

=

وهذا اللفظ عام في جميع الأنبياء ولا يحتمل التخصيص، ولا يجوز تفسير الآيات بمعنى يخالف هذا الحديث.

الدليل السادس: أنه ليس في كون سليمان ورث مال داود صفة مدح، لا لداود، ولا لسليمان؛ فإن اليهودي والنصراني يرث أباه ماله، والآية إنما سيقت في بيان مدح سليمان وما خصه الله به من النعمة.

الدليل السابع: أن آل يعقوب قد انقرضوا من زمان فكيف يرث زكريا مالهم، وأيضا فإن زكريا عليه السلام لا يرث من آل يعقوب شيئا من أموالهم، وإنما يرث ذلك أولادهم.

الدليل الثامن: أن الوراثة ترد في الكتاب والسنة بمعنى وراثة العلم والدين؛ كقوله تعالى: (ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا) [فاطر: ٣٢]، وقوله: (وإن الذين أورثوا الكتاب من بعدهم لفي شك منه مريب) [الشورى: ١٤]، وقوله: (فخلف من بعدهم خلف ورثوا الكتاب) [الأعراف: ١٦٩]، إلى غير ذلك من الآيات، فلا مانع من حملها في الآيات على هذا المعنى سيما وقد وجدت قرائن تدل على هذا المعنى.

الإيرادات والاعتراضات على مذهب الجمهور:

الاعتراض الأول: أن قوله ﷺ: "لا نورث" خاص به ﷺ؛ بدليل أن عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - قال - بعد روايته للحديث -: "يريد رسول الله ﷺ نفسه"، وقد صدق عمر جماعة من الصحابة على هذا المعنى حين حدث به بمحضر منهم، وهذا يدل على أن الحديث يراد به الخصوص، فلا مانع إذن من تفسير الآيات بإرث المال، لأن هذا المعنى لا يعارض الحديث على القول بخصوصه.

وأجيب على هذا الاعتراض من أربعة أوجه:

الأول: أن ظاهر صيغة الجمع في قوله ﷺ: "لا نورث" شمول جميع الأنبياء؛ فلا

=

=

يجوز العدول عن هذا الظاهر إلا بدليل من كتاب أو سنة، وقول عمر - رضي الله عنه - لا يصح أن يخصص به نص من السنة؛ لأن النصوص لا يصح تخصيصها بأقوال الصحابة على التحقيق، كما هو مقرر في الأصول.

الوجه الثاني: أن قول عمر: "يريد رسول الله ﷺ نفسه" لا ينافي شمول الحكم لغيره من الأنبياء، لاحتمال أن يكون قصده يريد أنه هو ﷺ يعني نفسه؛ فإنه لا يورث، ولم يقل عمر: إن اللفظ لم يشمل غيره، وكونه يعني نفسه لا ينافي أن غيره من الأنبياء لا يورث أيضا.

الوجه الثالث: أنه قد جاء في روايات أخرى التصريح في عموم عدم الإرث المالي في جميع الأنبياء، كرواية: "إنا معشر الأنبياء لا نورث"، ورواية: "إن الأنبياء لا يورثون"، وهذه الروايات يشد بعضها بعضا، وقد تقرر في الأصول أن البيان يصح بكل ما يزيل الإشكال، ولو بقرينة أو غيرها، وعليه فهذه الروايات التي ذكرنا تبين أن المقصود من قوله ﷺ: "لا نورث" أنه يعني نفسه كما قال عمر، وجميع الأنبياء كما دلت عليه الروايات المذكورة.

الاعتراض الثاني: أن سليمان عليه السلام قد كان نبيا في وقت أبيه فكيف يرث منه النبوة؟

وأجيب: بأن الشرائع كانت إلى داود عليه السلام وكان سليمان معينا له فيها، وكذا كانت سبيل الأنبياء صلوات الله عليهم إذا اجتمعوا أن تكون الشريعة إلى واحد منهم.

الاعتراض الثالث: أن النبوة لا تورث، ولو كانت تورث لقال قائل: الناس كلهم ينسبون إلى نوح عليه السلام، وهو نبي مرسل.

المذهب الثاني: أن الحديث خاص بنبينا محمد ﷺ دون بقية الأنبياء عليهم السلام.

وهذا مذهب: عمر بن الخطاب، وعائشة رضي الله عنهما.

ونسب: للحسن البصري،

=

=

وإبراهيم بن إسماعيل بن علية.

وهو رأي النحاس، والحافظ ابن حجر، والطاهر ابن عاشور.

ولابن حجر، وابن عاشور، رأيان آخران موافقان للجمهور، بأن الحديث عام في جميع الأنبياء.

قال أبو جعفر النحاس: "فأما معنى (يرثني ويرث من آل يعقوب) [مريم: ٦] فللعلماء فيه ثلاثة أجوبة: قيل: هي وراثة نبوة، وقيل: هي وراثة حكمة، وقيل: هي وراثة مال....؛ فأما وراثة المال فلا يمتنع، وإن كان قوم قد أنكروه لقول النبي ﷺ : "لا نورث، ما تركنا فهو صدقة"، وهذا لا حجة فيه، لأن الواحد يخبر عن نفسه بإخبار الجميع، وقد يؤول هذا بمعنى: لا نورث الذي تركناه صدقة؛ لأن النبي ﷺ لم يخلف شيئا يورث عنه....، فإن قيل: ففي بعض الروايات: "إنا معشر الأنبياء لا نورث، ما تركنا صدقة"؛ ففيه التأويلان جميعا: أن يكون "ما" بمعنى "الذي"، والآخر لا يورث من كانت هذه حاله". اهـ

وهناك عدد من المفسرين فسروا الآيات بإرث المال لا النبوة، لكن لم يجيبوا عن الحديث، ومن هؤلاء:

ابن عباس، وأبو صالح، وعكرمة، والضحاك، والحسن البصري، وسفيان الثوري، وابن جرير.

حيث قالوا في تفسير قوله تعالى: (يرثني ويرث من آل يعقوب) قالوا: يرث من زكريا المال، ومن آل يعقوب النبوة.

وعن الحسن في قوله تعالى: (وورث سليمان داوود) قال: ورث المال والملك، لا النبوة والعلم.

إلا أن الرواية عن ابن عباس لا تصح، وكذا الرواية عن عكرمة والضحاك والحسن البصري.

=

=

ويدل لمذهب القائلين بالتخصيص: حديث: "رحم الله أخي زكريا ما كان عليه من وراثة ماله حين قال: (فهب لي من لدنك وليا يرثني ويرث من آل يعقوب)". فهذا يدل على أن الأنبياء يورثون المال.

وتعقب: بأن الحديث لا يصح.

المذهب الثالث: أن الحديث محمول على أن ذلك هو الغالب من فعل الأنبياء وسيرتهم، ولا ينفي أن يكون هناك من يورث، كزكريا عليه السلام.

وهذا مذهب القاضي ابن عطية، حيث قال - في تفسير قوله تعالى: (يرثني ويرث من آل يعقوب) -: "والأكثر من المفسرين على أنه أراد وراثة المال، ويحتمل قول النبي ﷺ: "إنا معشر الأنبياء لا نورث" أن لا يريد به العموم، بل على أنه غالب أمرهم فتأمله، والأظهر الأليق بزكريا عليه السلام أن يريد وراثة العلم والدين، فتكون الوراثة مستعارة...". اهـ

وقال: "ويحتمل قوله عليه السلام: "إنا معشر الأنبياء لا نورث" أن يريد به أن ذلك من فعل الأنبياء وسيرتهم، وإن كان فيهم من ورث ماله كزكريا على أشهر الأقوال فيه، وهذا كما تقول: إنا معشر المسلمين إنما شغلنا العبادة، فالمراد أن ذلك فيه فعل الأكثر". اهـ

والذي يظهر صوابه - والله تعالى أعلم - هو مذهب الجمهور: بأن الأنبياء جميعا لا يورثون، وقد دل على ذلك قوله ﷺ: "إنا معشر الأنبياء لا نورث"، وهو نص صحيح صريح، ورد بصيغة العموم في جميع الأنبياء، ومثل هذا لا يحتمل التخصيص.

وأحسن ما يجمع به بين الآيات والأحاديث: أن تحمل الوراثة في الآيات على معنى وراثة العلم، دون المال، أو النبوة.

أما المال فقد تقدم بيان المانع من حمل الآيات على هذا المعنى.

=

يَازَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَى لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا (٧).

{يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرك بِغُلَامٍ} يَرِث كَمَا سَأَلْت {اسْمه يَحْيَى لَمْ نَجْعَل لَهُ مِنْ قبل سميا} أي مسمى بيحيى.

قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا (٨).

{قَالَ رَبّ أَنَّى} كَيْفَ {يَكُون لِي غُلَام وَكَانَتْ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْت مِنْ الْكِبَر عِتِيًّا} مِنْ عَتَا يَبِسَ أَيْ نِهَايَة السِّنّ مِائَة وَعِشْرِينَ سَنَة وَبَلَغَتْ امْرَأَته ثَمَانِيَة وَتِسْعِينَ سَنَة وَأَصْل عِتِيّ عِتِوّ وَكُسِرَتْ التَّاء تَخْفِيفًا وَقُلِبَتْ الْوَاو الأولى ياء لمناسبة الكسرة والثانية ياء لتدغيم فيها الياء.

قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا (٩).

{قَالَ} الْأَمْر {كَذَلِكَ} مِنْ خَلْق غُلَام مِنْكُمَا {قَالَ رَبّك هُوَ عَلَيَّ هَيِّن} أَيْ بِأَنْ أرد عَلَيْك قُوَّة الْجِمَاع وَأَفْتَقَ رَحِم امْرَأَتك لِلْعُلُوقِ {وَقَدْ خَلَقْتُك مِنْ قَبْل وَلَمْ تَكُ شَيْئًا} قَبْل خَلْقك وَلِإِظْهَارِ الله هَذِهِ الْقُدْرَة الْعَظِيمَة أَلْهَمَهُ السُّؤَال لِيُجَابَ بِمَا يَدُلّ عَلَيْهَا وَلَمَّا تَاقَتْ نَفْسه إلَى سُرْعَة الْمُبَشَّر بِهِ.

قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا (١٠).

{قَالَ رَبّ اجْعَلْ لِي آيَة} أَيْ عَلَامَة عَلَى حَمْل امْرَأَتِي {قَالَ آيَتك} عَلَيْهِ {أَلَّا

=

وأما النبوة فإن الأنبياء لا يتوارثونها؛ وإنما هي اصطفاء من الله تعالى، كما قال سبحانه: (الله يصطفي من الملائكة رسلا ومن الناس إن الله سميع بصير (٧٥)) [الحج: ٧٥]؛ فلم يبق إلا وراثة العلم، وهي التي أخبر النبي ﷺ بتوارثها، في قوله: "إن الأنبياء لم يورثوا دينارا ولا درهما، وإنما ورثوا العلم"، والله تعالى أعلم.

تُكَلِّم النَّاس} أَيْ تَمْتَنِع مِنْ كَلَامهمْ بِخِلَافِ ذِكْر الله {ثَلَاث لَيَالٍ} أَيْ بِأَيَّامِهَا كَمَا فِي آل عِمْرَان ثَلَاثَة أَيَّام {سَوِيًّا} حَال مِنْ فَاعِل تُكَلِّم أَيْ بِلَا عِلَّة.

فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا (١١).

{فَخَرَجَ عَلَى قَوْمه مِنْ الْمِحْرَاب} أَيْ الْمَسْجِد وَكَانُوا يَنْتَظِرُونَ فَتْحه لِيُصَلُّوا فِيهِ بِأَمْرِهِ عَلَى الْعَادَة {فَأَوْحَى} أَشَارَ {إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا} صَلُّوا {بُكْرَة وَعَشِيًّا} أَوَائِل النَّهَار وَأَوَاخِره عَلَى الْعَادَة فَعَلِمَ بِمَنْعِهِ مِنْ كَلَامهمْ حَمْلهَا بِيَحْيَى وَبَعْد وِلَادَته بِسَنَتَيْنِ قَالَ الله تَعَالَى لَهُ[1].

---

(١) قوله تعالى: {يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَى} [مريم: ٧].

قال الطبري: "فاستجاب له ربه، فقال له: يا زكريا إنا نبشرك بهبتنا لك غلاما اسمه يحيى".

قال مقاتل: "فاستجاب الله- ﷻ- لزكريا في الولد، فأتاه جبريل -وهو يصلي- فقال: {يا زكريا إنا نبشرك بغلام اسمه يحيى}".

قال قتادة: " إن الملائكة شافهته بذلك مشافهة، وبشرته بيحيى".

عن قتادة، قوله " {يا زكريا إنا نبشرك بغلام اسمه يحيى}، عبد أحياه الله للإيمان".

قوله تعالى: {لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا} [مريم: ٧]، أي: "لم نُسَمِّ أحدًا قبله بهذا الاسم".

وفي قوله تعالى: {لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا} [مريم: ٧]، ثلاثة أقوال:

أحدها: معناه: لم تلد العواقر مثله ولدا قط، قاله ابن عباس.

قال الماوردي: "فيكون المعنى لم نجعل له مثلًا ولا نظيرًا".

الثاني: مثلا عدلا شبها. رواه ابن ابي نجيح عن مجاهد.

وقال سعيد بن جبير: "شبيها".

=

=

الثالث: أي لم يسم قبله أحد بهذا الاسم، قاله ابن عباس-في رواية-، وقتادة، وابن جريج، والسدي، وابن زيد، وبه قال الفراء، وابن قتيبة، والطبري.

قال مقاتل:"لم يكن أحد من الناس فيما خلا يسمى يحيى، وإنما سماه: «يحيى»، لأنه أحياه من بين شيخ كبير وعجوز عاقر".

قال الفراء:"لم يسم أحد بيحيى قبل يحيى بن زكريا".

واختار الطبري القول الأخير، وقال: بأنه" أشبه بتأويل ذلك، وإنما معنى الكلام: لم نجعل للغلام الذي نهب لك الذي اسمه يحيى من قبله أحدا مسمى باسمه، والسمي: فعيل صرف من مفعول إليه".

قال القرطبي: قوله- تعالى- يا زَكَرِيَّا في الكلام حذف، أى: فاستجاب الله دعاءه فقال: يا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلامٍ اسْمُهُ يَحْيى ... فتضمنت هذه البشارة ثلاثة أشياء: أحدها: إجابة دعائه وهي كرامة. الثاني: إعطاؤه الولد وهو قوة. الثالث: أن يفرد بتسميته ...".

وقد بين- سبحانه- في آيات أخرى أن الذي بشر زكريا هو بعض الملائكة، وأن ذلك كان وهو قائم يصلى في المحراب، قال- تعالى-: فَنادَتْهُ الْمَلائِكَةُ وَهُوَ قائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرابِ، أَنَّ اللهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيى، مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللهِ، وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ.

وقوله- سبحانه-: اسْمُهُ يَحْيى يدل على أن هذه التسمية قد سماها الله- تعالى- ليحيى، ولم يكل تسميته لزكريا أو لغيره، وهذا لون من التشريف والتكريم.

وقوله- تعالى-: لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا أى لم نجعل أحدا من قبل مشاركا له في هذا الاسم، بل هو أول من تسمى بهذا الاسم الجميل.

قال بعض العلماء: «وقول من قال: إن معناه: لم نجعل له من قبل سميا، أى: نظيرا يساويه في السمو والرفعة غير صواب، لأنه ليس بأفضل من إبراهيم ونوح وموسى

=

=

فالقول الأول هو الصواب، وممن قال به: ابن عباس، وقتادة، والسدى، وابن أسلم وغيرهم ...".

مسألة: في هذه الآية: تسمية المولود قبل ولادته؛ وهذا جائز بلا خلاف، وفيه: جواز التسمية باسم لم يسبق إليه ما كان المعنى حسنا وقد جعل الله من خصائص اسم يحيى أنه لم يسبق من قبل.

وقد جاءت مشروعية التسمية اليوم السابع؛ كما جاء من حديث عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده: أن النبي ﷺ-أمر بتسمية المولود يوم سابعه، ووضع الأذى عنه، والعق"؛ أخرجه الترمذي، وعند أحمد وأهل "السنن" نحوه من حديث سمرة، وجاء من حديث ابن عباس وغيره.

وقد سمى النبي ﷺ ولده إبراهيم في اليوم الذي ولد فيه؛ كما جاء في مسلم؛ من حديث أنس مرفوعا؛ قال: (ولد لي الليلة غلام، فسميته باسم أبي إبراهيم)، وفي "الصحيحين": "إنه ولد لأبي موسى ولد، فأتى به النبي ﷺ فحنكه وسماه إبراهيم"، وفيهما من حديث سهل بن سعيد: "أن النبي ﷺ سمى المنذر بن أبي أسيد حين ولادته".

وفي الآية: التسمية قبل الولادة، وفي حديث أنس وأبي موسى وسهل بن سعد التسمية يوم الولادة، وفي حديث ابن العاص وسمرة التسمية يوم السابع؛ وكل ذلك جائز، ولكن اختلف العلماء في الأفضل على أقوال:

فمنهم من قال: إن التسمية في اليوم السابع أفضل؛ وبهذا قال جمهور العلماء؛ كمالك والشافعي وأحمد.

ومنهم من قال: إن التسمية في اليوم الأول أفضل؛ وبهذا قال جماعة من الفقهاء من المالكية؛ وهو وجه في مذهب أحمد.

ومن نظر في الأحاديث في التسمية عند الولادة، وجدها أصح من التسمية في اليوم

=

=

السابع؛ كما قاله البيهقي.

ومنهم من قال: إنه إن أراد أن يعق عنه فيسميه مع عقيقته في السابع، ومن لم يرد أن يعق فيسميه أول يوم؛ وإلي هذا مال البخاري، حيث بوب في كتابه "الصحيح": (باب تسمية المولود غداة يولد لمن لم يعق)، وقد سمى النبي ﷺ ولده إبراهيم يوم ولد، وأما الحسن والحسين، فسماهما يوم السابع؛ كما في حديث عائشة؛ حيث قالت: "عق رسول الله ﷺ عن حسن وحسين يوم السابع وسماهما"؛ رواه ابن حبان وغيره.

والآية دالة على جواز التسمية قبل الولادة؛ وذلك متوقف على معجزة؛ فلا يعلم الجنين ونوعه قبل تكونه إلا الله: {ويعلم ما في الأرحام} [لقمان: ٣٤]، وهي في سياق البشرى وتأكيدها، ومقتضى التأكيد وتمام البشرى والنعيم التعجيل بالتسمية؛ لضمان تحقق المقصود وتمامه.

وأما التكني، فبابه واسع؛ لأن الكنية لا يقصد بها مولود بعينه؛ فقد يتكنى الرجل ولا ولد له، وقد يتكنى بذكر وولده أنثى، وقد يتكنى بأنثى وولده ذكر، بخلاف التسمية؛ فهي متعينة لولد بعينه.

قوله تعالى: {قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ} [مريم: ٨].

وهو استفهام تعجب وسرور بالأمر العجيب.

قال الطبري: يقول:"ومن أي وجه يكون لي ذلك".

قال السدي:"يقول: من أين".

وقال الربيع بن انس:"كيف يكون لي".

قال الحسن:"أراد زكريا أن يعلم كيف ذلك".

قال البيضاوي:"استبعادًا من حيث العادة، أو استعظامًا أو تعجبا أو استفهامًا عن كيفية حدوثه".

=

=

قوله تعالى: {وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا} [مريم: ٨]، أي:"وكانت امرأتي عاقرًا لا تلد".

قال الطبري: يقول:"وامرأتي عاقر لا تحبل".

قال أهل التفسير: " «العاقر»: من النساء، هي التي لا تلد، وهو القطع، لأنها ذات عقر من الأولاد، يقال منه: امرأة عاقر، ورجلٌ عاقرٌ، ومنه قول عامر بن الطفيل:

لَبِئْسَ الفَتَى! إنْ كُنْتُ أَعْوَرَ عَاقِرًا... جَبَانًا، فَمَا عُذْرِي لَدَى كُلِّ مَحْضَرِ!!".

قوله تعالى: {وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا} [مريم: ٨]، أي:"وأنا قد بلغت النهاية في الكبر ورقة العظم؟".

قال البيضاوي: أي وقد" دركني كبر السن وأثر فيّ، وكان له تسع وتسعون ولامرأته ثمان وتسعون سنة".

قال أبو عبيدة:"أي: بلغت الكبر، والعرب تصنع مثل هذا تقول: هذا القميص لا يقطعني".

قال الطبري:"يقول: وقد عتوت من الكبر فصرت نحل العظام يابسها"،

قال مقاتل:"وكان زكريا يومئذ ابن خمس وسبعين سنة".

وفي قوله تعالى: {وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا} [مريم: ٨]، أقوال:

أحدها: يعني: الكبر في السن، قاله ابن عباس، وقتادة، والضحاك.

قال ابن كثير:"الظاهر أنه أخص من الكبر".

قال قتادة: يقول: "هرما"، قال قتادة: "وكان ابن بضع وسبعين سنة".

وقال مقاتل: "وكان زكريا يومئذ ابن خمس وسبعين سنة".

الثاني: أنه نحول العظم، قاله مجاهد.

الثالث: يعني: بؤسا من الكبر. قاله ابن عباس، ومقاتل.

الرابع: أن «العتي»: الذي قد عتا عن الولد فيما يرى نفسه لا يولد له. قاله ابن زيد.

=

=

الخامس: أنه الذي غيره طول الزمان إلى اليبس والجفاف، حكاه الماوردي عن ابن عيسى، وأنشد قول الشاعر:

إنما يعذر الوليد ولا يعذر... من كان في الزمان عتيًا

وقرأ ابن عباس: «عِسِيًّا»، وهي كذلك في مصحف أبيّ، من قولهم للشيخ إذا كبر:"قد عسا وعتا ومعناهما واحد".

قال الطبري:"وكل متناه إلى غايته في كبر أو فساد، أو كفر، فهو عات وعاس".

قال ابن عباس:"قد علمت السنة كلها، غير أني لا أدري أكان رسول الله ﷺ يقرأ في الظهر والعصر أم لا ولا أدري كيف كان يقرأ هذا الحرف: {وقد بلغت من الكبر عتيا}، أو «عسيا»".

وقد ذكر أهل العلم في سبب قول زكريا-عليه السلام-: {رَبِّ أَنَّى يِكُونُ لِي غُلاَمٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ} [آل عمران:٤٠]، وجوها:

أحدها: أنه راجع ليعلم على أي حال يكون منه الولد، بأن يُرّدّ هو وامرأته إلى حال الشباب، أم على حال الكبر، فقيل له: كذلك الله يفعل ما يشاء، أي على هذه الحال، وهذا قول الحسن.

قال ابن عطية:"وهذا تأويل حسن يليق بزكرياء -عليه السلام-".

الثاني: لما نادى جبرائيل زكريا: {إنا نبشرك بغلام اسمه يحيى لم نجعل له من قبل سميا}، فلما سمع النداء، جاءه الشيطان فقال: يا زكريا إن الصوت الذي سمعت ليس من الله، إنما هو من الشيطان يسخر بك، ولو كان من الله أوحاه إليك كما يوحي إليك غيره من الأمر، فشك وقال: {أنى يكون لي غلام}، يقول: من أين يكون {وقد بلغني الكبر وامرأتي عاقر}. قاله السدي، وعكرمة.

الثالث: أنه قال ذلك استعظامًا لمقدور الله وتعجبًا.

الرابع: أنه إنما سأل لأنه نسي دعاءه لطول المدة بين الدعاء والبشارة وذلك

=

=

أربعون سنة. قاله مكي.

قال ابن عطية:"وهذا قول ضعيف المعنى".

قال الطبري:"يستثبت [زكريا] ربه الخبر، عن الوجه الذي يكون من قبله له الولد، الذي بشره الله به، لا إنكارا منه ﷺ حقيقة كون ما وعده الله من الولد، وكيف يكون ذلك منه إنكارا لأن يرزقه الولد الذي بشره به، وهو المبتدئ مسألة ربه ذلك بقوله: {فهب لي من لدنك وليا يرثني ويرث من آل يعقوب}، بعد قوله {إني وهن العظم مني واشتعل الرأس شيبا}".

قال ابن كثير:"هذا تعجب من زكريا، عليه السلام، حين أجيب إلى ما سأل، وبُشِّر بالولد، ففرح فرحًا شديدًا، وسأل عن كيفية ما يولد له، والوجه الذي يأتيه منه الولد، مع أن امرأته كانت عاقرًا لم تلد من أول عمرها مع كبرها، ومع أنه قد كبر وعتا، أي عسا عظمه ونحل ولم يبق فيه لقاح ولا جماع".

فالجملة الكريمة استئناف مبنى على سؤال تقديره: فماذا قال زكريا عند ما بشره الله- تعالى- بيحيى؟

ولفظ أَنَّى بمعنى: كيف. أو بمعنى: من أين.

أى: قال زكريا مخاطبا ربه بعد أن بشره بابنه يحيى: يا رب كيف يكون لي غلام، وحال امرأتى أنها كانت عاقرا في شبابها وفي شيخوختها، وحالي أنا أننى قد بلغت من الكبر عتيا، أى. قد تقدمت في السن تقدما كبيرا.

يقال: عتى الشيخ يعتو عتيا- بكسر العين وضمها- إذا بلغ النهاية في الكبر.

فإن قيل: «ما المراد باستفهام زكريا- عليه السلام مع علمه بقدرة الله- تعالى- على كل شيء؟

فالجواب أن استفهامه إنما هو على سبيل الاستعلام والاستخبار، لأنه لم يكن يعلم أن الله- تعالى- سيرزقه بيحيى عن طريق زوجته العاقر، أو عن طريق الزواج

=

=

بامرأة أخرى، فاستفهم عن الحقيقة ليعرفها.

ويصح أن يكون المقصود بالاستفهام التعجب والسرور بهذا الأمر العجيب حيث رزقه الله الولد مع تقدم سنه وسن زوجته.

ويجوز أن يكون المقصود بالاستفهام الاستبعاد لما جرت به العادة من أن يأتى الغلام مع تقدم سنه وسن زوجته. وليس المقصود به استحالة ذلك على قدرة الله- تعالى- لأنه- سبحانه- لا يعجزه شيء.

قال الزمخشري: فإن قلت: لم طلب أولا، وهو وامرأته على صفة العتي والعقر، فلما أسعف بطلبته استبعد واستعجب؟ قلت: ليجاب بما أجيب به، فيزداد المؤمنون إيقانا، ويرتدع المبطلون. وإلا فمعتقد زكريا أولا وآخرا، كان على منهاج واحد، في أن الله غني عن الأسباب. انتهى.

وقال أبو السعود: إنما قاله عليه السلام، مع سبق دعائه بذلك وقوة يقينه بقدرة الله، لا سيما بعد مشاهدته للشواهد المذكورة في سورة آل عمران، استعظاما لقدرة الله تعالى، وتعجيبا منها، واعتدادا بنعمته تعالى عليه في ذلك، بإظهار أنه من محض لطف الله عز وعلا وفضله. مع كونه في نفسه من الأمور المستحيلة عادة، لا استبعادا له. وقيل: كان ذلك منه استفهاما عن كيفية حدوثه. أي: أيكون الولد ونحن كذلك؟ فقيل: كذلك. أي يكون الولد وأنتما كذلك.

قوله تعالى: {قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ} [مريم: ٩]، أي:"قال المَلَك مجيبًا زكريا عمَّا تعجَّب منه: هكذا الأمر كما تقول مِن كون امرأتك عاقرًا، وبلوغك من الكبر عتيًا، ولكنَّ ربك قال: خَلْقُ يحيى على هذه الكيفية أمر سهل هيِّن عليَّ".

قال مقاتل: " يعني: هكذا قال ربك إنه ليكون لك غلام".

قال ابن عباس:"{قال كذلك قال ربك} يا زكريا: {هو علي هين وقد خلقتك من

=

=

قبل} أن أهبَ لكَ يحيى {ولم تك شيئا}، وكذلك أقدر على أن أخلق مِن الكبير والعاقِر".

قال يحيى بن سلّام: "قال له الملك: {قال كذلك قال ربك هو علي هين} الله يقوله، وهو كلام موصول أخبَرَ به الملَك عن الله: أعطيك هذا الولد، {وقد خلقتك من قبل ولم تك شيئا}".

قال الطبري: "يقول تعالى ذكره: قال الله لزكريا مجيبا له {قال كذلك} يقول: هكذا الأمر كما تقول من أن امرأتك عاقر، وإنك قد بلغت من الكبر العتي، ولكن ربك يقول: خلق ما بشرتك به من الغلام الذي ذكرت لك أن اسمه يحيى علي هين، فهو إذن من قوله {قال ربك هو علي هيّن} كناية عن الخلق".

قال ابن كثير: "{قَالَ} أي الملك مجيبًا لزكريا عما استعجب منه: {كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ} أي: إيجاد الولد منك ومن زوجتك هذه لا من غيرها {هَيِّنٌ} أي: يسير سهل على الله".

قوله تعالى: {وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا} [مريم: ٩]، أي: "وقد خلقتك أنت من قبل يحيى، ولم تكُ شيئًا مذكورًا ولا موجودًا".

قال الطبري: "يقول تعالى ذكره وليس خلق ما وعدتك أن أهبه لك من الغلام الذي ذكرت لك أمره منك مع كبر سنك، وعقم زوجتك بأعجب من خلقك، فإني قد خلقتك، فأنشأتك بشرا سويا من قبل خلقي ما بشرتك بأني واهب لك من الولد، ولم تك شيئا، فكذلك أخلق لك الولد الذي بشرتك به من زوجتك العاقر، مع عتيك ووهن عظامك، واشتعال شيب رأسك".

قال ابن كثير: "ثم ذكر له ما هو أعجب مما سأل عنه، فقال: {وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا} كما قال تعالى: {هَلْ أَتَى عَلَى الإِنْسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَذْكُورًا} [الإنسان: ١]".

=

=

عن السدي قال: "فلما سمع النداء جاءه الشيطان فقال له: يا زكريا إن الصوت الذي سمعت ليس من الله إنما هو من الشيطان يسخر بك، ولو كان من الله أوحى إليك كما يوحي إليك غيره من الأمر، فشك مكانه. قال: {أنى يكون لي غلام}، يقول: من أين وقد بلغني الكبر وامرأتي عاقر، قال كذلك الله يفعل ما يشاء،... {وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا}".

وقوله: كَذلِكَ خبر لمبتدأ محذوف، أى: الأمر كذلك.

قال الآلوسى: وذلك إشارة إلى قول زكريا- عليه السلام- وجملة هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ مفعول قالَ الثاني وجملة «الأمر كذلك» مع جملة قالَ رَبُّكَ إلخ مفعول قالَ الأول ...".

والمعنى: قال الله- تعالى- مجيبا على استفهام زكريا، الأمر كما ذكرت يا زكريا من كون امرأتك عاقرا، وأنت قد بلغت من الكبر عتيا، ولكن ذلك لا يحول بيننا وبين تنفيذ إرادتنا في منحك هذا الغلام، فإن قدرتنا لا يعجزها شيء، ولا تخضع لما جرت به العادات.

وهذا الأمر وهو إيجاد الولد منك ومن زوجتك هذه لا من غيرها هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ أى: يسير سهل.

ثم ذكر له- سبحانه- ما هو أعجب مما سأل عنه فقال: وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا.

أى: لا تعجب يا زكريا من أن يأتيك غلام وأنت وزوجك بتلك الحالة، فإنى أنا الله الذي أوجدتك من العدم، ومن أوجدك من العدم، فهو قادر على أن يرزقك بهذا الغلام المذكور.

فالآية الكريمة قد ساقت بطريق منطقي برهاني، ما يدل على كمال قدرة الله- تعالى- وما يزيد في اطمئنان قلب زكريا- عليه السلام.

قوله تعالى: {قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً} [مريم: ١٠]، أي:"قال زكريا زيادة في

=

=

اطمئنانه: ربِّ اجعل لي علامة على تحقُّق ما بَشَّرَتْني به الملائكة".

قال مقاتل: " يعني: علما للحبل، فسأل الآية بعد مشافهة جبريل".

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: قال زكريا: يا رب اجعل لي علما ودليلا على ما بشرتني به ملائكتك من هذا الغلام عن أمرك ورسالتك، ليطمئن إلى ذلك قلبي".

قال ابن كثير:"أي: علامة ودليلا على وجود ما وعدتني، لتستقر نفسي ويطمئن قلبي بما وعدتني كما قال إبراهيم، عليه السلام: {رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي} الآية [البقرة: ٢٦٠]".

وفي قوله تعالى: {قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً} [مريم: ١٠]، وجهان:

أحدهما: أنه سأل الله آية تدله على البشرى بيحيى منه لا من الشيطان لأن إبليس أوهمه ذلك، قاله الضحاك.

قال السدي:"قال زكريا: رب فإن كان هذا الصوت منك فـ {اجعل لي آية}، قال: {آيتك ألا تكلم الناس ثلاثة أيام إلا رمزا}".

قال ابن زيد:"قال: {قال رب اجعل لي آية} أن هذا منك".

قال ابن عباس:"وذلك أنّ إبليس أتاه، فقال: يا زكريا، دعاؤك كان خفِيًّا، فأُجِبت بصوت رفيع، وبُشِّرت بصوت عالٍ، ذلك صوتٌ مِن الشيطان، ليس مِن جبريل، ولا من ربك. {قال رب اجعل لي آية} حتى أعرف أنّ هذه البُشرى مِنكَ".

الثاني: سأله آية تدله على أن امرأته قد حملت وأن الله قد استجاب له. قاله نوف البِكالِيِّ.

عن نوف البِكالِيِّ في قوله: {رب اجعل لي آية}، قال: أعطِنِي آيةً أنّك قد استجبت لي. فقال: {آيتك أن لا تكلم الناس ثلاث ليال سويا}".

قوله تعالى: {قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا} [مريم: ١٠]، أي:"قال: علامتك أن لا تقدر على كلام الناس مدة ثلاث ليال وأيامها، وأنت صحيح

=

=

معافى".

قال الطبري:"يقول جل ثناؤه: علامتك لذلك، ودليلك عليه أن لا تكلم الناس ثلاث ليال وأنت سوي صحيح، لا علة بك من خرس ولا مرض يمنعك من الكلام".

قال ابن كثير:"أي: علامتك أن تحبس لسانك عن الكلام ثلاث ليال وأنت صحيح سوي من غير مرض ولا علة".

قال السدي:"اعتقل لسانه ثلاثة أيام وثلاث ليال".

قال قتادة:"وإنما عوقب بذلك لأنه سأل آية بعد ما شافهته الملائكة مشافهة، أخذ بلسانه حتى ما كان يفيض الكلام إلا أومأ إيماء".

قال الربيع:"ذكر لنا، والله أعلم، أنه عوقب، لأن الملائكة شافهته مشافهة، فبشرته بيحيى، فسأل الآية بعدُ، فأخِذَ بلسانه".

وفي قوله تعالى: {قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا} [مريم: ١٠]، وجهان:

أحدهما: أنه اعتقل لسانه ثلاثًا من غير مرض وكان إذا أراد أن يذكر الله انطلق لسانه وإذا أراد أن يكلم الناس اعتقل، وكانت هذه الآية، قاله ابن عباس.

قال ابن عباس:"اعتقل لسانه من غير مرض". وروي عن عبدالرحمن السلمي مثله.

قال ابن زيد:"فحبس لسانه، فكان لا يستطيع أن يكلم أحدا، وهو في ذلك يسبح، ويقرأ التوراة ويقرأ الإنجيل، فإذا أراد كلام الناس لم يستطع أن يكلمهم".

قال وهب بن منبه:"أخذ الله بلسانه من غير سوء، فجعل لا يطيق الكلام، وإنما كلامه لقومه بالإشارة، حتى مضت الثلاثة الأيام التي جعلها الله آية لمصداق ما وعده من هبته له".

=

=

الثاني: اعتقل من غير خرس، قاله ابن عياس، وقتادة، والسدي.

عن ابن عباس: "من غير خرس".

قال السدي:"يقول: من غير خرس إلا رمزا، فاعتقل لسانه ثلاثة أيام وثلاث ليال".

وفي قوله تعالى: {سَوِيًّا} [مريم: ١٠]، وجهان من التفسير:

أحدهما: صحيحًا من غير خرس، قاله ابن عباس، وقتادة، وعكرمة، والسدي، وابن زيد، واختاره ابن كثير.

قال مجاهد:"صحيحا لا يمنعك من الكلام مرض".

عن نوف البِكالِيِّ، في قوله: " {آيتك أن لا تكلم الناس ثلاث ليال سويا}، قال: ختم على لسانه وهو صحيح سويٌّ ليس به من مرض، فلم يتكلم ثلاثة أيام".

الثاني: معناه: آيتك ألا تكلم الناس ثلاث ليال متتابعات، قاله ابن عباس.

قال الماوردي:"فيكون «السوي» على الوجه الأول راجعًا إلى لسانه، وعلى الثاني إلى الليالي".

قال مقاتل: " قال جبريل- عليه السلام- آيتك إذا جامعتها على طهر فحبلت، فإنك تصبح تلك الليلة لا تستنكر من نفسك خرسا ولا مرضا ولكن لا تستطيع الكلام، {ثلاث ليال سويا}، أنت فيهن سوي صحيح. فأخذ بلسانه عقوبة حين سأل الآية بعد مشافهة جبريل- عليهما السلام- ولم يحبس الله- عز وجل- لسانه عن ذكره ولا عن الصلاة".

أى: اجعل لي علامة أستدل بها على وقوع ما بشرتني به، لأزداد سرورا واطمئنانا. ولأعرف الوقت الذي تحمل فيه امرأتى بهذا الغلام فأكثر من شكرك وذكرك.

فأجابه الله- تعالى- بقوله: قالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلاثَ لَيالٍ سَوِيًّا.

أى: قال الله- تعالى- لعبده زكريا: يا زكريا. علامة وقوع ما بشرتك به، أنك تجد

=

=

نفسك عاجزا عن أن تكلم الناس بلسانك، لمدة ثلاث ليال بأيامهن حال كونك سوى الخلق، سليم الحواس ليس بك من خرس، أو بكم، ولكنك ممنوع من الكلام بأمرنا وقدرتنا على سبيل خرق العادة.

فقوله: سَوِيًّا حال من فاعل «تكلم» وهو زكريا أى: حال كونك يا زكريا سوى الخلق، سليم الجوارح، لا علة تمنعك من ذلك سوى قدرتنا.

(لطيفة): إنما ذكر (الليالي) هنا، و (الأيام) في آل عمران، للدلالة على أنه استمر عليه المنع من كلام الناس، والتجرد للذكر والشكر ثلاثة أيام بلياليها. والعرب تتجوز أو تكتفي بأحدهما عن الآخر. والنكتة في الاكتفاء ب (الليالي) هنا وب (الأيام) ثم، أن هذه السورة مكية سابقة النزول. وتلك مدنية. والليالي عندهم سابقة على الأيام. لأن شهورهم وسنيهم قمرية، إنما تعرف بالأهلة. ولذلك اعتبروها، في التاريخ، كما ذكره النحاة، فأعطي السابق للسابق.

قوله تعالى: {فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ} [مريم: ١١]، أي:"فخرج زكريا على قومه مِن مصلاه، وهو المكان الذي بُشِّر فيه بالولد".

قال ابن جريج:"أشرف على قومه من المحراب".

قال ابن عباس:"يعني: مِن مُصَلّاه الذي كان يُصَلِّي فيه".

قال الحسن، في قوله: {فخرج على قومه من المحراب}: مِن المسجد".

قال ابن زيد:"«المحراب»: مصلاه، وقرأ: {فنادته الملائكة وهو قائم يصلي في المحراب}".

قال السعدي: " «المحراب»: محل العبادة".

قال أبو عبيدة: " «المحراب»: سيد المجالس وأشرفها، وأكرمها، وكذلك هو من المساجد".

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: فخرج زكريا على قومه من مصلاه حين حبس

=

=

لسانه عن كلام الناس، آية من الله له على حقيقة وعده إياه ما وعد "، وأما «المحراب»، فهو مقدم كل مجلس ومصلًّى، وهو سيد المجالس وأشرفُها وأكرمُها، وكذلك هو من المساجد، ومنه قول عديّ بن زيد:

كَدُمَى العَاجِ فِي المَحَارِيبِ أَوْ... كالبَيْضِ فِي الرَّوْضِ زَهْرُهُ مُسْتَنِيرُ

و «المحاريب» جمع «محراب»، وقد يجمع على «محارب»".

قوله تعالى: {فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا} [مريم: ١١]، أي:"فأشار إلى قومه: أن سَبِّحوا الله صباحًا ومساءً شكرًا له تعالى".

قال مقاتل:"يقول: كتب كتابا بيده وهو الوحي إليهم أن صلوا بالغداة والعشي".

قال الطبري:"يقول: أشار إليهم، وقد تكون تلك الإشارة باليد وبالكتاب وبغير ذلك، مما يفهم به عنه ما يريد، وقوله {أن سبحوا بكرة وعشيا}، يجوز في هذا الموضع أن يكون عنى به التسبيح الذي هو ذكر الله، فيكون أمرهم بالفراغ لذكر الله في طرفي النهار بالتسبيح، ويجوز أن يكون عنى به الصلاة، فيكون أمرهم بالصلاة في هذين الوقتين".

قال الإمام الشافعي:"فأفهمهم ما يقوم مقام الكلام، ولم يتكلم".

قال محمد بن كعب القرظي:"أشار إليهم أن صلوا بكرة وعشيا".

عن مجاهد:"{فأوحى}: فأشار زكريا".

قال وهب بن منبه:"الوحي: الإشارة".

قال محمد بن كعب القرظي: "أشار إليهم إشارة".

قال قتادة:"أومى إليهم أن صلوا بكرة وعشيا".

عن نوف البِكالِيِّ،:"{فأوحى إليهم}، قال: كتب لهم".

وروي عن الحكم:"{فأوحى إليهم}، قال: كتب لهم".

وروي عن مجاهد -أيضا-، قال:"كتب لهم في الأرض".

=

يَايَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا (١٢).

{يَا يَحْيَى خُذْ الْكِتَاب} أَيْ التَّوْرَاة {بِقُوَّةٍ} بجد {وآتيناه الحكم} النبوة {صبيا} بن ثلاث سنين.

وَحَنَانًا مِنْ لَدُنَّا وَزَكَاةً وَكَانَ تَقِيًّا (١٣).

{وَحَنَانًا} رَحْمَة لِلنَّاسِ {مِنْ لَدُنَّا} مِنْ عِنْدنَا {وَزَكَاة} صَدَقَة عَلَيْهِمْ {وَكَانَ

=

قال ابن عباس: "كَتَب لهم كتابًا".

عن عبد الله بن عباس -من طريق مقاتل وجويبر عن الضحاك- في قوله: {فأوحى إليهم}: بكتاب كتبه بيده".

قال السدي:"فكتب لهم في كتاب: {أن سبحوا بكرة وعشيا}".

وقال ابن زيد:"ما أدري كتابا كتبه لهم، أو إشارة أشارها، والله أعلم، قال ابن زيد: أمرهم أن سبحوا بكرة وعشيا، وهو لا يكلمهم".

والمحراب: المصلى، أو الغرفة التي كان يجلس فيها في بيت المقدس، أو هو المسجد، فقد كانت مساجدهم تسمى المحاريب. لأنها الأماكن التي تحارب فيها الشياطين.

أى: فخرج زكريا- عليه السلام على قومه من المكان الذي كان يصلى فيه، فَأَوْحى إِلَيْهِمْ أى: فأشار إليهم أو كتب لهم دون أن ينطق بلسانه أَنْ سَبِّحُوا الله- تعالى- وقدسوه بُكْرَةً أى: في أوائل النهار وَعَشِيًّا أى: في أواخره.

وقد ذكر- سبحانه- في آية أخرى، ما يشير إلى أن هذا المحراب الذي خرج منه زكريا- عليه السلام على قومه. هو ذلك المكان الذي بشره الله- تعالى- فيه بيحيى.

قال- تعالى-: فَنَادَتْهُ الْمَلائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرابِ أَنَّ اللهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيى، مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ.

تَقِيًّا} رُوِيَ أَنَّهُ لَمْ يَعْمَل خَطِيئَة وَلَمْ يَهِمّ بِهَا.

وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُنْ جَبَّارًا عَصِيًّا (١٤).

{وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ} أَيْ مُحْسِنًا إلَيْهِمَا {وَلَمْ يَكُنْ جَبَّارًا} مُتَكَبِّرًا {عَصِيًّا} عَاصِيًا لِرَبِّهِ.

وَسَلَامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا (١٥).

{وَسَلَام} مِنَّا {عَلَيْهِ يَوْم وُلِدَ وَيَوْم يَمُوت وَيَوْم يُبْعَث حَيًّا} أَيْ فِي هَذِهِ الْأَيَّام الْمَخُوفَة الَّتِي يَرَى مَا لَمْ يَرَهُ قَبْلَهَا فَهُوَ آمِن فِيهَا[1].

---

(١) ذكر سبب النزول.

عن معمر؛ قال: بلغني أن الصبيان قالوا ليحيى بن زكريا: اذهب بنا نلعب، قال: ما للعب خلقت؛ فأنزل الله: {وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا}.

أخرجه ابن المبارك في "الزهد" (رقم ٨٢٣) - ومن طريقه أحمد في "الزهد" (٩٧)، والطبري في "جامع البيان" (١٦/ ٤٢، ٤٣)، والخرائطي في "مساوئ الأخلاق" (ص ٣٣٣ رقم ٧٥٠) -، وعبد الرزاق في "تفسيره" (٢/ ٤) عن معمر به. وهو بلاغ ذكره معمر، ومثله لا تثبت به الأخبار.

* قوله تعالى: {يَا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ} [مريم: ١٢]، أي:"يا يحيى خذ التوراة بجد واجتهاد بحفظ ألفاظها، وفهم معانيها، والعمل بها".

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: فولد لزكريا يحيى، فلما ولد، قال الله له: يا يحيى، خذ هذا الكتاب بقوة، يعني كتاب الله الذي أنزله على موسى، وهو التوراة {بقوّة}، يقول: بجد".

قال ابن عباس:"فَوُلِد له يحيى على ما بشَّره الله نبيًّا تقيًّا صالِحًا، {يا يحيى خذ الكتاب بقوة}، يعني: بجِدٍّ، وطاعة، واجتهاد، وشكر، وبالعمل بما فيه".

قال مجاهد:"يعني: بجِدٍّ في طاعة الله ﷻ".

=

=
عن قتادة، قوله: {خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ}، قال: بجِدٍّ".وري عن مجاهد مثله.
قال الزجاج:"أي بجِدٍ وعونٍ من الله - جلَّ وعزَّ -".
وقال سعيد بن جبير:"يقول: اعمل بما فيه من فرائضه".
وقال ابن زيد:"القوّة: أن يعمل ما أمره الله به، ويجانب فيه ما نهاه الله عنه".
قوله تعالى: {وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا} [مريم: ١٢]، أي:"وأعطيناه الحكمة وحسن الفهم، وهو صغير السن".
قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: وأعطيناه الفهم لكتاب الله في حال صباه قبل بلوغه أسنان الرجال".
عن معاذ بن جبل، مرفوعًا، قال ابن عباس: "النبوة".
عن مالك بن دينار، قال: سألنا عكرمة عن قوله: {وآتيناه الحكم صبيا}. قال: اللُّبَّ".
عن مجاهد، في قوله: {وآتيناه الحكم صبيا}، قال: الفَهْم".
عن مجاهد -من طريق سفيان، عن رجل- {وآتيناه الحكم صبيا}، قال: القرآن".
عن السُّدِّيّ: " {وآتيناه الحكم صبيا}، يعني: الفهم، والعقل".
عن عبد الله بن عباس -من طريق مقاتل وجويبر عن الضحاك- في قوله: " {وآتيناه الحكم} يعني: الفهم، {صبيا} يعني: [صغيرًا]. وذلك أنه مرَّ على صِبية أتْرابٍ له يلعبون على شاطِئ نهر بطِينٍ وبماء، فقالوا: يا يحيى، تعال حتى نلعب. فقال: سبحان الله! أوَلِلَّعِبِ خُلِقْنا؟!".
عن قتادة-من طريق معمر- قال: "جاء الغِلمان إلى يحيى بن زكريا، فقالوا: اخرج بنا نلعب. فقال: ما لِلَّعِبِ خُلِقْتُ. قال: فأنزل الله: {وآتيناه الحكم صبيا}".
عن قتادة، في قوله: " {وآتيناه الحكم صبيا}، قال: وهو ابن ثلاث سنين".
قال يحيى بن سلّام: "وبلغنا: أنّه كان في صِغَرِه يقول له الصبيان: يا يحيى، تعال
=

=

نلعبْ. فيقول: ليس لِلَّعِب خُلِقْنا".

عن مَعْمَر بن راشد -من طريق ابن المبارك- في قوله: {وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا}، قال: بلغني: أنّ الصبيان قالوا ليحيى بن زكريا: اذهب بنا نلعب. قال: ما لِلَّعِب خُلِقْتُ. فهو قوله:: {وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا}".

عن الضحاك، عن ابن عباس، قال: قال رسول الله ﷺ: «قال الغِلمان ليحيى بن زكريا: اذهب بنا نلعب. فقال يحيى: ما لِلَّعِب خُلِقْنا، اذهبوا نُصَلِّي. فهو قول الله تعالى: {وآتيناه الحكم صبيا}».

عن عبد الله بن عباس، عن النبي ﷺ، في قوله: {وآتيناه الحكم صبيا}، قال: «أُعْطِي الفَهْم والعِبادة وهو ابن سبع سنين».

قال ابن وهب: "وقال لي مالك [بن أنس]، وذكر قول الله ﷻ في يحيى: {وآتيناه الحكم صبيا}، وقوله في عيسى: {قد جئتكم بالحكمة} [الزخرف: ٦٣]، وقوله: {ويعلمه الكتاب والحكمة} [آل عمران: ٤٨]، وقوله: {واذكرن ما يتلى في بيوتكن من آيات الله والحكمة} [الأحزاب: ٣٤]، قال مالك: الحِكمة في هذا كلِّه: طاعةُ الله، والاتباع لها، والفقه في دين الله، والعملُ به".

عن ابن عباس، قال: قال رسول الله ﷺ: «مَن قرأ القرآن قبل أن يَحْتَلِم فقد أُوتِي الحُكْم صَبِيًّا».

قد دل الكلام السابق على ولادة يحيى، وشبابه، وتربيته، فلما وصل إلى حالة يفهم فيها الخطاب أمره الله أن يأخذ الكتاب بقوة، أي: بجد واجتهاد، وذلك بالاجتهاد في حفظ ألفاظه، وفهم معانيه، والعمل بأوامره ونواهيه، هذا تمام أخذ الكتاب بقوة، فامتثل أمر ربه، وأقبل على الكتاب، فحفظه وفهمه، وجعل الله فيه من الذكاء والفطنة، ما لا يوجد في غيره.

قال السمعاني: (وقوله: {خذ الكتاب بقوة} [مريم:١٢]، أي: بجد واجتهاد).

=

=

وقال الراغب: ({يايحيى خذ الكتاب بقوة}، أي: بقوة قلب).

وقال الرازي: (قوله: {بقوة} [مريم:١٢] ليس المراد منه: القدرة على الأخذ؛ لأن ذلك معلوم لكل أحد، فيجب حمله على معنى يفيد المدح: وهو الجد والصبر).

فقوله- سبحانه-: يا يَحْيى خُذِ الْكِتابَ بِقُوَّةٍ مقول لقول محذوف، والسر في حذفه المسارعة إلى الإخبار بإنجاز الوعد الكريم.

والتقدير: وبعد أن ولد يحيى، ونما وترعرع قلنا له عن طريق وحينا: يا يَحْيى خُذِ الْكِتابَ الذي هو التوراة بِقُوَّةٍ أي: بجد واجتهاد، وتفهم لمعناه على الوجه الصحيح، وتطبيق ما اشتمل عليه من أحكام وآداب، فإن بركة العلم في العمل به.

والجار والمجرور بِقُوَّةٍ حال من فاعل خذ وهو يحيى، والباء للملابسة أي: خذه حالة كونك ملتبسا بحفظه وتنفيذ أحكامه بشدة وثبات.

وقوله: وَآتَيْناهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا أي: وأعطيناه بقدرتنا وفضلنا الْحُكْمَ أي: فهم الكتاب والعمل بأحكامه، وهو في سن الصبا.

قيل: كان سنه ثلاث سنين، وقيل سبع سنين.

وقال الجمل في حاشيته: «فإن قلت: كيف يصح حصول العقل والفطنة والنبوة حال الصبا؟.

قلت: لأن أصل النبوة مبنى على خرق العادات. إذا ثبت هذا. فلا تمنع صيرورة الصبى نبيا. وقيل: أراد بالحكم فهم الكتاب فقرأ التوراة وهو صغير...

والذي عليه جمهور المفسرين أن المراد بالحكم هنا: العلم النافع مع العمل به، وذلك عن طريق حفظ التوراة وفهمها وتطبيق أحكامها.

قال ابن كثير: وَآتَيْناهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا أي: الفهم والعلم والجد والعزم، والإقبال على الخير، والإكباب عليه، والاجتهاد فيه، وهو صغير حدث.

قال عبد الله بن المبارك: قال معمر: قال الصبيان ليحيى بن زكريا: اذهب بنا

=

=
نلعب، فقال: ما للعب خلقنا. قال: فلهذا أنزل الله: وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا.
قوله تعالى: {وَحَنَانًا مِنْ لَدُنَّا} [مريم: ١٣]، أي:"وآتيناه رحمة ومحبة من عندنا".
قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: ورحمة منا ومحبة له آتيناه الحكم صبيا".
وفي قوله تعالى: {وَحَنَانًا مِنْ لَدُنَّا} [مريم: ١٣]، وجوه:
أحدها: معناه: ورحمة من عندنا. قاله جابر بن عبالله، ومعبد الجهني، وأبو حفص، وابن عباس، وقتادة، وعكرمة، والضحاك، والربيع بن أنس، وابن زيد.
قال الضحاك:"رحمة من عندنا لا يملك عطاءها غيرنا". وروي عن الربيع بن أنس مثله.
قال ابن عباس:"يعني: ورحمة منا، وعطفًا".
قال ابن زيد:"أمّا الحنان: فالمحبة".
عن ابن عباس: "أنّ نافع بن الأزرق قال له: أخبِرني عن قوله: {وحنانا من لدنا}. قال: رحمة من عندنا. قال: وهل تعرف العرب ذلك؟ قال: نعم، أما سمعت طَرَفَة بن العبد البكري وهو يقول:
أبا منذر، أفْنَيْتَ فاسْتَبْقِ بعضنا... حنانيك بعضُ الشرِّ أهونُ مِن بعض؟".
الثاني: معناه: ورحمة من عندنا لزكريا، آتيناه الحكم صبيا، وفعلنا به الذي فعلنا. حكاه الطبري عن آخرين.
الثالث: معناه: وتعطفا من عندنا عليه، فعلنا ذلك. وهذا قول مجاهد.
الرابع: أن الحنان: المحبة. ومعنى الكلام: ومحبة من عندنا فعلنا ذلك. وهذا قول عكرمة، وابن زيد.
الخامس: معناه: معناه تعظيما من لدنا. قاله عطاء بن أبي رباح.
وروي عن ابن عباس، قال: "والله ما أدري ما {حنانا}". وفي رواية:"لا أدري ما
=

=

هو، إلا أني أظنه تعطف الله على خلقه بالرحمة".

قوله تعالى: {وَزَكَاةً} [مريم: ١٣]، أي:"وآتيناه طهارة من الذنوب".

قال الطبري:"هو الطهارة من الذنوب، واستعمال بدنه في طاعة ربه".

قال الزجاج:"«الزكاة»: التطهير".

قال جابر بن عبد الله:"طاهرًا من الذنوب".

عن ابن عباس: {وَزَكَاةً}، قال: بركة".

وروي عن ابن عباس:"يعني بـ«الزكاة»: الطاعة والإخلاص".

وروي عنه-أيضا-:"يعني: وصدقة على زكريا".

عن قتادة، قوله: " {وَزَكَاةً}، قال: الزكاة: العمل الصالح". وفي رواية:"صدقة".

قال الكلبي: "يعني: صدقة تصدق الله بها على أبويه".

قال ابن جريج:"الزكاة: العمل الصالح الزكيّ".

قال الضحاك:"يعني العمل الصالح الزاكي".

وقال الحسن: "زكاة لِمَن قُبِل عنه حتى يكونوا أزكياء".

قوله تعالى: {وَكَانَ تَقِيًّا} [مريم: ١٣]، أي:"وكان خائفًا مطيعًا لله تعالى، مؤديًا فرائضه، مجتنبًا محارمه".

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: وكان لله خائفا مؤدّيا فرائضه، مجتنبا محارمه مسارعا في طاعته".

قال البغوي:"مسلما ومخلصا مطيعا، وكان من تقواه أنه لم يعمل خطيئة ولا هم بها".

عن ابن عباس:"{وَكَانَ تَقِيًّا}، قال: طهر فلم يعمل بذنب". وفي رواية:"يعني: مُطَهَّرًا، مُطيعًا لله".

عن سفيان بن عيينة أنه سئل عن قوله: " {وَكَانَ تَقِيًّا}، قال: لم يعصه ولم يهم

=

=

بها".

قال ابن زيد:"أما الزكاة والتقوى فقد عرفهما الناس".

وقوله- تعالى-: وَحَنانًا مِنْ لَدُنَّا وَزَكَاةً وَكانَ تَقِيًّا معطوف على الْحُكْمَ.

أى: وأعطيناه الحكم صبيا، وأعطيناه حنانا ...

قال القرطبي ما ملخصه: «الحنان: الشفقة والرحمة والمحبة، وهو فعل من أفعال النفس ...

وأصله: من حنان الناقة على ولدها ... قال طرفة:

أبا منذر أفنيت فاستبق بعضنا ... حنانيك بعض الشر أهون من بعض

والمعنى: منحنا يَحْيى الحكم صبيا، ومنحناه من عندنا وحدنا رحمة عظيمة عليه، ورحمة في قلبه جعلته يعطف على غيره، وأعطيناه كذلك زكاة أى: طهارة في النفس، أبعدته عن ارتكاب ما نهى الله عنه، وجعلته سباقا لفعل الخير وَكانَ تَقِيًّا أى مطيعا لنا في كل ما نأمره به، أو ننهاه عنه.

قوله تعالى: {وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ} [مريم: ١٤]، أي:"وكان بارًّا بوالديه مطيعًا لهما".

قال السدي:"يعني: مطيعا لوالديه".

قال مقاتل:"يقول: وجعلناه مطيعا لوالديه".

قال السمعاني:"أي: عطوفا".

قال الزجاج:"أي: وجعلناه برًا بوالديه".

قال الطبري: يقول:"وكان برّا بوالديه، مسارعا في طاعتهما ومحبتهما، غير عاقّ بهما".

قال الواحدي:"«البر» يعني: البار، كالصب والطب، فعل بمعنى فاعل، والمعنى لطيفا بهما محسنا إليهما".

قوله تعالى: {وَلَمْ يَكُنْ جَبَّارًا عَصِيًّا} [مريم: ١٤]، أي:"ولم يكن متكبرًا عن

=

=

طاعة ربه، ولا عن طاعة والديه، ولا عاصيًا لربه، ولا لوالديه".

قال ابن عباس:"يعني: قَتّال النفسِ التي حرَّم الله قتلها".

قال السدي:"مُسْتَكْبِرًا عن عبادة الله".

قال مقاتل:"يعني: متكبرا عن عبادة الله- ﷻ- {عصيا}، يعنى: ولا عاص لربه".

قال الطبري: يقول:"ولم يكن مستكبرا عن طاعة ربه وطاعة والديه، ولكنه كان لله ولوالديه متواضعا متذللا يأتمر لما أمر به، وينتهي عما نُهِي عنه، لا يَعْصِي ربه، ولا والديه".

أى: وجعلناه كثير البر بوالديه، والإحسان إليهما.

وَلَمْ يَكُنْ جَبَّارًا: أى: مستكبرا متعاليا مغرورا عَصِيًّا

أى: ولم يكن ذا معصية ومخالفة لأمر ربه.

قوله تعالى: {وَسَلَامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ} [مريم: ١٥]، أي:"وسلام من الله على يحيى وأمان له يوم وُلِد".

قال الطبري:"يقول: وأمان من الله يوم ولد، من أن يناله الشيطان من السوء، بما ينال به بني آدم، وذلك أنه روي عن رسول الله ﷺ أنه قال: «كل بني آدم يأتي يوم القيامة وله ذنب إلا ما كان من يحيى بن زكريا [وذلك أنه لم يكن له ما للرجل إلا مثل هذا العود ولذلك سماه الله سيدا وحصورا ونبيا من الصالحين] »".

وقال قتادة: "ما أذنب، ولا هم بامرأة".

عن ابن عباس:"" {وسلام عليه} يعني: حين سلم الله عليه، {يوم ولد ويوم يموت ويوم يبعث حيا}".

عن السُّدِّيّ: " {وسلام عليه يوم ولد} يعني: حين ولد".

قوله تعالى: {وَيَوْمَ يَمُوتُ} [مريم: ١٥]، أي:"سلام عليه من الله في يوم موته".

عن السُّدِّيّ: " {ويوم يموت} يعني: وحين يموت".

=

وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا (١٦).

{وَاذْكُرْ فِي الْكِتَاب} الْقُرْآن {مَرْيَم} أَيْ خَبَرهَا {إِذْ} حِين {انْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا} أَيْ اعْتَزَلَتْ فِي مَكَان نَحْو الشَّرْق مِنْ الدار.

فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا (١٧).

{فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونهمْ حِجَابًا} أَرْسَلَتْ سِتْرًا تَسْتَتِر بِهِ لِتُفَلِّي رَأْسهَا أَوْ ثِيَابهَا أَوْ تَغْتَسِل مِنْ حَيْضهَا {فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحنَا} جِبْرِيل {فَتَمَثَّلَ لَهَا} بَعْد لُبْسهَا ثِيَابهَا

=

قال الطبري: "يقول: وأمان من الله تعالى ذكره له من فتاني القبر، ومن هول المطلع".

قوله تعالى: {وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا} [مريم: ١٥]، أي: "سلام عليه من الله يوم يُبعث من قبره".

عن السُّدِّيّ: " {ويوم يبعث حيا} يوم القيامة".

قال الطبري: "يقول: وأمان له من عذاب الله يوم القيامة، يوم الفزع الأكبر، من أن يروعه شيء، أو أن يفزعه ما يفزع الخلق".

وذلك يقتضي سلامته من الشيطان، والشر، والعقاب في هذه الأحوال الثلاثة وما بينها، وأنه سالم من النار والأهوال، ومن أهل دار السلام، فصلوات الله وسلامه عليه وعلى والده وعلى سائر المرسلين، وجعلنا من أتباعهم، إنه جواد كريم.

وخص- سبحانه- هذه الأوقات الثلاثة بالذكر، لأنها أحوج إلى الرعاية من غيرها.

قال سفيان بن عيينة: أحوج ما يكون المرء في ثلاثة مواطن: يوم يولد فيرى نفسه خارجا مما كان فيه. ويوم يموت فيرى قوما لم يكن عاينهم. ويوم يبعث فيرى نفسه في محشر عظيم.

{بَشَرًا سَوِيًّا} تَامّ الخلق.

قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا (١٨).

{قَالَتْ إِنِّي أَعُوذ بِالرَّحْمَنِ مِنْك إِنْ كُنْت تقيا} فتنتهي عني بتعوذي.

قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا (١٩).

قال {قال إنما أنا رسول ربك ليهب لَك غُلَامًا زَكِيًّا} بِالنُّبُوَّةِ.

قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا (٢٠).

{قَالَتْ أَنَّى يَكُون لِي غُلَام وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَر} بِتَزَوُّجٍ {وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا} زَانِيَة.

قَالَ كَذَلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَقْضِيًّا (٢١).

{قَالَ} الْأَمْر {كَذَلِكَ} مِنْ خَلْق غُلَام مِنْك مِنْ غَيْر أَب {قَالَ رَبّك هُوَ عَلَيَّ هَيِّن} أَيْ بِأَنْ يَنْفُخ بِأَمْرِي جِبْرِيل فِيك فَتَحْمِلِي بِهِ وَلِكَوْنِ مَا ذُكِرَ فِي مَعْنَى الْعِلَّة عَطَفَ عَلَيْهِ {وَلِنَجْعَلهُ آيَة لِلنَّاسِ} عَلَى قُدْرَتنَا {وَرَحْمَة مِنَّا} لِمَنْ آمَنَ بِهِ {وَكَانَ} خَلْقه {أَمْرًا مَقْضِيًّا} بِهِ فِي عِلْمِي فَنَفَخَ جِبْرِيل فِي جَيْب دِرْعهَا فَأَحَسَّتْ بِالْحَمْلِ فِي بطنها مصورا[1].

---

(١) قوله تعالى: {وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ} [مريم: ١٦].

قال الطبري: "يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: واذكر يا محمد في كتاب الله الذي أنزله عليك بالحق مريم ابنة عمران".

قال يحيى بن سلام: "يقول للنبي: أي: اقرأه عليهم. يعني: أمر مريم".

قال أبو هلال العسكري: "أي: أذكر أمرها، فإن فيه عجبا".

وقال السدي: "يقول: اذكر لأهل مكة أمر مريم".

قوله تعالى: {إِذِ انْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا} [مريم: ١٦]، أي: "إذ تباعدت عن =

=

أهلها، فاتخذت لها مكانًا مما يلي الشرق عنهم".

قال الطبري:"حين اعتزلت من أهلها، وانفردت عنهم، فتنحت واعتزلت من أهلها في موضع قبل مشرق الشمس دون مغربها، وقيل: إنها إنما صارت بمكان يلي مشرق الشمس، لأن ما يلي المشرق عندهم كان خيرا مما يلي المغرب، وكذلك ذلك فيما ذكر عند العرب".

قال قتادة:"أي: انفردت من أهلها"، " {مكانا شرقيا}، من قبل المشرق"، " شاسعا متنحيا".

قال السدي:"خرجت مريم إلى جانب المحراب لحيض أصابها، وهو قوله: {فانتبذت من أهلها مكانا شرقيا}: في شرقي المحراب".

قال ابن عباس:"خرجت مكانا شرقيا".

قال ابن عباس:"مكانا أظلتها الشمس أن يراها أحد منهم".

قال ابن عباس:"إني لأعلم خلق الله لأي شيء اتخذت النصارى المشرق قبلة، لقول الله: {فانتبذت من أهلها مكانا شرقيا}، فاتخذوا ميلاد عيسى قبلة".

وقال ابن عباس:"إن أهل الكتاب كتب عليهم الصلاة إلى البيت، والحج لله، وما صرفهم عنهما إلا تأويل ربك {إذ انتبذت من أهلها مكانا شرقيا}، فصلوا قبل مطلع الشمس".

قال الحسن: "اتّخذت النصارى المشرق قبلة لأنّ مريم انتبذت مكانًا شرقيًّا".

قال مجاهد:"قالت مريم عليها السلام: كنت إذا خلوت حدثني عيسى وكلمني وهو في بطني، وإذا كنت مع الناس سبح في بطني وكبر".

لما ذكر قصة زكريا ويحيى، وكانت من الآيات العجيبة، انتقل منها إلى ما هو أعجب منها، تدريجا من الأدنى إلى الأعلى فقال: {وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ} الكريم {مَرْيَمَ} عليها السلام، وهذا من أعظم فضائلها، أن تذكر في الكتاب العظيم، الذي

=

=

يتلوه المسلمون في مشارق الأرض ومغاربها، تذكر فيه بأحسن الذكر، وأفضل الثناء، جزاء لعملها الفاضل، وسعيها الكامل.

قال ابن كثير: «لما ذكر الله تعالى- قصة زكريا- عليه السلام وأنه أوجد منه في حال كبره وعقم زوجته ولدا زكيا طاهرا مباركا، وعطف بذكر قصة مريم، في إيجاده ولدها عيسى- عليه السلام منها من غير أب.

وهي مريم ابنة عمران- من سلالة داود- عليه السلام وكانت من بيت طاهر في بنى إسرائيل ... ونشأت نشأة عظيمة، فكانت إحدى العابدات الناسكات ...

وكانت في كفالة زوج أختها زكريا- عليه السلام ورأى لها من الكرامات الهائلة ما بهره ...".

والمعنى: وَاذْكُرْ - أيها الرسول الكريم- فِي الْكِتابِ أى في هذه السورة الكريمة، أو في القرآن الكريم، خبر مريم وقصتها إِذِ انْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِها مَكانًا شَرْقِيًّا.

أى: وقت أن تنحت عنهم واعتزلتهم في مكان يلي الناحية الشرقية من بيت المقدس، أو من بيتها الذي كانت تسكنه.

وفي التعبير بقوله- تعالى- إِذِ انْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِها: إشارة إلى شدة عزلتها عن أهلها إذ النبذ معناه الطرح والرمي، فكأنها ألقت بنفسها في هذا المكان لتختلى للعبادة والطاعة، والتقرب إلى الله- تعالى- بصالح الأعمال.

قال القرطبي: واختلف الناس لم انتبذت؟ فقال السدى: انتبذت لتطهر من حيض أو نفاس. وقال غيره: لتعبد الله وهذا حسن. وذلك أن مريم كانت وقفا على سدانة المعبد وخدمته والعبادة فيه، فتنحت من الناس لذلك، ودخلت في المسجد إلى جانب المحراب في شرقيه لتخلو للعبادة..

فقوله مَكانًا شَرْقِيًّا: أى: مكانا من جانب الشرق. والشرق- بسكون الراء- المكان الذي تشرق فيه الشمس. والشرق- بفتح الراء- الشمس.

=

=

وقال الرازي: واختلف المفسرون فيه على وجوه.

الأول: أنها لما رأت الحيض تباعدت عن مكانها المعتاد للعبادة لكي تنتظر الطهر فتغتسل وتعود فلما طهرت جاءها جبريل عليه السلام.

والثاني: أنها طلبت الخلوة لئلا تشتغل عن العبادة.

والثالث: قعدت في مشرقة للاغتسال من الحيض محتجبة بشيء يسترها.

والرابع: أنها كان لها في منزل زوج أختها زكرياء محراب على حدة تسكنه وكان زكريا إذا خرج أغلق عليها فتمنت (على) الله (أن) تجد خلوة في الجبل لتفلي رأسها فانفرج السقف لها فخرجت إلى المفازة فجلست في المشرفة وراء الجبل فأتاها الملك.

وخامسها: عطشت فخرجت إلى المفازة لتستقي واعلم أن كل هذه الوجوه محتمل وليس في اللفظ ما يدل على ترجيح واحد منها.

وإنما خص المكان بالشرق، لأنهم كانوا يعظمون جهة المشرق، حيث تطلع الأنوار ...".

قوله تعالى: {فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا} [مريم: ١٧].

قال الطبري:"يقول: فاتخذت من دون أهلها سترا يسترها عنهم وعن الناس، وذكر عن ابن عباس، أنها صارت بمكان يلي المشرق، لأن الله أظلها بالشمس، وجعل لها منها حجابا".

عن السدي:"{فاتخذت من دونهم حجابا}، من الجدران".

قال ابن عباس:"يعني: جبلًا. فكان الجبل بين مجلسها وبين بيت المقدس". وفي رواية: " سِتْرًا".

عن ابن عباس -رضي الله عنهما-، أنه قال لعمر بن الخطاب:"لم استحب النصارى الحجب على مذابحهم؟ قال: إنما يستحب النصارى الحجب على مذابحهم

=

=

ومناسكهم لقول الله سبحانه وتعالى: {فاتخذت من دونهم حجابا}".

قوله تعالى: {فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا} [مريم: ١٧]، أي:"فأرسلنا إليها الملَك جبريل".

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: فأرسلنا إليها حين انتبذت من أهلها مكانا شرقيا، واتخذت من دونهم حجابا: جبريل".

عن ابن عباس:"{فأرسلنا إليها روحنا}، يعني: جبريل". وروي عن الضحاك مثله.

قال قتادة:"أرسل إليها فيما ذكر لنا جبريل".

قال السدي:"فلما طهرت، يعني مريم من حيضها، إذا هي برجل معها، وهو قوله {فأرسلنا إليها روحنا فتمثل لها بشرا سويا}".

قال سعيد بن جبير:"نفخ جبريل في درعها، فبلغت حيث شاء الله".

قال أبو صالح:"بعث الله إليها ملكا فنفخ في جيبها، فدخل في الفرج".

قال عكرمة -مولى ابن عباس-: "إنّ مريم الصدِّيقة كانت تكون في المسجد ما دامت طاهرًا، فإذا حاضت تحوَّلَتْ إلى بيت خالتها، حتى إذا طهرت عادت إلى المسجد، فبينا هي تغتسل مِن الحيض إذ عرض لها جبريلُ - عليه السلام - في صورة شابٍّ أمرد، وضِيء الوجه، جعد الشعر، سَوِيِّ الخَلْق، فذلك قوله: {فأرسلنا إليها روحنا}، يعني: جبريل - عليه السلام -".

وقرأ أبو نهيك وأبو حيوة: «فأرسلنا إليها روحنا»، بفتح الراء.

قوله تعالى: {فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا} [مريم: ١٧]، أي:"فتمثَّل لها في صورة إنسان تام الخَلْق".

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: فتشبه لها في صورة آدمي سوي الخلق منهم، يعني في صورة رجل من بني آدم معتدل الخلق".

=

=

قال وهب بن منبه:"وجدت عندها جبريل قد مثله الله بشرا سويا".

عن السدي:"{فتمثل لها بشرا سويا}، يعني: سَوِيّ الخَلْق، بشرًا في صورة البشر وخلْقِهم".

قال أبيّ بن كعب:"تمثل لها روح عيسى في صورة بشر فحملته. قال: حملت الذي خاطبها دخل في فيها".

وقال أبيّ:"إنّ روح عيسى - عليه السلام - مِن جُمْلَة الأرواح التي أُخِذ عليها العهدُ في زمان آدم".

قال ابن عباس: "جاءها في صورة شاب أبيض الوجه جعد قطط حين طر شاربه".

وفي رواية:"في صورة الآدَمِيِّين، {سويا} يعني: مُعْتَدِلًا، شابًّا، أبيض الوجه، جعدًا قَطَطًا، حين اخْضَرَّ شاربُه".

قال المفسرون: "إنما تمثل لها في صورة الإنسان لتأنس بكلامه ولا تنفر عنه، ولو بدا لها في الصورة الملكية لنفرتْ ولم تقدر على السماع لكلامه".

وقوله: فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجابًا: تأكيد لانتباذها من أهلها، واعتزالها إياهم.

أى: اذكر وقت أن اعتزلت أهلها. في مكان يلي شرق بيت المقدس، فاتخذت بينها وبينهم حجابا وساترا للتفرغ لعبادة ربها.

ثم بين- سبحانه- ما أكرمها به في حال خلوتها فقال: فَأَرْسَلْنا إِلَيْها رُوحَنا فَتَمَثَّلَ لَها بَشَرًا سَوِيًّا.

أى: فأرسلنا إليها روحنا وهو جبريل- عليه السلام فتشبه لها في صورة بشر سوى معتدل الهيئة، كامل البنية، كأحسن ما يكون الإنسان.

يقال: رجل سوى، إذا كان تام الخلقة عظيم الخلق، لا يعيبه في شأن من شئونه إفراط أو تفريط.

والإضافة في قوله رُوحَنا

=

=

للتشريف والتكريم، وسمى جبريل- عليه السلام روحا لمشابهة الروح الحقيقية في أن كلا منهما مادة الحياة للبشر. فجبريل من حيث ما يحمل من الرسالة الإلهية تحيا به القلوب، والروح تحيا به الأجسام.

وإنما تمثل لها جبريل- عليه السلام في صورة بشر سوى، لتستأنس بكلامه، وتتلقى منه ما يلقى إليها من كلماته، ولو بدا لها في صورته التي خلقه الله- تعالى- عليها. لنفرت منه، ولم تستطع مكالمته.

وقوله: بَشَرًا سَوِيًّا. حالان من ضمير الفاعل في قوله فَتَمَثَّلَ لَها.

قوله تعالى {قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا} [مريم: ١٨]

قال الطبري:"يقول: فخافت مريم رسولنا، إذ تمثل لها بشرا سويا، وظنته رجلا يريدها على نفسها، فقالت: إني أعوذ أيها الرجل بالرحمن منك، تقول: أستجير بالرحمن منك أن تنال مني ما حرمه عليك إن كنت ذا تقوى له تتقي محارمه، وتجتنب معاصيه؛ لأن من كان لله تقيا، فإنه يجتنب ذلك".

قال الزجاج:"تأويله: إنى أَعُوذُ باللهِ مِنكَ، فإن كنت تقيًا فَستتعظُ بتعوذي باللهِ منك".

عن وهب بن منبه:"{قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا}، ولا ترى إلا أنه رجل من بني آدم".

عن مجاهد، في قوله: {قالت إني أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقيا}، قال: إنما خَشِيَتْ أن يكون إنما يريدها عن نفسها".

قال ابن جريج:"خشيت أن يكون إنما يريدها على نفسها".

قال السدي:"فلما رأته فزعت منه".

عن عطاء بن يسار: "أنّ جبريل أتاها في صورة رجل، فكشف الحجاب، فلمّا رأته تَعَوَّذَتْ منه، فنفخ في صَنِفَةِ دِرْعِها، فبلغت، فذُكِر ذلك في المدينة، فهُجِر زكريا

=

=

وتُرِك، وكان قبل ذلك يُسْتَفْتى، ويأتيه الناس، حتى إنّ كان لَيُسَلِّم على الرجل فما يُكَلِّمه".

قال محمد بن السائب الكلبي: "كان زكريا كَفِل مريم، وكانت أختُها تحته، وكانت تكون في المحراب، فلمّا أدركت كانت إذا حاضت أخرجها إلى منزلِهِ إلى أختها، فإذا طهرت رجعت إلى المحراب. فطَهُرَت مرة، فلما فرغت مِن غُسْلِها قعدت في مشرقة في ناحية الدار، وعلَّقت عليها ثوبًا سترةً، فجاء جبريل إليها في ذلك الموضع، فلمّا رأته {قالت إني أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقيا}".

قال أهل العلم: "ودلَّ على عفافها وورعها أنها تعوذت بالله من تلك الصورة الجميلة الفائقة في الحسن {قَالَتْ إني أَعُوذُ بالرحمن مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا}".

قال الماوردي:"لأن مريم خافت جبريل على نفسها حين دنا فقالت: {إِنِّي أَعُوذُ}، أي: أمتنع {بِالرَّحْمَنِ مِنكَ}، فاستغاثت بالله في امتناعها منه".

قال القشيري:"ومعنى قولها «بالرحمن»، ولم تقل: «بالله» - أي: بالذي يرحمنى فيحفظنى منك".

عن ابن زيد: "وذكر قَصَص مريم فقال: قد علمت أن التقيّ ذو نُهية حين قالت: {إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ}. يقول تعالى ذكره: فقال لها روحنا: إنما أنا رسول ربك يا مريم أرسلني إليك {لأَهَبَ لَكِ غُلامًا زَكِيًّا}".

قال الماوردي:"فإن قيل: فلم قالت: {إن كُنتَ تَقِيًّا}، و «التقي» مأمون وإنما يستعاذ من غير التقي؟

ففيه وجهان:

أحدهما: أن معنى كلامها: إن كنت تقيًا لله فستمتنع من استعاذتي وتنزجر عني من خوفه.

=

=

عن أبي وائل شقيق بن سلمة -من طريق عاصم بن أبي النجود- في قوله: {قالت إني أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقيا}، قال: لقد عَلِمَتْ مريمُ أنّ التَّقِيَّ ذو نُهْيَة".

قال الجصاص:"لأن التقي هو الذي يعيذ من استعاذ بالله".

قال مقاتل: {إن كنت تقيا} " يعني: مخلصا لله- ﷻ- تعبده".

قال الحسن: "أي: إن كنت تقيا له فاجتنبني".

وحكي القشيري: أي:"إن كنت تعرف الله وتكون متقيا مخالفة أمره فإنى أعوذ بالله منك وأحذر عقوبته".

قال الزمخشري:"أرادت إن كان يرجى منك أن تتقى الله وتخشاه وتحفل بالاستعاذة به، فإنى عائدة به منك كقوله تعالى: {بَقِيَّتُ اللهِ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ} [هود: ٨٦]".

الثاني: أنه كان اسمًا لرجل فاجر من بني إسرائيل مشهور بالعهر يُسَمَّى: تقيًا، فخافت أن يكون الذي جاءها هو ذلك الرجل المسمى: تقيًا الذي لا يأتي إلا للفاحشة، فقالت: إني أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقيًا، قاله بن عباس.

قال ابن الجوزي:"المعنى: إن كنت تتقي الله، فستنتهي بتعوذي منك، هذا هو القول عند المحققين".

عن عبد الله بن عباس -من طريق سعيد بن جبير- قال: "لَمّا بلغت مريم، فبينا هي في بيتها مُتَفَضِّلة إذ دخل عليها رجلٌ بغير إذن، فخشيت أن يكون دخل عليها ليغتالها، فقالت: {إني أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقيا}".

وفي قراءة علي ﷺ، وابن مسعود، وأبي رجاء: «إلا أن تكون تقيا».

قال الرازي: وفيه وجوه: أحدها: أرادت أن كان يرجى منك أن تتقي الله ويحصل ذلك بالاستعاذة به فإني عائذة به منك وهذا في نهاية الحسن لأنها علمت أنه لا تؤثر الاستعاذة إلا في التقي وهو كقوله: {وَذَرُواْ مَا بَقِىَ مِنَ الربا إِن كُنتُمْ مُّؤْمِنِينَ} [

=

=

البقرة: ٢٧٨] أي أن شرط الإيمان يوجب هذا لا أن الله تعالى يخشى في حال دون حال.

وثانيها: أن معناه ما كنت تقيًا حيث استحللت النظر إلي وخلوت بي.

وثالثها؛ أنه كان في ذلك الزمان إنسان فاجر اسمه تقى يتبع النساء فظنت مريم عليها السلام أن ذلك الشخص المشاهد هو ذلك التقى والأول هو الوجه.

قال ابن عطية بعد حكاية هذا القول - وهوأنه كان في ذلك الزمان إنسان فاجر اسمه تقى -: " وهو ضعيف ذاهب مع التخرص".

وقال أبو حيان: " وقول من قال تقي اسم رجل صالح، أو رجل فاسد ليس بسديد".

وقال شيخ الإسلام في الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح ٢/ ١٥٠: قال أبو وائل: علمت أن المتقي ذونَهْيَة، أي: تقواه ينهاه عن الفاحشة، وأنها خافت منه أن يكون قصده الفاحشة، فقالت: أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقيًا؛ أي: تتقي الله. وما يقول بعض الجهال من أنه كان فيهم رجل فاجر اسمه تقيٌّ فهو نوعُ الهذيان، وهو من الكذب الظاهر الذي لا يقوله إلا جاهل " ا.هـ

أى: قالت لجبريل- عليه السلام الذي تمثل لها في صورة بشر سوى: إنى أعوذ وألتجئ إلى الرحمن منك، إن كنت ممن يتقى الله ويخشاه.

وخصت الرحمن بالذكر، لتثير مشاعر التقوى في نفسه، إذ من شأن الإنسان التقى أن ينتفض وجدانه عند ذكر الرحمن، وأن يرجع عن كل سوء يخطر بباله.

وجواب هذا الشرط محذوف، أى إن كنت تقيا، فابتعد عنى واتركني في خلوتي لأتفرغ لعبادة الله- تعالى-.

وبهذا القول الذي حكاه القرآن عن مريم. تكون قد جمعت بين الاعتصام بربها، وبين تخويف من تخاطبه وترهيبه من عذاب الله. إن سولت له نفسه إرادتها بسوء.

=

=

كما أن قولها هذا، يدل على أنها قد بلغت أسمى درجات العفة والطهر والبعد عن الريبة، فهي تقول له هذا القول، وهي تراه بشرا سويا، وفي مكان بمعزل عن الناس ...

قوله تعالى: {قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا} [مريم: ١٩]

قال الطبري: "يقول تعالى ذكره: فقال لها روحنا: إنما أنا رسول ربك يا مريم أرسلني إليك {لأهب لك غلاما زكيا}".

قال الزمخشري: "أى: إنما أنا رسول من استعذت به، لأكون سببا في هبة الغلام بالنفخ في الدرع".

قال ابن عباس: "قال جبريل وتبسم: {إنما أنا رسول ربك لأهب لك غلاما زكيا}، يعني: لله مطيعًا، مِن غير بشر".

عن قتادة قوله: " {غلاما زكيا}، قال: صالحا".

قال القشيري: "تعرف جبريل إليها بما سكن روعها، وقرن مقالته بالتبشير لها بعيسى عليه السلام".

قال مجاهد: "زعموا نَفَخَ في جيب دِرْعِها وكُمِّها".

عن عاصم بن أبي النجود أنّه قرأ: {لِأَهَبَ لَكِ} مهموزة بالألف، وفي قراءة عبد الله: «لِيَهَبَ لَكِ» بالياء"، بمعنى: إنما أنا رسول ربك أرسلني إليك ليهب الله لك غلاما زكيا.

قال الزجاج: "أكثر القراءة: {لأهَبَ}، ورُوَيتَ «لِيَهبَ لكَ»، وكذلك قرأ أبو عمرو: «لِنَهَبَ لكِ كُلامًا زَكيا»".

أى: قال لها جبريل ليدخل السكون والاطمئنان على قلبها: إنما أنا يا مريم رسول ربك الذي استعذت به، والتجأت إليه، فلا تخافي ولا تجزعي وقد أرسلنى- سبحانه- إليك، لأهب لك بإذنه وقدرته غلاما زكيا، أى: ولدا طاهرا من الذنوب

=

=

والمعاصي، كثير الخير والبركات.

ونسب الهبة لنفسه، لكونه سببا فيها. وقرأ نافع وأبو عمرو: ليهب لك بالياء المفتوحة بعد اللام أى: ليهب لك ربك غلاما زكيا.

قال الرازي: لما علم جبريل خوفها قال: {إِنَّمَا أَنَاْ رَسُولُ رَبّكِ} ليزول عنها ذلك الخوف ولكن الخوف لا يزول بمجرد هذا القول بل لا بد من دلالة تدل على أنه جبريل عليه السلام وما كان من الناس فههنا يحتمل أن يكون قد ظهر معجز عرفت به جبريل عليه السلام ويحتمل أنها من جهة زكريا عليه السلام عرفت صفة الملائكة فلما قال لها: {إِنَّمَا أَنَاْ رَسُولُ رَبّكِ} أظهر لها من باطن جسده ما عرفت أنه ملك فيكون ذلك هو العلم وسأل القاضي عبد الجبار في تفسيره نفسه فقال: إذا لم تكن نبية عندكم وكان من قولكم أن الله تعالى لم يرسل إلى خلقه إلا رجالًا فكيف يصح ذلك وأجاب أن ذلك إنما وقع في زمان زكريا عليه السلام وكان رسولًا وكل ذلك كان عالمًا به وهذا ضعيف لأن المعجز إذا كان مفعولًا للنبي فأقل ما فيه أن يكون عليه السلام عالمًا به وزكريا ما كان عنده علم بهذه الوقائع فكيف يجوز جعله معجزًا له بل الحق أن ذلك إما أن يكون كرامة لمريم أو إرهاصًا لعيسى عليه السلام. ا.هـ

قوله تعالى: {قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ} [مريم: ٢٠].

قال ابن عباس:"يعني: زوجا".

قال السدي:"ولم يجامعني زوج".

قال الزجاج:"أي: لم يَمسَسْني بشر على جهة تَزويج".

قال الزمخشري:"جعل «المس»: عبارة عن النكاح الحلال، لأنه كناية عنه، كقوله تعالى: {مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمَسُّوهُن} [البقرة: ٢٣٧/ الأحزاب:٤٩]، {أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاء} [النساء: ٤٣/ المائدة:٦] والزنا ليس كذلك، إنما يقال فيه: فجر بها وخبث بها وما أشبه ذلك، وليس بقمن أن تراعى فيه الكنايات والآداب".

=

=

قوله تعالى: {وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا} [مريم: ٢٠]، أي:"ولم أكُ زانية".

قال الزجاج:"أي: ولا قرِبْت على غير حد التزويج".

عن سعيد بن جبير:"{ولم أك بغيا}، قال: زانية". وروي عن السدي مثله.

عن ابن عباس-من طريق جويبر، عن الضحاك-:"{ولم أك بغيا}: أي: مُومِسَة".

قال ابن الجوزي:"معنى الآية: ليس لي زوج، ولست بزانية، وإنما يكون الولد من هاتين الجهتين".

قال الزمخشري:"البغى: الفاجرة التي تبغى الرجال".

قال ابن الأنباري: "وإنما لم يقل: «بغية» لأنه وصف يغلب على النساء، فقلما تقول العرب: رجل بغي، فيجري مجرى حائض، وعاقر. وقال غيره: إنما لم يقل: «بغية» لأنه مصروف عن وجهه، فهو «فعيل» بمعنى: «فاعل»".

أى: قالت على سبيل التعجب مما سمعته: كيف يكون لي غلام، والحال أنى لم يمسني بشر من الرجال عن طريق الزواج الذي أحله الله- تعالى-، ولم أك في يوم من الأيام بغيا، أى: فاجرة تبغى الرجال. أو يبغونها للزنا بها. يقال: بغت المرأة تبغى إذا فجرت وتجاوزت حدود الشرف والعفاف.

قال صاحب الكشاف كما تقدم قريبا: جعل المس عبارة عن النكاح...

وعلى هذا الرأى الذي ذهب إليه صاحب الكشاف، يكون ما حكاه القرآن عن مريم من قولها: وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ ... المقصود به النكاح الحلال.

ويرى آخرون أن المقصود به ما يشمل الحلال والحرام، أى: ولم يمسسني بشر كائنا من كان لا بنكاح ولا بزنى، ويكون قوله: وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا من باب التخصيص بعد التعميم، ويؤيد هذا الرأى قوله- تعالى-: قالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ. قالَ كَذلِكِ اللهُ يَخْلُقُ ما يَشاءُ إِذا قَضى أَمْرًا فَإِنَّما يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ.

=

=

ويؤيده أيضا أن لفظ بَشَرٌ نكرة في سياق النفي فيعم كل بشر سواء أكان زوجا أم غير زوج.

قال القرطبي: قوله: وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا أى: زانية. وذكرت هذا تأكيدا لأن قولها: وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ يشمل الحلال والحرام ....

وقال الجمل في حاشيته ما ملخصه: وإنما تعجبت مما بشرها به جبريل لأنها عرفت بالعادة أن الولادة لا تكون إلا بعد الاتصال برجل. فليس في قولها هذا دلالة على أنها لم تعلم أنه- تعالى- قادر على خلق الولد ابتداء. كيف وقد عرفت أن أبا البشر قد خلقه الله- تعالى- من غير أب أو أم ...".

قوله تعالى: {قَالَ كَذَلِكِ} [مريم: ٢١].

قال الطبري:"قال لها جبريل: هكذا الأمر كما تصفين، من أنك لم يمسسك بشر ولم تكوني بغيا".

وقال الزجاج:"أي: الأمر على ما وصفت لكِ".

قوله تعالى: {قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ} [مريم: ٢١]، أي:"ولكن ربك قال: الأمر عليَّ سهل".

قال الطبري:"ولكن ربك قال: خلق الغلام الذي قلت أن أهبه لك علي هين لا يتعذر علي خلقه، وهبته لك من غير فحل يفتحلك".

قال ابن الجوزي:"المعنى: أنه يسير علي أن أهب لك غلاما من غير أب".

عن عبد الله بن عباس -من طريق جويبر، عن الضحاك-: {قال} جبريل: {كذلك} يعني: هكذا {قال ربك هو علي هين} يعني: خَلْقهُ مِن غير بشر".

قوله تعالى: {وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ} [مريم: ٢١]، أي:"وليكون هذا الغلام علامة للناس تدل على قدرة الله تعالى".

قال الطبري:"يقول: وكي نجعل الغلام الذي نهبه لك علامة وحجة على خلقي

=

=

أهبه لك".

قال ابن الجوزي:"أي: دلالة على قدرتنا كونه من غير أب".

قال مقاتل:"ولكي نجعله عبرة {للناس} يعني: في بني إسرائيل".

عن عبد الله بن عباس -من طريق جويبر، عن الضحاك- {ولنجعله آية للناس}: يعني: عِبْرة، والناس هنا للمؤمنين خاصة".

قوله تعالى: {وَرَحْمَةً مِنَّا} [مريم: ٢١]، أي:"ورحمة منَّا به وبوالدته وبالناس".

قال السدي:"لمن قبل عنه دينه".

عن عبد الله بن عباس -من طريق جويبر، عن الضحاك- {ورحمة منا}: "لِمَن صدَّق بأنه رسول الله".

قال الطبري:"يقول: ورحمة منا لك، ولمن آمن به وصدقه أخلقه منك".

قال مقاتل:"يعني ونعمة منا لمن تبعه على دينه".

قوله تعالى: {وَكَانَ أَمْرًا مَقْضِيًّا} [مريم: ٢١]، أي:"وكان وجود عيسى على هذه الحالة قضاء سابقًا مقدَّرًا، مسطورًا في اللوح المحفوظ، فلا بد مِن نفوذه".

قال الطبري:"يقول: وكان خلقه منك أمرا قد قضاه الله، ومضى في حكمه وسابق علمه أنه كائن منك".

قال وهب بن منبه:"أي: أن الله قد عزم على ذلك، فليس منه بد".

قال السدي:"يعني: كان عيسى أمرا من الله مكتوبا في اللوح المحفوظ أنه يكون".

عن عبد الله بن عباس -من طريق جويبر، عن الضحاك- {وكان أمرا مقضيا}: يعني: "كائنًا أن يكون مِن غير بشر".

قال مقاتل:"قضى الله- ﷻ- في اللوح المحفوظ أنه كائن لا بد".

قال الزجاج:"أي: وكانَ أمرًا سَابقًا في علم اللهِ ﷻ أنْ يقعَ".

قال ابن الجوزي:"أي: وكان خلقه أمرا محكوما به، مفروغا عنه، سابقا في علم الله

=

=

تعالى كونه".

وقوله تعالى:: {وَكَانَ أَمْرًا مَقْضِيًّا} [مريم: ٢١]، يحتمل أمرين:

أحدهما: أن يكون مِن تمام كلام جبريل لمريم، يخبرها أن هذا أمر مقدر في علم الله تعالى وقدره ومشيئته.

والثاني: أن يكون مِن خبر الله تعالى لرسوله محمد ﷺ، وأنه كنّى بهذا عن النفخ في فرجها، كما قال تعالى: {ومريم ابنت عمران التي أحصنت فرجها فنفخنا فيه من روحنا} [التحريم: ١٢].

أى: قال الأمر كذلك أى: كما ذكرت من أن بشرا لم يمسسك ومن أنك لم تكوني في يوم من الأيام بغيا. أو الأمر كذلك من أنى أرسلنى ربك لأهب لك غلاما زكيا من غير أن يكون له أب.

وقوله قالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ بيان لمظهر من مظاهر قدرة الله- تعالى- التي لا يعجزها شيء، أى: قالَ رَبُّكِ هُوَ أى: خلق ولدك من غير أب عَلَيَّ هَيِّنٌ أى: سهل يسير لأن قدرتنا لا يعجزها شيء.

وقوله- سبحانه- وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ تعليل لمعلل محذوف، أى: ولنجعل وجود الغلام منك من غير أن يمسك بشر آيَةً عظيمة، وأمرا عجيبا يدل دلالة واضحة على قدرتنا، أمام الناس جميعا، فإن قدرتنا لا يعجزها ذلك، كما لا يعجزها أن توجد بشرا من غير أب وأم كما فعلنا مع آدم. أو من غير أم كما فعلنا مع حواء، أو من أب وأم كما فعلنا مع سائر البشر.

وقوله: وَرَحْمَةً مِنَّا معطوف على ما قبله، أى: ولنجعل هذا الغلام الذي وهبناه لك من غير أب رحمة عظيمة منا لمن آمن به، واتبع دعوته. وَكانَ وجود هذا الغلام منك على هذه الكيفية أَمْرًا مَقْضِيًّا أى: مقدرا في الأزل مسطورا في اللوح المحفوظ، ولا بد من وقوعه بدون تغيير أو تبديل.

=

فَحَمَلَتْهُ فَانْتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا (٢٢).

{فَحَمَلَتْهُ فَانْتَبَذَتْ} تَنَحَّتْ {بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا} بَعِيدًا من أهلها.

فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَالَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسْيًا مَنْسِيًّا (٢٣).

{فَأَجَاءَهَا} جَاءَ بِهَا {الْمَخَاض} وَجَع الْوِلَادَة {إِلَى جِذْع النَّخْلَة} لِتَعْتَمِد عَلَيْهِ فَوَلَدَتْ وَالْحَمْل وَالتَّصْوِير وَالْوِلَادَة فِي سَاعَة {قَالَتْ يَا} لِلتَّنْبِيهِ {لَيْتَنِي مِتُّ قَبْل هَذَا} الْأَمْر {وَكُنْت نَسْيًا مَنْسِيًّا} شَيْئًا مَتْرُوكًا لَا يُعْرَف وَلَا يُذْكَر.

فَنَادَاهَا مِنْ تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا (٢٤).

{فَنَادَاهَا مِنْ تَحْتهَا} أَيْ جِبْرِيل وَكَانَ أَسْفَل مِنْهَا {أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبّك تَحْتك سَرِيًّا} نَهْر مَاء كَانَ قَدْ انْقَطَعَ.

وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا (٢٥).

{وَهُزِّي إِلَيْك بِجِذْعِ النَّخْلَة} كَانَتْ يَابِسَة وَالْبَاء زَائِدَة {تُسَاقِط} أَصْله بِتَاءَيْنِ قُلِبَتْ الثَّانِيَة سِينًا وأدغمت في السين وفي قراءة تركها {عَلَيْك رُطَبًا} تَمْيِيز {جَنِيًّا} صِفَته.

فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا (٢٦).

{فَكُلِي} مِنْ الرُّطَب {وَاشْرَبِي} مِنْ السَّرِيّ {وَقَرِّي عَيْنًا} بِالْوَلَدِ تَمْيِيز مُحَوَّل مِنْ الْفَاعِل أَيْ لِتَقَرّ عَيْنك بِهِ أَيْ تَسْكُن فَلَا تَطْمَح إِلَى غَيْره {فَإِمَّا} فِيهِ

=

وبذلك تكون هذه الآيات الكريمة، قد حكت لنا جانبا من حالة مريم ومن الحوار الذي جرى بينها وبين جبريل- عليه السلام الذي تمثل لها في صورة بشر سوى.

إدْغَام نُون إنْ الشَّرْطِيَّة فِي مَا الزَّائِدَة {تَرَيِنَّ} حُذِفَتْ مِنْهُ لَام الْفِعْل وَعَيْنه وَأُلْقِيَتْ حَرَكَتهَا عَلَى الرَّاء وَكُسِرَتْ يَاء الضَّمِير لِالْتِقَاءِ السَّاكِنَيْنِ {مِنْ الْبَشَر أَحَدًا} فَيَسْأَلك عَنْ وَلَدك {فَقُولِي إنِّي نَذَرْت لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا} أَيْ إمْسَاكًا عَنْ الْكَلَام فِي شَأْنه وَغَيْره مِنْ الْأَنَاسِيّ بِدَلِيلِ {فَلَنْ أُكَلِّم الْيَوْم إنْسِيًّا} أَيْ بَعْد ذَلِكَ[1].

---

(١) قوله تعالى: {فَحَمَلَتْهُ} [مريم: ٢٢].

قال ابن جريج: يقولون: إنه إنما نفخ في جيب درعها وكمها".

قال وهب:"ثم نفخ في جيب درعها حتى وصلت النفخة إلى الرحم فاشتملت".

قال وهب:"لما قال ذلك، يعني لما قال جبريل: {قال كذلك قال ربك هو علي هين}.... الآية استسلمت لأمر الله، فنفخ في جيبها ثم انصرف عنها".

عن عبد الله بن عباس -من طريق المغيرة بن عثمان- قال: "ما هي إلا أن حَمَلَتْ فوَضَعَتْ".

وقد جَّهَ ابنُ كثير قول ابن عباس بقوله: «كأنّه أخذه من ظاهر قوله تعالى: {فحملته فانتبذت به مكانا قصيا فأجاءها المخاض إلى جذع النخلة}».

ثم انتقده مستندًا للغة، فقال: «وهذا غريب... فالفاء وإن كانت للتعقيب، ولكن تعقيب كل شيء بحسبه، كما قال تعالى: {ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين ثم جعلناه نطفة في قرار مكين ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظاما} [المؤمنون: ١٢ - ١٤]، فهذه الفاء للتعقيب بحسبها، وقد ثبت في الصحيحين: أن بين كل صفتين أربعين يومًا. وقال تعالى: {ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فتصبح الأرض مخضرة} [الحج: ٦٣]».

قوله تعالى: {فَانْتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا} [مريم: ٢٢]، أي:"فتباعدت به إلى مكان بعيد عن الناس".

=

=

قال الطبري: "يقول: فاعتزلت بالذي حملته، وهو عيسى، وتنحت به عن الناس مكانا قصيا يقول: مكانا نائيا قاصيا عن الناس، يقال: هو بمكان قاص، وقصي بمعنى واحد، كما قال الراجز:

لَتَقْعُدِنَّ مَقْعَدَ القَصِيِّ... مِنِّي ذي القاذُورَةِ المَقْلِي".

عن مجاهد، قوله: "{مَكَانًا قَصِيًّا}، قال: قاصيا".

قال السدي: "لما بلغ أن تضع مريم، خرجت إلى جانب المحراب الشرقي منه فأتت أقصاه".

عن عبد الله بن عباس -من طريق عكرمة- قال: "وضَعَتْ مريمُ لثمانية أشهر؛ ولذلك لا يُولَد مولود لثمانية أشهر إلا مات، لِئَلّا تُسَبَّ مريمُ بعيسى".

عن عبد الله بن عباس -من طريق داود بن أبي هند، عن سعيد بن جبير- قال: "تَغَفَّلها جبريل، فنفخ في جيب درعها، ونهض عنها، واستمرَّ بها حملُها".

عن عبد الله بن عباس -من طريق جويبر، عن الضحاك-:... دنا جبريل، فنفخ في جيبها، فدخلت النفخةُ جوفَها، فاحتملت كما تحمل النساء في الرَّحِم والمشِيمَة، ووضعته كما تَضَعُ النساء".

عن مجاهد بن جبر -من طريق العلاء بن الحارث الكوفي- قال: قالت مريم: كنتُ إذا خَلَوْتُ حدَّثني عيسى وكلَّمني وهو في بطني، وإذا كنتُ مع النّاس سَبَّح في بطني وكَبَّر، وأنا أسمع".

عن الحسن البصري، قال: بلغني: أنّ مريم حَمَلَتْ لسبع أو تسع ساعات، ووَضَعَتْهُ مِن يومِها".

قال الحسن البصري: {فحملته} تسعة أشهر في بطنها".

قال الرازي: {فَحَمَلَتْهُ فَانْتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا (٢٢)}.

وفيه مسائل: المسألة الأولى: ذكر الله تعالى أمر النفخ في آيات فقال: {فَنَفَخْنَا فِيهِ

=

=

مِن رُّوحِنَا} [التحريم: ١٢] أي في عيسى عليه السلام كما قال لآدم عليه السلام: {وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى} [الحجر: ٢٩] وقال فنفخنا فيها لأن عيسى عليه السلام كان في بطنها واختلفوا في النافخ فقال بعضهم كان النفخ من الله تعالى لقوله: {فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا} وظاهره يفيد أن النافخ هو الله تعالى لقوله تعالى: {إِنَّ مَثَلَ عيسى عِندَ الله كَمَثَلِ ءادَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ} [آل عمران: ٥٩] ومقتضى التشبيه حصول المشابهة إلا فيما أخرجه الدليل، وفي حق آدم النافخ هو الله تعالى لقوله تعالى: {وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى} فكذا ههنا وقال آخرون: النافخ هو جبريل عليه السلام لأن الظاهر من قول جبريل عليه السلام: {لأَهَبَ لَكِ} [مريم: ١٩] أنه أمر أن يكون من قبله حتى يحصل الحمل لمريم عليها السلام فلا بد من إحالة النفخ إليه، ثم اختلفوا في كيفية ذلك النفخ على قولين: الأول: قول وهب إنه نفخ جبريل في جيبها حتى وصلت إلى الرحم.

الثاني: في ذيلها فوصلت إلى الفرج.

الثالث: قول السدي أخذ بكمها فنفخ في جنب درعها فدخلت النفخة صدرها فحملت فجاءتها أختها امرأة زكريا تزورها فالتزمتها فلما التزمتها علمت أنها حبلى وذكرت مريم حالها، فقالت امرأة زكريا إني وجدت ما في بطني يسجد لما في بطنك فذلك قوله تعالى: {مُصَدّقًا بِكَلِمَةٍ مّنَ الله} [آل عمران: ٣٩].

الرابع: أن النفخة كانت في فيها فوصلت إلى بطنها فحملت في الحال، إذ عرفت هذا ظهر أن في الكلام حذفًا وهو، وكان أمرًا مقضيًا، فنفخ فيها فحملته. ا.هـ

قلت قال ابن قتيبة في الاختلاف في اللفظ والرد على الجهمية لابن قتيبة (ص ٤٤): فنحن نؤمن بالنفخ وبالروح ولا نقول كيف. ذلك لأن الواجب علينا أن ننتهي في صفات الله حيث انتهى في صفته أو حيث انتهى رسوله ﷺ ولا نزيل اللفظ عما تعرفه العرب وتضعه عليه ونمسك عما سوى ذلك ا. هـ

=

=

وقال الإمام ابن القيم في كتاب الروح (ص١٥٤): فصل وأما استدلالهم بإضافتها إليه سبحانه بقوله تعالى ونفخت فيه من روحي فينبغي أن يعلم أن المضاف إلى الله سبحانه نوعان صفات لا تقوم بأنفسها كالعلم والقدرة والكلام والسمع والبصر فهذه إضافة صفة إلى الموصوف بها فعلمه وكلامه وإرادته وقدرته وحياته وصفات له غير مخلوقة وكذلك وجهه ويده سبحانه.

والثاني إضافة أعيان منفصلة عنه كالبيت والناقة والعبد والرسول والروح فهذه إضافة مخلوق إلى خالقه ومصنوع إلى صانعه لكنها إضافة تقتضي تخصيصا وتشريفا يتميز به المضاف عن غيره كبيت الله وإن كانت البيوت كلها ملكا له وكذلك ناقة الله والنوق كلها ملكه وخلقه لكن هذه إضافة إلى إلهيته تقتضي محبته لها وتكريمه وتشريفه بخلاف الإضافة العامة إلى ربوبيته حيث تقتضي خلقه وإيجاده فالإضافة العامة تقتضي الإيجاد والخاصة تقتضي الاختيار والله يخلق ما يشاء ويختار مما خلقه كما قال تعالى وربك يخلق ما يشاء ويختار وإضافة الروح إليه من هذه الإضافة الخاصة لا من العامة ولا من باب إضافة الصفات فتأمل هذا الموضع فإنه يخلصك من ضلالات كثيرة وقع فيها من شاء الله من الناس فإن قيل فما تقولون في قوله تعالى ونفخت فيه من روحي فأضاف النفخ إلى نفسه وهذا يقتضي المباشرة منه تعالى كما في قوله خلقت بيدي ولهذا فرق بينهما في الذكر في الحديث الصحيح في قوله فيأتون آدم فيقولون أنت آدم أبو البشر خلقك الله بيده ونفخ فيك من روحه وأسجد لك ملائكته وعلمك أسماء كل شيء فذكروا لآدم أربع خصائص اختص بها عن غيره ولو كانت الروح التي فيه إنما هي من نفخة الملك لم يكن له خصيصة بذلك وكان بمنزلة المسيح بل وسائر أولاده فإن الروح حصلت فيهم من نفخة الملك وقد قال تعالى فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فهو الذي سواه بيده وهو الذي نفخ فيه من روحه، قيل هذا

=

=

الموضع الذي أوجب لهذه الطائفة أن قالت بقدم الروح وتوقف فيها آخرون ولم يفهموا مراد القرآن فأما الروح المضافة إلى الرب فهي روح مخلوقة أضافها إلى نفسه إضافة تخصيص وتشريف كما بينا وأما النفخ فقد قال تعالى في مريم التي أحصنت فرجها فنفخنا فيه من روحنا وقد أخبر في موضع آخر أنه أرسل إليها الملك فنفخ في فرجها وكان النفخ مضافا إلى الله أمرا وإذنا وإلى الرسول مباشرة، يبقى ها هنا أمران أحدهما أن يقال فإذا كان النفخ حصل في مريم من جهة الملك وهو الذي ينفخ الأرواح في سائر البشر فما وجه تسمية المسيح روح الله وإذا كان سائر الناس تحدث أرواحهم من هذه الروح فما خاصية المسيح

الثاني أن يقال فهل تعلق الروح بآدم كانت بواسطة نفخ هذا الروح هو الذي نفخها فيه بإذن الله كما نفخها في مريم أم الرب تعالى هو الذي نفخها بنفسه كما خلقه بيده قيل لعمر الله انهما سؤالان مهمان فأما الأول فالجواب عنه أن الروح الذي نفخ في مريم هو الروح المضاف إلى الله الذي اختصه لنفسه وأضافه إليه وهو روح خاص من بين سائر الأرواح وليس بالملك الموكل بالنفخ في بطون الحوامل من المؤمنين والكفار فإن الله سبحانه وكل بالرحم ملكا ينفخ الروح في الجنين فيكتب رزق المولود وأجله وعمله وشقاوته وسعادته وأما هذا الروح المرسل إلى مريم فهو روح الله الذي اصطفاه من الأرواح لنفسه فكان لمريم بمنزلة الأب لسائر النوع فان نفخته لما دخلت في فرجها كان ذلك بمنزلة لقاح الذكر للأنثى من غير أن يكون هناك وطء وأما ما اختص به آدم فإنه لم يخلق كخلقة المسيح من أم ولا كخلقة سائر النوع من أب وأم ولا كان الروح الذي نفخ الله فيه منه هو الملك الذي ينفخ الروح في سائر أولاده ولو كان كذلك لم يكن لآدم به اختصاص وإنما ذكر في الحديث ما اختص به على غيره وهو أربعة أشياء خلق الله له بيده ونفخ فيه من روحه واسجاد ملائكته له وتعليمه أسماء كل شيء فنفخه فيه من روحه يستلزم

=

=

نافخا ونفخا ومنفوخا منه فالمنفوخ منه هو الروح المضافة إلى الله فمنها سرت النفخة في طينة آدم والله تعالى هو الذي نفخ في طينته من تلك الروح هذا هو الذي دل عليه النص وأما كون النفخة بمباشرة منه سبحانه كما خلقه بيده أن أنها حصلت بأمره كما حصلت في مريم عليها السلام فهذا يحتاج إلى دليل والفرق بين خلق الله له بيده ونفخه فيه من روحه أن اليد غير مخلوقة والروح مخلوقة والخلق فعل من أفعال الرب وأما النفخ فهل هو من أفعاله القائمة به أو هو مفعول من مفعولاته القائمة بغير المنفصلة عنه وهذا مما لا يحتاج إلى دليل وهذا بخلاف النفخ في فرج مريم فإنه مفعول من مفعولاته وأضافه إليه لأنه بإذنه وأمره فنفخه في آدم هل هو فعل له أو مفعول وعلى كل تقدير فالروح الذي نفخ منها في آدم روح مخلوقة غير قديمة وهي مادة روح آدم فروحه أولى أن تكون حادثة مخلوقة وهو المراد ا. هـ كلام ابن القيم.

فالروح كما تقدم ليست من صفات الله تعالى، بل هي خلق من مخلوقات الله تعالى. وأضيفت إلى الله تعالى في بعض النصوص إضافة ملك وتشريف، فالله خالقها ومالكها، يقبضها متى شاء، ويرسلها متى شاء.

فالقول في الروح، كالقول في (بيت الله) و (ناقة الله) و (عباد الله) و (رسول الله) فكل هذه مخلوقات أضيفت لله تعالى للتشريف والتكريم.

ومن النصوص التي أضيفت فيها الروح إلى الله: قوله تعالى: (ثم سواه ونفخ فيه من روحه) السجدة/ ٩. وهذا في حق آدم عليه السلام.

وقال سبحانه وتعالى عن آدم أيضا: (فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين) الحجر/ ٢٩.

وقال تعالى: (فاتخذت من دونهم حجابا فأرسلنا إليها روحنا فتمثل لها بشرا سويا * قالت إني أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقيا * قال إنما أنا رسول ربك لأهب لك

=

=

غلاما زكيا) مريم/ ١٧ - ١٩.

فالروح هنا هو عبد الله ورسوله جبريل الذي أرسله إلى مريم. وقد أضافه الله إليه في قوله (روحنا) فالإضافة هنا للتكريم والتشريف، وهي إضافة مخلوق إلى خالقه سبحانه وتعالى.

وفي حديث الشفاعة الطويل: (فيأتون موسى، فيقول: لست لها، ولكن عليكم بعيسى، فإنه روح الله وكلمته) رواه البخاري (٧٥١٠) ومسلم (١٩٣).

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: " فليس في مجرد الإضافة ما يستلزم أن يكون المضاف إلى الله صفة له، بل قد يضاف إليه من الأعيان المخلوقة وصفاتها القائمة بها ما ليس بصفة له باتفاق الخلق، كقوله تعالى (بيت الله) و (ناقة الله) و (عباد الله) بل وكذلك روح الله عند سلف المسلمين وأئمتهم وجمهورهم. ولكن إذا أضيف إليه ما هو صفة له وليس بصفة لغيره مثل كلام الله وعلم الله ويد الله ونحو ذلك كان صفة له " انتهى من "الجواب الصحيح" (٤/ ٤١٤).

وهذه القاعدة ذكرها شيخ الإسلام في مواضع، وحاصلها أن المضاف إلى الله نوعان:

١ - أعيان قائمة بذاتها، فهذه الإضافة للتشريف والتكريم، كبيت الله وناقة الله، وكذلك الروح، فإنها ليست صفة، بل هي عين قائمة بنفسها، ولهذا قال النبي ﷺ في حديث البراء بن عازب الطويل في وفاة الإنسان وخروج روحه: (فتخرج تسيل كما تسيل القطرة من في السقاء) (فيأخذها (يعني يأخذ ملك الموت الروح) فإذا أخذها لم يدعوها (يعني الملائكة) في يده طرفة عين حتى يأخذوها فيجعلوها في ذلك الكفن وفي ذلك الحنوط) (ويخرج منها كأطيب نفحة مسك وجدت على وجه الأرض قال فيصعدون بها). انظر روايات الحديث في "أحكام الجنائز" للألباني (ص ١٩٨).

=

=

وقال ﷺ: (إن الروح إذا قبض تبعه البصر) رواه مسلم (٩٢٠) أي: إذا خرجت الروح تبعها البصر ينظر إليها أين تذهب. فهذا كله يدل على أن الروح عين قائمة بنفسها.

٢- صفات لا تقوم بنفسها، بل لا بد لها من موصوف تقوم به، كالعلم والإرادة والقدرة، فإذا قيل: علم الله، وإرادة الله، فهذا من إضافة الصفة إلى الموصوف.

وقال ابن كثير رحمه الله: يقول- تعالى- مخبرا عن مريم، أنها لما قال لها جبريل عن الله- تعالى- ما قال: أنها استسلمت لقضائه- تعالى-، فذكر غير واحد من علماء السلف، أن الملك وهو جبريل- عليه السلام- عند ذلك نفخ في جيب درعها، فنزلت النفخة حتى ولجت في الفرج، فحملت بالولد بإذن الله- تعالى- ...

والمشهور عن الجمهور أنها حملت به تسعة أشهر. قال عكرمة: ثمانية أشهر.

وعن ابن عباس أنه قال: لم يكن إلا أن حملت فوضعت، وهذا غريب، وكأنه مأخوذ من ظاهر قوله- تعالى-: فَحَمَلَتْهُ فَانْتَبَذَتْ بِهِ مَكانًا قَصِيًّا فَأَجاءَهَا الْمَخاضُ إِلى جِذْعِ النَّخْلَةِ. فالفاء وإن كانت للتعقيب، لكن تعقيب كل شيء بحسبه.

فالمشهور الظاهر- والله على كل شيء قدير- أنها حملت به كما تحمل النساء بأولادهن ...".

والفاء في قوله- تعالى-: فَحَمَلَتْهُ.. هي الفصيحة أى: وبعد أن قال جبريل لمريم إنما أنا رسول ربك لأهب لك غلاما زكيا ... نفخ فيها فحملته، أى: عيسى، فانتبذت به، أى: فتنحت به وهو في بطنها مَكانًا قَصِيًّا أى: إلى مكان بعيد عن المكان الذي يسكنه أهلها.

يقال: قصى فلان عن فلان قصوا وقصوّا، إذا بعد عنه. ويقال: فلان بمكان قصى، أى: بعيد.

وجمهور العلماء على أن هذا المكان القصي، كان بيت لحم بفلسطين.

=

=

قال ابن عباس: أقصى الوادي، وهو وادي بيت لحم، فرارا من قومها أن يعيروها بولادتها من غير زوج».

قوله تعالى: {فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ} [مريم: ٢٣].

قال مقاتل:"ألجأها المخاض".

عن مجاهد، في قوله: " {فأجاءها المخاض}، قال: أَلْجَأَها".

وقال الضحاك:"فأدّاها".

قال السدي:"ألجأها المخاض إلى جذع النخلة".

قال قتادة:"اضطرّها إلى جذع النخلة".

عن عبد الله بن عباس -من طريق العوفي- في قوله: " {فأجاءها المخاض إلى جذع النخلة}، قال: كان جِذْعًا يابِسًا".

عن مجاهد بن جبر -من طريق جابر- في قوله: {إلى جذع النخلة}، قال: كانت عجوة".

أبي عبيد الله -من طريق هلال بن خباب- {فأجاءها المخاض}، قال: إلى جذع نخلة يابس، قد جِيء به لِيُبْنى به بيتٌ يُقال له: بيت لحم، فَحَرَّكَتْهُ، فإذا هو نخلة".

عن أبي قدامة، قال: "أُنْبِتَتْ لمريم نخلةٌ تَعَلَّقُ بها كما تَعَلَّقُ المرأة بالمرأة عند الولادة".

واختلف أهل العلم في المكان الذي انتبذت مريم بعيسى لوضعه، وأجاءَها إليه المخاض، على قولين:

أحدهما: أنه كان ذلك في أدنى أرض مصر، وآخر أرض الشأم، وذلك أنها هربت من قومها لما حملت، فتوجهت نحو مصر هاربة منهم. قاله وهب بن منبه.

الثاني: أنها خرجت لما حضر وضعها ما في بطنها إلى جانب المحراب الشرقي منه، فأتت أقصاه فألجأها المخاض إلى جِذْعِ النخلة، وهذا قول السدي.

=

=

قال ابن عباس:"ما هي إلا أن حملت فوضعت".

قوله تعالى: {قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا} [مريم: ٢٣]، أي:"فقالت: يا ليتني متُّ قبل هذا اليوم".

قال الطبري:"تقول: يا ليتني مِتُّ قبل هذا الكرب الذي أنا فيه، والحزن بولادتي المولود من غير بَعْل".

قال السدي:"قالت وهي تطلق من الحبل استحياء من الناس".

قوله تعالى: {وَكُنْتُ نَسْيًا مَنْسِيًّا} [مريم: ٢٣]، أي: وكنت شيئًا لا يُعْرَف، ولا يُذْكَر، ولا يُدْرَى مَن أنا؟".

قال الطبري:"قالت: ليتني كنت الشيء الذي ألقي، فترك ونسي".

عن السُّدِّيّ، قال:"قالت وهي تَطْلَقُ مِن الحَبَل استحياءً مِن الناس: {يا ليتني مت قبل هذا وكنت نسيا منسيا}. يقول: {نسيًا}: نُسِيَ ذِكْرِي. و {منسيا} يقول: نُسِيَ أَثَرِي، فلا يُرى لِي أَثَرٌ ولا عَيْنٌ".

قال السدي:"أي شيئا لا يعرف ولا يذكر".

قال قتادة:"لا أعرف ولا يدرى من أنا".

قال ابن زيد:"لم أكن في الأرض شيئًا قط".

عن ابن عباس، قوله: " {يَالَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسْيًا مَنْسِيًّا}، لم أخلق، ولم أك شيئا".

عن الربيع بن أنس:" {نَسْيًا مَنْسِيًّا}، قال: هو السقط".

عن الضحاك:" {وَكُنْتُ نَسْيًا مَنْسِيًّا}، قال: حيضة مُلْقاة". وروي عن عكرمة مثله.

قال مجاهد:"يا ليتني كنت حيضة مُلْقاةً على عَقِبَي أُمِّي". وروي عن سعيد بن جبير مثله.

قال الحسن: " {قالت يا ليتني مت قبل هذا} مِمّا خَشِيَتْ مِن الفضيحة".

=

=

قال محمد بن السائب الكلبي: " {وكنت نسيا منسيا}، قال: القوم ينزلون المنزل ثم يرتحلون، وينسون الشيءَ، فيُسمّى ذلك الشيء: النَّسا".

وقوله: فَأَجاءَهَا أى: فألجأها، يقال: أجأته إلى كذا، بمعنى: ألجأته واضطرته إليه. ويقال: جاء فلان. وأجاءه غيره، إذا حمله على المجيء، ومنه قول الشاعر:

وجار سار معتمدا علينا ... أجاءته المخافة والرجاء

قال الزمخشري: «أجاء: منقول من جاء، إلا أن استعماله قد تغير بعد النقل إلى معنى الإلجاء. ألا تراك تقول: جئت المكان وأجاءنيه زيد، كما تقول: بلغته وأبلغنيه ...".

والمخاض: وجع الولادة. يقال: مخضت المرأة- بكسر الخاء- تمخض- بفتحها- إذا دنا وقت ولادتها مأخوذ من المخض، وهو الحركة الشديدة، وسمى بذلك لشدة تحرك الجنين في بطن الأم عند قرب خروجه.

وجذع النخلة: ساقها الذي تقوم عليه.

أى: وبعد أن حملت مريم بعيسى، وابتعدت به- وهو محمول في بطنها- عن قومها، وحان وقت ولادتها. ألجأها المخاض إلى جذع النخلة لتتكئ عليه عند الولادة ...

فاعتراها في تلك الساعة ما اعتراها من هم وحزن وقالت: يا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هذا الحمل والمخاض الذي حل بي وَكُنْتُ نَسْيًا مَنْسِيًّا أى: وكنت شيئا منسيا متروكا، لا يهتم به أحد، وكل شيء نسى وترك ولم يطلب فهو نسى ونسيّ.

قال القرطبي: «والنّسى في كلام العرب: الشيء الحقير الذي من شأنه أن ينسى ولا يتألم لفقده كالوتد، والحبل للمسافر. وقرئ: نَسْيًا بكسر النون وهما لغتان مثل: الوتر والوتر ...".

قال الآلوسى ما ملخصه: «وإنما قالت ذلك مع أنها كانت تعلم ما جرى بينها وبين

=

=

جبريل من الوعد الكريم، استحياء من الناس، وخوفا من لائمتهم، أو حذرا من وقوع الناس في المعصية بسبب كلامهم في شأنها.

وتمنى الموت لمثل ذلك لا كراهة فيه- لأنه يتعلق بأمر ديني- نعم يكره أن يتمنى المرء الموت لأمر دنيوى كمرض أو فقر.. ففي صحيح مسلم، قال رسول الله ﷺ:

«لا يتمنين أحدكم الموت لضرر نزل به، فإن كان لا بد متمنيا فليقل: اللهم أحينى ما كانت الحياة خيرا لي، وتوفني إذا كانت الوفاة خيرا لي».

ومن ظن أن تمنى مريم الموت كان لشدة الوجع فقد أساء الظن.

قوله تعالى: {فَنَادَاهَا مِنْ تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنِي} [مريم: ٢٤].

عن قتادة:"{فَنَادَاهَا مِنْ تَحْتِهَا}، أي: من تحت النخلة".

قال الضحاك:"يعني: جبرائيل كان أسفل منها".

وفي قوله تعالى: {فَنَادَاهَا مِنْ تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنِي} [مريم: ٢٤]، قولان:

أحدهما: أن المنادي لها من تحتها جبريل، قاله ابن عباس، وسعيد بن جبير-في رواية-،وقتادة، والضحاك، والسدي، عمرو بن ميمون، والبراء.

قال ابن عباس:"ناداها جبرائيل ولم يتكلم عيسى حتى أتت قومها".

قال سعيد بن جبير:"جبريل من أسفل الوادي".

قال قتادة:"أي: الملك من تحت النخلة".

عن البراء بن عازِب، " {فناداها من تحتها}، قال: مَلَك".

الثاني: أنه عيسى ابنها، قاله أبيّ بن كعب، الحسن، وسعيد بن جبير، ومجاهد، وإبراهيم النخعي، ووهب بن منبه.

قال أبيّ بن كعب:"الذي خاطبها هو الذي حملته في جوفها ودخل من فيها".

قال ابن جرير الطبري:"وأولى القولين في ذلك عندنا قول من قال: الذي ناداها

=

=

ابنها عيسى، وذلك أنه من كناية ذكره أقرب منه من ذكر جبرائيل، فردّه على الذي هو أقرب إليه أولى من ردّه على الذي هو أبعد منه".

قال ابن زيد:"قالت: وكيف لا أحزن وأنت معي، لا ذات زوج فأقول من زوج، ولا مملوكة فأقول من سيدي، أي شيء عذري عند الناس: {يَالَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسْيًا مَنْسِيًّا}، فقال لها عيسى: أنا أكفيك الكلام".

وفي قوله: {مِنْ تَحْتِهَا} [مريم: ٢٤]، وجهان:

أحدهما: من أسفل منها في الأرض وهي فوقه على رأسه، قاله الكلبي.

الثاني: من بطنها، بالقبطية. حكاه االماوردي عن بعض المتكلمين.

ورويعن علقمة أنه قرأ: «فَخَاطَبَهَا مِنْ تَحْتِهَا».

وقرئ: «مَنْ تَحْتِهَا»، بفتح الميم.

عن الحسن البصري، قال:"مَن قرأ: {مِن تَحْتِها} فهو جبريل، ومَن قرأ: «مَن تَحْتَها» فهو عيسى".

قوله تعالى: {قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا} [مريم: ٢٤]، أي:"قد جعل ربك تحتك جَدْول ماء".

وفي قوله تعالى: {قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا} [مريم: ٢٤]، قولان:

أحدهما: أن «السريّ»: هو ابنها عيسى، لأن «السري»: هو الرفيع الشريف، مأخوذ من قولهم: فلان من سروات قومه، أي: من أشرافهم، قاله الحسن، وابن زيد.

فعلى هذا يكون عيسى هو المنادي من تحتها: {قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا}.

قال ابن زيد:""يريد نفسه، أي: سرى أسرى منه، قيل: فالذين يقولون «السري»: البحر، قال: ليس كذلك، لو كان كذلك لكان يكون إلى جنبها ولا يكون النهر تحتها".

عن جرير بن حازم، قال: "سألني محمد بن عباد بن جعفر: ما يقول أصحابُكم في

=

=

قوله: {قد جعل ربك تحتك سريا}؟ قال: فقلت له: سمعت قتادةَ يقول: الجدول. قال [محمد بن عباد بن جعفر]: فأخْبِرْ قتادةَ عنِّي -فإنما نزل القرآن بلغتنا-: أنّه الرَّجلُ السَّرِيُّ".

الثاني: أن «السريّ»: هو النهر، قاله ابن عباس، وسعيد بن جبير، ومجاهد، وقتادة، والضحاك، وإبراهيم، والسدي، معمر، وابن جريج، وعمرو بن ميمون الأوْدِيّ.

وذلك لتكون النخلة لها طعامًا، والنهر لها شرابًا، وعلى هذا يكون جبريل هو المنادي لها {قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا}.

قال ابن عباس:"السريّ: النهر الذي كان تحت مريم حين ولدته كان يجري يسمى سَرِيا".

وروي عن وهب بن منبه، قال:"يعني: ربيع الماء".

عن ابن عمر: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «إنّ السَّرِيَّ الذي قال الله لمريم: {قد جعل ربك تحتك سريا} نَهْرٌ أخرجه الله لها لِتَشْرَبَ مِنهُ».

عن البراء بن عازب، عن النبي ﷺ، في قوله: {قد جعل ربك تحتك سريا}، قال: «النهر».

عن عثمان بن مِحْصَنٍ، قال: "سُئِل عبد الله بن عباس عن قوله: {سريا}. قال: هو الجدول، أما سمعت قولَ الشاعر:

سَلْمٌ ترى الدّاليَّ منه أزوَرا... إذا يعُجُّ في السَّرِيِّ هرهرا؟".

عن عبد الله بن عباس: أنّ نافع بن الأزرق قال: أخبِرني عن قوله ﷻ: {تحتك سريا}. قال: السَّرِيُّ: النهر الصغير، وهو الجدول. قال: وهل تعرف العرب ذلك؟ قال: نعم، أما سمعت قول الشاعر:

سهل الخليقة ماجد ذو نائل... مثل السَّرِيِّ تَمُدُّه الأنهارُ؟".

عن عبد الله بن عباس -من طريق سعيد بن أبي صالح- في قول الله: {قد جعل

=

=

ربك تحتك سريا}، قال: الماءُ الذي كان تحتها".

قال عبد الله بن عباس: ضرب جبريل - عليه السلام -وقيل: عيسى عليه الصلاة والسلام- برجله الأرضَ، فظَهَرَتْ عينُ ماءٍ عَذْبٍ، وجَرى فحَيِيَت النخلة بعد يبسها فأورقت وأثمرت وأرطبت".

عن البراء بن عازب -من طريق أبي إسحاق- في قوله: {قد جعل ربك تحتك سريا}، قال: هو الجدول، وهو النهر الصغير".

عن سعيد بن جبير ": {قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا}، قال: هو الجدول، النهر الصغير، وهو بالنبطية: السريّ".

قال الطبري:"وأولى القولين في ذلك عندي بالصواب قيل من قال: عنى به الجدول-أي النهر الصغير-، وذلك أنه أعلمها ما قد أتاها الله من الماء الذي جعله عندها، وقال لها {وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا فَكُلِي} من هذا الرطب {وَاشْرَبِي} من هذا الماء {وَقَرِّي عَيْنًا} بولدك، والسريّ معروف من كلام العرب أنه النهر الصغير؛ ومنه قول لبيد:

فَتَوَسَّطا عُرْضَ السَّريّ وَصَدَّعا... مَسْجُورَةٌ مُتَجاوِرًا قُلامُها

ويُروى: فينا مسجورة، ويُروى أيضًا: فغادرا".

وفي قوله تعالى {سَرِيًّا} [مريم: ٢٤]، قولان:

احدهما: أنه لفظ أعجمي.

عن مجاهد: قوله: " {سريا}، قال: نهرا بالسريانية".

عن الضحاك، قال: "جدول صغير بالسريانية".

وعن سعيد بن جبير قوله: " {سريا}، قال: نهرا بالقبطية".

الثاني: أنه عربي مشتق من: «السراية»، فَسُمِّيَ: «السريّ»، لأنه يجري فيه، ومنه قول الشاعر:

=

=

سهل الخليقة ماجد ذو نائل... مثل السريّ تمدّه الأنهار

قال قتادة:"«السريّ»: هو الجدول، تسميه أهل الحجاز".

قال الماوردي:"وقيل: إن اسم السري يطلق على ما يعبره الناس من الأنهار وثبًا، وروى أبان بن تغلب في تفسيره القرآن خبرًا عن عدد لم يسمهم أن رسول الله ﷺ بعث شداد بن ثمامة مصدقًا لبني كعب بن مذحج وكتب له كتابًا: «عَلَى مَا سَقَتْهُ المَرَاسِمُ وَالجَدَاوِلُ وَالنَّوَاهِرُ وَالدَّوَافِعُ العُشْرُ وَنِصْفُ العشر بقيمة عَدْلٍ إِلاَّ الضَّوَامَرَ وَاللَّوَاقِحَ وَمَا أطل الصور من الجفن. وَفِي كُلِّ أَرْبَعِينَ شَاةً شَاةٌ إِلاَّ العَقِيلَ وَالأَكِيلَ وَالرِبِيَّ. ومن كل ثلاثين بقرةً جِذْعٌ أَوْ جِذْعَةٌ إِلاَّ العَاقِرَ وَالنَّاشِطَ وَالرَّاشِحَ. وَمِن كُلِّ خَمْسٍ مِنَ الإِبِلِ المُوَّبلَةِ مُسِنَّةٌ مِنَ الغَنَمِ. وَلاَ صَدَقَةَ فِي الخَيلِ وَلاَ فِي الإِبِلِ العَامِلةِ. شَهِدَ جِرِيرٌ بِن عَبدِ اللهِ بن جَابِرٍ البَجْلِي وَشَدَّادُ بن ثُمَامَةَ وَكَتَبَ المُغِيرَةُ بن شُعْبةِ».

قال الماروردي:"فالمراسل العيون، والجداول الأنهار الصغار، والنواهر الدوالي، والدوافع الأودية، والضوامر ما لم تحمل من النخل، واللواقح الفحول، والجفن الكرم، وما أطلاه من الزرع عفو، والعقيل فحل الغنم والأيل الذي يُرَبَّى للأكل. والربي التي تربي ولدها والعاقر من البقر التي لا تحمل، والناشط الفحل الذي ينشط من أرض إلى أرض والراشح الذي يحرث الأرض".

وقوله مِنْ تَحْتِها فيه قراءتان سبعيتان: إحداهما: بكسر الميم في لفظ مِنْ على أنه حرف جر، وخفض تاء تَحْتِها على أنه مجرور بحرف الجر والفاعل محذوف أى: فناداها جبريل من مكان تحتها، أى أسفل منها ...

والثانية: بفتح الميم في لفظ مِنْ على أنه اسم موصول، فاعل نادى وبفتح التاء في تَحْتِها على الظرفية، أى: فناداها الذي هو تحتها، وهو جبريل- عليه السلام.

أى: فناداها ابنها عيسى الذي كان أسفل منها عند ما وضعته. مطمئنا إياها بعد أن

=

=

قالت: يا ليتني مت قبل هذا الذي حدث لي.. ناداها بقوله: أَلَّا تَحْزَنِي يا أماه قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا أى جدولا صغيرا من الماء، لتأخذى منه ما أنت في حاجة إليه، وسمى النهر الصغير من الماء سريا، لأن الماء يسرى فيه.

وقيل: المراد بالسرى: عيسى- عليه السلام- مأخوذ من السّرو بمعنى الرفعة والشرف.

يقال: سرو الرجل يسرو- كشرف يشرف- فهو سرىّ، إذا علا قدره وعظم أمره ومنه قول الشاعر:

لا يصلح الناس فوضى لا سراة لهم ... ولا سراة إذا جهالهم سادوا

أى: قد جعل ربك تحتك يا مريم إنسانا رفيع القدر، وهو ابنك عيسى، والجملة الكريمة تعليل لانتفاء الحزن المفهوم من النهى بقوله: أَلَّا تَحْزَنِي قال بعض العلماء ما ملخصه: «وأظهر القولين عندي أن السرى في الآية النهر الصغير لأمرين:

أحدهما: القرينة من القرآن، لأن قوله بعد ذلك فَكُلِي وَاشْرَبِي قرينة على أن ذلك المأكول والمشروب هو ما تقدم الامتنان به في قوله: قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا.

الثاني: ما جاء عن ابن عمر من أنه سمع النبي ﷺ يقول: «إن السرى الذي قال الله لمريم: قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا نهر أخرجه الله لها لتشرب منه».

فهذا الحديث- وإن كانت طرقه لا يخلو شيء منها من ضعف- أقرب إلى الصواب من دعوى أن السرى عيسى بغير دليل يجب الرجوع إليه».

قوله تعالى: {وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ} [مريم: ٢٥]، أي:"وحَرِّكي جذع النخلة".

قال الطبري:"ذكر أن الجذع كان جذعًا يابسًا، وأمرها أن تهزّه، وذلك في أيام الشتاء، وهزّها إياه كان تحريكه".

عن ابن زيد:"{وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ}، قال: حركيها".

=

=

قال ابن عباس:"كان جذعًا يابسًا، فقال لها: هزّيه: {تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا}".

وروي عن مجاهد:"{وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ}، قال: النخلة"، وفي رواية قال:"العجوة؟".

قوله تعالى: {تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا} [مريم: ٢٥]، أي:"تُسَاقِطْ عليك رطبًا غَضًّا جُنِيَ مِن ساعته".

قال وهب:"فكان الرطب يتساقط عليها وذلك في الشتاء".

قال السدي:"وكان جذعا منها مقطوعا فهزّته، فإذا هو نخلة، وأجري لها في المحراب نهر، فتساقطت النخلة رطبًا جنيا فقال لها: {فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا}".

عن عبد المؤمن، قال: "سمعتُ أبا نهيك [عثمان بن نهيك البصري] يقول: كانت نخلةً يابسةً".

عن عمرو بن ميمون، أنه تلا هذه الآية: {وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا}، فقال: "ما من شيء خير للنفساء من التمر والرطب".

عن الربيع بن خثيم، قال:"ليس للنفساء عندي دواءٌ مثل الرُّطبِ، ولا للمريض مثل العسل".

عن شقيق بن سلمة-من طريق عاصم- قال: لو علِم اللهُ أنّ شيئًا للنفساء خيرٌ مِن الرُّطَب لأمر مريم به".

عن عامر الشعبي، قال: "كتب قيصر إلى عمر بن الخطاب: إنّ رُسُلي أتتني مِن قِبَلِك، فزَعَمَتْ أنّ قِبَلَكم شجرةً ليست بِخَلِيقَةٍ لِشَيء مِن الخير! تُخْرِج مثلَ آذان الحمير، ثم تَشَقَّق عن مِثل اللؤلؤ الأبيض، ثم تصير مِثْلَ الزُمُرُّد الأخضر، ثم تصير مثل الياقوت الأحمر، ثم تَيْنَعُ وتنضج، فتكون كأطيب فالوذَج أُكِل، ثم تيبس فتكون عِصْمَةً للمقيم، وزادًا للمسافر، فإن تكن رسلي صدَّقتني فلا أرى هذه

=

=
الشجرة إلا مِن شجر الجنة. فكتب إليه عمر: أن رسلك قد صدَّقَتْك، هذه الشجرة عندنا، هي الشجرة التي أنبتها الله على مريم حين نَفِسَت بعيسى". وهو أثر منقطع.
أى: وحركي نحوك أو جهة اليمين أو الشمال جذع النخلة تُساقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا وهو ما نضج واستوى من الثمر جَنِيًّا أى: صالحا للأخذ والاجتناء فَكُلِي من ذلك الرطب وَاشْرَبِي من ذلك السرى، وَقَرِّي عَيْنًا أى: طيبي نفسا بوجودى تحتك، واطردى عنك الأحزان.
يقال: قرت عين فلان، إذا رأت ما كانت متشوقة إلى رؤيته. مأخوذ من القرار بمعنى الاستقرار والسكون، لأن العين إذا رأت ما تحبه سكنت إليه، ولم تنظر إلى غيره.
وقد أخذ العلماء من هذه الآية الكريمة، أن مباشرة الأسباب في طلب الرزق أمر واجب وأن ذلك لا ينافي التوكل على الله، لأن المؤمن يتعاطى الأسباب امتثالا لأمر ربه مع علمه ويقينه أنه لا يقع في ملكه- سبحانه- إلا ما يشاؤه ويريده.
وهنا قد أمر الله- تعالى- مريم- على لسان مولودها- بأن تهز النخلة ليتساقط لها الرطب، مع قدرته- سبحانه- على إنزال الرطب إليها من غير هز أو تحريك، ورحم الله القائل:
ألم تر أن الله قال لمريم ... وهزي إليك الجذع يساقط الرطب
ولو شاء أن تجنيه من غير هزه ... جنته، ولكن كل شيء له سبب
كما أخذوا منها أن خير ما تأكله المرأة بعد ولادتها الرطب، قالوا: لأنه لو كان شيء أحسن للنفساء من الرطب لأطعمه الله- تعالى- لمريم.
قوله تعالى: {فَكُلِي وَاشْرَبِي} [مريم: ٢٦]، أي:"فكلي من الرطب، واشربي من الماء".
قال الطبري:"فكلي من الرطب الذي يتساقط عليك، واشربي من ماء السريّ
=

=

الذي جعله ربك تحتك، لا تخشي جوعًا ولا عطشًا".

قوله تعالى: {وَقَرِّي عَيْنًا} [مريم: ٢٦]، أي:"وطيبي نفسًا بالمولود".

قال الطبري:"يقول: وطيبي نفسا وافرحي بولادتك إياي ولا تحزني، أي: ولتقرِر عينك بولدك".

قوله تعالى: {فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا} [مريم: ٢٦]، أي:"فإن رأيت من الناس أحدًا فسألك عن أمرك".

قال الطبري:"يقول: فإن رأيت من بني آدم أحدا يكلمك أو يسائلك عن شيء أمرك وأمر ولدك وسبب ولادتكه".

قوله تعالى: {فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا} [مريم: ٢٦]، أي:"فقولي له: إني أَوْجَبْتُ على نفسي لله سكوتًا".

قال الطبري:"يقول: فقولي: إني أوجبت على نفسي لله صمتا".

عن أنس بن مالك:"{إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا}، صمتا".

قال ابن عباس:"يعني بالصوم: الصمت".

قال قتادة:"أما قوله: {صَوْما}، فإنها صامت من الطعام والشراب والكلام".

قوله تعالى: {فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا} [مريم: ٢٦]، أي:"فلن أكلم اليوم أحدًا من الناس".

قال الطبري:"ألا أُكَلِّم أحدًا من بني آدم اليوم".

قال الضحاك:"كان من بني إسرائيل من إذا اجتهد صام من الكلام كما يصوم من الطعام، إلا مِن ذكر الله، فقال لها ذلك، فقالت: إني أصوم من الكلام كما أصوم مِنْ الطعام، إلا من ذكر الله؛ فلما كلموها أشارت إليه، فقالوا: {كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا}، فأجابهم فقال {إِنِّي عَبْدُ اللهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ}، حتى بلغ {ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ}".

=

=

واختلفوا في السبب الذي من أجله أمرها بالصوم عن كلام البشر، على أقوال:

أحدها: أمرها بذلك لأنه لم يكن لها حجة عند الناس ظاهرة، وذلك أنها جاءت وهي أيِّم بولد بالكفّ عن الكلام ليكفيها فأمرت الكلام ولدها. وهذا معنى قول عبد الله بن مسعود، وابن زيد، ووهب بن منبه.

عن حارثة، قال: "كنت عند ابن مسعود، فجاء رجلان فسلم أحدهما ولم يسلم الآخر، فقال: ما شأنك؟ فقال أصحابه: حلف أن لا يكلم الناس اليوم، فقال عبد الله: كلم الناس وسلم عليهم، فإن تلك امرأة علمت أن أحدا لا يصدّقها أنها حملت من غير زوج، يعني بذلك: مريم عليها السلام".

قال ابن زيد:"لما قال عيسى لمريم {لا تَحْزَنِي}، قالت: وكيف لا أحزن وأنت معي، لا ذات زوج ولا مملوكة، أي شيء عذري عند الناس: {يَالَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسْيًا مَنْسِيًّا}، فقال لها عيسى: أنا أكفيك الكلام: {فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا}، قال: هذا كله كلام عيسى لأمه".

عن وهب بن منبه:"{فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا}، فإني سأكفيك الكلام".

الثاني: إنما كان ذلك آية لمريم وابنها. وهذا قول قتادة.

عن قتادة، في قوله:"{إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا}، قال في بعض الحروف: «صمتا»، وذلك إنك لا تلقى امرأة جاهلة تقول: نذرت كما نذرت مريم، ألا تكلم يومًا إلى الليل، وإنما جعل الله تلك آية لمريم ولابنها، ولا يحلّ لأحد أن ينذر صمت يوم إلى الليل".

الثالث: كانت صائمة في ذلك اليوم، والصائم في ذلك الزمان كان يصوم عن الطعام والشراب وكلام الناس، فأذن لمريم في قدر هذا الكلام ذلك اليوم وهي

=

فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ قَالُوا يَامَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا (٢٧).

{فَأَتَتْ بِهِ قَوْمهَا تَحْمِلهُ} حَال فَرَأَوْهُ {قَالُوا يَا مَرْيَم لَقَدْ جِئْت شَيْئًا فَرِيًّا} عَظِيمًا حَيْثُ أَتَيْت بِوَلَدٍ مِنْ غَيْر أَب.

يَاأُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا (٢٨).

=

صائمة. وهذا قول السدي.

قال السدي:"فكان من صام في ذلك الزمان لم يتكلم حتى يمسي، فقيل لها: لا تزيدي على هذا".

ولفظ فَإِمَّا مركب من إن الشرطية، وما المزيدة لتوكيد الشرط وتَرَينَّ فعل الشرط، وجوابه فَقُولِي وبين هذا الجواب وشرطه كلام محذوف يرشد إليه السياق.

والمعنى: أن عيسى- عليه السلام قال لأمه: لا تحزني يا أماه بسبب وجودى بدون أب، وقرى عينا، وطيبي نفسا لذلك، فإما ترين من البشر أحدا كائنا من كان فسألك عن أمرى وشأنى فقولي له إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمنِ صَوْمًا أى: صمتا عن الكلام فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا لا في شأن هذا المولود ولا في شأن غيره، وإنما سأترك الكلام لابني ليشرح لكم حقيقة أمره.

قالوا: إنما منعت من الكلام لأمرين: أحدهما: أن يكون عيسى هو المتكلم عنها ليكون أقوى لحجتها في إزالة التهمة عنها، وفي هذا دلالة على تفويض الكلام إلى الأفضل.

والثاني: «كراهة مجادلة السفهاء، وفيه أن السكوت عن السفيه واجب، ومن أذل الناس سفيه لم يجد مسافها».

وبذلك نرى أن هذه الآيات الكريمة قد حكت لنا بأسلوبها البليغ الحكيم ما فعلته مريم عند ما شعرت بالحمل وما قالته عند ما أحست بقرب الولادة، وما قاله لها مولودها عيسى من كلام جميل طيب، لإدخال الطمأنينة على قلبها.

{يَا أُخْت هَارُون} هُوَ رَجُل صَالِح أَيْ يَا شَبِيهَته فِي الْعِفَّة {مَا كَانَ أَبُوك امْرَأَ سَوْء} أَيْ زَانِيًا {وَمَا كَانَتْ أُمّك بَغِيًّا} أَيْ زَانِيَة فَمِنْ أَيْنَ لَك هَذَا الولد.

فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا (٢٩).

{فَأَشَارَتْ} لَهُمْ {إِلَيْهِ} أَنْ كَلِّمُوهُ {قَالُوا كَيْفَ نكلم من كان} أي وجد {في المهد صبيا}.

قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا (٣٠).

{قَالَ إِنِّي عَبْد الله آتَانِي الْكِتَاب} أَيْ الإنجيل {وجعلني نبيا}.

وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا (٣١).

{وجعلني مباركا أينما كُنْت} أَيْ نَفَّاعًا لِلنَّاسِ إخْبَار بِمَا كُتِبَ له {وأوصاني بالصلاة والزكاة} أمرني بهما {ما دمت حيا}.

وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا (٣٢).

{وبرا بوالدتي} منصوب يجعلني مقدرا {وَلَمْ يَجْعَلنِي جَبَّارًا} مُتَعَاظِمًا {شَقِيًّا} عَاصِيًا لِرَبِّهِ.

وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا (٣٣).

{وَالسَّلَام} مِنْ الله {عَلَيَّ يَوْم وُلِدْت وَيَوْم أَمُوت وَيَوْم أُبْعَث حَيًّا} يُقَال فِيهِ مَا تقدم في السيد يحيى قال تعالى[1].

---

(١) قوله تعالى: {فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ} [مريم: ٢٧]، أي: "فأتت مريم قومها تحمل مولودها من المكان البعيد".

قال الطبري: "فلما قال ذلك عيسى لأمه اطمأنت نفسها، وسلَّمت لأمر الله، وحملته حتى أتت به قومها".

=

=

قال وهب:"أنساها يعنى مريم كرب البلاء وخوف الناس ما كانت تسمع من الملائكة من البشارة بعيسى، حتى إذا كلَّمها، يعني عيسى، وجاءها مصداق ما كان الله وعدها احتملته ثم أقبلت به إلى قومها".

قال السدي:"لما ولدته ذهب الشيطان، فأخبر بني إسرائيل أن مريم قد ولدت، فأقبلوا يشتدّون، فدعوها: {فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ}".

عن عبد الله بن عباس -من طريق الكلبي، عن أبي صالح- في قوله: " {فأتت به قومها تحمله}، قال: بعد أربعين يومًا، بعد ما تعالَّت مِن نِفاسها".

قوله تعالى: {قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا} [مريم: ٢٧]، أي:"قالوا لها: يا مريم لقد جئت أمرًا عظيمًا مفترى".

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: فلما رأوا مريم، ورأوا معها الولد الذي ولدته، قالوا لها: يا مريم لقد جئت بأمر عجيب، وأحدثت حدثا عظيما. وكل عامل عملا أجاده وأحسنه فقد فراه، كما قال الراجز:

قَدْ أَطْعَمَتنِي دَقَلا حُجْرِيًّا... قَدْ كُنْتِ تَفْرِينَ بِهِ الفَرِيًّا".

عن مجاهد وقتادة:"{شَيْئًا فَرِيًّا}: لقد أَتَيْتِ"،

عن مجاهد: من طريق ابن أبي نَجِيح- في قوله: " {لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا}: عظيمًا".

عن قتادة والسدي، قوله:"{لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا}: عظيما". وروي عن سفيان الثوري، والكلبي مثله.

قال وهب:"لما رأوها ورأوه معها، قالوا: يا مريم: {لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا}، أي: الفاحشة غير المقاربة".

قال سعيد بن جبير:"كان في زمان بني إسرائيل في بيت المقدس عند عين سلوان عين، فكانت المرأة إذا قارفت، أتوها بها فشربت منها، فإن كانت بريئة لم تضرها، وإلا ماتت. فلما حملت مريم أتوها بها على بغلة فعثرت بها فدعت الله إن يعقم

=

=

رحمها، فعقم من يومئذ، فلما أتتها شربت منها فلم تزدد إلا خيرا، ثم دعت الله إن لا يفضح بها امرأة مؤمنة، فغارت العين".

قال محمد بن السائب الكلبي: "حمل يوسف النجار مريمَ وابنَها عيسى؟ إلى غار، ومكثت أربعين يومًا حتى طهُرَت مِن نفاسها، ثم حملته مريم؟ إلى قومها، فكلَّمها عيسى - عليه السلام - في الطريق، فقال: يا أُمّاه، أبشِرِي؛ فإنِّي عبدُ الله ومسيحُه، فلمّا دخلت على أهلها ومعها الصبيُّ بَكَوا وحزنوا، وكانوا أهلَ بيت صالحين، و {قالُوا يا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا}".

عن نوف البِكالِيِّ -من طريق أبي عمران الجَوْني- قال: "وخرج قومُها في طلبها، وكانت من أهل بيت نبوة وشرف، فلم يُحِسُّوا منها شيئًا، فرأوا راعي بقر فقالوا: رأيتَ فتاةً كذا وكذا نَعْتُها؟ قال: لا، ولكني رأيتُ الليلة مِن بقري ما لم أره منها قطُّ. قالوا: وما رأيتَ؟ قال: رأيتُها سُجَّدًا نحو هذا الوادي. -قال عبد الله بن أبي زياد: وأحفظ عن سيّار أنه قال: رأيت نورًا ساطعًا-. فتوجَّهُوا حيث قال لهم، فاستقبلتهم مريم، فلمّا رأتهم

قعدت، وحملت ابنها في حِجْرها، فجاءوا حتى قاموا عليها، {قالُوا يا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا}: أمرًا عظيمًا".

عن أبي بكر بن عياش، "قال: في قراءة أُبيّ [بن كعب]: (قالُوا يا ذا المَهْدِ)".

وقوله- سبحانه-: فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَها تَحْمِلُهُ ... معطوف على كلام محذوف يفهم من سياق القصة.

قال ابن عاشور: دلت الفاء على أنّ مريم جاءت أهلها عقب انتهاء الكلام الذي كلّمها ابنها.

وفي إنجيل لوقا: أنها بقيتْ في بيت لحم إلى انتهاء واحد وأربعين يومًا، وهي أيام التطهير من دم النّفاس، فعلى هذا يكون التّعقيب المستفاد من الفاء تعقيبًا عرفيًا

=

=

مثل: تزوّج فوُلد له. ا.هـ

والتقدير: وبعد أن استمعت مريم إلى ما قاله لها ابنها عيسى- عليه السلام- اطمأنت نفسها، وقرت عينها، فأتت به أى بمولودها عيسى إلى قومها. وهي تحمله معها من المكان القصي الذي اعتزلت فيه قومها.

قال الآلوسى: أى: جاءتهم مع ولدها حاملة إياه، على أن الباء للمصاحبة. وجملة تَحْمِلُهُ في موضع الحال من ضمير مريم ... وكان هذا المجيء على ما أخرج سعيد بن منصور، وابن عساكر عن ابن عباس بعد أربعين يوما حين طهرت من نفاسها ...

وظاهر الآية والأخبار «أنها جاءتهم به من غير طلب منهم..».

ثم حكى- سبحانه- ما قاله قومها عند ما رأوها ومعها وليدها فقال: (قالُوا يا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا).

أى: قالوا لها على سبيل الإنكار: يا مريم لقد جئت أى فعلت شيئا منكرا عجيبا في بابه، حيث أتيت بولد من غير زوج نعرفه لك.

والفري: مأخوذ من فريت الجلد إذا قطعته، أى: شيئا قاطعا وخارقا للعادة.

وقد ذهب أبو عبيد القاسم بن سلام إلى أن معنى قوله تعالى: {شيئا فريا} أي: شيئا عظيما. وبنحوه روي عن مجاهد، وقتادة، والسدي.

وبه قال: الفراء، والبغوي، وابن عطية، والرازي، والشنقيطي، وزادوا بقولهم: إن معنى فريا: شنيعا منكرا.

وذهب أبو عبيدة معمر بن المثنى، والطبري، والزمخشري إلى أن المعنى: عجبا فائقا.

وذكر بعض المفسرين قولا ثالثا في معنى {فريا} وهو: مصنوعا مختلفا.

والراجح القول الأول وهو أن معنى {فريا}: أي منكرا عظيما هو الأرجح

=

=

والأقوى.

ومما يرجح هذا القول السياق؛ يقول الرازي: (وهو أظهر لقولهم بعده: {يا أخت هارون ما كان أبوك امرأ سوء وما كانت أمك بغيا}).

ويقول الشنقيطي بعد أن ذكر المعنى: (يدل عليه قوله تعالى بعده: {يا أخت هارون ما كان أبوك امرأ سوء وما كانت أمك بغيا}).

والقول الذي تؤيده قرائن في السياق مرجح على ما خالفه.

قوله تعالى: {يَا أُخْتَ هَارُونَ} [مريم: ٢٨].

وفي في المراد بـ «هارون» هنا، خمسة أقوال:

أحدها: أنه أخ لها من أمها، وكان من أمثل فتى في بني إسرائيل، قاله أبو صالح عن ابن عباس.

قال الضحاك: "كان من أبيها وأمها".

قال محمد بن السائب الكلبي::كان هارون أخا مريم مِن أبيها، وكان أمثَل رجل في بني إسرائيل".

الثاني: أنها كانت من بني هارون أخي موسى، وهو كما تقول: يا أخا بني فلان. قاله الضحاك عن ابن عباس، والسدي.

قال علي بن ابي طلحة:"نسبت إلى هارون بن عمران، لأنها كانت من سبطه كقولك يا أخا الأنصار".

قال السدي:"كانت من سبط هارون، فقيل لها: يا أخت هارون فدعيت إلى سبطه، كالرجل يقول للرجل: يا أخا بني ليث، يا أخا بني فلان".

وروي عن محمد بن كعب القُرَظي -من طريق أبي صخر- في قول الله ﷻ : " {يا أُخْتَ هارُونَ}، قال: هي أخت هارون لأبيه وأمه، وهي أخت موسى أخي هارون التي قَصَّت أثر موسى، {فَبَصُرَتْ بِهِ عَنْ جُنُبٍ وهُمْ لا يَشْعُرُونَ} [القصص:

=

=

١١]".

الثالث: أنه رجل صالح كان من بني إسرائيل، فشبهوها به في الصلاح، فقالوا: يا شبيهة هارون في الصلاح. وهذا مروي عن ابن عباس أيضا، وقتادة، وبه قال الطبري.

ويدل عليه ما روى المغيرة بن شعبة قال: "بعثني رسول الله ﷺ إلى أهل نجران، فقالوا: أرأيت ما تقرأون؟ «يا أخت هارون»، وموسى قبل عيسى بكذا وكذا، قال: فرجعت فذكرت ذلك لرسول الله ﷺ. فقال: «ألا أخبرتهم أنهم كانوا يسمون بالأنبياء والصالحين قبلهم»".

عن محمد بن سيرين، قال: "نبئت أن كعبا قال: إن قوله {يَاأُخْتَ هَارُونَ}، ليس بهارون أخي موسى، قال: فقالت له عائشة: كذبت، قال: يا أمّ المؤمنين، إن كان النبيّ ﷺ قاله فهو أعلم وأخبر، وإلا فإني أجد بينهما ستّ مئة سنة، قال: فسكتت".

عن سفيان، في قوله: " {يا أخت هارون}، قال: سمعنا أنّه اسمٌ وافق اسمًا".

قال ابن زيد:"اسم واطأ اسما، كم بين هارون وبينهما من الأمم أمم كثيرة".

قال قتادة:"كانت من أهل بيت يُعرفون بالصلاح، ولا يُعرفون بالفساد ومن الناس من يُعرفون بالصلاح ويتوالدون به، وآخرون يُعرفون بالفساد ويتوالدون به، وكان هارون مصلحا محببا في عشيرته، وليس بهارون أخي موسى، ولكنه هارون آخر. قال: وذُكر لنا أنه شيع جنازته يوم مات أربعون ألفا، كلهم يسمون هارون من بني إسرائيل".

عن نوف البِكاليّ -من طريق أبي عمران الجَوْني- قال: " {يا أُخْتَ هارُونَ}، أي: يا شبيهة هارون في العبادة".

عن مجاهد بن جبر -من طريق ابن أبي نَجِيحٍ- في قوله: " {يا أخت هارون}، =

=

قال: رجلًا صالِحًا في بني إسرائيل، حضر جنازته أربعون ألفًا مِمَّن اسمه هارون سواه".

الرابع: أن قوم هارون كان فيهم فساق وزناة، فنسبوها إليهم، قاله سعيد بن جبير.

قال سعيد بن جبير:"كان هارونُ مِن قوم سوءٍ زُناة، فنسبوها إليهم".

الخامس: أنه رجل من فساق بني إسرائيل شبهوها به، قاله وهب بن منبه.

فعلى هذا يخرج في معنى «الأخت» قولان:

أحدهما: أنها الأخت حقيقة.

والثاني: المشابهة، لا المناسبة، كقوله تعالى: {وَمَا نُرِيهِمْ مِنْ آيَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا} [الزخرف: ٤٨].

عن أبي بكر بن عيش قال: "في قراءة أبي: «قالوا: يا ذا المهد»".

قوله تعالى: {مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ} [مريم: ٢٨]، أي:"ما كان أبوك رجل سوء يأتي الفواحش".

قال الطبري:"يقول: ما كان أبوك رجل سوء يأتي الفواحش".

قال عبد الله بن عباس: "زانيًا".

عن السُّدِّيّ: " {ما كان أبوك امرأ سوء} رجل سوء، يعني: ما كان زانيًا".

قال مقاتل: ط {ما كان أبوك} عمران {امرأ سوء} يعني: بزانٍ. كقوله سبحانه: {مَن أرادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا} [يوسف: ٢٥]، يعني: الزنا، وكقوله سبحانه: {ما علمنا عليه من سوء} [يوسف: ٥١]. وكان عمران مِن عُظماء بنى إسرائيل".

قوله تعالى: {وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا} [مريم: ٢٨]، أي:"وما كانت أمك امرأة سوء تأتي البِغاء".

قال الطبري:"يقول: وما كانت أمك زانية".

عن السدي:"{وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا}، قال: زانية".

=

=

عن نوف البكاليّ -من طريق أبي عمران الجَوْني- قال: {ما كانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وما كانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا}، أي: أنت مِن بيت طيِّب طاهر، معروف بالصلاح والعبادة والزهادة، فكيف صَدَرَ هذا منكِ؟!".

أى: ما كان أبوك رجلا زانيا أو معروفا بالفحش وَما كانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا أى: تتعاطى الزنا. يقال: بغت المرأة، إذا فجرت وابتعدت عن طريق الطهر والعفاف.

وليس المراد بهارون: هارون بن عمران أخا موسى، وإنما المراد به رجل من قومها معروف بالصلاح والتقوى، فشبهت به، أى: يا أخت هارون في الصلاح والتقوى. أو المراد به أخ لها كان يسمى بهذا الاسم.

قال الآلوسى ما ملخصه: «وقوله: يا أُخْتَ هارُونَ استئناف لتجديد التعيير، وتأكيد التوبيخ، وليس المراد بهارون أخا موسى بن عمران- عليهما السلام لما أخرج أحمد، ومسلم، والترمذي، والنسائي، والطبراني، وابن حبان، وغيرهم عن المغيرة بن شعبة قال: بعثني رسول الله ﷺ إلى أهل نجران فقالوا: أرأيت ما تقرأون: يا أُخْتَ هارُونَ وموسى قبل عيسى بكذا وكذا. قال: فرجعت فذكرت ذلك لرسول الله ﷺ فقال: «ألا أخبرتهم أنهم كانوا يسمون بالأنبياء والصالحين قبلهم»..

وعن قتادة قال: «هو رجل صالح في بنى إسرائيل. والأخت على هذا بمعنى المشابهة، وشبهوها به تهكّما، أو لما رأوا قبل من صلاحها ...".

وعلى أية حال فإن مرادهم بقولهم هذا، هو اتهام مريم بما هي بريئة منه، والتعجب من حالها، حيث انحدرت من أصول صالحة طاهرة، ومع ذلك لم تنهج نهجهم.

قوله تعالى: {فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ} [مريم: ٢٩].

قال وهب:"يقول: أشارت إليه أن كلِّموه".

قال عبد الله بن مسعود: "لَمّا لم تكن لها حُجَّةٌ أشارت إليه؛ ليكون كلامُه حُجَّةً لها".

=

=

عن ابن جريج: قوله:"{فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ}، أن كَلِّموه".

قال قتادة:"أمرتهم بكلامه".

قال الطبري:"فلما قال قومها ذلك لها قالت لهم ما أمرها عيسى بقيله لهم، ثم أشارت لهم إلى عيسى أن كلِّموه".

قال السدي:"قالت لهم ما أمرها الله به، فلما أرادوها بعد ذلك على الكلام أشارت إليه، إلى عيسى".

قوله تعالى: {قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا} [مريم: ٢٩]، أي:"فقالوا منكرين عليها: كيف نكلم مَن لا يزال في مهده طفلا رضيعًا؟".

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره، قال قومها لها: كيف نكلم من وُجد في المهد؟".

عن السُّدِّيّ: " {قالوا كيف نكلم من كان فِي المَهْدِ صَبِيًّا}، يعني: مَن هو".

قال السدي:"لما أشارت لهم إلى عيسى غضبوا، وقالوا: لسخريتها بنا حين تأمرنا أن نكلم هذا الصبيّ أشدّ علينا من زناها: {قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا}".

عن قتادة:"{في المهد}، قال: في الحجر".

عن ميمون بن مهران، قال: "لَمّا قالوا لمريم: {لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا} إلخ؛ أشارت إلى عيسى أن كلِّموه، فقالوا: تأمرنا أن نكلِّم مَن هو في المهد زيادةً على ما جاءت به مِن الداهية!".

أى: فأشارت إلى ابنها عيسى، ولسان حالها يقول لهم: وجهوا كلامكم إليه فإنه سيخبركم بحقيقة الأمر.

ولكنهم لم يقتنعوا بإشارتها بل قالوا لها: كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا.

والمهد: اسم للمضطجع الذي يهيأ للصبي في رضاعه. وهو في الأصل مصدر مهده يمهده إذا بسطه وسواه.

=

=

أى: كيف نكلم طفلا صغيرا ما زال في مهده وفي حال رضاعه.

والفعل الماضي وهو كانَ هاهنا بمعنى الفعل المضارع المقترن بالحال، كما يدل عليه سياق القصة.

قوله تعالى: {قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللهِ} [مريم: ٣٠].

قال الطبري: "فلما قال قوم مريم لها: {كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا}، وظنوا أن ذلك منها استهزاء بهم، قال عيسى لها متكلمًا عن أمه: {إِنِّي عَبْدُ اللهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ}. وكانوا حين أشارت لهم إلى عيسى فيما ذُكر عنهم غضبوا".

قال وهب: "فأجابهم عيسى عنها فقال لهم: {إِنِّي عَبْدُ اللهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا}... الآية".

قال وهب بن مُنَبِّه: "أتاها زكريا عند مناظرتها اليهود، فقال لعيسى: انطق بحجتك إن كنتَ أُمرتَ بها. فقال عند ذلك عيسى - عليه السلام -وهو ابن أربعين يومًا-: {إني عبد الله} أقرَّ على نفسه بالعبودية لله ﷻ أولَ ما تكلم لِئَلّا يُتَّخَذ إلَهًا".

قال السُّدِّيّ: "فلمّا سمِع عيسى كلامَهم ترك الرَّضاع، وأقبل عليهم".

قال الضحاك: "لم يتكلم عيسى إلا عند ذلك حين: {قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا}".

قوله تعالى: {آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا} [مريم: ٣٠]، أي: "قضى بإعطائي الكتاب، وهو الإنجيل، وجعلني نبيًا".

قال الطبري: "معناه: وقضى يوم قضى أمور خلقه إليّ أن يؤتيني الكتاب".

قال عكرمة: "قضى أن يؤتيني الكتاب فيما مضى". وفي رواية: "آتاني من قبل أن يخلقني".

قال مجاهد: "النبيّ وحده الذي يكلم وينزل عليه الوحي ولا يرسل".

عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: "كان عيسى بن مريم قد درس الإنجيل وأحكمه في

=

=

بطن أمه، فذلك قوله: {إني عبد الله آتاني الكتاب وجعلني نبيا}".

قال الحسن: "أُلْهِمَ التوراة وهو في بطن أُمِّه".

قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم -من طريق ابن وهب- في قوله: {قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا قَالَ لَهُمْ إِنِّي عَبْدُ اللهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا}، فقرأ حتى بلغ: {وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا}، فقالوا: إنّ هذا لَأمرٌ عظيم".

قال الشنقيطي: " وقوله: في هذه الآية الكريمة: (آتاني الكتاب وجعلني نبيا)، التحقيق فيه إن شاء الله: أنه عبر بالماضي عما سيقع في المستقبل تنزيلا لتحقق الوقوع منزلة الوقوع. ونظائره في القرآن كثيرة، كقوله تعالى: (أتى أمر الله فلا تستعجلوه)، وقوله تعالى: (ونفخ في الصور فصعق من في السماوات ومن في الأرض إلا من شاء الله ثم نفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون وأشرقت الأرض بنور ربها ووضع الكتاب وجيء بالنبيين والشهداء وقضي بينهم بالحق وهم لا يظلمون ووفيت كل نفس ما عملت) - إلى قوله -: (وسيق الذين كفروا)، وقوله تعالى: (وسيق الذين اتقوا ربهم) فهذه الأفعال الماضية المذكورة في الآيات بمعنى المستقبل، تنزيلا لتحقق وقوعه منزلة الوقوع بالفعل، ونظائرها كثيرة في القرآن.

وهذا الذي ذكرنا ـ من أن الأفعال الماضية في قوله تعالى: (آتاني الكتاب) الخ، بمعنى المستقبل هو الصواب إن شاء الله. خلافا لمن زعم أنه نبىء وأوتي الكتاب في حال صباه، لظاهر اللفظ " انتهى.

قوله تعالى: {وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ} [مريم: ٣١].

وفي قوله تعالى: {وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ} [مريم: ٣١]، وجوه من التفسير:

أحدها: نفّاعا للناس، قاله مجاهد.

عن مجاهد-من طريق ليث-:"{وجعلني مباركا}، قال: نفّاعًا للناس".

=

=

عن أبي هريرة، قال: قال النبي ﷺ: «قول عيسى: {وجعلني مباركا أينما كنت}. قال: جعلني نفّاعًا للناس أين اتَّجَهْتُ».

الثاني: آمرًا بالمعروف وناهيًا عن المنكر.

عن محمد بن يزيد بن خنيس المخزومي، قال: "سمعت وُهَيْب ابن ابن الورد مولى بني مخزوم، قال: لقي عالم عالما لما هو فوقه في العلم، قال له: يرحمك الله، ما الذي أعلن من علمي، قال: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فإنه دين الله الذي بعث به أنبياءه إلى عباده، وقد اجتمع الفقهاء على قول الله: {وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ} وقيل: ما بركته؟ قال: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أينما كان".

وقال سهل بن عبد الله:"يعني آمر بالمعروف، وأنهى عن المنكر، وأرشد الضال، وأنصر المظلوم، وأغيث الملهوف".

الثالث: مُعَلِّمًا للخير، قاله سفيان بن عيينة، ومجاهد-في رواية أخرى-.

الرابع: مُؤَدِّبًا، ومُعَلِّمًا. قاله عمرو بن قيس.

عن عبد الله بن مسعود، عن النبي ﷺ: {وجعلني مباركا أينما كنت}، قال: «مُعَلِّمًا، ومُؤَدِّبًا».

عن عمرو بن قيس -من طريق أبي قبيصة- في قوله تعالى: {وجعلني مباركا أين ما كنت}، قال: مُؤَدِّبًا، ومُعَلِّمًا".

عن أبي حفص -من طريق جابر- في قوله: {وجعلني مباركا أينما كنت}، قال: عيسى بن مريم، قال: مُعَلِّمًا، ومُؤَدِّبًا".

الخامس: هاديًا، مَهْدِيًّا. قاله مجاهد-أيضا-.

السادس: عارفًا بالله وداعيًا إليه. حكاه الماوردي.

قوله تعالى: {وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا} [مريم: ٣١]،

=

=

أي:"وأوصاني بالمحافظة على الصلاة وإيتاء الزكاة ما بقيت حيًا".

قال الزجاج:"فإن قال قائل كيف تكون عبادة لغير الحي، أي: كيف يعبد الإنسان وهو ميت؟

فإن مجاز هذا الكلام مجاز «أبدا»، المعنى: اعبد ربك أبدا، واعبده إلى الممات، لأنه لو قيل: اعبد ربك - بغير التوقيت - لجاز إذا عبد الإنسان مرة أن يكون مطيعا، فإذا قال: «حتى يأتيك اليقين»، أي: أبدا وما دمت حيا، فقد أمرت بالإقامة على العبادة".

قال عبد الرحمن بن القاسم، عن مالك بن أنس في قوله:"{وَأَوْصَانِي بِالصَّلاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا} قال: أخبره بما هو كائن من أمره إلى أن يموت، ما أثبتها لأهل القدر".

قوله تعالى: {وَبَرًّا بِوَالِدَتِي} [مريم: ٣٢]، أي:"وجعلني بارًّا بوالدتي".

قال ابن كثير:"أي: وأمرني ببر والدتي، ذكره بعد طاعة الله ربه؛ لأن الله تعالى كثيرًا ما يقرن بين الأمر بعبادته وطاعة الوالدين، كما قال تعالى: {وَقَضَى رَبُّكَ أَلا تَعْبُدُوا إِلا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا} [الإسراء: ٢٣] وقال {أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ} [لقمان: ١٤]".

عن نوف البكالي: " {وَبَرًّا بِوَالِدَتِي}، أي: ليس لي أب".

قال السدي:"يعني: مطيعا لأمر مريم".

عن أبي نَهيك [عثمان بن نهيك]-من طريق عبد المؤمن- أنّه قرأ: {وبِرًّا بِوالِدَتِي} مِن قول عيسى - عليه السلام -. قال أبو نهيك: أوصاني بالصلاة والزكاة والبر بالوالدين، كما أوصاني بذلك".

قال مقاتل: " {في المهد} يعني: في حِجْر أمه ملفوفًا في خِرَق {صبيا}، فدنا زكريا من الصبي، فقال: تكلَّم -يا صبيُّ- بعذرك إن كان لك عذر. {قال إني عبد الله آتاني

=

=

الكتاب وجعلني نبيا * وجعلني مباركا أينما كنت وأَوْصانِي بِالصَّلاةِ والزَّكاةِ مادُمْتُ حَيًّا (٣١) وبَرًّا بِوالِدَتِي ولم يجعلني جبارا شقيا}. فلمّا ذكر الوالدة ولم يذكر الوالد ضَمَّه زكريا إلى صدره، وقال: أشهد أنّك عبدُ الله ورسوله".

قوله تعالى: {وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا} [مريم: ٣٢]، أي:"ولم يجعلني متكبرًا ولا شقيًا، عاصيًا لربي".

قال ابن كثير:"أي: وأمرني ببر والدتي، ذكره بعد طاعة الله ربه؛ لأن الله تعالى كثيرًا ما يقرن بين الأمر بعبادته وطاعة الوالدين، كما قال تعالى: {وَقَضَى رَبُّكَ أَلا تَعْبُدُوا إِلا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا} [الإسراء: ٢٣] وقال {أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ} [لقمان: ١٤]".

عن ابن عباس قوله: " {ولم يجعلني جبارا شقيا}، يقول: عصيا".

وقال سهل بن عبد الله:"أي: جاهلا بأحكامه متكبرا على عبادته، وقال النبي ﷺ: «الكبرياء رداء الله من نازع الله فيه أكبه على منخره في النار»".

قال سفيان:"«الجبار»: الشقي الذي يقبل على الغضب".

عن العوام بن حوشب قال:"إنك لا تكاد تجد عاقا، إلا تجده جبارا، ثم قرأ: {وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا}".

قال قتادة: "ذكر لنا أن امرأة رأت ابن مريم يحيي الموتى ويبرئ الأكمه والأبرص، في آيات سلطه الله عليهن، وأذن له فيهن، فقالت: طوبى للبطن الذي حملك وللثدي الذي أرضعت به، فقال نبي الله عيسى، عليه السلام، يجيبها: طوبى لمن تلا كلام الله، فاتبع ما فيه ولم يكن جبارًا شقيًّا".

عن قتادة -من طريق سعيد- قال:"ذُكِر لنا: أنّه -يعني: عيسى- كان يقول: سَلُوني، فإنّ قلبي ليِّنٌ، وإنِّي صغير في نفسي. مِمّا أعطاه الله مِن التواضع".

قوله تعالى: {وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ} [مريم: ٣٣].

=

=

قال السمعاني: "معناه: التحية والحفظ من الله لي يوم ولدت {ويوم أموت..}، وقال بعضهم: «السلام» بمعنى: السلامة عند الولادة، هو السلامة من طعن الشيطان وهمزه، والسلامة عند الموت هو من الشرك، فإن أكثر الشرك يكون عند الموت، وقيل: السلامة عند الموت من ضغطة القبر، وقيل: سلامة عند الموت بالوصول إلى السعادة".

قوله تعالى: {وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا} [مريم: ٣٣]، أي:"وسلام الله عليَّ في يوم خروجي حيًا من قبري".

قال السمعاني: أي:"السلامة يوم القيامة من الأهوال".

قال الشعبي:"فقرات ابن آدم ثلاث: يوم ولد، ويوم يموت، ويوم يبعث، وهي التي ذكر عيسى في قوله: {والسلام علي}، الآية".

قال ابن كثير:"قوله: {وَالسَّلامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا}: إثبات منه لعبوديته لله ﷻ، وأنه مخلوق من خلق الله يحيا ويموت ويبعث كسائر الخلائق، ولكن له السلامة في هذه الأحوال التي هي أشق ما يكون على العباد، - صلوات الله وسلامه عليه".

- عن وهب بن مُنَبِّه -من طريق ابن إسحاق، عمَّن لا يتهم-:"{والسلام علي يوم ولدت ويوم أموت ويوم أبعث حيا}، قال: يُخبِرُهم في قصة خبره عن نفسه أنّه لا أب له، وأنّه سيموت ثم يبعث حيًّا، يقول الله -تبارك وتعالى-: {ذلك عيسى ابن مريم قول الحق الذي فيه يمترون}".

عن عبد الله بن عباس -من طريق مجاهد- قال: "ما تَكَلَّم عيسى إلا بالآيات التي تَكَلَّم بها حتى بلغ مبلغ الصبيان".

عن الضَّحّاك بن مُزاحِم -من طريق عبيد- في قوله: " {كيف نكلم من كان في المهد صبيا قال إني عبد الله}، قال: لم يتكلم عيسى إلا عند ذلك، حين {قالوا

=

ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ (٣٤).

{ذلك عيسى بن مَرْيَم قَوْل الْحَقّ} بِالرَّفْعِ خَبَر مُبْتَدَأ مُقَدَّر أي قول بن مَرْيَم وَبِالنَّصْبِ بِتَقْدِيرِ قُلْت وَالْمَعْنَى الْقَوْل الْحَقّ {الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ} مِنْ الْمِرْيَة أَيْ يَشُكُّونَ وهم النصارى قالوا إن عيسى بن الله كذبوا.

مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ سُبْحَانَهُ إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (٣٥).

{مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذ مِنْ وَلَد سُبْحَانه} تَنْزِيهًا لَهُ عَنْ ذَلِكَ {إِذَا قَضَى أَمْرًا} أَيْ أَرَادَ أَنْ يُحْدِثهُ {فَإِنَّمَا يَقُول لَهُ كُنْ فَيَكُون} بِالرَّفْعِ بِتَقْدِيرِ هُوَ وَبِالنَّصْبِ بِتَقْدِيرِ أَنْ وَمِنْ ذَلِكَ خَلْق عِيسَى مِنْ غير أب.

وَإِنَّ اللهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ (٣٦).

{وَإِنَّ الله رَبِّي وَرَبّكُمْ فَاعْبُدُوهُ} بِفَتْحِ أَنَّ بِتَقْدِيرِ اُذْكُرْ وَبِكَسْرِهَا بِتَقْدِيرِ قُلْ بِدَلِيلِ {مَا قُلْت لَهُمْ إلَّا مَا أَمَرْتنِي بِهِ أَنْ اُعْبُدُوا الله رَبِّي وَرَبّكُمْ} {هَذَا} الْمَذْكُور {صِرَاط} طَرِيق {مُسْتَقِيم} مُؤَدٍّ إلَى الْجَنَّة.

فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ مَشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ (٣٧).

{فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَاب مِنْ بَيْنهمْ} أَيْ النَّصَارَى فِي عيسى أهو بن الله أَوْ إلَه مَعَهُ أَوْ ثَالِث ثَلَاثَة {فَوَيْل} فَشِدَّة عَذَاب {لِلَّذِينَ كَفَرُوا} بِمَا ذُكِرَ وَغَيْره {مِنْ مَشْهَد يَوْم عَظِيم} أَيْ حُضُور يَوْم الْقِيَامَة وَأَهْوَاله.

أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا لَكِنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (٣٨).

{أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ} بِهِمْ صِيغَتَا تَعَجُّب بِمَعْنَى مَا أَسْمَعهمْ وَمَا أَبْصَرهمْ

=

كيف نكلم من كان في المهد صبيا}".

{يَوْم يَأْتُونَنَا} فِي الْآخِرَة {لَكِنْ الظَّالِمُونَ} مِنْ إقَامَة الظَّاهِر مَقَام الْمُضْمَر {الْيَوْم} أَيْ فِي الدُّنْيَا {فِي ضَلَال مُبِين} أَيْ بَيِّن بِهِ صُمُّوا عَنْ سَمَاع الْحَقّ وَعَمُوا عَنْ إبْصَاره أَيْ اعْجَبْ مِنْهُمْ يَا مُخَاطَب فِي سَمْعهمْ وَإِبْصَارهمْ فِي الْآخِرَة بَعْد أَنْ كَانُوا فِي الدُّنْيَا صُمًّا عُمْيًا.

وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (٣٩).

{وَأَنْذِرْهُمْ} خَوِّفْ يَا مُحَمَّد كُفَّار مَكَّة {يَوْم الْحَسْرَة} هُوَ يَوْم الْقِيَامَة يَتَحَسَّر فِيهِ الْمُسِيء عَلَى تَرْك الْإِحْسَان فِي الدُّنْيَا {إذْ قُضِيَ الْأَمْر} لَهُمْ فِيهِ بِالْعَذَابِ {وَهُمْ} فِي الدُّنْيَا {فِي غَفْلَة} عَنْهُ {وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ} بِهِ.

إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ (٤٠).

{إنَّا نَحْنُ} تَأْكِيد {نَرِث الْأَرْض وَمَنْ عَلَيْهَا} مِنْ الْعُقَلَاء وَغَيْرهمْ بِإِهْلَاكِهِمْ {وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ} فِيهِ للجزاء[1].

---

(١) قوله تعالى: {ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ} [مريم: ٣٤].

قال مقاتل:"يعنى: هذا عيسى بن مريم".

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: هذا الذي بيَّنت لكم صفته، وأخبرتكم خبره، من أمر الغلام الذي حملته مريم، هو عيسى ابن مريم، وهذه الصفة صفته، وهذا الخبر خبره".

قال الزجاج:"أي: ذلك الذي: {قال إني عبد الله آتاني الكتاب وجعلنى نبيًا}، عيسى ابن

مريم لا ما يقول النصارى من أنه ابن الله وأنه إله - جل الله وعز".

قال أبو الليث السمرقندي:"أي: ذلك الذي قال: إني عبد الله، هو عيسى ابن مريم عليه السلام، لا كما يقول النصارى إنه إله".

=

=

قال مكي:"أي: هذا الذي وصفت لكم صفته، وأخبرتكم خبره هو عيسى ابن مريم".

قوله تعالى: {قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ} [مريم: ٣٤]، أي:"هو قولُ الحق الذي شك فيه اليهود والنصارى".

قال مقاتل: يعنى: "قول العدل، الذي فيه يشكون في أمر عيسى- ﷺ- وهم النصارى".

قال الطبري:"يعني: أن هذا الخبر الذي قصصته عليكم قول الحقّ، والكلام الذي تلوته عليكم قول الله وخبره، لا خبر غيره، الذي يقع فيه الوهم والشكّ، والزيادة والنقصان، على ما كان يقول الله تعالى ذكره: فقولوا في عيسى أيها الناس، هذا القول الذي أخبركم الله به عنه، لا ما قالته اليهود، الذين زعموا أنه لغير رشدة، وأنه كان ساحرًا كذّابا، ولا ما قالته النصارى، من أنه كان لله ولدا، وإن الله لم يتخذ ولدا، ولا ينبغي ذلك له".

قال أبو الليث السمرقندي:"يعني: يعني: خبر الصدق".

قال الحسن: " والحق هو الله، هو قوله".

قال مجاهد:"الله ﷻ، الحق".

عن قتادة -من طريق سعيد- قوله: " {ذلك عيسى ابن مريم قول الحق الذي فيه يمترون} : امْتَرَتْ فيه اليهود والنصارى، فأمّا اليهود فزعموا أنّه ساحر كذاب، وأمّا النصارى فزعموا أنه ابن الله، وثالث ثلاثة، وإله، وكذبوا كلُّهم، ولكنه عبد الله ورسوله وكلمته وروحه".

عن قتادة-من طريق معمر- في قوله: {الذي فيه يمترون}، قال: "اجتمع بنو إسرائيل فأخرجوا منهم أربعةَ نفر، أخرج مِن كلِّ قوم عالمهم، فامتروا في عيسى حين رفع، فقال أحدهم: هو اللهُ، هبط إلى الأرض، فأحيا مَن أحيا، وأمات مَن

=

=
أمات، ثم صعد إلى السماء. وهم اليعْقُوبِيَّةُ، فقالت الثلاثة: كذبتَ. ثم قال اثنان منهم للثالث: قُلْ فيه. فقال: هو ابن الله. وهم النُّسطُورِيَّة. فقال اثنان: كذبت. ثم قال أحد الاثنين للآخر: قلْ فيه. قال: هو ثالث ثلاثة؛ الله إله، وعيسى إله، وأمه إله. وهم الإسرائيلية، وهم ملوك النصارى، فقال الرابع: كذبت، هو عبد الله، ورسوله، وروحه، مِن كلمته. وهم المسلمون، فكان لكل رجل منهم أتباع على ما قال، فاقتتلوا، فظُهِر على المسلمين. فذلك قول الله: {ويقتلون الذين يأمرون بالقسط بين الناس} [آل عمران: ٢١]. قال قتادة: وهم الذين قال الله: {فاختلف الأحزاب من بينهم}. قال: اختلفوا فيه، فصاروا أحزابًا، فاختصم القوم، فقال المرء المسلم: أنشدكم، هل تعلمون أنّ عيسى كان يَطْعَمُ الطعامَ، وأنّ الله لا يَطْعَم الطعام؟ قالوا: اللَّهُمَّ نعم. قال: فهل تعلمون أنّ عيسى كان ينام، وأنّ الله لا ينام؟ قالوا: اللهم نعم. فخصمهم المسلمون، فاقتتل القوم، فذُكِر لنا: أنّ اليعقوبية ظهرت يومئذ، وأصيب المسلمون، فأنزل الله في ذلك القرآن: {فويل للذين كفروا من مشهد يوم عظيم}".

عن عبد الملك ابن جريج -من طريق حجاج- قوله: {الذي فيه يمترون}، قال: اختلفوا؛ فقالت فرقة: هو عبد الله ونبيُّه، فآمنوا به. وقالت فرقة: بل هو الله. وقالت فرقة: هو ابن الله. تبارك وتعالى عما يقولون عُلُوًّا كبيرًا. قال: فذلك قوله {فاختلف الأحزاب من بينهم}، والتي في الزخرف [٦٥]، قال: دَقْيوسُ ونُسْطُورُ وماريعقوب، قال أحدهم حين رفع اللهُ عيسى: هو الله. وقال الآخر: ابن الله. وقال الآخر: كلمة الله، وعبده. فقال المفتريان: إنّ قولي هو أشبه بقولك، وقولك بقولي، مِن قول هذا، فهلُمَّ فلنقاتلهم. فقاتلوهم، وأوطؤوهم، وغلبوهم حتى خرج النبي ﷺ، وهم مُسْلِمَةُ أهل الكتاب".

قرأ عاصم وابن عامر: «قول الحق»، بنصب اللام، وقرأ الباقون بالضم. فمن قرأ
=

=

بالنصب فمعناه: أقول قول الحق، ومن قرأ بالضم معناه: وهو قول الحق.

قال مكي:"من رفع: «القول». فعلى خبر الابتداء. أي: هذا الكلام الذي قصصته عليكم قول الحق. أي قول الله، فـ {الحق} هو الله. أي: هو كلامه لا كلام غيره من اليهود والنصارى فيما ادعوا في عيسى من الكذب والبهتان.

ومن نصبه، فعلى المصدر. أي: أقول قول الحق، لا قول اليهود، الذين زعموا أن عيسى عليه السلام كان ساحرًا كذابًا. ولا قول النصارى، أنه ولد الله تعالى وجلّ وعزّ عن ذلك".

أي: ذلك الموصوف بتلك الصفات، عيسى بن مريم، من غير شك ولا مرية، بل قول الحق، وكلام الله، الذي لا أصدق منه قيلا ولا أحسن منه حديثا، فهذا الخبر اليقيني، عن عيسى عليه السلام، وما قيل فيه مما يخالف هذا، فإنه مقطوع ببطلانه،.وغايته أن يكون شكا من قائله لا علم له به.

واسم الإشارة ذلِكَ في قوله: ذلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ إشارة إلى ما ذكره الله- تعالى- قبل ذلك لعيسى من صفات حميدة، ومن أخبار صادقة وهو مبتدأ، وعيسى خبره، وابن مريم صفته.

ولفظ: قَوْلَ فيه قراءتان سبعيتان إحداهما قراءة الجمهور بضم اللام، والثانية قراءة ابن عامر وعاصم، بفتحها.

وعلى القراءة بالرفع يكون قَوْلَ الْحَقِّ خبر مبتدأ محذوف. فيكون المعنى: ذلك الذي أخبرناك عنه بشأن عيسى وأمه هو قول الحق- ﷻ وهو قول لا يحوم حوله باطل، ولا يخالطه ريب أو شك. فلفظ الْحَقِّ يصح أن يراد به الله- سبحانه- لأنه من أسمائه، ويصح أن يراد به ما هو ضد الباطل، وهو الصدق والثبوت.

وعلى قراءة النصب يكون لفظ قَوْلَ مصدرا مؤكدا لمضمون الجملة، أى: ذلك الذي قصصناه عليك- أيها الرسول الكريم- من شأن عيسى ابن مريم، هو القول

=

=

الثابت الصادق. الذي أقول فيه قول الحق.

والإضافة من باب إضافة الموصوف إلى صفته أى: القول الحق، كقوله- تعالى- وَعْدَ الصِّدْقِ أى: الوعد الصدق.

وقوله: الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ بيان لموقف الكافرين من هذا القول الحق الذي ذكره الله- تعالى- عن عيسى وأمه. والَّذِي صفة للقول. أو للحق، ويَمْتَرُونَ يشكون من المرية بمعنى الشك والجدل ...

أى: ذلك الذي ذكرناه لك من خبر عيسى هو القول الحق، الذي شك في صدقه الكافرون، وتنازع فيه الضالون، فلا تلتفت إلى شكهم وكفرهم بل ذرهم في طغيانهم يعمهون.

قوله تعالى: {مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ} [مريم: ٣٥].

قال السدي:"يعني: عيسى كان في علمه أن يكون من غير أب".

قال أبو الليث:"يعني: عيسى".

قال يحيى بن سلام:"ينزه نفسه عما يقولون".

قال مكي:"هذا تكذيب للذين قالوا: إن عيسى ابن الله. أي: ما يصلح له أن يتخذ ولدًا، بل كل شيء خلقه.. وهذا اللفظ ظاهره الحظر، والله لا يحظر عليه شيء، لكنه محمول على معناه. ومعناه النفي، أي: ما كان الله ليتخذ ولدًا. فهو نفي عن الله ما لا يليق به وليس فيه في الباطن حظر. ومثله قوله: {وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلاَّ خَطَئًا} [النساء: ٩٢] معناه النفي، وتقديره: ما كان لمؤمنٍ أن يقتل مؤمنا".

قال القشيري:"لا يجوز أن يكون له ولد على الحقيقة لأنه واحد، والولد بعض والده، ولأنه لا داعى له إلى صحبة زوجة فيكون له ولد على الحقيقة. ولا يجوز عليه التبني لأحد لعدم الجنسية بينهما".

=

=

قوله تعالى: {سُبْحَانَهُ} [مريم: ٣٥]، أي:"تنزَّه الله عن الولد والشريك".

قال الطبري:"يقول: تنزيها لله وتبرئة له أن يكون له ما أضاف إليه الكافرون القائلون: عيسى ابن الله".

قال ابن كثير:"أي: عما يقول هؤلاء الجاهلون الظالمون المعتدون علوًّا كبيرًا".

عن ميمون بن مهران: {سبحان الله}: اسم يعظم الله به ويحاشى به من السوء".

قوله تعالى: {إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ} [مريم: ٣٥]، أي:"إذا قضى أمرًا من الأمور وأراده، صغيرًا أو كبيرًا، لم يمتنع عليه، وإنما يقول له: «كن»، فيكون كما شاءه وأراده".

عبد الله بن عباس -من طريق الضحاك- أنّه قال:"{كن فيكون} بالفارسية، لا يثنى القول مرتين، إذا قال مرَّةً كان".

قال الطبري:"يقول جل ثناؤه: إنما ابتدأ الله خلق عيسى ابتداء، وأنشأه إنشاء من غير فحل افتحل أمه، ولكنه قال له {كن فيكون}، لأنه كذلك يبتدع الأشياء ويخترعها، إنما يقول، إذا قضى خلق شيء أو إنشاءه: كن فيكون موجودا حادثا، لا يعظم عليه خلقه، لأنه لا يخلقه بمعاناة وكلفة، ولا ينشئه بمعالجة وشدة".

قال المفسرون: "وهذا كالدليل لما سبق كأنه قال: إن اتخاذ الولد شأن العاجز الضعيف المحتاج الذي لا يقدر على شيء، وأما القادر الغني الذي يقول للشيء {كُن فَيَكُونُ} فلا يحتاج في اتخاذ الولد إلى إحبال الأنثى وحيث أوجده بقوله {كُن} لا يسمى ابنًا له بل هو عبده، فهو تبكيتٌ وإلزام لهم بالحجج الباهرة".

أى: ما يصح وما يستقيم وما يتصور في حقه- تعالى- أن يتخذ ولدا، لأنه منزه عن ذلك، لأن الولد إنما يتخذه الفانون للامتداد، ويتخذه الضعفاء للنصرة، والله- تعالى- هو الباقي بقاء أبديا، وهو القوى القادر الذي لا يعجزه شيء.

ومِنْ في قوله مِنْ وَلَدٍ لتأكيد هذا النفي وتعميمه.

=

=

وفي معنى هذه الآيات جاءت آيات كثيرة منها قوله- تعالى- في هذه السورة: وَقالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمنُ وَلَدًا. لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا، تَكادُ السَّماواتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبالُ هَدًّا. أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمنِ وَلَدًا. وَما يَنْبَغِي لِلرَّحْمنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا.

ثم بين- سبحانه- ما يدل على غناه عن الولد والوالد والصاحب والشريك فقال: إِذا قَضى أَمْرًا فَإِنَّما يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ أى: لا يتصور في حقه- سبحانه- اتخاذ الولد، لأنه إذا أراد قضاء أمر، فإنما يقول له: كن، فيكون في الحال، بدون تأخير أو تردد.

قوله تعالى: {وَإِنَّ اللهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ} [مريم: ٣٦].

قال الطبري: يقول:"وإني وأنتم أيها القوم جميعا لله عبيد، فإياه فاعبدوا دون غيره".

قال ابن كثير:"أي: ومما أمر عيسى به قومه وهو في مهده، أن أخبرهم إذ ذاك أن الله ربهم وربه، وأمرهم بعبادته".

قال وهب:"عهد إليهم حين أخبرهم عن نفسه ومولده وموته وبعثه: {إن الله ربي وربكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم}، أي: إني وإياكم عبيد الله، فاعبدوه ولا تعبدوا غيره".

قوله تعالى: {هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ} [مريم: ٣٦]، أي:"هذا هو الدين القويم الذي لا اعوجاج فيه".

قال الطبري:"يقول: هذا الذي أوصيتكم به، وأخبرتكم أن الله أمرني به هو الطريق المستقيم، الذي من سلكه نجا، ومن ركبه اهتدى، لأنه دين الله الذي أمر به أنبياءه".

قال ابن كثير:"أي: هذا الذي جئتكم به عن الله صراط مستقيم، أي: قويم، من

=

=

اتبعه رشد وهدي، ومن خالفه ضل وغوى".

قال يحي بن سلام:"هذا قول عيسى لهم".

وقوله- تعالى- وَإِنَّ اللهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ.... قرأه ابن عامر والكوفيون بكسر همزة إِنَّ على الاستئناف، أى: وإن عيسى- عليه السلام- قد قال لقومه- أيضا- وإن الله- تعالى- هو ربي وهو ربكم فأخلصوا له العبادة والطاعة، وهذا الذي أمرتكم به هو الصراط المستقيم الذي لا يضل سالكه.

وقرأ الباقون بفتح همزة أن بتقدير حذف حرف الجر أى: وقال عيسى لقومه: ولأن الله ربي وربكم فاعبدوه ... كما في قوله- تعالى-: وَأَنَّ الْمَساجِدَ لِلَّهِ فَلا تَدْعُوا مَعَ اللهِ أَحَدًا أى: ولأن المساجد لله..

قوله تعالى: {فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ} [مريم: ٣٧].

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: فاختلف المختلفون في عيسى، فصاروا أحزابا متفرقين من بين قومه".

قال ابن كثير:"أي: اختلفت أقوال أهل الكتاب في عيسى بعد بيان أمره ووضوح حاله، وأنه عبده ورسوله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه، فصَمَّمَت طائفة - وهم جمهور اليهود، عليهم لعائن الله - على أنه ولد زنْيَة، وقالوا: كلامه هذا سحر. وقالت طائفة أخرى: إنما تكلم الله. وقال آخرون: هو ابن الله، وقال آخرون: ثالث ثلاثة. وقال آخرون: بل هو عبد الله ورسوله. وهذا هو قول الحق، الذي أرشد الله إليه المؤمنين".

وفي «الاحزاب»، أقوال:

أحدها: عنى بذلك: الجماعة التي تناظرت في أمر عيسى، واختلفت فيه. قاله قتادة، ومقاتل، ويحيى بن سلام-وحكاه عن السدي.

قال مقاتل:"الأحزاب هم: النسطورية والمار يعقوبية والملكانية تحازبوا من بينهم

=

=
في عيسى- عليه السلام- فقالت النسطورية: عيسى ابن الله. وقالت المار يعقوبية: إن الله هو المسيح بن مريم، وقالت الملكانية: إن الله ثالث ثلاثة".

وعن محمد بن كعب القرظي -من طريق موسى بن عبيدة- في قوله: {فاختلف الأحزاب من بينهم}، قال: في عيسى. فمِنهم مَن قال: ولد. ومنهم مَن قال: بَغِيَّة. يعني: الفرية".

قال قتادة:"اجتمع بنو إسرائيل فأخرجوا منهم أربعة نفر، أخرج من كل قوم عالمهم فتشاوروا في عيسى حين رفع، فقال أحدهم: هو الله هبط إلى الأرض فأحيى من احيى وأمات من أمات، ثم صعد إلى السماء، وهم اليعقوبية، فقالت الثلاثة: كذبت. ثم قال اثنان منهم للثالث: قل فيه. فقال هو ابن الله، وهم النسطورية. فقال اثنان: كذبت. ثم قال أحد الاثنين للآخر: قل فيه. قال: هو ثالث ثلاثة: الله إله، وعيسى إله، وأمه إله. وهم الإسرائيلية وهم ملوك النصارى. فقال الرابع: كذبت.. هو عبد الله ورسوله وروحه من كلمته، وهم المسلمون، فكان لكل رجل منهم أتباع على ما قال، فاقتتلوا فظهر على المسلمين. فذلك قوله الله: {وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ}، قال قتادة: وهم الذين قال الله: {فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ}، قال: اختلفوا فيه فصاروا أحزابا، فاختلف القوم، فقال المرء المسلم: أنشدكم... هل تعلمون إن عيسى كان يطعم الطعام، وأن الله لا يطعم الطعام؟ قالوا: اللهم نعم. قال: فهل تعلمون إن عيسى كان ينام، وأن الله لا ينام؟ قالوا: اللهم نعم. فخصمهم المسلمون فانسل القوم، فذكر لنا إن اليعقوبية ظهرت يومئذ، وأصيب المسلمون، فأنزل الله في ذلك القرآن: {فويل للذين كفروا من مشهد يوم عظيم}".

قال ابن كثير:"وقد روى ابن أبي حاتم، عن ابن عباس، وعن عروة بن الزبير، وعن بعض أهل العلم، قريبًا من ذلك. وقد ذكر غير واحد من علماء التاريخ من
=

=

أهل الكتاب وغيرهم: أن قسطنطين جمعهم في محفل كبير من مجامعهم الثلاثة المشهورة عندهم، فكان جماعة الأساقفة منهم ألفين ومائة وسبعين أسقفًا، فاختلفوا في عيسى ابن مريم، عليه السلام، اختلافًا متباينًا، فقالت كل شرذمة فيه قولا فمائة تقول فيه قولا وسبعون تقول فيه قولا آخر، وخمسون تقول فيه شيئًا آخر، ومائة وستون تقول شيئًا، ولم يجتمع على مقالة واحدة أكثر من ثلاثمائة وثمانية منهم، اتفقوا على قول وصَمَّموا عليه ومال إليهم الملك، وكان فيلسوفًا، فقدمهم ونصرهم وطرد من عداهم، فوضعوا له الأمانة الكبيرة، بل هي الخيانة العظيمة، ووضعوا له كتب القوانين، وشرَّعوا له أشياء وابتدعوا بدعًا كثيرة، وحَرَّفوا دين المسيح، وغيروه، فابتنى حينئذ لهم الكنائس الكبار في مملكته كلها: بلاد الشام، والجزيرة، والروم، فكان مبلغ الكنائس في أيامه ما يقارب اثنتي عشرة ألف كنيسة، وبنت أمه هيلانة قُمَامة على المكان الذي صلب فيه المصلوب الذي تزعم اليهود والنصارى أنه المسيح، وقد كذبوا، بل رفعه الله إلى السماء".

الثاني: أنهم اليهود والنصارى. قاله مجاهد، والسدي.

الثالث: أنهم الذين تحزبوا على الأنبياء لما قص عليهم قصة عيسى اختلفوا فيه من بين الناس. قاله الحسن.

قال الطبري:"والصواب من القول في ذلك أن يقال: معنى ذلك: فاختلف الفرق المختلفون في عيسى ابن مريم من بين من دعاهم عيسى إلى ما دعاهم إليه من اتقاء الله والعمل بطاعته، وهم اليهود والنصارى، ومن اختلف فيه من النصارى، لأن جميعهم كانوا أحزابا مبتسلين مختلفي الأهواء مع بيانه لهم أمر نفسه، وقوله لهم: {إِنَّ اللهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ}".

قوله تعالى: {فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ مَشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ} [مريم: ٣٧]، أي:"فهلاك للذين كفروا مِن شهود يوم عظيم الهول، وهو يوم القيامة".

=

=

قال الطبري: "يقول: فوادي جهنم الذي يدعى ويلا للذين كفروا بالله، من الزاعمين أن عيسى لله ولد، وغيرهم من أهل الكفر به من شهودهم يوما عظيما شأنه، وذلك يوم القيامة".

وقال قتادة: "شهدوا هولا إذا عظيما".

قال ابن كثير: "تهديد ووعيد شديد لمن كذب على الله، وافترى، وزعم أن له ولدا. ولكن أنظرهم تعالى إلى يوم القيامة وأجلهم حلمًا وثقة بقدرته عليهم؛ فإنه الذي لا يعجل على من عصاه، كما جاء في الصحيحين: «إن الله ليملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته»، ثم قرأ رسول الله ﷺ: {وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ} [هود: ١٠٢] وفي الصحيحين أيضًا عن رسول الله ﷺ أنه قال: «لا أحد أصبر على أذى سمعه من الله، إنهم يجعلون له ولدا، وهو يرزقهم ويعافيهم». وقد قال الله تعالى: {وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَيَّ الْمَصِيرُ} [الحج: ٤٨] وقال تعالى: {وَلا تَحْسَبَنَّ اللهَ غَافِلا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الأَبْصَارُ} [إبراهيم: ٤٢] ولهذا قال هاهنا: {فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ مَشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ} أي: يوم القيامة، وقد جاء في الحديث الصحيح المتفق على صحته، عن عبادة بن الصامت، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: "من شهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمدًا عبده ورسوله وأن عيسى عبد الله [ورسوله] وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه، وأن الجنة حق، والنار حق، أدخله الله الجنة على ما كان من العمل»".

والأحزاب جمع حزب والمراد بهم فرق اليهود والنصارى الذين اختلفوا في شأنه- عليه السلام فمنهم من اتهم أمه بما هي بريئة منه، وهم اليهود كما في قوله: وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلى مَرْيَمَ بُهْتانًا عَظِيمًا.

ومنهم من قال هو ابن الله، أو هو الله، أو إله مع الله، أو هو ثالث ثلاثة ... إلى غير

=

=

ذلك من الأقوال الباطلة التي حكاها القرآن عن الضالين وهم النصارى.

وقد هدى الله الذين آمنوا لما اختلف فيه من الحق بإذنه. وهذا من فضله تعالى ومنه.

ولفظ ويل مصدر لا فعل له من لفظه، وهو كلمة عذاب ووعيد.

ومَشْهَدِ يصح أن يكون مصدرا ميميا بمعنى الشهود والحضور.

والمعنى: هكذا قال عيسى- عليه السلام- لقومه: اعْبُدُوا اللهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ ولكن الفرق الضالة من اليهود والنصارى اختلفوا فيما بينهم في شأنه اختلافا كبيرا، وضلوا ضلالا بعيدا، حيث وصفوه بما هو برىء منه، فويل لهؤلاء الكافرين من شهود ذلك اليوم العظيم وهو يوم القيامة، حيث سيلقون عذابا شديدا من الله بسبب ما نطقوا به من زور وبهتان.

وعبر عنهم بالموصول في قوله لِلَّذِينَ كَفَرُوا إيذانا بكفرهم جميعا، وإشعارا بعلة الحكم.

قال أبو حيان: «ومعنى: مِنْ بَيْنِهِمْ أن الاختلاف لم يخرج عنهم، بل كانوا هم المختلفين دون غيرهم».

وجاء التعبير في قوله مِنْ مَشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ بالتنكير، للتهويل من شأن هذا المشهد، ومن شأن هذا اليوم وهو يوم القيامة، الذي يشهده الثقلان وغيرهما من مخلوقات الله- تعالى-.

قوله تعالى: {أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا} [مريم: ٣٨].

عن عبد الله بن عباس -من طريق عطاء- " {أسمع بهم وأبصر}، يقول: الكُفّارُ يومئذ أسْمَعُ شيءٍ وأَبْصَرُه".

عن أبي العالية الرياحي -من طريق الربيع بن أنس- قال: " {أسمع} بحديثهم اليوم، {وأبصر} كيف يُصْنَع بهم {يوم يأتوننا}".

=

=

عن قتادة-من طريق معمر- في قوله: " {أسمع بهم وأبصر} قال: أَسْمَعُ قَوْمٍ وأَبْصَرُهُمْ، {يوم يأتوننا} قال: يوم القيامة".

قال قتادة:"ذاك والله يوم القيامة، سمعوا حين لا ينفعهم السمع، وأبصروا حين لا ينفعهم البصر".

قال محمد بن السائب الكلبي: "لا أحد يوم القيامة أسمع منهم ولا أبصر حين يقول الله تعالى لعيسى: {أأنت قلت للناس} الآية [المائدة: ١١٦]".

قال ابن زيد:"هذا يوم القيامة، فأما الدنيا فلا كانت على أبصارهم غشاوة، وفي آذانهم وقر في الدنيا؛ فلما كان يوم القيامة أبصروا وسمعوا فلم ينتفعوا، وقرأ: {رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ}".

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره مخبرًا عن حال الكافرين به، الجاعلين له أندادا، والزاعمين أن له ولدا يوم ورودهم عليه في الآخرة: لئن كانوا في الدنيا عميا عن إبصار الحقّ، والنظر إلى حجج الله التي تدلّ على وحدانيته، صما عن سماع آي كتابه، وما دعتهم إليه رسل الله فيها من الإقرار بتوحيده، وما بعث به أنبياءه، فما أسمعهم يوم قدومهم على ربهم في الآخرة، وأبصرهم يومئذ حين لا ينفعهم الإبصار والسماع".

قال الزجاج:"المعنى: مَا أَسْمَعَهمْ وأبصَرَهمْ يوم القيامة، لأنهم شَاهَدوا من البعث وأمْر الله ﷻ ما يسمع ويبصر بغير إعْمال فِكْرٍ وَتَرْوِيَةٍ، وما يُدعَوْنَ إليه من طاعة الله - جل جلاله - في الدنيا يحتاجون فيه إلى فكر ونظر فضلُّوا عن ذلك في الدنيا وآثروا اللهو والهوى، فقال الله تعالى: {لَكِنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ}".

قال السمعاني:"وصفهم بهذا؛ لأنه تعالى كان وصفهم بالبكم والعمي والصمم في الدنيا، فأخبر أنهم يسمعون ويبصرون في الآخرة، ما لم يسمعوا ويبصروا في الدنيا. ويقال: وصفهم بشدة السمع والبصر في الآخرة بحصول الإدراك بغير رؤية ولا

=

=

فكر. ويقال قوله: {أسمع بهم وأبصر} تهديد ووعيد ومعناه: أنهم يسمعون ما تصدع قلوبهم، ويرون ما يهلكهم".

قال ابن كثير:"أي: ما أسمعهم وأبصرهم يوم القيامة، يقول تعالى مخبرًا عن الكفار يوم القيامة أنهم أَسْمَعُ شيء وأبْصَرُه كما قال تعالى: {وَلَوْ تَرَى إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُو رُءُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ} [السجدة: ١٢] أي: يقولون ذلك حين لا ينفعهم ولا يجدي عنهم شيئًا، ولو كان هذا قبل معاينة العذاب، لكان نافعًا لهم ومنقذًا من عذاب الله".

قوله تعالى: {لَكِنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ} [مريم: ٣٨]، أي:"لكنِ الظالمون اليوم في هذه الدنيا في ذهابٍ بيِّنٍ عن الحق".

قال السمعاني:"أي: خطأ بين".

قال ابن كثير:"أي: لا يسمعون ولا يبصرون ولا يعقلون، [في الدنيا]، فحيث يطلب منهم الهدى لا يهتدون، ويكونون مطيعين حيث لا ينفعهم ذلك".

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: لكن الكافرون الذين أضافوا إليه ما ليس من صفته، وافتروا عليه الكذب اليوم في الدنيا، في ضلال مبين: يقول: في ذهاب عن سبيل الحقّ، وأخذ على غير استقامة، مبين أنه جائر عن طريق الرشد والهدى، لمن تأمله وفكر فيه، فهدي لرشده".

وأَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ صيغتا تعجب، لفظهما لفظ الأمر، ومعناهما التعجيب، وفاعلهما الضمير المجرور بالباء، وهي زائدة فيهما لزوما، والمعنى: ما أسمع هؤلاء الكافرين وما أبصرهم في ذلك اليوم، لما يخلع قلوبهم، ويسود وجوههم، مع أنهم كانوا في الدنيا صما وعميانا عن الحق الذي جاءتهم به رسلهم.

(تنبيه): العجب صفة ثابتة لله تعالى.

=

=

قال ابن جرير في التفسير: قوله: {بل عجبت ويسخرون}؛ اختلفت القراء في قراءة ذلك، فقرأته عامة قراء الكوفة: {بل عجبت ويسخرون}؛ بضم التاء من {عجبت}؛ بمعنى: بل عظم عندي وكبر اتخاذهم لي شريكا وتكذيبهم تنزيلي وهم يسخرون، وقرأ ذلك عامة قراء المدينة والبصرة وبعض قراء الكوفة {عجبت}؛ بفتح التاء؛ بمعنى: بل عجبت أنت يا محمد ويسخرون من هذا القرآن.

والصواب من القول في ذلك أن يقال: إنهما قراءتان مشهورتان في قراء الأمصار، فبأيتهما قرأ القاريء؛ فمصيب، فإن قال قائل: وكيف يكون مصيبا القاريء بهما مع اختلاف معنييهما؟! قيل: إنهما وإن اختلف معناهما؛ فكل واحد من معنييه صحيح، قد عجب محمد مما أعطاه الله من الفضل، وسخر منه أهل الشرك بالله، وقد عجب ربنا من عظيم ما قاله المشركون في الله، وسخر المشركون مما قالوه.

وقال أبو يعلى الفراء في إبطال التأويلات (ص ٢٤٥) بعد أن ذكر ثلاثة أحاديث في إثبات صفة العجب: اعلم أن الكلام في هذا الحديث كالكلام في الذي قبله، وأنه لا يمتنع إطلاق ذلك عليه وحمله على ظاهره؛ إذ ليس في ذلك ما يحيل صفاته، ولا يخرجها عما تستحقه؛ لأنا لا نثبت عجبا هو تعظيم لأمر دهمه استعظمه لم يكن عالما به؛ لأنه مما لا يليق بصفاته، بل نثبت ذلك صفة كما أثبتنا غيرها من صفاته.

وقال شيخ الإسلام في مجموع الفتاوى (٦/ ١٢٣): وأما -قول القائل-: " التعجب استعظام للمتعجب منه " فيقال: نعم. وقد يكون مقرونا بجهل بسبب التعجب وقد يكون لما خرج عن نظائره والله تعالى بكل شيء عليم فلا يجوز عليه أن لا يعلم سبب ما تعجب منه؛ بل يتعجب لخروجه عن نظائره تعظيما له، والله تعالى يعظم ما هو عظيم؛ إما لعظمة سببه أو لعظمته. فإنه وصف بعض الخير بأنه

=

=

عظيم. ووصف بعض الشر بأنه عظيم فقال تعالى {رب العرش العظيم} وقال {ولقد آتيناك سبعا من المثاني والقرآن العظيم} وقال {ولو أنهم فعلوا ما يوعظون به لكان خيرا لهم وأشد تثبيتا} {وإذا لآتيناهم من لدنا أجرا عظيما} وقال: {ولولا إذ سمعتموه قلتم ما يكون لنا أن نتكلم بهذا سبحانك هذا بهتان عظيم} وقال {إن الشرك لظلم عظيم} ولهذا قال تعالى {بل عجبت ويسخرون} على قراءة الضم فهنا هو عجب من كفرهم مع وضوح الأدلة، {وقال النبي ﷺ للذي آثر هو وامرأته ضيفهما: لقد عجب الله} وفي لفظ في الصحيح: {لقد ضحك الله الليلة من صنعكما البارحة} وقال {إن الرب ليعجب من عبده إذا قال رب اغفر لي فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت يقول علم عبدي أنه لا يغفر الذنوب إلا أنا} وقال {عجب ربك من شاب ليست له صبوة} وقال {عجب ربك من راعي غنم على رأس شظية يؤذن ويقيم فيقول الله انظروا إلى عبدي} أو كما قال، ونحو ذلك. انتهى.

والمراد باليوم في قوله لكِنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ هو ما كانوا فيه في الدنيا من ضلال وغفلة عن الحق.

أى: أن هؤلاء القوم ما أعجب حالهم إنهم لا يسمعون ولا يبصرون في الدنيا حين يكون السمع والبصر وسيلة للهدى والنجاة. وهم أسمع ما يكون السمع وأبصر ما يكون البصر، عند ما يكون السمع والبصر وسيلة للخزى والعذاب في الآخرة.

قوله تعالى: {وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ} [مريم: ٣٩].

قال ابن كثير:"أي: أنذر الخلائق يوم الحسرة".

قال السمعاني:"معناه: يوم الندامة، ويقال: كل الناس يندمون يوم القيامة؛ أما المسيء فيندم هلا أحسن، وأما المحسن فيندم هلا ازداد «حسنا».

وأما قول أكثر المفسرين في الآية: هذه الحسرة حيث يذبح الموت على الصراط".

=

=

عن عبد الله بن عباس -من طريق علي- {يوم الحسرة}: هو مِن أسماء يوم القيامة. وقرأ: {أن تقول نفس يا حسرتا على ما فرطت في جنب الله} [الزمر: ٥٦]".

عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: " «إذا دخل أهل الجنة الجنة، وأهل النار النار، يجاء بالموت كأنه كبش أملح، فيوقف بين الجنة والنار، فيقال: يا أهل الجنة، هل تعرفون هذا؟ قال: "فيشرئبون فينظرون ويقولون: نعم هذا الموت". قال: "فيقال: يا أهل النار، هل تعرفون هذا؟ قال: فيشرئبون فينظرون ويقولون: نعم، هذا الموت" قال: "فيؤمر به فيذبح" قال: "ويقال: يا أهل الجنة، خلود ولا موت، ويا أهل النار خلود ولا موت" قال: ثم قرأ رسول الله ﷺ: {وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ} وأشار بيده قال: "أهل الدنيا في غفلة الدنيا»".

عن ابن مسعود في قوله: " {وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الأَمْرُ} قال: إذا دخل أهل الجنة الجنة، وأهل النار النار، أتي بالموت في صورة كبش أملح، حتى يوقف بين الجنة والنار، ثم ينادي مناد: يا أهل الجنة، هذا الموت الذي كان يُميتُ الناس في الدنيا، فلا يبقى أحد في أهل عليين ولا في أسفل درجة في الجنة إلا نظر إليه، ثم ينادى: يا أهل النار، هذا الموت الذي كان يميت الناس في الدنيا، فلا يبقى أحد في ضحضاح من نار ولا في أسفل درك من جهنم، إلا نظر إليه، ثم يذبح بين الجنة والنار، ثم ينادى: يا أهل الجنة، هو الخلود أبد الآبدين، ويا أهل النار، هو الخلود أبد الآبدين، فيفرح أهل الجنة فرحة لو كان أحد ميتًا من فرح ماتوا، ويشهق أهل النار شهقة لو كان أحد ميتًا من شهقة ماتوا فذلك قوله: {وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الأَمْرُ} يقول: إذا ذبح الموت".

عبد الله بن مسعود -من طريق أبي الزَّعْراء- في قصة ذكرها، قال: "ما مِن نفس إلا

=

=

وهي تنظر إلى بيت في الجنة، وبيت في النار، وهو يوم الحسرة، فيرى أهلُ النارِ البيتَ الذي في الجنة، فيُقال لهم: لو عمِلتم. فتأخذهم الحسرة، ويرى أهلُ الجنة البيتَ الذي في النار، فيقال: لولا أن مَنَّ الله عليكم".

قوله تعالى: {إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ} [مريم: ٣٩]، أي:"حين قضي أمرُ الله في الناس".

قال السدي:"يعني: إذ وجب العذاب فوقع أهل النار".

عن ابن جريج -من طريق حجاج- قال: "يُحْشَر أهلُ النار حين يذبح الموت، والفريقان ينظرون، فذلك قوله: {إذ قضي الأمر} قال: ذُبِح الموت، {وهم في غفلة}".

عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم -من طريق ابن وهب- في قوله: {وأنذرهم يوم الحسرة}، قال: يوم القيامة. وقرأ {أن تقول نفس يا حسرتا على ما فرطت في جنب الله} [الزمر: ٥٦]".

قال السمعاني:"أي: فرغ من الأمر".

قال ابن كثير:"أي: فصل بين أهل الجنة وأهل النار، ودَخل كل إلى ما صار إليه مخلدًا فيه".

عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ، في قوله: {وأنذرهم يوم الحسرة}، قال: «يُنادى: يا أهل الجنة. فيَشْرَئِبُّون، وينظرون، ويُنادى: يا أهل النار. فيَشْرَئِبُّون، وينظرون، فيُقال: ما تعرفون هذا؟ فيقولون: نعم. فيُجاء بالموت في صورة كبش أملح، فيُقال: هذا الموت. فيُقَرَّب، ويُذبَح، ثم يُقال: يا أهل الجنة، خلود ولا موت، ويا أهل النار، خلود لا موت». ثم قرأ: {وأنذرهم يوم الحسرة إذ قضي الأمر}".

عن عبد الله بن عباس -من طريق ابن جُرَيج- في قوله: {وأنذرهم يوم الحسرة}، قال: "يُصَوِّرُ اللهُ الموتَ في صورة كبش أملح، فيُذبَح، فييأس أهلُ النار مِن الموت فيما يرجونه، فتأخذهم الحسرةُ مِن أجل الخلود في النار".

=

=

عن عبد الله بن مسعود -من طريق زِر بن حُبَيْش- في قوله: {وأنذرهم يوم الحسرة إذ قضي الأمر}، قال: "إذا دخل أهلُ الجنةِ الجنةَ، وأهلُ النارِ النارَ؛ أُتِي بالموت في صورة كبش أمْلَح، حتى يُوقَف بين الجنة والنار، ثم يُنادِي منادٍ: يا أهل الجنة، هذا الموتُ الذي كان يميت الناسَ في الدنيا. فلا يبقى أحدٌ في عِلِّيِّين، ولا في أسفل درجةٍ من الجنة إلا نظر إليه، ثم يُنادي: يا أهل النار، هذا الموت الذي كان يميت الناس في الدنيا. فلا يبقى أحد في ضَحْضاحٍ مِن نار، ولا أسفل دَرْكٍ مِن جهنم إلا نظر إليه، ثم يذبح بين الجنة والنار، ثم ينادي: يا أهل الجنة، هو
الخلود أبد الآبدين، ويا أهل النار، هو الخلود أبد الآبدين. فيفرح أهلُ الجنة فرحةً لو كان أحدٌ ميِّتًا مِن فرح ماتوا، ويشهقُ أهلُ النار شَهْقَةً لو كان [أحدٌ] ميِّتًا مِن شهقة ماتوا، فذلك قوله: {وأنذرهم يوم الحسرة إذ قضي الأمر}. يقول: إذا ذُبِح الموت".

قوله تعالى: {وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ} [مريم: ٣٩]، أي:"وهم اليوم في هذه الدنيا في غفلة عمَّا أُنذروا به".

قال السمعاني:"معناه: وهم في غفلة في الدنيا عما يعمل بهم في الآخرة".

قال ابن كثير:"أي: اليوم {فِي غَفْلَةٍ} عما أنذروا به".

عن أبي سعيد، عن النبي ﷺ، قوله: {وهم في غفلة}، قال: «في الدنيا».

قوله تعالى: {وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ} [مريم: ٣٩]، أي:"فهم لا يصدقون، ولا يعملون العمل الصالح".

قال ابن كثير:"أي: لا يُصَدقون به".

قال ابن الجوزي:"زعم بعض المغفلين من ناقلي التفسير، أن الإنذار منسوخ بآية السيف، وهذا تلاعب من هؤلاء بالقرآن ومن أين يقع التنافي بين إنذارهم القيامة، وبين قتالهم في الدنيا".

=

=

عن ابن عمر، قال: سمعتُ رسول الله يقول: «إذا صار أهلُ الجنة إلى الجنة، وصار أهلُ النار إلى النار؛ أُتِي بالموت حتى يُجعل بين الجنة والنار، ثم يُذبح، ثم يُنادي منادٍ: يا أهل الجنة، لا موت، ويا أهل النار، لا موت. فيزداد أهلُ الجنة فرحًا إلى فرحهم، ويزداد أهلُ النار حزنًا إلى حزنهم».

والإنذار: الإعلام بالمخوف منه على وجه الترهيب والتحذير، وأشد ما يخوف به يوم القيامة.

والحسرة: أشد الندم على الأمر الذي فات وانقضى ولا يمكن تداركه.

أى: وأنذر- أيها الرسول الكريم- المشركين، وخوفهم من أهوال يوم القيامة، يوم يتحسر الظالمون على تفريطهم في طاعة الله، ولكن هذا التحسر لن ينفعهم، لأن حكم الله قد نفذ فيهم وقضى الأمر بنجاة المؤمنين، وبعذاب الفاسقين، وذهب أهل الجنة إلى الجنة وأهل النار إلى النار.

قال ابن الجوزي في نواسخ القرآن: ذكر الآية الأولى: قوله تعالى: {وأنذرهم يوم الحسرة}.

زعم بعض المغفلين من ناقلي التفسير، أن الإنذار (منسوخ بآية السيف) وهذا تلاعب من هؤلاء بالقرآن ومن أين يقع التنافي بين إنذارهم القيامة، وبين قتالهم في الدنيا. ا.هـ

وقوله: وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ حال من الضمير المنصوب في أَنْذِرْهُمْ.

أى: أنذرهم لأنهم في حالة يحتاجون فيها إلى الإنذار وهي الغفلة وعدم الإيمان.

قوله تعالى: {إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا} [مريم: ٤٠].

قال مقاتل:"يعني: نميتهم ويبقى الرب- جل جلاله- ونرث أهل السماء وأهل الأرض".

قال يحيى بن سلام:"نهلك الأرض ومن عليها".

=

=

قال السمعاني:"معناه: إنا نميت سكان الأرض، ونهلكهم، فتكون الأرض ومن عليها لنا وفي حكمنا. ومعنى الإرث: هو أنه لا يبقى لأحد ملك ولا سبب سوى الله".

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: لا يحزنك تكذيب هؤلاء المشركين لك يا محمد فيما أتيتهم به من الحق، فإن إلينا مرجعهم ومصيرهم ومصير جميع الخلق غيرهم، ونحن وارثو الأرض ومن عليها من الناس، بفنائهم منها، وبقائها لا مالك لها غيرنا".

قال القشيري:"يريد به إذا قبض أرواح بنى آدم بجملتهم، ولم يبق على وجه الأرض منهم واحد، وليس يريد به استحداث ملكه، وهو اليوم مالك الأرض ومن عليها، ومالك الكون وما فيه.

ويقال إن زكريا قال- لما سأل الولد: {يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوب} [مريم: ٦]، وقال تعالى فى صفة بنى إسرائيل: {كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ} [الشعراء: ٥٩]، وقال: {إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِه} [الأعراف: ١٢٨]، ولما انتهى إلى هذه الأمة، قال: {إنا نحن نرث الأرض ومن عليها}.. فشتان بين من وارثه الولد وبين من وارثه الأحد!

ويقال: هان على العبد المسلم إذا مات إذا كان الحق وارثه.. وهذا مخلوق يقول فى صفة مخلوق:

فإن يك عتاب مضى لسبيله... فما مات من يبقى له مثل خالد

ثم قال القشيري: "وقال تعالى: {وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاء} [آل عمران: ١٦٩]، لماذا؟ لأن وارثهم الله".

قوله تعالى: {وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ} [مريم: ٤٠]، أي:"وإلينا مصيرهم وحسابهم، فنجازيهم على أعمالهم".

=

وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا (٤١).

{وَاذْكُرْ} لَهُمْ {فِي الْكِتَاب إبْرَاهِيم} أَيْ خَبَره {إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا} مُبَالِغًا فِي الصِّدْق {نَبِيًّا} وَيُبْدَل مِنْ خَبَره.

إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَاأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا (٤٢).

{إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ} آزَر {يَا أَبَتِ} التَّاء عِوَض عَنْ يَاء الْإِضَافَة وَلَا يُجْمَع بَيْنهمَا وَكَانَ يُعْبَد الْأَصْنَام {لِمَ تَعْبُد مَا لَا يَسْمَع وَلَا يُبْصِر وَلَا يُغْنِي عَنْك} لَا يَكْفِيك {شَيْئًا} مِنْ نَفْع أَوْ ضُرّ.

يَاأَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا (٤٣).

{يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنْ الْعِلْم مَا لَمْ يَأْتِك فَاتَّبِعْنِي أَهْدِك صِرَاطًا} طَرِيقًا

=

قال السمعاني:"أي: يردون".

قال مقاتل:"يعني: في الآخرة بعد الموت".

قال الطبري:"ثم علينا جزاء كل عامل منهم بعمله، عند مرجعه إلينا، المحسن منهم بإحسانه، والمسيء بإساءته".

قال حزم بن أبي حزم القُطَعي: "كتب عمر بن عبد العزيز إلى عبد الحميد بن عبد الرحمن صاحب الكوفة: أما بعد، فإن الله كتب على خلقه حين خلقهم الموت، فجعل مصيرهم إليه، وقال فيما أنزل من كتابه الصادق الذي حفظه بعلمه، وأشهد ملائكته على خلقه: أنه يرث الأرض ومن عليها، وإليه يرجعون".

أى: إنا نحن وحدنا الذين نميت جميع الخلائق الساكنين بالأرض، فلا يبقى لأحد غيرنا من سلطان عليهم أو عليها، وهؤلاء الخلائق جميعا وَإِلَيْنا وحدنا يُرْجَعُونَ يوم القيامة، فنحاسبهم على أعمالهم.

وشبيه بهذه الآية قوله- تعالى- وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَنَحْنُ الْوارِثُونَ.

{سويا} مستقيما.

يَاأَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا (٤٤).

{يَا أَبَتِ لَا تَعْبُد الشَّيْطَان} بِطَاعَتِك إِيَّاهُ فِي عِبَادَة الْأَصْنَام {إِنَّ الشَّيْطَان كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا} كَثِير الْعِصْيَان.

يَاأَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا (٤٥).

{يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَاف أَنْ يَمَسّك عَذَاب مِنْ الرَّحْمَن} إِنْ لَمْ تَتُبْ {فَتَكُون لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا} نَاصِرًا وَقَرِينًا فِي النَّار.

قَالَ أَرَاغِبٌ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِي يَاإِبْرَاهِيمُ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا (٤٦).

{قَالَ أَرَاغِب أَنْتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيم} فَتَعِيبهَا {لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ} عَنْ التَّعَرُّض لَهَا {لَأَرْجُمَنك} بِالْحِجَارَةِ أَوْ بِالْكَلَامِ الْقَبِيح فَاحْذَرْنِي {وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا} دَهْرًا طَوِيلًا.

قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا (٤٧).

{قَالَ سَلَام عَلَيْك} مِنِّي أَيْ لَا أُصِيبك بِمَكْرُوهٍ {سَأَسْتَغْفِرُ لَك رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا} مِنْ حَفِيَ أَيْ بَارًّا فَيُجِيب دُعَائِي وَقَدْ أَوْفَى بِوَعْدِهِ الْمَذْكُور فِي الشُّعَرَاء وَاغْفِرْ لِأَبِي وَهَذَا قَبْل أَنْ يَتَبَيَّن لَهُ أَنَّهُ عَدُوّ الله كَمَا ذَكَرَهُ فِي بَرَاءَة.

وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ وَأَدْعُو رَبِّي عَسَى أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا (٤٨).

{وَأَعْتَزِلكُمْ وَمَا تَدْعُونَ} تَعْبُدُونَ {مِنْ دُون الله وأدعوا} أعبد {ربي عسى أ} ن {لَا أَكُون بِدُعَاءِ رَبِّي} بِعِبَادَتِهِ {شَقِيًّا} كَمَا شَقِيتُمْ بِعِبَادَةِ الْأَصْنَام.

فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلًّا جَعَلْنَا

نَبِيًّا (٤٩).

{فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُون الله} بِأَنْ ذَهَبَ إِلَى الْأَرْض الْمُقَدَّسَة {وَهَبْنَا لَهُ} ابْنَيْنِ يَأْنَس بِهِمَا {إِسْحَاق وَيَعْقُوب وَكُلًّا} مِنْهُمَا {جعلنا نبيا}.

وَوَهَبْنَا لَهُمْ مِنْ رَحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا (٥٠).

{ووهبنا لهم} الثلاثة {مِنْ رَحْمَتنَا} الْمَال وَالْوَلَد {وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَان صِدْق عَلِيًّا} رَفِيعًا هُوَ الثَّنَاء الْحَسَن فِي جَمِيع أَهْل الْأَدْيَان[1].

---

(١) أجل الكتب وأفضلها وأعلاها، هذا الكتاب المبين، والذكر الحكيم، فإن ذكر فيه الأخبار، كانت أصدق الأخبار وأحقها، وإن ذكر فيه الأمر والنهي، كانت أجل الأوامر والنواهي، وأعدلها وأقسطها، وإن ذكر فيه الجزاء والوعد والوعيد، كان أصدق الأنباء وأحقها وأدلها على الحكمة والعدل والفضل،. وإن ذكر فيه الأنبياء والمرسلون، كان المذكور فيه، أكمل من غيره وأفضل، ولهذا كثيرا ما يبدئ ويعيد في قصص الأنبياء، الذين فضلهم على غيرهم، ورفع قدرهم، وأعلى أمرهم، بسبب ما قاموا به، من عبادة الله ومحبته، والإنابة إليه، والقيام بحقوقه، وحقوق العباد، ودعوة الخلق إلى الله، والصبر على ذلك، والمقامات الفاخرة، والمنازل العالية،. فذكر الله في هذه السورة جملة من الأنبياء، يأمر الله رسوله أن يذكرهم، لأن في ذكرهم إظهار الثناء على الله وعليهم، وبيان فضله وإحسانه إليهم،. وفيه الحث على الإيمان بهم ومحبتهم، والاقتداء بهم.

قوله تعالى: {وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ} [مريم: ٤١].

قال الفراء:"اقصص قصة إبراهيم: اتل عليهم".

قال السدي:"يقول: اذكر لأهل مكة أمر إبراهيم".

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره لنبيه: {واذْكُرْ} يا محمد في كتاب الله {إِبراهيمِ} خليل الرحمن، فاقصص على هؤلاء المشركين قصصه وقصص أبيه".

=

=

قال القرطبي:"المعنى: واذكر في الكتاب الذي أنزل عليك وهو القرآن قصة إبراهيم وخبره".

قوله تعالى: {إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا} [مريم: ٤١]، أي:"إنه كان عظيم الصدق، ومِن أرفع أنبياء الله تعالى منزلة".

قال الطبري:"يقول: كان من أهل الصدق في حديثه وأخباره ومواعيده لا يكذب، {نَبِيًّا} يقول: كان الله قد نبأه وأوحى إليه".

قال البغوي:"«الصديق»: "الكثير الصدق القائم عليه. وقيل: من صدق الله في وحدانيته وصدق أنبياءه ورسله وصدق بالبعث، وقام بالأوامر فعمل بها، فهو الصديق. و «النبي»: العالي في الرتبة بإرسال الله تعالى إياه".

قال السعدي:"جمع الله له بين الصديقية والنبوة. فـ«الصديق»: كثير الصدق، فهو الصادق في أقواله وأفعاله وأحواله، المصدق بكل ما أمر بالتصديق به،. وذلك يستلزم العلم العظيم الواصل إلى القلب، المؤثر فيه، الموجب لليقين، والعمل الصالح الكامل،. وإبراهيم عليه السلام، هو أفضل الأنبياء كلهم بعد محمد ﷺ، وهو الأب الثالث للطوائف الفاضلة، وهو الذي جعل الله في ذريته النبوة والكتاب، وهو الذي دعا الخلق إلى الله، وصبر على ما ناله من العذاب العظيم، فدعا القريب والبعيد، واجتهد في دعوة أبيه، مهما أمكنه، وذكر الله مراجعته إياه".

{وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا} جمع الله له بين الصديقية والنبوة. فالصديق: كثير الصدق، فهو الصادق في أقواله وأفعاله وأحواله، المصدق بكل ما أمر بالتصديق به،. وذلك يستلزم العلم العظيم الواصل إلى القلب، المؤثر فيه، الموجب لليقين، والعمل الصالح الكامل،. وإبراهيم عليه السلام، هو أفضل الأنبياء كلهم بعد محمد ﷺ، وهو الأب الثالث للطوائف الفاضلة، وهو الذي جعل الله في ذريته النبوة والكتاب.

=

=

قال الرازي ما ملخصه: «اعلم أن الغرض من هذه السورة، بيان التوحيد والنبوة والحشر، والمنكرون للتوحيد فريقان: فريق أثبت معبودا غير الله حيا عاقلا وهم النصارى ومن على شاكلتهم، وفريق أثبت معبودا من الجماد ليس بحي ولا عاقل، وهم عبدة الأوثان.

والفريقان وإن اشتركا في الضلال إلا أن ضلال الفريق الثاني أعظم. ولما بين- سبحانه- ضلال الفريق الأول- وهم النصارى-، أتبعه بذكر الفريق الثاني، وهم عبدة الأوثان قوم إبراهيم- عليه السلام.

وإبراهيم- عليه السلام هو من أولى العزم من الرسل، وهو الذي جعل الله في ذريته النبوة والكتاب، وهو الذي وصفه الله- تعالى- بجملة من الصفات الكريمة، منها قوله- تعالى-: إِنَّ إِبْراهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ.

أى: واذكر- أيها الرسول الكريم- للناس في هذا القرآن قصة أبيهم إبراهيم- عليه السلام، لكي يعتبروا ويتعظوا ويقتدوا بهذا النبي الكريم في قوة إيمانه، وصفاء يقينه وجميل أخلاقه.

وقوله: إِنَّهُ كانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا استئناف مسوق لتعليل موجب الأمر في قوله: وَاذْكُرْ.

والصديق: صيغة مبالغة من الصدق. أى: إنه كان ملازما للصدق في كل أقواله وأفعاله وأحواله، كما كان نبيا من أولى العزم، الذين فضلهم الله على غيرهم من الرسل الكرام.

قوله تعالى: {إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ} [مريم: ٤٢].

قال الطبري:"يقول: ما تصنع بعبادة الوَثَن الذي لا يسمع، {وَلا يُبْصِرُ} شيئا".

قال مكي:"يعني: الأصنام، لا يسمعك إذا دعوته، ولا يبصرك إذا أجبته".

قال السعدي: أي: " لم تعبد أصناما، ناقصة في ذاتها، وفي أفعالها، فلا تسمع، ولا تبصر".

=

=

قوله تعالى: {وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا} [مريم: ٤٢]، أي:"ولا يدفع عنك شيئًا من دون الله؟".

قال مكي:"إن نزل بكل أمر أو ضر لم ينفعك ولا دفع عنك شيئًا".

قال البغوي:"أي: لا يكفيك {شيئا}".

قال الطبري:"يقول: ولا يدفع عنك ضرّ شيء، إنما هو صورة مصوّرة لا تضرّ ولا تنفع، يقول ما تصنع بعبادة ما هذه صفته؟ اعبد الذي إذا دعوته سمع دعاءك، وإذا أحيط بك أبصرك فنصرك، وإذا نزل بك ضرّ دفع عنك".

قال السعدي:"ولا تملك لعابدها نفعا ولا ضرا، بل لا تملك لأنفسها شيئا من النفع، ولا تقدر على شيء من الدفع، فهذا برهان جلي دال على أن عبادة الناقص في ذاته وأفعاله مستقبح عقلا وشرعا. ودل بتنبيهه وإشارته، أن الذي يجب ويحسن عبادة من له الكمال، الذي لا ينال العباد نعمة إلا منه، ولا يدفع عنهم نقمة إلا هو، وهو الله تعالى".

عن أنس، قال: قال رسول الله ﷺ: «حقُّ الوالدِ على ولده ألا يُسَمِّيَه إلا بما سمى إبراهيمُ به أباه: يا أبت. ولا يسميه باسمه».

والظرف إِذْ: بدل اشتمال من إِبْراهِيمَ وجملة إِنَّهُ كانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا معترضة بين البدل والمبدل منه لتعظيم شأنه- عليه السلام.

والتاء في قوله يا أَبَتِ: عوض عن ياء المتكلم، إذ الأصل با أبى، وناداه بهذا الوصف دون أن يذكر اسمه: زيادة في احترامه واستمالة قلبه للحق.

أى: واذكر خبر إبراهيم وقت أن قال لأبيه آزر مستعطفا إياه: يا أبت لماذا تعبد شيئا لا يسمع من يناديه. ولا يبصر من يقف أمامه، ولا يغنى عنك شيئا من الإغناء، لأنه لا يملك لنفسه- فضلا عن غيره- نفعا ولا ضرا.

قوله تعالى: {يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ} [مريم: ٤٣].

=

=

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: قال إبراهيم لأبيه: يا أبت إني قد آتاني الله من العلم ما لم يؤتك".

قال مقاتل:"يعني: ما يكون من بعد الموت".

قال مكي:"يعني: الوحي الذي أوحى الله إليه".

قال الزجاج:"وقوله: {إني قد جاءني من العلم ما لم يأتك}، يدل أنه كان قد أتاه الوحي".

قال السعدي:"أي: يا أبت لا تحقرني وتقول: إني ابنك، وإن عندك ما ليس عندي، بل قد أعطاني الله من العلم ما لم يعطك.. وفي هذا من لطف الخطاب ولينه، ما لا يخفى، فإنه لم يقل: «يا أبت أنا عالم، وأنت جاهل» أو «ليس عندك من العلم شيء»، وإنما أتى بصيغة تقتضي أن عندي وعندك علما، وأن الذي وصل إلي لم يصل إليك ولم يأتك، فينبغي لك أن تتبع الحجة وتنقاد لها".

قوله تعالى: {فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا} [مريم: ٤٣]، أي:"فاقبل مني، واتبعني إلى ما أدعوك إليه، أرشدك إلى الطريق السوي الذي لا تضلُّ فيه".

قال مقاتل:"{فاتبعني} على ديني، {أهدك} طريقا عدلا، يعني: دين الإسلام".

قال السدي:"يعني: دينًا عدلًا، وهو الإسلام".

قال الطبري:"يقول: فاقبل مني نصيحتي أبصرك هدى الطريق المستوي الذي لا تضلّ فيه إن لزمته، وهو دين الله الذي لا اعوجاج فيه".

قال مكي:"أي: أقبل قولي، وما أدعوك إليه، أبصرك وأرشدك الطريق المستوي الذي لا تضل فيه إن لزمته".

قال السعدي:"أي: مستقيما معتدلا وهو: عبادة الله وحده لا شريك له، وطاعته في جميع الأحوال".

ثم دعاه عليه السلام إلى اتباع الحق بألطف أسلوب فقال: يا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ

=

النافع الذي علمني الله- تعالى- إياه ما لَمْ يَأْتِكَ أنت، وهذا فضل الله يؤتيه من يشاء، فَاتَّبِعْنِي فيما أدعوك إليه أَهْدِكَ صِراطًا سَوِيًّا أى: أهدك إلى الطريق المستقيم الذي لا عوج فيه ولا اضطراب.

ثم نهاه عن عبادة الشيطان، لأنها جهل وانحطاط في التفكير فقال: يا أَبَتِ لا تَعْبُدِ الشَّيْطانَ فإن عبادتك لهذه الأصنام هي عبادة وطاعة للشيطان الذي هو عدو للإنسان.

ثم علل له هذا النهى بقوله: إِنَّ الشَّيْطانَ كانَ لِلرَّحْمنِ عَصِيًّا أى: إن الشيطان الذي أغراك بعبادة هذه الأصنام كان للرحمن عصيا، أى: كثير العصيان، لا يهدى الناس إلى طاعة الله، وإنما يهديهم إلى مخالفته ومعصيته وموجبات غضبه.

قوله تعالى: {يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ} [مريم: ٤٤].

قال مكي:"أي: لا تطعه فيم أمرك به فتكون بمنزلة من عبده".

قال ابن أبي زمنين:"أي: إن عبادة الوثن عبادة الشيطان".

قال ابن الجوزي:"أي: لا تطعه فيما يأمر به من الكفر والمعاصي".

قال السعدي:"لأن من عبد غير الله، فقد عبد الشيطان، كما قال تعالى: {أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ} [يس: ٦٠]".

قوله تعالى: {إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا} [مريم: ٤٤]، أي:"إن الشيطان كان للرحمن مخالفًا مستكبرًا عن طاعة الله".

قال مقاتل:"يعني: عاصيا ملعونا".

قال الفخر:"أي: لا تطعه لأنه عاص لله فنفره بهذه الصفة عن القبول منه، لأنه أعظم الخصال المنفرة، واعلم أن إبراهيم عليه السلام لإمعانه في الإخلاص لم يذكر من جنايات الشيطان إلا كونه عاصيا لله ولم يذكر

معاداته لآدم عليه السلام كأن النظر في عظم ما ارتكبه من ذلك العصيان غمى فكره

=

=

وأطبق على ذهنه، وأيضا فإن معصية الله تعالى لا تصدر إلا عن ضعيف الرأي، ومن كان كذلك كان حقيقا أن لا يلتفت إلى رأيه ولا يجعل لقوله وزن".

قال السعدي:"فمن اتبع خطواته، فقد اتخذه وليا وكان عاصيا لله بمنزلة الشيطان. وفي ذكر إضافة العصيان إلى اسم «الرحمن»، إشارة إلى أن المعاصي تمنع العبد من رحمة الله، وتغلق عليه أبوابها. كما أن الطاعة أكبر الأسباب لنيل رحمته".

قوله تعالى: {يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ} [مريم: ٤٥].

قال الواحدي: أي:"أخشى أن يصيبك عذاب الله بطاعتك للشيطان".

قال الطبري:"يقول: يا أبت إني أعلم انك إن متّ على عبادة الشيطان أنه يمسك عذاب من عذاب الله، و «الخوف» في هذا الموضع بمعنى: العلم".

قال يحيى بن سلام:"أي: إنك إذا نزل بك العذاب لم تقبل توبتك، وما لم ينزل العذاب فتوبتك مقبولة إن تبت، وقد كان إبراهيم يرجو أن يتوب. فلما مات على الكفر ذهب ذلك الرجاء".

قال الماتريدي:"قال بعضهم: قوله: {إني أخاف}: أي: أعلم أنه يمشك عذاب من الرحمن لو دمت على الكفر وختمت به، فإن كان تأويله العلم فهو على هذا الشرط يخرج، ويحتمل أن يكون الخوف في موضع الخوف، أي: {إني أخاف أن يمسك عذاب من الرحمن} إن لم تنجز وعدك".

قوله تعالى: {فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا} [مريم: ٤٥]، أي:"فتكون للشيطان قرينًا في النار".

قال مقاتل:"يعنى قريبا فى الآخرة".

قال الماتريدي وأبو الليث السمرقندي:"يعني: قرينا في النار".

قال الطبري:"يقول: تكون له وليا دون الله ويتبرأ الله منك، فتهلك".

قال القشيري:"لم يغادر الخليل شيئا من الشفقة على أبيه، ولم ينفعه جميل

=

=

وعظه، ولم تنجع فيه كثرة نصحه فإن من أقصته سوابق التقدير لم تخلصه لواحق التدبير".

ثم ختم هذا النداء بما يدل على حبه له، وشفقته عليه فقال: يا أَبَتِ إِنِّي أَخافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذابٌ مِنَ الرَّحْمنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطانِ وَلِيًّا.

أى: يا أبت إنى أشفق عليك من أن ينزل بك عذاب من الرحمن بسبب إصرارك على عبادة غيره، وبذلك تصبح قرينا للشيطان في العذاب بالنار، لأنك انقدت له، وخالفت طريق الحق.

بهذا الأسلوب الحكيم الهادئ الرقيق ... خاطب إبراهيم أباه، وهو يدعوه إلى عبادته- تعالى- وحده.

قال الزمخشري ما ملخصه: انظر كيف رتب إبراهيم الكلام مع أبيه في أحسن اتساق، وساقه أرشق مساق، مع استعماله المجاملة واللطف والرفق واللين والأدب الجميل والخلق الحسن.

وذلك أنه طلب منه- أولا- العلة في خطئه. طلب منبه على تماديه، موقظ لإفراطه وتناهيه ... حيث عبد ما ليس به حس ولا شعور.

ثم ثنى بدعوته إلى الحق مترفقا به متلطفا، فلم يصف أباه بالجهل المفرط، ولا نفسه بالعلم الفائق. ولكنه قال: إن معى طائفة من العلم وشيئا منه ليس معك.. ثم ثلث بتثبيطه ونهيه عما كان عليه، بتصويره بصورة يستنكرها كل عاقل.. ثم ربع بتخويفه سوء العاقبة، وما يجره ما هو فيه من الوبال.

ولم يخل ذلك من حسن الأدب، حيث لم يصرح بأن العقاب لا حق له، وأن العذاب لاصق به، ولكنه قال: إِنِّي أَخافُ أَنْ يَمَسَّكَ....

وصدر كل نصيحة من النصائح الأربع بقوله: يا أَبَتِ

توسلا واستعطافا ....

=

=

ولكن هذه النصيحة الحكيمة الغالية من إبراهيم لأبيه. لم تصادف أذنا واعية ولم تحظ من أبيه بالقبول بل قوبلت بالاستنكار والتهديد فقد قال الأب الكافر لابنه المؤمن: أَراغِبٌ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِي يا إِبْراهِيمُ؟ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا.

قوله تعالى: {قَالَ أَرَاغِبٌ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ} [مريم: ٤٦].

قال أبو الليث السمرقندي:"يعني: أتارك أنت عبادة آلهتي؟ يا إبراهيم".

قال الطبري:"قال أبو إبراهيم لإبراهيم، حين دعاه إبراهيم إلى عبادة الله وترك عبادة الشيطان، والبراءة من الأوثان والأصنام: {أَرَاغِبٌ أَنْتَ} يا إبراهيم عن عبادة آلهتي؟".

قوله تعالى: {لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ} [مريم: ٤٦]، أي:"أي لئن لم تترك شتم وعيب آلهتي لأرجمنك بالحجارة".

قال مقاتل:"يعني: لئن لم تسكت لأشتمنك".

قال أبو الليث السمرقندي:"يقول: إن لم تنته عن مقالتك ولم ترجع عنها، لأسبنك وأشتمنك. وكل شيء في القرآن من «الرجم» فهو القتل غير هاهنا، فإن هاهنا أراد به السب والشتم".

قال الطبري:"{لئن} أنت {لم تنته} عن ذكرها بسوء، لأرجمنك بالكلام، وذلك السبّ، والقول القبيح".

قال الزجاج:"معناه لأشتمنك، يقال: فلان يرمي فلانا ويرجم فلانا معناه يشتمه، وكذلك قوله ﷻ: {وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ} [النور: ٤]، معناه: يشتمونهن، وجائز أن يكون {لأرجمنك}، لأقتلنك رجما، والذي عليه التفسير أن الرجم ههنا الشتم".

عن السدي:"{لأَرْجُمَنَّكَ}، بالشتيمة والقول".

عن ابن جريج:"{لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لأَرْجُمَنَّكَ}، قال: بالقول؛ لأشتمنك".

=

=
عن الضحاك:"{لأَرْجُمَنَّكَ}، لأشتمنك". وفي رواية:"يعني: رجم القول".
قال الكلبي:"مِن المقتولين بالحجارة".
قوله تعالى: {وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا} [مريم: ٤٦]، أي:"واذهب عني فلا تلقني، ولا تكلمني زمانًا طويلا من الدهر".
وفي قوله تعالى: {وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا} [مريم: ٤٦]، وجوه:
احدها: معناه: واهجرني حينا طويلا ودهرا. لأن معنى «الملّي»: المُلاوة من الزمان، وهو الطويل منه. وهذا قول الحسن، وسعيد بن جبير، ومجاهد، وابن إسحاق، واختاره الفراء، وأبو عبيدة، وحكاه ابن الجوزي عن الأكثرين.
وقال السدي:"أبدا".
قال مقاتل:"يعني: أيام حياتك".
قال أبو عبيدة:"أي: دهرا، وتمليت حبيبك، و «الملوان»: النهار والليل كما ترى، قال ابن مقبل:
ألا يا ديار الحيّ بالسّبعان... أملّ عليها بالبلى الملوان
يعنى الليل والنهار، و «أمّل عليها بالبلى»: أي: رجع عليها حتى أبلاها، أي طال عليها".
الثاني: معناه: سويًا سليمًا من عقوبتي، قاله ابن عباس، وقتادة، والضحاك، وعطية الجدلي.
واختاره الطبري، وقال: معناه:"واهجرني سويا، سلما من عقوبتي، لأنه عقيب قوله {لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لأَرْجُمَنَّكَ}، وذلك وعيد منه له إن لم ينته عن ذكر آلهته بالسوء أن يرجمه بالقول السيئ، والذي هو أولى بأن يتبع ذلك التقدّم إليه بالانتهاء عنه قبل أن تناله العقوبة، فأما الأمر بطول هجره فلا وجه له".
قال ابن عباس:"اجتنبني سالما قبل إن يصيبك مني عقوبة".
=

=

قال الضحاك:"اجتنبني سالما لا يصيبك مني معرّة".

الثالث: حينًا، قاله عكرمة.

والاستفهام في قوله أَراغِبٌ للإنكار والتهديد والرغبة عن الشيء: تركه عمدا زهدا فيه لعدم الحاجة إليه.

ولفظ راغِبٌ مبتدأ، وأَنْتَ فاعل سد مسد الخبر، ومَلِيًّا أى: زمنا طويلا. مأخوذ من الملاوة، وهي الفترة الطويلة من الزمان، ويقال لليل والنهار: الملوان.

والمعنى: قال والد إبراهيم له على سبيل التهديد والوعيد، أتاركك أنت يا إبراهيم عبادة آلهتي، وكاره لتقرب الناس إليها، ومنفرهم منها لئن لم تنته عن هذا المسلك، لَأَرْجُمَنَّكَ بالحجارة وبالكلام القبيح وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا بأن تغرب عن وجهى زمنا طويلا لا أحب أن أراك فيه.

وهكذا قابل الأب الكافر أدب ابنه المؤمن، بالفظاظة والغلظة والتهديد والعناد والجهالة..

شأن القلب الذي أفسده الكفر.

ولكن إبراهيم- عليه السلام- لم يقابل فظاظة أبيه وتهديده بالغضب والضيق، بل قابل ذلك بسعة الصدر. وجميل المنطق، حيث قال له: سَلامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كانَ بِي حَفِيًّا.

قوله تعالى: {قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ} [مريم: ٤٧].

قال السدي:"عني رد خيرا".

وقال الحسن: "وهذه كلمة حلم".

قال الطبري:"يقول: أمنة مني لك أن أعاودك فيما كرهت، ولدعائك إليّ ما توعدتني عليه بالعقوبة".

قال مكي:"أي: قال إبراهيم لأبيه حين توعده، وامتنع من الإيمان بما جاء به:

=

=

سلام عليك " أي: أمنة مني لك ان أعادوك فيما كرهت".

قال القرطبي:"لم يعارضه إبراهيم عليه السلام بسوء الرد، لأنه لم يؤمر بقتاله على كفره. والجمهور على أن المراد بسلامه المسالمة التي هي المتاركة لا التحية.. وعلى هذا لا يبدأ الكافر بالسلام.

وقال بعضهم في معنى تسليمه: هو تحية مفارق، وجوز تحية الكافر وأن يبدأ بها.

قيل لابن عيينة: هل يجوز السلام على الكافر؟ قال: نعم، قال الله تعالى: {لَا يَنْهَاكُمُ اللهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ} [الممتحنة: ٨]، وقال: {قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ} [الممتحنة: ٤]، الآية، وقال إبراهيم لأبيه: {سلام عليك}.

قلت-القرطبي-: الأظهر من الآية ما قاله سفيان بن عيينة".

قوله تعالى: {سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي} [مريم: ٤٧]، أي:"وسوف أدعو الله لك بالهداية والمغفرة".

قال الطبري:"يقول: ولكني سأسأل ربي أن يستر عليك ذنوبك بعفوه إياك عن عقوبتك عليها".

قال مكي:"أي: أسأل لك ربي أن يستر عليك ذنوبك".

وفي قوله تعالى: {سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي} [مريم: ٤٧]، وجهان:

أحدهما: سأستغفر لك إن تركت عبادة الأوثان.

الثاني: معناه: سأدعوه لك بالهداية التي تقتضي الغفران.

قال يحيى بن سلام:"وأما قوله: {سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي} [مريم: ٤٧]، فهو قوله: {وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لأَبِيهِ إِلا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ} [التوبة: ١١٤]".

قال أحمد الكرجي القصاب:"قوله إخبارًا عن إبراهيم: {قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ

=

=

سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي}، حجة في إجازة السلام على ذي الرحم مِنَ الكفار، فيكون ذلك جائزًا بالقرآن، وعلى الأجنبيين ممنوعا بالسُّنة".

قال الجصاص:"هذا سلام متاركة وليس بتحية، وهو نحو قوله: {وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما} [الفرقان: ٦٣] وقوله: {واهجرني مليا} [مريم: ٤٦] وقال: إبراهيم {سلام عليك سأستغفر لك ربي} [مريم: ٤٧]. ومن الناس من يظن أن هذا يجوز على جواز ابتداء الكافر بالسلام. وليس كذلك، لما وصفنا من أن السلام ينصرف على معنيين: أحدهما: المسالمة التي هي المتاركة، والثاني: التحية التي هي دعاء بالسلامة والأمن، نحو تسليم المسلمين بعضهم على بعض، وقوله ﷺ: "للمؤمن على المؤمن ست أحدها أن يسلم عليه إذا لقيه"، وقوله تعالى: {وإذا حييتم بتحية فحيوا بأحسن منها أو ردوها} [النساء: ٨٦] وقوله: {وتحيتهم فيها سلام} [يونس: ١٠]، وقد روي عن النبي ﷺ في الكفار: «لا تبدءوهم بالسلام وإنه إذا سلم عليكم أهل الكتاب فقولوا وعليكم»".

قوله تعالى: {إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا} [مريم: ٤٧]، أي:"إن ربي كان رحيمًا رؤوفًا بحالي يجيبني إذا دعوته".

قال الطبري:"يقول: إن ربي عهدته بي لطيفا يجيب دعائي إذا دعوته".

وفي قوله تعالى: {إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا} [مريم: ٤٧]، وجوه:

أحدها: لطيفا. قاله ابن عباس، وابن زيد، وبه قال الزجاج.

قال ابن زيد:"الحفيّ: اللطيف".

الثاني: معناه: عودني الإجابة. قاله مجاهد.

الثالث: بارا، عودني منه الإجابة إذا دعوته. قاله ابن قتيبة.

وقال النحاس:"الحفي اللطيف البار يقال حفي به وتحفى إذا بره أي كان يجيبني إذا دعوته".

=

=

الرابع: يعني: لطيفا رحيمًا، قاله مقاتل.

الخامس: كان بي عليمًا، قاله الكلبي.

السادس: كان بي عالما لطيفا يجيب دعائي إذا دعوته. قاله الفراء.

السابع: متحفيا، يقال: تحفيت بفلان. قاله أبو عبيدة.

الثامن: متعهدًا. حكاه الماوردي.

التاسع: مُقَرِّبًا. حكاه الماوردي.

العاشر: مُكْرِمًا. حكاه الماوردي.

أى: لك منى- يا أبت- السلام الذي لا يخالطه جدال أو أذى، والوداع الذي أقابل فيه إساءتك إلى بالإحسان إليك. وفضلا عن ذلك فإنى سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كانَ بِي حَفِيًّا أى: بارّا بي، كثير الإحسان إلى.

يقال: فلان حفى بفلان حفاوة، إذا بالغ في إكرامه، واهتم بشأنه.

وقد وفي إبراهيم بوعده، حيث استمر على استغفاره لأبيه إلى أن تبين له أنه عدو لله- تعالى- فتبرأ منه كما قال- تعالى-: وَما كانَ اسْتِغْفارُ إِبْراهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَها إِيَّاهُ، فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ، إِنَّ إِبْراهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ.

(تنبيه): لا شك أن نبي الله إبراهيم عليه السلام لم يرتكب نهيا بهذا الاستغفار لوالده، وأنه لم يَعِد والده بأمر كان محرما عليه عند وعده إياه؛ بدليل أن الله تعالى لم يعاتبه على هذا الوعد، بل بيّن عذره فيه، وأثنى عليه بأنه لما تبيّن له أن والده عدو لله، تبرأ منه، وكف عن الاستغفار له؛ فوفى إبراهيم عليه السلام بوعده، وتبع أمر ربه.

قال الله تعالى: مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَى مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ، وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ التوبة/ ١١٣ - ١١٤.

=

=

وهذه الموعدة، هي الواردة في قوله تعالى: قَالَ أَرَاغِبٌ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِي يَاإِبْرَاهِيمُ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا * قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا مريم/ ٤٦ - ٤٧.

فتبرأ منه براءة تستوجب ترك الاستغفار له، لما علم أنه عدو لله تعالى، وذلك بموته على الكفر، كما نص على هذا جمع من أهل التفسير.

قال ابن كثير رحمه الله تعالى: " وقوله: (فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ)، قال ابن عباس: ما زال إبراهيم يستغفر لأبيه حتى مات، فلما تبين له أنه عدو لله، تبرأ منه.

وفي رواية: لما مات تبين له أنه عدو لله.

وكذا قال مجاهد، والضحاك، وقتادة، وغيرهم، رحمهم الله " ا.هـ.

وهو القول الذي رجّحه الإمام الطبري، حيث قال رحمه الله تعالى: " وأولى الأقوال في ذلك بالصواب: قولُ الله؛ وهو خبره عن إبراهيم أنه لما تبيّن له أنّ أباه لله عدوّ، تبرّأ منه، وذلك حال علمه ويقينه أنه لله عدوٌّ، وهو به مشرك، وهو حالُ ثبوته - وفي نسخة: موته - على شركه " ا.هـ

وأما عداوة والده لله تعالى أثناء حياته، فكان يرجى أن يقلع عنها بإسلامه؛ فكان يستغفر له عساه أن يؤمن، مادام باب التوبة لم يغلق بحضور الموت.

روى عبد الرزاق في "المصنف" (٦/ ٤٠) بإسناد رواته ثقات، قَالَ: أَخْبَرَنَا ابْنُ عُيَيْنَةَ، عَنْ أَبِي سِنَانٍ، عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ قَالَ: تُوُفِّيَ أَبُو رَجُلٍ، وَكَانَ يَهُودِيًّا فَلَمْ يَتَّبِعْهُ ابْنُهُ، فَذَكَرَ ذَلِكَ لِابْنِ عَبَّاسٍ، فَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: (وَمَا عَلَيْهِ لَوْ غَسَّلَهُ، وَاتَّبَعَهُ، وَاسْتَغْفَرَ لَهُ مَا كَانَ حَيًّا يَقُولُ: دَعَا لَهُ مَا كَانَ الْأَبُ حَيًّا، قَالَ: ثُمَّ قَرَأَ ابْنُ عَبَّاسٍ: (فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ)، يَقُولُ: لَمَّا مَاتَ عَلَى كُفْرِهِ).

قال ابن حزم رحمه الله تعالى في النحل:"... قول إبراهيم عليه السلام لأبيه واستغفاره

=

=

له... لأنه لم يكن نُهي عن ذلك، قال تعالى: (فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ)، فأثنى الله تعالى عليه بذلك، فصح أن استغفار إبراهيم لأبيه إنما كان مدة حياته راجيا إيمانه، فلما مات كافرا، تبرأ منه، ولم يستغفر له بعدها " ا.هـ

ولهذا نص جمع من أهل على جواز الاستغفار للكافر الحي، على نية لازم الاستغفار، وهو الهداية إلى الإيمان، كما مضى في قول ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

قال ابن بطال رحمه الله تعالى: " فرض على جميع المؤمنين، متعين على كل واحد منهم ألا يدعو للمشركين، ولا يُستغفر لهم إذا ماتوا على شركهم، لقوله تعالى: (مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَى مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ).

فإن قيل: إن إبراهيم استغفر لأبيه وهو كافر؟

فالجواب: أن الله قد بيَّن عذره في ذلك، فقال: (وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ)، فدعا له وهو يرجو إجابته ورجوعه إلى الإيمان، (فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ).

ففي هذا من الفقه: أنه جائز أن يُدعى لكل من يرجى من الكفار إنابته: بالهداية؛ ما دام حيا" انتهى من "شرح صحيح البخاري" (٣/ ٣٥١ - ٣٥٢).

قال الشوكاني في فتح القدير: " قوله: (وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ) الآية: ذكر الله سبحانه السبب في استغفار إبراهيم لأبيه، أنه كان لأجل وعد تقدم من إبراهيم لأبيه بالاستغفار له، ولكنه ترك ذلك وتبرأ منه لما تبين له أنه عدو لله، وأنه غير مستحق للاستغفار، وهذا يدل على أنه إنما وعده قبل أن يتبين له أنه من أهل النار، ومن أعداء الله، فلا حاجة إلى السؤال الذي يورده كثير من المفسرين: أنه كيف خفي ذلك على إبراهيم؟ فإنه لم يخفَ عليه تحريم الاستغفار لمن أصر على الكفر، ومات عليه، وهو لم يعلم ذلك إلا بإخبار الله سبحانه له بأنه عدو الله، فإن

=

=

ثبوت هذه العداوة تدل على الكفر، وكذلك لم يعلم نبينا ﷺ بتحريم ذلك إلا بعد أن أخبره الله بهذه الآية، وهذا حكم إنما يثبت بالسمع لا بالعقل " ا.هـ

وكما يشير إلى هذا ما رواه البخاري (٣٤٧٧)، ومسلم (١٧٩٢) عن عَبْد اللهِ بن مسعود، قال: كَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ، يَحْكِي نَبِيًّا مِنَ الأَنْبِيَاءِ، ضَرَبَهُ قَوْمُهُ فَأَدْمَوْهُ، وَهُوَ يَمْسَحُ الدَّمَ عَنْ وَجْهِهِ وَيَقُولُ: اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِقَوْمِي فَإِنَّهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ.

قال الشيخ ابن باز رحمه الله تعالى:

" هذا يدل على ابتلاء الأنبياء وصبرهم العظيم.. وهذا الدعاء يتضمن طلب الهداية لهم؛ لأن المغفرة تابعة للهداية. فقوله: (اللهم اغفر لهم) مستلزم الهداية" انتهى من " التعليقات البازية" (٣/ ١٠٤).

ولو فرض أنه قد استغفر له بعد موته، فلا شك أنه استغفر له وهو لا يعلم بأنه قد مات على الكفر.

قال أبو طالب القضاعي في تحرير المقال: " وتبرؤ إبراهيم منه على أي التأويلين كان يؤذن بأنه لم يستغفر له إلا في الوقت الذي يجوز الاستغفار له، وذلك قبل أن يموت على شركه.

ثم لو فرضنا أن دعاء إبراهيم عليه السلام إنما كان لأبيه بعد موته؛ فلابد أن نفرض أيضا أن إبراهيم دعا له في الوقت الذي لا يعلم أنه مات على الكفر، ولابد؛ إذ في الممكن أن يموت آزر وإبراهيم عليه السلام غائب عنه، فيُجَوِّز ﷺ أن يموت أبوه على الإيمان، فيستغفر له من هذا الوجه، لا سيما على قول من قال إنه قد كان وعده أن يسلم، ويكون تبري إبراهيم - عليه السلام - بعد ذلك منه عندما علم بموته على الكفر، وسواء علم ذلك بوحي أو بغيره.

وإنما حملنا على هذا التقدير: عِلْمُنا بأن الشرائع متفقة على أن المشرك لا يغفر له، وأن الإيمان هو الشرط في الغفران... " ا.هـ

=

=

وبناء على هذا فيحتمل أن إبراهيم عليه السلام لم تتبيّن له عدواة والده الدائمة لله تعالى إلا بعد موته ثم بعثه يوم القيامة.

وبهذا الإحتمال يمكن أن يفسر حديث أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه، عَنِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم، قَالَ: يَلْقَى إِبْرَاهِيمُ أَبَاهُ آزَرَ يَوْمَ القِيَامَةِ، وَعَلَى وَجْهِ آزَرَ قَتَرَةٌ وَغَبَرَةٌ، فَيَقُولُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ: أَلَمْ أَقُلْ لَكَ لاَ تَعْصِنِي؟ فَيَقُولُ أَبُوهُ: فَاليَوْمَ لاَ أَعْصِيكَ، فَيَقُولُ إِبْرَاهِيمُ: يَا رَبِّ إِنَّكَ وَعَدْتَنِي أَنْ لاَ تُخْزِيَنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ، فَأَيُّ خِزْيٍ أَخْزَى مِنْ أَبِي الأَبْعَدِ؟ فَيَقُولُ اللهُ تَعَالَى: إِنِّي حَرَّمْتُ الجَنَّةَ عَلَى الكَافِرِينَ، ثُمَّ يُقَالُ: يَا إِبْرَاهِيمُ، مَا تَحْتَ رِجْلَيْكَ؟ فَيَنْظُرُ، فَإِذَا هُوَ بِذِيخٍ مُلْتَطِخٍ، فَيُؤْخَذُ بِقَوَائِمِهِ فَيُلْقَى فِي النَّارِ رواه البخاري (٣٣٥٠).

كما ذهب إلى هذا بعض أهل العلم.

وعلى الوجه الأول المشهور، الذي قاله ابن عباس رضي الله عنه واتبعه عليه جمع من أهل العلم، وهو أن إبراهيم عليه السلام علم بموت والده على الكفر فتبرأ منه حينئذ وترك الإستغفار له.

فتكون شفاعته لوالده يوم القيامة دافعها الشفقة لرهبة الموقف.

قال الحافظ في الفتح: " ويمكن الجمع بين القولين بأنه تبرأ منه لما مات مشركا فترك الاستغفار له، لكن لما رآه يوم القيامة أدركته الرأفة والرقة، فسأل فيه، فلما رآه مسخ يئس منه حينئذ فتبرأ منه تبرءا أبديا، وقيل: إن إبراهيم لم يتيقن موته على الكفر بجواز أن يكون آمن في نفسه ولم يطلع إبراهيم على ذلك وتكون تبرئته منه حينئذ بعد الحال التي وقعت في هذا الحديث " ا.هـ

وهذه الشفاعة ليس مستندها الهوى، بل هي مستندة إلى أمر من الوحي، وهو وعده تعالى بأن لن يخزيه، ففهم إبراهيم عليه السلام من ذلك أن حشر والده إلى النار نوع من الخزي، فتوسل إلى الله تعالى بهذا الوعد، كما هو ظاهر من لفظ الحديث:

=

=

فَيَقُولُ إِبْرَاهِيمُ: يَا رَبِّ إِنَّكَ وَعَدْتَنِي أَنْ لاَ تُخْزِيَنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ، فَأَيُّ خِزْيٍ أَخْزَى مِنْ أَبِي الأَبْعَدِ؟.

فالحاصل؛ أن إبراهيم عليه السلام لم يعارض أمرا من الوحي بعقله، وإنما بفهم من وحي سابق عنده، وهذا ضرب من الاجتهاد المشروع.

قوله تعالى: {وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ} [مريم: ٤٨].

قال يحيى بن سلام:"يعني: أصنامهم".

قال الطبري:"يقول: وأجتنبكم وما تدعون من دون الله من الأوثان والأصنام".

قال مقاتل:"فكان اعتزاله إياهم أنه فارقهم من كوثا فهاجر منها إلى الأرض المقدسة".

قال الماتريدي:"الاعتزال - هاهنا - اعتزال هجرة إلى أرض الشام، ومفارقته إياهم مفارقة المكان والدار، كقوله: {وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ} [الأنبياء: ٧١]، فقوله: {وَنَجَّيْنَاهُ}، النجاة بالفراق منهم، وقوله: {وما تدعون من دون الله}، أي: وأعتزلكم وما تعبدون من دون الله أيضا، ففيه إخبار عن اعتزاله عنهم بالدار والمكان، وعن فعلهم أيضا، اعتزلهم عن الأمرين جميعا".

قوله تعالى: {وَأَدْعُو رَبِّي} [مريم: ٤٨]، أي:"وأدعو ربي مخلصًا".

قال الطبري:"يقول: وأدعو ربي، بإخلاص العبادة له، وإفراده بالربوبية".

قوله تعالى: {عَسَى أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا} [مريم: ٤٨]، أي:"عسى أن لا أشقى بدعاء ربي، فلا يعطيني ما أسأله".

قال الطبري:"يقول: عسى أن لا أشقى بدعاء ربي، ولكن يجيب دعائي، ويعطيني ما أسأله".

قال الفراء:"يقول: إن دعوته لم أشق به".

=

=

قال مقاتل:"يعني: خائبا بدعائي لك بالمغفرة".

قال الماتريدي:"أي: أدعو ربي عسى ألا أكون بعبادة غير الله شقيا، كما كان قومه بعبادة غير الله أشقياء".

قال السمعاني:"«عسى» من الله واجب، و «الدعاء» بمعنى: العبادة، و «الشقاوة»: الخيبة من الرحمة".

قال القرطبي:"قيل: أراد بهذا الدعاء أن يهب الله تعالى له أهلا وولدا يتقوى بهم حتى لا يستوحش بالاعتزال عن قومه. ولهذا قال: {فلما اعتزلهم وما يعبدون من دون الله وهبنا له إسحاق ويعقوب}".

أى: وقال إبراهيم- أيضا- لأبيه: إنى بجانب استغفاري لك، ودعوتي لك بالهداية، فإنى سأعتزلك وأعتزل قومك، وأعتزل عبادة أصنامكم التي تعبدونها من دون الله وأرتحل عنكم جميعا إلى أرض الله الواسعة، وأخص ربي وخالقي بالعبادة والطاعة والدعاء، فقد عودنى- سبحانه- أن لا يخيب دعائي وتضرعي إليه.

وفي تصدير كلامه بلفظ عَسى دليل على تواضعه، وعلى أدبه مع خالقه- تعالى-.

قوله تعالى: {فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ} [مريم: ٤٩].

قال الطبري:"فلما اعتزل إبراهيم قومه وعبادة ما كانوا يعبدون من دون الله من الأوثان".

قال ابن كثير:"يقول: فلما اعتزل الخليل أباه وقومه في الله".

قوله تعالى: {وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ} [مريم: ٤٩]، أي:"رزقناه من الولد: إسحاق، ويعقوب بن إسحاق".

قال ابن عباس:"وهبنا له إسحاق ولدا ويعقوب ابن ابنه".

قال الطبري: يقول" آنسنا وحشته من فراقهم، وأبدلناه منهم بمن هو خير منهم

=

=

وأكرم على الله منهم، فوهبنا له ابنه إسحاق، وابن ابنه يعقوب بن إسحاق".

قال القرطبي:"أي: آنسنا وحشته بولد".

قال ابن كثير:"أبدله الله من هو خير منهم، ووهب له إسحاق ويعقوب، يعني ابنه وابن إسحاق، كما قال في الآية الأخرى: {وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً} [الأنبياء: ٧٢]، وقال: {وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ} [هود: ٧١].

ولا خلاف أن إسحاق والد يعقوب، وهو نص القرآن في سورة البقرة: {أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ} [البقرة: ١٣٣]. ولهذا إنما ذكر هاهنا إسحاق ويعقوب، أي: جعلنا له نسلا وعقبا أنبياء، أقر الله بهم عينه في حياته".

قوله تعالى: {وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا} [مريم: ٤٩]، أي:"وجعلناهما نبيَّين".

قال البغوي:"يعني: إسحاق ويعقوب".

قال ابن كثير:"فلو لم يكن يعقوب قد نُبئ في حياة إبراهيم، لما اقتصر عليه، ولذكر ولده يوسف، فإنه نبي أيضًا كما قال رسول الله ﷺ في الحديث المتفق على صحته، حين سئل عن خير الناس، فقال: «يوسف نبي الله، ابن يعقوب نبي الله، ابن إسحاق نبي الله، ابن إبراهيم خليل الله»، وفي اللفظ الآخر: «إن الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم: يوسفُ بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم»".

قوله تعالى: {وَوَهَبْنَا لَهُمْ مِنْ رَحْمَتِنَا} [مريم: ٥٠].

قال الطبري: يقول" يقول جلّ ثناؤه: ورزقنا جميعهم، يعني إبراهيم وإسحاق ويعقوب من رحمتنا، وكان الذي وهب لهم من رحمته، ما بسط لهم في عاجل الدنيا من سعة رزقه، وأغناهم بفضله".

قوله تعالى: {وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا} [مريم: ٥٠]، أي:"وجعلنا لهم ذكرًا حسنًا، وثناءً جميلا باقيًا في الناس".

=

=

قال ابن عباس:"الثناء الحسن".

قال ابن قتيبة:"أي: ذكرا حسنا عاليا".

قال الزجاج:"أي: أبقينا لهم ثناء حسنا".

وقال النحاس:"أي: أبقينا عليهم ثناء حسنا".

قال القرطبي:"أي: أثنينا عليهم ثناء حسنا، لأن جميع الملل تحسن الثناء عليهم".

قال الطبري: ورزقناهم الثناء الحسن، والذكر الجميل من الناس، وإنما وصف جل ثناؤه اللسان الذي جعل لهم بالعلوّ، لأن جميع أهل الملل تحسن الثناء عليهم، والعرب تقول: قد جاءني لسان فلان، تعني ثناءه أو ذمه؛ ومنه قول عامر بن الحارث:

إنّي أَتَتْنِي لِسانٌ لا أسَرُّ بِهَا... مِنْ عَلْو لا عَجَبٌ مِنْها وَلا سَخُر

ويروى: لا كذب فيها ولا سَخَر:

جاءَتْ مُرجَمَّة قد كُنْتُ أحْذَرُها... لَوْ كانَ يَنْفَعُنِي الإشْفاقُ والحَذَرُ

مرجمة: يظنّ بها".

أى: فحين اعتزل إبراهيم- عليه السلام- أباه وقومه وآلهتهم الباطلة. لم نضيعه، وإنما أكرمناه وتفضلنا عليه بأن وهبنا له إسحاق ويعقوب ليأنس بهما بعد أن فارق أباه وقومه من أجل إعلاء كلمتنا وَكُلًّا جَعَلْنا نَبِيًّا أى: وكل واحد منهما جعلناه نبيا وَوَهَبْنا لَهُمْ أى: لإبراهيم وإسحاق ويعقوب مِنْ رَحْمَتِنا بأن جعلناهم أنبياء ومنحناهم الكثير من فضلنا وإحساننا ورزقنا.

(وجعلنا لهم لسان صدق عليا) وهذا أيضا من الرحمة التي وهبها لهم، لأن الله وعد كل محسن، أن ينشر له ثناء صادقا بحسب إحسانه، وهؤلاء من أئمة المحسنين، فنشر الله الثناء الحسن الصادق غير الكاذب، العالي غير الخفي، فذكرهم ملأ الخافقين، والثناء عليهم ومحبتهم، امتلأت بها القلوب، وفاضت بها

=

=

الألسنة، فصاروا قدوة للمقتدين، وأئمة للمهتدين. ولا تزال أذكارهم في سائر العصور، متجددة، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، والله ذو الفضل العظيم.

فاعتزال الشرك والمشركين، والفسق والفاسقين، يؤدى إلى السعادة الدينية والدنيوية، وما أصدق قوله- تعالى-: فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَما يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ وَهَبْنا لَهُ إِسْحاقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلًّا جَعَلْنا نَبِيًّا.

وخص- سبحانه- هنا اسحق ويعقوب بالذكر دون إسماعيل لأن إسماعيل سيذكر فضله بعد قليل.

(فائدة) قوله تعالى: {إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَاأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا (٤٢)} مريم: ٤٢، في هذه الآية ردٌ على بدعتين متقابلتين، وبيان ذلك فيما يلي:

- أولًا: بيان وجه رد الآية على بدعة التفريط.

في هذه الآية ردٌ على المعطلة لصفات الله ﷻ، عند قول إبراهيم - عليه السلام - لأبيه: {يَاأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا (٤٢)}، لدلالتها على أن فاقد صفات الكمال لا يكون إلهًا ولا مدبرًا ولا ربًا، بل هو مذموم معيب ناقص.

قال ابن القيم - رحمه الله -: " فلو كان إله إبراهيم بهذه الصفة والمثابة لقال له آزر وأنت إلهك بهذه المثابة فكيف تنكر علي لكن كان مع شركه أعرف بالله من الجهمية وكذلك كفار قريش كانوا مع شركهم مقرين بصفات الصانع سبحانه وعلوه على خلقه".

وهذه الصفات المنفية {لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي} هي الصفات التي أقرها النفاة المعطلة، ونسبوها إلى الله ﷻ تعالى الله عما يقول الظالمون والجاحدون علوا كبيرا-، فأتى ذمها في هذه الآية، بأنها -أي آلهة المشركين- مسلوبة أوصاف

=

=

الكمال، للدلالة على بطلان مذهب المعطلة النفاة، فلو كان الله ﷻ بهذه الأوصاف لما أنكرها إبراهيم - عليه السلام -، واستدلال على بطلان الإلهية بذلك.

- ثانيًا: بيان وجه رد الآية على بدعة الإفراط.

كما أن في قوله تعالى: {يَاأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ}: استفهام استنكاري، للردِ على بطلان مذهب ممثلة الصفات، الذين صرفوا صفات الله ﷻ لغيره، فتعلقوا بهم من دون الله، وتوجهوا إليهم بأنواع من العبادة، وبالغوا في تقديسهم، فأتت هذه الآية للرد على أن المتصف بصفات الكمال والجلال هو المستحق لأن تصرف له هذه العبادة، وأصل عبادته ﷻ: معرفته بما وصف به نفسه في كتابه وما وصفه به رسله؛ وأن كل ما دون الله ناقص لا يستحق أن تصرف له العبادة، كما في قوله: {وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا (٤٢)}.

وهكذا نجد أن الممثلة وصفوا المخلوقين بصفات الخالق، فجعلوهم شركاء لله في صفاته ﷻ، لذلك صرفت لهم العبادة والتعظيم، لاتصافهم بصفات الخالق زورا وبهتانًا، قال تعالى: {ذَلِكَ بِأَنَّ اللهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ (٣٠)} لقمان: ٣٠، وقال: {وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا (٤٢)}. من أجل هذا أتت هذه الآية للدلالة على بطلان ما اعتقده الممثلة في أوليائهم وأئمتهم وكبرائهم، بأنه لا يستحق العبادة والتعظيم إلا المتصف بصفات الكمال والجلال وهو الله ﷻ، وصرف العبادة والتعظيم لغير الله شرك وكفر.

- ثالثًا: المأخذ الذي انطلقت منه هاتان الطائفتان.

المأخذ الذي انطلقت منه هاتان الطائفتان هو: خطؤهم في تعظيم الله ﷻ؛ لأن أصل الدين، مبني على تعظيم الله، وتعظيم دينه ورسله، لكنهم ضلوا حينما أرادوا أن يعظموا الله بعقولهم، ولم يعظموه كما أمرهم سبحانه وتعالى.

فأقام المعطلة معتقدهم على: امتناع قيام الصفات بالله تعالى تعظيما له؛

=

=

لاعتقادهم أن الصفات أعراض، وأن قيام العرض به يقتضي حدوثه، وأن كل ما كان غير الله، فهو مخلوق؛ وأرادوا من ذلك التنزيه والتعظيم! !، فقالوا حينئذ: إن القرآن مخلوق، وإنه ليس لله مشيئة قائمة به، ولا حب ولا بغض ولا سمع ولا بصر ولا غير ذلك من الصفات، بل قالوا: إن أسماء الله تعالى مخلوقه؛ بناء على قولهم: إن الاسم غير المسمى، وكل ما كان غير الله، فهو مخلوق، فأسماؤه مخلوقة.

فردوا وأنكروا وعطلوا جميع ما وصف الله به نفسه المقدسة العلية، وقالوا: لا بد أن يكون الله متصفًا بالصفة، وهذه الصفة هي عين ذاته؛ لأننا إذا أثبتنا أن الله ﷻ متصف بصفة زائدة على ذاته، فإن ذلك يستلزم أن تكون هذه الصفة قديمة، وهذا يؤدي إلى تعدد القدماء، وهو محالٌ، فضلوا في توحيد الأسماء والصفات من حيث أرادوا تنزيه الله وتعظيمه بعقولهم القاصرة؟ !.

وهذا الخلل في معرفة التوحيد قادهم إلى الخلل في التطبيق أيضًا، فإنهم أخذوا يقررون التوحيد وفق هذا الفهم، وسلكوا في ذلك مناهجهم العقلية القائمة على اعتماد النظر العقلي فقط؛ باعتباره مصدر تلقي الوحيد في هذا الباب، وكل ما خالفه فهو إما مؤول أو مردود.

بينما أقامت الممثلة معتقدها على: تشبيه الخالق بالمخلوق، وجعل ما أخبر الله به عن نفسه في كتابه أو على لسان رسوله ﷺ من صفاته مماثلًا لصفات المخلوقين؛ زاعمين أنهم بذلك عظموا نصوص الصفات، وأنهم لا يفهمون من نصوص الصفات إلا مثل ما يرونه من صفات المخلوقين، بدعوى أن الله ﷻ لا يخاطبهم إلا بما يعقلون، فإذا أخبروا عن اليد فهم لا يعقلون سوى اليد الجارحة، فشبهوا صفات الخالق بصفات المخلوقين، فقالوا له يد كيدي، -تعالى الله عن ذلك علوًا كبيرًا-.

=

وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَى إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا (٥١).

{وَاذْكُرْ فِي الْكِتَاب مُوسَى إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا} بِكَسْرِ اللَّام وَفَتْحهَا مِنْ أَخْلَصَ فِي عِبَادَته وخلصه الله من الدنس {وكان رسولا نبيا}.

وَنَادَيْنَاهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا (٥٢).

{وَنَادَيْنَاهُ} بِقَوْلِ يَا مُوسَى إِنِّي أَنَا الله {مِنْ جَانِب الطُّور} اسْم جَبَل {الْأَيْمَن} أَيْ الَّذِي يَلِي يَمِين مُوسَى حِين أَقْبَلَ مِنْ مَدْيَنَ {وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا} مُنَاجِيًا

=

بينما تجاهلوا ما جاءت به نصوص الشرع وأوامره الكثيرة بتعظيم الله سبحانه وتعالى وإجلاله وتقديسه وتنزيهه، وهي كثيرة جدًا، فإن الأمر بالإيمان بالله وتوحيده تعظيم له، وذكر أسمائه وصفاته وأفعاله وقدرته تعظيم له.

لقد أتت هذه الآية الكريمة للدلالة على أن المذهب الحق هو ما ذهب إليه أهل السنة والجماعة، فهم وسط في تعظيم الله في باب الأسماء والصفات بين أهل التفريط من المعطلة الذين نفوا أسماء الله تعالى وصفاته، أو نفوا بعضها إرادةً لتعظيم الله ﷻ وتنزيهه عن مشابهة المخلوقين، وبين أهل الإفراط من الممثلة الذين شبهوا الخالق بالمخلوق، وجعلوا ما أخبر الله به عن نفسه في كتابه أو على لسان رسوله ﷺ من صفاته مماثلًا لصفات المخلوقين؛ زاعمين أنهم بذلك عظموا نصوص الصفات، وأنهم لا يفهمون من نصوص الصفات إلا مثل ما يرونه من صفات المخلوقين.

وبذلك يكون أهل السنة والجماعة وسطا بين أهل التعطيل والنفي الذين يلحدون في أسماء الله وآياته، ويعطلون حقائق ما وصف الله به نفسه، حتى يشبهوه بالعدم والموات، وبين أهل التمثيل والتشبيه الذين يضربون له الأمثال ويشبهونه بالمخلوقات.

بِأَنْ أَسْمَعَهُ الله تعالى كلامه.

وَوَهَبْنَا لَهُ مِنْ رَحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا (٥٣).

{وَوَهَبْنَا لَهُ مِنْ رَحْمَتِنَا} نِعْمَتِنَا {أَخَاهُ هَارُون} بَدَل أَوْ عَطْف بَيَان {نَبِيًّا} حَال هِيَ الْمَقْصُودَة بِالْهِبَةِ إِجَابَة لِسُؤَالِهِ أَنْ يُرْسِل أَخَاهُ مَعَهُ وَكَانَ أَسَنّ مِنْهُ[1].

---

(١) قوله تعالى: {وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَى} [مريم: ٥١].

قال السدي:"يقول: اذكر لأهل مكة أمر موسى".

قال الطبري:"واذكر يا محمد في كتابنا الذي أنزلناه إليك موسى بن عمران".

قوله تعالى: {إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا} [مريم: ٥١]، أي:"إنه كان مصطفى مختارًا".

قال مقاتل:"يعنى مسلما موحدا".

قال الطبري:"كان ﷺ مخلصا عبادة الله، مُخْلَصا للرسالة والنبوّة".

قال الزجاج:"«المخلص» - بفتح اللام- الذي أخلصه الله جل وعز، أي: جعله مختارا خالصا من الدنس. و «المخلِص» - بكسر اللام -: الذي وحد الله ﷻ وجعل نفسه خالصة في طاعة الله غير دنسة".

قوله تعالى: {وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا} [مريم: ٥١]، أي:"وكان رسولا نبيًا مِن أولي العزم من الرسل".

قال مجاهد:"النبي وحده الذي تكلم، وينزل عليه ولا يرسل،" -ولفظ ابن أبي حاتم-: الأنبياء الذين ليسوا برسل يوحى إلى أحدهم، ولا يرسل إلى أحدهم، والرسل الأنبياء الذين يوحى إليهم ويرسلون".

أي: واذكر في هذا القرآن العظيم موسى بن عمران، على وجه التبجيل له والتعظيم، والتعريف بمقامه الكريم، وأخلاقه الكاملة، {إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا} قرئ بفتح اللام، على معنى أن الله تعالى اختاره واستخلصه، واصطفاه على العالمين. وقرئ بكسرها، على معنى أنه كان مخلص لله تعالى، في جميع أعماله، وأقواله، =

=

ونياته، فوصفه الإخلاص في جميع أحواله، والمعنيان متلازمان، فإن الله أخلصه لإخلاصه، وإخلاصه، موجب لاستخلاصه، وأجل حالة يوصف بها العبد، الإخلاص منه، والاستخلاص من ربه. {وَكَانَ رَسُولا نَبِيًّا} أي: جمع الله له بين الرسالة والنبوة، فالرسالة تقتضي تبليغ كلام المرسل، وتبليغ جميع ما جاء به من الشرع، دقه وجله. والنبوة تقتضي إيحاء الله إليه وتخصيصه بإنزال الوحي إليه، فالنبوة بينه وبين ربه، والرسالة بينه وبين الخلق، بل خصه الله من أنواع الوحي، بأجل أنواعه وأفضلها، وهو: تكليمه تعالى وتقريبه مناجيا لله تعالى، وبهذا اختص من بين الأنبياء، بأنه كليم الرحمن، ولهذا قال: {وَنَادَيْنَاهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا * وَوَهَبْنَا لَهُ مِنْ رَحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا}.

قوله تعالى: {وَنَادَيْنَاهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ} [مريم: ٥٢].

قال الطبري: يقول:"ونادينا موسى من ناحية الجبل، ويعني بالأيمن: يمين موسى، لأنة الجبل لا يمين له ولا شمال".

قال الفراء:"ليس للطور يمين ولا شمال، إنما هو الجانب الذي يلي يمينك كما تقول: عن يمين القبلة وعن شمالها".

عن قتادة، قوله: {مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الأَيْمَنِ}، قال: جانب الجبل الأيمن".

قوله تعالى: {وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا} [مريم: ٥٢]، أي:"وقرَّبناه فشرَّفناه بمناجاتنا له".

قال الطبري: يقول:"وأدنيناه مناجيا، كما يقال: فلان نديم فلان ومنادمه، وجليس فلان ومجالسه. وذُكر أن الله جلّ ثناؤه أدناه، حتى سمع صريف القلم".

قال يحيى:"حين كلمه الله".

قال مقاتل:"يعني: كلمناه من قرب، وكان بينهما حجاب خفي سمع صرير القلم ويقال: صريف القلم".

قال ابن عباس:"أُدْنِيّ حتى سمع صريف القلم".

=

=

قال أبو العالية:"قرّبه منه حتى سمع صريف القلم".

عن ميسرة:"{وقَرَّبْناهُ نَجِيًّا}، قال: أُدْنِيَ حتى سمع صريف القلم في اللوح، وقال شعبة: أردفه جبرائيل عليه السلام".

عن ابن أبي نجيح، قال: "أراه عن مجاهد، في قوله: {وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا}، قال: بين السماء الرابعة، أو قال: السابعة، وبين العرش سبعون ألف حجاب: حجاب نور، وحجاب ظلمة، وحجاب نور، وحجاب ظلمة؛ فما زال يقرب موسى حتى كان بينه وبينه حجاب، وسمع صريف القلم {قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ}".

قال قتادة:"نجا بصدقه".

قال سهل بن عبد الله:"هذا مقام من الله للذين صدقوا الله في السر والعلانية".

قال عمرو بن معديكرب: "لما قرب الله موسى نجيا بطور سيناء، قال: يا موسى، إذا خلقت لك قلبا شاكرا، ولسانا ذاكرا، وزوجة تعين على الخير، فلم أخزن عنك من الخير شيئا، ومن أخزن عنه هذا فلم أفتح له من الخير شيئا".

أي: الأيمن من موسى في وقت. مسيره، أو الأيمن: أي: الأبرك من اليمن والبركة. ويدل على هذا المعنى قوله تعالى: {أَنْ بُورِكَ مَنْ فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا}.

قال ابن كثير: قوله: {وناديناه من جانب الطور} أي: الجبل {الأيمن} أي: من جانبه الأيمن من موسى حين ذهب يبتغي من تلك النار جذوة، رآها تلوح فقصدها، فوجدها في جانب الطور الأيمن منه، عند شاطئ الوادي.. ا.هـ

وقال الآلوسى: «والأيمن» صفة لجانب، لقوله- تعالى- في آية أخرى: جانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ بالنصب. أى: ناديناه من ناحيته اليمنى، من اليمين المقابل لليسار. والمراد به يمين موسى، أى: الناحية التي تلى يمينه «إذ الجبل نفسه لا ميمنة له ولا ميسرة» ويجوز أن يكون الأيمن من اليمن وهو البركة، وهو صفة لجانب- أيضا- أى: من جانبه الميمون المبارك ا.هـ

=

وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا (٥٤).

{وَاذْكُرْ فِي الْكِتَاب إِسْمَاعِيل إِنَّهُ كَانَ صَادِق الْوَعْد} لَمْ يَعِد شَيْئًا إِلَّا وَفَّى بِهِ

=

{وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا} قيل أنجيناه من أعدائه وقيل هو من المناجاة في المخاطبة وهو الصواب، والفرق بين النداء والنجاء، أن النداء هو الصوت الرفيع، والنجاء ما دون ذلك، وفي هذه إثبات الكلام لله تعالى وأنواعه، من النداء، والنجاء، كما هو مذهب أهل السنة والجماعة، خلافا لمن أنكر ذلك، من الجهمية، والمعتزلة، ومن نحا نحوهم.

وفي قوله: قربناه قولان: أحدهما: المراد قرب المكان عن أبي العالية قربه حتى سمع صرير القلم حيث كتبت التوراة في الألواح. والثاني: قرب المنزلة أي رفعنا قدره وشرفناه بالمناجاة.

قوله تعالى: {وَوَهَبْنَا لَهُ مِنْ رَحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا (٥٣)} [مريم: ٥٣]

قال الطبري:"يقول: ووهبنا لموسى رحمة منا أخاه هارون {نَبِيًّا} يقول: أيَّدناه بنبوّته، وأعنَّاه بها".

قال يحيى:"جعله الله له وزيرا وأشركه معه في الرسالة".

قال مقاتل:"فوهب الله- ﷻ- له أخاه هارون، وذلك حين سأل موسى- عليه السلام- ربه- ﷻ- فقال- {وَاجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِنْ أَهْلِي (٢٩) هَارُونَ أَخِي} [طه: ٢٩ - ٣٠]، وحين قال: {فَأَرْسِلْ إِلَى هَارُونَ} [الشعراء: ١٣]".

قال ابن عباس:"كان هارون أكبر من موسى، ولكن إنما وهب له نبوته".

وقوله: {وَوَهَبْنَا لَهُ مِنْ رَحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا} هذا من أكبر فضائل موسى وإحسانه، ونصحه لأخيه هارون، أنه سأل ربه أن يشركه في أمره، وأن يجعله رسولا مثله، فاستجاب الله له ذلك، ووهب له من رحمته أخاه هارون نبيا. فنبوة هارون تابعة لنبوة موسى عليهما السلام، فساعده على أمره، وأعانه عليه.

وَانْتَظَرَ مَنْ وَعَدَهُ ثَلَاثَة أَيَّام أَوْ حَوْلًا حَتَّى رَجَعَ إِلَيْهِ فِي مَكَانه {وَكَانَ رَسُولًا} إلى جرهم {نبيا}.

وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا (٥٥).

{وَكَانَ يَأْمُر أَهْله} أَيْ قَوْمه {بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاة وكان عند ربه مرضيا} أصله مرضوو قلبت الْوَاوَانِ يَاءَيْنِ وَالضَّمَّة كَسْرَة[1].

---

(١) قوله تعالى: {وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ} [مريم: ٥٤].

قال السدي:"يقول: اذكر لأهل مكة أمر إسماعيل بن إبراهيم".

قال مقاتل:"يعني واذكر لأهل مكة فى القرآن أمر إسماعيل بن إبراهيم لصلبه".

قوله تعالى: {إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ} [مريم: ٥٤]، أي:"إنه كان صادقًا في وعده فلم يَعِد شيئًا إلا وفَّى به".

قال الطبري:"فاقصص خبره إنه كان لا يكذب وعده، ولا يخلف، ولكنه كان إذا وعد ربه، أو عبدًا من عباده وعدًا وفّى به".

قال مقاتل:"وذلك أن إسماعيل- عليه السلام- وعد رجلا أن يقيم مكانه حتى يرجع إليه. فأقام ثلاثة أيام للميعاد حتى رجع الرجل إليه".

قال ابن جريج:"لم يعد ربه عِدة إلا أنجزها".

عن أبان العطار:"أن إسماعيل وعد رجلا موعدا فجاء الموعد فلم يجد الرجل، فأقام في ذلك الموضع حولا ينتظره".

قال سفيان الثوري:"بلغني إن إسماعيل وصاحبا له أتيا قرية، فقال له صاحبه: إما إن أجلس وتدخل فتشتري طعاما زادنا، وإما إن أدخل فأكفيك ذلك، فقال له إسماعيل: بلى ادخل أنت وأنا أجلس أنتظرك، فدخل ثم نسي فخرج، فأقام مكانه حتى كان الحول من ذلك اليوم، فمر به الرجل، فقال له: أنت هاهنا حتى الساعة؟ قال: قلت: لك لا أبرح حتى تجيء، فقال تعالى: {وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ =

=

كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ}".

قوله تعالى: {وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا} [مريم: ٥٤]، أي:"وكان إسماعيل رسولا نبيًا".

قال ابن كثير:"قوله: {وَكَانَ رَسُولا نَبِيًّا} في هذا دلالة على شرف إسماعيل على أخيه إسحاق؛ لأنه إنما وصف بالنبوة فقط، وإسماعيل وصف بالنبوة والرسالة. وقد ثبت في صحيح مسلم أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله اصطفى من ولد إبراهيم إسماعيل... »، وذكر تمام الحديث، فدل على صحة ما قلناه".

وهذا ثناء من الله تعالى على إسماعيل بن إبراهيم الخليل، عليهما السلام، وهو والد عرب الحجاز كلهم بأنه {كان صادق الوعد}.

قال ابن جريج: لم يعد ربه عدة إلا أنجزها، يعني: ما التزم قط عبادة بنذر إلا قام بها، ووفاها حقها.

{إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ} أي: لا يعد وعدا إلا وفى به. وهذا شامل للوعد الذي يعقده مع الله أو مع العباد، ولهذا لما وعد من نفسه الصبر على ذبح أبيه له وقال: {سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللهُ مِنَ الصَّابِرِينَ} وفى بذلك ومكن أباه من الذبح، الذي هو أكبر مصيبة تصيب الإنسان، ثم وصفه بالرسالة والنبوة، التي هي أكبر منن الله على عبده، وأهلها من الطبقة العليا من الخلق.

قال الرازي: هذا الوعد يمكن أن يكون المراد فيما بينه وبين الله تعالى ويمكن أن يكون المراد فيما بينه وبين الناس. أما الأول: فهو أن يكون المراد أنه كان لا يخالف شيئا مما يؤمر به من طاعة ربه وذلك لأن الله تعالى إذا أرسل الملك إلى الأنبياء وأمرهم بتأدية الشرع فلا بد من ظهور وعد منهم يقتضي القيام بذلك ويدل على القيام بسائر ما يخصه من العبادة. وأما الثاني: فهو أنه عليه السلام كان إذا وعد الناس بشيء أنجز وعده فالله تعالى وصفه بهذا الخلق الشريف.. ا.هـ

قوله تعالى: {وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ}.

=

=

قال مقاتل:"كقوله- سبحانه- فى طه: {وَأْمُرْ أَهْلَكَ} [طه: ١٣٢]، يعني: قومك بالصلاة، وفي قراءة ابن مسعود: «وكان يأمر قومه بالصلاة» والزكاة".

قوله تعالى: {وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا} [مريم: ٥٥]، أي:"وكان عند ربه ﷻ مرضيًا عنه".

قال الطبري: أي:"عمله، محمودا فيما كلفه ربه، غير مقصر في طاعته".

قال يحيى:"قد رضي عنه".

{وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلاةِ وَالزَّكَاةِ} أي: كان مقيما لأمر الله على أهله، فيأمرهم بالصلاة المتضمنة للإخلاص للمعبود، وبالزكاة المتضمنة للإحسان إلى العبيد، فكمل نفسه، وكمل غيره، وخصوصا أخص الناس عنده وهم أهله، لأنهم أحق بدعوته من غيرهم. {وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا} وذلك بسبب امتثاله لمراضي ربه واجتهاده فيما يرضيه، ارتضاه الله وجعله من خواص عباده وأوليائه المقربين، ف ﷺ، ورضيهو عن ربه.

وقد جاء في الحديث، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: (رحم الله رجلا قام من الليل فصلى، وأيقظ امرأته، فإن أبت نضح في وجهها الماء، رحم الله امرأة قامت من الليل فصلت، وأيقظت زوجها، فإن أبى نضحت في وجهه الماء) أخرجه أبو داود (١٣٠٨، ١٤٥٠)، وابن ماجه (١٣٣٦)، والنسائي في الكبرى (١٣٠٢)، ابن حبان (٢٥٦٧) وغيرهم، والحديث قال الشيخ أحمد شاكر في تحقيق المسند (١٣/ ١٣٩): إسناده صحيح، وقال الشيخ ناصر في صحيح أبي داود الأم (٥/ ٥١): إسناده حسن صحيح، وصححه ابن خزيمة وابن حبان والحاكم والذهبي والحافظ العراقي والنووي ا. هـ وحسنه العلامة الوادعي في الصحيح المسند مما ليس في الصحيحين (١٢٧٦)، وقال الأرنؤوط ومن معه في تحقيق سنن أبي داود (٢/ ٤٧٧): إسناده قوي.

=

=

وقال الشنقيطي: أمر اللهُ جل وعلا نبيَّه ﷺ في هذه الآية الكريمة: أن يذكر في الكتاب وهو هذا القرآن العظيم جدَّه إسماعيل، وأثنى عليه -أعني إسماعيل- بأنه كان صادق الوعد وكان رسولًا نبيًّا. ومما يبين من القرآن شدة صدقه في وعده: أنه وعد أباه بصبره على ذبحه ثم وفَّى بهذا الوعد. ومن وفي بوعده في تسليم نفسه للذبح فإن ذلك من أعظم الأدلة على عظيم صدقه في وعده؛ قال تعالى: {فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَال يَابُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَى قَال يَاأَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللهُ مِنَ الصَّابِرِينَ (١٠٢)} فهذا وعده. وقد بين تعالى وفاءه به في قوله: {فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ (١٠٣) ...} الآية. والتحقيق أن الذبيح هو إسماعيل. وقد دلت على ذلك آيتان من كتاب الله تعالى دلالة واضحة لا لبس فيها. وسنوضح ذلك إن شاء الله غاية الإيضاح في سورة "الصافات". وثناؤه جل وعلا في هذه الآية الكريمة على نبيه إسماعيل بصدق الوعد يفهم من دليل خطابه -أعني مفهوم مخالفته- أن إخلاف الوعد مذموم. وهذا المفهوم قد جاء مبينا في مواضع أخر من كتاب الله تعالى؛ كقوله تعالى: {فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ (٧٧)}، وقوله: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ (٢) كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ (٣)} إلى غير ذلك من الآيات. وفي الحديث: "آية المنافق ثلاث: إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا أوتُمِن خان".

وقوله تعالى في هذه الآية: {وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ}، قد بين في مواضع أخر: أن نبينا ﷺ كان يفعل ذلك الذي أثنى الله به على جده إسماعيل، كقوله تعالى: {وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيهَا..} الآية. ومعلوم أنه امتثل هذا الأمر. وكقوله: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا..} الآية. ويدخل في ذلك أمرهم أهليهم بالصلاة والزكاة؛ إلى غير ذلك من الآيات.

=

=

(تنبيه) قال السعدي: أي: واذكر في القرآن الكريم، هذا النبي العظيم، الذي خرج منه الشعب العربي، أفضل الشعوب وأجلها، الذي منهم سيد ولد آدم. ا.هـ

قال شيخ الإسلام في اقتضاء الصراط المستقيم (ص ١٤٨): فإن الذي عليه أهل السنة والجماعة إعتقاد أن جنس العرب أفضل من جنس العجم عبرانيهم وسريانيهم رومهم وفرسهم وغيرهم وأن قريشا أفضل العرب وأن بني هاشم أفضل قريش وأن رسول الله ﷺ أفضل بني هاشم فهو أفضل الخلق نفسا وأفضلهم نسبا وليس فضل العرب ثم قريش ثم بني هاشم بمجرد كون النبي ﷺ منهم وإن كان هذا من الفضل بل هم في أنفسهم أفضل وبذلك ثبت لرسول الله ﷺ أنه أفضل نفسا ونسبا وإلا لزم الدور ولهذا ذكر أبو محمد حرب بن إسماعيل بن خلف الكرماني صاحب الإمام أحمد في وصفه للسنة التي قال فيها: هذا مذهب أئمة العلم وأصحاب الأثر وأهل السنة المعروفين بها المقتدى بهم فيها وأدركت من أدركت من علماء أهل العراق والحجاز والشام وغيرهم عليها فمن خالف شيئا من هذه المذاهب أو طعن فيها أو عاب قائلها فهو مبتدع خارج عن الجماعة زائل عن منهج السنة وسبيل الحق وهو مذهب أحمد وإسحاق بن إبراهيم بن مخلد وعبد الله بن الزبير الحميدي وسعيد بن منصور وغيرهم ممن جالسنا وأخذنا عنهم العلم فكان من قولهم: إن الإيمان قول وعمل ونية وساق كلاما طويلا إلى أن قال: ونعرف للعرب حقها وفضلها وسابقتها ونحبهم لحديث رسول الله ﷺ (حب العرب إيمان وبغضهم نفاق) ولا نقول بقول الشعوبية وأراذل الموالي الذين لا يحبون العرب ولا يقرون بفضلهم فإن قولهم بدعة وخلاف ويروون هذا الكلام عن أحمد نفسه في رسالة أحمد بن سعيد الأصطخري عنه إن صحت وهو قوله وقول عامة أهل العلم.

وقال في مجموع الفتاوى أيضا (١٥/ ٤٣١): فصل، وباعتبار القوى الثلاث

=

وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا (٥٦).

{وَاذْكُرْ فِي الْكِتَاب إِدْرِيس} هُوَ جَدّ أَبِي نوح {إنه كان صديقا نبيا}.

وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا (٥٧).

{وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا} هُوَ حَيّ فِي السَّمَاء الرَّابِعَة أَوْ السَّادِسَة أَوْ السَّابِعَة أَوْ فِي الْجَنَّة أُدْخِلَهَا بَعْد أَنْ أُذِيقَ الْمَوْت وَأُحْيِيَ وَلَمْ يَخْرُجْ مِنْهَا[1].

=

انقسمت الأمم التي هي أفضل الجنس الإنسانى وهم العرب والروم والفرس فإن هذه الأمم هي التي ظهرت فيها الفضائل الإنسانية وهم سكان وسط الأرض طولا وعرضا فأما من سواهم كالسودان والترك ونحوهم فتبع فغلب على العرب القوة العقلية النطقية واشتق اسمها من وصفها فقيل لهم: عرب من الأعراب وهو البيان والإظهار وذلك خاصة القوة المنطقية وغلب على الروم القوة الشهوية من الطعام والنكاح ونحوهما واشتق اسمها فقيل لهم: الروم فإنه يقال: رمت هذا أرومة إذا طلبته واشتهيته وغلب على الفرس القوة الغضبية من الدفع والمنع والاستعلاء والرياسة واشتق اسمها من ذلك فقيل: الفرس كما يقال: فرسه يفرسه إذا قهره وغلبه ولهذا توجد هذه الصفات الثلاث على الأمم الثلاث حاضرتها وباديتها ولهذا كانت العرب أفضل الأمم وتليها الفرس لأن القوة الدفعية أرفع وتليها الروم.

(١) قوله تعالى: {وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ} [مريم: ٥٦].

قال يحيى بن يلام:"يقول: اذكره لأهل مكة".

قال الثعلبي:"وهو جد أبي نوح سمي إدريس لكثرة درسه الكتب، واسمه أخنوخ. وكان خياطا وهو أول من خط بالقلم، وأول من خاط الثياب، فلبس المخيط، وأول من نظر في علوم النجوم والحساب".

=

=

عن عبد الله بن عمرو بن العاص: "إن إدريس أقدم من نوح، بعثه الله إلى قومه، فأمرهم الله إن يقولوا: «لا إله إلا الله»، ويعملوا بما شاء، فأبوا، فأهلكهم الله".

عن عبد الله بن مسعود -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- قال: "إدريس هو إلياس، وإسرائيل هو يعقوب".

عن ابن مسعود -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ-، قال: "إدريس هو إلياس".

قوله تعالى: {إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا} [مريم: ٥٦]، أي:"إنه كان عظيم الصدق في قوله وعمله، نبيًا يوحى إليه".

قال الطبري: أي:"لا يقول الكذب، {نَبِيًّا}، نوحي إليه من أمرنا ما نشاء".

قال الزحيلي:"أي كثير الصدق، قوي التصديق بآيات الله تعالى، وكان رسولا نبيا، موحى إليه بشرع، مأمورا بتبليغه إلى قومه، وقد أنزل الله تعالى عليه ثلاثين صحيفة كما في حديث أبي ذرّ".

أي: اذكر في الكتب على وجه التعظيم والإجلال، والوصف بصفات الكمال.

{إِدْرِيسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا} جمع الله له بين الصديقية، الجامعة للتصديق التام، والعلم الكامل، واليقين الثابت، والعمل الصالح، وبين اصطفائه لوحيه، واختياره لرسالته.

قوله تعالى: {وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا (٥٧)} [مريم: ٥٧].

قال الزحيلي أي: أعلى قدره، وشرفه بالنبوة، وجعله ذا منزلة عالية، كما قال الله لنبيه: {وَرَفَعْنا لَكَ ذِكْرَكَ} [الشرح ٤/ ٩٤]".

قال الطبري: أي:"يعني به: إلى مكان ذي علوّ وارتفاع".

قال مجاهد: "إدريس رُفع فلم يمت، كما رُفع عيسى". وفي لفظ" رُفِع إدريسُ كما رُفِع عيسى، ولم يَمُتْ".

عن مجاهد بن جبر -من طريق منصور- " {ورفعناه مكانا عليا}، قال: السماء الرابعة". وروي عن الربيع مثله.

=

=

عن قتادة-من طريق سعيد- قال: "في السماء الرابعة". وروي عن سفيان الثوري مثله.

قال ابن عباس:"رفع إلى السماء السادسة فمات فيها".

عن أبي سعيد الخدريّ:" {وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا}، قال: في السماء الرابعة". وروي عن مجاهد نحوه.

عن قتادة، قوله:" {وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا}، قال: حدثنا أنس بن مالك أن نبيّ الله حدث أنه لما عرج به إلى السماء قال: أتيت على إدريس في السماء الرابعة".

أي: رفع الله ذكره في العالمين، ومنزلته بين المقربين، فكان عالي الذكر، عالي المنزلة.

قال الرازي: قوله: ورفعناه مكانا عليا وفيه قولان: أحدهما: أنه من رفعة المنزلة كقوله تعالى لمحمد ﷺ: ورفعنا لك ذكرك [الشرح: ٤] فإن الله تعالى شرفه بالنبوة وأنزل عليه ثلاثين صحيفة وهو أول من خط بالقلم ونظر في علم النجوم والحساب وأول من خاط الثياب ولبسها وكانوا يلبسون الجلود.

الثاني: أن المراد به الرفعة في المكان إلى موضع عال وهذا أولى، لأن الرفعة المقرونة بالمكان تكون رفعة في المكان لا في الدرجة ثم اختلفوا فقال بعضهم إن الله رفعه إلى السماء وإلى الجنة وهو حي لم يمت، وقال آخرون: بل رفع إلى السماء وقبض روحه... ا.هـ

(تنبيه): قول الرازي في النقل السابق: عن أدريس عليه السلام أنه (أول من خط بالقلم ونظر في علم النجوم). زعم كذب، وبيان بطلان هذه الادعاءات من خمسة أوجه:

الوجه الأول: أنه قول بلا علم، فإن مثل هذا لا يعلم إلا بالنقل الصحيح، ولا سبيل للقائل إلى ذلك.

الوجه الثاني: أن هؤلاء يزعمون أن هذا العلم مأخوذ من إدريس عليه السلام، بينما

=

=

نجدهم في كتبهم يصرحون أنهم عرفوه بالتجربة والقياس، فمن ذلك قول ابن أبي الشكر: (وذلك مما جربه الحكماء المتقدمون، والفضلاء المتأخرون).

بل والرازي نفسه ذكر هذا عند عرضه للأدلة فقال: (وليست الكواكب موكلة بالفساد والصلاح، ولكن فيها دليل بعض الحوادث عرف ذلك بالتجربة)، بل وبعض كبرائهم يصرح أن صناعتهم قائمة على الخرص والتخمين كقول إمامهم أبي نصر الفارابي: (إنك لو قلبت أوضاع المنجمين فجعلت مكان السعد نحسًا، ومكان النحس سعدًا، أو مكان الحار باردًا، ومكان البارد حارًا، أو مكان الذكر مؤنثًا، ومكان المؤنث ذكرًا، وحكمت لكان حكمك من جنس أحكامهم تصيب تارة وتخطيء تارة وتخطيء أخرى).

وما كان بهذه المثابة من الكذب والتخمين ينزهون عنه معلميهم كبقراط وأفلاطون وغيرهم من الفلاسفة، الذين يوجد في كلامهم من الكذب والباطل ما لا يوجد في كلام اليهود ولا النصارى، فإن كانوا ينزهون هؤلاء عنه، فكيف يجوز نسبة ذلك إلى نبي كريم؟

وبذلك يظهر تناقض أقوالهم مما يدل دلالة واضحة على كذبهم.

الوجه الثالث: إن كان بعض هذا العلم مأخوذًا من نبي -كما تزعمون-، فمن المعلوم قطعًا أن فيه من الكذب والباطل أضعاف ما هو مأخوذ عن ذلك النبي، ومعلوم قطعًا أن الكذب والباطل الذي في ذلك أضعاف الكذب والباطل الذي عند اليهود والنصارى فيما يخبرون به عن الأنبياء، مع أن أصل دين اليهود والنصارى مأخوذ عن المرسلين قطعًا، ومع ذلك فقد حرفوا وبدلوا كذبهم وكتموا، وعهدهم أقرب إلينا عهدًا من إدريس، ونقلة دينهم أعظم من نقلة علم أحكام النجوم، وأبعد عن تعمد الكذب والكفر بالله من هؤلاء، فما ظنك بما نقل عن إدريس؟

=

أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَّةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِنْ ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا (٥٨).

{أُولَئِكَ} مُبْتَدَأ {الَّذِينَ أَنْعَمَ الله عَلَيْهِمْ} صِفَة لَهُ {مِنْ النَّبِيِّينَ} بَيَان لَهُ وَهُوَ فِي مَعْنَى الصِّفَة وَمَا بَعْده إلَى جُمْلَة الشَّرْط صِفَة لِلنَّبِيِّينَ فَقَوْله {مِنْ ذُرِّيَّة آدَم} أَيْ إدْرِيس {وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوح} فِي السَّفِينَة أي إبراهيم بن ابْنه سَام {وَمِنْ

=

الوجه الرابع: أن هذا العلم متضمن للسحر والتقرب إلى الكواكب فما كان من هذه الأحكام من جنس السحر فمن الممتنع أن يكون نبي من الأنبياء ساحرًا، وهم يذكرون أنواعًا من السحر، ويقولون: هذا يصلح لعمل الشرائع والسنن، ومنها ما هو دعاء للكواكب، وعبادة لها، وغير ذلك من أنواع الشرك التي يعلم كل من آمن بالله ورسوله بالاضطرار أن نبيًا من الأنبياء محال أن يأمر بشيء من ذلك ولا علمه، وإضافة ذلك إلى نبي من الأنبياء كإضافة من أضاف السحر إلى سليمان عليه السلام لما سخّر الله له الجن، فرد الله هذا القول بقوله: {وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا}.

الوجه الخامس: من المعلوم من حال هذه الأمة ما نسب إلى جعفر الصادق رحمه الله من جنس هذه الأمور مما يعلمه كل عالم بحال جعفر أنه مكذوب عليه، وافترى عليه الرافضة افتراءات كثيرة، لا يشك أحد في كذبها عليه، كما أنهم افتروا على عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه وكذبوا عليه، حتى إن بعض الشيعة نسبة إلى الألوهية، وأضاف كثير من طوائف الباطنية مذهبها إليه، فهذه الافتراءات على عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه وأهل بيته في الزمن القريب، فكيف الظن بما ينسب إلى إدريس عليه السلام مع تباعد الزمان، وتنوع الحدثان، واختلاف الملل والأديان.

ذُرِّيَّة إبْرَاهِيم} أَيْ إسْمَاعِيل وَإِسْحَاق وَيَعْقُوب {و} مِنْ ذُرِّيَّة {إسْرَائِيل} هُوَ يَعْقُوب أَيْ مُوسَى وَهَارُون وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى {وممن هدينا واجتبينا} أي من جملتهم وخبر أُولَئِكَ {إذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَات الرَّحْمَن خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا} جَمْع سَاجِد وَبَاكٍ أَيْ فَكُونُوا مِثْلهمْ وَأَصْل بَكِيّ بُكُوي قُلِبَتْ الْوَاو يَاء والضمة كسرة[1].

---

(١) لما ذكر هؤلاء الأنبياء المكرمين، وخواص المرسلين، وذكر فضائلهم ومراتبهم قال: {أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ} أي: أنعم الله عليهم نعمة لا تلحق، ومنة لا تسبق، من النبوة والرسالة، وهم الذين أمرنا أن ندعو الله أن يهدينا صراط الذين أنعمت عليهم، وأن من أطاع الله، كان {مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ} الآية. وأن بعضهم {مِنْ ذُرِّيَّةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ} أي: من ذريته {وَمِنْ ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ} فهذه خير بيوت العالم، اصطفاهم الله، واختارهم، واجتباهم،. وكان حالهم عند تلاوة آيات الرحمن عليهم، المتضمنة للإخبار بالغيوب وصفات علام الغيوب، والإخبار باليوم الآخر، والوعد والوعيد.

قوله تعالى: {أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ} [مريم: ٥٨]، أي:"هؤلاء الذين قصصتُ عليك خبرهم أيها الرسول، هم الذين أنعم الله عليهم بفضله وتوفيقه، فجعلهم أنبياء".

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره لنبيه ﷺ: هؤلاء الذين اقتصصتُ عليك أنباءهم في هذه السورة يا محمد، الذين أنعم الله عليهم بتوفيقه، فهداهم لطريق الرشد من الأنبياء".

عن السدي:"{أولئك الذين أنعم الله عليهم من النبيين}، قال: هذه تسمية الأنبياء الذين ذكرهم؛ أمّا مِن ذرية آدم فإدريس ونوح، وأمّا مَن حمل مع نوح فإبراهيم، وأمّا ذرية إبراهيم فإسماعيل وإسحاق ويعقوب، وأمّا مِن ذرية إسرائيل فموسى =

=

هارون وزكريا ويحيى وعيسى".

عن قيس بن سعد، قال: "جاء ابنُ عباس حتى قام على عبيد بن عمير وهو يقُصُّ، فقال: {واذكر في الكتاب إبراهيم إنه كان صديقا نبيا}، {واذكر في الكتاب إسماعيل} آية، {واذكر في الكتاب إدريس} حتى بلغ: {أولئك الذين أنعم الله عليهم من النبيين}. قال ابن عباس: ذكِّر بأيام الله، وأَثْنِ على مَن أثنى الله عليه".

قوله تعالى: {مِنْ ذُرِّيَّةِ آدَمَ} [مريم: ٥٨]، أي:"أي: من نسل آدم".

قال الطبري:"عنى به: إدريس".

قوله تعالى: {وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ} [مريم: ٥٨]، أي:"ومِن ذرية مَن حملنا مع نوح في السفينة".

قال الطبري:"عنى به: إبراهيم".

قوله تعالى: {وَمِنْ ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ} [مريم: ٥٨]، أي:"أي: ومن نسل إبراهيم".

قال الطبري:"عنى به: إسحاق ويعقوب وإسماعيل".

قوله تعالى: {وَمِنْ ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ} [مريم: ٥٨]، أي:"ومن ذرية إسرائيل وهو «يعقوب»".

قال الطبري:"عنى به: موسى وهارون وزكريا وعيسى وأمه مريم، ولذلك فرق تعالى ذكره أنسابهم وإن كان يجمع جميعهم آدم لأن فيهم من ليس من ولد من كان مع نوح في السفينة، وهو إدريس، وإدريس جدّ نوح".

قوله تعالى: {وَمِمَّنْ هَدَيْنَا} [مريم: ٥٨]، أي:"وممَّن هدينا للإيمان".

قال الطبري: يقول:"وممن هدينا للإيمان بالله والعمل بطاعته".

قوله تعالى: {وَاجْتَبَيْنَا} [مريم: ٥٨]، أي:"وممَّن اصطفينا للرسالة والنبُوَّة".

قال الطبري:"يقول: وممن اصطفينا واخترنا لرسالتنا ووحينا".

عن مجاهد:"{وَاجْتَبَيْنا}، قال: خلصنا".

=

=

قال أبو عبيدة:"{وَاجْتَبَيْنا}، أي: اخترنا".

قوله تعالى: {إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا} [مريم: ٥٨]، أي:"تتلى عليهم آيات الرحمن المتضمنة لتوحيده وحججه خرُّوا ساجدين لله خضوعًا، واستكانة، وبكَوْا من خشيته سبحانه وتعالى".

قال الطبري:"يقول: إذا تتلى على هؤلاء الذين أنعم الله عليهم من النبيين أدلة الله وحججه التي أنزلها عليهم في كتبه، خروا لله سجدا، استكانة له وتذللا وخضوعا لأمره وانقيادا، {وَبُكِيًّا}، يقول: خرّوا سجدا وهم باكون".

عن عمر بن الخطاب: "أنه قرأ سورة «مريم» فسجد، ثم قال: هذا السجود فأين البكاء؟". وفي رواية:"فأين البُكِيُّ؟".

صفية زوج النبي ﷺ ::"أنّها رأت قومًا قرءوا سجدةً، فسجدوا، فنادتهم: هذا السجود والدعاء، فأين البكاء؟".

قال القرطبي: «قوله- تعالى- أُولئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَّةِ آدَمَ يريد إدريس وحده وَمِمَّنْ حَمَلْنا مَعَ نُوحٍ يريد إبراهيم وحده وَمِنْ ذُرِّيَّةِ إِبْراهِيمَ يريد إسماعيل وإسحاق ويعقوب وَمن ذرية إِسْرائِيلَ يريد موسى وهارون وزكريا ويحيى وعيسى فكان لإدريس ونوح شرف القرب من آدم، ولإبراهيم شرف القرب من نوح، ولإسماعيل وإسحاق ويعقوب، شرف القرب من إبراهيم» ا.هـ

وقال ابن كثير: يقول تعالى هؤلاء النبيون -وليس المراد هؤلاء المذكورين في هذه السورة فقط، بل جنس الأنبياء عليهم السلام، استطرد من ذكر الأشخاص إلى الجنس - {الذين أنعم الله عليهم من النبيين من ذرية آدم} الآية.... قال ابن جرير: ولذلك فرق أنسابهم، وإن كان يجمع جميعهم آدم؛ لأن فيهم من ليس من ولد من كان مع نوح في السفينة، وهو إدريس، فإنه جد نوح.

قلت: هذا هو الأظهر أن إدريس في عمود نسب نوح، عليهما السلام. وقد قيل: إنه

=

=

من أنبياء بني إسرائيل، أخذا من حديث الإسراء، حيث قال في سلامه على النبي ﷺ: "مرحبا بالنبي الصالح، والأخ الصالح"، ولم يقل: "والولد الصالح"، كما قال آدم وإبراهيم، عليهما السلام ا.هـ

{خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا} أي: خضعوا لآيات الله، وخشعوا لها، وأثرت في قلوبهم من الإيمان والرغبة والرهبة، ما أوجب لهم البكاء والإنابة، والسجود لربهم، ولم يكونوا من الذين إذا سمعوا آيات الله خروا عليها صما وعميانا.

قال ابن كثير: أجمع العلماء على مشروعية السجود هاهنا، اقتداء بهم، واتباعا لمنوالهم.

وفي إضافة الآيات إلى اسمه {الرحمن} دلالة على أن آياته، من رحمته بعباده وإحسانه إليهم حيث هداهم بها إلى الحق، وبصرهم من العمى، وأنقذهم من الضلالة، وعلمهم من الجهالة.

قال الشنقيطي: واختلف أهل العلم في المراد بإضاعتهم الصلاة، فقال بعضهم: المراد بإضاعتها تأخيرها عن وقتها. وممن يروى عنه هذا القول ابن مسعود، والنخعي، والقاسم ابن مخيمرة، ومجاهد، وعمر بن عبد العزيز وغيرهم. وقال القرطبي في تفسير هذه الآية: إن هذا القول هو الصحيح. وقال بعضهم: إضاعتها الإخلال بشروطها، وممن اختار هذا القول الزجاج، وقال بعضهم: المراد بإضاعتها جحد وجوبها؛ ويروى هذا القول وما قبله عن محمد بن كعب القرظي. وقيل: إضاعتها في غير الجماعات. وقيل: إضاعتها تعطيل المساجد، والاشتغال بالصنائع والأسباب.

قال مقيده -عفا الله عنه وغفر له-: وكل هذه الأقوال تدخل في الآية؛ لأن تأخيرها عن وقتها، وعدم إقامتها في الجماعة، والإخلال بشروطها، وجحد وجوبها، وتعطيل المساجد منها؛ كل ذلك إضاعة لها، وإن كانت أنواع الإضاعة تتفاوت.

=

=

واختلف العلماء أيضًا في الخلف المذكورين من هم؟ فقيل: هم اليهود. ويروى عن ابن عباس ومقاتل. وقيل: هم اليهود والنصارى، ويروى عن السدي. وقيل: هم قوم من أمة محمد ﷺ يأتون عند ذهاب الصالحين منها، يركب بعضهم بعضًا في الأزقة زنى، ويروى عن مجاهد وعطاء وقتادة ومحمد بن كعب القرظي. وقيل: إنهم البربر. وقيل: إنهم أهل الغرب. وفيهم أقوال أخر.

قال مقيده -عفا الله عنه-: وكونهم من أمة محمد ﷺ ليس بوجيه عندي؛ لأن قوله تعالى: {فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ} صيغة تدل على الوقوع في الزمن الماضي، ولا يمكن صرفها إلى المستقبل إلا بدليل يجب الرجوع إليه كما ترى. والظاهر أنهم اليهود والنصارى وغيرهم من الكفار الذين خلفوا أنبياءهم وصالحيهم قبل نزول الآية، فأضاعوا الصلاة، واتبعوا الشهوات، وعلى كل حال فالعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، فكل خلف أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات يدخلون في الذم والوعيد المذكور في هذه الآية. واتباع الشهوات المذكور في الآية عام في اتباع كل مشتهى يشغل عن ذكر الله وعن الصلاة. وعن علي رضي الله عنه: من بنى المشيد، وركب المنظور، ولبس المشهور؛ فهو ممن اتبع الشهوات.

مباحث في سجود التلاوة.

المطلب الأول: في قراءة الإمام لما فيه سجدة

المسألة الأولى: في قراءتها في الجهرية:

وقد اختلف أهل العلم في حكم ذلك على قولين.

القول الأول: مشروعية ذلك:

ذهب إليه جمهور أهل العلم؛ ومنهم: الحنفية، والشافعية، والحنابلة، والظاهرية، ومالك في رواية ابن وهب عنه. واستدلوا بما يلي:

١- حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: كان النبي ﷺ يقرأ في الجمعة في صلاة الفجر:

=

=
{الم، تنزيل} [السجدة: ١، ٢] {هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ} [الإنسان: ١].
ووجه الدلالة: ظاهر لاشتمال الأولى على سجدة.
ونوقش: بأن عمل أهل المدينة على خلافه فدل على نسخه.
وأجيب عنها من وجهين:
الوجه الأول: عدم التسليم بأن عملهم حجة.
الوجه الثاني: أنه لا عمل أقوى من عمل عمر وعثمان بحضرة الصحابة في المدينة.
٢- حديث أبي هريرة؛ قال: سجدنا مع النبي ﷺ في: {إِذَا السَّمَاءُ انْشَقَّتْ} و {اقْرَأْ} [العلق: ١]. ووجه الدلالة: ظاهر.
ونوقش: بما نوقش به سابقه.
٣- أنه روي عن جمع من فقهاء الصحابة؛ منهم: عمر، وابنه، وأبو هريرة، وعثمان، ولم يعلم لهم مخالف فكان إجماعًا.
القول الثاني: أنه تكره قراءتها في صلاة الفريضة دون النافلة:
ذهب إليه مالك في رواية عنه؛ وهي المذهب عند أصحابه، واحتج: للكراهة في الفريضة بما يلي:
١- أنه إذا لم يسجدها دخل في الوعيد، أي: اللوم المشار له بقوله تعالى:... {وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لَا يَسْجُدُونَ} [الانشقاق: ٢١] وإن سجد زاد في عدد سجودها.
ونوقش من أوجه:
الوجه الأول: أن السجود سنة ولا وعيد في ترك السنة، فهذا ليس قولكم.
الوجه الثاني: بأن هذه العلة موجودة في النافلة ولا كراهة فيه عندكم.
وأجيب: بأن السجود لما كان نافلة والصلاة نافلة صار كأنه ليس زائدًا.
الوجه الثالث: دعواكم أن سجوده زيادة، استدلال بمحل النزاع، فهو مسنون بفعل
=

=

النبي ﷺ وليس بزيادة.

٢- ولأنه يؤدي إلى أن يخلط على من خلفه، لأنه أمر غير معتاد في الصلاة.

ونوقش: بأن التخليط إنما يحصل في حالة الإسرار في القراءة، وأما مع الجهر فأكثر من وراءه يعلم بموضع السجدة فيتأهب لها ولا ينكر السجود فيها.

أما عدم الكراهة في النافلة: فقد احتج له بعضهم: بأن السجود لما كان نافلة، و الصلاة نافلة صار كأنه ليس زائدًا بخلاف الفرض. ونوقش من وجهين:

الوجه الأول: أن مقتضى الزيادة في الفرض البطلان، فكذلك في النافلة.

وأجيب عنه: بأن الشارع لما طلبها من كل قارئ صارت كأنها ليست زائدة محضة.

الوجه الثاني: أنه لا فرق في الخوف من التخليط بين الفريضة والنافلة فلا بد لكم من دليل على الفرق.

والذي يظهر لي رجحانه هو القول الأول من الجواز بلا كراهة لما أوردوه من الحديث الصحيح في قراءته ص للسجدة، وضعف ما أورده الآخرون من دعوى النسخ، أو احتمال التخليط.

المسألة الثانية: في الصلاة السرية:

الفرع الأول: في حكم قراءة ما فيه سجدة:

اختلف أهل العلم في حكم قراءة ما فيه سجدة في الصلاة السرية على الأقوال التالية.

القول الأول: أنه يكره: ذهب إليه الحنفية والحنابلة في قول، وهو المذهب وبعض المالكية.

١- لأنه إذا لم يسجد كان تاركًا للسنة، وإن سجد أوهم على المأمومين؛ إذ قد يظنون أنه غلط فقدم السجود على الركوع، وفيه من الفتنة ما لا يخفى. ونوقش

=

=

من وجهين:

الوجه الأول: أن ترك السنة لا يقتضى الكراهة؛ لأن ترك المسنون ليس مكروهًا، وإلا قلنا: إن صلاتنا في غير النعال مكروهة، ولقلنا بالكراهة إذا لم يرفع يديه عند تكبيرة الإحرام، ولقلنا بالكراهة إذا لم يجهر بالجهرية.

الوجه الثاني: أن المحذور يزول إذا جهر بقراءة السجدة ليعلم الناس سبب سجوده فيتبعوه.

٢- ولأنه إذا سجد زاد في عدد سجود الفريضة.

ونوقش: بأن هذا الاستدلال بمحل النزاع، والثابت عنه ﷺ السجود فليس بزيادة.

القول الثاني: أنه يكره في الفريضة دون النافلة:

ذهب إليه المالكية.

واحتجوا: لكراهة ذلك في الفريضة بما احتج به أصحاب القول الأول.

أما عدم الكراهة في النافلة فقالوا: إن السجود لما كان نافلة، والصلاة نافلة صار كأنه ليس زائدًا.

وقد نوقش من وجهين:

الوجه الأول: أن مقتضى الزيادة في الفرض البطلان فكذلك في النافلة.

وأجيب عنه: بأن الشارع لما طلبها من كل قارئ صارت كأنها ليست زائدة محضة.

الوجه الثاني: أن من دعواكم على الكراهة في الفريضة خوف التخليط على المأمومين ولا فرق في ذلك بين النافلة والفرض.

القول الثالث: أنه لا يكره مطلقًا: ذهب إليه الشافعية، والحنابلة في قول، وابن حزم.

واستدلوا بما يلي:

=

=

١ - حديث عبد الله بن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أن النبي ﷺ سجد في صلاة الظهر، ثم قام فركع، فرأى أصحابه أنه قرأ سورة السجدة. ونوقش من وجهين:

الوجه الأول: أن الحديث لا يصح، لأن في سنده أمية وهو مجهول، ثم هو من رواية سليمان التيمي وهو مدلس.

الوجه الثاني: على فرض صحة الحديث، فيحمل على أنه لبيان الجواز، فلم يكن مكروهًا، لأنه في مقام التشريع.

٢- أنه لا دليل على الكراهة، فعلى مدعيها إيراد الدليل.

والذي يترجح لدي ما ذهب إليه أصحاب القول الثالث من عدم الكراهة؛ لعدم الدليل المقتضي للكراهة، وضعف ما أورده الأولون للحكم بذلك.

الفرع الثاني: في حكم سجوده إذا قرأ في السرية: وفيه جانبان:

الجانب الأول: في سجود الإمام.

الجانب الثاني: سجود المأموم.

الجانب الأول: في سجود الإمام: اختلف القائلون بكراهة قراءة ما في السجود في الصلاة السرية في حكم سجوده إذا قرأ على قولين:

القول الأول: أنه يشرع له السجود: ذهب إليه الحنفية، والمالكية، والحنابلة في قول.

١ - لما روي عن ابن عمر أن النبي ﷺ سجد في الظهر، ثم قام فركع، فرأى أصحابه أنه قد قرأ سورة السجدة. نوقش من وجهين:

الوجه الأول: ضعف الحديث لضعف إسناده، فلا يصح الاحتجاج.

الوجه الثاني: لو سلم بصحة الحديث، فإنه يحمل على أنه لبيان الجواز فلم يكن مكروهًا لكونه في مقام التشريع.

٢- ولتقرر السبب في حقه وهو التلاوة.

=

=

القول الثاني: أنه يكره: ذهب إليه الحنابلة في المذهب، واحتجوا: بأن فيه إيهامًا على المأمومين.

ونوقش: بأن ذلك يزول برفع صوته قليلا عند آية السجدة، أو موضع السجود.

والذي يترجح لدي ما ذهب إليه الأولون من جواز ذلك بلا كراهة، بل استحبابه؛ لقوة ما ذكروه من تقرر السبب في حقه، في مقابل ضعف ما أورده القائلون بالكراهة.

الجانب الثاني: في سجود المأموم:

هذا وقد اختلف القائلون بكراهة السجود للإمام، في حكم اتباع المأموم للإمام فيما لو سجد، على الأقوال التالية:

القول الأول: أنه يتبعه في سجوده: ذهب إليه الحنفية، والمالكية، والحنابلة في قول.

١- لقول النبي ﷺ: «إنما جعل الإمام ليؤتم به فإذا سجد فاسجدوا».

٢- ولأنه لو كان بعيدًا لا يسمع، أو أطروشًا، في صلاة الجهر لسجد بسجود إمامه كذا ههنا.

٣- ولأن الأصل عدم السهو.

القول الثاني: أنه يمتنع اتباعه: ذهب إليه بعض المالكية. لاحتمال سهوه، ونوقش: بأن الأصل عدم السهو.

القول الثالث: أن المأموم مخير بين السجود وعدمه: ذهب إليه الحنابلة في قول، وهو المذهب.

واحتجوا: بأنه ليس بمسنون للإمام، ولا يوجد الاستماع المقتضى للسجود.

ونوقش: بأنه يبطل بما إذا كان المأموم بعيدًا في صلاة الجهر، لا يسمع أو أطروشًا فإنه يسجد بسجود إمامه مع ما ذكروه.

=

=

رجحنا فيما سبق جواز تلاوة ما فيه سجدة في السرية، وجواز سجوده تبعًا لذلك، وأن ذلك مستحب غير مكروه لتقرر السبب في حقه، وبناء عليه فإن اتباع المأموم لإمامه لازم في هذا الحالة، لما ذكره أصحاب هذا القول من الحديث، وصحة ما أوردوه من القياس، وكما لو كان في صلاة جهرية، والله أعلم.

المطلب الثاني: قيام الركوع مقام سجود التلاوة.

اختلف أهل العلم في حكم الاجتزاء بركوع الصلاة عن سجود التلاوة على قولين:

القول الأول: أنه يقوم مقامه: ذهب إليه الحنفية، وأحمد في رواية عنه، اختاره بعض أصحابه.

واحتجوا بما يلي:

١- قوله تعالى عن داود: {وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ} [ص: ٢٤]. والدلالة فيه من وجهين:

الوجه الأول: أن المراد بالآية السجود، لأنه قال: {وَخَرَّ} ولا يقال للراكع: خر.

الوجه الثاني: لو سلم بأن داود ركع حقيقة، لم يكن فيه حجة؛ لأن داود إنما فعل ذلك توبة، لا لسجود التلاوة.

الوجه الثاني: في الاستدلال، أنه قد روي في تأويل الآية: أن معناه خر ساجدًا، فعبر بالركوع عن السجود، فجاز أن ينوب عنه إذ صار عبارة عنه. ونوقش من وجهين:

الوجه الأول: بأن الذي روي عنه عليه السلام السجود لا الركوع، لا أنه عبر عنه بالركوع.

الوجه الثاني: أنه لا يلزم في تعبيره عن السجود بالركوع أن ينوب عنه؛ إذ يحتاج إلى دليل.

٢- ما روي عن ابن عمر رضي الله عنهما، أنه كان إذا تلا آية السجدة في الصلاة ركع.

٣- ولأن المقصود الخضوع والخشوع وذلك يحصل بالركوع، كما يحصل

=

=

بالسجود.

القول الثاني: أنه لا يقوم مقامه:

ذهب إليه المالكية، والشافعية، وأحمد في رواية عنه، وهي المذهب.

١- لأنه سجود مشروع، فلا يقوم مقامه الركوع كسجود الصلاة.

٢- ولأنه إن قصد به الركوع للصلاة فلم يسجدها وإن قصد به السجود فقد أحالها عن صفتها، وذلك غير جائز؛ لأنه تغيير للموضوع الشرعي.

٣- ولأن الركوع ليس فيه من الخضوع ما في السجود.

٤- ولأنه هو الذي استمر عمل النبي ﷺ ومن بعده عليه.

والذي يظهر لي رجحانه هو القول الثاني؛ لقوة ما بني عليه من استدلال؛ ومنه أنه هو الذي روي عن النبي ﷺ، ولم ينقل عنه مرة واحدة لا بحديث صحيح ولا ضعيف الاكتفاء بالركوع عن السجود.

المطلب الثالث: في تكرار السجود لتكرار قراءة ما فيه سجدة، ذكرنا فيما سبق حكم قراءة الإمام لما فيه سجدة، وأتبعناه في حكم سجوده إذا قرأ السجدة، واختلافهم في ذلك بين قائل بالجواز، وقائل بالكراهة، ومن هو مفرق بين ذلك في السرية، والجهرية واتفاقهم على جواز ذلك للمنفرد دون كراهة.

والذي نريد بيانه هنا هو: حكم سجوده فيما لو كرر قراءة ما فيه سجدة في صلاة واحدة.

فقد اختلف أهل العلم في ذلك على الأقوال التالية.

القول الأول: مشروعية السجود في كل مرة. ذهب إليه المالكية، والشافعية في الأصح، والحنابلة في قول. واحتجوا: بأن سببه تلاوة السجدة فتكرر بتجدد السبب.

القول الثاني: أنه يشرع إذا طال الفصل: ذهب إليه الشافعية في وجه: قالوا: اكتفاء

=

=

بالأولى مع قصر الفصل.

القول الثالث: أنه يشرع إذا كررها في ركعتين، أما إذا كان في واحدة فلا يعيدها: ذهب إليه أبو يوسف ومحمد من الحنفية، والشافعية في الوجه الثالث، وبعض الحنابلة.

واحتجوا بما يلي:

١- لأن الركعتين كالمجلسين، وقد تجدد السبب بعد توفية الحكم الأول.

٢- ولأن للقراءة في كل ركعة حكمًا على حدة، حتى يسقط به فرض القراءة فكانت الإعادة في الركعتين نظير الإعادة في الصلاتين.

القول الرابع: أنه لا يشرع التكرار مطلقًا: ذهب إليه أبو يوسف في قوله الأخير.

واحتج: بأن المكان مكان واحد، وحرمة الصلاة حرمة واحدة، والمتلو آية واحدة، فلا يجب، إلا سجدة واحدة، كما لو أعادها في الركعة الأولى.

ونوقش: بأن المكان وإن اتحد حقيقة وحكمًا، لكن لا يمكن أن نجعل الثانية تكرارًا، لأن لكل ركعة قراءة مستحقة، فلو جعلت الثانية تكرارًا للأولى، والتحقت القراءة بالركعة الأولى لخلت الثانية عن القراءة ولفسدت؛ وحيث إنها لم تفسد دل على أنها لم تجعل مكررة، بخلاف ما إذا كرر التلاوة في ركعة واحدة؛ لأنه أمكن هناك جعل التلاوة المتكررة مستجدة المعنى.

والذي يظهر لي رجحانه أنه يكفيه سجدة واحدة وذلك قياسًا، على ما لو كرر قراءة الموضع الواحد خارج الصلاة، بل هو ههنا آكد للاتفاق على جواز التكرار خارج الصلاة دون كراهة، والاختلاف في كراهة قراءة السجدة، والسجود في صورة كثيرة في الصلاة.

المطلب الرابع: في صفة أداء السجدة في الصلاة

وفيه مسألتان:

=

=

المسألة الأولى: في التكبير في الخفض والرفع.

المسألة الثانية: في رفع اليدين فيهما.

المسألة الأولى في التكبير في الخفض والرفع:

ذهب عامة أهل العلم إلى مشروعية التكبير في سجود التلاوة، إذا كان ذلك في الصلاة، لا فرق في ذلك بين حالة الهوي إلى السجود، أو الرفع منه.

واستدلوا: بما ثبت عن النبي ﷺ: «أنه كان يكبر في كل رفع وخفض».

وقد نقل النووي في المجموع وجهًا في مذهب الشافعية: أنه لا يكبر في الرفع ولا في الخفض وحكم عليه بالضعف والشذوذ.

المسألة الثانية: في رفع اليدين:

أما رفع اليدين فقد اختلف أهل العلم في حكمه على قولين:

القول الأول: عدم مشروعية رفع اليدين: ذهب إليه الحنفية، والمالكية، والشافعية، وأحمد في رواية عنه اختارها بعض أصحابه.

واحتجوا بما يلي:

١- حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنه؛ قال: «رأيت رسول الله ﷺ إذا قام في الصلاة رفع يديه حتى يكونا حذو منكبيه، وكان يفعل ذلك حين يكبر للركوع، ويفعل ذلك إذا رفع رأسه من الركوع.. ولا يفعل ذلك في السجود». ووجه الدلالة: أنه كان لا يفعل ذلك في السجود، وما نحن فيه منه.

٢- وكما لو سجد في صلب الصلاة.

القول الثاني: أنه يسن له رفع يديه: ذهب إليه أحمد في الرواية الثانية عنه، وهي المذهب.

واحتج بما يلي:

١- حديث وائل بن حجر الحضرمي «أنه صلى مع رسول الله ﷺ فكان يكبر إذا

=

=

خفض ورفع، ويرفع يديه في التكبير». قال أحمد: هذا يدخل في هذا كله.

ونوقش: بأن حديث ابن عمر أخص منه وأصح، فيتعين تقديمه، عليه، ولذلك قدم عليه في سجود الصلاة كذلك ههنا.

٢- ولأنه يسن له الرفع لو كان خارج الصلاة فكذلك إذا كان فيها. ونوقش: بعدم التسليم بسنيته خارج الصلاة، لعدم الدليل عليه.

والذي يظهر لي رجحانه أنه لا يرفع يديه، لصحة ما ذكروه، من القياس، ولعدم الدليل الخاص به.

المطلب الخامس: في القراءة بعد الرفع من سجود التلاوة وقبل الركوع.

إذا سجد للتلاوة في الصلاة فقام استحب له أن يقرأ من بقية السورة شيئًا فإن كانت السجدة في آخر السورة، كما في الأعراف، قرأ من سورة أخرى، ذهب إلى هذا عامة الفقهاء.

واحتجوا بما يلي:

١- بما روي عن عمر بن الخطاب أنه صلى بالناس بالفجر فقرأ في الركعة الأولى بسورة يوسف، ثم قرأ في الثانية بالنجم ثم سجد، ثم قام فقرأ: {إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا}.

٢- وبما روي عن مسروق؛ قال: صليت خلف عثمان الصبح، فقرأ: {وَالنَّجْمِ} فسجد فيها ثم قام فقرأ سورة أخرى.

٣- وبما روي عن مسروق؛ قال: قال عبد الله: «إذا قرأ أحدكم سورة وآخرها سجدة فليركع إن شاء، وإن شاء فليسجد، فإن الركعة مع السجدة، وإن سجد فليقرأ إذا قام سورة، ثم ليركع».

المطلب السادس: في سجود المأموم لقراءة نفسه.

إذا قرأ المأموم ما فيه سجدة، فقد اختلف أهل العلم في حكم سجوده على ثلاثة

=

=

أقوال:

إذا قرأ المأموم ما فيه سجدة فهل له السجود أو ليس له ذلك؟ اختلف أهل العلم.

القول الأول: أنه لا يسجد: ذهب إليه الجمهور، ومنهم: الحنفية، والمالكية، والشافعية، وأحمد في رواية عنه وهي المذهب، واستدلوا بما يلي:

١- قوله ﷺ: «إنما جعل الإمام ليؤتم به فلا تختلفوا عليه...".

قالوا: وسجوده لقراءة نفسه من الاختلاف عليه فيكون داخلًا في النهي.

٢- ولأنه زاد سجودًا عمدًا.

٣- ولأنه لو سجد التالي وتابعه الإمام انقلب التابع متبوعًا، وإن لم يتابعه الإمام كان هو مخالفًا لإمامه، وإن سجدها الإمام وتابعه التالي كان هذا خلاف موضوع السجدة، فإن التالي المعتد به إمام التابعين.

٤- ولأن المقتدي محجور عن القراءة لنفاذ تصرف الإمام عليه، وتصرف المحجور لا حكم له.

القول الثاني: أنه يسجد: ذهب إليه أحمد في رواية عنه.

ولم يذكروا لها دليلًا، ولعله تقرر السبب وهو القراءة لما فيه سجدة فيسجد.

القول الثالث: أنه يسجد في النفل دون الفرض: ذهب إليه أحمد في رواية عنه.

ولم يذكروا لها دليلًا، ولعله تقرر السبب ثم إن مبني النفل على التخفيف، فيكون نوع مفارقة.

وقد يناقش بأنه يخالف القاعدة: أن ما ثبت في الفرض ثبت في النفل إلا بدليل، ولا دليل.

القول الرابع: أنهم يسجدونها إذا فرغوا من الصلاة: ذهب إليه محمد بن الحسن من الحنفية، وبعض الحنابلة.

واحتج لهذا القول: بأن السبب قد تقرر ولا مانع، بخلاف حالة الصلاة؛ لأنه يؤدي

=

=
إلى خلاف وضع الإمامة أو التلاوة. وأجيب عنه من وجهين:
الوجه الأول: عدم التسليم بتقرر السبب؛ لأن المقتدي محجور عن القراءة لنفاذ تصرف الإمام عليه وتصرف المحجور لا حكم له.
الوجه الثاني: أن هذه السجدة صلاتية؛ لأن سببها تلاوة من يشاركهم في الصلاة، والصلاتية إذا لم تؤد في الصلاة لا تؤدى بعد الفراغ منها كما لو تلاها الإمام ولم يسجد في الصلاة.
والذي يظهر لي رجحانه أنه ممنوع من السجود مع اقتدائه بالإمام، لكن إن حصلت منه مفارقة للإمام سجد، لتقرر السبب وعدم المانع، كما يترجح لي توجه السجود بعد الصلاة لتقرر السبب، وعدم المانع، وإكمال الصلاة فارق يسير فلا يضر.
المبحث الثاني في أحكامه خارج الصلاة، وفيه ثلاثة عشر مطلبًا:
المطلب الأول: في دخوله في مسمى الصلاة.
اختلف أهل العلم في سجود التلاوة هل يعد صلاة فتشترط له شروط الصلاة من طهارة الحدث، والطهارة عن النجس في البدن والثوب والمكان، وستر العورة، واستقبال القبلة، أو لا؟ فلا تشترط له هذه الشروط ودونك أقوالهم:
القول الأول: أنه يعد صلاة: ذهب إليه جمهور أهل العلم؛ ومنهم: الأئمة الأربعة، وأصحابهم.
الأدلة:
١- أنه سجود لله تعالى يقصد به التقرب إليه، له تحريم وتحليل، فكان صلاة كسجود الصلاة.
ونوقش: بأن هذا غير مسلم إذ لا تحريم ولا تحليل له عندنا، فلا يصح القياس.
٢- ولأنه بعض الصلاة فكان صلاة كسجدات الصلاة. ونوقش: بأن هذا لا يصح
=

=

لوجهين:

الوجه الأول: أنه لا يكون بعض الصلاة صلاة إلا إذا تمت كما أمر بها المصلي، ولو أن امرءًا كبر وقرأ، وركع ثم قطع عمدًا لما قال أحد: إنه صلى شيئًا.

الوجه الثاني: أن القيام بعض الصلاة، والتكبير بعض الصلاة، وقراءة أم الكتاب بعض الصلاة، والجلوس بعض الصلاة، والسلام بعض الصلاة فيلزمكم على هذا أن تقولوا: بأن هذه صلاة، ولا تقولون بذلك فبطل الاحتجاج، قالوا: فإذا كان صلاة اشترط له ما يشترط للصلاة من الطهارة واستقبال القبلة، والسترة بدليل ما يلي.

١- قوله ﷺ: «لا يقبل الله صلاة بغير طهور» فيدخل في عمومه سجود التلاوة.

٢- وقياسًا على سائر الصلوات.

٣- وقياسًا على سجدات الصلاة، والركوع.

٤- وقياسًا على سجود السهو.

القول الثاني: أنه لا يعد صلاة، فلا تشترط له شروطها:

ذهب إليه ابن جرير، وابن حزم، وابن تيمية، وحكاه ابن بطال عن كثير من السلف، وهو قول الشعبي، وسعيد بن المسيب.

واحتجوا لما ذهبوا إليه من أنه لا يعد صلاة بما يلي:

١- قوله ﷺ: «لا صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب».

ووجه الدلالة: نفيه صحة الصلاة لمن لم يقرأ بأم الكتاب، ومعلوم أن سجود التلاوة لا قراءة فيه، فدل على أنه ليس منها.

٢- حديث علي عن النبي ﷺ: «مفتاح الصلاة الطهور، وتحريمها التكبير وتحليلها التسليم».

قال ابن تيمية: وهذا يتناول كل ما تحريمه التكبير وتحليله التسليم: كالصلاة التي

=

=

فيها ركوع وسجود، وهذه منتفية في سجود التلاوة، فإن النبي ﷺ لم يسم ذلك صلاة، ولا سن فيها سلامًا ولم يرو عنه ذلك بإسناد صحيح ولا ضعيف بل هو بدعة، ولا جعل لها تكبير افتتاح.

٣- حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنه عن النبي ﷺ: «صلاة الليل والنهار مثنى مثنى».

٤- وحديثه الآخر عن النبي ﷺ: «الوتر ركعة من آخر الليل».

قال ابن حزم: فصح أن ما لم يكن ركعة تامة أو ركعتين فصاعدًا فليس صلاة، والسجود في قراءة القرآن ليس ركعة، ولا ركعتين فليس صلاة.

قالوا: فإذا لم يكن من الصلاة لم يشترط له ما يشترط للصلاة ومما يدل على ذلك ما يلي:

١- حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أن النبي ﷺ، قرأ سورة النجم فسجد بها فما بقي أحد من القوم إلا سجد.

والشاهد منه: سجود جميع من معه من المسلمين والمشركين، غير ذلك الشيخ، والمشرك نجس ليس له وضوء.

٢- حديث ابن عمر رضي الله عنهما، أن النبي ﷺ كان يقرأ علينا السورة فيها السجدة، فيسجد، ونسجد معه حتى ما يجد أحدنا موضعًا لجبهته.

والشاهد منه: سجودهم جميعًا حتى أن أحدهم لا يجد لجبهته موضعًا، وهذا ظاهر في عدم اشتراط الطهارة له إذ يبعد اتفاقهم على استحضارهم لها.

٣- أن الله أخبر عن سجود السحرة لما آمنوا بموسى على وجه الرضا بذلك السجود، ولا ريب أنهم لم يكونوا متوضئين ولا يعرفون الوضوء، فعلم أن السجود المجرد لله مما يحبه الله ويرضاه، وإن لم يكن صاحبه متوضئًا، وشرع من قبلنا شرع لنا ما لم يرد شرعنا بخلافه، وهذا سجود إيمان.

٤- أن الله أمر بني إسرائيل أن يدخلوا الباب سجدًا، ويقولوا: حطة و معلوم أنه لم

=

=

يأمرهم بوضوء، ولا كان الوضوء مشروعًا لهم، بل هو من خصائص أمة محمد.

٥- أن الله أخبر عن الأنبياء بالسجود المجرد في مثل قوله: {أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَّةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِنْ ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا} [مريم: ٥٨].

ولم يكونوا مأمورين بالوضوء، فإن الوضوء من خصائص أمة محمد.

٦- أنه روي عن عثمان في الحائض تسمع السجدة: «تؤمئ برأسها».

٧- وعن ابن عمر أنه كان يسجد على غير وضوء.

ونوقش: بأنه روي عنه قوله: لا يسجد الرجل إلا وهو طاهر.

وأجيب: بأنه يحمل على الطهارة الكبرى، أو على الاستحباب جمعًا بين الروايتين.

٨- ما رواه عطاء عن أبي عبد الرحمن السلمي، قال: كان يقرأ السجدة، وهو على غير القبلة، وهو يمشي فيؤمئ برأسه ثم يسلم.

٩- أن جنس العبادة لا يشترط له الطهارة، بل إنما تشترط للصلاة، فكذلك جنس السجود يشترط لبعضه، وهو السجود الذي لله كسجود الصلاة، بخلاف سجود التلاوة، وسجود الشكر، وسجود الآيات.

والذي يظهر لي رجحانه ما ذهب إليه أصحاب القول الثاني، من أنه لا يعد صلاة، لقوة أدلته في مقابل ضعف ما أورده الجمهور، لقولهم من استدلال، فإذا لم يكن صلاة، لم يجب له وضوء لما ذكره أصحاب القول الثاني، ولأنه لا يرد بإيجابه لغير الصلاة قرآن ولا سنة، ولا إجماع ولا قياس صحيح.

المطلب الثاني: في حكم السجود في وقت النهي.

اختلف القائلون بأن سجود التلاوة يعد صلاة في حكم الإتيان بالسجدة في وقت

=

=

النهي على الأقوال التالية.

القول الأول: أنه يسجد في كل و قت: ذهب إليه الشافعية، وأحمد في رواية عنه، وروي ذلك عن الحسن، والشعبي، وسالم، والقاسم، وعطاء، وعكرمة.

واستدلوا: بأنها صلاة ذات سبب وهو التلاوة، وإذا كانت كذلك جازت في وقت النهي لجملة أدلة منها:

١- أن أحاديث الأمر بذوات الأسباب كقوله ﷺ: «إذا دخل أحدكم المسجد فلا يجلس حتى يصلي ركعتين»، عام محفوظ لا خصوص فيه، وأحاديث النهي ليس فيها حديث واحد عام، بل كلها مخصوصة، فوجب تقديم العام الذي لا خصوص فيه، فإنه حجة باتفاق السلف والجمهور القائلين بالعموم، بخلاف الثاني، وهو أقوى منه بلا ريب.

٢- أنه ثبت أن النبي ﷺ أمر بصلاة تحية المسجد للداخل عند الخطبة هنا بلا خلاف عنه لثبوت النص به، والنهي عن الصلاة في هذا الوقت أشد بلا ريب، فإذا فعلت هناك فهنا أولى.

٣- ومنها: أن حديث ابن عمر في الصحيحين لفظه: «لا تتحروا بصلاتكم طلوع الشمس ولا غروبها» والتحري هو التعمد والقصد، وهذا إنما يكون في التطوع المطلق، فأما ما له سبب فلم يتحره، بل فعله لأجل السبب، والسبب ألجأه إليه، وهذا اللفظ المقيد يفسر سائر الألفاظ، ويبين أن النهي إنما كان عن التحري، ولو كان عن النوعين لم يكن للتخصيص فائدة، ولكان الحكم قد علق بلفظ عديم التأثير.

٤- ومنها: أنه قد ثبت جواز بعض ذوات الأسباب بعضها بالنص، كالركعة الثانية من الفجر، وكركعتي الطواف، وكالمعادة مع إمام الحي، وبعضها بالنص والإجماع، كالعصر عند الغروب، وكالجنازة بعد العصر، وإذا نظر في المقتضى

=

=

للجواز لم توجد له علة صحيحة، إلا كونها ذات سبب، فيجب تعليق الحكم بذلك، وإلا فما الفرق بين المعادة وبين تحية المسجد، والأمر بهذا أصح، وكذلك الكسوف قد أمر بها في أحاديث كثيرة صحيحة.

٥- أن النهي عن الصلاة فيها هو من باب الذرائع لئلا يتشبه بالمشركين، فيفضي إلى الشرك، وما كان منهيًا، عنه لسد الذريعة، لا لأنه مفسدة في نفسه؛ يشرع إذا كان فيه مصلحة راجحة، ولا تفوت المصلحة لغير مفسدة راجحة، والصلاة لله فيه ليس فيها مفسدة بل هي ذريعة إلى المفسدة، فإذا تعذرت المصلحة إلا بالذريعة شرعت واكتفي منها إذا لم يكن هناك مصلحة، وهو التطوع المطلق، فإنه ليس في المنع منه مفسدة، ولا تفويت مصلحة، لإمكان فعله في سائر الأوقات.

٦- أن ذوات الأسباب كلها تفوت إذا أخرت عن وقت النهي: مثل سجود التلاوة، وتحية المسجد، وصلاة الكسوف، ومثل الصلاة عقب الوضوء، وكذلك صلاة الاستخارة؛ إذا كان الذي يستخير له يفوت إذا أخرت الصلاة، ونحو قضاء السنن الرواتب كما قضي النبي ﷺ ركعتي الظهر بعد العصر، وكما أقر الرجل على قضاء ركعتي الفجر بعد الفجر، مع أنه يمكن تأخيرها، لكن تفوت مصلحة المبادرة إلى القضاء، فإن القضاء مأمور به على الفور، في الواجب واجب، وفي المستحب مستحب.

القول الثاني: أنها إن وجبت قبل وقت النهي منع من أدائها فيه، وإن وجبت في وقت النهي كره عند طلوع الشمس، و عند قيامها في الظهيرة، وعند غروبها، ويجوز بلا كراهة في الوقتين المتبقيين من أوقات النهي وهما من بعد الفجر حتى تطلع الشمس، وبعد العصر حتى تغرب، ذهب إليه الحنفية.

واحتجوا: للمنع فيما إذا وجبت قبل وقت النهي: بأنها وجبت كاملة فلا تتأدى بالناقص.

=

=

أما الجواز مع الكراهة في الثلاثة الأول: فقالوا: لأنها وجبت بالتلاوة، وتكره، لأنها أديت ناقصة.

أما الجواز بلا كراهة في الوقتين المتبقيين: فقالوا: لأن النهي فيها لمعنى في غير الوقت، وهو كون الوقت كالمشغول بفرض الوقت حكمًا وهو أفضل من النفل فلا يظهر في حق فرض آخر مثله، فلا يظهر تأثيره إلا في كراهة النافلة.

القول الثالث: أنه يسجد لها بعد الصبح ما لم يسفر، وبعد العصر ما لم تصفر الشمس: ذهب إليه مالك في رواية ابن القاسم عنه، وهي المذهب عند أصحابه، واحتجوا بما يلي:

١- لأنها صلاة اختلف في وجوبها، فجاز فعلها بعد الصبح ما لم يسفر، وبعد العصر ما لم تصفر الشمس كصلاة الجنازة.

٢- ولأنها سنة مؤكدة ففارقت النوافل المحضة.

القول الرابع: أنه لا يسجد في أوقات النهي مطلقًا:

ذهب إليه مالك في رواية عنه، وأحمد في الرواية الثانية عنه وهي المذهب.

وروي عن سعيد بن المسيب، وإسحاق، وأبي ثور.

١- لقوله ﷺ: «لا صلاة بعد الفجر حتى تطلع الشمس ولا بعد العصر حتى تغرب الشمس».

٢- ولحديث عقبة بن عامر قال ثلاث أوقات نهانا النبي ﷺ أن نصلي فيها وأن نقبر فيها موتانا: حين تطلع الشمس بازغة حتى ترتفع، وحين يقوم قائم الظهيرة حتى تميل الشمس، وحين تتضيف الشمس للغروب حتى تغرب.

قالوا: وسجود التلاوة نافلة فمنعت في هذه الأوقات كسائر النوافل.

٣- ولما أخرجه أبو داود عن أبي تميمة الهجيمي؛ قال: كنت أقص بعد صلاة الصبح، فأسجد فنهاني ابن عمر، فلم أنته، ثلاث مرات، ثم عاد فقال: إني صليت

=

=

خلف النبي ﷺ ومع أبي بكر، وعمر، وعثمان، فلم يسجدوا حتى تطلع الشمس.

ونوقش الاستدلال من وجهين:

الوجه الأول: ضعف الحديث؛ لأن في سنده أبا بحر البكراوي عبد الرحمن بن عثمان بن أمية، ولا يحتج بحديثه.

الوجه الثاني: أنه على تقدير ثبوته مرفوعًا فيحمل على أن المختار تأخير السجدة حتى يذهب وقت الكراهة، وإن لم يثبت رفعه فكأنه قاسها على التطوع المطلق بالصلاة، وهي هنا ذات سبب، وقد بينا فيما سبق ما يدل على جواز فعل ما له سبب في و قت النهي.

المطلب الثالث: في تحديد وقت السجود للتلاوة، وفيه مسألتان:

المسألة الأولى: في اشتراط الفورية للسجود.

المسألة الثانية: إذا تلا ما فيه السجدة، أو استمع إليها وهو على غير وضوء.

المسألة الأولى: في اشراط الفورية للسجود:

اختلف أهل العلم في حكم السجود للتلاوة، هل تلزم المبادرة به، أو أن وقته موسع على قولين:

القول الأول: أنه على التراخي، أي: أن وقته موسع: ذهب إليه أبو حنيفة في رواية عنه، وعليها معظم أصحابه، ولم أعثر على دليل هذا القول، ولعله عدم ورود الدليل على الفورية.

القول الثاني: أنه على الفور: ذهب إليه المالكية، والحنابلة، وأبو يوسف، وأبو حنيفة في الرواية الثانية عنه.

احتج الحنابلة: بأنها تتعلق بسبب فإذا فات لم يسجد، كما لو قرأ سجدة في الصلاة فلم يسجد، فإنه لا يسجد بعدها.

وظاهره إلزام للحنفية لتسليمهم بأنها لا تؤدى خارج الصلاة، وهو غير لازم؛ لأنهم

=

=

يقولون بأنها وجبت كاملة، وأداؤها خارج الصلاة ناقص فلا يتأدى الكامل بالناقص.

وأما الحنفية: فلم أجد دليلهم؛ ولعله وجوبها عندهم، وهو مقيد بسبب وهو التلاوة فيتوجب المبادرة عند وجود السبب.

مسألة: وعلى القول بالفورية، هل تقضي إذا لم يتمكن من أدائها على الفور؟

أما الحنفية: فقالوا: بالقضاء. بل قال ابن عابدين: وينبغي أن يكون محل الخلاف في الإثم وعدمه، حتى لو أداها بعد مرة، كان مؤديًا لا قاضيًا.

وأما الحنابلة: فقالوا بعدم القضاء، كما لا تقضى صلاة الكسوف، والاستسقاء وتحية المسجد.

وقد أورد عليهم قضاء الرواتب؟ وأجابوا عنه: بالفرق؛ لأن الرواتب تابعة للفرض، ولأن النص ورد بقضائها.

المسألة الثانية: إذا تلا السجدة أو سمعها وهو على غير وضوء:

مسألة: وعلى الخلاف السابق في الفورية وعدمها، لو سمع السجدة، أو تلاها وهو على غير وضوء، ماذا يفعل؟

اختلف أهل العلم في ذلك على الأقوال التالية.

القول الأول: أنه لا يلزمه الوضوء، ولا التيمم: ذهب إليه الحنابلة.

واحتجوا لعدم لزوم الوضوء، بأنها تتعلق بسبب، فإذا توضأ طال الفصل، وفات السبب فلا يسجد.

أما عدم التيمم، فقالوا: بأن شرطه عدم الماء أو تعذر استعماله ولم يوجد.

القول الثاني: إنه يتيمم ويسجد: ذهب إليه النخعي.

ولم أعثر على دليله، ولعله خوف فوات وقت السجود فأشبه العادم للماء.

القول الثالث: أنه يتوضأ ويسجد: ذهب إليه الحنفية، وأحمد في رواية عنه،

=

=

والثوري وإسحاق.

احتج الحنفية: بأن صيرورة التيمم طهارة حال عدم الماء، خشية الفوت ولم توجد؛ لأن وجوبها على التراخي.

ولم أعثر على دليل الرواية الثانية عن أحمد، ولعله كون الوضوء فاصلًا يسيرًا فلا يؤثر.

المطلب الرابع: في نيابة الركوع عن السجود

اختلف أهل العلم في قيام الركوع عن سجود التلاوة على قولين:

القول الأول: أنه لا يقوم مقامه: ذهب إليه جمهور أهل العلم؛ ومنهم: الحنفية، والمالكية، والشافعية، وأكثر الحنابلة، وهو المذهب.

١- لأنه سجود مشروع، فلا يقوم الركوع مقامه كسجود الصلاة.

٢- ولأنه لم ينقل عن النبي ﷺ.

القول الثاني: أنه يقوم مقامه: ذهب إليه بعض الحنابلة.

ولم أعثر على دليل هذا القول، ويمكن أن يستدل له بما يلي:

١- قوله تعالى: {وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ} [ص: ٢٤] حيث عبر عن السجود بالركوع.

٢- ولأن المقصود التعظيم والخضوع وهو حاصل بالركوع.

الترجيح:

والراجح هو القول الأول؛ لقوة ما بني عليه، ومن أهمه أنه لم ينقل.

المطلب الخامس: في تكرار السجود

وفيه مسألتان:

المسألة الأولى: إذا اختلفت مواضع السجدة.

المسألة الثانية: إذا اتحد.

المسألة الأولى: إذا اختلفت مواضع السجدة:

=

=

إذا مر التالي في قراءته بمواضع متعددة من مواضع السجدة، كما لو قرأ القرآن بتمامه فإنه يسجد جميع سجداته باتفاق أهل العلم.

وذلك لعدم الحرج، فإن آيات السجدة محصورة، والغالب عدم تلاوة الجميع في المجلس الواحد.

المسألة الثانية: إذا اتحد موضع القراءة، كما لو كرر حزبًا أو وجهًا فيه سجدة في مجلس واحد:

ولأهل العلم في تكرار ا لسجود الأقوال التالية:

القول الأول: أنه يسجد في كل مرة: ذهب إليه المالكية، والشافعية، والحنابلة في وجه.

١ - لتجدد السبب بعد وتفية الحكم الأول.

٢- وقياسًا على ركعتي الطواف.

القول الثاني: أنه يكرر السجود إن طال الفصل: ذهب إليه الشافعية في وجه.

ولم أجد دليله، ولعله القياس على اختلاف المجلس.

القول الثالث: أنه يكفيه سجدة واحدة. ذهب إليه الحنفية، والشافعية في وجه، والحنابلة في الوجه الثاني. واستدلوا بما يلي:

١ - أن جبريل عليه السلام كان ينزل بآية السجدة على رسول الله ﷺ ويقرأ النبي ﷺ على أصحابه ويسجد مرة.

ونوقش: بأن نزول جبريل بآية السجدة وغيرها من القرآن صحيح لا شك فيه، ولكن صحة بقية القضية من أين ؟

١ - ولما روي أن أبا موسى الأشعري رضي الله عنه كان يعلم الناس القرآن في مسجد البصرة وتكرر السجدة، فلا يسجد إلا مرة.

ويمكن أن يناقش من وجهين:

=

=

الوجه الأول: أنه لا يعرف من خرجه ولا إسناد له.

الوجه الثاني: أنه في المعلم.

٣- ولما روي عن أبي عبد الرحمن السلمي، وهو معلم الحسن والحسين، أنه كان يعلم الآية الواحدة مرارًا ولا يزيد على سجدة واحدة.

قالوا: وقد أخذ التلاوة عن الصحابة فالظاهر أنه أخذ حكمها عنهم.

٤- ودفعًا للحرج، وذلك أن المسلمين يحتاجون إلى تعليم القرآن وتعلمه وذلك يحتاج إلى التكرار غالبًا، فإلزام التكرار في السجدة يفضي إلى الحرج لا محالة، والحرج مدفوع.

الترجيح:

والذي يظهر لي رجحانه ما ذهب إليه أصحاب القول الثالث من أنه يكفيه سجدة واحدة لقوة ما أوردوه من المعقول، وهو دفع الحرج ولأن في السجدة الواحدة يتحقق المعنى الذي شرع له السجود وهو الخضوع والتعظيم.

المطلب السادس: في الاقتصار على قراءة السجدة.

اختلف أهل العلم في حكم اختصار السجود، وهو أن ينتزع الآيات التي فيها السجود، أو موضع السجدة فيسجد؛ على الأقوال التالية.

القول الأول: أنه يكره اقتصاره على محل السجدة: ذهب إليه المالكية في قول.

قالوا: وإنما يكره؛ لأن قصده السجود لا التلاوة، وهو خلاف العمل.

القول الثاني: أنه يكره ولو قرأ الآية كلها: ذهب إليه المالكية في القول الثاني، والحنابلة، وهو قول الحسن، والشعبي، والنخعي، وإسحاق. واحتجوا بما يلي:

١- أنه سجود تلاوة وإنما شرع للتالي فلا يجوز أن يخرج عن موضعه.

٢- ولأنه لم يرد عن السلف، بل روي عنهم كراهته.

فروي عن الشعبي قوله: كانوا يكرهون اختصار السجود.

=

=

وروي عن النخعي قوله: كانوا يكرهون أن تختصر السجدة.

وعن سعيد بن المسيب: مما أحدث الناس اختصار السجود.

٣- ولأنه لا نظير له فلا يقاس عليه.

٤- ولأن فيه إخلالًا بترتيب القرآن فيكره.

القول الثالث: أنه لا يكره مطلقًا:

ذهب إليه الحنفية، والشافعية، وهو قول أبي ثور.

١- لأن فيه مبادرة إلى السجدة.

٢- ولأن قراءة آية السجدة من بين الآي كقراءة السورة من بين السور، وذلك لا بأس به.

ولعل الراجح هو القول بكراهة ذلك، لا فرق بين أن يقرأ الآية كلها، أو موضع السجدة، وذلك لقوة ما بني عليه من استدلال، ووجاهة ما ذكروه من تعليل.

المطلب السابع: إسقاط آية السجدة، أو موضع السجدة أثناء القراءة

وفيه مسألتان:

المسألة الأولى: إذا كان محصلًا لشروط السجود.

المسألة الثانية: إذا لم يكن محصلًا لشروط السجود

المسألة الأولى إذا كان محصلًا لشروط السجود: ذهب عامة أهل العلم؛ ومنهم: الأئمة الأربعة، وأصحابهم إلى كراهية إسقاط آية السجدة، أو موضع السجدة من التلاوة، إذا كان محصلًا لشروط السجود؛ ومنها: الطهارة، والسترة وكون ذلك في غير وقت النهي عن الصلاة.

وإنما يكره لما يلي:

١- لأنه لم يرو عن السلف، بل المنقول عنهم كراهته.

فروي عن الشعبي قوله: كانوا يكرهون إذا أتوا على السجدة أن يجاوزوها حتى

=

=

يسجدوا.

٢- ولأنه يشبه الاستنكاف عنها.

٣- ولأنه في صورة الفرار عن السجدة، وليس ذلك من أخلاق المؤمنين.

٤- ولأنه في صورة هجر السجدة، وليس شيء من القرآن مهجورًا.

٥- ولأن القارئ مأمور باتباع التأليف، قال تعالى: {فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ} [القيامة: ١٨] أي: تأليفه، وبغير التأليف ويكون مكروهًا.

المسألة الثانية: إذا لم يكن محصلًا لشروط السجود: ولأهل العلم في كراهية ذلك قولان:

القول الأول: أنه يكره: ذهب إليه الحنفية، والشافعية، والحنابلة.

حيث أطلقوا القول بالكراهة، ولم يفرقوا بين موضع وآخر.،

واستدلوا: بما سبق في الاستدلال للمسألة السابقة.

القول الثاني: أنه لا يكره. ذهب إليه المالكية.

واحتج لهذا: بأن سجود التلاوة صلاة، وهو ممنوع من قراءتها دون السجود، وهذا يقتضي جواز القراءة مع ترك موضع السجود؛ لأنه لا خلاف في جواز قراءة القرآن في كل وقت.

وقد اختلفوا في الذي عليه أن يتركه هل هو الآية، أو محل السجدة من الآية؟

والذي اختار المحققون منهم: ترك الآية كلها، قالوا: لئلا يغير المعنى لو اقتصر على مجاوزة محل السجود.

قال الصاوي: ومرادهم مظنة تغيير المعنى فلا ينافي أن في بعض المواضع محل السجود فقط، لا يغير المعنى.

والذي يظهر لي رجحانه كراهية إسقاط موضع السجدة مطلقًا، لما ذكرنا ورجحنا فيما سبق من أنه ليس بصلاة، وعلى فرض أنه صلاة وأنه يحتاج إلى ما تحتاج له

=

=

الصلاة من طهارة ونحوه فإن فيما ذكره أصحاب القول الأول ما يكفي للقول بالكراهة.

المطلب الثامن: السجود على الراحلة

إذا قرأ السجدة على الراحلة في السفر، أومأ بالسجود حيث كان وجهه.

ذهب إليه عامة أهل العلم؛ ومنهم: الأئمة الأربعة، وأصحابهم. بل قال ابن قدامة: لا نعلم فيه خلافًا. واحتجوا بما يلي:

١- بما روي عن ابن عمر رضي الله عنهما: أن رسول الله ﷺ قرأ عام الفتح سجدة، فسجد الناس كلهم، منهم الراكب والساجد في الأرض حتى إن الراكب ليسجد على يده.

٢- أنه روي عن علي وابن الزبير رضي الله عنهما السجود على الراحلة بالإيماء.

٣- وروي عن ابن عمر رضي الله عنهما أنه سئل عن السجود على الدابة؟

فقال: أسجد وأومئ.

٤- ولأنه تطوع فأشبه سائر التطوع.

٥- ولأنه أداها كما التزمها، فتلاوته على الدابة شروع فيما تجب به السجدة فكان نظير من شرع على الدابة في التطوع، فكما تجوز هناك تجوز ههنا.

القول الثاني: أنه لا يجزئه: ذهب إليه بشر من الحنفية، والشافعية في مقابل الأصح من الوجهين.

١- احتج بشر من الحنفية: بأنها واجبة فلا يجوز أداؤها على الدابة من غير عذر كالمنذور فإن الراكب إذا نذر أن يصلي ركعتين لم يجز أن يؤديها على الدابة من غير عذر.

ونوقش: بأن القياس مع الفارق؛ لأن النذر ليس بشروع في أداء الواجب، فكان الوجوب بالنذر مطلقًا، فيقاس بما وجب بإيجاب الله تعالى.

واحتج الشافعية: بأن السجود على الراحلة يفوت معظم أركانها وهو التصاق

=

=

الجبهة من موضع السجود.

وهو مناقش: بأن هذا لم يؤثر في سجود الصلاة على الراحلة فمن باب أولى ما نحن فيه.

والراجح: ما ذهب إليه أصحاب القول الأول لقوة ما بني عليه من استدلال في مقابل ضعف ما أورده المانعون.

المطلب التاسع: سجود الماشي

وقد اختلف أهل العلم في سجود الماشي بالإيماء على قولين:

القول الأول: إنه يلزمه السجود على الأرض: ذهب إليه الحنفية، والمالكية، والشافعية، والحنابلة في المذهب. لأن السجدة ركن الصلاة فكما لا يصلي الماشي بالإيماء فكذلك لا يسجد بخلاف الراكب.

القول الثاني: إنه يؤمئ: ذهب إليه الحنابلة في وجه، وهو قول الأسود بن يزيد، وعطاء، ومجاهد، وعلقمة.

١- لأن المتطوع في الصلاة ماشيًا لا يلزمه السجود بالأرض، فها هنا مثله لعدم الفرق.

٢- ولما روي عن أبي عبد الرحمن السلمي؛ أنه كان يقرأ السجدة وهو يمشي فيؤمئ برأسه ثم يسلم.

والذي يظهر لي رجحانه لزوم السجود بالأرض، لزوال العذر وهو مشقة النزول على الراكب فيسجد بالأرض، ولا يكفي الإيماء.

المطلب العاشر: في قراءة ما فيه سجدة حال الخطبة والنزول للسجود.

اختلف أهل العلم في حكم قراءة السجدة حال الخطبة، ومن ثم السجود، على ثلاثة أقوال:

القول الأول: جواز قراءة ما فيه السجدة حال الخطبة، فإن فعل سجد: ذهب إليه

=

=

جمهور أهل العلم؛ ومنهم: الحنفية، والشافعية، والحنابلة، والظاهرية.

واستدلوا بما يلي:

١ - حديث أبي سعيد الخدري ﷺ، قال: قرأ رسول الله ﷺ على المنبر (ص) فلما بلغ السجدة نزل فسجد وسجد الناس معه، فلما كان يوم آخر قرأها، فلما بلغ السجدة تشزن الناس للسجود، فقال: «إنما هي توبة نبي، ولكني رأيتكم قد تشزنتم للسجود، فنزل فسجد، وسجدوا».

ووجه الدلالة: ظاهر:

٢- ما صح عن عمر بن الخطاب ﷺ أنه قرأ سورة النحل على المنبر يوم الجمعة حتى إذا جاء السجدة نزل فسجد وسجد الناس.... ووجه الدلالة: قراءته، وسجوده، وكون ذلك بمحضر الصحابة. ونوقش: بأن هذا مما لم يتبع عليه عمر به، ولا عمل به أحد بعده، ولعل عمر إنما فعل ذلك تعليمًا للناس وخاف أن يكون في ذلك خلاف فيبادر إلى حسمه، وكان ذلك الوقت لم يعم كثير من الأحكام الناس، وقد تقررت الآن الأحكام، و انعقد الإجماع على كثير منها، وعرف الخلاف السائغ في سواها فلا وجه لذلك.

وأجيب عنه: بأن هذا غير مسلم فقد روي العمل به عن جمع من فقهاء الصحابة؛ منهم: أبو موسى، والنعمان بن بشير، وعقبة بن عامر، وعمار بن ياسر.

٣- ولأنه سنة وجد سببها، لا يطول الفصل بها فاستحب فعلها كحمد الله إذا عطس، وتشميت العاطس.

القول الثاني: أنه تكره قراءة السجدة، كما يكره له السجود إذا قرأ: ذهب إليه مالك، وعليه أكثر أصحابه. واحتجوا بما يلي:

١ - أنه إذا لم يسجد دخل في الوعيد، وإن سجد كان فيه التخليط على الناس إذ يتوهمون الفراغ من الخطبة والقيام إلى الصلاة.

=

=

ونوقش: بأن هذا غير مسلم إذ لا وعيد على ترك مستحب، وأما التخليط فغير متحقق مع جهره بالسجدة، وإعلامهم بأنه سيسجد للتلاوة.

٢- ولأنه يخل بالخطبة لزوال نظامها.

٣- ولأنه صلاة تطوع، فلا يشتغل بها في أثناء الخطبة، كصلاة ركعتين.

ونوقش: بالفارق؛ لأن سبب الركعتين لم يوجد، ويطول الفصل بها.

القول الثالث: أنه تكره القراءة، فإن فعل فلينزل فليسجدها: ذهب إليه أشهب من أصحاب مالك.

واحتج: بفعل عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ولم ينكر عليه أحد من الحاضرين مع كثرة عددهم.

وهو مناقش: بأنه كما كان حجة في السجود، فليكن حجة في عدم كراهة القراءة.

والذي يظهر لي رجحانه ما ذهب إليه الجمهور من جواز القراءة واستحباب السجود إذا قرأ لقوة ما بني عليه من استدلال في مقابل ضعف ما أورده الآخرون لقولهم من استدلال.

المطلب الحادي عشر: في استحباب الإسرار بقراءة السجدة.

استحسن فقهاء الحنفية، إخفاء السجدة عن السامعين، فلا يجهر بقراءة آية السجدة.

وقد عللوا لذلك: بأن السامع ربما لا يؤديها في الحال لمانع، فلا يؤديها بعد ذلك بسبب النسيان، فيبقى عليه الواجب فيأثم.

وفصل بعضهم فقال: إن كان القوم مهيئين للسجود، ووقع في قلبه أنه لا يشق عليهم أداؤها ينبغي أن يجهر حتى يسجد القوم معه، وإن كانوا محدثين ويظن أنهم لا يسجدون، أو يشق عليهم أداؤها ينبغي أن يقرأها في نفسه تحرزًا.

ولم أجد لغيرهم من المذاهب من تعرض لهذا، ولعل مرده عدم وجوب السجود، فالسامع مخير بين السجود وعدمه، ولا تعلق له بذمته إن لم يسجد حالًا.

=

=

المطلب الثاني عشر: في صفة أداء السجدة

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: في القيام من الجالس:

اختلف أهل العلم في حكم القيام لسجود التلاوة من الجالس على قولين:

القول الأول: أنه يستحب: ذهب إليه الحنفية، والشافعية في أحد الوجهين، وبعض الحنابلة، وهو اختيار ابن تيمية.

الأدلة:

١- قوله تعالى: {وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا} [الإسراء: ١٠٩].

وقوله تعالى: {إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا} [مريم: ٥٨].

والشاهد: أنه مدحهم في كون سجودهم عن قيام، إذ الخرور سجود عن قيام.

ويمكن أن يناقش: بأن هذا في خرور القائم ولا ننازع فيه، وإنما الخلاف في قيام القاعد ليخر.

٢- ولما ثبت عن النبي ﷺ أنه كان أحيانًا يصلي قاعدًا فإذا قرب من الركوع فإنه يركع ويسجد وهو قائم. فتحريه مع قعوده أن يقوم ليركع ويسجد وهو قائم، دليل على أنه أفضل إذ هو أكمل وأعظم خشوعًا، لما فيه من هبوط رأسه وأعضائه الساجدة لله من القيام.

ويمكن أن يناقش: بأنه قيامه ليركع لقدرته على الركوع الأصلي، وهو أفضل بلا شك بخلاف ما نحن فيه.

٣- ولما روي عن عائشة رضي الله عنها: أنها كانت تقرأ في المصحف فإذا مرت بالسجدة قامت فسجدت. ونوقش: بأن الأثر ضعيف فلا يصلح للاحتجاج.

٤- وتشبيهًا له بصلاة النفل. ونوقش: بالفرق: للنقل الصحيح في النافلة، بخلاف ما نحن فيه.

=

=

القول الثاني: أنه غير مشروع: ذهب إليه المالكية، والشافعية في الوجه الثاني وهو الأصح وروي عن أحمد.

لأنه لم ينقل، وليس له أصل فيقاس عليه، فهو من المحدثات.

والذي يظهر لي رجحانه هو القول الثاني لقوة دليلهم، في مقابل ضعف ما ذكره الأولون من وجوه الاستدلال.

المسألة الثانية: في التكبير في سجود التلاوة.

وفيه ثلاثة فروع:

الفرع الأول: في تكبيرة الافتتاح.

الفرع الثاني: في التكبير للخفض والرفع منه.

الفرع الثالث: في رفع الصوت بالتكبير.

الفرع الأول: في تكبيرة الافتتاح:

اختلف أهل العلم في حكم التكبير للإحرام في سجود التلاوة على قولين:

القول الأول: أنه لا يشرع: ذهب إليه الجمهور؛ ومنهم: الحنفية، والمالكية، والحنابلة في المذهب، والشافعية في وجه. واستدلوا بما يلي:

١- ما رواه ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ قال: كان رسول الله ﷺ يقرأ علينا القرآن، فإذا مر بالسجدة كبر وسجد وسجدنا معه.

قالوا: وظاهره أنه كبر واحدة.

٢- ولأن معرفة ذلك تثبت بالشرع ولم يرد الشرع به.

٣- ولأن تكبيرة الإحرام إنما تشرع لتوحيد الأفعال المختلفة وليس هناك أفعال مختلفة في سجود التلاوة حتى يحتاج لتوحيدها.

٤- ولأنه سجود مفرد فلم يشرع في ابتدائه تكبيرتان، كسجود السهو.

٥- ولأنه سجود تلاوة، فأشبه ما لو سجده في الصلاة.

=

=

القول الثاني: أنه يستحب: ذهب إليه الشافعية في وجه.

ولم يذكروا له دليلًا، ولعلهم استدلوا بحديث ابن عمر السابق، ولضعفه ولعدم وضوح دلالته جعلوه مستحبًا لا شرطًا.

القول الثالث: أن التكبير شرط: ذهب إليه الشافعية في الصحيح المشهور من المذهب، وبعض الحنابلة منهم أبو الخطاب.

واستدلوا بما يلي:

١- حديث ابن عمر رضي الله عنهما، قال: كان رسول الله ﷺ يقرأ علينا القرآن، فإذا مر بالسجدة كبر وسجد وسجدنا.

قالوا: والاتباع يقتضي أن نكبر للافتتاح كما كان النبي ﷺ يفعل.

ونوقش من وجهين:

الوجه الأول: ضعف الحديث فلا يصلح للاحتجاج.

الوجه الثاني: لو سلم بصحة الحديث فلا دلالة على أنها للإحرام بل هي للهوي.

٢- ولأنه صلاة فيكبر للافتاح غير تكبيرة السجود، كما لو صلى ركعتين.

ونوقش: بأن القياس يبطل بسجود السهو.

وقياسه على سجود السهو أولى من قياسه على ركعتين؛ لأنه أقرب إليه وأشبه به؛ ولأن الإحرام بالركعتين يتخلل بينه وبين السجود أفعال كثيرة وأركان، فلم يكتف بتكبيرة الإحرام عن تكبيرة السجود، وههنا لا يتخلل بينهما سوى السلام، فأجزأه تكبيرة واحدة، كالمسبوق إذا كبر وسجد، أو ركع.

والذي يظهر رجحانه ما ذهب إليه أصحاب القول الأول من عدم مشروعية التكبير للإحرام، لقوة أدلتهم وأهمها ولا شك عدم الدليل الصحيح عليه.

الفرع الثاني: في التكبير للخفض والرفع من سجود التلاوة.

ولأهل العلم في ذلك الأقوال التالية.

=

=

القول الأول: أنه يسن التكبير له في الهوي، والرفع منه: ذهب إليه الحنفية، والمالكية في المذهب، والشافعية، والحنابلة في المذهب.

الأدلة:

١ - حديث ابن عمر رضي الله عنهما؛ قال: كان النبي ﷺ يقرأ علينا القرآن، فإذا مر بالسجدة كبر وسجد وسجدنا معه.

والشاهد منه: قوله: «كبر وسجد» وهذا دليل على مشروعية التكبير في الهوي.

ويمكن أن يناقش من وجهين:

الوجه الأول: أن الحديث ضعيف فلا يصلح للاحتجاج.

الوجه الثاني: لو صح كان دليلًا على مشروعيته حال الخفض، أما الرفع من السجود فلا دلالة فيه على أنه يكبر.

٢- ولأنه سجود منفرد، فشرع التكبير في ابتدائه، والرفع منه كسجود السهو بعد السلام، وقد ثبت أن النبي ﷺ كبر فيه للسجود والرفع.

٣- وقياسًا على سجدات الصلاة.

٤ - وقياسًا على ما لو سجد للتلاوة داخل الصلاة، فإنه يسجد كذا هنا.

القول الثاني: أنه يكبر في الخفض دون الرفع: ذهب إليه أبو حنيفة في رواية عنه، وبعض الشافعية، وبعض الحنابلة.

واحتجوا: بحديث ابن عمر السابق.. فإذا مر بالسجدة، كبر وسجد وسجدنا، وهو ظاهر في كون التكبير في الانحطاط دون الرفع.

القول الثالث: أن يكبر في الرفع دون الخفض: ذهب إليه أبو حنيفة وأبو يوسف في رواية عنهما.

واحتجوا: بأن التكبير للانتقال من الركن، وهو غير موجود في الانحطاط.

القول الرابع: أنه يخير في التكبير فيهما وعدمه: ذهب إليه ابن القاسم من المالكية.

=

=

ولم أعثر على دليل هذا القول، ولعله نظر إلى تقابل الأدلة فقال بالتخيير.

القول الخامس: أنه لا يشرع له تكبير مطلقًا:

ذهب إليه أبو حنيفة، ومالك في رواية عنهما، وابن تيمية.

احتج لمالك: بأن هذه عبادة لا يشرع لها تحليل فلم يشرع لها إحرام كالصوم.

واحتج ابن تيمية: بأن هذا هو المعروف عن النبي ص، وعليه عامة السلف.

الترجيح:

والذي يظهر لي رجحانه ما ذهب إليه أصحاب القول الرابع من عدم مشروعية التكبير في كل، لعدم الدليل عليه، وما ذكره الأولون من الحديث لا ينهض للاحتجاج.

الفرع الثالث: في رفع الصوت بالتكبير.

إذا كبر للسجود فإنه يجهر بالتكبير يرفع صوته بما يسمع به نفسه إن كان منفردًا ومن خلفه إذا كان معه أحد.

وقد صرح بهذا فقهاء الحنفية، ولم أجد لغيرهم تعرضًا لهذا ولعلهم يوافقونهم فيه؛ لأنهم يعدونه من الصلاة، ثم هو من مقتضيات المتابعة والاقتداء إذا كان سيسجد معه غيره.

المسألة الثالثة: في رفع اليدين مع التكبير:

اختلف القائلون بمشروعية التكبير في سجود التلاوة في رفع اليدين مع التكبير على قولين:

القول الأول: أنه يسن: ذهب إليه الشافعية في تكبيرة الإحرام، والحنابلة في قول وهو المذهب.

قالوا: لأنها تكبيرة إحرام.

القول الثاني: أنه لا يشرع: ذهب إليه الحنفية، والمالكية، والشافعية في تكبيرة

=

=

الهوى، والحنابلة في قول. واحتج لهذا القول بما يلي:

١- بأن المأمور به هو السجود، فلا يزاد عليه بمجرد الرأي.

٢- وقياسًا على سجدات الصلاة.

والذي يظهر لي رجحانه هو القول الثاني لقوة ما بني عليه من استدلال، ومنه عدم ورود الدليل للرفع.

المسألة الرابعة: ما يقول في سجوده:

ذهب عامة الفقهاء، إلى أنه يستحب أن يقول في سجوده ما ورد؛ ومنه:

١- ما يقول في سجود الصلاة من التسبيح والدعاء.

٢- ما روته عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا؛ قالت: كان رسول الله ﷺ يقول في سجود القرآن بالليل: «سجد وجهي للذي خلقه وصوره، وشق سمعه وبصره، بحوله وقوته».

٣- وما روي عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا؛ قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، إني رأيتني الليلة أصلي خلف شجرة، فقرأت السجدة فسجدت الشجرة لسجودي، فسمعتها وهي تقول: اللهم اكتب لي بها عندك أجرًا وضع عني بها وزرًا، واجعلها لي عندك ذخرًا، وتقبلها مني كما تقبلتها من عبدك داود، فقرأ النبي ﷺ سجدة ثم سجد فقال ابن عباس: فسمعته يقول مثل ما أخبره الرجل عن قول الشجرة.

وذهب الشافعي، وبعض الحنفية، إلى أنه يقول: «سبحان ربنا إن كان وعد ربنا لمفعولا».

واحتجوا: بقوله تعالى: {قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا * وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا} [الإسراء: ١٠٧، ١٠٨].

وذهب جماعة من أهل العلم إلى أنه يدعو فيها بما يليق بآياتها، فإن قرأ سورة

=

=

السجدة {الم، تنزيل} قال: اللهم اجعلني من الساجدين لوجهك المسبحين بحمدك، وأعوذ بك أن أكون من المستكبرين عن أمرك.

وإن قرأ سجدة {سبحان} قال: اللهم اجعلني من عبادك المنعم عليهم، المهديين الساجدين لك الباكين عند تلاوة آياتك.

المسألة الخامسة: في التشهد بعد الرفع من سجود التلاوة:

واختلف أهل العلم في مشروعية التشهد على قولين:

القول الأول: أنه لا يشرع: ذهب الحنفية، والمالكية في المشهور من المذهب، والشافعية في الأصح، والحنابلة في قول وهو المذهب، وابن تيمية.

واحتج لهذا القول بما يلي:

١- لأنه لم ينقل عن النبي ﷺ ولا عن أحد من أصحابه فلا يشرع.

٢- ولأنه لا قيام فيه فلم يكن فيه تشهد.

٣- ولأنه صلاة لا ركوع فيها فلم يشرع التشهد كصلاة الجنازة.

٤- ولأنه لم يشرع إلا في القعود ولا قعود عليه.

القول الثاني: أنه يتشهد: ذهب إليه المالكية في قول، والشافعية في مقابل الأصح، والحنابلة في وجه.

واحتجوا بما يلي:

١- بأنه سجود يفتقر إلى الإحرام والسلام، فافتقر إلى التشهد.

٢- وقياسًا على الصلاة.

والذي يظهر لي رجحانه عدم مشروعية التشهد؛ لقوة أدلته ومن أهمها: عدم ورود الدليل عليه، مع ضعف ما أورده للقول الثاني من استدلال.

المسألة السادسة: في التسليم:

وفيها فرعان:

=

=

الفرع الأول: في حكمه.

الفرع الثاني: في عدده.

الفرع الأول: في حكمه:

اختلف أهل العلم في حكم التسليم في سجود التلاوة على قولين:

القول الأول: أنه يسلم وهو شرط أو واجب: ذهب إليه الشافعية في الأصح، وأحمد في رواية عنه وهي المذهب، وهو قول أبي قلابة، وأبي عبد الرحمن.

واستدلوا بما يلي:

١- قول النبي ص: «تحريمها التكبير وتحليلها التسليم».

وهذا عام في كل صلاة، وسجود التلاوة صلاة.

٢- ولأنها صلاة ذات إحرام، فافتقرت إلى سلام كسائر الصلوات.

القول الثاني: أنه لا تسليم: ذهب إليه الحنفية، والمالكية، والشافعية في مقابل الأصح، وأحمد في رواية عنه. وهو قول النخعي، والحسن، و سعيد بن جبير، ويحيى بن وثاب.

واحتجوا بما يلي:

١- أنه لم ينقل عن النبي ﷺ فيه سلام.

٢- ولأنه السلام للتحليل وهو أيك التحليل يقتضي سبق التحريمة.

٣- ولأنها معتبرة بسجود الصلاة، وسجود الصلاة، لا يقتضي التسليم.

والذي يظهر لي رجحانه هو القول الثاني؛ لقوة ما بني عليه من استدلال، ومن أهمه ولا شك عدم ورود الدليل عليه.

الفرع الثاني: عدد التسليم:

هذا وقد اختلف القائلون بوجوب التسليم أو شرطيته، في عدد التسليم على قولين:

=

=

القول الأول: أنه يجزئه تسليمة واحدة: ذهب إليه أحمد في رواية عنه، وهي المذهب، والشافعية، وهو قول إسحاق.

واحتجوا: بأنها صلاة لا تشهد فيها، فكان المشروع فيها تسليمة واحدة كصلاة الجنازة.

القول الثاني: أنه لا بد من تسليمتين: ذهب إليه أحمد في رواية عنه.

ولم أجد دليل هذه الرواية: ولعله قياس على الصلاة، أو هو صلاة فكان حكمها مثلها في وجوب التسليمتين.

المسألة السابعة: في هيئة السجود:

وصفة هذا السجود صفة سجود الصلاة في كشف الجبهة، و وضع اليدين والركبتين، والقدمين، والأنف، ومجافاة المرفقين عن الجنبين، وإقلال البطن عن الفخذين، ورفع أسافله على أعاليه، وتوجيه أصابعه إلى القبلة، وغير ذلك.

المسألة الثامنة: في اصطفاف المستمعين:

إذا سجد التالي فإنه إمام المستمعين، فحكمهم في الاصطفاف، حكم المأموم خلف الإمام، وقد نص على هذا فقهاء الحنابلة.

قال البهوتي.. فلا يسجد المستمع قدام القارئ، ولا عن يساره مع خلو يمينه.

ولم أجد لغيرهم تعرضًا لهذا ولعله قول من يشترط صلاحية التالي لإمامة المستمع؛ لأن فيها معنى الائتمام.

وأما من لم يشترط صلاحية التالي لإمامة المستمع، فالظاهر من استقراء أقوالهم أنهم لا يشترطون الاصطفاف كهيئة الصلاة، فيسجد المستمع تجاه القبلة على أي صفة كان:

وقد صرح بعضهم بهذا: فقال ابن عابدين:.. وليس هو اقتداء حقيقة؛ ولذا لا يؤمر التالي بالتقدم، ولا السامعون بالاصطفاف.

=

=

ولعل هذا أقرب لظاهر الأحاديث الواردة في سجودهم مع النبي ﷺ كما في حديث ابن مسعود في قراءته ﷺ للنجم في مكة وسجود جميع من كان معه من مسلم وكافر.

ومثله حديث ابن عمر: فيسجد ونسجد معه، حتى ما يجد أحدنا موضعًا لجبهته.

المسألة التاسعة: في رفع المستمع لرأسه قبل التالي:

وعلى قول الجمهور في اعتباره صلاة، فالمستحب للمستمع ألا يرفع رأسه من السجود قبل التالي؛ لأن التالي إمام المستمعين والسامعين، فكانوا في حكم المقتدين من وجه فلا يرفعون رؤوسهم قبله لهذا.

فإن فعلوا أجزأهم، لأنه ليس إمامهم في الحقيقة، يدل له أنه وإن تبين فساد سجدته بسبب، لم تفسد عليهم.

المطلب الثالث عشر: ترك السجود لخوف الرياء.

إذا كان التالي يتلو الكتاب العزيز بين جماعة فمر بالسجدة، فهل يسجد، أو يدع السجود لئلا يتهم بالرياء.

سئل ابن تيمية عن مثل ذلك فأجاب بكلام، قال فيه: ومن كان له ورد مشروع، فإنه يأتي به حيث كان، ولا ينبغي له أن يدع ورده المشروع لأجل كونه بين الناس، إذا علم الله من قلبه أنه يفعله سرًا لله مع اجتهاده في سلامته من الرياء، ومفسدات الإخلاص، ولهذا قال الفضيل ابن عياض: ترك العمل لأجل الناس رياء، والعمل لأجل الناس شرك.

قال ابن تيمية: ومن نهى عن أمر مشروع، بمجرد زعمه أن ذلك رياء، فنهيه مردود عليه من وجوه.

أحدها: أن الأعمال المشروعة لا ينهي عنها خوفًا من الرياء، بل يؤمر بالإخلاص فيها، ونحن إذا رأينا من يفعلها أقررناه، وإن جزمنا أنه يفعلها رياء، فالمنافقون

=

=

الذين قال الله فيهم: {إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَى يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللهَ إِلَّا قَلِيلًا} [النساء: ١٤٢] فهؤلاء كان النبي ﷺ والمسلمون يقرونهم على ما يظهرونه من الدين، وإن كانوا مرائين ولا ينهونهم عن الظاهر؛ لأن الفساد في ترك إظهار المشروع أعظم من الفساد في إظهار رياء، كما أن فساد ترك إظهار الإيمان والصلوات أعظم من الفساد في إظهار ذلك رياء؛ ولأن الإنكار إنما يقع على الفساد في إظهار ذلك رئاء الناس.

الثاني: لأن الإنكار إنما على ما أنكرته الشريعة، وقد قال رسول الله ﷺ: «إني لم أومر أن أنقب عن قلوب الناس، ولا أن أشق بطونهم».

الثالث: أن تسويغ مثل هذا يفضي إلى أن أهل الشرك والفساد ينكرون على أهل الخير والدين إذا رأوا من يظهر أمرًا مشروعًا مسنونًا، قالوا: هذا مراء، فيترك أهل الصدق والإخلاص إظهار الأمور المشروعة حذرًا من لمزهم وذمهم، فيتعطل الخير، ويبقى لأهل الشرك شوكة يظهرون الشر، ولا أحد ينكر عليهم، وهذا من أعظم الفساد.

الرابع: أن مثل هذا من شعائر المنافقين، وهو يطعن على من يظهر الأعمال المشروعة قال الله تعالى: {الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ} [التوبة: ٧٩].

فإن النبي ﷺ لما حث على الإنفاق عام تبوك جاء بعض الصحابة بصرة كادت يده تعجز عن حملها، فقالوا: هذا مراء، وجاء بعضهم بصاع، فقالوا: لقد كان الله غنيًا عن صاع فلان فلمزوا هذا وهذا، فأنزل الله ذلك، وصار عبرة فيمن يلمز المطيعين لله ورسوله. انتهى من رسالة سجود التلاوة وأحكامه.

فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا (٥٩).

{فَخَلَفَ مِنْ بَعْدهمْ خَلْف أَضَاعُوا الصَّلَاة} بِتَرْكِهَا كَالْيَهُودِ وَالنَّصَارَى {وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَات} مِنْ الْمَعَاصِي {فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا} هُوَ وَادٍ فِي جَهَنَّم أَيْ يقعون فيه.

إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْئًا (٦٠).

{إِلَّا} لَكِنْ {مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّة وَلَا يُظْلَمُونَ} يَنْقُصُونَ {شَيْئًا} من ثوابهم.

جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمَنُ عِبَادَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّهُ كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيًّا (٦١).

{جَنَّات عَدْن} إقَامَة بَدَل مِنْ الْجَنَّة {الَّتِي وعد الرحمن عباده بالغيب} حال أَيْ غَائِبِينَ عَنْهَا {إِنَّهُ كَانَ وَعْده} أَيْ مَوْعُوده {مَأْتِيًّا} بِمَعْنَى آتِيًا وَأَصْله مَأْتُوي أَوْ مَوْعُوده هُنَا الْجَنَّة يَأْتِيه أَهْله.

لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَامًا وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا (٦٢).

{لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا} مِنْ الْكَلَام {إِلَّا} لَكِنْ يَسْمَعُونَ {سَلَامًا} مِنْ الْمَلَائِكَة عَلَيْهِمْ أَوْ مِنْ بَعْضهمْ عَلَى بَعْض {وَلَهُمْ رِزْقهمْ فِيهَا بُكْرَة وَعَشِيًّا} أَيْ عَلَى قَدْرهمَا فِي الدُّنْيَا وَلَيْسَ فِي الْجَنَّة نَهَار وَلَا لَيْل بَلْ ضَوْء وَنُور أَبَدًا.

تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَنْ كَانَ تَقِيًّا (٦٣).

{تِلْكَ الْجَنَّة الَّتِي نُورِث} نُعْطِي وَنُنْزِل {مِنْ عِبَادنَا مَنْ كَانَ تَقِيًّا} بِطَاعَتِهِ وَنَزَلَ لَمَّا تَأَخَّرَ الْوَحْي أَيَّامًا وَقَالَ النَّبِيّ ﷺ لِجِبْرِيل مَا يَمْنَعك أَنْ تَزُورنَا أَكْثَر مِمَّا

تَزُورنَا[1].

(١) لما ذكر تعالى هؤلاء الأنبياء المخلصون المتبعون لمراضي ربهم، المنيبون إليه، ذكر من أتى بعدهم، وبدلوا ما أمروا به، وأنه خلف من بعدهم خلف، رجعوا إلى الخلف والوراء، فأضاعوا الصلاة التي أمروا بالمحافظة عليها وإقامتها، فتهاونوا بها وضيعوها، وإذا ضيعوا الصلاة التي هي عماد الدين، وميزان الإيمان والإخلاص لرب العالمين، التي هي آكد الأعمال، وأفضل الخصال، كانوا لما سواها من دينهم أضيع، وله أرفض، والسبب الداعي لذلك، أنهم اتبعوا شهوات أنفسهم وإراداتها فصارت هممهم منصرفة إليها، مقدمة لها على حقوق الله. فنشأ من ذلك التضييع لحقوقه، والإقبال على شهوات أنفسهم، مهما لاحت لهم، حصلوها، وعلى أي: وجه اتفقت تناولوها.

قوله تعالى: {فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ} [مريم: ٥٩]، أي:"فأتى مِن بعد هؤلاء المنعَم عليهم أتباع سَوْء تركوا الصلاة كلها، أو فوتوا وقتها، أو تركوا أركانها وواجباتها".

قال الطبري:"فحدث من بعد هؤلاء الذين ذكرت من الأنبياء الذين أنعمت عليهم، ووصفت صفتهم في هذه السورة، خلْف سوء في الأرض أضاعوا الصلاة".

قال مقاتل: " {فخلف من بعدهم خلف}، يعني: مِن بعد النبيين خَلْفُ السوء، يعني: اليهود، فهذا مَثَلٌ ضربه الله ﷻ لأُمَّة محمد ﷺ، ولا تكونوا خَلْفَ السوءِ مثل اليهود".

عن السدي: {فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ}: قال:"هم اليهود والنصارى".

عن قتادة -من طريق سعيد- قوله ﷻ: " {فخلف من بعدهم خلف}، قال: اليهود".

=

=

قال قتادة:"هم في هذه الأمة".

واختلف أهل التفسير في صفة إضاعتهم الصلاة، على أقوال:

أحدها: كانت إضاعتهم لها تأخيرهم إياها عن مواقيتها، وتضييعهم أوقاتها. قاله القاسم بن مخيمرة، وعمر بن عبد العزيز. وآخرون.

قال القاسم بن مخيمرة:"أخروا الصلاة عن ميقاتها، ولو تركوها كفروا".

عن ابن مسعود، أنه قيل له: "إن الله يكثر ذكر الصلاة في القرآن {الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلاتِهِمْ سَاهُونَ} و {عَلَى صَلاتِهِمْ دَائِمُونَ} و {عَلَى صَلاتِهِمْ يُحَافِظُونَ}، فقال ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: على مواقيتها، قالوا: ما كنا نرى ذلك إلا على الترك، قال: ذاك الكفر".

عن عبد الله بن مسعود، في قوله: " {فخلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة}، قال: ليس إضاعتُها تركَها؛ قد يُضِيع الإنسانُ الشيءَ ولا يتركه، ولكن إضاعتها إذا لم يُصَلِّها لوقتها".

قال سعيد بن المسيب:"هو أن لا يصلي الظهر حتى يأتي العصر، ولا العصر حتى تغرب الشمس".

عن إبراهيم النخعي، في قوله: " {أضاعوا الصلاة}، قال: صَلَّوْها لغير وقتها".

عن عمر بن عبد العزيز -من طريق إبراهيم بن يزيد- في قوله: " {أضاعوا الصلاة}، قال: لم تكن إضاعتهم إيّاها تركَها، ولكن أضاعوا المواقيت".

عن إبراهيم بن يزيد:"أن عمر بن عبد العزيز بعث رجلا إلى مصر لأمر أعجله للمسلمين، فخرج إلى حرسه، وقد كان تقدم إليهم أن لا يقوموا إذا رأوه، قال: فأوسعوا له، فجلس بينهم فقال: أيكم يعرف الرجل الذي بعثناه إلى مصر؟ فقالوا: كلنا نعرفه، قال: فليقم أحدثكم سنا، فليدعه، فأتاه الرسول فقال: لا تعجلني أشدّ عليّ ثيابي، فأتاه فقال: إن اليوم الجمعة، فلا تبرحن حتى تصلي، وإنا بعثناك في

=

=

أمر أعجله للمسلمين، فلا يعجلنك ما بعثناك له أن تؤخر الصلاة عن ميقاتها، فإنك مصليها لا محالة، ثم قرأ: {فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا}، ثم قال: لم يكن إضاعتهم تركها، ولكن أضاعوا الوقت". وفي رواية:"لم يكن إضاعتهم تركها ولكن أضاعوا المواقيت".

قال مسروق: "لا يحافظ أحد على الصلوات الخمس، فيكتب من الغافلين، وفي إفراطهنّ الهلكة، وإفراطهنّ: إضاعتهنّ عن وقتهنّ".

الثاني: أن إضاعتها: تركها. قاله محمد بن كعب.

قال القرظي: "تركوا الصلاة".

وقال محمد بن كعب:"هم أهل الغرب، يملكون وهُم شَرُّ مَن مَلَك".

عن زيد بن أسلم -من طريق أبي صخر- في قول الله تعالى: " {فخلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة}، قال: تركوا الصلاة".

واختاره الطبري واحتج: بقول الله تعالى: {إِلا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا}، "فلو كان الذين وصفهم بأنهم ضيعوها مؤمنين لم يستثن منهم من آمن، وهم مؤمنون ولكنهم كانوا كفارا لا يصلون لله، ولا يؤدّون له فريضة فسقة قد آثروا شهوات أنفسهم على طاعة الله، وقد قيل: إن الذين وصفهم الله بهذه الصفة قوم من هذه الأمة يكونون في آخر الزمان".

عن مجاهد، قوله:" {فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا}، قال: عند قيام الساعة، وذهاب صالحي أمة محمد ﷺ ينزو بعضهم على بعض في الأزقة. قال محمد بن عمرو: زنا. وقال الحارث: زناة".

عن عكرمة ومجاهد وعطاء بن أبي رباح:" {فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ}.... الآية، قال: هم أمة محمد".

=

=

قال أبو تميم بن مهاجر "هم في هذه الأمة يتراكبون تراكب الأنعام والحمر في الطرق، لا يخافون الله في السماء، ولا يستحيون الناس في الأرض".

الثالث: أن تكون إضاعتها الإخلال باستيفاء شروطها. أفاده الماوردي.

وعن مكحول الدمشقي -من طريق عفيف، عن رجل من أهل الشام- في قوله: " {فخلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات}، قال: أضاعوا مساجدهم، واتبعوا ضَيْعاتِهم".

قوله تعالى: {وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ} [مريم: ٥٩]، أي:"واتبعوا ما يوافق شهواتهم ويلائمها".

قال الكلبي:"يعني: اللذات من شرب الخمر وغيره".

قال مقاتل: " {واتبعوا الشهوات} اسْتَحَلُّوا نكاح الأخت من الأب".

قال يحيى بن سلّام، في قوله: " {أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات}: وقال في سورة النساء [٢٧]: {ويريد الذين يتبعون الشهوات أن تميلوا ميلا عظيما} اليهود، في نكاح بنات الأخ".

قال ابن الأشعث: "أوحى الله إلى داود عليه السلام: إن القلوب المعلقة بشهوات الدنيا عني محجوبة".

قوله تعالى: {فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا} [مريم: ٥٩]، أي:"فسوف يلقون شرًا وضلالا وخيبة في جهنم".

قال الطبري:"يعني أن هؤلاء الخلْف الذين خلفوا بعد أولئك الذين أنعم الله عليهم من النبيين سيدخلون غيا، وهو اسم واد من أودية جهنم، أو اسم بئر من آبارها".

وفي قوله تعالى: {فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا} [مريم: ٥٩]، وجوه من التفسير:

أحدها: أنه واد في جهنم، قالته عائشة، وابن مسعود.

=

=

قال ابن مسعود:"«الغي»: نهر أو واد في جهنم من قيح بعيد القعر خبيث الطعم يقذف فيه الذين يتبعون الشهوات".

وعن ابن مسعود:"{فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا}، قال: واديا في النار".

عن عبد الله بن عمرو:"{فسوف يلقون غيا}، قال: واديا في جهنم".

عن ابن عباس، عن النبي ﷺ، قال: «الغَيُّ وادٍ في جهنم».

عن أبي أُمامة، قال: قال رسول الله ﷺ: «لو أنّ صخرةً زِنَة عشر عشراوات قُذِف بها مِن شَفِير جهنم ما بلغت قعرها سبعين خريفًا، ثم تنتهي إلى غَيٍّ وأثام». قلت: وما غَيٌّ وأثام؟ قال: «نهران في أسفل جهنم، يسيل فيها صديدُ أهل النار، وهم اللذان ذَكر الله في كتابه: {فسوف يلقون غيا}، {ومن يفعل ذلك يلقى أثاما}» [الفرقان: ٦٨]".

الثاني: أن "الغي: نهر جهنم في النار، يعذب فيه الذين اتبعوا الشهوات". رواه أبو عبيدة عن أبيه.

الثالث: أنه الخسران، قاله ابن عباس.

الرابع: أنه الشر، قاله ابن زيد، ومنه قول الشاعر:

فَمَنْ يَلْقَ خَيْرًا يَحْمَد النَّاس أمْرَهُ... وَمَنْ يَغْوَ لا يَعْدَمْ على الغَيّ لائما

الخامس: أنه السوء. قاله قتادة.

قال الطبري:"وكلّ هذه الأقوال متقاربات المعاني، وذلك أن من ورد البئرين اللتين ذكرهما النبيّ ﷺ، والوادي الذي ذكره ابن مسعود في جهنم، فدخل ذلك، فقد لاقى خسرانا وشرّا، حسبه به شرّا".

الخامس: الضلال عن الجنة. حكاه الماوردي.

السادس: الخيبة. حكاه الماوردي.

قال كعب:"والله إني لأجد صفة المنافقين في التوراة: شرابين للقهوات، تباعين

=

=

للشهوات، لعانين للكعبات، رقادين عن العتمات، مفرطين في الغدوات، تراكين للصلوات، تراكين للجمعات، ثم تلا هذه الآية: {فخلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات}".

عن عقبة بن عامر، قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «سيهلك من أمتي أهل الكتاب، وأهل اللَّبَن». قلت: يا رسول الله، ما أهل الكتاب؟ قال: «قوم يتعلمون الكتاب يجادلون به الذين آمنوا». فقلت: ما أهل اللَّبَن؟ قال: «قوم يتبعون الشهوات، ويضيعون الصلوات».

عن عبد الله بن عمر، قال: قال رسول الله ﷺ: «يكون في أمتي مَن يقتل على الغضب، ويرتشي في الحُكْم، ويضيع الصلوات، ويتبع الشهوات، ولا ترد له راية». قيل: يا رسول الله، أمؤمنون هم؟ قال: «بالإيمان يُقِرُّون».

عن عبد الله بن عامر بن ربيعة، قال: "اغتسلتُ أنا وآخَر، فرآنا عمر بن الخطاب وأحدنا ينظر إلى صاحبه، فقال: إنِّي لأخشى أن يكونا مِن الخَلْف الذين قال الله: {فخلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات فسوف يلقون غيا}".

قال ابن الجوزي:"زعم بعض الجهلة أن [قوله تعالى: {فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا}] منسوخ بالاستثناء بعده، وقد بينا أن الاستثناء ليس بنسخ".

وقد اختلف المفسرون في المراد بإضاعة الصلاة في الآية كما تقدم على ثلاثة أقوال:

القول الأول: أن المراد بإضاعتها: إضاعة حقوقها كتأخيرها عن وقتها أو الإخلال بأركانها ونحو ذلك، وبه قال ابن مسعود والنخعي وعمر بن عبد العزيز والقاسم بن مخيمرة ومسروق.

قال ابن مسعود - رضي الله عنه - عند هذه الآية: " ليس إضاعتها تركها، قد يضيع الإنسان الشيء ولا يتركه، ولكن إضاعتها إذا لم يصلها لوقتها".

=

=

وقال القاسم بن مخيمرة: " أضاعوا المواقيت، ولو تركوها لصاروا بتركها كفارًا".

القول الثاني: أن المراد بإضاعتها تركها، وروى ذلك عن محمد بن كعب القرظي، واختاره الزجاج، وابن جرير، والرازي.

واستدل ابن جرير لهذا القول بالآية التي بعدها، قال: " فلو كان الذين وصفهم بأنهم ضيعوها مؤمنين لم يستثن منهم من آمن وهم مؤمنون، ولكنهم كانوا كفارًا لا يصلون لله ولا يؤدون له فريضة".

القول الثالث: أن الآية تشمل الجميع، واختاره الشوكاني، والشنقيطي.

قال الشوكاني بعد أن حكى الأقوال فيها: " والظاهر أن من أخَّر الصلاة عن وقتها أو ترك فرضًا من فروضها أو شرطًا من شروطها أو ركنًا من أركانها فقد أضاعها، ويدخل تحت الإضاعة من تركها بالمرة، أو جحدها دخولًا أوليًا".

قال شيخ الإسلام في شرح العمدة (٤/ ٥٣): و قوله تعالى (فخلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة و اتبعوا الشهوات) وأضاعتها تأخيرها عن وقتها كذلك فسرها ابن مسعود و إبراهيم و القاسم بن محمد و الضحاك و غيرهم من غير مخالف لهم قال ابن مسعود إضاعتها صلاتها لغير وقتها لأن الشيء الضائع ليس هو معدوما إنما هو مهمل غير محفوظ.

قوله {فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا}. قال الشنقيطي: اعلم أولًا أن العرب تطلق الغي على كل شر. والرشاد على كل خير. قال المرقش الأصغر:

فمن يلق خيرًا يحمد الناسُ أمره ... ومن يغوَ لا يعدم على الغي لائما

فقوله: "ومن يغو" يعني ومن يقع في شر. والإطلاق المشهور هو أن الغي الضلال. وفي المراد بقوله: {غَيًّا (٥٩)} في الآية أقوال متقاربة. منها: أن الكلام على حذف مضاف، أي فسوف يلقون جزاء غي، ولا شك أنهم سيلقون جزاء

=

=

ضلالهم. وممن قال بهذا القول: الزجاج. ونظير هذا التفسير قوله تعالى. {يَلْقَ أَثَامًا} عند من يقول إن معناه يلق مجازاة أثامه في الدنيا، ويشبه هذا المعنى قوله تعالى: {إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا}، وقوله: {أُولَئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إلا النَّارَ}؛ فأطلق النار على ما أكلوا في بطونهم في الدنيا من المال الحرام لأنها جزاؤه، كما أطلق الغي والأثام على العذاب لأنه جزاؤهما. ومنها: أن الغي في الآية الخسران والحصول في الورطات. وممن روى عنه هذا القول: ابن عباس، وابن زيد. ورُوِيَ عن ابن زيد أيضًا: {غَيًّا (٥٩)} أي شرًّا أو ضلالًا أو خيبة. وقال بعضهم: إن المراد بقوله {غَيًّا (٥٩)} في الآية: واد في جهنم من قيح؛ لأنه يسيل فيه قيح أهل النار وصديدهم، وهو بعيد القعر خبيث الطعم. وممن قال بهذا ابن مسعود، والبراء ابن عازب. ورُوِيَ عن عائشة، وشُفيٍّ بن ماتع.

وجاء حديث مرفوع بمقتضى هذا القول من حديث أبي أمامة وابن عباس فيه: أن النبي ﷺ قال: "إن غيًا واد في جهنم" كما في حديث ابن عباس. وفي حديث أبي أمامة: أن غيًا وأثامًا: نهران في أسفل جهنم، يسيل فيهما صديد أهل النار. والظاهر أنه لم يصح في ذلك شيء عن النبي ﷺ. وقد ذكر ابن كثير في تفسير هذه الآية حديث أبي أمامة صُدي بن عجلان الباهلي الذي أشرنا له آنفًا، ثم قال: هذا حديث غريب ورَفْعه منكر. وقيل: إن المعنى: فسوف يلقون غيًا أي: ضلالًا في الآخرة عن طريق الجنة، ذكره الزمخشري. وفيه أقوال أخر، ومدار جميع الأقوال في ذلك على شيء واحد، وهو: أن أولئك الخلف الذين أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات سوف يلقون يوم القيامة عذابًا عظيمًا ا.هـ

قال ابن الجوزي في نواسخ القرآن: ذكر الآية الثانية: قوله تعالى: {فسوف يلقون غيا} زعم بعض الجهلة أنه منسوخ بالاستثناء بعده، وقد بينا أن الاستثناء ليس بنسخ. ا.هـ

=

=

قوله تعالى: {إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا} [مريم: ٦٠].

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: فسوف يلقى هؤلاء الخلف السوء الذين وصف صفتهم غيا، إلا الذين تابوا فراجعوا أمرا الله، والإيمان به وبرسوله، وأطاع الله فيما أمره ونهاه عنه، وأدّى فرائضه، واجتنب محارمه من هلك منهم على كفره، وإضاعته الصلاة واتباعه الشهوات".

عن قتادة: " {إلا من تاب}، قال من ذنبه، {وآمن}، قال: بربه، {وعمل صالحا}، قال: بينه وبين الله".

قوله تعالى: {فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْئًا} [مريم: ٦٠]، أي:"فأولئك يدخلون الجنة مع المؤمنين ولا يُنقَصون شيئًا من أعمالهم الصالحة".

قال يحيى:"يقول: لا ينقصون شيئا من حسناتهم".

قال مكي:"أي: ولا ينقصون من جزاء أعمالهم شيئا".

قال الطبري:"يقول: ولا يُبْخَسون من جزاء أعمالهم شيئا، ولا يجمع بينهم وبين الذين هلكوا من الخلف السوء منهم قبل توبتهم من ضلالهم، وقبل إنابتهم إلى طاعة ربهم في جهنم، ولكنهم يدخلون مدخل أهل الإيمان".

قال الزمخشري:"أى: لا ينقصون شيئا من جزاء أعمالهم ولا يمنعونه، بل يضاعف لهم، بيانا لأن تقدّم الكفر لا يضرهم إذا تابوا من ذلك، من قولك: ما ظلمك أن تفعل كذا، بمعنى: ما منعك. أو لا يظلمون البتة، أي: شيئا من الظلم".

ثم استثنى تعالى فقال: {إِلا مَنْ تَابَ} عن الشرك والبدع والمعاصي، فأقلع عنها وندم عليها، وعزم عزما جازما أن لا يعاودها، {وَآمَنَ} بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، {وَعَمِلَ صَالِحًا} وهو العمل الذي شرعه الله على ألسنة رسله، إذا قصد به وجهه، {فَأُولَئِكَ} الذي جمعوا بين التوبة والإيمان، والعمل

=

=

الصالح، {يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ} المشتملة على النعيم المقيم، والعيش السليم، وجوار الرب الكريم، {وَلا يُظْلَمُونَ شَيْئًا} من أعمالهم، بل يجدونها كاملة، موفرة أجورها، مضاعفا عددها.

ثم ذكر أن الجنة التي وعدهم بدخولها، ليست كسائر الجنات، وإنما هي جنات عدن، أي: جنات إقامة، لا ظعن فيها، ولا حول ولا زوال، وذلك لسعتها، وكثرة ما فيها من الخيرات والسرور، والبهجة والحبور.

قوله تعالى: {جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمَنُ عِبَادَهُ بِالْغَيْبِ} [مريم: ٦١].

قال الطبري: "فأولئك يدخلون الجنة {جَنَّاتِ عَدْنٍ}،أي: بساتين إقامة، هذه الجنات هي الجنات التي وعد الرحمن عباده المؤمنين أن يدخلوها بالغيب، لأنهم لم يروها ولم يعاينوها، فهي غيب لهم".

قال البيضاوي:"أي: وعدها إياهم وهي غائبة عنهم، أو وهم غائبون عنها، أو وعدهم بإيمانهم بالغيب".

قال الماتريدي:"يحتمل إيمانهم بالغيب، أي: بالله آمنوا به بالخبر وإن لم يروه، ويحتمل الغيب: الجنة، أي: صدقوا بها وإن لم يروها والنار والبعث بالغيب".

وفي "جَنَّاتِ عَدْنٍ"، وجوه:

أحدها: أن «عدن»: اسم قصر في الجنة، قاله الحسن.

الثاني: أنها مدينة الجنة، فيها الرُّسُل والأنبياء والشهداء، وأئمة الهدى، والناس حولهم بعدُ، والجنات حولها. قاله الضحاك.

الثالث: أنها اسم نهر في الجنة، جنّاته على حافتيه. قاله عطاء.

الرابع: أن جنة «عدن» في السماء العليا لا يدخلها إلا نبيّ أو صديق أو شهيد أو إمام عدل، وجنة المأوى في السماء الدنيا تأوي إليها أرواح المؤمنين. ذكره الماوردي وقال:"رواه معاذ بن جبل مرفوعًا".

=

=

وقد روي عن الحسن:"قصرٌ من ذهَب، لا يدخله إلا نبي، أو صدّيق، أو شهيد، أو حكم عدل".

قوله تعالى: {إِنَّهُ كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيًّا} [مريم: ٦١]، أي:"إن وعد الله لعباده بهذه الجنة آتٍ لا محالة".

قال مقاتل:"يعني: جائيا لا خلف له".

قال الماتريدي:"أي: موعودا مأتيا".

قال البيضاوي:"إن الله {كان وعده} الذي هو الجنة، {مأتيا} يأتيها أهلها الموعود لهم لا محالة، وقيل: هو من أتى إليه إحسانا أي مفعولا منجزا".

قال الطبري:"إن الله كان وعده، ووعده في هذا الموضع موعوده، وهو الجنة مأتيا يأتيه أولياؤه وأهل طاعته الذين يدخلهموها الله".

قال مكي:"«الوعد» هنا بمعنى: الموعود. كما قالوا: الخلق بمعنى المخلوق".

قال الزجاج:"«مأتي»: مفعول من الإتيان، لأن كل ما وصل إليك فقد وصلت إليه وكل ما أتاك فقد أتيته، يقال: وصلت إلى خير فلان ووصل إلي خير فلان وأتيت خير فلان وأتاني خير فلان فهذا على معنى أتيت خير فلان".

قال الفراء:"العربُ تقول: وَعْدٌ مَاتِيٌّ، و: آتٍ، وقال في موضعٍ آخَرَ: {إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَآت} [الأنعام: ١٣٤]، وهما في المعنى سواءٌ، وهذا على المواقيتِ؛ لأنك إذا أَتَيْتَ على الشيءِ فقد أَتَى عليك".

{الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمَنُ عِبَادَهُ بِالْغَيْبِ} أي: التي وعدها الرحمن، أضافها إلى اسمه {الرَّحْمَنُ} لأن فيها من الرحمة والإحسان، ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب [بشر]. وسماها تعالى رحمته، فقال: {وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ} وأيضا ففي إضافتها إلى رحمته، ما يدل على استمرار سرورها، وأنها باقية ببقاء رحمته، التي هي أثرها وموجبها،

=

=

والعباد في هذه الآية، المراد: عباد إلهيته، الذين عبدوه، والتزموا شرائعه، فصارت العبودية وصفا لهم كقوله: {وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ} ونحوه، بخلاف عباده المماليك فقط، الذين لم يعبدوه، فهؤلاء وإن كانوا عبيدا لربوبيته، لأنه خلقهم ورزقهم، ودبرهم، فليسوا داخلين في عبيد إلهيته العبودية الاختيارية، التي يمدح صاحبها، وإنما عبوديتهم عبودية اضطرار، لا مدح لهم فيها.

وقوله: {بِالْغَيْبِ} يحتمل أن تكون متعلقة ب {وَعَدَ الرَّحْمَنُ} فيكون المعنى على هذا، أن الله وعدهم إياها وعدا غائبا، لم يشاهدوه ولم يروه فآمنوا بها، وصدقوا غيبها، وسعوا لها سعيها، مع أنهم لم يروها، فكيف لو رأوها، لكانوا أشد لها طلبا، وأعظم فيها رغبة، وأكثر لها سعيا، ويكون في هذا، مدح له بإيمانهم بالغيب، الذي هو الإيمان النافع. ويحتمل أن تكون متعلقة بعباده، أي: الذين عبدوه في حال غيبهم وعدم رؤيتهم إياه، فهذه عبادتهم ولم يروه، فلو رأوه، لكانوا أشد له عبادة، وأعظم إنابة، وأكثر حبا، وأجل شوقا، ويحتمل أيضا، أن المعنى: هذه الجنات التي وعدها الرحمن عباده، من الأمور التي لا تدركها الأوصاف، ولا يعلمها أحد إلا الله، ففيه من التشويق لها، والوصف المجمل، ما يهيج النفوس، ويزعج الساكن إلى طلبها، فيكون هذا مثل قوله: {فَلا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ} والمعاني كلها صحيحة ثابتة، ولكن الاحتمال الأول أولى، بدليل قوله: {إِنَّهُ كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيًّا} لا بد من وقوعه، فإنه لا يخلف الميعاد، وهو أصدق القائلين.

قال الرازي: اعلم أنه تعالى لما ذكر في التائب أنه يدخل الجنة وصف الجنة بأمور: أحدها: قوله: جنات عدن التي وعد الرحمن عباده بالغيب والعدن الإقامة وصفها بالدوام على خلاف حال الجنان في الدنيا التي لا تدوم ولذلك فإن حالها لا يتغير في مناظرها فليست كجنان الدنيا التي حالها يختلف في خضرة الورق وظهور النور

=

=

والثمر وبين تعالى أنها: وعد الرحمن لعباده وأما قوله: بالغيب ففيه وجهان: أحدهما: أنه تعالى وعدهم إياها وهي غائبة عنهم غير حاضرة أو هم غائبون عنها لا يشاهدونها. والثاني: أن المراد وعد الرحمن للذين يكونون عبادا بالغيب أي الذين يعبدونه في السر بخلاف المنافقين فإنهم يعبدونه في الظاهر ولا يعبدونه في السر وهو قول أبي مسلم. والوجه الأول: أقوى لأنه تعالى بين أن الوعد منه تعالى وإن كان بأمر غائب فهو كأنه مشاهد حاصل، لذلك قال بعده: إنه كان وعده مأتيا، لذلك قال بعده: إنه كان وعده مأتيا أما قوله: مأتيا فقيل إنه مفعول بمعنى فاعل والوجه أن الوعد هو الجنة وهم يأتونها، قال الزجاج: كل ما وصل إليك فقد وصلت إليه وما أتاك فقد أتيته والمقصود من قوله: إنه كان وعده مأتيا بيان أن الوعد منه تعالى وإن كان بأمر غائب فهو كأنه مشاهد وحاصل والمراد تقرير ذلك في القلوب ا.هـ

قوله تعالى: {لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَامًا} [مريم: ٦٢]، أي:"لا يسمع أهل الجنة فيها كلامًا باطلا لكن يسمعون سلاما تحية لهم".

قال الأخفش سعيد: "وهذا على الاستثناء الذي ليس من الأول،: وإن شئت كان بدلا، أي: لا يسمعون إلا سلاما".

قال الطبري:"لا يسمع هؤلاء الذين يدخلون الجنة فيها لغوا، وهو الهَذْي والباطل من القول والكلام {إِلا سَلامًا}، وهذا من الاستثناء المنقطع، ومعناه: ولكن يسمعون سلاما، وهو تحية الملائكة إياهم".

قال أبو عبيدة:"أي: هذرا وباطلا، {إِلَّا سَلامًا}، فالسلام ليس من اللّغو والعرب تستثنى الشيء بعد الشيء وليس منه وذلك أنها تضمر فيه، فكان مجازه: لا يسمعون فيها لغوا إلّا أنهم يسمعون سلاما، قال:

يا ابن رقيع هل لها من مغبق... ما شربت بعد طويّ الكربق

=

=

من قطرة غير النجاء الأدفق

فاستثنى «النجاء» من «قطرة الماء» وليس منها، قال أبو جندب الهذليّ:

نجا سالم والنفس منه بشدقه... ولم بنج إلّا جفن سيف ومئزرا

وليسا منه".

عن ابن عباس قوله: " {لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا}، قال: باطلا".

عن مجاهد قوله: " {لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا}، قال: لا يستبون".

قوله تعالى: {وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا} [مريم: ٦٢]، أي:"ولهم رزقهم فيها من الطعام والشراب دائمًا، كلما شاؤوا صباحا ومساء، فهو غير محصور ولا محدد".

قال النحاس:"أي: يقسم لهم في هذين الوقتين ما يحتاجون إليه في كل ساعة".

وحكي النحاس عن الأخفش:"أي: على مقادير الغداة والعشي مما في الدنيا، لأنه ليس هناك ليل ولا نهار إنما هو نور العرش".

قال الطبري:"يقول: ولهم طعامهم وما يشتهون من المطاعم والمشارب في قدر وقت البُكرة ووقت العشيّ من نهار أيام الدنيا، وإنما يعني أن الذي بين غدائهم وعشائهم في الجنة قدر ما بين غداء احدنا في الدنيا وعشائه، وكذلك ما بين العشاء والغداء وذلك لأنه لا ليل في الجنة ولا نهار، وذلك كقوله {خَلَقَ الأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ} و {خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ}، يعني به: من أيام الدنيا".

قال مجاهد:"ليس فيها بكرة ولا عشي، يؤتون به على النحو الذي يحبون من البكرة والعشي".

قال ابن عباس:"يؤتون به في الآخرة على مقدار ما كانوا يؤتون به في الدنيا".

عن الوليد بن مسلم قال: "سألت زهير بن محمد، عن قوله: {ولهم رزقهم فيها بكرة وعشيا}، قال: ليس في الجنة ليل ولا شمس ولا قمر، هم في نور أبدا، ولهم

=

=

مقدار الليل والنهار، يعرفون مقدار الليل بإرخاد الحجب، وإغلاق الأبواب، ويعرفون مقدار النهار برفع الحجب وفتح الأبواب".

قال الحسن:"كانوا يعدون النعيم، إن يتغدى الرجل، ثم يتعشى قال الله لأهل الجنة: {ولهم رزقهم فيها بكرة وعشيا}".

عن عامر بن يساف، عن يحيى، قال: "كانت العرب في زمانهم من وجد منهم عشاء وغداء، فذاك الناعم في أنفسهم، فأنزل الله: {وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا}: قدر ما بين غدائكم في الدنيا إلى عشائكم".

قال قتادة:"كانت العرب إذا أصاب أحدهم الغداء والعشاء عجب له، فأخبرهم الله أن لهم في الجنة بكرة وعشيا، قدر ذلك الغداء والعشاء".

وعن قتادة، قوله:"{وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا}، فيها ساعتان بكرة وعشيّ، فإن ذلك لهم ليس ثم ليل، إنما هو ضوء ونور".

{لا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا} أي: كلاما لاغيا لا فائدة فيه، ولا ما يؤثم، فلا يسمعون فيها شتما، ولا عيبا، ولا قولا فيه معصية لله، أو قولا مكدرا، {إِلا سَلامًا} أي: إلا الأقوال السالمة من كل عيب، من ذكر لله، وتحية، وكلام سرور، وبشارة، ومطارحة الأحاديث الحسنة بين الإخوان، وسماع خطاب الرحمن، والأصوات الشجية، من الحور والملائكة والولدان، والنغمات المطربة، والألفاظ الرخيمة، لأن الدار، دار السلام، فليس فيها إلا السلام التام في جميع الوجوه.

قال الآلوسى: قوله إلا سلاما، استثناء منقطع، والسلام إما بمعناه المعروف. أى: لكن يسمعون تسليم الملائكة عليهم، أو تسليم بعضهم على بعض، أو بمعنى الكلام السالم من العيب والنقص، أى: لكن يسمعون كلاما سالما من العيب والنقص.

وجوز أن يكون استثناء متصلا، وهو من تأكيد المدح بما يشبه الذم، كما في قوله:

=

=

ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم ... بهن فلول من قراع الكتائب

وهو يفيد نفى سماع اللغو بالطريق البرهاني الأقوى. والاتصال على هذا على طريق الفرض والتقدير، ولولا ذلك لم يقع موقعه من الحسن والمبالغة» ا.هـ

وقال الشنقيطي: والظاهر أن قوله: {إلا سَلَمًا} استثناء منقطع، أي لكن يسمعون فيها سلامًا؛ لأنهم يسلم بعضهم على بعض. وتسلم عليهم الملائكة، كما يدل على ذلك قوله تعالى: {تَحِيُّهُم فِيها سَلَام (٢٣)..} الآية وقوله: {وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ (٢٣) سَلَامٌ عَلَيكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ. ... (٢٤)} الآية. كما تقدم مستوفى.

وهذا المعنى الذي أشار له هنا جاء في غير هذا الموضع أيضًا كقوله في "الواقعة": {لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا (٢٥) إلا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا (٢٦)} وقد جاء الاستثناء المنقطع في آيات أخر من كتاب الله، كقوله تعالى: {مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إلا اتِّبَاعَ الظَّنِّ..} الآية؛ وقوله: {وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى (١٩) إلا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى (٢٠)}، وقوله: {لَا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إلا الْمَوْتَةَ الْأُولَى}، وكقوله: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَينَكُمْ بِالْبَاطِلِ إلا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ..} الآية، إلى غير ذلك من الآيات. ا.هـ

{وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا} أي: أرزاقهم من المآكل والمشارب، وأنواع اللذات، مستمرة حيثما طلبوا، وفي أي: وقت رغبوا، ومن تمامها ولذاتها وحسنها، أن تكون في أوقات معلومة.

{بُكْرَةً وَعَشِيًّا} ليعظم وقعها ويتم نفعها، فتلك الجنة التي وصفناها بما ذكر {الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَنْ كَانَ تَقِيًّا} أي: نورثها المتقين، ونجعلها منزلهم الدائم، الذي لا يظعنون عنه، ولا يبغون عنه حولا كما قال تعالى: {وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ}.

=

=

قوله تعالى: {تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَنْ كَانَ تَقِيًّا (٦٣)} [مريم: ٦٣]

قال الطبري:"هذه الجنة التي وصفت لكم أيها الناس صفتها، هي الجنة التي نورثها، يقول: نورث مساكن أهل النار فيها، من كان ذا اتقاء عذاب الله بأداء فرائضه، واجتناب معاصيه".

قال مكي:"أي: الجنة التي وصفت، هي التي تورث مساكن أهل النار فيها، {من مكان تقيًا}، أي: من اتقى عقاب الله، فأدى فرائضه واجتنب محارمه.. وقيل: «التقي»: الذي قد أكثر من اتقاء معاصي الله ومحارمه".

قال إبراهيم بن عرفة: "وعد الله بالجنة كل من اتقى، وأرجو أن يكون كل موحد من أهل التقية - إن شاء الله - ولن يهلك مؤمن بين توحيد الله، وشفاعة نبيه ﷺ".

عن داود بن أبي هند قوله: " {مَنْ كَانَ تَقِيًّا}، قال: موحدا".

قال مقاتل: {مَنْ كَانَ تَقِيًّا}، "يعني: مخلصا لله- ﷻ-".

قال يحيى بن سلام:"حدثني الخليل بن مرة، أن الله تبارك وتعالى قال: «ادخلوا الجنة برحمتي واقتسموها بأعمالكم»".

قال ابن شودب: "ليس من أحد إلا وله في الجنة منزل وأزواج، فإذا كان يوم القيامة، ورث الله المؤمن كذا وكذا منزلا من منازل الكفار. فذلك قوله: {من عبادنا}".

قال الشنقيطي: الإشارة في قوله: {تِلْكَ} إلى ما تقدم من قوله: {فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيئًا (٦٠) جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمَنُ عِبَادَهُ بِالْغَيبِ..} الآية، وقد بين جل وعلا في هذه الآية الكريمة أنَّه يورث المتقين من عباده جنته. وقد بين هذا المعنى أيضًا في مواضع أخر، كقوله تعالى: {قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ (١) الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ (٢) -إلى قوله- أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ (١٠) الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (١١)} وقوله: {وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ

=

=

وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ (١٣٣). ...} الآيات، وقوله تعالى: {وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا ...} الآية، وقوله: {وَنُودُوا أَنْ تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٤٣)} إلى غير ذلك من الآيات ومعنى إيراثهم الجنَّة: الإنعام عليهم بالخلود فيها في أكمل نعيم وسرور، قال الزمخشري في الكشاف: نورث أي نبقي عليه الجنَّة كما نبقي على الوارث مال الموروث، ولأن الأتقياء يلقون ربهم يوم القيامة قد انقضت أعمالهم، وثمرتها باقية وهي الجنَّة. فإذا أدخلهم الجنَّة فقد أورثهم من تقواهم كما يورث الوارث المال من المتوفى. اهـ. وقال بعض أهل العلم: معنى إيراثهم الجنَّة أن الله تعالى خلق لكل نفس منزلًا في الجنَّة ومنزلًا في النار، فإذا دخل أهل الجنَّة الجنَّة، أراهم منازلهم في النار لو كفروا وعصوا الله؛ ليزداد سرورهم وغبطتهم، وعند ذلك يقولون: {الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا ...} الآية. وكذلك يرى أهل النار منازلهم في الجنَّة لو آمنوا واتقوا الله لتزداد ندامتهم وحسرتهم، وعند ذلك يقول الواحد منهم: {لَوْ أَنَّ اللهَ هَدَانِي لَكُنْتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ (٥٧)}. ثم إنه تعالى يجعل منازل أهل الجنَّة في النار لأهل النار، ومنازل أهل النار في الجنَّة لأهل الجنَّة فيرثون منازل أهل النار في الجنَّة. وهذا هو معنى الإيراث المذكور على هذا القول.

قال مقيده -عفا الله عنه وغفر له-: قد جاء حديث يدل لما ذكر من أن لكل أحد منزلًا في الجنَّة ومنزلًا في النار، إلَّا أن حمل الآية عليه غير صواب؛ لأن أهل الجنَّة يرثون من الجنَّة منازلهم المعدة لهم بأعمالهم وتقواهم، كما قد قال تعالى: {وَنُودُوا أَنْ تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٤٣)} ونحوها من الآيات. ولو فرضنا أنهم يرثون منازل أهل النار فحمل الآية على ذلك يوهم أنهم ليس لهم في الجنَّة إلَّا ما أورثوا من منازل أهل النار، والواقع بخلاف ذلك كما ترى.

وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا (٦٤).

{وَمَا نَتَنَزَّل إِلَّا بِأَمْرِ رَبّك لَهُ مَا بَيْن أَيْدِينَا} أَيْ أَمَامنَا مِنْ أُمُور الْآخِرَة {وَمَا خَلْفنَا} مِنْ أُمُور الدُّنْيَا {وَمَا بَيْن ذَلِكَ} أَيْ مَا يَكُون فِي هَذَا الْوَقْت إِلَى قِيَام السَّاعَة أَيْ لَهُ عِلْم ذَلِكَ جَمِيعه {وَمَا كَانَ رَبّك نَسِيًّا} بِمَعْنَى نَاسِيًا أَيْ تَارِكًا لَك بِتَأْخِيرِ الْوَحْي عَنْك[1].

---

(١) ذكر سبب النزول.

عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما؛ قال: قال رسول الله ﷺ لجبريل: ما يمنعك أن تزورنا أكثر مما تزورنا؟ فنزلت: {وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا (٦٤)}.

أخرجه البخاري في "صحيحه" (رقم ٣٢١٨، ٤٧٣١، ٧٤٥٥، ٣١٥٨).

وعن عكرمة؛ قال: أبطأ جبريل على النبي ﷺ أربعين يومًا، ثم نزل، فقال له النبي ﷺ: "ما نزلت حتى اشتقت إليك"، فقال له جبريل: "أنا كنت إليك أشوق، ولكن مأمور"؛ فأوحى الله إلى جبريل أن قل له: {وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ}.

ذكره السيوطي في "الدر المنثور" (٥/ ٥٣٠) ونسبه لعبد بن حميد وعكرمة.

وسنده ضعيف؛ لإرساله.

وعن أنس؛ قال: سئل النبي ﷺ: أي البقاع أحب إلى الله، وأيها أبغض إلى الله؟ قال: "ما أدري حتى أسأل جبريل"، وكان قد أبطأ عليه، فقال: "لقد أبطأت عليّ، حتى ظننت أن بربي عليّ موجدة! " ... فقال: {وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ}.

ذكره السيوطي في "الدر المنثور" (٥/ ٥٣٠) ونسبه لابن مردويه.

وعن السدي؛ قال: احتبس جبريل عن النبي ﷺ بمكة، حتى حزن واشتد عليه، فشكا ذلك إلى خديجة، فقالت خديجة: لعل ربك قد ودعك أو قلاك؛ فنزل =

=

جبريل بهذه الآية: {مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى (٣)} [الضحى: ٣]، قال: "يا جبريل! احتبست عني حتى ساء ظني"، فقال جبريل: {وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ}.

ذكره السيوطي في "الدر المنثور" (٥/ ٥٣٠) ونسبه لابن أبي حاتم. وهو ضعيف؛ لإعضاله.

وعن قتادة؛ قال: لبث جبريل عن النبي ﷺ، فلما أتاه وكأن النبي ﷺ قد استبطأه، فقال له جبريل: {وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا}، يقول: له ما بين أيدينا في الآخرة، وما خلفنا من الدنيا، وما بين ذلك، يقول: ما بين النفختين.

أخرجه عبد الرزاق في "تفسيره" (٢/ ١٠) - وعنه الطبري في "جامع البيان" (١٦/ ٧٨) - ثنا معمر عن قتادة به. وهذا مرسل رجاله ثقات.

ثم أخرجه الطبري (١٦/ ٧٨): ثنا بشر العقدي ثنا يزيد بن زريع ثنا سعيد بن أبي عروبة عن قتادة به. وإسناده صحيح، فعلّة الحديث الإرسال.

وعن مجاهد؛ قال: لبث جبرائيل عن محمد اثنتي عشرة ليلة، ويقولون: قلى، فلما جاءه قال: "أي جبرائيل! لقد رثت عليّ حتى ظن المشركون كل ظن"؛ فنزلت: {وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا (٦٤)}.

أخرجه سنيد في "تفسيره" -ومن طريقه الطبري في "جامع البيان" (١٦/ ٧٨) -: ثني حجاج بن محمد المصيصي عن ابن جريج عن مجاهد به. وهذا إسناد ضعيف جدًا؛ مسلسل بالعلل:

الأولى: الإرسال. والثانية: ابن جريج مدلس وقد عنعن، وقد نصَّ الحفاظ على أنه لم يسمع من مجاهد. والثالثة: حجاج ذا اختلط أخيرًا. والرابعة: سنيد صاحب "التفسير"؛ ضعيف.

وعن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما؛ قال: احتبس جبريل عن النبي ﷺ، فوجد رسول

=

=

الله ﷺ من ذلك وحزن، فأتاه جبريل، وقال: "يا محمد! {وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا (٦٤)}.

أخرجه الطبري في "جامع البيان" (١٦/ ٧٨) بالسند المسلسل بالعوفيين. وسنده ضعيف جدًا.

وعن مجاهد؛ قال: أبطأت الرسل على رسول الله ﷺ، ثم أتاه جبريل، فقال: "ما حبسك عني؟ "، قال: "كيف نأتيكم وأنتم لا تقصون أظفاركم، ولا تنقون براجمكم، ولا تأخذون شواربكم، ولا تستاكون"، وقرأ: {وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ}.

ذكره السيوطي في "الدر المنثور" (٥/ ٥٣٠) ونسبه لسعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم. وهو ضعيف؛ لإرساله.

* قوله تعالى: {وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ} [مريم: ٦٤].

قال الفراء:"يعني: الملائكة".

قال ابن قتيبة:"قول الملائكة، أو قول جبريل ﷺ".

قال ابن عباس:"هذا الجواب لمحمد ﷺ".

قال مكي:"هذه الآية نزلت لما استبطأ النبي ﷺ الوحي".

قال مجاهد:"أبطأت الرسل على رسول الله ﷺ، ثم أتاه جبريل فقال: «ما حبسك عني؟» قال: كيف نأتيكم وأنتم لا تقصون أظفاركم، ولا تنقون براجمكم، ولا تأخذون شواربكم ولا تستاكون وقرأ {وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ}".

وفي قوله تعالى: {وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ} [مريم: ٦٤]، وجهان:

أحدهما: أنه قول أهل الجنة: إننا لا ننزل موضعًا من الجنة إلا بأمر الله، قاله ابن بحر.

الثاني: أنه قول جبريل عليه السلام. قاله ابن عباس، مجاهد، وقتادة، والضحاك،

=

=

والسدي.

قال مجاهد:"لبث جبرائيل عن محمد اثنتي عشرة ليلة، ويقولون: قلي، فلما جاءه قال: أي جبرائيل لقد رثت علي حتى لقد ظن المشركون كل ظن فنزلت: {وَمَا نَتَنزلُ إِلا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا}".

قال الضحاك:"احتبس عن نبيّ الله ﷺ حتى تكلم المشركون في ذلك، واشتدّ ذلك على نبيّ الله، فأتاه جبرائيل، فقال: اشتدّ عليك احتباسنا عنك، وتكلم في ذلك المشركون، وإنما أنا عبد الله ورسوله، إذا أمرني بأمر أطعته {وَمَا نَتَنزلُ إِلا بِأَمْرِ رَبِّكَ}، يقول: بقول ربك".

قال السدي:"احتبس جبريل عن النبي ﷺ بمكة حتى حزن واشتد عليه، فشكا ذلك إلى خديجة، فقالت خديجة: لعل ربك قد ودعك أو قلاك، فنزل جبريل بهذه الآية: {مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى}، قال: يا جبريل، احتبست عني حتى ساء ظني، فقال جبريل: {وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّك}".

قوله تعالى: {لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ} [مريم: ٦٤]، أي:"له ما بين أيدينا مما يستقبل من أمر الآخرة، وما خلفنا مما مضى من الدنيا، وما بين الدنيا والآخرة، فله الأمر كله في الزمان والمكان".

وفي قوله تعالى: {لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ} [مريم: ٦٤]، وجوه:

أحدها: {مَا بَيْنَ أَيْدِينَا}: من الدنيا، {وَمَا خلْفَنَا}: من الآخرة، {وَمَا بَيْنَ ذلِكَ}، يعني: ما بين النفختين وبينهما أربعون سنة، قاله الربيع، وأبو العالية، وبه قال الفراء.

والثاني: {مَا بَيْنَ أَيْدِينَا}: الآخرة، {وَمَا خلْفَنَا}: الدنيا، {وَمَا بَيْنَ ذلِكَ}، يعني: ما بين الدنيا والآخرة، قاله ابن عباس، والضحاك.

وقال قتادة:"{لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا} مِنَ الآخِرَةِ {وَمَا خَلْفَنَا} مِنَ الدُّنْيَا {وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ}

=

=

ما بين النفختين".

الثالث: {مَا بَيْنَ أَيْدِينَا}، أي: ما مضى أمامنا من الدنيا، {وَمَا خلْفَنَا}: ما يكون بعدنا من الدنيا والآخرة. {وَمَا بَيْنَ ذلِكَ}: ما مضى من قبل وما يكون من بعد، قاله ابن جريج.

الرابع: {مَا بَيْنَ أَيْدِينَا}، قبل أن نخلق {وَمَا خَلْفَنَا}، ما يكون بعد الموت والفناء، {وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ}: حين كنا ومذ خلقنا. وهذا قول الأخفش، وحكاه الطبري.

الخامس: {مَا بَيْنَ أَيْدِينَا}: السماء، {وَمَا خلْفَنَا}: الأرض. {وَمَا بَيْنَ ذلِكَ}، ما بين السماء والأرض. أفاده الماوردي.

قال الطبري:"وأولى الأقوال في ذلك بالصواب، قول من قال: معناه: له ما بين أيدينا من أمر الآخرة، لأن ذلك لم يجئ وهو جاء، فهو بين أيديهم، فإن الأغلب في استعمال الناس إذا قالوا: هذا الأمر بين يديك، أنهم يعنون به ما لم يجئ، وأنه جاء، فلذلك قلنا: ذلك أولى بالصواب. وما خلفنا من أمر الدنيا، وذلك ما قد خلفوه فمضى، فصار خلفهم بتخليفهم إياه، وكذلك تقول العرب لما قد جاوزه المرء وخلفه هو خلفه، ووراءه وما بين ذلك: ما بين ما لم يمض من أمر الدنيا إلى الآخرة، لأن ذلك هو الذي بين ذَينك الوقتين.

وإنما قلنا: ذلك أولى التأويلات به، لأن ذلك هو الظاهر الأغلب، وإنما يحمل تأويل القرآن على الأغلب من معانيه، ما لم يمنع من ذلك ما يجب التسليم له. فتأمل الكلام إذن: فلا تستبطئنا يا محمد في تخلفنا عنك، فإنا لا نتنزل من السماء إلى الأرض إلا بأمر ربك لنا بالنزول إليها، لله ما هو حادث من أمور الآخرة التي لم تأت وهي آتية، وما قد مضى فخلفناه من أمر الدنيا، وما بين وقتنا هذا إلى قيام الساعة، بيده ذلك كله، وهو مالكه ومصرّفه، لا يملك ذلك غيره، فليس لنا أن نحدث في سلطانه أمرا إلا بأمره إيانا به".

=

=

قوله تعالى: {وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا} [مريم: ٦٤]، أي:"وما كان ربك ناسيًا لشيء من الأشياء".

قال الطبري:"يقول: ولم يكن ربك ذا نسيان، فيتأخر نزولي إليك بنسيانه إياك بل هو الذي لا يعزب عنه شيء في السماء ولا في الأرض فتبارك وتعالى ولكنه أعلم بما يدبر ويقضي في خلقه. جلّ ثناؤه".

قال السمعاني:"أي: ما نسيك ربك، ومعنى «نسيك»، أي: تركك".

قال البغوي:"أي: ناسيا، يقول: ما نسيك ربك، أي: ما تركك و «الناسي»: التارك".

عن مجاهد: " {وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا}، ما نسيك ربك".

قال السدي:"ما كان ربك لينساك يا محمد".

أي: ليس لنا من الأمر شيء، إن أمرنا، ابتدرنا أمره، ولم نعص له أمرا، كما قال عنهم: {لا يَعْصُونَ اللهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ} فنحن عبيد مأمورون، {لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ} أي: له الأمور الماضية والمستقبلة والحاضرة، في الزمان والمكان، فإذا تبين أن الأمر كله لله، وأننا عبيد مدبرون، فيبقى الأمر دائرا بين: " هل تقتضيه الحكمة الإلهية فينفذه؟ أم لا تقتضيه فيؤخره "؟ ولهذا قال: {وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا} أي: لم يكن لينساك ويهملك، كما قال تعالى: {مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى} بل لم يزل معتنيا بأمورك، مجريا لك على أحسن عوائده الجميلة، وتدابيره الجميلة.

أي: فإذا تأخر نزولنا عن الوقت المعتاد، فلا يحزنك ذلك ولا يهمك، واعلم أن الله هو الذي أراد ذلك، لما له من الحكمة فيه.

قال الرازي: ثم هاهنا أبحاث:

البحث الأول: قال صاحب «الكشاف» التنزل على معنيين: أحدهما: النزول على

=

=

مهل. والثاني: بمعنى النزول على الإطلاق والدليل عليه أنه مطاوع نزل ونزل يكون بمعنى أنزل وبمعنى التدريج واللائق بمثل هذا الموضع هو النزول على مهل والمراد أن نزولنا في الأحايين وقتا بعد وقت ليس إلا بأمر الله تعالى.

البحث الثاني: ذكروا في قوله: ما بين أيدينا وما خلفنا وما بين ذلك وجوها: أحدها: له ما قدامنا وما خلفنا من الجهات وما نحن فيه فلا نتمالك أن ننتقل من جهة إلى جهة ومن مكان إلى مكان إلا بأمره ومشيئته فليس لنا أن ننقلب من السماء إلى الأرض إلا بأمره. وثانيها: له ما بين أيدينا ما سلف من أمر الدنيا وما خلفنا ما يستقبل من أمر الآخرة وما بين ذلك وما بين النفختين وهو أربعون سنة. وثالثها: ما مضى من أعمارنا وما غير من ذلك والحال التي نحن فيها. ورابعها: ما قبل وجودنا وما بعد فنائنا. وخامسها: الأرض التي بين أيدينا إذا نزلنا والسماء التي وراءنا وما بين السماء والأرض وعلى كل التقديرات فالمقصود أنه المحيط بكل شيء لا تخفى عليه خافية ولا يعزب عنه مثقال ذرة فكيف نقدم على فعل إلا بأمره وحكمه.

البحث الثالث: قوله: وما كان ربك نسيا أي تاركا لك كقوله: ما ودعك ربك وما قلى [الضحى: ٣] أي ما كان امتناع النزول إلا لامتناع الأمر به ولم يكن ذلك عن ترك الله لك وتوديعه إياك، أما قوله: رب السماوات والأرض وما بينهما فالمراد أن من يكون ربا لها أجمع لا يجوز عليه النسيان إذ لا بد من أن يمسكها حالا بعد حال وإلا بطل الأمر فيهما وفيمن يتصرف فيهما، واحتج أصحابنا بهذه الآية على أن فعل العبد خلق الله تعالى، لأن فعل العبد حاصل بين السماء والأرض. والآية دالة على أنه رب لكل شيء حصل بينهما، قال صاحب «الكشاف»: رب السموات والأرض بدل من ربك ويجوز أن يكون خبر مبتدأ محذوف أي هو رب السموات والأرض.

رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا (٦٥).

هو {رب} مالك {السماوات وَالْأَرْض وَمَا بَيْنهمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ} أَيْ اصْبِرْ عَلَيْهَا {هَلْ تَعْلَم لَهُ سَمِيًّا} مُسَمًّى بذلك لا[1].

---

(١) ثم علل سبحانه إحاطة علمه، وعدم نسيانه، بأنه {رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالأرْضِ....}.

قوله تعالى: {رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا} [مريم: ٦٥].

قال أبو الليث السمرقندي:"أي: خالق السموات والارض وما بينهما من الخلق، ويقال: رب السماوات والأرض أي مالكهما وعالم بهما وما فيهما".

قال ابن كثير:"أي: خالق ذلك ومدبره، والحاكم فيه والمتصرف الذي لا معقب لحكمه".

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: لم يكن ربك يا محمد ربّ السماوات والأرض وما بينهما نسيا، لأنه لو كان نسيا لم يستقم ذلك، ولهلك لولا حفظه إياه".

قوله تعالى: {فَاعْبُدْهُ} [مريم: ٦٥]، أي:"فاعبده وحده - أيها النبي -".

قال مقاتل:"يعني: فوحده".

قال الطبري:"يقول: فالزم طاعته، وذلّ لأمره ونهيه".

قوله تعالى: {وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ} [مريم: ٦٥]، أي:"واصبر على طاعته أنت ومَن تبعك".

قال الحسن: "لما فرض عليك".

قال مقاتل:"يقول: واصبر على توحيد الله- ﷻ-، ولا تعجل حتى يأتيك أمري".

قال الطبري:"يقول: واصبر نفسك على النفوذ لأمره ونهيه، والعمل بطاعته، تفز برضاه عنك، فإنه الإله الذي لا مثل له ولا عدل ولا شبيه في جوده وكرمه =

=

وفضله".

قال البغوي:"أي: اصبر على أمره ونهيه".

قال النحاس:"الأصل: «اصتبر»، فثقل الجمع بين التاء والصاد، لاختلافهما فأبدل من التاء طاء، كما تقول من الصوم: اصطام".

قوله تعالى: {هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا} [مريم: ٦٥]، أي:"هل تعلم له شبيهًا ونظيرًا؟".

قال السمعاني:"أي: مثلا، وقال بعضهم: {سميا}، أي: ولدا".

قال أبو عبيدة:"هل تعرف له نظيرا ومثلا".

قال مقاتل:"هل تعلم من الآلهة من شيء اسمه الله- ﷻ-، لأن الله- تعالى ذكره- يمنعهم من ذلك".

قال ابن قتيبة:"أراد - فيما ذكر المفسرون - شبيها. ولو أراد أنه لا يُسَمِّي الله غيره، كان وجها".

قال الطبري:"يقول: هل تعلم يا محمد لربك هذا الذي أمرناك بعبادته، والصبر على طاعته مثلا في كرمه وجوده، فتعبده رجاء فضله وطوله دونه كلا ما ذلك بموجود".

قال الزجاج:"جاء في التفسير: هل تعلم له مثلا، وجاء أيضا: لم يسم بـ «الرحمن» إلا الله ﷻ. وتأويله - والله أعلم - {هل تعلم له سميا} يستحق أن يقال له: خالق وقادر وعالم بما كان وبما يكون، فذلك ليس إلا من صفة الله تعالى".

عن قتادة:"هل تعلم له عدلا". قال يحيى: "أي: من قبل المساماة".

عن ابن عباس، قوله:"{هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا}، يقول: هل تعلم للربّ مثلا أو شبيها".

قال ابن عباس:"ليس أحد يسمى الرحمن غيره".

قال مجاهد:"هل تعلم له شبيها، هل تعلم له مثلا تبارك وتعالى".

=

=

قال مجاهد:"لا سميّ لله ولا عَدل له، كلّ خلقه يقر له، ويعترف أنه خالقه، ويعرف ذلك، تم يقرأ هذه الآية: {وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللهُ}".

قال ابن جريج:"يقول: لا شريك له ولا مثل".

فربوبيته للسماوات والأرض، وكونهما على أحسن نظام وأكمله، ليس فيه غفلة ولا إهمال، ولا سدى، ولا باطل، برهان قاطع على علمه الشامل، فلا تشغل نفسك بذلك، بل اشغلها بما ينفعك ويعود عليك طائله، وهو: عبادته وحده لا شريك له، {وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ} أي: اصبر نفسك عليها وجاهدها، وقم عليها أتم القيام وأكملها بحسب قدرتك، وفي الاشتغال بعبادة الله تسلية للعابد عن جميع التعلقات والمشتهيات، كما قال تعالى: {وَلا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ} إلى أن قال: {وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا} الآية. {هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا} أي: هل تعلم لله مساميا ومشابها ومماثلا من المخلوقين. وهذا استفهام بمعنى النفي، المعلوم بالعقل. أي: لا تعلم له مساميا ولا مشابها، لأنه الرب، وغيره مربوب، الخالق، وغيره مخلوق، الغني من جميع الوجوه، وغيره فقير بالذات من كل وجه، الكامل الذي له الكمال المطلق من جميع الوجوه، وغيره ناقص ليس فيه من الكمال إلا ما أعطاه الله تعالى، فهذا برهان قاطع على أن الله هو المستحق لإفراده بالعبودية، وأن عبادته حق، وعبادة ما سواه باطل، فلهذا أمر بعبادته وحده، والاصطبار لها، وعلل ذلك بكماله وانفراده بالعظمة والأسماء الحسنى.

قال الرازي:...فاعبده واصطبر لعبادته فهو أمر للرسول ﷺ بالعبادة والمصابرة على مشاق التكاليف في الأداء والإبلاغ وفيما يخصه من العبادة فإن قيل لم لم يقل واصطبر على عبادته بل قال واصطبر لعبادته قلنا: لأن العبادة جعلت بمنزلة القرن في قولك للمحارب اصطبر لقرنك أي اثبت له فيما يورد عليك من شداته.

=

=

والمعنى أن العبادة تورد عليك شدائد ومشاق فاثبت لها ولا تهن ولا يضق صدرك من إلقاء أهل الكتاب إليك الأغاليط عن احتباس الوحي عنك مدة وشماتة المشركين بك، أما قوله تعالى: هل تعلم له سميا فالظاهر يدل على أنه تعالى جعل علة الأمر بالعبادة والأمر بالمصابرة عليها أنه لا سمي له، والأقرب هو كونه منعما بأصول النعم وفروعها وهي خلق الأجسام والحياة والعقل وغيرها فإنه لا يقدر على ذلك أحد سواه سبحانه، فإذا كان هو قد أنعم عليك بغاية الإنعام وجب أن تعظمه بغاية التعظيم وهي العبادة، ومن الناس من قال: المراد أنه سبحانه ليس له شريك في اسمه وبينوا ذلك من وجهين: الأول: أنهم وإن كانوا يطلقون لفظ الإله على الوثن فما أطلقوا لفظ الله على شيء سواه وعن ابن عباس ﷺ لا يسمى بالرحمن غيره. الثاني: هل تعلم من سمي باسمه على الحق دون الباطل؟ لأن التسمية على الباطل في كونها غير معتد بها كلا تسمية، والقول الأول هو الصواب والله أعلم.

قال أبو السعود: الآية بيان لاستحالة النسيان عليه تعالى. فإن من بيده ملكوت السموات والأرض وما بينهما، كيف يتصور أن يحوم حول ساحة سبحاته الغفلة والنسيان. وهو خبر محذوف. أو بدل من (ربك). فاعبده واصطبر لعبادته أي اثبت لها على الدوام. وقوله هل تعلم له سميا أي مثلا وكفؤا، فتلتفت إليه وتقبل بوجهك نحوه، فيفيض عليك مطلوبك. والجملة تقرير لوجوب عبادته وحده. أي إذا صح أن لا مثل له، ولا يستحق العبادة غيره، لم يكن بد من التسليم لأمره، والقيام بعبادته، والاصطبار على مشاقها.

(فائدة): تعالى: {رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا (٦٥)} مريم: ٦٥، نجد أن هذه الآية تردُ على بدعتين متقابلتين، وبيان ذلك فيما يلي:

=

=

- أولًا: بيان وجه رد الآية على بدعة التفريط.

في هذه الآية رد على الملاحدة -من الدهرية والفلاسفة- المنكرين لوجود الخالق بقوله: {رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا}؛ فخلقه سبحانه وتعالى للسماوات والأرض، وتفرده بذلك، وكونهما على أحسن نظام وأكمله، ليس فيه غفلة ولا إهمال، ولا يمكن أن يحدث بنفسه، دليلٌ وبرهان قاطع على وجود الخالق وهو: الله الذي لا إله إلا هو رب العالمين، ولا يملك أحد أن يهرب من الاعتراف لخالقه بالقدرة المطلقة والربوبية الحقة.

وقد فرع الله ﷻ على ذلك وجوب عبادته بقوله تعالى: {فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ}؛ لأن كل من أقر بالربوبية، لزمه الإقرار بالعبودية -الألوهية-، والتوجه له في السراء والضراء، وإخلاص العبادة، وإلا صار متناقضًا.

- ثانيًا: بيان وجه رد الآية على بدعة الإفراط.

في هذه الآية رد على من جعلوا الله ربًا، ولكن جعلوا معه شريكًا في الربوبية، وهم طوائف من الملل المختلفة، فرد عليهم ﷻ بقوله: {هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا} لينفي عن نفسه سبحانه السمي: وهو النظير والمثيل. والمعنى: لا أحد يساميه في العلو والعظمة والكمال على التحقيق؛ أي: يشابهه، كما أثر عن ابن عباس ومجاهد وسعيد بن جبير وقتادة وابن جريج وغيرهم.

وفي هذا تنزيه لله تعالى، ودليل على عظمته سبحانه وجلاله؛ فإن نفي الكفء والند والسمي وما في معناها يستلزم ثبوت توحيد الربوبية مع جميع صفات الكمال المطلق على وجه التفرد، وفي هذا رد لمن جعل لله شريكًا في ربوبيته. يقول ابن القيم - رحمه الله -: "نفي الكفء والسمي والمثل عنه كمال؛ لأنه يستلزم ثبوت جميع صفات الكمال له على أكمل الوجوه، واستحالة وجود مشارك له فيها"، فلا ربوبية لغيره، ولا شريك معه في هذا الكون الكبير، فلا أحد يدعي أنه يملك

=

=

خلقه وتدبيره، ومن لا يصلح أن يكون ربا، لا يستحق أن يكون إلها!، ومنهج القرآن مطرد، في تقرير توحيد الإلهية بعد تقرير توحيد الربوبية، لذا نجد أن جملة {هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا} واقعة موقع التعليل للأمر بعبادته والاصطبار عليها.

- ثالثًا: المأخذ الذي انطلقت منه هاتان الطائفتان.

المأخذ الذي انطلقت منه هاتان الطائفتان كان مأخذًا عقليًا استولد لوازم متناقضة التزمت كل فرقة هذه اللوازم، واستدل لها أصحابها بشبهات مركبة من دلائل عقلية ونقلية، وليس الغَرضُ في هذا المقام استقصاء هذه الشبهات واللوازم على وجه التفصيل وإبطالها، بل بيان المستند الذي ارتكز عليه المخالفون في هذا الباب، والذي كان سببًا لانحرافهم في توحيد الربوبية، وجماع شبهتهم تعود إلى: إنكارهم للغيب وإيمانهم بالمحسوسات المجردة.

لأجل ذلك فمن لم ير الله جحد وجوده وآمن بالمحسوسات المادية وهؤلاء هم الملاحدة، فهم ينكرون وجود الله بحجة أن العقل أو العلم ينكره؛ لأنهم يريدون أن يؤمنوا بشيءٍ يمكن لعقولهم أن تصل إليه، أو أن تستدل عليه، قال تعالى: {بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ} يونس: ٣٩.

بينما نجد الذين اعترفوا بوجود الله، وأشركوا معه غيره، ضلوا في علم الغيب كذلك، فآمنوا بالمحسوسات ونزعوا إلى الوثنية في اتّخاذهم الوسائط إلى الله تعالى والتوجّه إليها بالعبادة ولو عن طريق مجاوزة الحدّ في تعظيمها وإضفاء الصفات الإلهية عليها.

والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى إنما أرسل الرسل للبلاغ عن عالم الغيب {عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا (٢٦) إِلَّا مَنِ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ} الجن: ٢٦ - ٢٧، وهو عالم لا يمكن أن تحيط العقول البشرية به علمًا؛ وإنما غاية الأمر أن تستدل عليه وأن تؤمن به وتثبته في الجملة.

=

=

والانحراف الذي وقع فيه الناس في هذه المسألة هو أكبر انحراف وأعظم ضلال؛ فكل من ضل في معرفة الله تبارك وتعالى، وكل من أشرك مع الله تبارك وتعالى غيره، وكل من أنكر الرسل وجحدهم وكذب ما جاءوا به؛ كل ذلك إنما هو لأنه لم يؤمن بالغيب.

لقد أتت هذه الآية للرد على من نفى وجود الله وللرد كذلك على من أشرك مع الله، فدلت بمفهومها على منهج أهل السنة والجماعة وهو: الإيمان والتصديق بكل ما أثبته الله لنفسه أو أثبته له رسوله ﷺ من الأقوال والأفعال والصفات، من دون أن يكون لله ﷻ فيها شريك.

لذلك كانت هذه الآية الكريمة دالةً على أن المذهب الحق ليس هو ما ذهب إليه أصحاب البدع المتقابلة، بل هو ما سعد به أهل السنة والجماعة، من إثبات توحيد الربوبية.

ولا تثبت ربوبية الله إلا بالإيمان بالغيب، الذي يعد علامة من علامات المؤمنين، وأول صفة من صفاتهم {الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ} البقرة: ٣، وهذا مفرق الطريق بينهم وبين الكافرين والملحدين والمنحرفين؛ لأن الإيمان يقتضي ويتضمن القول والعمل وكذلك الاعتقاد والتطبيق والتنفيذ، وكل ذلك يدخل تحت مُسمى الإيمان بالغيب.

وحسبُ الإنسان أن يخرج عن الطريق المستقيم، وعن الجادة؛ لتتشعب به الطرق، ويذهب كل مذهب، وهذا ما حدث لمن لم يؤمن بالله ﷻ .

(فائدة ثانية) ذكر الانحراف المؤدي إلى التفريط في توحيد الربوبية.

والمراد بالتفريط هنا: هو الجَفَاء في معنى الربوبية إما بإنكار ربوبية الله مطلقًا وجحدها، أو بتعطيل الله ﷻ عن خصائص ربوبيته، أو جعلها لغيره مع تعطيل وجوده ﷻ .

=

=

الانحراف المؤدي إلى التفريط في توحيد الربوبية ينقسم إلى نوعين:

- الأول: التعطيل الكلي (الإلحاد): التعطيل الكلي أو المحض: وهو إنكار الخالق، وإنكار صفاته وأفعاله، وإنكار عبادته وشرائعه.

قال ابن القيم - رحمه الله -: "وأهل التعطيل المحض عطلوا الشرائع، وعطلوا المصنوع عن الصانع، وعطلوا الصانع عن صفات كماله، وعطلوا العالم عن الحق الذي خلق له وبه، فعطلوه عن مبدئه ومعاده وعن فاعله وغايته".

وجميع قوادح الربوبية داخلة في الإلحاد، إلا أنها متفاوتة في ذلك، وأعظم الإلحاد في الربوبية هو:

١- الإلحاد المحض وهو إنكار الرب ﷻ.

٢- القول بالاتحاد العامّ (وحدة الوجود)، وهو مستلزم للنفي والتعطيل.

٣- القول بقدم العالم، وهو مستلزم لنفي الصانع.

وفيما يلي إيضاح ذلك:

* المنكرون لوجود الخالق تبارك وتعالى، هم على نوعين:

*النوع الأول: من أنكر أن يكون لهذا الكون إله، وهم على طريقتين: -

أصحاب الطريقة الأولى: الملاحدة - وهم المنكرون لوجود الخالق تبارك وتعالى. وهم فرقتان:

الأولى: الدهريون: القائلون بالجوهر الفرد، وهم جماعة من الفلاسفة يعتقدون أن الكون تَكَون من جواهر مفردة، أي: ذرات صغيرة كانت موجودة تتحرك في الفراغ، ثم بسبب الحركة الوقتية تتجمع فتحدث مظاهر الحياة والوجود.

أصحاب الطريقة الثانية: أصحاب وحدة الوجود: وهم الذين يزعمون بأن الله - تعالى عما يقولون- هو هذا الكون كله، وليس له ذات قائمة بنفسه، بل هو حال في كل شيء، وإن كانوا في حقيقة أنفسهم مقرين بوجود الخالق، إلا أن قولهم يقتضي

=

=

الوصف بالعدم، ولازمه الإنكار، فزعمهم أن هذا الكون هو وجوده وهو ذاته، يجعل الإله الذي أقروا به لا حقيقة له في الخارج أصلًا وإنما هو أمر مطلق في الأذهان، وسيأتي مزيد بيان لهذا.

*النوع الثاني: من أنكر وجود الله مع إثبات إله غيره، وهم على طريقتين أيضًا:

أصحاب الطريقة الأولى: عباد العالم العلوي: وهم من يعتقد بأن إلههم المزعوم في السماء، مثل: مشركي قوم إبراهيم الصابئة -عباد الكواكب-، والفلاسفة الدهرية كابن سينا وأمثالهم، والمجوس "الأصلية" القائلين بالأصلين: النور والظلمة، والثنوية -أصحاب الاثنين الأزليّين-: يزعمون أن النور والظلمة أزليان قديمان، بخلاف المجوس الذين قالوا بحدوث الظلام، والمانوية -أصحاب ماني بن فاتك- القائلين: بأن العَالَمَ مصنوع من أصلين قديمين، والنصيرية: لقولهم بألوهية علي بن أبي طالب - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - وبأنه المتصرف بالكون، وزعمهم بأنه حل في الشمس أو القمر أو السحاب، ووصفهم إياه بأوصاف لا يجوز أن يوصف بها أحد إلا الله ﷻ مع اختلاف أقوالهم في هذا.

أصحاب الطريقة الثانية: عباد العالم السفلي: الذين يعتقدون أن الإله في الأرض، مثل: الدروز المألهون للحاكم بأمر الله العبيدي، والشيوعية والاشتراكية والقومية وغيرها من الاتجاهات الهدامة التي تجددت، والباطنية لتأليههم لبعض الأشخاص، فالنصيرية مثلًا يؤلهون علي بن أبي طالب - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ -، والدروز يؤلهون الحاكم بأمره، والرافضة الإمامية تعتقد في أئمتها شيئًا من ذلك، كذلك بعض المتصوفة يعتقدون في أوليائهم تصريف الكون وشئون الخلق، بل يزعم بعضهم أن من كرامات أوليائهم أنهم يحيون الموتى، كذلك الملاحدة: فهم يؤمنون بإله الصدفة ومحبوبات النفس.

ولا يعتقد هذا الاعتقاد -أي: إنكار الرب - سبحانه وتعالى - إلا من بلغ الغاية في

=

=

الكفر والضلال، للمناقضة الصريحة بين ذلك وبين نصوص الوحي بل والفطرة السليمة والعقل الصريح؛ بل ويعتقد هؤلاء أن الأديان من صنع البشر، وليست من قبل الله ﷻ، ولازم هذا الاعتقاد هو الكفر بالله ورسله وكتبه وبكل المغيبات وكل ما جاءت به الأديان، ويعتبرونها عوائق أمام الإنسان نحو المستقبل، من أجل ذلك اتخذوا الإلحاد مبدأ.

والمنكرون للخالق ﷻ قولهم فاسد بالضرورة، وهذا القول العلم به كافٍ وحده في معرفة بطلانه، ومع ذلك فإن شيخ الإسلام – رحمه الله – ذكر أوجهًا متعددة في بيان فساد قول القائلين بهذا الإلحاد وهي التالي:

١ – أن المنكرين للرب كفرعون وأمثاله وإن أظهروا بألسنتهم إنكار الرب – سبحانه وتعالى – إلا أنهم يقرّون بذلك في نفوسهم، فالفطرة التي في نفوسهم تردّ عليهم ما يظهرونه، وتبين فساد قولهم.

٢ – وكما أنه يعلم فساد قولهم بالضرورة فإنه يعلم أيضًا بالنظر، قال شيخ الإسلام – رحمه الله –: " وهؤلاء يعلم فسد قولهم تارة بالضرورة، وتارة بالنظر من وجوه كثيرة، فإن ما في العالم من الحوادث المشهودة التي تدل على أن محدِثها عالم قدير حكيم، وما في العالم من الحاجة والافتقار الذي يدل على أن جميعه وكلّ جزء منه محتاج مفتقر، وأن جميع ما هو فقير محتاج يفتقر إلى ما هو خارج عنه، وأن الوجود إمّا محتاج، وإما مخلوق أو غير مخلوق، ولا بد للممكن من واجب، وللمحدث من قديم، وللفقير من غني، والمخلوق من خالق غير مخلوق، فيلزم وجود الخالق الغني القديم الواجب بنفسه بالضرورة".

٣ – أن الإقرار بالرب –تبارك وتعالى– معروف عند عامّة الأمم، والكفار أكثرهم لا يجحدون وجود الرب تعالى إلا من شذ من هؤلاء الشرذمة الذين لا يعتدّ بهم، وهم قلّة قليلون لا يذكرون بالنسبة إلى من يقرّ بالرب تعالى.. والإلحاد المعاصر

=

=

وإن كان قد أصبح ظاهرة منتشرة، وهناك دول قامت عليه إلا أن المنكرين إذا قورنوا بالمقرين بالرب من المسلمين واليهود والنصارى وغيرهم فهم قلّة قليلة وحتى الدول التي تبنت الإلحاد ليس كل شعوبها ملاحدة، بل فيهم النصارى وغيرهم من المقرين بالرب.

٤- دلائل الربوبية، كدليل الآيات المشتمل على دليل الحدوث، والافتقار والاشتراك بين المخلوقات، وعدم الاستقلال، والاختلاف بينها، ودليل العناية، كل ذلك رد على هؤلاء الملاحدة.

* القول بالاتحاد العامّ (وحدة الوجود): هذا المذهب من جنس سابقه في عدم إثبات وجود الله ﷻ وجودًا متميزًا عن سائر مخلوقاته، إلا أن من يسمون بالملاحدة أنكروا وجوده جملة وتفصيلًا، أما هؤلاء فقد زعموا أن هذا الكون هو وجوده وهو ذاته، ولم يميزوه عن شيء من المخلوقات - تعالى الله عما يقول الظالمون علوًا كبيرا -.

ووحدة الوجود: عقيدة كثير من غلاة الصوفية وهي قائمة على أن الله والوجود شيء واحد غير منقسم، وأن وجود هذا العالم هو عين وجود الله وهو حقيقة وجود هذا العالم، فليس عندهم رب وعبد ولا مالك ومملوك ولا راحم ومرحوم ولا عابد ولا معبود، فالعابد هو نفس المعبود والرب هو العبد -تعالى الله عن ذلك علوًا كبيرا-.

وقد اتفق سلف الأمة وأئمتها على أن الله ليس كمثله شيء، لا في ذاته، ولا في صفاته، ولا في أفعاله، وأن من شبه الله بخلقه فقد كفر، فكيف من جعله عين المخلوقات، وجعله نفس الأجسام المصنوعات؟ -تعالى الله عن ذلك علوًا كبيرًا-.

وخلاصة أقوال هؤلاء المعطلة، تدور على أحد أصلين:

=

=

١ ـ الأصل الأول: النفي والتعطيل الذي يقتضي الوصف بالعدم، بأن جعلوا الحق لا وجود له، ولا حقيقة له في الخارج أصلًا وإنما هو أمر مطلق في الأذهان.

٢ ـ الأصل الثاني: أن يجعلوا الحق عين وجود المخلوقات، فلا يكون للمخلوقات خالق غيرها أصلًا، ولا يكون رب كل شيء ولا مليكه. وهذا الذي عليه حال أهل وحدة الوجود الاتحادية في أحد حاليهم فهذا حقيقة قول القوم وإن كان بعضهم لا يشعر بذلك.

وانحراف هؤلاء في توحيد الربوبية، تارة يكون في جانب التفريط والجفاء وذلك إذا نظرنا إلى أنهم لا يميزون الخالق بصفات تميزه عن المخلوق، ويقولون: بأن وجود الخالق هو وجود المخلوق؛ فمن هذا الباب هم معطلون للتوحيد.

وتارة يكون في جانب الإفراط، إذا ما نظرنا إلى غلوهم في إثبات توحيد الربوبية إلى حد ما يسميه الصوفية بالفناء، وسبب قولهم بهذا، نفي الصفات، وهو أولّ أمرهم.

* القول المستلزم لنفي الله وهو القول: بقدم العالم:

اهتم شيخ الإسلام – رحمه الله – اهتمامًا بالغًا بالرد على الفلاسفة في قولهم بقدم العالم، وفنَّد حججهم على ذلك، وأكثر – رحمه الله – من عرض أقوالهم في كتبه ومناقشتها، ومناقشة من ردّ عليهم من المتكلمين، إلاّ أنني هنا أقتصر على إبراز هذا النوع من الانحراف وأنه من جانب التفريط في توحيد الربوبية.

القول بقدم العالم من البدعة المنكرة التي أحدثها الفلاسفة المتأرجحون بين شريعة الرحمن وزندقة اليونان، تناقِض توحيد الربوبية بشكل واضح، إذ حقيقتها إنكار وجود الصانع، الخالق للكون، المتقدم عليه، ومعناه عندهم أن العالم ما زال موجودًا مع الله تعالى، ومعلولًا له، ومساوقًا له مساوقة المعلول للعلة، غير متأخر عنه في الزمان.

=

=

ويتضمن هذا القول أن الله تعالى علة تامة مستلزمة للعالم، والعالم متولد عنه تولدًا لازمًا.

وهذا القول باطل عقلًا وشرعًا، لذلك أجمعت طوائف الملل كلها على بطلانه، كما يقول شيخ الإسلام ابن تيمية – رحمه الله –: "القول بقدم العالم قول اتفق جماهير العقلاء على بطلانه، فليس أهل الملة وحدهم تبطله، بل أهل الملل كلهم، وجمهور من سواهم من المجوس وأصناف المشركين: مشركي العرب، ومشركي الهند وغيرهم من الأمم، وجماهير أساطين الفلاسفة كلهم معترفون بأن هذا العالم محدث كائن بعد أن لم يكن، بل وعامتهم معترفون بأن الله خالق كل شيء".

قال شيخ الإسلام ابن تيمية – رحمه الله –:"... والمشهور عن القائلين بقدم العالم أنه لا صانع له فينكرون الصانع جل جلاله...".

وكل قول باطل لا بد له من آثار سيئة، والقول بقدم العالم لما كان من أفسد الأقوال، كانت آثاره السيئة عظيمة السوء، ومن هذه الآثار:

١ – أن الرب ﷻ ليس خالقًا للمحدثات، وأن المحدثات كلّها حدثت بلا محِدث ولا فاعل –وقد عُلم فساد قولهم هذا–، وهذا حقيقة قولهم بقدم العالم ولازم ذلك إنكار المعاد.

قال شيخ الإسلام – رحمه الله –: " إن هؤلاء القائلين بقدم العالم وإن أقرّوا بمبدع العالم فقولهم بالحجة التي يثبتون عليها إثبات مبدع العالم حجة ضعيفة، بل قولهم مستلزم لنفي الصانع".

٢ – إنكار المعاد، بين شيخ الإسلام ابن تيمية – رحمه الله – أن عمدة الفلاسفة في إنكار المعاد هو اعتقادهم قدم العالم، وأنه لا يجوز أن يتغير، وترتب على هذا قولهم بنفي قدرة الله وعلمه ومشيئته وإنكارهم أن يكون خالقًا للمحدثات.

=

=

٣- إنكار واجبات الإسلام ومحرماته، لاعتقادهم أنه لا يوجد ثواب ولا عقاب في الآخرة.

٤- القول بقدم العالم يستلزم تسلسل العلل والفاعلين، وهو باطل بصريح العقل واتفاق العقلاء؛ وذلك لأن العلّة التامة لا يتأخر عنها معلولها، والمشاهد أن المخلوقات حادثة متأخرة عن معلولها، فيلزم ألا يكون شيء من الحوادث حادثا عن العلة التامة التي هي واجب الوجود (الله) فإما أن تكون الحوادث حادثة بنفسها، وهذا فاسد، وإما أن تكون من فاعل آخر غير الله وهذا فاسد أيضًا.

والقائلون بقدم العالم هم الفلاسفة من أرسطو ومن بعده، وأمَّا أساطين الفلاسفة قبل أرسطو فلم يكن منهم من قال بقدم العالم، وأما أتباع أرسطو المنتسبون إلى الإسلام كابن سينا وأمثاله فهم يقولون ما يعلم جماهير العقلاء أنه مخالف لضرورة العقل: إذ يثبتون مفعولًا ممكنا يمكن وجوده ويمكن عدمه، وهو مع هذا قديم أزلي لم يزل ولا يزال، وهو مفعول معلول لعلة فاعلة لم يزل مقارنًا لها مقارنة المعلول لعلته التامة... وإثبات ابن سينا لمفعول ممكن يمكن وجوده ويمكن عدمه وهو مع هذا قديم أزلي جمع بين النقيضين، والفطرة ترد ذلك ولا تقبله، وجماهير العقلاء من أهل الملل والفلاسفة حتى أرسطو وأتباعه القدماء على أن الممكن الذي يقبل الوجود والعدم لا يكون إلا محدثًا، وأما القديم فلا يكون عندهم ممكنًا يقبل الوجود والعدم.

- الثاني: التعطيل الجزئي:

التعطيل الجزئي: هو إثبات وجود الله ﷻ مع تعطيله عن لوازم ربوبيته، أو عن بعضها. وهو ذريعة إلى التعطيل الكلي، وفيما يلي بيان لبعض الأوجه العامة لهذا التعطيل:

- تعطيل الله ﷻ عن أسمائه وصفاته أو عن بعضها:

=

=

الإيمان بالربوبية لا يتم إلاّ بالإيمان بصفاته تعالى والخلل في إثبات صفات الله يؤدي إلى الخلل في إثبات الربوبية من خلال بيان ما يلي:

١- أنه لولا ثبوت صفات لله تعالى لم يكن ربًا خالقًا.

٢- أن ما كان منفي الصفات لم يكن إلا معدومًا.

٣- أن نفي الصفات مستلزم ومتضمن لنفي الذات.

٤- أن من أسباب الانحراف في الربوبية نفي الصفات.

٥- أن قول نفاة الصفات مأخوذ من المنحرفين في الربوبية.

٦- أن حقيقة قول نفاة الصفات هو جحد الخالق.

وما يهمنا هو: أن من أسباب الانحراف في الربوبية نفي الصفات؛ لأنه لما كان الاعتراف بالربوبية لا يتم إلا بالإيمان بصفاته تعالى، كان نفي صفات الله تعالى من أسباب الانحراف في باب الربوبية، وبهذا يتبين سبب انحراف كثير من الفرق.

كما أن قول نفاة الصفات مأخوذ من المنحرفين في الربوبية، قال شيخ الإسلام ابن تيمة - رحمه الله -: " والجهمية نفاة الصفات الذين هم رؤوس أهل الكلام المذموم قولهم مأخوذ من قول خصمائه (أي إبراهيم - عليه السلام - وخصمائه الصابئة) كما هو مأخوذ من قول فرعون خصم موسى - عليه السلام - فإن فرعون أظهر جحد الصانع وعلوه على خلقه، وجحد تكليمه لموسى، وقوم إبراهيم كانوا مشركين كما أخبر الله ﷻ عنهم بذلك، وكان فيهم من هو معطل، كما ذكر تعالى ذلك. والفلاسفة القائلون بدعوة الكواكب: فيهم المشرك، وفيهم المعطل. ونفي الصفات من أقوالهم، فمنهم من لا يثبت لهذا العالم المشهود ربًا أبدعه، كما هو قول الدهرية الطبيعية منهم، ويجعلون العالم نفسه واجب الوجود بذاته، ومنهم من يثبت له مبدعًا واجبًا بنفسه أبدعه، كما هو قول الدهرية الإلهية منهم، ويقولون: إن الواجب ليس له صفة ثبوتية، بل صفاته: إما سلب، وإما إضافة، وإما

=

=

مركبه منهما، وكان الجعد بن درهم من أهل حرَّان. وكان فيهم بقايا من الصابئين والفلاسفة، خصوم إبراهيم الخليل - عليه السلام -، فلهذا أنكر تكليم موسى وخلة إبراهيم، موافقة لفرعون والنمرود، بناءً على أصل هؤلاء النفاة، وهو أن الرب تعالى لا يقوم به كلام، ولا يقوم به محبة لغيره، فقتله المسلمون، ثم انتشرت مقالته فيمن ضلَّ من هذا الوجه".

والمدقق النظر في معطلة الأسماء والصفات أو بعضها، يرى أن أقوالهم تفضي إلى إنكار الخالق؛ لأن الذي لا صفات له لا وجود له، ولا يمكن معرفته.

* تعطيل الله عن كماله المقدس: من التفريط في توحيد الربوبية تعطيل كمال الله ونسبة النواقص إليه؛ لأن الإيمان بالله تعالى مبني على التعظيم والإجلال للرب ﷻ.

ولا شك أن كل من أثبَت لغير الله ﷻ أفعالًا وأعمالًا تتعلق بكماله وقدرته التي لا يمكن أن تكون من غيره سبحانه - مثل القدرة على الخلق والإيجاد، والقدرة على إحياء الموتى، والقدرة على إنزال المطر، وعلى شفاء الأمراض، وعلى الهداية التوفيقية، وعلى حفظ العالم من الدمار، والقدرة على النفع والضر، وعلى الإنقاذ من عذاب القبر، وعلى غفران الذنوب ومحو الخطايا من الصحف، وعلى إجابة الدعاء واستماع ندائهم. -، فقد عطل الله عن كماله وأشرك في صفته "القدرة الكاملة"؛ لأن ملا يكون في مقدور البشر أن يفعلوه فهو من خصائص الربوبية.

وما فِعْلُ كثيرٍ من الطوائف والفرق والديانات والنحل إلا تعطيل لكمال الله المقدس؛ لذلك فإنهم لم يوفوا الربوبية حقها، حيث يعتقد الرافضة- مثلًا- في أئمتهم أنهم يعلمون الغيب، وتخضع لهم ذرات الكون ونحو ذلك، وكذلك يعتقد الباطنية والصوفية في أوليائهم نحو ذلك، كما أن القدرية أخرجوا أفعال المخلوق

=

=

عن أن تكون مخلوقة لله فعطلوا هذه الحوادث عن خالق لها، وغير ذلك من اعتقاد بعض الفرق في تأثير وتصرف غير الله تعالى، من الأبراج والكواكب ومساراتها ومواقعها على حياة الناس، أو اعتقاد أن المخلوق يمكنه أن يرزق المخلوق، أو يمنع عنه الرزق، أو يمكنه أن يضر، أو ينفع من دون الله تعالى، أو اعتقاد حلول الله تعالى في خلقه، أو أن الله في كل مكان، أو اعتقاد التوفيق في حياة العبد من ذكائه، أو جهده واجتهاده، وغيرها من الاعتقادات التي تناقض الإيمان وتبطله.

كما أن تمثيل الخالق بالمخلوق فيما يختص بالمخلوق من صفات النقص التي يجب تنزيه الرب عنها، أنه تعطيل لكمال الله المقدس. وهذا ما وقع من اليهود حيث قالوا: إن الله فقير، وقالوا: يد الله مغلولة، وقالوا: إنه تعب من الخلق فاستراح يوم السبت وغير ذلك. ووقع أيضًا من الجهمية النفاة فإنهم قالوا: إن الله تعالى لا يتكلم ولا يحب ونحو ذلك من نفيهم.

وهؤلاء الطوائف ضلوا في مباحث التوحيد التي هي أشرف المباحث وأعلاها، فلم يهتدوا إلى معرفة توحيد الله {وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ (٤٠)} النور: ٤٠، وضلال ما ذهبوا إليه واضح وضوح الشمس.

تعطيل الله عن إفراده بالألوهية: يرتبط الانحراف في توحيد الألوهية بالانحراف في الربوبية؛ لأن توحيد الربوبية هو أحد أنواع التوحيد الثلاثة كما تقدم؛ ولذا فإنه لا يصح إيمان أحد ولا يتحقق توحيده إلا إذا وحد الله في ربوبيته، لكن هذا النوع من التوحيد ليس هو الغاية من بعثة الرسل - عليهم السلام -، ولا ينجي وحده من عذاب الله ما لم يأت العبد بلازمه توحيد الألوهية؛ لأن توحيد الربوبية هو مقام الجمع بين المخلوقات والفرق بينهم لا يتحقق إلا بالأمر والنهي، وهو متعلق الألوهية.

=

=

ولذا يقول الله تعالى {وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ (١٠٦)} يوسف: ١٠٦، والمعنى أي: ما يقر أكثرهم بالله ربًا وخالقًا ورازقًا ومدبرًا- وكل ذلك من توحيد الربوبية- إلا وهم مشركون معه في عبادته غيره من الأوثان والأصنام التي لا تضر ولا تنفع، ولا تعطي ولا تمنع.

ومن لم يحقق توحيد الربوبية فقد قصر وتنقص موجب ربوبيته - سبحانه وتعالى -، ولهذا فإن جمهور القدرية لما أخرجوا مشيئة العبد وفعله عن مشيئة الله وخلقه أرادوا إثبات إلهيته، وأنه معبود محمود حكيم عادل فقصروا في ذلك ونقصوه موجب ربوبيته وقدرته ومشيئته؛ كذلك فرعون لما أنكر ربوبية الله تعالى لم يوف الألوهية حقها، فإنه لم يعبد الله البته، إذ كيف يعبده وهو ينكره أصلًا، والاتحادية لما قالوا باتحاد الخالق بالمخلوق فضلوا بذلك في توحيد الربوبية لم يوفوا الألوهية حقها، فعبدوا كل شيء؛ لأنهم يرون أن كل موجود هو الله.

وهذا يبين أهمية توحيد الربوبية من جهة، والحذر من الوقوع في قوادح الربوبية من جهة أخرى؛ ولهذا كانت عناية أهل السنة والجماعة بهذا النوع من التوحيد فقد توسطوا أهل البدع المتقابلة، ومن ترك الحق من أهل البدع ابتلي بالباطل، وبعدد لوازم توحيد الربوبية نجد من عطلها أو أشرك فيها.

وسيأتي للحديث بإذن الله تعالى مزيد بيان عن الانحراف في توحيد الألوهية في المبحث القادم.

المطلب الثاني: الانحراف المؤدي إلى الإفراط في توحيد الربوبية.

والمراد بالإفراط هنا هو توسيع معنى الربوبية والمبالغة فيها لتشمل غير الله، مع عدم تعطيل وجوده ﷻ.

إن المتأمل للطوائف والفرق والملل التي أفرطت في حقيقة الربوبية، يجد أنها على أقوال شتى متفرقة، إلا أنه يجمعها بعض الأصول وإن كانوا يتفرقون كثيرًا عند

=

=

التفريعات، وهي:

الأصل الأول: بالنظر إلى ذات الرب - سبحانه وتعالى -: ويكون إما بإرادة تعظيم الله ﷻ بغير ما أخبر عن نفسه العلية أو أخبر عنه رسوله ﷺ، أو بالتأثر باعتقادات الديانات السابقة المنحرفة في الذات الإلهية، ويشمل هذا إثبات الوجود الذهني لله ﷻ، واعتقاد إله مماثل لله أو أكثر.

الأصل الثاني: بالنظر إلى المخلوقين: باعتقاد أن أحدًا يسعه الوصول إلى الصفات الإلهية ومشاركة الرب.

ويرجع ضلالهم في هذا الباب إلى ما يلي:

١- الكفر والبعد عن نور الشرع، كما حصل لفرعون والنمرود والشيوعية والمجوس والملاحدة بشكل عام.

٢- تأثر بعض المسلمين بالفلاسفة وآرائهم الكلامية؛ وذلك بصرفهم لظواهر النصوص إما بتعطيلها وإما بتأويلها؛ لأنهم لا يرونها تفيد اليقين، وإنما الذي يفيد اليقين هو قواعد المنطق وعلم الكلام.

٣- جعل ظواهر النصوص دالة على تشبيه الخالق بالمخلوق، ووجه ذلك أنهم يشاهدون المخلوقات الحادث متصفةً بالصفات المضافة إلى الله تعالى في النصوص، فتكون ظواهر النصوص دالة على التشبيه عندهم.

وبناء على الأصلين السابقين، والتي بسببهما يحدث الإفراط في توحيد الربوبية، نستطيع أن نحدد الأُطر التي أوقعت أهل البدع في هذا الانحراف، وهي تنحصر في ثلاثة أجناس لا يزال أهل البدع يجددون في صورها وهي:

- أولًا: (مشاركة الرب في بعض خصائص ربوبيته):

وهو اعتقاد متصرف مع الله ﷻ في أي شيء، من تدبير الكون - من إيجاد، أو إعدام، أو إحياء، أو إماتة، أو جلب خير، أو دفع شر، أو غير ذلك من معاني

=

=

الربوبية-، أو اعتقاد منازع له في شيء من مقتضيات أسمائه وصفاته، كعلم الغيب، أو كالعظمة، والكبرياء، ونحو ذلك.

والناظر لأهل البدع يجد أنهم واقعون في هذا الملحظ الخطر، فنجد أن الرافضة الاثني عشرية وغلاة الصوفية يزعمون أن الأئمة والأقطاب يعلمون جميع العلوم التي خرجت إلى الملائكة والأنبياء والرسل، وأنهم يعلمون علم ما كان وما يكون، وأنهم لا يخفى عليهم شيء، وأنهم لا يحجب عنهم علم السماء والأرض، والجنة والنار.

كما نجد أن المتصوفة القائلين بالغوث والقطب والأوتاد، والأبدال أنها تصرفهم كما يدعون. ويلتحق بهم من يعتقدون تأثير النجوم والكواكب والأسماء والهياكل والجن.

كذلك شرك القدرية (مجوس هذه الأمة) القائلين بأن كل إنسان يخلق فعل نفسه، هم في الحقيقة مشركون في الربوبية، وهذا لازم لمذهبهم؛ لأنهم يرون أن الإنسان خالقٌ لفعله، فهم أثبتوا لكل أحد من الناس خَلْقَ فعله. والخلق إنما هو مما اختص الله به، قال تعالى: {وَاللهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ (٩٦)} الصافات: ٩٦، وأفعال العباد لا يخرجها شيء من عموم خلقه ﷻ.

كذلك فإننا نجد أن النصارى غلوا في المسيح فقالوا: إنه رب العالمين، وخالق السموات والأرض، وإنه بكل شيء عليم، وعلى كل شيء قدير.

ما وقع من هذه الطوائف من تعظيم الأنبياء والصالحين تعظيم ربوبية، ومن يظن أنه من الصالحين لا شك أنه من الكفر الصريح ومن قوادح الربوبية؛ لأنه تمثيل للمخلوق بالخالق فيما هو من الكمال الذي لا يستحقه إلا الله تعالى، ووصف المخلوق به منازعة للربوبية، ومضاهاة لها، وتسوية بين الله وبين الخلق.

وقد قرر شيخ الإسلام - رحمه الله - أن تنزيه الرب تعالى يرجع إلى أصلين:

=

=

١- تنزيهه عن النقص المناقض لكماله.

٢- وتنزيهه عن أن يماثله شيء من المخلوقات في شيء من صفاته.

- ثانيًا: (إثبات الوجود الذهني لله ﷻ):

يثبت البعض وجود الرب - سبحانه وتعالى -، كما تتوهمه عقولهم وليس كما أخبرنا سبحانه عن نفسه، فالأصل الصحيح في باب الإيمان بالله أن يكون كما أخبرنا سبحانه عن نفسه، وليس كما تتوهم عقول البشر. ومن هذه الإثباتات الخيالية:

- أن يُجعل وجوده ﷻ وجودًا مطلقًا بشرط الإطلاق، وهو قول الجهمية ومن وافقهم من القرامطة، وغيرهم، فقد نفوا عن الله ﷻ الوجود الخارجي ولوازمه، إذ الوجود المطلق لا يكون إلا في الأذهان دون ما خرج عنها، ولازم هذا القول نفي وجود الباري ﷻ تعالى الله عما يقول الظالمون علوا كبيرًا-؛ لأن معنى كلامهم هذا أنه شيء خيالي لا وجود له في الخارج.

ومنشأ ضلالهم: هو عدم تفريقهم بين الوجود المجرد في الذهن ووجوده في الخارج، فإن الوجود المجرد ليس بشيء في الخارج.

- منهم من جعل وجود الخالق هو عين وجود المخلوقات، ولم يفرقوا بين الوجودين، وهو أبعدها، "إذ لا شيء أبعد عن مماثلة شيء، أو أن يكون إياه، أو متحدًا به، أو حالًا فيه، من الخالق مع المخلوق". وعلى هذا كثير من أرباب التصوف، والزهد، والعبادة. فعطلوا الله ﷻ عن أن يكون رب العالمين، ولم يفرقوا بين رب، وعبد. والقول بالحلول يلزم منه القول بافتقار الله إلى العالم، وهو باطل، وهذا المذهب من جنس سابقه في عدم إثبات وجود الله ﷻ وجودًا متميزًا عن سائر مخلوقاته.

قال شيخ الإسلام - رحمه الله -: إن تصور مذهب هؤلاء كاف في بيان فساده، لا

=

=

يحتاج مع حسن التصور إلى دليل آخر. واتفق سلف الأمة وأئمتها: أن الله ليس كمثله شيء، لا في ذاته، ولا في صفاته، ولا في أفعاله، وقال من قال من الأئمة: من شبه الله بخلقه فقد كفر، فكيف من جعله عين المخلوقات، وجعله نفس الأجسام المصنوعات؟ فتعالى الله عن ذلك علوًا كبيرًا.

- ثالثًا: (اعتقاد إلهين متماثلين أو أكثر):

ليس في الأمم من أثبت لله ﷻ قديمًا مماثلًا له في ذاته سواء قال: إنه يشاركه، أو قال: إنه لا فعل له، بل من شبه به شيئًا من مخلوقاته فإنما يشبهه في بعض الأمور، وقد علم بالعقل امتناع أن يكون له مثل في المخلوقات يشاركه فيما يجب أو يجوز أو يمتنع عليه؛ لأن ذلك يستلزم الجمع بين النقيضين... وعلم أيضًا بالعقل أن كل موجودين قائمين بأنفسهما فلا بد أن يكون بينهما قدر مشترك كاتفاقهم في مسمى الوجود، والقيام بالنفس، والذات، ونحو ذلك فإن نفي ذلك يقتضي التعطيل المحض.

إلا أن هناك من اعتقد بوجود إلهين قادرين أو أكثر، كشرك النصارى الذين اتخذوا معه أربابا، فجعلوه ثالث ثلاثة؛ وشرك المجوس القائلين بأن للعالم ربين فأسندوا حوادث الخير إلى النور، وحوادث الشر إلى الظلمة، ومن قالوا بقدم العالم: يعني أن الله تعالى لم يخلق هذا العالم، بل لم يزل ولا يزال معه.

التعطيل والإشراك لازمان لكل من أثبت فاعلًا مستقلًا غير الله، فالقدرية أثبتوا فاعلًا مستقلًا غير الله فقالوا: إن العبد يخلق فعله، فلزمهم بهذا القول التعطيل والشرك؛ أما التعطيل فبإخراج أفعال العباد عن خلق الله، وأما الشرك فبإثباتهم شركاء لله يفعلونها، وهم العباد أنفسهم. كذلك الفلاسفة أثبتوا فاعلًا مستقلًا غير الله فقالوا: إن الفلك هو المحدث للحوادث التي في الأرض كلّها، فلزمهم بهذا القول التعطيل والشرك؛ أما التعطيل فلأنهم لم يجعلوا لله شيئًا أحدثه، وأما الشرك

=

وَيَقُولُ الْإِنْسَانُ أَإِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا (٦٦).

{ويقول الإنسان} المنكر للبعث أبي بن خَلَف أَوْ الْوَلِيد بْن الْمُغِيرَة النَّازِل فِيهِ الْآيَة {أَئِذَا} بِتَحْقِيقِ الْهَمْزَة الثَّانِيَة وَتَسْهِيلهَا وَإِدْخَال أَلِف بَيْنهَا بِوَجْهَيْهَا وَبَيْن الْأُخْرَى {مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَج حَيًّا} مِنْ الْقَبْر كَمَا يَقُول مُحَمَّد فَالِاسْتِفْهَام بِمَعْنَى النَّفْي أَيْ لَا أَحْيَا بَعْد الْمَوْت وَمَا زَائِدَة لِلتَّأْكِيدِ وَكَذَا اللَّام ورد عليه بقوله تعالى.

أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا (٦٧).

{أو لا يَذْكُر الْإِنْسَان} أَصْله يَتَذَكَّر أُبْدِلَتْ التَّاء ذَالًا وَأُدْغِمَتْ فِي الذَّال وَفِي قِرَاءَة تَرْكهَا وَسُكُون الذَّال وَضَمّ الْكَاف {أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْل وَلَمْ يَكُ شَيْئًا} فَيُسْتَدَلّ بِالِابْتِدَاءِ عَلَى الْإِعَادَة.

فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا (٦٨).

{فَوَرَبِّك لَنَحْشُرَنَّهُمْ} أَيْ الْمُنْكِرِينَ لِلْبَعْثِ {وَالشَّيَاطِين} أَيْ نَجْمَع كُلًّا مِنْهُمْ وَشَيْطَانه فِي سِلْسِلَة {ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْل جَهَنَّم} مِنْ خَارِجهَا {جِثِيًّا} عَلَى الرُّكْب جَمْع جَاثٍ وَأَصْله جُثُوو أَوْ جُثُوي مِنْ جَثَا يَجْثُو أَوْ يَجْثِي لُغَتَانِ.

ثُمَّ لَنَنْزِعَنَّ مِنْ كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَنِ عِتِيًّا (٦٩).

{ثُمَّ لَنَنْزِعَنَّ مِنْ كُلّ شِيعَة} فِرْقَة مِنْهُمْ {أَيّهمْ أَشَدّ عَلَى الرَّحْمَن عِتِيًّا} جَرَاءَة.

ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلَى بِهَا صِلِيًّا (٧٠).

{ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَم بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلَى بِهَا} أَحَقّ بِجَهَنَّم الْأَشَدّ وَغَيْره مِنْهُمْ {صِلِيًّا} دُخُولًا وَاحْتِرَاقًا فَنَبْدَأ بِهِمْ وَأَصْله صُلُوي مِنْ صَلِيَ بِكَسْرِ اللَّام

=

فإنهم قالوا: إن الفلك هو المحدث للحوادث التي في الأرض كلِّها.

وَفَتْحهَا.

وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا (٧١).

{وَإِنْ} أَيْ مَا {مِنْكُمْ} أَحَد {إِلَّا وَارِدهَا} أَيْ دَاخِل جَهَنَّم {كَانَ عَلَى رَبّك حَتْمًا مَقْضِيًّا} حَتَمَهُ وَقَضَى بِهِ لَا يَتْرُكهُ.

ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا (٧٢).

{ثُمَّ نُنَجِّي} مُشَدَّدًا وَمُخَفَّفًا {الَّذِينَ اتَّقَوْا} الشِّرْك وَالْكُفْر مِنْهَا {وَنَذَر الظَّالِمِينَ} بِالشِّرْكِ وَالْكُفْر {فِيهَا جِثِيًّا} عَلَى الرُّكَب[1].

---

(١) يخبر تعالى عن الإنسان أنه يتعجب ويستبعد إعادته بعد موته، كما قال تعالى: {وإن تعجب فعجب قولهم أئذا كنا ترابا أئنا لفي خلق جديد} [الرعد: ٥]، وقال: {أولم ير الإنسان أنا خلقناه من نطفة فإذا هو خصيم مبين * وضرب لنا مثلا ونسي خلقه قال من يحيي العظام وهي رميم * قل يحييها الذي أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم} [يس: ٧٧-٧٩]، وقال هاهنا: {ويقول الإنسان أئذا ما مت لسوف أخرج حيا * أولا يذكر الإنسان أنا خلقناه من قبل ولم يك شيئا} يستدل، تعالى، بالبداءة على الإعادة، يعني أنه، تعالى قد خلق الإنسان ولم يك شيئا، أفلا يعيده وقد صار شيئا، كما قال تعالى: {وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه} [الروم: ٢٧]، وفي صحيح البخاري: "يقول الله تعالى: كذبني ابن آدم ولم يكن له أن يكذبني، وآذاني ابن آدم ولم يكن له أن يؤذيني، أما تكذيبه إياي فقوله: لن يعيدني كما بدأني، وليس أول الخلق بأهون علي من آخره، وأما أذاه إياي فقوله: إن لي ولدا، وأنا الأحد الصمد، الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد".

قوله تعالى: {وَيَقُولُ الْإِنْسَانُ أَإِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا (٦٦)} [مريم: ٦٦].

قال الطبري: "يقول تعالى ذكره: {وَيَقُولُ الإِنْسَانُ} الكافر الذي لا يصدق بالبعث =

=

بعد الموت: أخرج حيا، فأُبعث بعد الممات وبعد البلاء والفناء؟! إنكارا منه ذلك".

قال مقاتل:"يقول ذلك تكذيبا بالبعث".

قال الزجاج:"يعنى بهذا: الكافر الذي لا يؤمن بالغيب خاصة، ومت ومت".

قال الواحدي:"يعني: أُبيَّ بن خلف، يقول: هذا استهزاءً وتكذيبًا بالبعث يقول: لسوف أخرج حيًّا من قبري بعد ما مت!؟".

قال يحيى:"هذا المشرك يكذب بالبعث وقد ذكروا أنه قول أبي بن خلف للنبي ﷺ حيث جاء بعظم نخر ففته بيده ثم قال: يا محمد أيحيي الله هذا؟".

قال زيد بن أسلم:"وذلك في الذين ينكرون البعث".

قرأ الحسن وأبو حيوة: «أَخْرُجُ»، بالفتح، والجمهور بضم الهمزة.

وقد ذكر كثير من المفسرين أن قوله- تعالى-: وَيَقُولُ الْإِنْسانُ ... نزل في أشخاص معينين.

فمنهم من يرى أن هذه الآية نزلت في أبى بن خلف، من يرى أنها نزلت في الوليد بن المغيرة، أو في العاصي بن وائل، أو في أبى جهل. ولا يصح من ذلك شئ.

وعلى كل واحد من هذه الأقوال تكون أل في الإنسان للعهد، والمراد بها أحد هؤلاء الأشخاص، ويكون لفظ الإنسان من قبيل العام الذي أريد به الخصوص.

ومن الأساليب العربية المعروفة، إسناد الفعل إلى المجموع، مع أن فاعله بعضهم لا جميعهم كما يقال: بنو فلان قتلوا فلانا مع أن القاتل واحد منهم، ومن هذا القبيل قول الفرزدق:

فسيوف بنى عبس وقد ضربوا به ... نبت بيدي ورقاء من رأس خالد

فقد أسند الضرب إلى بنى عبس، مع أنه صرح بأن الضارب هو ورقاء الذي كان السيف بيده.

=

=

وقيل: المراد بالإنسان هنا: جماعة معينون وهم الكفرة المنكرون للبعث أو المراد: جنس الكافر المنكر للبعث، وهو الصواب.

و «إذا» في قوله: أَإِذا ما مِتُّ منصوب بفعل مضمر دل عليه جزاء الشرط.

والمعنى: ويقول هذا الإنسان الجاهل الجحود، المنكر للبعث والنشور، أأعود للحياة مرة أخرى بعد موتى، وبعد أن أكون كالعظام النخرة.

والاستفهام للإنكار والنفي، وعبر- سبحانه- بالمضارع يَقُولُ لاستحضار تلك الصورة الغريبة، وتلك الأقوال المنكرة التي صدرت عن هذا الكافر، أو لإفادة أن هذا القول موجود ومستمر عند كثير من الكافرين.

وقد رد الله- تعالى- عليهم بما يبطل قولهم، ويخرس ألسنتهم فقال: أَوَلا يَذْكُرُ الْإِنْسانُ أَنَّا خَلَقْناهُ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا. والاستفهام للتوبيخ والتقريع، والواو للعطف على مقدر.

قوله تعالى: {أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا (٦٧)} [مريم: ٦٧]

قال مقاتل:"يقول الله- ﷻ- يعظه ليعتبر: {أولا يذكر الإنسان}، يقول: أو لا يتذكر الإنسان في خلق نفسه {أنا خلقناه أول مرة}، يعني: أول خلق خلقناه {من قبل} ولم يك شيئا-".

قال الطبري:"يقول الله تعالى ذكره: {أَوَلا يَذْكُرُ الإنْسَانُ} المتعجب من ذلك المنكر قدرة الله على إحيائه بعد فنائه، وإيجاده بعد عدمه في خلق نفسه، أن الله خلقه من قبل مماته، فأنشأه بشرًّا سويا من غير شيء {وَلَمْ يَكُ} من قبل إنشائه إياه {شَيْئًا}، فيعتبر بذلك ويعلم أن من أنشأه من غير شيء لا يعجز عن إحيائه بعد مماته، وإيجاده بعد فنائه".

قال يحيى:"فالذي خلقه ولم يك شيئا قادر على أن يبعثه يوم القيامة".

=

=

قال الواحدي:"{أولا} يتذكَّر ويتفكَّر هذا {الإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شيئًا} فيعلم أنَّ مَنْ قدر على الابتداء قدر على الإعادة".

قال الزجاج:"أعلم الله ﷻ أن إعادة الخلق مثل ابتداء خلقهم، وهذا كما قال: {وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَه} [يس: ٧٨]، الآية، فكان الجواب: {قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّة} [يس: ٧٩]".

وقرئ: «أو لا يَذَّكَّرُ»، بتشديد الذال والكاف، بمعنى: أو لا يتذكر. قال الطبري: "والتشديد أعجب إليّ، وإن كانت الأخرى جائزة، لأن معنى ذلك: أو لا يتفكر فيعتبر".

والمعنى: أيقول هذا الإنسان ذلك القول الباطل، ولا يتذكر أننا أوجدناه بقدرتنا من العدم ولم يكن شيئا مذكورا، ومن المعروف عند العقلاء، أن إعادة الإنسان إلى الحياة بعد وجوده، أيسر من إيجاده من العدم.

فالآية الكريمة ترد على كل جاحد للبعث بدليل منطقي برهاني، يهدى القلوب إلى الحق، ويقنع العقول بأن البعث حق وصدق.

وفي معنى هذه الآية الكريمة جاءت آيات أخرى كثيرة منها قوله- تعالى- وَضَرَبَ لَنا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ، قالَ مَنْ يُحْيِ الْعِظامَ وَهِيَ رَمِيمٌ، قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَها أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ...

وقوله- سبحانه-: وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولى فَلَوْلا تَذَكَّرُونَ.

ثم عقب- سبحانه- على هذا التوبيخ والتقريع لهذا الإنسان الجاحد، بقسم منه- سبحانه- على وقوع البعث والنشور، فقال: فَوَ رَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّياطِينَ، ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا.

والحشر: الجمع. يقال: حشر القائد جنده، إذا جمعهم.

قوله تعالى: {فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ} [مريم: ٦٨].

=

=

قال يحيى:"ثم أقسم بنفسه فقال: {فوربك لنحشرنهم}، يعني: المشركين، {والشياطين} الذين دعتهم إلى عبادة الأوثان".

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: فوربك يا محمد لنحشرنّ هؤلاء القائلين: أئذا متنا لسوف نخرج أحياء يوم القيامة من قبورهم، مقرنين بأوليائهم من الشياطين".

قال الزجاج:"أي: فوربك لنبعثنهم ولنحشرنهم مع الشياطين الذين أغووهم".

قال الواحدي:"يعني: منكري البعث {والشياطين} قرناءهم الذين أضلوا".

قوله تعالى: {ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا} [مريم: ٦٨]، أي:"ثم لنأتين بهم أجمعين حول جهنم باركين على رُكَبهم؛ لشدة ما هم فيه من الهول، لا يقدرون على القيام".

قال السمعاني:"{حَوْلَ جَهَنَّمَ}: هو عين جهنم".

قال يحيى:"وهذا قبل دخولهم النار".

وفي تفسير قوله تعالى: {جِثِيًّا} [مريم: ٦٨]، خمسة أقوال:

أحدها: قعودًا، رواه العوفي عن ابن عباس.

قال ابن عباس:"يعني: القعود، وهو مثل قوله: {وَتَرَى كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً}".

الثاني: جماعات جماعات، وروي عن ابن عباس -أيضًا-، والكلبي، والأخفش.

وعلى هذا القول: «الجُثَي»: جمع: جَثْوَة وجُثْوَة، وهي: المجموع من التراب والحجارة، ومنه قول طرفة:

تَرَى جُثْوَتَيْنِ مِنْ تُرَابٍ عَلَيْهِمَا... صَفَائِحُ صُمٌّ مِنْ صفِيْحٍ مُنَضَّد

الثالث: جثيًّا على الرُّكَب، قاله الحسن، ومجاهد، وقتادة، وعطية. والزجاج.

الرابع: قيامًا، قاله أبو مالك.

الخامس: قيامًا على رُكَبهم وذلك لضيق المكان بهم، فلا يمكنهم أن يجلسوا ولا

=

=

أن يقوموا أيضا. وهذا قول السدي.

قال الزمخشري: "فإن قلت: ما معنى إحضارهم جثيا؟

قلت: أما إذا فسر الإنسان بالخصوص، فالمعنى أنهم يقبلون من المحشر إلى شاطئ جهنم عتلا على حالهم التي كانوا عليها في الموقف، جثاة على ركبهم، غير مشاة على أقدامهم، وذلك أن أهل الموقف وصفوا بالجثو. قال الله تعالى وَتَرى كُلَّ أُمَّةٍ جاثِيَةً على العادة المعهودة في مواقف المقاولات والمناقلات، من تجاثى أهلها على الركب، لما في ذلك من الاستيفاز والقلق وإطلاق الحبا وخلاف الطمأنينة. أو لما يدهمهم من شدّة الأمر التي لا يطيقون معها القيام على أرجلهم، فيحبون على ركبهم حبوا. وإن فسر بالعموم، فالمعنى أنهم يتجاثون عند موافاة شاطئ جهنم، على أن جثيا حال مقدرة كما كانوا في الموقف متجاثين، لأنه من توابع التواقف للحساب قبل التوصل إلى الثواب والعقاب".

والمراد بالشياطين: أولئك الأشرار الذين كانوا في الدنيا يوسوسون لهم بإنكار البعث.

أى: أقسم لك بذاتى- أيها الرسول الكريم- أن هؤلاء المنكرين للبعث لنجمعنهم جميعا يوم القيامة للحساب والجزاء، ولنجمعن معهم الشياطين الذين كانوا يضلونهم في الدنيا.

قالوا: وفائدة القسم أمران: أحدهما: أن العادة جارية بتأكيد الخبر باليمين، والثاني: أن في إقسام الله- تعالى- باسمه، مضافا إلى الرسول ﷺ رفعا منه لشأنه، كما رفع من شأن السموات والأرض في قوله- تعالى-: فَوَ رَبِّ السَّماءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِثْلَ ما أَنَّكُمْ تَنْطِقُونَ.

وقوله: ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا تصوير حسى بليغ لسوء مصيرهم، ونكد حالهم.

=

=

وجِثِيًّا جمع جاث وهو الجالس على ركبتيه. يقال: جثا فلان يجثو ويجثى جثوا وجثيا فهو جاث إذا جلس على ركبتيه، أو قام على أطراف أصابعه. والعادة عند العرب أنهم إذا كانوا في موقف شديد، وأمر ضنك جثوا على ركبهم.

أى: فوربك لنحضرنهم يوم القيامة للحساب ومعهم شياطينهم، ثم لنحضرنهم جميعا حول جهنم، حالة كونهم باركين على الركب، عجزا منهم عن القيام، بسبب ما يصيبهم من هول يوم القيامة وشدته.

قال- تعالى-: وَتَرى كُلَّ أُمَّةٍ جاثِيَةً، كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعى إِلى كِتابِهَا، الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ ما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ، هذا كِتابُنا يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ، إِنَّا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ ما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ.

ثم يخص- سبحانه- بالذكر المصير المفزع للمتكبرين من هؤلاء الكافرين فيقول:

ثُمَّ لَنَنْزِعَنَّ مِنْ كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمنِ عِتِيًّا.

قوله تعالى {ثُمَّ لَنَنْزِعَنَّ مِنْ كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَنِ عِتِيًّا (٦٩)} [مريم: ٦٩]

قال الطبري: يقول:"ثم لنأخذن من كلّ جماعة منهم أشدّهم على الله عتوّا، وتمرّدًا فلنبدأنّ بهم".

قال الزجاج:"معناه: لننزعن من كل أمة ومن كل فرقة الأعتى فالأعتى منهم، كأنهم يبدأ بتعذيب أشدهم عتيا ثم الذي يليه".

قال مكي:"أي: ثم لنأخذنّ من كل جماعة أشدهم على الرحمن عتوًا وتمردًا. يعني الأكابر فالأكابر جرمًا. والجبار فالجبار. والمعنى: نبدأ بتعذيب أعظمهم جرمًا ثم الذي يليه ثم الذي يليه".

قال أبو الأحوص:"نبدأ بالأكابر فالأكابر جرما".

قال مجاهد: " {من كل شيعة}: من كل أمة".

=

=

وقال السدي:"يعني: من كل أهل ملة".

وفي قوله تعالى: {أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَنِ عِتِيًّا} [مريم: ٦٩]، وجوه:

أحدها: معناه: عصيا. قاله ابن عباس.

قال ابن عباس:"يقول: أيهم أشدّ للرحمن معصية، وهي معصيته في الشرك".

وقال الكلبي:"أشد معصية".

الثاني: أن «عتيا»، معناه: كفرا. وهذا قول مجاهد، وحكاه الماوردي عن الكلبي.

قال مجاهد:"فلنبدأنّ بهم".

قال مقاتل:"يعني: عتوا في الكفر، يعني: القادة".

الثالث: شدة في القسوة. حكاه يحيى بن سلام عن الحسن.

الرابع: جرأة، حكاه الماوردي عن الكلبي.

الخامس: يعني: أعظم أمرا -بلغة قريش-. قاله القاسم بن سلام.

السادس: أهل الافتراء -بلغة بني تمي-م، حكاه الماوردي عن بعض أهل اللغة.

السابع: تمردًا. حكاه الماوردي.

الثامن: معصية. حكاه الماوردي.

قال الطبري:"«الشيعة»: هم الجماعة المتعاونون على الأمر من الأمور، يقال من ذلك: تشايع القوم: إذا تعاونوا؛ ومنه قولهم للرجل الشجاع: إنه لمشيع: أي معان، فمعنى الكلام: ثم لننزعن من كل جماعة تشايعت على الكفر بالله، أشدّهم على الله عتوّا، فلنبدأنّ بإصلائه جهنم. والتشايع في غير هذا الموضع: التفرّق؛ ومنه قول الله عزّ ذكره: {وَكَانُوا شِيَعًا}، يعني: فرقا؛ ومنه قول ابن مسعود أو سعد: «إني أكره أن آتي رسول الله ﷺ، فيقول: شيَّعت بين أمتي»، بمعنى: فرّقت".

والنزع: العزل والإخراج. يقال: نزع السلطان عامله، إذا عزله وأخرجه من عمله، والشيعة في الأصل: الجماعة من الناس يتعاونون فيما بينهم على أمر من الأمور،

=

=

يقال: تشايع القوم، إذا تعاونوا فيما بينهم.

والمعنى: ثم لنستخرجن من كل طائفة تشايعت وتعاهدت على الكفر بالبعث، والجحود للحق، الذين هم أشد خروجا عن طاعتنا وامتثال أمرنا فنبدأ بتعذيبهم أولا، لأنهم أشد من غيرهم في العتو والعناد والجحود والضلال.

قال الجمل ما ملخصه: «وأظهر الأعاريب في قوله: أَيُّهُمْ أَشَدُّ أن «أى» موصولة بمعنى الذي. وأن حركتها حركة بناء- أى هي مبنية على الضم-، وأشد خبر مبتدأ مضمر.

والجملة صلة لأى. وأيهم وصلتها في محل نصب مفعولا به لننزعن. وعتيا تمييز محول عن المبتدأ المحذوف الذي هو أشد، أى: جراءته على الرحمن أشد من جراءة غيره».

وقوله- تعالى-: ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلى بِها صِلِيًّا بيان لشمول علمه- تعالى- بأحوال هؤلاء الجاحدين، وبأحوال غيرهم.

قوله تعالى: {ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلَى بِهَا صِلِيًّا (٧٠)} [مريم: ٧٠]

قال الطبري: يقول: " ثم لنحن أعلم من هؤلاء الذين ننزعهم من كلّ شيعة أولاهم بشدّة العذاب، وأحقهم بعظيم العقوبة".

قال أبو الليث السمرقندي:"أي: أحق بالنار دخولا".

قال يحيى:"يعني: الذين يصلونها، وقال بعضهم: أشد عذابا".

قال مقاتل:"يعني: القادة فى الكفر".

قال ابن كثير:" {ثم} -هاهنا- لعطف الخبر على الخبر، والمراد أنه تعالى أعلم بمن يستحق من العباد أن يصلى بنار جهنم ويخلَّد فيها، وبمن يستحق تضعيف العذاب، كما قال في الآية المتقدمة: {قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَكِنْ لا تَعْلَمُونَ}".

عن ابن جريج:" {ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلَى بِهَا صِلِيًّا}، قال: أولى بالخلود

=

=

في جهنم".

قال الطبري: "وهذا الذي قاله ابن جريج، قول لا معنى له، لأن الله تعالى ذكره أخبر أن الذين ينزعهم من كلّ شيعة من الكفرة أشدّهم كفرا، ولا شكّ أنه لا كافر بالله إلا مخلَّد في النار، فلا وجه، وجميعهم مخلدون في جهنم، لأن يقال: ثم لنحن أعلم بالذين هم أحقّ بالخلود من هؤلاء المخلدين، ولكن المعنى في ذلك ما ذكرنا. وقد يحتمل أن يكون معناه: ثم لنحن أعلم بالذين هم أولى ببعض طبقات جهنم صليا. والصلّي: مصدر صليت تصلي صليا، والصليّ: فعول، ولكن واوها انقلبت ياء فأدغمت في الياء التي بعدها التي هي لام الفعل، فصارت ياء مشدّدة".

وصِلِيًّا مصدر صلى النار- كرضى- يصلاها صليا- بكسر الصاد وضمها- إذا ذاق حرها، واكتوى بها.

أى: ثم لنحن أعلم من كل أحد سوانا، بالذين هم أحق بجهنم، وباصطلاء نارها، وبالاكتواء بحرها وسعيرها، لأننا لا يخفى علينا شيء من أحوال خلقنا وسنجازى المتقين بما يستحقون من خير وثواب، وسنجازى الجاحدين بما يستحقون من إهانة وعذاب.

ثم بين- سبحانه- أن الجميع سيرد جهنم، فقال: وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وارِدُها كانَ عَلى رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا.

قال ابن الجوزي في نواسخ القرآن: ذكر الآية الثالثة: قوله تعالى: {وإن منكم إلا واردها}.

زعم ذلك الجاهل أنها نسخت بقوله: {ثم ننجي الذين اتقوا} وهذا من أفحش الإقدام على الكلام في كتاب الله سبحانه بالجهل. وهل بين الآيتين تناف فإن الأولى (تثبت) أن الكل يردونها، والثانية (تثبت) أنه ينجو منهم من اتقى، ثم (هما) ٤ خبران والأخبار لا تنسخ. ا.هـ

=

=

وقد ذكر النسخ مكي بن أبي طالب في الإيضاح عن قوم ثم رده بقوله: إنه خبر لا يجوز نسخه. وأما الطبري والنحاس، وابن الجوزي في عمدة الراسخ فأعرضوا عن ذكره.

قوله تعالى: {وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا} [مريم: ٧١]، أي:"وما منكم - أيها الناس - أحد إلا وارد النار بالمرور على الصراط المنصوب على متن جهنم، كل بحسب عمله".

قال السمعاني:"معناه: وما منكم إلا واردها".

اختلف أهل التفسير في المراد بـ"الورود" في قوله تعالى: {وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا} [مريم: ٧١]، على أقوال:

أحدها: أن معنى «الورود» الذي ذكره الله في هذا الموضع، هو الدخول فيها. وهذا قول ابن مسعود، وهو المشهور عن ابن عباس، والحسن، وابن جريج، وبه قال السمعاني.

وقد جاءت لفظة «الورود» في القرآن الكريم -مرادا به الدخول في النار- في ستة مواضع، في قوله تعالى في الآيات الآتية:

١- {وَإِن مِّنكُمْ إِلاَّ وَارِدُهَا} [مريم: ٧١].

٢- {يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ} [هود: ٩٨]

٣- {وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ} [هود: ٩٨].

٤- {لَوْ كَانَ هَؤُلاء آلِهَةً مَّا وَرَدُوها} [الأنبياء: ٩٩]

٥- {وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إلى جَهَنَّمَ وِرْدًا} [مريم: ٨٦]

٦- {حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ} [الأنبياء: ٩٨]

وكان ابن عباس يستند إلى هذه الآيات في تفسيره للورود بالدخول في النار.

أخرج الطبري بسنده عن ابن عيينة عن عمرو، قال: أخبرني من سمع ابن عباس

=

=

يخاصم نافع بن الأزرق، فقال ابن عباس:"الورود: الدخول، وقال نافع: لا فقرأ ابن عباس: {إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَارِدُونَ} أورود هو أم لا؟ وقال {يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ} أورود هو أم لا؟ أما أنا وأنت فسندخلها، فانظر هل نخرج منها أم لا؟ وما أرى الله مخرجك منها بتكذيبك، قال: فضحك نافع".

عن ابن عباس، قوله " {وَإِنْ مِنْكُمْ إِلا وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا}، يعني: البرّ والفاجر، ألم تسمع إلى قول الله تعالى لفرعون: {يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ}، وَقَالَ {وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَى جَهَنَّمَ وِرْدًا}، فسمى الورود في النار دخولا وليس بصادر".

أخرج يحيى بن سلام عن بسنده عن الحسن قال: " {وإن منكم إلا واردها}: إلا داخلها فيجعلها الله على المؤمن بردا وسلاما كما جعلها على إبراهيم".

قال ابن جريج: يقول: الورود الذي ذكره الله في القرآن: الدخول، ليردنها كل برّ وفاجر في القرآن أربعة أوراد {فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ} و {حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَارِدُونَ} {وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَى جَهَنَّمَ وِرْدًا}، وقوله {وَإِنْ مِنْكُمْ إِلا وَارِدُهَا}".

عن خالد بن معدان، قال: "قال أهل الجنة بعد ما دخلوا الجنة: ألم يعدنا ربنا الورود على النار؟ قال: قد مررتم عليها وهي خامدة [أو قال: جامدة]".

وقال ابن عباس:"والله إن كان دعاء من مضى: اللهم أخرجني من النار سالمًا، وأدخلني الجنة غانما".

عن أبي خالد قال: "تكون الأرض يومًا نارًا، فماذا أعددتم لها؟ قال: فذلك قول الله {وَإِنْ مِنْكُمْ إِلا وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا}".

عن غنيم بن قيس، قال: "ذكروا ورود النار، فقال كعب: تمسك النار للناس كأنها

=

=

متن إهالة، حتى يستوي عليها أقدام الخلائق برّهم وفاجرهم، ثم يناديها مناد: أن أمسكي أصحابك، ودعي أصحابي، قال: فيخسف بكلّ وليّ لها، ولهي أعلم بهم من الرجل بولده، ويخرج المؤمنون ندية أبدانهم. قال: وقال كعب: ما بين منكبي الخازن من خزنتها مسيره سنة، مع كل واحد منهم عمود له شعبتان، يدفع به الدفعة، فيصرع به في النار سبعمائة ألف".

عن أبي إسحاق، قال: "كان أبو ميسرة إذا أوى إلى فراشه، قال: يا ليت أمي لم تلدني، ثم يبكي، فقيل: وما يبكيك يا أبا ميسرة؟ قال: أخبرنا أنا واردوها، ولم يخبرنا أنا صادرون عنها".

عن قيس بن أبي حازم، قال: "بكى عبد الله بن رواحة في مرضه، فبكت امرأته، فقال: ما يبكيك، قالت: رأيتك تبكي فبكيت، قال ابن رواحة: إني قد علمت إنى وارد النار فما أدري أناج منها أنا أم لا؟".

وفي رواية: عن قيس بن أبي حازم، قال: "كان عبد الله بن رواحة واضع رأسه في حجر امرأته، فبكى، فبكت امرأته، قال: ما يبكيك؟ قالت: رأيتك تبكي فبكيت، قال: إني ذكرت قول الله {وإن منكم إلا واروها} فلا أدري أنجو منها، أم لا؟".

عن سهل بن معاذ، عن أبيه، عن رسول الله ﷺ أنه قال: "من حرس وراء المسلمين في سبيل الله متطوعا، لا يأخذه سلطان بحرس، لم ير النار بعينه إلا تحلة القسم، فإن الله تعالى يقول: {وإن منكم إلا واردها}".

عن أبي هريرة، أن النبي ﷺ قال: "من مات له ثلاثة لم تمسه النار إلا تحلة القسم" يعني: الورود".

الثاني: أن «الورود» معناه: الدخول، ولكنه عنى الكفار دون المؤمنين. وهذا قول ابن عباس أيضا، وعكرمة.

قال ابن عباس:"يعني: الكفار، لا يردها مؤمن".

=

=

قال مكي:"المعنى: وإنّ من هؤلاء القوم، الذين هذا القول المتقدم قولهم في البعث، إلا وارد جهنم {ثُمَّ نُنَجِّي الذين اتقوا}، أي: اتقوا الشرك، وأمنوا بالبعث، فهي مخصوصة فيمن تقدم ذكره على هذا القول".

قال السمعاني:"وعلى هذا كثير من أهل العلم، واستدلوا بقوله تعالى: {إن الذين سبقت لهم من الحسنى أولئك عنها مبعدون لا يسمعون حسيسها}".

وقرئ في الشاذ: «وإن منهم إلا واردها».

الثالث: أن الورود عام لكلّ مؤمن وكافر، غير أن ورود المؤمن المرور، وورود الكافر الدخول. وهذا قول ابن زيد.

قال ابن زيد:"ورود المسلمين المرور على الجسر بين ظهريها وورود المشركين أن يدخلوها، قال: وقال النبيّ ﷺ: «الزَّالُّونَ والزَّالاتُ يَومَئِذٍ كَثِيرٌ، وقد أَحَاطَ الجِسْرَ سِماطانِ مِنَ المَلائِكَةِ، دَعْوَاهُمْ يَوْمَئِذٍ يا اللهُ سَلِّمْ»".

الرابع: يراد به المرور عليها؛ أي: فوق الصراط. وهذا قول قتادة.

وروي عن ابن مسعود، قال:"الصراط على جهنم مثل حدّ السيف، فتمرّ الطبقة الأولى كالبرق، والثانية كالريح، والثالثة كأجود الخيل، والرابعة كأجود البهائم، ثم يمرّون والملائكة يقولون: اللهمّ سلم سلم".

عن أمّ مبشر امرأة زيد بن حارثة، قالت: قال رسول الله ﷺ وهو في بيت حفصة: "لا يَدْخُلُ النَّارَ أَحَدٌ شَهِدَ بَدْرًا والحُدَيْبِيَةَ، قالت: فقالت حفصة: يا رسول الله، أليس الله يقول: {وَإِنْ مِنْكُمْ إِلا وَارِدُهَا}؟ فقال رسول الله: "فمَهْ {ثُمَّ يُنَجِّي اللهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا}".

عن أبي سعيد الخدري يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: "يوضع الصراط بين ظهري جهنم، عليه حسك كحسك السعدان، ثم يستجيز الناس، فناج مسلم ومجروح به، ثم ناج ومحتبس ومكدس فيها، حتى إذا فرغ الله من القضاء بين

=

=

العباد تفقد المؤمنون رجالا كانوا معهم في الدنيا يصلون صلاتهم، ويزكون زكاتهم ويصومون صيامهم، ويحجون حجهم، ويغزون غزوهم، فيقولون: أي ربنا عباد من عبادك كانوا معنا في الدنيا، يصلون صلاتنا، ويزكون زكاتنا، ويصومون صيامنا، ويحجون حجنا، ويغزون غزونا، لا نراهم، فيقول: اذهبوا إلى النار، فمن وجدتم فيها منهم فأخرجوه، فيجدونهم قد أخذتهم النار على قدر أعمالهم، فمنهم من أخذته النار إلى قدميه، ومنهم من أخذته إلى نصف ساقيه، ومنهم من أخذته إلى ركبتيه، ومنهم من أخذته إلى ثدييه، ومنهم من أخذته إلى عنقه ولم تغش الوجوه، فيستخرجونهم منها، فيطرحونهم في ماء الحياة؛ قيل: وما ماء الحياة يا رسول الله؟ قال غسل أهل الجنة، فينبتون كما تنبت الزرعة في غثاء السيل، ثم تشفع الأنبياء في كل من كان يشهد أن لا إله إلا الله مخلصا، فيستخرجونهم منها، ثم يتحنن الله برحمته على من فيها، فما يترك فيها عبدا في قلبه مثقال ذرة من الإيمان إلا أخرجه منها".

عن أبي الزبير، قال: «سألت جابر بن عبد الله عن الورود، فقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: "هو الدخول، يردون النار حتى يخرجوا منها، فآخر من يبقى رجل على الصراط يزحف، فيرفع الله له شجرة، قال: فيقول: أي رب أدنني منها، قال: فيدنيه الله تبارك وتعالى منها، قال: ثم يقول: أي رب أدخلني الجنة، قال: فيقول: سل، قال: فيسأل، قال: فيقول: ذلك لك وعشرة أضعافه أو نحوها؛ قال: فيقول: يا رب تستهزئ بي؟ قال: فيضحك حتى تبدو لهواته وأضراسه"».

الخامس: أن ورود المؤمن ما يصيبه في الدنيا من حمَّى ومرض. وهذا قول مجاهد.

قال مجاهد:"الحمى حظ كل مؤمن من النار، ثم قرأ: {وَإِنْ مِنْكُمْ إِلا وَارِدُهَا}".

وعن أبي هريرة قال: "خرج رسول الله ﷺ يعود رجلا من أصحابه وبه وعك وأنا

=

=
معه، ثم قال: "إنَّ اللهَ يَقُولُ: هِيَ نَارِي أُسَلِّطُهَا عَلَى عَبْدِي المُؤْمِنُ، لِتَكُونَ حَظَّهُ مِنَ النَّارِ فِي الآخِرَةِ".

السادس: أنه يردها الجميع، ثم يصدر عنها المؤمنون بأعمالهم. وهذا مروي عن ابن مسعود ايضا.

قال مجاهد:"كنت عند ابن عباس، فأتاه رجل يُقال له أبو راشد، وهو نافع بن الأزرق، فقال له: يا ابن عباس أرأيت قول الله: {وَإِنْ مِنْكُمْ إِلا وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا}، قال: أما أنا وأنت يا أبا راشد فسنردها، فانظر هل نصدر عنها أم لا؟".

قال جابر بن عبد الله:"نحن يوم القيامة على كوى أو كرى، فوق الناس، فتدعى الأمم بأوثانها، وما كانت تعبد الأوّل فالأوّل، فينطلق بهم ويتبعونه، قال: ويعطى كلّ إنسان منافق ومؤمن نورا، ويغشى ظلمة ثم يتبعونه، وعلى جسر جهنم كلاليب تأخذ من شاء الله، فيطفأ نور المنافق، وينجو المؤمنون، فتنجو أوّل زمرة كالقمر ليلة البدر، وسبعون ألفًا لا حساب عليهم، ثم الذين يلونهم كأضواء نجم في السماء، ثم كذلك، ثم تحلّ الشفاعة فيشفعون، ويخرج من النار من قال لا إله إلا الله ممن في قلبه وزن شعيرة من خير، ثم يلقون تلقاء الجنة، ويهريق عليهم أهل الجنة الماء، فينبتون نبات الشيء في السيل، ثم يسألون فيجعل لهم الدنيا وعشرة أمثالها".

عن ابن المبارك، عن الحسن، قال: "قال رجل لأخيه: هل أتاك بأنك وارد النار؟ قال: نعم، قال: فهل أتاك أنك صادر عنها؟ قال: لا قال: ففيم الضحك؟ قال: فما رؤي ضاحكا حتى لحق بالله".

عن عمرو بن الحارث أن بكيرا حدّثه أنه قال لبسر بن سعيد: "إن فلانا يقول: إن ورود النار القيام عليها. قال بسر: أما أبو هريرة فسمعته يقول: "إذا كان يوم
=

=

القيامة، يجتمع الناس نادى مناد: ليلحق كل أناس بما كانوا يعبدون، فيقوم هذا إلى الحجر، وهذا إلى الفرس، وهذا إلى الخشبة حتى يبقى الذين يعبدون الله، فيأتيهم الله، فإذا رأوه قاموا إليه، فيذهب بهم فيسلك بهم على الصراط، وفيه عليق، فعند ذلك يؤذن بالشفاعة، فيمرّ الناس، والنبيون يقولون: اللهمّ سلم سلم. قال بكير: فكان ابن عميرة يقول: فناج مسلم ومنكوس في جهنم ومخدوش، ثم ناج".

السابع: أن المراد بالورود هنا هو الإشراف والاطلاع والقرب منها دون الدخول، حيث يكونون وهم في الموقف يشاهدون النار؛ فينجيهم الله مما شاهدوه. وهذا قول الحسن، وقتادة.

وقد يذكر الورود بمعنى الحضور، قال تعالى: {وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ} [القصص: ٢٣]، أي: حضر، فهذا ورود مقاربة وإشراف عليه.

وكذا قوله تعالى: {فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُم} [يوسف: ١٩].

ونظيره من كلام العرب: وردت بلد كذا وكذا إذا أشرفت عليه، دخلته أو لم تدخله، قال زهير بن أبي سلمى:

فَلَمَّا ورَدْنَ المَاءَ زُرْقًا جِمامُهُ... وَضَعْنَ عِصِيَّ الْحاضِرِ المُتَخَيَّمِ

المعنى: بلغن إلى الماء، أي أقمن عليه. أفاده الزجاج.

الثامن: أن يكون المراد بذلك ورود عرضة القيامة التي تجمع كل بر وفاجر. أفاده الماوردي.

التاسع: القول بالتوقف، ذكره الشوكاني بعد أن نسبه إلى كثير من العلماء، وذلك في قوله: "وقد توقف كثير من العلماء عن تحقيق هذا الورود، وحمله على ظاهره لقوله تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا الْحُسْنَى أُوْلَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ} [الأنبياء: ١٠١]، قالوا فلا يدخل النار من ضمن الله أن يبعده عنها".

فسبب توقفهم عن تحقيق القول في الورود: أن الله أخبر أن من سبقت لهم

=

=

الحسنى لا يردون النار، وأخبر في سورة مريم أنه ما من أحد إلا وسيرد النار؛ فصاروا إلى التوقف.

يتضح مما سبق: أن معنى «الورود» الذي ذكره الله يحتمل معاني كثيرة، ولهذا فقد اختلف كلمة العلماء في تعريفه، والمراد منه، إلى الأقوال التي ذكرناها، والواقع أن تلك الأقوال منها ما هو قريب، ومنها ما هو بعيد إلا أنه يقال: إن القول السادس منها - وهو أنه يردها الجميع، ثم يصدر عنها المؤمنون بأعمالهم - وهو الراجح؛ لتصريح الآية به: {وَإِن مِّنكُمْ إِلاَّ وَارِدُهَا (٧١) ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا} [مريم: ٧١ - ٧٢]، بالإضافة إلى ما ثبت عن رسول الله ﷺ في وصف الصراط ومرور الناس عليه بحسب أعمالهم.

ولهذا يقول الطبري في ترجيحه: " وأولى الأقوال في ذلك بالصواب قول من قال: يردها الجميع ثم يصدر عنها المؤمنون، فينجيهم الله، ويهوي فيها الكفار ووروده‌موها هو ما تظاهرت به الأخبار عن رسول الله ﷺ من مرورهم على الصراط المنصوب على متن جهنم، فناج مسلم ومكدس فيها".

وقال الشوكاني:"ولا يخفى أن القول بأن الورود: هو المرور على الصراط أو الورود على جهنم وهي خامدة، فيه جمع بين الأدلة من الكتاب والسنة؛ فينبغي حمل هذه الآية على ذلك؛ لأنه قد حصل الجمع بحمل الورود على دخول النار؛ مع كون الداخل من المؤمنين مبعدا من عذابها، أو يحمله على المضي فوق الجسر المنصوب عليها؛ وهو الصراط".

وقال الزجاج:"الحجة القاطعة في هذا القول ما قال الله ﷻ: {إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَى أُولَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ (١٠١) لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا} [الأنبياء: ١٠١ - ١٠٢].. فهذا - والله أعلم - دليل أن أهل الحسنى لا يدخلون النار".

وقد ذكر ابن حجر خلافا في الورود المذكور، وصحح القول بأنه الدخول ثم

=

=

الخروج، أو أنه الممر عليها، واستدل على ذلك، وضعف القول بأنه مختص بالكفار، أو أنه الدنو منها، أو الإشراف عليها، أو أنه ما يصيب المؤمن في الدنيا من الحمى، وذكر الحديث الذي رواه مسلم أن النبي ﷺ قال: «لا يدخل أحد شهد الحديبية النار. قالت حفصة: أليس الله يقول: {وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا}؟ فقال: أليس الله يقول: {ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا}؟».

وفي الصحيحين، من حديث الزهري، عن سعيد، عن أبي هريرة، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: "لا يموت لأحد من المسلمين ثلاثة من الولد تمسه النار، إلا تحلة القسم".

ولا يمنع من كون الورود بمعنى الدخول قوله- تعالى- إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنى أُولئِكَ عَنْها مُبْعَدُونَ. لا يَسْمَعُونَ حَسِيسَها.. لأن دخول المؤمنين فيها لا يجعلهم يشعرون بحرها أو حسيسها، وإنما هي تكون بردا وسلاما عليهم، كما جاء في الحديث الشريف.

وفي حديث حفصة: «أن النبي ﷺ قال عندها: لا يدخل النار إن شاء الله من أصحاب الشجرة أحد؛ الذين بايعوا تحتها قالت: بلى يا رسول الله فانتهرها. فقالت: {وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا} [مريم: ٧١]، فقال النبي ﷺ قد قال الله ﷻ: {ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا} [مريم: ٧٢]».

قال النووي في شرحه صحيح مسلم: «والصحيح أن المراد بالورود في الآية المرور على الصراط وهو جسر منصوب على جهنم فيقع فيها أهلها وينجو الآخرون».

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: «وأما الورود المذكور في قوله تعالى: {وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا} [مريم: ٧١]، فقد فسره النبي في الحديث الصحيح رواه مسلم في صحيحه عن جابر بأنه المرور على صراط، والصراط هو الجسر، فلا بد من

=

=

المرور عليه لكل من يدخل الجنة».

وقال ابن أبي العز في شرح الطحاوية؛: «واختلف المفسرون في المراد بالورود المذكور في قوله تعالى {وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا} [مريم: ٧١]، ما هو والأظهر والأقوى أنه المرور على الصراط قال: {ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا} [مريم: ٧٢]، وفي الصحيح أنه قال والذي نفسي بيده لا يلج النار أحد بايع تحت الشجرة قالت حفصة فقلت يا رسول الله أليس الله يقول: {وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا} [مريم: ٧١]، فقال ألم تسمعيه قال ثم ننجي الذين اتقوا ونذر الظالمين فيها جثيا أشار إلى أن ورود النار لا يستلزم دخولها وأن النجاة من الشر لا تستلزم حصوله بل تستلزم انعقاد سببه.. وكذلك حال الوارد في النار، يمرون فوقها على الصراط، ثم ينجي الله الذين اتقوا ويذر الظالمين فيها».

والمعنى: وما منكم- أيها الناس- أحد إلا وهو داخل النار، سواء أكان مسلما أم كافرا، إلا أنها تكون بردا وسلاما على المؤمنين. وهذا الدخول فيها كان على ربك أمرا واجبا ومحتوما، بمقتضى حكمته الإلهية، لا بإيجاب أحد عليه.

قوله تعالى: {كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا} [مريم: ٧١]، أي:"كان ذلك أمرًا محتومًا، قضى الله - سبحانه - وحكم أنه لا بد من وقوعه لا محالة".

وفي قوله تعالى: {كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا} [مريم: ٧١]، وجهان:

أحدهما: معناه كان على ربك قضاء مقضيا، قاله مجاهد، وابن جريج.

الثاني: معناه: كان على ربك قسمًا واجبًا، قاله ابن مسعود، وابن عباس، وقتادة.

قال ابن عباس:"الحتم: الواجب".

قال أمية بن أبي الصلت يقول:

عبادك يخطئون وأنت ربّ... بكفّيك المنايا والحتوم.

قوله تعالى: {ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا} [مريم: ٧٢].

=

وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا (٧٣).

{وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ} أَيْ الْمُؤْمِنِينَ وَالْكَافِرِينَ {آيَاتنَا} مِنْ الْقُرْآن {بَيِّنَات} وَاضِحَات حَال {قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَيّ الْفَرِيقَيْنِ} نَحْنُ وَأَنْتُمْ {خَيْر

=

قال الزجاج:"أي: نخرج المتقين من جملة من ندخله النار".

قال مجاهد:"يقول: "هنالك ينجي الله الذين اتقوا".

قال مقاتل:"يعني: أهل التوحيد فنخرجهم منها".

قوله تعالى: {وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا} [مريم: ٧٢]، أي:"ونترك الظالمين لأنفسهم بالكفر بالله في النار باركين على رُكَبهم".

قال مقاتل:"يعني: المشركين في جهنم على الركب".

قال الطبري:"وندع الذين ظلموا أنفسهم، فعبدوا غير الله، وعصوا ربهم، وخالفوا أمره ونهيه في النار جثيا، يقول: بروكا على ركبهم".

عن قتادة:"{وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا}، على ركبهم".

قال ابن زيد:"الجثيّ: شرّ الجلوس، لا يجلس الرجل جاثيا إلا عند كرب ينزل به".

قال قتادة:"إن الناس وردوا جهنم وهي سوداء مظلمة، فأما المؤمنون فأضاءت لهم حسناتهم، فأنجوا منها. وأما الكفار فأوبقتهم أعمالهم، واحتبسوا بذنوبهم".

وبذلك نرى الآيات الكريمة قد حكت لنا أقوال الجاحدين في شأن البعث والحساب، وردت عليهم ردا يبطل أقوالهم، كما أثبتت أن البعث حق، وأن الحساب حق، وأن الظالمين سيدخلون النار، وأن المؤمنين سينجيهم الله- تعالى- بفضله منها.

مَقَامًا} مَنْزِلًا وَمَسْكَنًا بِالْفَتْحِ مِنْ قَامَ وَبِالضَّمِّ مِنْ أَقَامَ {وَأَحْسَن نَدِيًّا} بِمَعْنَى النَّادِي وَهُوَ مُجْتَمَع الْقَوْم يَتَحَدَّثُونَ فِيهِ يَعْنُونَ نَحْنُ فنكون خيرا منكم قال تعالى.

وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَاثًا وَرِئْيًا (٧٤).

{وَكَمْ} أَيْ كَثِيرًا {أَهْلَكْنَا قَبْلهمْ مِنْ قَرْن} أَيْ أُمَّة مِنْ الْأُمَم الْمَاضِيَة {هُمْ أَحْسَن أثاثا} مالا ومتاعا {ورءيا} مَنْظَرًا مِنْ الرُّؤْيَة فَكَمَا أَهْلَكْنَاهُمْ لِكُفْرِهِمْ نُهْلِك هؤلاء.

قُلْ مَنْ كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدًّا حَتَّى إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ إِمَّا الْعَذَابَ وَإِمَّا السَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَكَانًا وَأَضْعَفُ جُنْدًا (٧٥).

{قُلْ مَنْ كَانَ فِي الضَّلَالَة} شَرْط جَوَابه {فَلْيَمْدُدْ} بِمَعْنَى الْخَبَر أَيْ يَمُدّ {لَهُ الرَّحْمَن مَدًّا} فِي الدُّنْيَا يَسْتَدْرِجهُ {حَتَّى إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ إِمَّا الْعَذَاب} كَالْقَتْلِ وَالْأَسْر {وَإِمَّا السَّاعَة} الْمُشْتَمِلَة عَلَى جَهَنَّم فَيَدْخُلُونَهَا {فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرّ مَكَانًا وَأَضْعَف جُنْدًا} أَعْوَانًا أَهُمْ أَمْ الْمُؤْمِنُونَ وَجُنْدهمْ الشَّيَاطِين وَجُنْد الْمُؤْمِنِينَ عَلَيْهِمْ الملائكة.

وَيَزِيدُ اللهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَرَدًّا (٧٦).

{وَيَزِيد الله الَّذِينَ اهْتَدَوْا} بِالْإِيمَانِ {هُدًى} بِمَا يَنْزِل عَلَيْهِمْ مِنْ الْآيَات {وَالْبَاقِيَات الصَّالِحَات} هِيَ الطَّاعَة تَبْقَى لِصَاحِبِهَا {خَيْر عِنْد رَبّك ثَوَابًا وَخَيْر مَرَدًّا} أَيْ مَا يُرَدّ إِلَيْهِ وَيَرْجِع بِخِلَافِ أَعْمَال الْكُفَّار وَالْخَيْرِيَّة هُنَا فِي مُقَابَلَة

قَوْلهمْ أَيّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْر مَقَامًا[1].

---

(١) قوله تعالى: {وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ} [مريم: ٧٣].

قال الطبري: "{وإذَا تُتْلَى} على الناس {آياتُنا} التي أنزلناها على رسولنا محمد {بَيِّنَات}، يعني: واضحات لمن تأمَّلها وفكَّر فيها أنها أدلة على ما جعلها الله أدلة عليه لعباده".

قوله تعالى: {قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا} [مريم: ٧٣]، أي: "قال الكفار بالله للمؤمنين به: أيُّ الفريقين منَّا ومنكم أفضل منزلا وأحسن مجلسًا؟".

قال الطبري: "قال الذين كفروا للذين آمنوا: أيّ الفريقين منا ومنكم أوسع عيشا، وأنعم بالا وأفضل مسكنا، وأحسن مجلسا، وأجمع عددا وغاشية في المجلس، نحن أم أنتم؟".

قال السعدي: "أي: فاستنتجوا من هذه المقدمة الفاسدة، أنهم أكثر مالا وأولادا، وقد حصلت لهم أكثر مطالبهم من الدنيا، ومجالسهم وأنديتهم مزخرفة مزوقة. والمؤمنون بخلاف هذه الحال، فهم خير من المؤمنين، وهذا دليل في غاية الفساد، وهو من باب قلب الحقائق، وإلا فكثرة الأموال والأولاد، وحسن المنظر، كثيرا ما يكون سببا لهلاك صاحبه، وشقائه، وشره".

عن ابن عباس، قوله: "{خَيْرٌ مَقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا}، قال: المقام: المنزل، والنديّ: المجلس".

عن قتادة: {أي الفريقين خير مقاما وأحسن نديا}، قال: "خير مكانا، وأحسن مجلسا".

قال قتادة: "رأوا أصحاب محمد ﷺ في عيشهم خشونة، وفيهم قشافة، فعرّض أهل الشرك بما تسمعون. قوله {وَأَحْسَنُ نَدِيًّا}، يقول: مجلسا".

=

=

قال الماتريدي:"كأن هذا القول من الكفرة خرج جواب ما احتج عليهم أهل الإيمان بالآيات التي ذكروا حجاجا عليهم، فيقولون: إنكم تقولون: إن الدنيا والآخرة لله، فقد وسع علينا الدنيا وضيق عليكم، فعلى ذلك يوسع الآخرة علينا ويضيق عليكم كما فعل في الدنيا؛ إذ لا يجوز أن يوالينا في الدنيا ويعادينا في الآخرة، وعلى هذا قولهم: {نحن أكثر أموالا وأولادا وما نحن بمعذبين}، فظنوا أنه لما وسع عليهم وأحسن بهم الندى والمجلس كذلك يكونون في الآخرة، فأكذبهم الله ورد عليهم ذلك".

أى: وإذا تتلى على هؤلاء المشركين المنكرين للبعث آياتنا البينات الواضحات، الدالة على صحة وقوع البعث والحساب يوم القيامة قالَ الَّذِينَ كَفَرُوا على سبيل العناد والتعالي لِلَّذِينَ آمَنُوا بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، قالوا لهم انظروا أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَقامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا.

والمقام- بفتح الميم-: مكان القيام والمراد به مساكنهم ومنازلهم التي يسكنونها وينزلون بها.

والندى والنادي والمنتدى: مجلس القوم ومكان تجمعهم.

يقال: ندوت القوم أندوهم ندوا، إذا جمعتهم في مجلس للانتداء. ومنه: دار الندوة للمكان الذي كانت تجتمع فيه قريش للتشاور في أمورها.

أى: وإذا تتلى على هؤلاء الكافرين آياتنا الدالة على وحدانيتنا وقدرتنا وعلى أن البعث حق. قالوا للمؤمنين على سبيل الاحتقار لهم: نحن وأنتم أينا خير من الآخر مكانا، وأحسن مجلسا ومجتمعا فهم يتفاخرون على المؤمنين بمساكنهم الفارهة، ومجالسهم التي يجتمع فيها أغنياؤهم ووجهاؤهم.

قال الجمل في حاشيته: «أى قالوا للمؤمنين: انظروا إلى منازلنا فتروها أحسن من منازلكم وانظروا إلى مجلسنا عند التحدث ومجلسكم، فترونا نجلس في صدر

=

=

المجلس، وأنتم جالسون في طرفه الحقير. فإذا كنا بهذه المثابة وأنتم بتلك فنحن عند الله خير منكم، ولو كنتم على حق لأكرمكم الله بهذه الأمور كما أكرمنا بها».

وما حكاه الله- تعالى- عن هؤلاء الكافرين في هذه الآية، قد جاء ما يشبهه في آيات أخرى، ومن ذلك قوله- تعالى-: وَقالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوالًا وَأَوْلادًا وَما نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ.

وقد رد الله- تعالى- على هؤلاء الجاهلين المغرورين بقوله: وَكَمْ أَهْلَكْنا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثاثًا وَرِءْيًا.

قوله تعالى: {وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَاثًا وَرِئْيًا (٧٤)} [مريم: ٧٤]

قال مكي:"أي: وكثيرًا يا محمد أهلكنا من القرون هم أحسن أثاثًا ورِئْيا قبل هؤلاء القائلين للمؤمنين: أي الفريقين خير مقامًا وأحسن نديًا".

قال السعدي:"فإذا كان هؤلاء المهلكون أحسن منهم أثاثا ورئيا، ولم يمنعهم ذلك من حلول العقاب بهم، فكيف يكون هؤلاء، وهم أقل منهم وأذل، معتصمين من العذاب، {أكفاركم خير من أولئكم أم لكم براءة في الزبر}؟ وعلم من هذا، أن الاستدلال على خير الآخرة بخير الدنيا من أفسد الأدلة، وأنه من طرق الكفار".

وفي قوله تعالى: {أَثَاثًا وَرِئْيًا} [مريم: ٧٤]، وجوه من التفسير:

أحدها: أن الأثاث: المتاع، والرئي: المنظر، قاله ابن عباس. قال الشاعر:

أهاجَتْكَ الظَّعائِنُ يَوْمَ بانُوا... بِذِي الرِّئْيِ الجَمِيلِ مِنَ الأثاث

الثاني: أن الأثاث: أحسن المتاع، والرِّئي: المال. قاله الحسن.

الثالث: معناه: أكثر أموالًا وأحسن صورًا. وهذا قول قتادة.

وروي عن ابن عباس:"الأثاث: المال، والرِّئي: المنظر الحسن".

وروي عن قتادة ايضا:"أكثر متاعا وأحسن منزلة ومستقرا، فأهلك الله أموالهم، وأفسد صورهم عليهم تبارك وتعالى".

=

=

الرابع: أن الأثاث ما كان جديدًا من ثياب البيت، والرئي الارتواء من النعمة. حكاه الماوردي.

الخامس: الأثاث المتاع. والرئي: ما يراه الناس. وهذا قول مجاهد.

السادس: معناه: أكثر أموالًا وأحسن صورًا. قاله قتادة أيضا.

السابع: أن الأثاث ما يعد للاستعمال، والرئي ما يعد للجمال. أفاده الماوردي.

قال الماتريدي:"أخبرهم بما عرفوا هم أنهم كانوا أهل السعة والزينة، ثم أهلكوا بتكذيبهم الرسل وعصيانهم ربهم، فلو كان ما ذكر هؤلاء الكفرة لكانوا لا يهلكون؛ فيلزمهم بما ذكر أن من وسع عليه الدنيا وضيق عليه الآخرة إنما يكون بحق المحنة، لا بحق المنزلة والقدر، وأما الثواب والجزاء فهو بحق القدر والمنزلة والخذلان".

قرأ أكثر القراء بالهمز أي: منظرا من «الرؤية»، وقرأ ابن عامر وأبو جعفر ونافع غير ورش: «وريا» مشددا بغير همز، وفي الشاذ: «وزيا» بالزاء، حكي هذا عن سعيد بن جبير.

وكَمْ هنا خبرية، ومعناها الاخبار عن العدد الكثير وهي في محل نصب على المفعول به لجملة أَهْلَكْنا ومِنْ قَرْنٍ تمييز لها. والقرن: اسم لأهل كل أمة تتقدم في الوجود على غيرها، مأخوذ من قرن الدابة لتقدمه فيها.

والأثاث المتاع للبيت. وقيل: هو الجديد من الفراش، وقد يطلق على المال بصفة عامة.

ورِءْيًا أى: منظرا وهيئة ومرأى في العين مأخوذ من الرؤية التي تراها العين.

والمعنى: قل- أيها الرسول الكريم- لهؤلاء الكافرين المتباهين بمساكنهم ومجالسهم: لا تفتخروا ولا يغرنكم ما أنتم فيه من نعيم، فإنما هو نوع من الاستدراج، فإن الله- تعالى- قد أهلك كثيرا من الأمم السابقة عليكم، كانوا

=

=

أحسن منكم متاعا وزينة، وكانوا أجمل منكم منظرا وهيئة فلم ينفعهم أثاثهم ورياشهم ومظهرهم الحسن، عند ما أراد الله- تعالى- إهلاكهم بسبب كفرهم وجحودهم.

فالآية الكريمة تهديد للكافرين المعاصرين للنبي ﷺ ورد على أقوالهم الباطلة، وعنجهيتهم الذميمة إذ لو كانت المظاهر والأمتعة والهيئات الحسنة تنفع أصحابها، لنفعت أولئك المهلكين من الأمم السابقة.

وشبيه بهذه الآية في الرد على هؤلاء الكافرين قوله- تعالى-: وَما أَمْوالُكُمْ وَلا أَوْلادُكُمْ بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِنْدَنا زُلْفى. إِلَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صالِحًا فَأُولئِكَ لَهُمْ جَزاءُ الضِّعْفِ بِما عَمِلُوا وَهُمْ فِي الْغُرُفاتِ آمِنُونَ.

وقوله- سبحانه-: فَذَرْنِي وَمَنْ يُكَذِّبُ بِهذَا الْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لا يَعْلَمُونَ. وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ.

ثم أمر الله- تعالى- رسوله ﷺ أن يضيف إلى تهديدهم السابق تهديدا آخر فقال:

قُلْ مَنْ كانَ فِي الضَّلالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمنُ مَدًّا ...

قوله تعالى: {قُلْ مَنْ كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدًّا} [مريم: ٧٥].

قال الطبري: "يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: قل يا محمد لهؤلاء المشركين بربهم، القائلين: إذا تتلى عليهم آياتنا، أيّ الفريقين منا ومنكم خير مقاما وأحسن نديا، من كان منا ومنكم في الضلالة جائرا عن طريق الحقّ، سالكا غير سبيل الهدى، فليطوَّل له الله في ضلالته، وليمله فيها إملاء".

قال مجاهد: "فليَدعْه الله في طغيانه".

قال يحيى: "هذا دعاء، فأمد له الرحمن مدا. أمر الله النبي أن يدعو بهذا".

قيل: "نسخ قوله {فليمدد له الرحمان مدا} بآية السيف".

قوله تعالى: {حَتَّى إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ إِمَّا الْعَذَابَ وَإِمَّا السَّاعَةَ} [مريم: ٧٥]،

=

=

أي:"حتى إذا رأى - يقينا - ما توعَّده الله به: إما العذاب العاجل في الدنيا، وإما قيام الساعة".

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: قل لهم: من كان منا ومنكم في الضلالة، فليمدد له الرحمن في ضلالته إلى أن يأتيهم أمر الله، إما عذاب عاجل، أو يلقوا ربهم عند قيام الساعة التي وعد الله خلقه أن يجمعهم لها، فإنهم إذا أتاهم وعد الله بأحدِ هذين الأمرين".

قال الزجاج:"«الساعة»: يعنى بها يوم القيامة وبما وعدوا به فيها من الخلود في النار".

قوله تعالى: {فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَكَانًا وَأَضْعَفُ جُنْدًا} [مريم: ٧٥]، أي:"فسيعلم - حينئذ - مَن هو شر مكانًا ومستقرًا، وأضعف قوة وجندًا".

قال الطبري:" {مَنْ هُوَ شَرٌّ مَكَانًا} ومسكنا منكم ومنهم {وَأَضْعَفُ جُنْدًا، أهم أم انتم؟ ويتبينون حينئذ أيّ الفريقين خير مقاما، وأحسن نديا".

قال الزجاج:"أي: فسيعلمون بالنصر، والقتل أنهم أضعف جندا من جند النبي ﷺ والمسلمين ويعلمون بمكانهم من جهنم، ومكان المؤمنين من الجنة من هو شر مكانا".

قال يحيى: أي: إنهم ليس لهم أحد يمنعهم من عذاب الله".

أى: قل- أيها الرسول الكريم- لهؤلاء الكافرين المتفاخرين بمساكنهم ومظاهرهم.. قل لهم: من كان منغمسا في الضلالة والشقاوة والغفلة.. فقد اقتضت حكمة الله- تعالى- أن يمد له العطاء كأن يطيل عمره ويوسع رزقه، على سبيل الاستدراج والإمهال..

فصيغة الطلب وهي قوله- تعالى-: فَلْيَمْدُدْ على هذا التفسير، المراد بها:

الإخبار عن سنة من سنن الله- تعالى- في خلقه، وهي أن سننه- تعالى- قد

=

=

اقتضت أن يمهل الضالين، وأن يزيدهم من العطاء الدنيوي، ثم يأخذهم أخذ عزيز مقتدر.

قال- تعالى-: فَلَمَّا نَسُوا ما ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنا عَلَيْهِمْ أَبْوابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذا فَرِحُوا بِما أُوتُوا أَخَذْناهُمْ بَغْتَةً فَإِذا هُمْ مُبْلِسُونَ. فَقُطِعَ دابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعالَمِينَ.

وقال- سبحانه-: وَلا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّما نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِأَنْفُسِهِمْ إِنَّما نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذابٌ مُهِينٌ.

وقد صدر الآلوسى تفسيره للآية بهذا التفسير فقال ما ملخصه: قوله قُلْ مَنْ كانَ فِي الضَّلالَةِ ... أمر منه- تعالى- لرسوله ﷺ بأن يجيب على هؤلاء المتفاخرين بما لهم من الحظوظ الدنيوية..

وقوله: فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمنُ مَدًّا أى: يمد- سبحانه- له ويمهله بطول العمر، وإعطاء المال، والتمكن من التصرفات، فالطلب في معنى الخبر واختير للإيذان بأن ذلك مما ينبغي أن يفعل بموجب الحكمة لقطع المعاذير فيكون حاصل المعنى: من كان في الضلالة فلا عذر له فقد أمهله الرحمن ومد له مدا وجوز أن يكون ذلك للاستدراج.

وحاصل المعنى: من كان في الضلالة فعادة الله أن يمد له ويستدرجه.

ومن المفسرين من يرى أن صيغة الطلب وهي فَلْيَمْدُدْ على بابها، ويكون المقصود بالآية الدعاء على الضال من الفريقين بالازدياد من الضلال.

وعليه يكون المعنى: قل- أيها الرسول الكريم لهؤلاء المتفاخرين، من كان منا أو منكم على الضلالة، فليزده الله من ذلك، وكأن الآية الكريمة تأمر الرسول ﷺ بمباهلة المشركين كما أمره الله- تعالى- في آية أخرى بمباهلة اليهود في قوله: قُلْ يا أَيُّهَا الَّذِينَ هادُوا إِنْ زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِياءُ لِلَّهِ مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ

=

=

صادِقِينَ...

وكما أمر الله بمباهلة النصارى في قوله- سبحانه- فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ ما جاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعالَوْا نَدْعُ أَبْناءَنا وَأَبْناءَكُمْ، وَنِساءَنا وَنِساءَكُمْ، وَأَنْفُسَنا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَتَ اللهِ عَلَى الْكاذِبِينَ.

ومن المفسرين الذين ساروا على هذا التفسير الإمامان ابن جرير وابن كثير، فقد قال ابن كثير: يقول- تعالى- قُلْ يا محمد لهؤلاء المشركين بربهم المدعين أنهم على الحق وأنكم على الباطل مَنْ كانَ فِي الضَّلالَةِ أى منا ومنكم فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمنُ مَدًّا أى: فأمهله الرحمن فيما هو فيه حتى يلقى ربه وينقضي أجله.. قال مجاهد في قوله فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمنُ مَدًّا فليدعه الله في طغيانه هكذا، قرر ذلك أبو جعفر بن جرير، وهذه مباهلة للمشركين الذين يزعمون أنهم على هدى فيما هم فيه كما ذكر- تعالى- مباهلة اليهود والنصارى...

قال الشنقيطي: في معنى هذه الآية الكريمة وجهان من التفسير معروفان عند العلماء. وكلاهما يشهد له قرآن:

الأول: أن الله جل وعلا أمر نبيه ﷺ في هذه الآية الكريمة أن يقول هذه الكلمات كدعاء المباهلة بينه وبين المشركين. وإيضاح معناه: قل يا نبي الله (ﷺ) لهؤلاء المشركين الذين ادعوا أنهم خير منكم، وأن الدليل على ذلك أنهم خير منكم مقامًا وأحسن منكم نديًّا: من كان مِنَّا ومنكم في الضلالة أي السَّفر والضلال عن طريق الحق فليمدد له الرحمن مدًّا، أي فليمهله الرحمن إمهالًا فيما هو فيه حتَّى يستدرجه بالإمهال ويموت على ذلك ولا يرجع عنه، بل يستمر على ذلك حتَّى يرى ما يوعده الله، وهو إما عذاب في الدنيا بأيدي المسلمين، كقوله: {قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللهُ بِأَيدِيكُمْ} أو بغير ذلك. وإما عذاب الآخرة إن ماتوا وهم على ذلك الكفر. وعلى ذلك التفسير فصيغة الطلب المدلول عليها باللام في قوله:

=

=

{فَلْيَمْدُدْ} على بابها. وعليه فهي لام الدعاء بالإمهال في الضلال على الضال من الفريقين، حتَّى يرى ما يوعده من الشر وهو على أقبح حال من الكفر والضلال. واقتصر على هذا التفسير ابن كثير وابن جرير، وهو الظاهر من صيغة الطلب في قوله: {فَلْيَمْدُدْ} ونظير هذا المعنى في القرآن قوله تعالى: {فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَتَ اللهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ (٦١)} لأنه على ذلك التفسير يكون في كلتا الآيتين دعاء بالشر على الضال من الطائفتين. وكذلك قوله تعالى في اليهود: {فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٩٤)} في "البقرة والجمعة" عند من يقول: إن المراد بالتمني الدعاء بالموت على الكاذبين من الطائفتين، وهو اختيار ابن كثير. وظاهر الآية لا يساعد عليه.

الوجه الثاني: أن صيغة الطلب في قوله: {فَلْيَمْدُدْ} يراد بها الإخبار عن سنة الله في الضالين، وعليه فالمعنى: أن الله أجرى العادة بأنه يمهل الضال ويملي له فيستدرجه بذلك، حتَّى يرى ما يوعده وهو في غفلة وكفر وضلال.

وتشهد لهذا الوجه آيات كثيرة، كقوله: {وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيرٌ لِأَنْفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا ...} الآية، وقوله: {فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً..} الآية، كما قدمنا قريبًا بعض الآيات الدالة عليه ا.هـ

وقوله- سبحانه-: حَتَّى إِذا رَأَوْا ما يُوعَدُونَ.. متعلق بما قبله.

أى: فليمدد له الرحمن مدا على سبيل الاستدراج والإمهال، حتى إذا رأى هؤلاء الكافرون ما توعدهم الله- تعالى- به، علموا وأيقنوا أن الأمر بخلاف ما كانوا يظنون وما كانوا يقولون لأنهم سينزل الله- تعالى- بهم إِمَّا الْعَذابَ الدنيوي على أيدى المؤمنين وَإِمَّا السَّاعَةَ أى: وإما عذاب الآخرة وهو أشد وأبقى.

=

=

وحينئذ يعلمون ويوقنون مَنْ هُوَ من الفريقين شَرٌّ مَكانًا أى: أسوأ منزلا ومسكنا وَأَضْعَفُ جُنْدًا وأضعف أعوانا وأنصارا.

وهذه الجملة الكريمة رد على قول المشركين قبل ذلك: أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَقامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا.

قوله تعالى: {وَيَزِيدُ اللهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى} [مريم: ٧٦]، أي:"ويزيد الله عباده الذين اهتدوا لدينه هدى على هداهم بما يتجدد لهم من الإيمان بفرائض الله، والعمل بها".

قال الطبري:"ويزيد الله من سلك قصد المحجة، واهتدى لسبيل الرشد، فآمن بربه، وصدّق بآياته، فعمل بما أمره به، وانتهى عما نهاه عنه هدى بما يتجدّد له من الإيمان بالفرائض التي يفرضها عليه، ويقرّ بلزوم فرضها إياه، ويعمل بها، فذلك زيادة من الله في اهتدائه بآياته هدى على هداه، وذلك نظير قوله: {وَإِذَا مَا أُنزلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ}".

وفي قوله تعالى: {وَيَزِيدُ اللهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى} [مريم: ٧٦]، وجوه من التفسير:

أحدها: ويزيد الله الذين اهتدوا بالتوحيد إيمانا.

قال السدي، ومقاتل:"يزيدهم إيمانا".

الثاني: يزيدهم بصيرة في دينهم وفي اقتدائهم بمحمد ﷺ، وهو زيادة الهدى والنور المبين. وهذا قول سهل بن عبد الله.

وحكي الماوردي:"يزيدهم هدى بالمعونة في طاعته والتوفيق لمرضاته".

الثالث: يزيدهم بزيادة الوحي إيمانا، فكلما نزلت سورة زاد إيمانهم. حكاه ابن الجوزي.

الرابع: يزيدهم إيمانا بالناسخ والمنسوخ. حكاه ابن الجوزي.

=

=

الخامس: يزيد الذين اهتدوا بالمنسوخ هدى بالناسخ. حكاه الطبري، والزجاج.

قال الطبري:"قيل: ويزيد الله الذين اهتدوا هدى بناسخ القرآن ومنسوخه، فيؤمن بالناسخ، كما آمن من قبل بالمنسوخ، فذلك زيادة هدى من الله له على هُدَاه من قبل".

قال الزجاج:"قيل بالناسخ والمنسوخ نحو ما كان من صوم رمضان من أنه كان يجوز لمن يقدر على الصوم أن يطعم مسكينا ويفطر، فنسخ ذلك بإلزام الصوم".

السادس: معناه: يجعل جزاءهم أن يزيدهم في يقينهم هدى كما أضل الله الفاسق بفسقه. أفاده الزجاج.

السابع: معناه: ويزيد الله الذين اهتدوا إلى طاعته هدى إلى الجنة. أفاده الماوردي.

قوله تعالى: {وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَرَدًّا} [مريم: ٧٦]، أي:"والأعمالُ الباقيات الصالحات خير ثوابًا عند الله في الآخرة، وخير مرجعًا وعاقبة".

قال الطبري:"والأعمال التي أمر الله بها عباده ورضيها منهم، الباقيات لهم غير الفانيات الصالحات، خير عند ربك جزاء لأهلها {وَخَيْرٌ مَرَدًّا} عليهم من مقامات هؤلاء المشركين بالله، وأنديتهم التي يفتخرون بها على أهل الإيمان في الدنيا".

قال الزجاج: {وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ} " معناه: الأعمال الصالحة، وأولها توحيد الله، وهو شهادة أن لا إله إلا الله".

قال الزمخشري:"«الباقيات الصالحات»: أعمال الآخرة كلها. وقيل: الصلوات. وقيل: سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر، أى هي خير ثوابا من مفاخرات الكفار وخير مردا أى مرجعا وعاقبة، أو منفعة، من قولهم: ليس لهذا الأمر مرد".

=

=

عن سعيد بن جبير: " {خير عند ربك ثوابا}، قال: "خير جزاء من جزاء المشركين".

عن الحسن:"{وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ}: الفرائض".

وقتادة:"«لا إله إلا الله، والله أكبر، والحمد لله، وسبحان الله من الباقيات الصالحات»".

عن قتادة:"أنه سئل، عن {الباقيات الصالحات}، فقال: كل ما أريد به وجه الله".

عن أبي سلمة بن عبد الرحمن بن عوف، قال: " جلس النبي ﷺ ذات يوم، فأخذ عودا يابسا، فحطّ ورقه ثم قال: إنَّ قَوْلَ لا إله إلا اللهُ، واللهُ أكْبَرُ، والحَمْدُ للهِ وسُبْحَانَ اللهِ، تَحطُّ الخَطايا، كمَا تَحُطُّ وَرَقَ هذِهِ الشَّجَرَةِ الرِّيحُ، خُذْهُنَّ يا أبا الدَّرْدَاءِ قَبْلَ أنْ يُحَالَ بَيْنَكَ وَبَيْنَهُنَّ، هُنَّ البَاقِيَاتُ الصَّالِحاتُ، وَهُنَّ مِنْ كُنُوزِ الجَنَّةِ"، قال أبو سلمة: فكان أبو الدرداء إذا ذكر هذا الحديث قال: لأهللنّ الله، ولأكبرنّ الله، ولأسبحنّ الله، حتى إذا رآني الجاهل حسب أني مجنون".

وقوله- تعالى-: وَيَزِيدُ اللهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدىً.. كلام مستأنف مسوق لبيان سنة الله- تعالى- التي لا تتخلف في المهتدين، بعد بيان سنته في الضالين.

أى: ويزيد الله- تعالى- المهتدين إلى طريق الحق هداية على هدايتهم، بأن يثبتهم عليه، كما قال- سبحانه-: وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زادَهُمْ هُدىً وَآتاهُمْ تَقْواهُمْ. وكما قال- ﷻ: هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدادُوا إِيمانًا مَعَ إِيمانِهِمْ ...

قال الشنقيطي: قوله جل وعلا في هذه الآية الكريمة: {وَيَزِيدُ اللهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى} دليل على رجحان القول الثاني في الآية المتقدمة. وأن المعنى: أن من كان في الضلالة زاده الله ضلالة، ومن اهتدى زاده الله هدى. والآيات الدالة على هذا المعنى كثيرة، كقوله في الضلال: {فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللهُ قُلُوبَهُمْ}، وقوله: {بَلْ طَبَعَ اللهُ عَلَيهَا بِكُفْرِهِمْ}، وقوله: {ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ}،

=

=

وقوله تعالى: {وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ ...} الآية، كما قدمنا كثيرًا من الآيات الدالة على هذا المعنى.

وقال في الهدى: {وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ (١٧)}، وقال: {هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ}، وقال: {وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ...} الآية؛ وقد جمع بينهما في آيات أخر؛ كقوله: {وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إلا خَسَارًا (٨٢)}، وقوله تعالى: {قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيهِمْ عَمًى ...} الآية، وقوله تعالى: {وَإِذَا مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ (١٢٤) وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ (١٢٥)} كما تقدم إيضاحه ا.هـ

وقوله- تعالى-: وَالْباقِياتُ الصَّالِحاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوابًا وَخَيْرٌ مَرَدًّا أى:

والأعمال الباقيات الصالحات كالصلاة والزكاة والصيام والحج وغيرها من أعمال البر، خير عند ربك ثوابا وجزاء مما تمتع به الكفار في دنياهم من شهوات وَخَيْرٌ مَرَدًّا أى: مرجعا وعاقبة.

وقال الزمخشري: فإن قلت: كيف قيل: خير عند ربك ثوابا، كأن لمفاخراتهم ثوابا، حتى يجعل ثواب الصالحات خيرا منه؟.

قلت: كأنه قيل: ثوابهم النار على طريقة قوله: تحية بينهم ضرب وجيع، ثم ينى عليه خير ثوابا، وفيه ضرب من التهكم الذي هو أغيظ للمتهدد من أن يقال له: عقابك النار...

والخلاصة أنه لا ثواب لهؤلاء الكافرين سوى النار، أما المؤمنون فثوابهم جنات تجرى من تحتها الأنهار.

=

أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا (٧٧).

{أَفَرَأَيْت الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا} الْعَاصِي بْن وَائِل {وَقَالَ} لِخَبَّابِ بْنِ الْأَرَتّ الْقَائِل لَهُ تُبْعَث بَعْد الْمَوْت وَالْمُطَالِب لَهُ بِمَالٍ {لَأُوتَيَنَّ} عَلَى تقدير البعث {مالا وولدا} فأقضيك قال تعالى.

أَطَّلَعَ الْغَيْبَ أَمِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا (٧٨).

{أَطَّلَعَ الْغَيْب} أَيْ أَعَلِمَهُ وَأَنْ يُؤْتَى مَا قَالَهُ وَاسْتُغْنِيَ بِهَمْزَةِ الِاسْتِفْهَام عَنْ هَمْزَة الْوَصْل فَحُذِفَتْ {أَمْ اتَّخَذَ عِنْد الرَّحْمَن عَهْدًا} بِأَنْ يُؤْتَى مَا قَالَهُ.

كَلَّا سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدًّا (٧٩).

{كَلَّا} أَيْ لَا يُؤْتَى ذَلِكَ {سَنَكْتُبُ} نَأْمُر بِكَتْبِ {مَا يَقُول وَنَمُدّ لَهُ مِنْ الْعَذَاب مَدًّا} نَزِيدهُ بِذَلِكَ عَذَابًا فَوْق عَذَاب كُفْره.

وَنَرِثُهُ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا (٨٠).

{وَنَرِثهُ مَا يَقُول} مِنْ الْمَال وَالْوَلَد {وَيَأْتِينَا} يَوْم الْقِيَامَة {فَرْدًا} لَا مَال لَهُ وَلَا ولد[1].

=

وقال بعض العلماء: «ويظهر لي في الآية جواب آخر أقرب من هذا، وهو أن الكافر يجازى بعمله الصالح في الدنيا، فإذا بر والديه، ونفس عن المكروب.. فإن الله يثيبه في الدنيا. فثوابه هذا الراجع إليه من عمله في الدنيا، هو الذي فضل عليه ثواب المؤمنين، وهذا واضح لا إشكال فيه».

وبذلك نرى الآيات الكريمة، قد حكت جانبا من تباهي الكافرين بدنياهم، وردت عليهم بما يخرس ألسنتهم.

(١) ذكر سبب النزول.

=

=

عن خباب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ قال: كنت رجلًا قَيْنًا بمكة في الجاهلية، فعملت للعاص بن وائل السهمي سيفًا، فاجتمع لي عنده دين (وفي رواية: دراهم)، فأتيته أتقاضاه، فقال: لا والله لا أقضيك حتى تكفر بمحمد، فقلت: أما والله حتى تموت ثم تبعث فلا (وفي رواية: قلت: لا أكفر بمحمد ﷺ حتى يميتك الله ثم يحييك). قال: وإني لميت ثم مبعوث من بعد الموت؟ قلت: نعم، قال: فإنه سيكون لي ثَمَّ مال وولد؛ فأقضيك؛ فأنزل الله تعالى: {أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا (٧٧) أَطَّلَعَ الْغَيْبَ أَمِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا (٧٨) كَلَّا سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدًّا (٧٩) وَنَرِثُهُ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا (٨٠)}.

أخرجه البخاري في "صحيحه" (رقم ٢٠٩١، ٢٢٧٥، ٢٤٢٥، ٤٧٣٢، ٤٧٣٣، ٤٧٣٤، ٤٧٣٥)، ومسلم في "صحيحه" (رقم ٢٧٩٥) وغيرهما.

وعن الحسن؛ قال: كان لرجل من أصحاب النبي ﷺ دَيْن على رجل من المشركين فأتاه يتقاضاه، فقال: ألست مع هذا الرجل؟ قال: نعم، قال: أليس يزعم أن لكم جنة ونارًا وأموالًا وبنين؟ قال: بلى، قال: اذهب فلست بقاضيك إلا ثمة؛ فأنزلت: {أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا} إلى قوله: {وَيَأْتِينَا فَرْدًا}.

ذكره السيوطي في "الدر المنثور" (٥/ ٥٣٦) ونسبه لسعيد بن منصور. ومراسيل الحسن كشبه الريح.

* قوله تعالى: {أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا (٧٧)} [مريم: ٧٧]

أي: أعَلِمْت - أيها الرسول - وعجبت من هذا الكافر «العاص بن وائل» وأمثاله؟ إذ كفر بآيات الله وكذَّب بها وقال: لأعطينَّ في الآخرة أموالا وأولادًا.

والآية -وإن كانت نازلة في كافر معين- فإنها تشمل كل كافر، زعم أنه على الحق، وأنه من أهل الجنة.

=

=

قوله تعالى: {أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا} [مريم: ٧٧]، أي:"أعَلِمْت - أيها الرسول - وعجبت من هذا الكافر «العاص بن وائل» وأمثاله؟ إذ كفر بآيات الله وكذَّب بها".

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: {أَفَرَأَيْتَ} يا محمد {الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا} حججنا فلم يصدّق بها، وأنكر وعيدنا من أهل الكفر".

قوله تعالى: {وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا} [مريم: ٧٧]، أي:"وقال: لأعطينَّ في الآخرة أموالا وأولادًا".

قال يحيى:"أي: في الآخرة".

عن مجاهد، قوله:"{لأُوتَيَنَّ مَالا وَوَلَدًا}، قال: العاص بن وائل يقوله".

قال قتادة:"فذكر لنا أن رجالا من أصحاب رسول الله ﷺ، أتوا رجلا من المشركين يتقاضونه دينا، فقال: أليس يزعم صاحبكم أن في الجنة حريرا وذهبا؟ قالوا: بلى، قال فميعادكم الجنة، فوالله لا أومن بكتابكم الذي جئتم به، استهزاء بكتاب الله، ولأُوتينّ مالا وولدا، يقول الله {أَطَّلَعَ الْغَيْبَ أَمِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا}".

قرأ حمزة والكسائي: «ووُلْدًا» بضم الواو، وقرأ الباقون بفتحها، فاختلف في ضمها وفتحها على وجهين:

أحدهما: أنهما لغتان معناهما واحد، يقال: ولَدَ ووُلْد، وعَدَم وعُدْم، وقال الحارث ابن حلزة:

وَلَقَدْ رأيْتُ مَعاشِرًا... قَدْ ثَمَّرُوا مالا وَوُلْدًا

وقال رُؤْبة:

الحَمْدُ للهِ العَزِيزِ فَرْدَا... لَمْ يَتَّخِذْ مِنْ وُلْدِ شَيْءٍ وُلْدَا

وقال الشاعر:

=

=
فَلَيْتَ فُلانا كانَ في بَطْنِ أُمِّهِ... وَلَيْتَ فُلانا كانَ وُلْدَ حِمار

والثاني: أن قيسًا تجعل «الوُلْد» بالضم جميعًا، و «الولد» بالفتح واحدًا.

قوله تعالى: {أَطَّلَعَ الْغَيْبَ} [مريم: ٧٨]، أي:"هل اطَّلع على الغيب الذي تفرَّد به علاّم الغيوب".

قال الطبري:"يقول عزّ ذكره: أعلم هذا القائل هذا القول علم الغيب، فعلم أن له في الآخرة مالا وولدا باطلاعه على علم ما غاب عنه".

قال مكي:"أي: اعلم هذا القائل الغيب فقال ذلك عن علم غيب عنده؟".

قال يحيى:"على الاستفهام، أي: لم يطلع على الغيب".

قوله تعالى: {أَمِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا} [مريم: ٧٨]، أي:"أم أعطاه الله عهدًا بذلك فهو يتكلم عن ثقةٍ ويقين؟".

قال الطبري:"يقول: أم آمن بالله وعمل بما أمر به، وانتهى عما نهاه عنه، فكان له بذلك عند الله عهدا أن يؤتيه ما يقول من المال والولد".

قال مكي:"أي: أم آمن بالله ورسوله وعمل بطاعته فكان له بذلك عهد عن الله فؤتيه ما يقوله له في الآخرة؟".

عن قتادة:"{أَطَّلَعَ الْغَيْبَ أَمِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا}، بعمل صالح قدّمه".

{أَطَّلَعَ الْغَيْبَ} أي: أحاط علمه بالغيب، حتى علم ما يكون، وأن من جملة ما يكون، أنه يؤتى يوم القيامة مالا وولدا؟ {أَمِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا} أنه نائل ما قاله، أي: لم يكن شيء من ذلك، فعلم أنه متقول، قائل ما لا علم له به. وهذا التقسيم والترديد، في غاية ما يكون من الإلزام وإقامة الحجة؛ فإن الذي يزعم أنه حاصل له خير عند الله في الآخرة، لا يخلو: إما أن يكون قوله صادرا عن علم بالغيوب المستقبلة، وقد علم أن هذا لله وحده، فلا أحد يعلم شيئا من المستقبلات الغيبية، إلا من أطلعه الله عليه من رسله.
=

=

وإما أن يكون متخذا عهدا عند الله، بالإيمان به، واتباع رسله، الذين عهد الله لأهله، وأوزع أنهم أهل الآخرة، والناجون الفائزون. فإذا انتفى هذان الأمران، علم بذلك بطلان الدعوى.

والاستفهام في قوله- سبحانه- أَفَرَأَيْتَ.. للتعجيب من شأن هذا الكافر الجهول والفاء للعطف على مقدر يستدعيه المقام، والتقدير: أنظرت أيها العاقل فرأيت هذا الجاحد الجهول الذي كفر بآياتنا الدالة على وحدانيتنا، وعلى أن البعث حق، وعلى أن ما جاء به رسولنا ﷺ حق وصدق ...

ولم يكتف بهذا الكفر، بل قال بكل تبجح، وإصرار على الباطل، واستهزاء بالدين الحق: والله لَأُوتَيَنَّ في الآخرة مالًا وَوَلَدًا كما هو حالي في الدنيا.

فأنت ترى أن هذا الكافر لم يكتف بكفره، بل أضاف إليه القول الباطل المصحوب بالقسم الكاذب، وبالتهكم بالدين الحق.

وقرأ حمزة والكسائي: لَأُوتَيَنَّ مالًا وَوَلَدًا- بضم الواو الثانية وسكون اللام-، وقرأ الباقون بفتحهما. قالوا: والقراءتان بمعنى واحد كالعرب والعرب. ويرى بعضهم الولد بالفتح للمفرد، والولد- بضم الواو وسكون اللام- للجمع.

وقد رد الله- تعالى- على هذا المتبجح المغرور ردا حكيما ملزما فقال: أَطَّلَعَ الْغَيْبَ أَمِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمنِ عَهْدًا كَلَّا ...

والاستفهام للإنكار والنفي، والأصل: أاطلع فحذفت همزة الوصل للتخفيف.

والمعنى: إن قول هذا الجاهل إما أن يكون مستندا إلى اطلاعه على الغيب وعلمه بأن الله سيؤتيه في الآخرة مالا وولدا، وإما أن يكون مستندا إلى عهد أعطاه الله- تعالى- له بذلك.

ومما لا شك فيه أن كلا الأمرين لم يتحققا بالنسبة له، فهو لم يطلع على الغيب، ولم يتخذ عند الله عهدا، فثبت كذبه وافتراؤه، ولذا كذبه الله- تعالى- بقوله كَلَّا

=

=

وهو قول يفيد الزجر والردع والنفي.

أى: كلا لم يطلع على الغيب، ولم يتخذ عند الرحمن عهدا. بل قال ذلك افتراء على الله.

قوله تعالى: {كَلَّا سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدًّا (٧٩)} [مريم: ٧٩].

أي: ليس الأمر كما يزعم ذلك الكافر، فلا علم له ولا عهد عنده، سنكتب ما يقول مِن كذب وافتراء على الله، ونزيده في الآخرة من أنواع العقوبات، كما ازداد من الغيِّ والضلال.

قوله تعالى: {كَلَّا} [مريم: ٧٩]، أي:"ليس الأمر كما يزعم ذلك الكافر، فلا علم له ولا عهد عنده".

قال مقاتل:"لا يعطى العاص ما يعطي المؤمنون".

قال الطبري:"ليس الأمر كذلك، ما اطلع الغيب، فعلم صدق ما يقول، وحقيقة ما يذكر، ولا اتخذ عند الرحمن عهدا بالإيمان بالله ورسوله، والعمل بطاعته، بل كذب وكفر".

قال الزجاج:"{كَلَّا}: رَدْعٌ وتنبيه، أي هَذَا مما يَرْتَدَعُ منه، ويُنَبه على وَجْه الضلالة فيه".

قوله تعالى: {سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ} [مريم: ٧٩]، أي:"سنكتب ما يقول مِن كذب وافتراء على الله".

قال الزجاج:"أي: سنحفظ عليه".

قال مقاتل:"يعنى: من الحفظة من الملائكة تكتب ما يقول العاص أنه يعطى ما يعطى المؤمنون في الجنة".

قال الطبري:"أي: سنكتب ما يقول هذا الكافر بربه، القائل {لأُوتَيْنّ} في الآخرة {مَالا وَوَلَدًا}".

=

=

قوله تعالى: {وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدًّا} [مريم: ٧٩]، أي:"ونزيده في الآخرة من أنواع العقوبات، كما ازداد من الغيِّ والضلال".

قال مقاتل:"يعني: الذي لا انقطاع له".

قال الطبري:"يقول: ونزيده من العذاب في جهنم بقيله الكذب والباطل في الدنيا، زيادة على عذابه بكفره بالله".

قوله تعالى: {وَنَرِثُهُ مَا يَقُولُ} [مريم: ٨٠]، أي:"ونرثه مالَه وولده".

قال مقاتل:"{ونرثه ما يقول} أنه يعطى في الجنة ما يعطى المؤمنون، فنرثه عنه ويعطاه غيره".

قال الفراء:"يعني: ما يزعم العاص بن وائل أنه له في الجنة، فتجعله لغيره".

قال الزجاج:"أي: نجعل المال والولد لِغَيْرِهِ ونسلبه ذلك".

قال الطبري:"ونسلب هذا القائل: لأوتين في الآخرة مالا وولدا، ماله وولده، ويصير لنا ماله وولده دونه".

عن مجاهد، قوله:"{وَنَرِثُهُ مَا يَقُولُ}، ماله وولده، وذلك الذي قال العاص بن وائل".

عن ابن زيد: {وَنَرِثُهُ مَا يَقُولُ}، قال: ما جمع من الدنيا وما عمل فيها".

قوله تعالى: {وَيَأْتِينَا فَرْدًا} [مريم: ٨٠]، أي:"ويأتينا يوم القيامة فردًا وحده، لا مال معه ولا ولد".

قال الفراء:"خاليا من المال والولد".

قال الطبري:"ويأتينا هو يوم القيامة فردا، وحده لا مال معه ولا ولد".

قال مقاتل:"العاص في الآخرة، ليس معه شيء من دنياه".

عن ابن زيد: {وَيَأْتِينَا فَرْدًا}، قال: فردا من ذلك، لا يتبعه قليل ولا كثير".

قال قتادة:"لا مال له ولا ولد".

=

وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا (٨١).

{وَاتَّخَذُوا} أَيْ كُفَّار مَكَّة {مِنْ دُون الله} الْأَوْثَان {آلِهَة} يَعْبُدُونَهُمْ {لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا} شُفَعَاء عِنْد الله بِأَنْ لَا يُعَذَّبُوا.

كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا (٨٢).

=

وقوله- سبحانه-: سَنَكْتُبُ ما يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذابِ مَدًّا. وَنَرِثُهُ ما يَقُولُ وَيَأْتِينا فَرْدًا بيان للمصير السيئ الذي سيصير إليه هذا الشقي وأمثاله، ونَمُدُّ من المد وأكثر ما يستعمل في المكروه.

أى: سنسجل على هذا الكافر ما قاله، ونحاسبه عليه حسابا عسيرا، ونزيده عذابا فوق العذاب المعد له، بأن نضاعفه له ونطيله عليه وَنَرِثُهُ ما يَقُولُ أى: ما يقول إنه يؤتاه يوم القيامة من المال والولد، بأن نسلبه منه، ونجعله يخرج من هذه الدنيا خالي الوفاض منهما، وليس معه في قبره سوى كفنه، وَيَأْتِينا فَرْدًا أى: ويأتينا يوم القيامة بعد مبعثه منفردا بدون مال أو ولد أو خدم أو غير ذلك مما كان يتفاخر به في الدنيا هو وأشباهه من المغرورين الجاحدين.

قال الزمخشري: فإن قلت: كيف قيل: سنكتب بسين التسويف وهو كما قاله كتبه من غير تأخير قال- تعالى-: ما يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ؟.

قلت: فيه وجهان: أحدهما: سنظهر له ونعلمه أنا كتبنا قوله على طريقة قول الشاعر:

إذا ما انتسبنا لم تلدني لئيمة ... ولم تجدى من أن تقرى بها بدا

أى: تبين وعلم بالانتساب أنى لم تلدني لئيمة.

والثاني: أن المتوعد يقول للجاني: سوف أنتقم منك، يعنى أنه لا يخل بالانتصار وإن تطاول به الزمان واستأخر، فجرد هاهنا لمعنى الوعيد...

{كَـلَّا} أَيْ لَا مَـانِع مِـنْ عَـذَابهمْ {سَـيَكْفُرُونَ} أَيْ الْآلِهَـة {بِعِبَـادَتِهِمْ} أَيْ يَنْفُونَهَا كَمَا فِي آيَة أُخْرَى {مَا كَانُوا إيَّانَا يَعْبُدُونَ} {وَيَكُونُونَ عليهم ضدا} أعوانا وأعداء.

أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا (٨٣).

{ألم تر أنا أرسلنا الشياطين} سلطانهم {على الكافرين تؤزهم} تهيجهم إلى المعاصي {أزا}.

فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا (٨٤).

{فَلَا تَعْجَل عَلَيْهِمْ} بِطَلَبِ الْعَذَاب.

{إِنَّمَا نَعُدّ لَهُمْ} الْأَيَّام وَاللَّيَالِي أَوْ الْأَنْفَاس {عَدًّا} إلَى وَقْت عَذَابهمْ.

يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْدًا (٨٥).

{اُذْكُرْ {يَوْم نَحْشُر الْمُتَّقِينَ} بِإِيمَانِهِمْ {إِلَى الرَّحْمَن وَفْدًا} جَمْع وَافِد بِمَعْنَى رَاكِب.

وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَى جَهَنَّمَ وِرْدًا (٨٦).

{وَنَسُوق الْمُجْرِمِينَ} بِكُفْرِهِمْ {إِلَى جَهَنَّم وِرْدًا} جَمْع وَارِد بِمَعْنَى مَاشٍ عَطْشَان.

لَا يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا (٨٧).

{لَا يَمْلِكُونَ} أَيْ النَّاس {الشَّفَاعَة إِلَّا مَنْ اتَّخَذَ عِنْد الرَّحْمَن عَهْدًا} أَيْ شَهَادَة أَنْ لَا إلَه إلَّا الله وَلَا حَوْل وَلَا قُوَّة إلَّا بِاَللهِ[1].

---

(١) قوله تعالى: {وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللهِ آلِهَةً} [مريم: ٨١]، أي:"واتخذ المشركون آلهة يعبدونها من دون الله".

=

=

قال مقاتل:"ثم ذكر كفار مكة العاص، والنضر، وأبا جهل، وغيرهم فقال سبحانه: واتخذوا من دون الله آلهة يعني اللات، والعزى، ومناة، وهبل".

قوله تعالى: {لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا} [مريم: ٨١]، أي:"لتنصرهم، ويعتزوا بها".

قال الفراء:"يقول: ليكونوا لهم شفعاء فى الآخرة".

قال الزجاج:"أي: أعوانا".

قال مقاتل:"يعني: منعا يمنعونهم من الله- ﷻ-، نظيرها في «يس» {وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللهِ آلِهَةً لَعَلَّهُمْ يُنْصَرُونَ} [يس: ٧٤]، يعني: يمنعون".

والضمير في قوله: وَاتَّخَذُوا يعود إلى أولئك الكافرين الذين ذكر القرآن فيما سبق بعض رذائلهم ودعاواهم الكاذبة، ولما تنته بعد.

أى: واتخذ هؤلاء الجاهلون آلهة باطلة يعبدونها من دون الله- تعالى- لتكون لهم تلك الآلهة عِزًّا أى- لينالوا بها العزة والشفاعة والنصرة والنجاة من عذاب يوم القيامة.

فقد حكى القرآن أنهم كانوا إذا سئلوا عن سبب عبادتهم لهذه الأصنام التي لا تنفع ولا تضر قالوا: ما نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونا إِلَى اللهِ زُلْفى وقالوا: هؤُلاءِ شُفَعاؤُنا عِنْدَ اللهِ....

وقد رد الله- تعالى- عليهم بما يردعهم عن هذا الظن لو كانوا يعقلون فقال: كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا.

قوله تعالى: {كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا (٨٢)} [مريم: ٨٢]

أي: ليس الأمر كما يزعمون، لن تكون لهم الآلهة عزًا، بل ستكفر هذه الآلهة في الآخرة بعبادتهم لها، وتكون عليهم أعوانًا في خصومتهم وتكذيبهم بخلاف ما ظنوه فيها.

قوله تعالى: {كَلَّا} [مريم: ٨٢]، أي:"ليس الأمر كما يزعمون، لن تكون لهم

=

=

الآلهة عزًا".

قال مقاتل:"لا تمنعهم الآلهة من الله".

قوله تعالى: {سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ} [مريم: ٨٢]، أي:"ستكفر هذه الآلهة في الآخرة بعبادتهم لها".

قال مقاتل:"يقول: ستبرأ الآلهة في الآخرة من كل من كان يعبدها في الدنيا".

قال مكي:"أي: ستجحد الآلهة يوم القيامة عبادتهم لها. وهو قوله تعالى: {تَبَرَّأْنَآ إِلَيْكَ مَا كانوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ} [القصص: ٦٣] فتبرؤها منهم هو جحدها لعبادتهم إياها".

قال القشيري:"حكموا بظنهم الفاسد أن أصنامهم تمنعهم، وأن ما عبدوه من دون الله تعالى توجب عبادتهم لهم عند الله تعالى وسيلة.. وهيهات! هيهات أن تكون لمغاليط حسبانهم تحقيق، بل إذا حشروا وحشرت أصنامهم تبرأت أصنامهم منهم، وما أملوا نفعا منها عاد ضررا عليهم، ويقال: طلبوا العز فى أماكن الذل، فأخفقوا فى الطلب، ونفوا عن المراد".

قوله تعالى: {وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا} [مريم: ٨٢]، أي:"وتكون عليهم أعوانًا في خصومتهم وتكذيبهم بخلاف ما ظنوه فيها".

قال مقاتل:"يقول تكون آلهتهم يومئذ لهم أعداء".

قال القاسم بن سلام:"عدوا وخصما بلغة كنانة".

قال الفراء:"يكونون عليهم أعوانا".

وكَلَّا لفظ جيء به لزجرهم وردعهم عن هذا الاتخاذ الفاسد الباطل. أى: ليس الأمر كما توهم الجاهلون من أن أصنامهم ستكون لهم عزا، بل الحق أن هذه المعبودات الباطلة ستكون عدوة لهم. وقرينتهم في النار.

وشبيه بهذه الآية قوله- تعالى-: وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللهِ مَنْ لا

=

=
يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلى يَوْمِ الْقِيامَةِ وَهُمْ عَنْ دُعائِهِمْ غافِلُونَ، وَإِذا حُشِرَ النَّاسُ كانُوا لَهُمْ أَعْداءً وَكانُوا بِعِبادَتِهِمْ كافِرِينَ.

وقوله- سبحانه-: إِنْ تَدْعُوهُمْ لا يَسْمَعُوا دُعاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجابُوا لَكُمْ، وَيَوْمَ الْقِيامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ، وَلا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ.

وأفرد- سبحانه- عِزًّا وضِدًّا مع أن المراد بهما الجمع. لأنهما مصدران ثم بين- ﷻ أن هؤلاء الكافرين قد استحوذت عليهم الشياطين فزادتهم كفرا على كفرهم، فقال- تعالى-: (أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّياطِينَ عَلَى الْكافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا فَلا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّما نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا).

قوله تعالى: {أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا (٨٣)} [مريم: ٨٣]

أي: ألم تر - أيها الرسول - أنَّا سلَّطْنا الشياطين على الكافرين بالله ورسله؛ لتغويهم، وتدفعهم عن الطاعة إلى المعصية؟

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: ألم تر يا محمد أنا أرسلنا الشياطين على أهل الكفر بالله (تَؤُزُّهُمْ) يقول: تحرّكهم بالإغواء والإضلال، فتزعجهم إلى معاصي الله، وتغريهم بها حتى يواقعوها {أزّا} إزعاجا وإغواء".

قال مقاتل:"يعني: تزعجهم إزعاجا وتغريهم إغراء تزين لهم الذي هم عليه من الشرك ويقول إن الأمر الذي أنتم عليه لأمر حق".

قال الفراء:"تزعجهم إلى المعاصي وتغريهم بها".

قال ابن قتيبة:"تزعجهم وتحركهم إلى المعاصي".

قال أبو عبيدة:"أي: تهيّجهم وتغوبهم، قال رؤبة:

لا يأخذ التأفيك والتّحزّى... فينا ولا قذف العدى ذو الأزّ

«العدى» بضم العين: الأعداء، و «العدى» بكسر العين: الغرباء".

=

=

قال الزجاج:"أي تحملهم على المعاصي حملا شديدا، تزعجهم في شدة الغى. ويجوز إنا جعلنا الشياطين أولياء لفذين لا مهلؤمنون، أيسوينا بين الشياطين والكافرين في الذهاب عن الله. كما قال: {الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْض} [التوبة: ٦٧]".

عن ابن عباس والضحاك، قوله: " {أَزًّا}، يقول: تغريهم إغراء".

قال ابن عباس: تؤزّ الكافرين إغراء في الشرك: امض امض في هذا الأمر، حتى توقعهم في النار، امضوا في الغيّ امضوا".

قال قتادة:"تزعجهم إزعاجا في معصية الله".

وقال العوفي عن ابن عباس: "تحرضهم على محمد وأصحابه".

وقال مجاهد:"تُشليهم إشلاء".

وقال سفيان الثوري: ت"غريهم إغراء وتستعجلهم استعجالا".

وقال السدي: "تطغيهم طغيانا".

وقال عبد الرحمن بن زيد: "هذا كقوله تعالى: {وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ} [الزخرف: ٣٦]".

قال سهل بن عبد الله:"تزعجهم بالمعاصي إزعاجا، وتدعوهم إليها بما تهوى أنفسهم بترك عصمة الله، كما قال تعالى في قصة اللعين: {وما كان لي عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم لي} [إبراهيم: ٢٢]، ودعاؤه على مقامات فقد يكون إلى الشر، وقد يكون إلى الخير، كما قال النبي ﷺ: «إن الشيطان ليورد أحدكم سبعين بابا من الخير ليوقعه في باب من الشر فيهلكه»، قال: وإن اللعين يوسوس إلى جميع أهل العبادات وأصحاب الجهد، ولا يبالي منهم إلا من لا يدخل في شيء، حتى يعلم أنه له أو عليه، وإنما وقع المغاليط للعباد والزهاد في العلم لا في الاجتهاد، فلم يكن لهم حال يعرفونها فيما بينهم وبين ربهم، فإن الله

=

=

تعالى إذا حاسب العبد يوم القيامة فكل فعل عرف صاحبه حاله فيه من طاعة أو معصية ثبت عقله له، وما جهل فيه حاله تحير ودهش لذلك لأنه إذا عرف حاله صحت الطاعة والتوبة بحجة الله، وإذا لم يعرف يتحير ويدهش لأنه عمل بغير حجة.

وسئل سهل عن رجل يذكر الله فيخطر بقلبه: إن الله معك. قال: هو مكلف ثالث، إما أن يكون عدوا فيريد أن يقطعه، وإما أن يكون ذلك نفسه تريد أن تخونه وتخدعه، فلا يلتفتن إلى الخواطر في هذه الحال، والله سبحانه وتعالى أعلم".

قوله تعالى: {فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا (٨٤)} [مريم: ٨٤]

أي: فلا تستعجل - أيها الرسول - بطلب العذاب على هؤلاء الكافرين، إنما نحصي أعمارهم وأعمالهم إحصاءً لا تفريط فيه ولا تأخير.

قوله تعالى: {فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ} [مريم: ٨٤]، أي:"فلا تستعجل - أيها الرسول - بطلب العذاب على هؤلاء الكافرين".

قال مقاتل:"يقول للنبي - ﷺ - فلا تستعجل لهم بالعذاب".

قال الطبري:"يقول عزّ ذكره: فلا تعجل على هؤلاء الكافرين بطلب العذاب لهم والهلاك، يا محمد".

قوله تعالى: {إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا} [مريم: ٨٤]، أي:"إنما نحصي أعمارهم وأعمالهم إحصاءً لا تفريط فيه ولا تأخير".

قال الفراء:"يقال: الأيام والليالي والشهور والسنون. وقال بعض المفسرين: الأنفاس".

قال ابن قتيبة:"أي: أيام الحياة. ويقال: الأنفاس".

قال مقاتل:"{نعد لهم} آجالهم {عدا} يعني: الأنفاس".

قال الطبري:"يقول: فإنما نؤخر إهلاكهم ليزدادوا إثما، ونحن نعدّ أعمالهم كلها

=

=

ونحصيها حتى أنفاسهم لنجازيهم على جميعها، ولم نترك تعجيل هلاكهم لخير أردناه بهم".

عن ابن عباس، قوله: " {إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا}، يقول: أنفاسهم التي يتنفسون في الدنيا، فهي معدودة كسنهم وآجالهم".

عن سعيد بن جبير، قال: "كتب في أول الصحيفة، أجله ثم يكتب أسفل من ذلك: ذهب يوم كذا، وذهب يوم كذا حتى يأتي على أجله".

قال ابن الجوزي:"زعم بعض المفسرين: أن قوله تعالى: [{فَلا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا}] منسوخة بآية السيف، وهذا ليس بصحيح، لأنه إن كان المعنى: لا تعجل بطلب عذابهم الذي يكونفي الآخرة فإن المعنى أن أعمارهم سريعةالفناء، فلا وجه للنسخ. وإن كان المعنى: ولا تعجل بطلب قتالهم، فإن هذه السورة نزلت بمكة ولم يؤمر حينئذ بالقتال فنهيه عن الاستعجال بطلب القتال، واقع في موضعه، ثم أمره بقتالهم بعد الهجرة لا ينافي النهي عن طلب القتال بمكة فكيف يتوجه النسخ. فسبحان من قدر وجود قوم جهال يتلاعبون بالكلام في القرآن، ويدعون نسخ ما ليس بمنسوخ، وكل ذلك من سوء الفهم، نعوذ بالله منه".

والمعنى: لقد علمت أنت وأتباعك أيها الرسول الكريم، أنا أرسلنا الشياطين على الكافرين، وسلطانهم عليهم، وقيضناهم لهم، لكي يحضوهم على ارتكاب السيئات، ويحركوهم تحريكا شديدا نحو الموبقات حتى يقترفوها وينغمسوا فيها..

ومادام الأمر كذلك. فذرهم في طغيانهم يعمهون، ولا تتعجل وقوع العذاب بهم. فإن الله- تعالى- قد حدد- بمقتضى حكمته- وقتا معينا لنزول العذاب بهم.

قال ابن القيم في شفاء العليل: ومن ذلك قوله تعالى: {أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا} [مريم: ٨٣]، فالإرسال ههنا إرسال كوني قدري،

=

=

كإرسال الرياح، وليس بإرسال ديني شرعي، فهو إرسال تسليط، بخلاف قوله في المؤمنين: {إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ} [الحجر: ٤٢]، فهذا السلطان المنفي عنه على المؤمنين، هو الذي أرسل به جنده على الكافرين.

قال أبو إسحاق: "ومعنى الإرسال ههنا التسليط، تقول: قد أرسلت فلانًا على فلان إذا سلّطته عليه، كما قال: {إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ} فأعلم أن من اتبعه هو مسلَّط عليه".

قلت: ويشهد له قوله تعالى: {يَتَوَكَّلُونَ (٩٩) إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ} [النحل: ١٠٠]، وقوله: {تَؤُزُّهُمْ أَزًّا}، فالأزّ في اللغة: التحريك والتهييج، ومنه يقال لغليان القدر: الأزيز؛ لتحرك الماء عند الغليان.

وفي الحديث: كان لصدر رسول الله ﷺ أزيز كأزيز المِرْجَل من البكاء.

وعبارات السلف تدور على هذا المعنى.

قال ابن عباس: "تغريهم إغراء"، وفي رواية أخرى عنه: "تشْلِيهم إشلاء"، وفي رواية أخرى: "تحرضهم تحريضًا"، وفي أخرى: "تزعجهم إلى المعاصي إزعاجًا"، وفي أخرى: "توقدهم إيقادًا، أي: كما يتحرك الماء بالوقود تحته".

قال أبو عبيدة: "الأزيز الالتهاب والحركة، كالتهاب النار في الحطب، يقال: أُزَّ قدْرَكَ، أي: ألْهِب تحتها النار، وائْتَزَّت القدر إذا اشتد غليانها"، وهذا اختيار الأخفش.

والتحقيق أن اللفظة تجمع المعنيين جميعًا.

قالت القدرية: معنى {أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ} خلّينا بينهم وبين الكافرين، وليس معناه التسليط.

قال أبو علي: "الإرسال يستعمل بمعنى التخلية بين المرسل وما يريد، فمعنى الآية: خلينا بين الشياطين وبين الكافرين، ولم نمنعهم منهم، ولم نعذهم، بخلاف

=

=

المؤمنين الذين قيل فيهم: {إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ}".

قال الواحدي: "وإلى هذا الوجه تذهب القدرية في معنى الآية"، قال: "وليس المعنى على ما ذهبوا إليه".

وقال أبو إسحاق: "والمختار أنهم أُرسلوا عليهم، وقُيِّضوا لهم بكفرهم، كما قال تعالى: {وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ} [الزخرف: ٣٦]، وقال: {لَهُمْ قُرَنَاءَ فَزَيَّنُوا لَهُمْ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ} [فصلت: ٢٥] وإنما معنى الآية التسليط".

قلت: وهذا هو المفهوم من معنى الإرسال، كما في الحديث: "إذا أرسلتَ كلبك المُعَلَّم" أي: سلَّطته، ولو خَلَّى بينه وبين الصيد من غير إرسال منه لم يُبَح صيده.

وكذلك قوله: {وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمِ الرِّيحَ الْعَقِيمَ} [الذاريات: ٤١]، أي: سلّطناها وسخّرناها عليهم.

وكذلك قوله: {وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ} [الفيل: ٣]، وكذلك قوله: {إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً} [القمر: ٣١].

والتخلية بين المُرْسَل وبين ما أُرْسِل عليه من لوازم هذا المعنى، ولا يتم التسليط إلا به، فإذا أُرْسِل الشيء الذي من طبعه وشأنه أن يفعل فعلًا ولم يمنعه من فعله فهذا هو التسليط.

ثم إنّ القدرية تناقضوا في هذا القول، فإنهم إن جوَّزوا منعهم منهم وعصمتهم وإعاذتهم فقد نقضوا أصلهم؛ فإنّ مَنْع المختار من فعله الاختياري مع سلامة آلته وصحة بنيته يدل على أن فعله وتركه مقدور للربّ، وهذا عين قول أهل السنة.

وإن قالوا: لا يقدر على منعهم وعصمتهم منهم وإعاذتهم، فقد جعلوا قدرتهم ومشيئتهم بفعل ما لا يقدر الرب على المنع منه، وهذا أبطل الباطل.

ثم قالت القدرية: معنى {تَؤُزُّهُمْ أَزًّا}: تأمرهم بالمعاصي أمرًا. وحكوا ذلك عن

=

=

الضحاك.

وهذا لا يُلتفت إليه؛ إذ لا يُقال لمن أَمَر غيره بشيء: قد أزّه. ولا تساعد اللغة على ذلك، ولو كان ذلك صحيحًا لكانت تؤز المؤمنين أيضًا؛ فإنها تأمرهم بالمعاصي أكثر من أمر الكافرين؛ فإن الكافر سريع الطاعة والقبول من الشيطان، فلا يحتاج من أمره إلى ما يحتاج إليه من أمر المؤمنين، بل يأمر الكافر مرّة، ويأمر المؤمن مرات، فلو كان الأزّ الأمر لم يكن له اختصاص بالكافرين ا.هـ

وقوله: إِنَّما نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا تعليل لموجب النهى ببيان أن وقت هلاكهم قد اقترب، إذ كل معدود له نهاية ينتهى عندها.

قال القرطبي ما ملخصه: قوله: إِنَّما نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا يعنى الأيام والليالى والشهور والسنين إلى انتهاء أجل العذاب.. وقال الضحاك: نعد أنفاسهم وقال قطرب: نعد أعمالهم عدا.

روى أن المأمون قرأ هذه السورة فمر بهذه الآية وعنده جماعة من الفقهاء فأشار برأسه إلى ابن السماك أن يعظه، فقال: إذا كانت الأنفاس بالعدد، ولم يكن لها مدد، فما أسرع ما تنفد، وقيل في هذا المعنى:

حياتك أنفاس تعد فكلما ... مضى نفس منك انتقصت به جزءا

يميتك ما يحييك في كل ليلة ... ويحدوك حاد ما يريد به الهزءا

وكان ابن عباس- رضى الله عنهما- إذا قرأ هذه الآية بكى وقال: آخر العدد: خروج نفسك. آخر العدد: فراق أهلك آخر العدد: دخول قبرك.

قوله تعالى: {يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْدًا (٨٥) وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَى جَهَنَّمَ وِرْدًا (٨٦)} [مريم: ٨٥ - ٨٦]

أي: يوم نجمع المتقين إلى ربهم الرحيم بهم وفودًا مكرمين. ونسوق الكافرين بالله سوقًا شديدًا إلى النار مشاة عِطاشًا.

=

=

قوله تعالى: {يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْدًا} [مريم: ٨٥]، أي:"يوم نجمع المتقين إلى ربهم الرحيم بهم وفودًا مكرمين".

قال مقاتل:"يعنى: الموحدين {إلى الرحمن وفدا} على النجائب على رحلاتها منابر الحضر".

قال الطبري:"يوم نجمع الذين اتقوا في الدنيا فخافوا عقابه، فاجتنبوا لذلك معاصيه، وأدوا فرائضه إلى ربهم {وَفْدًا} يعني بالوفد: الركبان، يقال: وفدت على فلان: إذا قدمت عليه، وأوفد القوم وفدا على أميرهم، إذا بعثوا قبلهم بعثا. والوفد في هذا الموضع بمعنى الجمع، ولكنه واحد، لأنه مصدر واحدهم وافد، وقد يجمع الوفد: الوفود، كما قال بعض بني حنيفة:

إنّي لَمُمْتَدِح فَمَا هُوَ صَانِعٌ... رأسُ الوُفُودِ مُزاحِمُ بن جِساس".

قال عمرو بن قيس الملائي: "إن المؤمن إذا خرج من قبره استقبله أحسن صورة، وأطيبها ريحا، فيقول: هل تعرفني؟ فيقول: لا إلا أن الله طيب ريحك وحسن صورتك، فيقول: كذلك كنت في الدنيا أنا عملك الصالح طالما ركبتك في الدنيا، فاركبني أنت اليوم، وتلا (يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْدًا}".

وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: " {يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْدًا} قال: ركبانًا".

وعن أبي هريرة: " {يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْدًا} قال: على الإبل".

وقال ابن جُريج: "على النجائب".

وقال الثوري:"على الإبل النوق".

وقال قتادة: "وفدا إلى الجنة".

عن النعمان بن سعد قال: "كنا جلوسًا عند عليّ، ﷺ، فقرأ هذه الآية: {يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْدًا} قال: لا والله ما على أرجلهم يحشرون، ولا

=

=

يحشر الوفد على أرجلهم، ولكن بنوق لم ير الخلائق مثلها، عليها رحائل من ذهب، فيركبون عليها حتى يضربوا أبواب الجنة".

قوله تعالى: {وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَى جَهَنَّمَ وِرْدًا} [مريم: ٨٦]، أي:"ونسوق الكافرين بالله سوقًا شديدًا إلى النار مشاة عِطاشًا".

قال مقاتل:"يرونها فى الدخول وهم عطاش".

قال القاسم بن سلام:"حفاة مشاة عطاشا بلغة قريش".

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: ونسوق الكافرين بالله الذين أجرموا إلى جهنم عطاشا".

عن ابن هريرة وابن عباس والحسن وسفيان: قوله:"{وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَى جَهَنَّمَ وِرْدًا}، يقول: عطاشا".

وقال قتادة:"ظماء إلى النار".

قال قتادة:"سوقوا إليها وهم ظمء عطاش".

ثم بين- سبحانه- عاقبة المتقين، وعاقبة المجرمين يوم القيامة فقال: يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمنِ وَفْدًا وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلى جَهَنَّمَ وِرْدًا لا يَمْلِكُونَ الشَّفاعَةَ إِلَّا مَنِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمنِ عَهْدًا ويَوْمَ ظرف منصوب بقوله: لا يَمْلِكُونَ ... أى: لا يملكون الشفاعة يوم نحشر المتقين.. ويجوز أن يكون منصوبا بفعل محذوف تقديره: اذكر أو احذر..

وقوله: وَفْدًا جمع وافد. يقال: وفد فلان على فلان يفد وفدا ووفودا، إذا أقدم عليه، وفعله من باب وعد.

ويطلق الوفد على الجمع من الرجال الذين يفدون على غيرهم لأمر من الأمور الهامة، وهم راكبون على دوابهم. وهذا الإطلاق هو المراد باللفظ هنا.

والمعنى: واذكر- أيها العاقل- يوم القيامة، يوم نحشر المتقين إلى جنة الرحمن،

=

=

ودار كرامته راكبين على مراكب تنشرح لها النفوس وتسر لها القلوب.

قال ابن كثير عند تفسيره لهذه الآية ما ملخصه: يخبر الله- تعالى- عن أوليائه المتقين، الذين خافوه في الدار الدنيا، واتبعوا رسله وصدقوهم، أنه يحشرهم يوم القيامة وفدا إليه. والوفد هم القادمون ركبانا ومنه الوفود، وركوبهم على نجائب من نور من مراكب الدار الآخرة. وهم قادمون على خير موفود إليه، إلى دار كرامته ورضوانه.

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبو سعيد الأشج.. عن ابن مرزوق قال: يستقبل المؤمن عند خروجه من قبره أحسن صورة رآها، وأطيبها ريحا، فيقول: من أنت؟ فيقول: أما تعرفني؟ فيقول: لا، إلا أن الله- تعالى- طيب ريحك وحسن وجهك. فيقول: أنا عملك الصالح.. فهلم فاركبنى فذلك قوله: يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمنِ وَفْدًا.

وقوله- تعالى-: وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلى جَهَنَّمَ وِرْدًا بيان لسوء عاقبة المجرمين بعد بيان ما أعده الله للمتقين من نعيم.

ووِرْدًا أى: عطاشا. وأصل الورد الإتيان إلى الماء بقصد الارتواء منه بعد العطش الشديد.

أى: ونسوق المجرمين الذين ارتكبوا الجرائم في دنياهم، نسوقهم سوقا إلى جهنم كما تساق البهائم. حالة كونهم عطاشا، يبحثون عن الماء فلا يجدونه.

قال ابن كثير: يخبر تعالى عن أوليائه المتقين، الذين خافوه في الدار الدنيا واتبعوا رسله وصدقوهم فيما أخبروهم، وأطاعوهم فيما أمروهم به، وانتهوا عما عنه زجروهم: أنه. يحشرهم يوم القيامة وفدا إليه. والوفد: هم القادمون ركبانا، ومنه الوفود وركوبهم على نجائب من نور، من مراكب الدار الآخرة، وهم قادمون على خير موفود إليه، إلى دار كرامته ورضوانه. وأما المجرمون المكذبون للرسل

=

=

المخالفون لهم، فإنهم يساقون عنفا إلى النار، {وردا} عطاشا، قاله [عطاء]، وابن عباس، ومجاهد، والحسن، وقتادة، وغير واحد. وهاهنا يقال: {أي الفريقين خير مقاما وأحسن نديا} [مريم: ٧٣].

قوله تعالى: {لَا يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ} [مريم: ٨٧]، أي:"لا يملك هؤلاء الكفار الشفاعة لأحد".

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: لا يملك هؤلاء الكافرون بربهم يا محمد، يوم يحشر الله المتقين إليه وفدا الشفاعة، حين يشفع أهل الإيمان بعضهم لبعض عند الله، فيشفع بعضهم لبعض".

قوله تعالى: {إِلَّا مَنِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا} [مريم: ٨٧]، أي:"إنما يملكها مَنِ اتخذ عند الرحمن عهدًا بذلك، وهم المؤمنون بالله ورسله".

قال الطبري: أي:"في الدنيا {عَهْدًا} بالإيمان به، وتصديق رسوله، والإقرار بما جاء به، والعمل بما أمر به".

قال ابن كثير:"هذا استثناء منقطع، بمعنى: لكن من اتخذ عند الرحمن عهدًا، وهو شهادة أن لا إله إلا الله، والقيام بحقها".

قال ابن عباس:"العهد: شهادة أن لا إله إلا الله، ويتبرأ إلى الله من الحول والقوّة ولا يرجو إلا الله".

قال ابن جريج:"المؤمنون يومئذ بعضهم لبعض شفعاء {إِلا مَنِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا}، قال: عملا صالحا".

قال ابن وهب:"وسمعت الليث يقول في هذه الآية: {لا يملكون الشفاعة إلا من اتخذ عند الرحمن عهدا}، قال: عهده: حفظ كتبه".

عن قتادة، قوله:"{لا يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ إِلا مَنِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا}: أي بطاعته، وقال في آية أخرى: {لا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ

=

=
قَوْلا}، ليعلموا أن الله يوم القيامة يشفع المؤمنين
بعضهم في بعض، ذكر لنا أن نبيّ الله ﷺ كان يقول: «إنَّ في أُمَّتِي رَجُلا لَيُدْخِلَنَّ اللهُ بِشَفاعَتِهِ الجَنَّةَ أكْثَرَ مِنْ بني تَمِيمٍ»، وكنا نحدّث أن الشهيد يشفع في سبعين من أهل بيته".

عن عوف بن مالك، قال: قال رسول الله ﷺ: "إنَّ شَفاعَتِي لِمَنْ ماتَ مِنْ أُمَّتِي لا يُشْرِكُ باللهِ شَيئًا".

عن الأسود بن يزيد قال: "قرأ عبد الله - يعني ابن مسعود - هذه الآية: {إِلا مَنِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا} ثم قال: اتخذوا عند الله عهدًا، فإن الله يقول يوم القيامة: "من كان له عند الله عهد فليقم" قالوا: يا أبا عبد الرحمن، فَعلمنا. قال: قولوا: اللهم، فاطر السماوات والأرض، عالم الغيب والشهادة، فإني أعهد إليك في هذه الحياة الدنيا أنك إن تكلني إلى عمل تقربني من الشر وتباعدني من الخير، وإني لا أثق إلا برحمتك، فاجعل لي عندك عهدًا تُؤدّيه إلي يوم القيامة، إنك لا تخلف الميعاد.

قال المسعودي: فحدثني زكريا، عن القاسم بن عبد الرحمن، أخبرنا ابن مسعود: وكان يُلْحِقُ بهن: خائفًا مستجيرًا مستغفرًا، راهبًا راغبًا إليك".

والضمير في قوله- تعالى-: لا يَمْلِكُونَ الشَّفاعَةَ.. يرى بعضهم أنه يعود إلى المجرمين في قوله نَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ ...

أى: نسوق المجرمين إلى جهنم عطاشا، حالة كونهم لا يملكون الشفاعة لغيرهم، ولا يستحقون أن يشفع لهم غيرهم، لكن من اتخذ عند الرحمن عهدا وهم المؤمنون الصادقون فإنهم يملكونها بتمليك الله- تعالى- لهم إياها وإذنه لهم فيها، كما قال- تعالى-: مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ.. وكما قال- سبحانه-: وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّماواتِ لا تُغْنِي شَفاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللهُ لِمَنْ
=

وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا (٨٨).

{وَقَالُوا} أَيْ الْيَهُود وَالنَّصَارَى وَمَنْ زَعَمَ أَنَّ الْمَلَائِكَة بَنَات الله {اتخذ الرحمن ولدا} قال تعالى لهم.

لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا (٨٩).

=

يَشاءُ وَيَرْضى.

وعلى هذا التفسير يكون الاستثناء منقطعا.

قال القرطبي: «قوله- تعالى-: لا يَمْلِكُونَ الشَّفاعَةَ أى: هؤلاء الكفار لا يملكون الشفاعة لأحد إِلَّا مَنِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمنِ عَهْدًا وهم المسلمون فيملكونها، فهو استثناء الشيء من غير جنسه. أى: لكن من اتخذ عند الرحمن عهدا يشفع، فمن في موضع نصب على هذا ... ويرى آخرون أن الضمير في قوله: لا يَمْلِكُونَ ... يعود إلى فريقى المتقين والمجرمين.

أى: لا يملك أحد من الفريقين يوم القيامة الشفاعة لأحد، ولا يملك غيرهم الشفاعة لهم، إِلَّا مَنِ اتَّخَذَ منهم عِنْدَ الرَّحْمنِ عَهْدًا وهم المؤمنون فإنهم يملكون بإذن الله لهم.

والمراد بالعهد الأمر والإذن، يقال: عهد الأمير إلى فلان بكذا، إذا أمره به. أو أذن له في فعله.

وعلى هذا يكون الاستثناء متصلا، ويكون لفظ مَنِ بدل من الواو في يَمْلِكُونَ.

قال الآلوسى ما ملخصه: «قوله لا يَمْلِكُونَ الشَّفاعَةَ ضمير الجمع يعم المتقين والمجرمين، أى: العباد مطلقا ... وقوله إِلَّا مَنِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمنِ عَهْدًا استثناء متصل ... والمعنى: لا يملك العباد أن يشفعوا لغيرهم، إلا من اتصف منهم بما يستأهل معه أن يشفع وهو المراد بالعهد ...".

{لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا} أَيْ مُنْكَرًا عَظِيمًا.

تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا (٩٠).

{تكاد} بالتاء والياء {السماوات يَتَفَطَّرْنَ} بِالتَّاءِ وَتَشْدِيد الطَّاء بِالِانْشِقَاقِ وَفِي قِرَاءَة بِالنُّونِ {مِنْهُ وَتَنْشَقّ الْأَرْض وَتَخِرّ الْجِبَال هَدًّا} أَيْ تَنْطَبِق عَلَيْهِمْ مِنْ أَجْل.

أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا (٩١) .

{أن دعوا للرحمن ولدا} قال تعالى.

وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا (٩٢).

{وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذ وَلَدًا} أَيْ مَا يَلِيق بِهِ ذَلِكَ.

إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا (٩٣).

{إن} أي ما {كل من في السماوات وَالْأَرْض إِلَّا آتِي الرَّحْمَن عَبْدًا} ذَلِيلًا خَاضِعًا يَوْم الْقِيَامَة مِنْهُمْ عُزَيْر وَعِيسَى.

لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا (٩٤).

{لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا} فَلَا يَخْفَى عَلَيْهِ مَبْلَغُ جَمِيعِهِمْ وَلَا وَاحِدٌ مِنْهُمْ.

وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا (٩٥).

{وَكُلّهمْ آتِيه يَوْم الْقِيَامَة فَرْدًا} بِلَا مَال ولا نصير يمنعه[1].

---

(١) قوله تعالى: {وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا (٨٨)} [مريم: ٨٨]؟

قال مقاتل:"من الملائكة، حين قالوا إنهن بنات الله- تعالى-، منهم: النضر ابن الحارث".

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: وقال هؤلاء الكافرون بالله: {اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ =

=

وَلَدًا}".

قال القرطبي:"يعني: اليهود والنصارى، ومن زعم أن الملائكة بنات الله".

قال السعدي:"وهذا تقبيح وتشنيع لقول المعاندين الجاحدين، الذين زعموا أن الرحمن اتخذ ولدا، كقول النصارى: المسيح ابن الله، واليهود: عزير ابن الله، والمشركين: الملائكة بنات الله، تعالى الله عن قولهم علوا كبيرا".

وهذا تقبيح وتشنيع لقول المعاندين الجاحدين، الذين زعموا أن الرحمن اتخذ ولدا، كقول النصارى: المسيح ابن الله، واليهود: عزير ابن الله، والمشركين: الملائكة بنات الله، تعالى الله عن قولهم علوا كبيرا.

والضمير في قوله- تعالى-: وَقالُوا يشمل كل من تفوه بهذا القول الباطل سواء أكان من اليهود أم من النصارى أم من المشركين.

قوله تعالى: {لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا (٨٩)} [مريم: ٨٩]

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره للقائلين ذلك من خلقه: لقد جئتم أيها الناس شيئا عظيما من القول منكرا".

قال السعدي:"أي: عظيما وخيما".

عن ابن عباس: قوله: {شَيْئًا إِدًّا}، يقول: قولا عظيما".

قال ابن عباس:"يقول: لقد جئتم شيئا عظيما وهو المنكر من القول".

عن مجاهد وقتادة، قوله:"{شَيْئًا إِدًّا}، قال: عظيما".

قال ابن زيد:"جئتم شيئا كبيرا من الأمر حين دعوا للرحمن ولدا".

وقوله: لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا توبيخ وتقريع من الله- تعالى- لهم على هذا القول المنكر.

أى: لقد جئتم بقولكم هذا أيها الضالون شيئا فظيعا عجيبا منكرا تقشعر لهوله الأبدان.

=

=

والإد والإدة- بكسر الهمزة- الأمر الفظيع والداهية الكبيرة. يقال: فلان أدته الداهية فهي تئده وتؤدة، إذا نزلت به وحطمت كيانه.

قوله تعالى: {تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ} [مريم: ٨٩]، أي:"تكاد السموات يتشقَّقْنَ مِن فظاعة ذلكم القول".

قال الطبري:"تكاد السماوات يتشققن قطعا من قيلهم".

قوله تعالى: {وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ} [مريم: ٨٩]، أي:"وتتصدع الأرض غضبا لله".

قال الطبري:"وتكاد الأرض تنشق، فتنصدع من ذلك".

قال السعدي:"أي: تتصدع وتنفطر منه".

قوله تعالى: {وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا} [مريم: ٨٩]، أي:"وتسقط الجبال سقوطًا شديدًا غضبًا لله".

قال الطبري:"يقول: وتكاد الجبال يسقط بعضها على بعض سقوطا. والهد: السقوط".

قال السعدي:"أي: تندك الجبال".

قال الفراء: {هَدًّا} :أي: "كسرا".

قال ابو عبيدة:"أي: سقطت".

عن ابن عباس، قوله " {وتخر الجبال هدا}، يقول: هدما".

قال ابن عباس:"الهد: الانقضاض".

عن ابن زيد: قوله:"{وتخر الجبال هدا}، قال: غضبا لله".

قوله تعالى: {أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا} [مريم: ٩٠]، أي:"من أجل أنهم نسبوا إلى الله اتخاذ الولد".

قال الطبري:"لأن دعوا للرحمن ولدا".

قال السعدي:"أي: من أجل هذه الدعوى القبيحة تكاد هذه المخلوقات، أن يكون

=

=

منها ما ذكر".

قال الصابوني:"أي: ما يليق به سبحانه اتخاذ الولد، لأن الولد يقتضي المجانسة ويكون عن حاجة، وهو المنزَّه عن الشبيه والنظير، والغني عن المعين والنصير".

قال مجاهد:"ذكر لنا أن كعبا كان يقول: غضبت الملائكة، واستعرت جهنم، حين قالوا ما قالوا".

قال ابن عباس:"إن الشرك فزعت منه السماوات والأرض والجبال، وجميع الخلائق إلا الثقلين، وكادت أن تزول منه لعظمة الله، وكما لا ينفع مع الشرك إحسان المشرك، كذلك نرجو أن يغفر الله ذنوب الموحدين. وقال رسول الله ﷺ: "لقنوا موتاكم شهادة أن لا إله إلا الله، فمن قالها عند موته وجبت له الجنة" قالوا: يا رسول الله، فمن قالها في صحته؟ قال: تلك أوجب وأوجب". ثم قال: "والذي نفسي بيده لو جيء بالسماوات والأرضين وما فيهن وما بينهن وما تحتهن، فوضعن في كفة الميزان، ووضعت شهادة أن لا إله إلا الله في الكفة الأخرى، لرجحت بهن".

وقوله- سبحانه-: تَكادُ السَّماواتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ ... في موضع الصفة لقوله إِدًّا.

أى: لقد جئتم بقولكم هذا أمرا منكرا فظيعا، تكاد السموات يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ أى: يتشققن من هوله، من التفطير بمعنى التشقيق، يقال: فلان فطر هذا الشيء يفطره- بكسر الطاء وضمها- إذا شقه. وقرأ حمزة وابن عامر ينفطرن من الانفطار وهو الانشقاق- أيضا-.

وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ أى: وتتصدع الأرض من عظمه، وتنخسف بهؤلاء القائلين ذلك القول الفاسد، وَتَخِرُّ الْجِبالُ هَدًّا أى: وتسقط الجبال مهدودة- أيضا- من فظاعة هذا القول. يقال: هذا الجدار يهده- بضم الهاء- هدا: إذا هدمه.

وقوله: أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمنِ وَلَدًا وَما يَنْبَغِي لِلرَّحْمنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا بمنزلة التعليل لما

=

=

قبله مع تقدير لام التعليل المحذوفة.

أى: تكاد السموات يتفطرن والأرض تتشقق، والجبال تنهد، لأن هؤلاء الضالين قد زعموا أن الله- تعالى- ولدا، والحال أنه ما يصح وما يليق أن يتخذ الرحمن ولدا، لأنه- سبحانه- غنى عن العالمين.

قال الزمخشري ما ملخصه: «إن قلت: ما معنى هذا التأثر من أجل هذه الكلمة؟.

قلت: فيه وجهان: أحدهما أن الله- سبحانه- يقول: كدت أفعل هذا بالسموات والأرض والجبال عند وجود هذه الكلمة غضبا منى على من تفوه بها.. لولا أنى لا أعجل بالعقوبة ...

والثاني: أن يكون استعظاما للكلمة، وتهويلا من فظاعتها وتصويرا لأثرها في الدين، وهدمها لأركانه وقواعده، وأن مثال ذلك الأثر في المحسوسات: أن يصيب هذه الأجرام العظيمة التي هي قوام العالم: ما تنفطر منه وتنشق وتخر..».

وقال الرازي: وثالثها: أن السموات والأرض والجبال تكاد أن تفعل ذلك لو كانت تعقل من غلظ هذا القول وهذا تأويل أبي مسلم. ورابعها: أن السموات والأرض والجبال كانت سليمة من كل العيوب فلما تكلم بنو آدم بهذا القول ظهرت العيوب فيها ا.هـ

قوله تعالى: {وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا} [مريم: ٩٢]

قال ابن كثير:"أي: لا يصلح له، ولا يليق به لجلاله وعظمته؛ لأنه لا كفء له من خلقه؛ لأن جميع الخلائق عبيد له".

قال مكي: معناه:"أن الرحمن لا شبيه له، والولد يشبه والده ومن جنسه يكون. فلو كان له ولد لأشبهه، ولكان من جنسه، وهو لا شبيه له وإلا مثل، فهذا أمر لا يتمكن، ولا ينبغي أن يكمون، فهو مستحيل ممتنع سبحانه لا إله إلا هو".

قال الطبري:"يقول: وما يصلح لله أن يتخذ ولدا، لأنه ليس، كالخلق الذين تغلبهم

=

=

الشهوات، وتضطرهم اللذات إلى جماع الإناث، ولا ولد يحدث إلا من أنثى، والله يتعالى عن أن يكون كخلقه، وذلك كقول ابن أحمر:

في رأسِ خَلْقاءَ مِنْ هَنْقاءَ مُشْرِفَةٍ... ما ينبغي دُونَها سَهْلٌ ولا جَبَلُ

يعني: لا يصلح ولا يكون".

قال القرطبي: «نفى عن نفسه- سبحانه وتعالى الولد، لأن الولد يقتضى الجنسية والحدوث.. ولا يليق به ذلك، ولا يوصف به، ولا يجوز في حقه.

وقال السعدي:"أي: لا يليق ولا يكون {للرحمن أن يتخذ ولدا} وذلك لأن اتخاذه الولد، يدل على نقصه واحتياجه، وهو الغني الحميد. والولد أيضا، من جنس والده، والله تعالى لا شبيه له ولا مثل ولا سمي".

وروى البخاري عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: يقول الله- تبارك وتعالى كذبني ابن آدم ولم يكن له ذلك، وشتمني ولم يكن له ذلك، فأما تكذيبه إياى فقوله: لن يعيدني كما بدأنى. وليس أول الخلق بأهون على من إعادته. وأما شتمه إياى فقوله: اتخذ الله ولدا وأنا الأحد الصمد. لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد».

ثم بين- سبحانه- أن جميع المخلوقات خاضعة لقدرته وإرادته وعلمه فقال: إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمنِ عَبْدًا....

قوله تعالى: {إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا (٩٣)} [مريم: ٩٣]

قال مقاتل:"من الملائكة وغيرهم وعزير، وعيسى، ومريم، وغيرهم فهؤلاء في الأرض، إلا وهو مقر له بالعبودية".

قال الطبري:"يقول: ما جميع من في السماوات من الملائكة، وفي الأرض من البشر والإنس والجن، إلا يأتي ربه يوم القيامة عبدا له، ذليلا خاضعا، مقرا له

=

=

بالعبودية، لا نسب بينه وبينه".

قال ابن كثير:"أي: لا يصلح له، ولا يليق به لجلاله وعظمته؛ لأنه لا كفء له من خلقه؛ لأن جميع الخلائق عبيد له".

قال السعدي:"أي: ذليلا منقادا، غير متعاص ولا ممتنع، الملائكة، والإنس، والجن وغيرهم، الجميع مماليك، متصرف فيهم، ليس لهم من الملك شيء، ولا من التدبير شيء، فكيف يكون له ولد، وهذا شأنه وعظمة ملكه؟".

وإِنْ نافية بمعنى ما، أى: ما من أحد من أهل السموات والأرض إلا وهو يأتى يوم القيامة مقرا له- سبحانه- بالعبودية، خاضعا لقدرته، معترفا بطاعته. مقرا بأنه عبد من مخلوقاته. ومن كان كذلك فكيف يكون له ولد؟

وصدق الله إذ يقول: بَدِيعُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ، أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ، وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صاحِبَةٌ، وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ، وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ.

ثم أكد- سبحانه- أنه هو المالك لكل شيء، والعليم بكل شيء فقال: لَقَدْ أَحْصاهُمْ.

قوله تعالى: {لَقَدْ أَحْصَاهُمْ} [مريم: ٩٤]، أي:"لقد أحصى الله سبحانه وتعالى خَلْقَه كلهم".

قال الطبري:"لقد أحصى الرحمن خلقه كلهم".

قال مكي: " أي: علمهم".

قال السعدي:"أي: لقد أحاط علمه بالخلائق كلهم، أهل السماوات والأرض، وأحصاهم وأحصى أعمالهم، فلا يضل ولا ينسى، ولا تخفى عليه خافية".

قوله تعالى: {وَعَدَّهُمْ عَدًّا} [مريم: ٩٤]، أي:"وعلم عددهم، فلا يخفى عليه أحد منهم".

قال الطبري:"فلا يخفى عليه مبلغ جميعهم، وعرف عددهم، فلا يعزب عنه منهم

=

=
أحد".

قال مكي: أي:"وعدهم أجمعين، فلا يخفى عليه مبلغ جميعهم".

أى: حصرهم وأحاط بهم، بحيث لا يخرج أحد من مخلوقاته عن علمه وطاعته وَعَدَّهُمْ عَدًّا أى: وعد أشخاصهم وذواتهم وحركاتهم وسكناتهم.. بحيث لا يهربون من قبضته، ولا يخفى عليه أحد منهم..

قوله تعالى: {وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا (٩٥)} [مريم: ٩٥]

قال مقاتل:"يعني: وحده ليس معه من دنياه شيء".

قال الطبري:"يقول: وجميع خلقه سوف يرد عليه يوم تقوم الساعة وحيدا لا ناصر له من الله، ولا دافع عنه، فيقضي الله فيه ما هو قاض، ويصنع به ما هو صانع".

قال ابن كثير:"أي: لا ناصر له ولا مجير إلا الله وحده لا شريك له، فيحكم في خلقه بما يشاء، وهو العادل الذي لا يظلم مثقال ذَرّة، ولا يظلم أحدا".

قال السعدي:"أي: لا أولاد، ولا مال، ولا أنصار، ليس معه إلا عمله، فيجازيه الله ويوفيه حسابه، إن خيرا فخير، وإن شرا فشر، كما قال تعالى: {وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّة} [الأنعام: ٩٤]".

أى: وكل واحد يأتيه- سبحانه- يوم القيامة منفردا، بدون أهل أو مال أو جاه ... أو غير ذلك مما كانوا يتفاخرون به في الدنيا.

قال الرازي: قال تعالى: وما ينبغي للرحمن أن يتخذ ولدا أي هو محال، أما الولادة المعروفة فلا مقال في امتناعها، وأما التبني فلأن الولد لا بد وأن يكون شبيها بالوالد ولا مشبه لله تعالى ولأن اتخاذ الولد إنما يكون لأغراض لا تصح في الله من سروره به واستعانته به وذكر جميل، وكل ذلك لا يليق به، ثم قال: إن كل من في السماوات والأرض إلا آتي الرحمن عبدا والمراد أنه ما من معبود لهم في
=

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا (٩٦).

{إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَات سَيَجْعَلُ لَهُمْ الرَّحْمَن وُدًّا} فِيمَا بَيْنهمْ يَتَوَادُّونَ وَيَتَحَابُّونَ وَيُحِبّهُمْ الله تعالى.

فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنْذِرَ بِهِ قَوْمًا لُدًّا (٩٧).

{فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ} أَيْ الْقُرْآن {بِلِسَانِك} الْعَرَبِيّ {لِتُبَشِّر بِهِ الْمُتَّقِينَ} الْفَائِزِينَ بِالْإِيمَانِ {وَتُنْذِر} تُخَوِّف {بِهِ قَوْمًا لُدًّا} جَمْع أَلَدّ أَيْ جَدِل بِالْبَاطِلِ وَهُمْ كُفَّار مَكَّة.

وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُمْ مِنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا (٩٨).

{وَكَمْ} أَيْ كَثِيرًا {أَهْلَكْنَا قَبْلهمْ مِنْ قَرْن} أَيْ أُمَّة مِنْ الْأُمَم الْمَاضِيَة بِتَكْذِيبِهِمْ الرُّسُل {هَلْ تُحِسّ} تَجِد {مِنْهُمْ مِنْ أَحَد أَوْ تَسْمَع لَهُمْ رِكْزًا} صَوْتًا خَفِيًّا لَا فَكَمَا أَهْلَكْنَا أُولَئِكَ نُهْلِك هَؤُلَاءِ[1].

=

السموات والأرض من الملائكة والناس إلا وهو يأتي/ الرحمن أي يأوي إليه ويلتجئ إلى ربوبيته عبدا منقادا مطيعا خاشعا راجيا كما يفعل العبيد، ومنهم من حمله على يوم القيامة خاصة والأول أولى لأنه لا تخصيص فيه وقوله: لقد أحصاهم وعدهم عدا أي كلهم تحت أمره وتدبيره وقهره وقدرته فهو سبحانه محيط بهم، ويعلم مجمل أمورهم وتفاصيلها لا يفوته شيء من أحوالهم وكل واحد منهم يأتيه يوم القيامة منفردا ليس معه من هؤلاء المشركين أحد وهم براء منهم.

(١) ذكر سبب النزول.

عن عبد الرحمن بن عوف: أنه لما هاجر إلى المدينة وجد في نفسه على فراق أصحابه بمكة؛ منهم: شيبة بن ربيعة وعتبة بن ربيعة وأمية بن خلف؛ فأنزل الله:

=

=
{إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا (٩٦)}.
أخرجه الطبري في "جامع البيان" (١٦/ ١٠١) وإسناده ضعيف جدًا، واهٍ بمرة؛ فيه عبد العزيز بن عمران؛ متروك، احترقت كتبه، فحدث من حفظه؛ فاشتد غلطه؛ كما في "التقريب"، وفي السند إليه من لم نعرفه. قال الحافظ ابن كثير في "تفسير القرآن العظيم" (٣/ ١٤٨): "وقد روى ابن جرير أثرًا أن هذه الآية نزلت في هجرة عبد الرحمن بن عوف، وهو خطأ؛ فإن هذه السورة بكمالها مكية لم ينزل منها شيء بعد الهجرة، ولم يصح سند ذلك -والله أعلم-".
وعن البراء بن عازب؛ قال: قال رسول الله ﷺ لعلي بن أبي طالب: "يا علي! قل: اللهم اجعل لي عندك عهدًا، واجعل لي عندك ودًّا، واجعل لي في صدور المؤمنين مودة"؛ فأنزل الله: {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا (٩٦)}؛ قال: فنزلت في علي.
أخرجه الطبراني في "جزء أحاديث الزيات"، والثعلبي وابن مردويه في "تفسيرهما"؛ كما في "تخريج أحاديث الكشاف" (٢/ ٣٤١، ٣٤٢) من طريق إسحاق بن بشر الكاهلي ثنا خالد بن يزيد القسري عن حمزة الزيات عن أبي إسحاق السبيعي عن البراء به. وهذا سند موضوع؛ مسلسل بالعلل: الأولى: إسحاق بن بشر الكاهلي؛ متروك الحديث، وكذبه علي بن المديني والدارقطني.
الثانية: خالد بن يزيد القسري؛ متروك. والثالثة: أبو إسحاق السبيعي مدلس مختلط، وقد عنعن، وسماع الزيات منه بعد الاختلاط. قال الحافظ في "الكاف الشاف" (..): "وفيه إسحاق بن بشر عن خالد بن يزيد وهما متروكان".
* قوله تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ} [مريم: ٩٦]، أي:"إن الذين آمنوا بالله واتَّبَعوا رسله وعملوا الصالحات وَفْق شرعه".
قال الطبري: يقول: " إن الذين آمنوا بالله ورسله، وصدقوا بما جاءهم من عند
=

=

ربهم، فعملوا به، فأحلوا حلاله، وحرموا حرامه".

عن زيد بن أسلم:"{الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ}، قال: رسول الله ﷺ وأصحابه رضي الله عنهم".

عن ابن عباس: "الأعمال الصالحة: سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر".

قوله تعالى: {سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا} [مريم: ٩٦]، أي:"سيجعل لهم الرحمن محبة ومودة في قلوب عباده".

قال الطبري: أي: " في الدنيا، في صدور عباده المؤمنين".

قال السعدي:"هذا من نعمه على عباده، الذين جمعوا بين الإيمان والعمل الصالح، أن وعدهم أنه يجعل لهم ودا، أي: محبة ووادادا في قلوب أوليائه، وأهل السماء والأرض، وإذا كان لهم في القلوب ود تيسر لهم كثير من أمورهم وحصل لهم من الخيرات والدعوات والإرشاد والقبول والإمامة ما حصل، ولهذا ورد في الحديث الصحيح: " إن الله إذا أحب عبدا، نادى جبريل: إني أحب فلانا فأحبه، فيحبه جبريل، ثم ينادي في أهل السماء: إن الله

يحب فلانا فأحبوه، فيحبه أهل السماء، ثم يوضع له القبول في الأرض»، وإنما جعل الله لهم ودا، لأنهم ودوه، فوددهم إلى أوليائه وأحبابه".

قال مجاهد: قوله:"{سيجعل لهم الرحمن ودا}، قال: محبة في المسلمين في الدنيا".

قال مجاهد:"يحبهم ويحببهم إلى خلقه". وفي رواية:"يحبهم ويحببهم إلى المؤمنين".

قال ابن عباس: "محبة في الناس في الدنيا".

قال ابن عباس:"يحبهم ويحببهم".

=

=

قال ابن عباس:"الود من المسلمين في الدنيا، والرزق الحسن، واللسان الصادق".

قال قتادة:"ما أقبل عبد إلى الله إلا أقبل الله بقلوب العباد إليه. وزاده من عنده".

قال قتادة:"ذكر لنا أن هرم بن حيان كان يقول: ما أقبل عبد بقلبه إلى الله، إلا أقبل الله بقلوب المؤمنين إليه، حتى يرزقه مودتهم ورحمتهم".

قال عثمان بن عفان-رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ-:"ما من الناس عبد يعمل خيرا ولا يعمل شرا، إلا كساه الله رداء عمله".

وهذا من نعمه على عباده، الذين جمعوا بين الإيمان والعمل الصالح، أن وعدهم أنه يجعل لهم ودا، أي: محبة ووادا في قلوب أوليائه، وأهل السماء والأرض، وإذا كان لهم في القلوب ود تيسر لهم كثير من أمورهم وحصل لهم من الخيرات والدعوات والإرشاد والقبول والإمامة ما حصلوفي آخرتهم وُدًّا أى: سيجعل لهم محبة ومودة في القلوب، لإيمانهم وعملهم الصالح، يقال: ود فلان فلانا، إذا أحبه وأخلص له المودة.

رقد وى الإمام مسلم في صحيحه عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله- تعالى- إذا أحب عبدا دعا جبريل فقال: يا جبريل إنى أحب فلانا فأحبه. قال: فيحبه جبريل. ثم ينادى في أهل السماء: إن الله يحب فلانا فأحبوه. قال: فيحبه أهل السماء. ثم يوضع له القبول في الأرض، وإن الله إذا أبغض عبدا دعا جبريل فقال: يا جبريل إنى أبغض فلانا فأبغضه. قال: فيبغضه جبريل ثم ينادى في أهل السماء إن الله يبغض فلانا فأبغضوه، قال: فيبغضه أهل السماء، ثم توضع له البغضاء في الأرض».

وأخرج الترمذي بسند صحيح عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: [إذا أحبَّ الله عبدًا نادى جبريل: إني قد أحببت فلانًا فأحِبَّه، فينادي في السماء، ثم تُنزل له المحبة في الأرض، فذلك قوله تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ

=

=

الـرَّحْمَنُ وُدًّا} وإذا أبغـض الله عبـدًا نـادى جبريـل: إني أبغـضت فلانًـا، فينـادي في السماء ثم تُنزل له البغضاء في الأرض).

ثم بين- سبحانه- الحكمة التي من أجلها جعل القرآن ميسرا في حفظه وفهمه فقال: فَإِنَّما يَسَّرْناهُ بِلِسانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ، وَتُنْذِرَ بِهِ قَوْمًا لُدًّا.

قوله تعالى: {فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ} [مريم: ٩٧]، أي:"فإنما يسَّرنا هذا القرآن بلسانك العربي أيها الرسول لتبشر به المتقين من أتباعك".

قال الطبري:"فإنما يسرنا يا محمد هذا القرآن بلسانك، تقرؤه لتبشر به المتقين الذين اتقوا عقاب الله، بأداء فرائضه، واجتناب معاصيه بالجنة".

قال السعدي:"يخبر تعالى عن نعمته تعالى، وأن الله يسر هذا القرآن الكريم بلسان الرسول محمد ﷺ، يسر ألفاظه ومعانيه، ليحصل المقصود منه والانتفاع به، {لتبشر به المتقين} بالترغيب في المبشر به من الثواب العاجل والآجل، وذكر الأسباب الموجبة للبشارة".

قوله تعالى: {وَتُنْذِرَ بِهِ قَوْمًا لُدًّا} [مريم: ٩٧]، أي:"وتخوِّف به المكذبين شديدي الخصومة بالباطل".

قال الطبري:"يقول: ولتنذر بهذا القرآن عذاب الله قومك من قريش، فإنهم أهل لدد وجدل بالباطل، لا يقبلون الحق. واللد: شدة الخصومة".

قال أبو عبيدة:"هو الشديد الخصومة الذي لا يقبل الحق ويدعى الباطل، قال مهلهل:

إنّ تحت الأحجار حدّا ولينا... وخصيما ألدّ ذا مغلاق".

قال ابن عباس:"يقول: لتنذر به قوما ظلمة".

عن قتادة: {وَتُنْذِرَ بِهِ قَوْمًا لُدًّا}،" أي: جدالا بالباطل، ذوي لدة وخصومة". وقال في رواية:"جدالا بالباطل".

=

=

عن مجاهد، قوله: " {لدا}، قال: لا يستقيمون"، وقال في رواية:"فجارا".

عن الحسن: " {وَتُنْذِرَ بِهِ قَوْمًا لُدًّا}، قال: صما عن الحق".

قال ابن زيد:"الألد: الظلوم، وقرأ قول الله: {وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ}".

قال السعدي:"{وتنذر به قوما لدا}، أي: شديدين في باطلهم، أقوياء في كفرهم، فتنذرهم. فتقوم عليهم الحجة، وتتبين لهم المحجة، فيهلك من هلك عن بينة، ويحيا من حي عن بينة. ثم توعدهم بإهلاك المكذبين قبلهم".

أى: إننا أنزلنا هذا القرآن على قلبك- أيها الرسول الكريم- وجعلناه بلسانك العربي المبين، وسهلنا حفظه وفهمه على الناس، لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ الذين امتثلوا أمرنا واجتنبوا نهينا وَتُنْذِرَ بِهِ قَوْمًا لُدًّا أى: ذوى لدد وشدة في الخصومة بالباطل، وهم مشركو قريش فقوله لُدًّا جمع ألد ومنه قوله- تعالى-: وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَيُشْهِدُ اللهَ عَلى ما فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصامِ أى أشد الناس خصومة وجدلا.

وشبيه بهذه الآية الكريمة قوله- تعالى-: وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ.

وقوله- سبحانه-: فَإِنَّما يَسَّرْناهُ بِلِسانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ.

قوله تعالى: {وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ} [مريم: ٩٨]، أي:"وكثيرًا أهلكنا - أيها الرسول - من الأمم السابقة قبل قومك".

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: وكثيرا أهلكنا يا محمد قبل قومك من مشركي قريش، من قرن، يعني من جماعة من الناس، إذا سلكوا في خلافي وركوب معاصي مسلكهم".

قال السعدي: أي:"من قوم نوح، وعاد، وثمود، وفرعون، وغيرهم من المعاندين المكذبين، لما استمروا في طغيانهم، أهلكهم الله فليس لهم من باقية".

قوله تعالى: {هَلْ تُحِسُّ مِنْهُمْ مِنْ أَحَدٍ} [مريم: ٩٨]، أي:"هل ترى منهم

=

=

أحدًا؟".

قال الطبري:"يقول: فهل تحس أنت منهم أحدا يا محمد فتراه وتعاينه".

قال قتادة:"هل ترى عينا".

قال الزجاج:"يقال: هل أحسست صاحبك، أي: هل رأيته، وتقول: قد حسسهم - بغير ألف - إذا قتلهم".

قوله تعالى: {أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا} [مريم: ٩٨]، أي:"أو تسمع صوتًا خفيًا؟".

قال الطبري:"يقول: أو تسمع لهم صوتا، بل بادوا وهلكوا، وخلت منهم دورهم، وأوحشت منهم منازلهم، وصاروا إلى دار لا ينفعهم فيها إلا صالح من عمل قدموه، فكذلك قومك هؤلاء، صائرون إلى ما صار إليه أولئك، إن لم يعالجوا التوبة قبل الهلاك.

قال الطبري: و «الركز» في كلام العرب: الصوت الخفي، كما قال الشاعر:

فَتَوجَّسَتْ ذِكْرَ الأنِيسِ فَراعَها... عَنْ ظَهْرِ غَيْبٍ والأنِيسُ سَقامُها".

قال القاسم بن سلام: {رِكْزًا}:"صوتا خفيا بلغة قريش".

قال الفراء:"«الركز»: الصوت".

قال الزجاج:"«الركز»: الصوت الخفي".

قال النحاس:"«الركز» في اللغة: الصوت الخفي الذي لا يكاد يتبين".

قال مقاتل:"يعني: صوتا، يحذر بمثل عذاب الأمم الخالية لئلا يكذبوا محمدا- ﷺ".

عن ابن عباس والضحاك، قوله:"{أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا}، قال: صوتا".

قال قتادة:"يقول: هل تسمع من صوت".

قال سفيان:"أو تسمع لهم حسا، و «الركز»: الحس".

قال السعدي في الآية:"أي: لم يبق منهم عين ولا أثر، بل بقيت أخبارهم عبرة

=

=

للمعتبرين، وأسمارهم عظة للمتعظين".

قال الطحاوي:"فكل مغيب في الأرض مركوز فيها مما غيبه الله ﷻ فيها أو مما غيبه بنو آدم".

قيل:"كان سلمان إذا مر بخراب قال: يا خرب الخربين أين أهلك الأولون؟".

أى: وكثير من القرى الظالمة التي سبقتك- أيها الرسول الكريم- قد أهلكناها وأبدناها وجعلناها خاوية على عروشها.

والاستفهام في قوله هَلْ تُحِسُّ مِنْهُمْ مِنْ أَحَدٍ للنفي: أى: ما تحس منهم أحدا ولا ترى منها ديارا. يقال: أحس الرجل الشيء إحساسا، إذا علمه وشعر به.

وقوله أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا معطوف على ما قبله.

قال ابن كثير: قال ابن عباس، وأبو العالية، وعكرمة، والحسن البصري، وسعيد بن جبير، والضحاك، وابن زيد: يعني: صوتا.

وقال الحسن، وقتادة: هل ترى عينا، أو تسمع صوتا.

والركز في أصل اللغة: هو الصوت الخفي، قال الشاعر:

فتوجست ركز الأنيس فراعها ... عن ظهر غيب والأنيس سقامها ا.هـ

والمعنى: أهلكنا كثيرا من القرى الظالمة الماضية، فأصبحت لا ترى منهم أحدا على الإطلاق، ولا تسمع لهم صوتا حتى ولو كان صوتا خافتا ضعيفا وإنما هم في سكون عميق، وصمت رهيب، بعد أن كانوا فوق هذه الأرض يدبون ويتحركون.

وهذه سنتنا التي لا تتخلف في الظالمين. نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلى عَذابٍ غَلِيظٍ نعوذ بالله- تعالى- من ذلك.

(تتمة): قال الغرناطي في ملاك التأويل القاطع: الآية الأولى منها: غ - قوله تعالى في قصة يحيى بن زكريا، عليهما السلام،: (وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُنْ جَبَّارًا عَصِيًّا) (مريم: ١٤)، وفي قصة عيسى، عليه السلام، (وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا)

=

=

(مريم: ٣٢)، فاختلف الوصفان في الآيتين مع اتحاد مرماهما في السابق من ظاهرهما، فيسأل عن ذلك؟

والجواب عنه - والله أعلم - أن الله سبحانه وصف يحيى، عليه السلام، بعظم التقوى في قوله تعالى: (وَكَانَ تَقِيًّا) (مريم: ١٣)، وتقي فعيل من التقوى، وهو من أبنية المبالغة، فيفهم الوفاء بوجوه التقوى حتى لا يكون من الموصوف به معصية ولا تقصير، فقوله بعد: (وَلَمْ يَكُنْ جَبَّارًا عَصِيًّا) (مريم: ١٤)، المراد - والله أعلم - نفي للمعاصي جملة، وهو المراد بقوله في الموضع الآخر (وَسَيِّدًا وَحَصُورًا) (آل عمران: ٣٩)، أي ممنوعًا من المعاصي، والحصر الحبس والمنع، قال مكي، رحمة الله: حصر عن الذنوب فلم يأتها. وما قاله المفسرون من أن المراد هنا منعه من النساء بأي وجه قالوه فلا يصح، والله أعلم، لأن عدم القدرة على النساء نقص، والأنبياء منزهون عن النقص، فكيف يصح ورود هذا الوصف في معرض المدحة، وهو في نفسه نقص، والقوى في ذلك كمال ودحه، فالمراد هنا بالحصور الممنوع عن المعاصي، وقد روى (عمرو) بن العاص عن النبي ﷺ: (كل ابن آدم يأتي يوم القيامة وله ذنب إلا يحيى بن زكرياء)، ثم نوسب بين هذا الوصف وما تقدمه من قوله: (وَلَمْ يَكُنْ جَبَّارًا عَصِيًّا)، فورد بلفظ المبالغة مثله، والمراد نفي المعاصي عنه، عليه السلام، (جملة، والتناسب في هذا كله واضح).

وأما وقله في قصة عيسى، عليه السلام (وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا) (مريم: ٣٢) فملحوظ في ذلك ما جرى لأتباعه، عليه السلام، وما وقعوا (فيه) من العظيمة حين قالوا: هو ابن الله، تعالى الله عن ذلك علوًا كبيرًا فاستحقوا الوصف بالشقاء بمقالهم، والشقي مستحق لاعذاب الأخراوي. وإلى السعادة والشقاء انقسام العالم في الآخرة، قال تعالى: (فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ) (هود: ١٠٥)، فهما طرفا حصر العالم في الآخرة وهذا كقوله: (فَمِنْكُمْ كَافِرٌ وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ) (التغابن: ٢)، فلما لحظ في قصة عيسى،

=

=

عليه السلام، عصمته من الرضا بما وقع فيه أتباعه ناسب ذلك نفي صفة الضالين، ممن توهم أنه ممن اتبعه، لتبرأ، عليه السلام، من حالهم كما يتبرأ حين يقول في الآخرة: (مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ) (المائدة: ١١٧)، فقد وضح ورود كل من الوصفين على أجل النظم وأتم المناسبة، وإن عكس الوارد لا يمكن، والله أعلم.

الآية الثانية قوله تعالى: (فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ مَشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ) (مريم: ٣٧)، وفي سورة الزخرف: (فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ) (الزخرف: ٦٥)، للسائل أن يسأل عن قوله: (فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا) وقوله في الأخرى: (لِلَّذِينَ ظَلَمُوا) وما وجه تخصيص كل آية منهما بما ورج فيها وعن قوله في الأولى: (مِنْ مَشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ) وفي الثانية: (مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ)؟ فهذان سؤالان.

والجواب عن الأول منها: أن الكفر بالله سبحانه أعظم من كل خطيئة، والذي لا ينفع معه شيء من أعمال البر، فهو أعظم من الظلم، ثم قد يوصف الكافر بالظلم إشارة إلى الصفة اللازمة له من ظلمه نفسه بكفره وشنيع مرتكبه، فيشعر إذ ذاك هذا الوصف إذا ورد تابعًا للكفر ولفظ الكفر منطوق به أو مفهوم من سياق الكلام بزيادة توجب زيادة التنكيل، قال تعالى: (إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا لَمْ يَكُنِ اللهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ) (النساء: ١٦٨)، فقوله في آية سورة مريم: (فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ مَشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ) (مريم: ٣٧) معقب بها قوله تعالى: (ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ * مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ سُبْحَانَهُ إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ * وَإِنَّ اللهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ) (مريم: ٣٤ - ٣٦)، ثم قال: (فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ مَشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ) (مريم: ٣٧)، والمراد اختلافهم في نبي الله عيسى، عليه السلام، حيث قال بعضهم: هو الله، وبعضهم يقول: ابن الله، وبعضهم: ثالث ثلاثه، فهذا اختلافهم،

=

=

وقال تعالى: (فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ مَشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ)، فومهم بالكفر الذي هو ضابط أقوالهم وأم مرتكباتهم، وأخبر باستحقاق الويل لهم لكفرهم من شهود ذلك اليوم الفاضح لهم على رؤوس الأشهاد، وفيه قال تعالى: (ذَلِكَ يَوْمٌ مَجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَشْهُودٌ) (هود: ١٠٣)، وفيه يقول الأشهاد: (هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ اللهِ عَلَى الظَّالِمِينَ) (هود: ١٨)، ثم ذكرهم في آية الزخرف بصفتهم من الظلم اللازم لكفرهم، ولیناسب بذلك ما تقدم من وهم من أعتمد غير الله سبحانه، فقرن بمعتمده في العذاب وهو المقول فيه: (وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ) (الزخرف: ٣٦)، فقيل فيه وفي متخذه: (وَلَنْ يَنْفَعَكُمُ الْيَوْمَ إِذْ ظَلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ) (الزخرف: ٣٩)، والظلم هنا ظلم الكفر من عبد عيسى، عليه السلام، من الأحزاب المذكور اختلافهم في خاصته دون متخذه بحال هؤلاء، فوسموا بالظلم كوسن من تقدم فقيل: (فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا)، وظلم هؤلاء كفر كحال من تقدم، فتناسب هذا، ولم يقع في آية سورة مريم ما يطلب بمناسبة، فوصفوا هناك بالكفر بخلاف آية الزخرف، فجاء كل على ما يجب، ثم قال (مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ) (الزخرف: ٦٥)، فذكر العذاب المعقب به ذلك اليوم المشهود، ووصف اليوم بالإيلام وإن كان المؤلم إنما هو العذاب مبالغة في شدة الإيلام من عذاب ذلك اليوم، كما قالوا: نهارك صائم وليلك قائم، وهذا العذاب ثان عن قيامهم في ذلك المشهود وسوء حالهم فيه، وجاء ذلك على الترتيب الذي استقر عليه الكتاب العزيز، فذكر في المتقدم من الآيتين المتقدم وجودًا من حالهم الأخراوي، وفي الآية الثانية ترتيب ما هو ثان عن ذلك، وجاء كل على ما يجب ويناسب، والله أعلم.

الآية الثالثة: غ - قوله تعالى: (وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ) (مريم: ٣٩)، وفي سورة المؤمن: (وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْآزِفَةِ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَاظِمِينَ)

=

=

(غافر: ١٨)، والمراد في الآيتين تذكريهم بالقيامة وأهوالها، ثم اختلفت العبارة في الكناية، ففي سورة مريم: (يَوْمَ الْحَسْرَةِ)، وفي سورة المؤمن: (يَوْمَ الْآزِفَةِ)، فللسائل أن يسأل عن ذلك؟

والجواب عن ذلك، والله أعلم: أن اليوم المشار إليه يشتمل على موقف ومواطن مهولة وأحوال مختلفة، وبحسب ذلك تختلف العبارة والأخبار لاختلاف المقاصد والمواطن، ألا ترى قوله تعالى (فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ) (المؤمنون: ١٠١)، وقوله تعالى: (وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ) (الصافات: ٢٧)، وقوله تعالى: (وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ) (الصافات: ٢٤)، وقوله: (فَيَوْمَئِذٍ لَا يُسْأَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلَا جَانٌّ) (الرحمن: ٣٩)، ولا شك في أن هذا في مواطن مختلفة، وبحسب ذلك اختلفت الكناية كما أضيف إليه اليوم هنا، فيوم الحسرة عبارة عن الوقت الذي يحصل فيه العلم اليقين لأهل النار بتأييد خلودهم واستمرار عذابهم إلى غير نهاية، ويتأكد لأهل الجنة علمهم بذلك، فلا أشد فرحًا من أهل الجنة يومئذ، ولا أشد حسرة من أهل النار، وفي هذا ورد الخبر الصحيح من أنه إذا استقر أهل الجنة في الجنة وأهل النار في النار ينادي يا أهل الجنة فيشرئبون، وينادي يا أهل النار كذلك، ويؤتى بالموت فيقال لهذا هل تعرفونه فيقولون نعم... الحديث، إلى قوله فيه: يا أهل الجنة خلود لا موت، ويا أهل الناء خلود لا موت، فإذا ذلك تعظم حسرتهم ويشتد كربهم، ونص الحديث على ما رُويناه في صحيح مسلم عن أبي سعيد، قال: قال رسول الله ﷺ: (يجاء بالموت يوم القيامة كأنه كبش أملح، زاد أبو كريب فيوقف بين الجنة والنار، واتفقنا في سياقي الحديث فقيل: يا أهل الجنة هل تعرفون هذا فيشرئبون وينظرون ويقولون: نعم هذا الموت، قال: ويقال: يا أهل النار هل تعرفون هذا فيشرئبون وينظرون ويقولون: نعم هذا الموت، قال: فيؤمر به فيذبح، قال: ثم يقال: يا أهل

=

=

الجنة خلود فلا موت ويا أهل النار خلود فلا موت، ثم قرأ رسول الله ﷺ: (وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ) (مريم: ٣٩)، وأشار إلى الدنيا.

قلت وهذا الحديث من مشكلات الأحاديث، وله وجه من التأويل يرفع إشكاله، وقد تفسرت مظنة الحسرة في قوله تعالى: (إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ) والمراد به استقرار أهل الجنة في الجنة وأهل النار في النار كما ورد في الخبر، وحق لمن تقدم ذكره قبل هذه الآية ممن وقع في العظيمة من أمر عيسى، عليه السلام، حين قالوا: ابن الله مع إقرارهم بالبعث الأخراوي والجزاء، فحق لهم أن يذكروا تحذيرًا وتخويفًا بمثل هذا، ولم يتقدم الآية ذكر غيرهم، فهذا أوض تناسب.

وأما آية سورة المؤمن فقد ورد قبلها قوله تعالى خطابًا للمؤمنين: (فَادْعُوا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ) (غافر: ١٤)، ثم تابع الكلام معه إلى الآية من قوله: (وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْآزِفَةِ) (غافر: ١٨)، فخوفوا بإسراع أمر الساعة وتعجيل وقوعها كما قال سبحانه (اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُعْرِضُونَ) (الأنبياء: ١)، أزف الشيء أسرع ومنه قوله تعالى: (أَزِفَتِ الْآزِفَةُ * لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللهِ كَاشِفَةٌ) (النجم: ٥٧ - ٥٨)، وتأمل ما اتصل بقوله: (وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْآزِفَةِ) (غافر: ١٨)، وقوله: (إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ) (غافر: ١٨)، فقد تناسب هذا ووضح، أما ما ورد في الآيتين فهو على أتم مناسبة، وإن عكس (الوارد) على ما يبنا لا يلائم، والله أعلم.

الآية الرابعة: غ - قوله تعالى: (وَنَادَيْنَاهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا * وَوَهَبْنَا لَهُ مِنْ رَحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا) (مريم: ٥٢ - ٥٣)، وفي سورة الفرقان: (وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَا مَعَهُ أَخَاهُ هَارُونَ وَزِيرًا) (الفرقان: ٣٥)، ومقصود الآيتين تأييد موسى، عليه السلام، بأخيه هارون، ثم اختلف الوصف بالنبوة

=

=

والوزارة مع اتحاد المقصود، للسائل أن يسأل عن ذلك؟

والجواب عنه، والله أعلم: محصل طي تمهيد وهو أن السور المتردد فيها ذكر الرسل، عليهم السلام، منوطًا فيها ذكرهم بذكر أممهم، وما كان من معاندة الأمم وتكذيبهم، وأخذ المكذبين بمرتكباتهم، ولا تكاد تجد سورة منها وارد فيها ذكرهم إلا على ما ذكرنا، وأكثر تلك السور استيفاء لهذا الغرض سور ثلاث، وهي: سورة الأعراف، وسورة هود، وسورة الشعراء، ثم يليها في ذلك سورة قد أفلح، وقل ما تجد سورة ورد فيها قصة منها واحدة فصاعدًا إلا جارية على ما ذكرته، وربما أجمل ذلك في بعضها مع تحصيل ما ذكرنا من أخذ الأمم بعد تكذيبهم، وآخر سورة ذكرت فيها قصصهم معتمدًا فيها ما اطرد من أخذ كل أمة يتكذيبها، وآخر سورة ذكرت فيها قصصهم معتمدًا فيها ما اطرد من أخذ كل أمة بتكذيبها، وبيان ما به أهلكت من الغرق والريح والصيحة والحاصب وعنيف الأخذ بالعزة والاقتدار سورة القمر مع إيجاز القصص، ولم يرد في غير هذه السورة الوفاء بما ذكرنا، وإنما خصت هذه السورة ببيان كيفية أخذ المكذبين كما بينته في كتاب البرهان، ثم إن سورة مريم تضمنت طائفة عظيمة فصل ذكر بعضهم وأجمل ذكر البعض، وقد تجرد فيها من الإخبار بأحوالهم ذكر التعريف بخصائص من منحهم وعلى أقدارهم، وما أيدوا به من ذلك، من غير أن يشوب هذا ذكر شيء من تكذيب من كذب منهم، إلا ما ورد في ذكر إبراهيم عليه السلام، من قول أبيه له: (أَرَاغِبٌ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ....) (مريم: ٤٦)، ولم يذكر من حال قومه، عليه السلام، شيء، ولا ذكر فيما بعد ولا فيما تقدم من هذه السورة (إلا خصائصهم ومنحهم العلية التي بها امتازوا عمن سواهم من صالحي الأمم) كما تقيدت به مما ذكرنا.

ثم إن النبوة أعظم خصائصهم التي تساووا في تحمل أمانتها، وأفردوا، عليهم

=

=

الصلاة والسلام، (بها)، ولم يشاركهم فيها غيرهم، أما اسم الوزارة والوصف بها فليس مما يخصهم ولا مما أفردوا به، فلم يكن وصف هارون، عليه السلام، هنا (بها) ليناسب هذا القصد العلي ولا ليلائمه. وأما قوله تعالى في سورة الفرقان: (وَجَعَلْنَا مَعَهُ أَخَاهُ هَارُونَ وَزِيرًا) (الفرقان: ٣٥) فمرتب على سؤال موسى عليه السلام في سورة طه في قوله: (وَاجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِنْ أَهْلِي * هَارُونَ) (طه: ٢٩ - ٣٠)، فأعطى عليه السلام مطلبه. قال تعالى: (وَجَعَلْنَا مَعَهُ أَخَاهُ هَارُونَ وَزِيرًا)، ورد هذا على الترتيب المتقرر في المصحف. ثم إن ما اتصل بهذه الآية وآية سورة مريم مما قبلهما وبعدهما يستدعي التناسب في مقاطع الآي وفواصلها، فلم يكن ورود الآيتين في السورتين على غير ما ورد ليناسب، فجاء ذلك على ما يجب من الوجهين المذكورين، والله أعلم بما أراد.

الآية الخامسة من سورة مريم، عليها السلام، قوله تعالى: (فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا * إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْئًا) (مريم: ٥٩ - ٦٠)، وفي سورة الفرقان: (وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا (٦٨) يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا (٦٩) إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ) (الفرقان: ٦٨ - ٧٠)، للسائل أن يسأل عن قوله في الأولى: (وَعَمِلَ صَالِحًا) وفي الثانية (وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا)؟ وعن قوله في الأولى في جزائهم (فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْئًا) (وفي الجزاء في الثانية: (فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ)؟

والجواب: أن الآية الأولى ورد قبلها بعد ذكر المنعم عليهم ومن اهتدى بهديهم قوله: (فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا) (مريم: ٥٩)، وهذا قول موجز مجمل، فناسبه الإيجاز في قوله (إِلَّا مَنْ تَابَ

=

سُورَة طَه(١)

=

وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا....) الآية، فتناسبا في التقابل الإيجازي كما تناسبا أيضًا في الفواصل ومقاطع الآي، وذلك قوله تعالى: (فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا) وقوله: (وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْئًا)، والمسهل من القراء يقول: شيا فيقف الياء المشددة. وأما قوله في آية الفرقان: (إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ) (الفرقان: ٧٠) فإطناب يناسب التفصيل الواقع قبله في قوله: (وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ) (الفرقان: ٦٨)، ثم قال: (وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ)، يريد ما ذكر المتصف بتقوى الله بتركه والتنزه عن مواقعة شيء منه - (يَلْقَ أَثَامًا) (الفرقان: ٦٨)، ثم فسر ما يلقاه (بقوله): (يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ)، أي يكثر عليه ويزداد (وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا * إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ) (الفرقان: ٦٩ - ٧٠)، فحصل بإزاء مضاعفة العذاب لفاعل ذلك تبديل السيئات بالحسنات إلى الغفران والرحمة، فإيجاز بإيجاز وإطناب بإطناب مناسبة بين الجواب وما جووب به، وكل على ما يجب، ولا يسوغ العكس على ما تمهد، والله أعلم. ا.هـ من ملاك التأويل (٢/ ٣٢٥-٣٣٠).

(١) اختلف أهل التفسير في وقت نزول السورة على ثلاثة أقوال:

أحدها: أنها مكية كلها. قاله ابن عباس، وابن الزبير، ومقاتل، ويحيى بن سلام، وابن قتيبة، وابن ابي زمنين، ومكي بن ابي طالب، والواحدي، والسمعاني، والبغوي، وغيرهم.

قال ابن الجوزي:"هي مكية كلها باجماعهم".

قال العزّ بن عبدالسلام:"سورة طه مكية اتفاقا".

=

=

قال الفيروزآبادي: "السورة مكّيّة إجماعا".

الثاني: أنها مكية إلا آية {فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ} [طه: ١٣٠] الآية نزلت بالمدينة. قاله مرعي الكرمي.

الثالث: انها مكّيّة إلّا آيتي: [١٣٠ و ١٣١]، فمدنيتان. قاله الزمخشري، وابن جزي، وذكره المراغي.

* وعدد آياتها مائة وأَربعون عند الشاميِّين، وخمس وثلاثون، عند الكوفيِّين، وأَربع عند الحجازيِّين، وثنتان عند البصريِّين. وكلماتها أَلف وثلاثمائة وإِحدى وأَربعون. وحروفها خمسة آلاف ومائتان واثنان وأَربعون حرفًا.

والآيات المختلف فيها إحدى وعشرون آية.

فواصل آياتها (يومًا) وعلى الميم {مَا غَشِيَهُمْ} وعلى الواو {ضَلُّوا}.

* أسماء السورة:

تسمى سورة «طه» سميت هذه السورة باسم الحرفين «طه» المنطوق بهما في أولها،

وبذلك سميت في المصاحف وكتب التفسير وفي كتب السنة.

وتسمى ايضا بسورة «الكليم»، كما ذكره السخاوي، والسيوطي، وأورده الالوسي في تفسيره.

وتسمى سورة «موسى» ذكر الهذلي في «كامله» أنها تسمى «سورة موسى»، وذكرها البقاعي، والفيروزآبادي، وعلل تسميتها بذلك لاشتمالها على قصته مفصلة، فقد تضمنت حديثًا مستفيضًا عن موسى -عليه السلام- وقومه.

* مقصود السّورة ومعظم ما اشتملت عليه: تيسير الأَمر على الرّسول ﷺ، وذكر الاستواء، وعلم الله تعالى بالقريب والبعيد، وذكر حضور موسى عليه السلام بالوادى المقدّس، وإِظهار عجائب عصاه واليد البيضاء، وسؤال شرح الصدر وتيسير

=

=
الأَمر، وإِلقاء التابوت فى البحر، وإِثبات محبّة موسى فى القلوب، واصطفاء الله تعالى موسى، واختصاصه بالرّسالة إِلى فرعون، وما جرى بينهما من المكالمة، والموعد يوم الزِّينة، وحِيَل فرعون وسَحَرته بالحِبَالِ والعِصِىّ، (وإِيمان السَّحَرة) وتعذيب فرعون لهم، والمِنّة على بنى إِسرائيل بنجاتهم من الغرق، وتعجيل موسى، والمجئ إِلى الطُّور، ومكر السّامرىّ فى صنعة العِجل، وإِضلال القوم، وتعيير موسى على هارون بسبب ضلالتهم، وحديث القيامة، وحال الكفَّار فى عقوبتهم، ونَسْف الجبال، وانقياد المتكبّرين فى رِبْقة طاعة الله الحىّ القيّوم، وآداب قراءَة القرآن. وسؤال زيادة العلم والبيان، وتعيير آدم بسبب النسيان، وتنبيهه على الوسوسة ومكر الشَّيطان، وبيان عقوبة نسيان القرآن، ونهى النبىّ عن النَّظر إِلى أَحوال الكفَّار، وأَهل الطغيان، والالتفاتِ إِلى ما خُوِّلوا: من الأَموال، والوِلدان، وإِلزام الحجّة على المنكرين بإِرسال الرّسل بالبرهان، وتنبيهه الكفَّار على انتظار أَمر الله فى قوله {قُلْ كُلٌّ مَتَرَبِّصٌ} إِلى آخر السّورة.

* المتشابهات: قوله: {وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ موسى إِذْ رَأَى نَارًا فَقَالَ لأَهْلِهِ امكثوا إِني آنَسْتُ نَارًا لعلي آتِيكُمْ مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى النار هُدًى}، وفى النَّمل: {إِذْ قَالَ موسى لأَهْلِهِ إِني آنَسْتُ نَارًا سَآتِيكُمْ مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ آتِيكُمْ بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ} وفى القَصَص {فَلَمَّا قضى مُوسَى الأجل وَسَارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ مِن جَانِبِ الطور نَارًا قَالَ لأَهْلِهِ امكثوا إِني آنَسْتُ نَارًا لعلي آتِيكُمْ مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ النار لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ} هذه الآيات تشتمل على ذكر رؤية موسى النَّار، وأَمرِه أَهلَه بالمكث، وإِخبارِه إِيَّاهم أَنه آنس نارًا، وإِطماعهم أَن يأتيهم بنار يَصطلون بها، أَو خبر يهتدون به إِلى الطريق التى ضَلُّوا عنها، لكنَّه نقص فى النَّمل ذكر رؤية النَّار، وأَمره بالمكث؛ اكتفاءً بما تقدّم. وزاد فى القصص قضاءَ موسى الأَجل المضروب، وسيرَه بأَهله إِلى مصر؛ لأَنَّ الشَّئ قد يُجْمَل ثمَّ يفصَّل، وقد يفصّل ثم
=

=

يجمل. وفى طه فصّل، وأجمل فى النَّمل، ثم فصَّل فى القصص، وبالغ فيه. وقوله فى طه: {أَوْ أَجِدْ عَلَى النَّارِ هُدًى} أى مَن يخبرنى بالطَّريق فيهدينى إليها. وإنَّما أَخَّر ذكر الخَبَرِ فيها (وقدَّمه فيهما) مراعاة لفواصل الآى فى السّور جميعا. وكرّر (لعلِّى) فى القصص لفظًا، وفيهما معنًى؛ لأن (أو) فى قوله {أَوْ أَجِدْ عَلَى النَّارِ هُدًى} نائب عن (لعلِّى) و (سئاتيكم) يتضمَّن معنى (لعلِّى) وفى القصص {أَوْ جَذْوَةٍ مِنَ النَّارِ} وفى النَّمل {بِشِهَابٍ قَبَسٍ} وفى طه {بِقَبَسٍ}؛ لأن الجذوة من النَّار [خشبة] فى رأسها قبس به شِهاب، فهى فى السور الثلاث عبارة عن معنى واحد.

قوله: {فَلَمَّا أَتَاهَا} هنا، وفى النَّمل: {فَلَمَّا جَاءَهَا}، وفى القصص {أَتَاهَا} لأَنَّ أَتى وجاءَ بمعنى واحد، لكن لكثرةِ دَوْر الإتيان هنا نَحو (فأتياه)، (فلنأتينَّك) (ثمّ أَتى) (ثمَّ ائتوا) (حيث أَتى) [جاءَ (أَتاها)]، ولفظ (جاءَ) فى النَّمل أَكثر؛ نحو {فَلَمَّا جَآءَهُمْ} {وجِئْتُكَ مِنْ سَبَأٍ} {فَلَمَّا جَآءَ سُلَيْمَانَ} وأَلحق القصص بطه، لقرب ما بينهما.

قوله: {فَرَجَعْنَاكَ إلى أُمِّكَ} وفى القصص {فَرَدَدْنَاهُ} لأَنَّ الرَّجْع إلى الشئِ والرَّدَّ إليه بمعنى، والرَّدُّ عن الشئِ يقتضى كراهة المردود، وكان لفظ الرّجع أَلطف، فخصَّ طه به، وخُصّ القَصَص بقوله: {فَرَدَدْنَاهُ}؛ تصديقًا لقوله: {إِنَّا رَادُّوْهُ إِلَيْكَ}.

قوله: {وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا}، وفى الزّخرف: {وَجَعَلَ} لأَنَّ لفظ السّلوك مع السّبيل أَكثر استعمالًا، فخصّ به طه، وخُصّ الزخرف بجَعَل ازدواجًا للكلام، وموافقة لما قبلها وما بعدها.

قوله: {إِلَى فِرْعَوْنَ} وفى الشعراءِ: {أَنِ ائت القوم الظالمين قَوْمَ فِرْعَوْنَ أَلا}، وفى القصص: {فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِن رَّبِّكَ إلى فِرْعَوْنَ}؛ لأَنَّ طه هى السّابقة، وفرعونُ

=

=
هو الأَصل، والمبعوثُ إِليه، وقومه تَبَع له، وهم كالمذكورين معه، وفى الشّعراءِ {قَوْمُ فِرْعَوْنَ} أَى قوم فرعون وفرعون، فاكتفى بذكره فى الإِضافة عن ذكره مفردًا. ومثله {أَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ} أَى آل فرعون وفرعون، وفى القصص {إِلى فِرْعَوْنَ وَمَلإِيْهِ} فجَمع بين الاثنين، فصار كذكر الجملة بعد التفصِيل.

قوله: {واحلل عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي} صرّح بالعُقْدَة هنا؛ لأَنَّها السّابقة، وفى الشعراءِ: {وَلاَ يَنطَلِقُ لِسَانِي} فكَنى عن العقدة بما يقرب من الصّريح، وفى القصص {وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا} فكنى عن العقدة كناية مبهمة؛ لأَنَّ الأَوّل يدلّ على ذلك.

قوله فى الشعراءِ: {وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ} وليس له فى طه ذِكر؛ لأَنَّ قوله: {وَيَسِّرْ لِيْ أَمْرِيْ} مشتمل على ذلك وغيره؛ لأَنَّ الله ﷻ إِذا يَسّر له أَمرَه لم يخف القتل.

قوله: {واجعل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي هَارُونَ أَخِي} صَرَّحَ بالوزير؛ لأَنَّه الأَوّل فى الذكر، وكَنى عنه فى الشعراءِ حيث قال: {فَأَرْسِلْ إلى هَارُونَ} أَى لِيأتينى، فيكونَ لى وزيرًا. وفى القصص: {أَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا} أَى اجعله لى وزيرًا، فكنى عنه بقوله {رِدْءًا} لبيان الأَوّل.

قوله: {فقولا إِنَّا رَسُولاَ رَبِّكَ} وبعده {إِنَّا رَسُولُ رَبِّ العالمين}؛ لأَنَّ الرّسول سُمّى به، فحيث وحّده حُمل على المصدر، وحيث ثنى حمل على الاسم. ويجوز أَن يقال: حيث وحّد حُمل على الرّسالة؛ لأَنَّهما أَرسلا لشئ واحد، وحيث ثنى حمل على الشَّخصين. وأَكثر ما فيه من المتشابه سبق.

قوله: {أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِّنَ القرون} بالفاءِ من غير (مِن)، وفى السّجدة بالواو، وبعده (مِن)؛ لأَنَّ الفاءَ للتعقيب والاتصال بالأَوّل، فطال الكلام، فحسن حذف (مِن)، والواوُ يدلّ على الاستئناف وإِتيان (من) غير مستثقل وقد
=

مَكِّيَّة إِلَّا آيَتَيْ ١٢ و ١٢١ فَمَدَنِيَّتَانِ وَآيَاتهَا ١٣٥ أَوْ أرعون أو اثنتان نزلت بعد مريم.

بسم الله الرحمن الرحيم[1]

طه (١).

{طَه} الله أَعْلَم بِمُرَادِهِ بِذَلِكَ[2].

=

سبق الفرق بين إثباته وحذفه. بصائر ذوي التمييز (١/ ٣١٠-٣١٦).

(١) تقدم تفسير البسملة في أول سورة الفاتحة.

(٢) تقدم القول في الحروف المقطعة بتوسع تحت الآية رقم (١) من سورة البقرة.

(تنبيه): قال الدكتور بكر بن عبد الله بن زيد في معجم المناهي اللفظية ((طه)): آية شريفة من آيات القرآن العظيم، وبها افتتح الله سبحانه هذه السورة، وسميت بذلك.

وأما تسمية النبي ﷺ به فلا أصل له.

قال ابن القيم – رحمه الله تعالى –: ومما يمنع منه التسمية بأسماء القرآن وسورة مثل: طه، ويس، وحم، وقد نص مالك على كراهة التسمية بـ (يس)ذكره السهيلي، وأما ما يذكره العوام: أن: يس، وطه، من أسماء النبي ﷺ فغير صحيح، ليس ذلك في حديث صحيح، ولا حسن، ولا مرسل، ولا أثر عن صاحب، وإنما هذه الحروف مثل: الم، وحم، والر، ونحوها. انتهى.

وعن أبي الطفيل – رضي الله عنه – قال: قال النبي ﷺ : (إن لي عند ربي عشرة أسماء..) قال أبو يحي: وزعم سيف أن أبا جعفر قال له: إن الاسمين الباقيين: طه، ويس.

فظاهر أن ذكرهما ليس في المرفوع، وإنما من كلام أبي جعفر. ثم هذا الحديث ضعيف؛ لأن في سنده: إسماعيل بن إبراهيم وسيف بن وهب التميميين.

=

=

(تنبيه): اختلف أهل التفسير في قوله تعالى: {طه} [طه: ١]، على أقوال:

أحدها: أن معناه: يا رجل، رواه العوفي عن ابن عباس، وبه قال الحسن، وسعيد بن جبير، ومجاهد، وقتادة، وعطاء، وعكرمة -في رواية-، ومحمد بن كعب، وعطية العوفي، والسدي، وابن أبزى.

قال الأخفش:"منهم من يقول {طه} يعني: يا رجل في بعض لغات العرب".

واختلف هؤلاء بأيّ لغة هذه الكلمة، على أربعة أقوال:

أحدها: بالنبطية، قاله ابن عباس، و سعيد بن جبير -في رواية-، وعكرمة -في رواية، والضحاك.

والثاني: بلسان عك، رواه أبو صالح عن ابن عباس، وبه قال الكلبي.

والثالث: بالسريانية، قاله عكرمة -في رواية-، وسعيد بن جبير -في رواية-، وقتادة.

والرابع: بالحبشية، قاله عكرمة -في رواية-.

قال ابن الأنباري: "ولغة قريش وافقت هذه اللغة في المعنى".

الثاني: معناه: يا إنسان، بالنبطية. قاله عكرمة.

الثالث: معناه: يا فلان. رواه السدي عن ابي مالك وعكرمة.

الرابع: أن «طه» حروف من أسماء. ثم فيها قولان:

أحدهما: أنها من أسماء الله تعالى. ثم فيها قولان:

أحدهما: أن الطاء من «اللطيف»، والهاء: من «الهادي»، قاله ابن مسعود، وأبو العالية.

والثاني: أن الطاء افتتاح اسمه «طاهر» و «طيب» والهاء افتتاح اسمه «هادي» قاله سعيد بن جبير.

والقول الثاني: أنها من غير أسماء الله تعالى. ثم فيه أقوال:

=

=

أحدها: أن الطاء من: «طابة»، وهي مدينة رسول الله ﷺ، والهاء من «مكة»، حكاه أبو سليمان الدمشقي.

والثاني: أن الطاء: طرب أهل الجنة، والهاء: هوان أهل النار. حكاه الثعلبي.

والثالث: أن الطاء: شجرة طوبى، والهاء: هاويه. والعرب تعبر ببعض الشيء عن كله فكأنه أقسم بالجنة والنار. حكاه الثعلبي.

الرابع: أن «طه»: طهارة أهل بيت محمد ﷺ، ثم {إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا} [الأحزاب: ٣٣]. حكاه الثعلبي عن جعفر الصادق -رضي الله عنه-.

الخامس: أن الطاء في حساب الجمل: تسعة، والهاء: خمسة، فتكون: أربعة عشر. فالمعنى: يا أيها البدر ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى، حكاه الثعلبي.

السادس: الطاء: يا طامع الشفاعة للأمة، والهاء: يا هادي الخلق إلى الملة. حكاه الثعلبي.

السابع: الطاء: من الطهارة، والهاء: من الهداية، وكأنه تعالى يقول لنبيه ﷺ: يا طاهرا من الذنوب، ويا هاديا إلى علام الغيوب. حكاه الثعلبي.

الثامن: الطاء: طبول الغزاة، والهاء: هيبتهم في قلوب الكفار، قال الله تعالى: {سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْب} [آل عمران: ١٥١]، وقال: {وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْب} [الحشر: ٢]. حكاه الثعلبي.

التاسع: أنه قسم أقسم الله به، وهو من أسمائه، رواه علي بن أبي طلحة عن ابن عباس.

وقال القرظي: "أقسم الله تعالى بطوله وهدايته، وموضع القاسم قوله: {ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى}".

العاشر: معناه: طأ الأرض بقدميك، قاله مقاتل بن حيان.

=

=

قال الثعلبي:"يريد في التهجد".

قال الزجاج:"يروى أن النبي ﷺ كان إذا صلى رفع رجلا ووضع أخرى، فأنزل الله ﷻ: «طاها»، أي: طأ الأرض بقدميك جميعا".

الحادي عشر: معناه: طهّر، وذلك من وجهين:

أحدها: طهر قلبك من الخوف.

والثاني: طهر أُمَّتَك من الشرك. أفاده الماوردي.

الثاني عشر: أن «طه»: فواتح السورة. قاله مجاهد.

قال الطبري: "والذي هو أولى بالصواب عندي من الأقوال فيه: قول من قال: معناه: يا رجل، لأنها كلمة معروفة في عك فيما بلغني، وأن معناها فيهم: يا رجل، أنشدت لمتمم بن نويرة:

هَتَفْتُ بِطَهَ فِي القِتالِ فَلَمْ يُجِبْ... فَخِفْتُ عَلَيْهِ أنْ يَكونَ مُوَائِلا

وقال آخر:

إنَّ السَّفاهَةَ طَهَ مِنْ خَلائِقكُمْ... لا بارَكَ اللهُ فِي القَوْمِ المَلاعِينِ

فإذا كان ذلك معروفا فيهم على ما ذكرنا، فالواجب أن يوجه تأويله إلى المعروف فيهم من معناه، ولا سيما إذا وافق ذلك تأويل أهل العلم من الصحابة والتابعين".

وقال الشنقيطي: قوله تعالى: {طه (١)} أظهر الأقوال فيه عندي: أنه من الحروف المقطعة في أوائل السور، ويدل لذلك أن الطاء والهاء المذكورتين في فاتحة هذه السور، جاءتا في مواضع أخر لا نزاع فيها في أنهما من الحروف المقطعة. أما الطاء ففي فاتحة "الشعراء": {طسم (١)} وفاتحة "النمل": {طس}؛ وفاتحة "القصص" وأما الهاء ففي فاتحة "مريم" في قوله تعالى: {كهيعص (١)}، وقد قدمنا الكلام مستوفى على الحروف المقطعة في أول سورة "هود" وخير ما يفسر به القرآن القرآن.

=

=

وقال بعض أهل العلم: قوله {طه (١)}: معناه: يا رجل. قالوا: وهي لغة بني عك بن عدنان، وبني طيء، وبني عكل، قالوا: لو قلت لرجل من بني عك: يا رجل، لم يفهم أنك تناديه حتى تقول: طه، ومنه قول متمم بن نويرة التميمي:

دعوت بطه في القتال فلم يجب ... فخفت عليه أن يكون موائلا

ويروى: مزايلا؛ وقال عبد الله بن عمرو: معنى (طه) بلغة عك: يا حبيبي، ذكره الغزنوي. وقال قطرب: هو بلغة طيء، وأنشد ليزيد بن المهلهل:

إن السفاهة طه في شمائلكم ... لا بارك الله في القوم الملاعين.

ويروى:

إن السفاهة طه من خلائقكم ... لا قدس الله أرواح الملاعين

وممن روى عنه أن معنى {طه (١)}: يا رجل، ابن عباس ومجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير وعطاء ومحمد بن كعب وأبو مالك وعطية العوفي والحسن وقتادة والضحاك والسدي وابن أبزى وغيرهم، كما نقله عنهم ابن كثير وغيره. وذكر القاضي عياض في الشفاء عن الربيع بن أنس قال: كان النبي ﷺ إذا صلى قام على رجل ورفع الأخرى، فأنزل الله {طه (١)} يعني طأ الأرض بقدميك يا محمد. وعلى هذا القول فالهاء مبدلة من الهمزة، والهمزة خففت بإبدالها ألفا كقول الفرزدق:

راحت بمسلمة البغال عشية ... فارعى فزارة لا هَناك المرتع

ثم بنى عليه الأمر والهاء للسكت. ولا يخفى ما في هذا القول من التعسف والبعد عن الظاهر.

وفي قوله: {طه (١)} أقوال أخر ضعيفة، كالقول بأنه من أسماء النبي ﷺ. والقول بأن الطاء من الطهارة، والهاء من الهداية، يقول لنبيه: يا طاهرًا من الذنوب، يا هادي الخلق إلى علام الغيوب، وغير ذلك من الأقوال الضعيفة. والصواب إن

=

مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى (٢).

{مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْك الْقُرْآن} يَا مُحَمَّد {لِتَشْقَى} لِتَتْعَب بِمَا فَعَلْت بَعْد نُزُوله مِنْ طُول قِيَامك بِصَلَاةِ اللَّيْل أَيْ خَفِّفْ عَنْ نَفْسك.

إِلَّا تَذْكِرَةً لِمَنْ يَخْشَى (٣).

{إِلَّا} لَكِنْ أَنْزَلْنَاهُ {تَذْكِرَة} بِهِ {لِمَنْ يَخْشَى} يخاف الله.

تَنْزِيلًا مِمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَاوَاتِ الْعُلَى (٤).

{تَنْزِيلًا} بَدَل مِنْ اللَّفْظ بِفِعْلِهِ النَّاصِب لَهُ {ممن خلق الأرض والسماوات الْعُلَى} جَمْع عُلْيَا كَكُبْرَى وَكُبَر.

الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى (٥).

هُوَ {الرَّحْمَن عَلَى الْعَرْش} وَهُوَ فِي اللُّغَة سَرِير الْمُلْك {اسْتَوَى} اسْتِوَاء يَلِيق بِهِ

لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى (٦).

{لَهُ مَا فِي السَّمَاوَات وَمَا فِي الْأَرْض وَمَا بَيْنهمَا} مِنْ الْمَخْلُوقَات {وَمَا تَحْت الثَّرَى} هُوَ التُّرَاب النَّدِيّ وَالْمُرَاد الْأَرَضُونَ السَّبْع لِأَنَّهَا تحته.

وَإِنْ تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى (٧).

{وَإِنْ تَجْهَر بِالْقَوْلِ} فِي ذِكْر أَوْ دُعَاء فَاَللَّه غَنِيّ عَنْ الْجَهْر بِهِ {فَإِنَّهُ يَعْلَم السِّرّ وَأَخْفَى} مِنْهُ أَيْ مَا حَدَّثْت بِهِ النَّفْس وَمَا خَطَرَ وَلَمْ تُحَدِّث بِهِ فَلَا تُجْهِد نَفْسك بِالْجَهْرِ

اللهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى (٨)

=

شاء الله في الآية هو ما صدَّرْنا به، ودل عليه القرآن في مواضع أخر.

{الله لَا إلَه إلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاء الْحُسْنَى} التِّسْعَة وَالتِّسْعُونَ الْوَارِد بِهَا الْحَدِيث وَالْحُسْنَى مؤنث الأحسن[1].

---

(١) ذكر سبب النزول.

عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما؛ قال: قالوا: لقد شقي هذا الرجل بربه؛ فأنزل الله: {طه (١) مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى (٢)}.

أخرجه الطبري في "جامع البيان" (١٦/ ١٠٢). وإسناد ضعيف جدًا؛ مسلسل بالعوفيين الضعفاء.

وعن علي؛ قال: كان النبي ﷺ يراوح بين قدميه، يقوم على كل رجل، حتى نزلت: {مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى (٢)}.

أخرجه البزار في "مسنده" (٣/ ١٣٦ رقم ٩٢٦ - البحر الزخار) أو (٣/ ٥٨ رقم ٢٢٣٢ - كشف): ثنا محمد بن إسحاق البغدادي ثنا عبيد الله بن موسى ثنا كيسان أبو عمر عن يزيد بن بلال عنه. وهذا إسناد ضعيف؛ فيه علتان: الأولى: يزيد بن بلال؛ ضعيف؛ كما في "التقريب". والثانية: كيسان أبو عمر أيضًا؛ ضعيف؛ كما في "التقريب.

وعن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما؛ قال: إن النبي ﷺ أول ما أنزل عليه الوحي كان يقوم على صدر قدميه إذا صلّى؛ فأنزل الله: {طه (١) مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى (٢)}.

أخرجه البيهقي في "شعب الإيمان" (٤/ ١٢٩ رقم ١٤١٦) من طريق أبي يحيى بن أبي مسرة -ووقع في طبعة دار الكتب العلمية عن أبي يحيى عن أبي مسرة وهو تصحيف؛ فليحرر- ثنا خلاد بن يحيى ثنا محمد بن زياد اليشكري -ووقع في طبعة دار الكتب: السكري وهو تحريف؛ فليحرر- ثنا ميمون بن مهران عن ابن عباس به. ومداره على محمد بن زياد اليشكري؛ كذبه أحمد وابن معين والفلاس =

=

والنسائي والدارقطني وغيرهم، وفي "التقريب": "كذبوه".

وعن الربيع بن أنس؛ قال: كان النبي ﷺ إذا صلى قام على رجل ورفع الأخرى؛ فأنزل الله تعالى: {طه (١)}؛ يعني: طا الأرض يا محمد {مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى (٢)}.

أخرجه عبد بن حميد في "تفسيره"؛ كما في "تفسير القرآن العظيم" (٣/ ١٤٩)، و"الدر المنثور" (٥/ ٥٤٩)، و"لباب النقول" (ص ١٤٦) -ومن طريقه القاضي عياض في "الشفا" (١/ ٤١، ٤٢) -: ثنا هاشم بن القاسم عن أبي جعفر الرازي عن الربيع به. وهذا إسناد ضعيف جدًا؛ فيه علتان:

الأولى: الإعضال. والثانية: أبو جعفر الرازي؛ صدوق سيئ الحفظ.

وعن الضحاك؛ قال: لما أنزل الله القرآن على النبي ﷺ قام هو وأصحابه فصلوا، فقال كفار قريش: ما أنزل الله تعالى هذا القرآن على محمد ﷺ إلا ليشقى به؛ فأنزل الله: {طه (١) مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى (٢)}.

أخرجه أبو الشيخ في "تفسيره" -ومن طريقه الواحدي في "أسباب النزول" (ص ٢٠٥) - من طريق جويبر -وتصحف في الواحدي إلى جرير؛ فليحرر، وهو على الصواب في "تفسير القرآن العظيم" (٣/ ١٤٩) - عن الضحاك به. وهذا إسناد ضعيف جدًا؛ جويبر ذا ضعيف جدًا؛ كما في "التقريب"، وهو مع هذا معضل.

وعن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما؛ قال: كان رسول الله ﷺ إذا قام من الليل يربط نفسه بحبل؛ كي لا ينام؛ فأنزل الله عليه: {طه (١) مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى (٢)}.

ذكره السيوطي في "الدر المنثور" (٥/ ٥٤٩) ونسبه لابن عساكر.

وعن علي رضي الله عنه؛ قال: لما نزل على النبي ﷺ: {يَاأَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ (١) قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا (٢)} قام الليل كله حتى تورمت قدماه؛ فجعل يرفع رجلًا، ويضع رجلًا، فهبط عليه جبريل، فقال: {طه (١)}؛ يعني: الأرض بقدميك يا محمد، {مَا أَنْزَلْنَا

=

=
عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى (٢)}؛ وأنزل: {فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ}.
ذكره السيوطي في "الدر المنثور" (٥/ ٥٤٩) ونسبه لابن مردويه.
وعن مجاهد؛ قال: كان النبي ﷺ يربط نفسه، ويضع إحدى رجليه على الأخرى؛ فنزلت: {طه (١) مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى (٢)}.
ذكره السيوطي في "الدر المنثور" (٥/ ٥٤٩) ونسبه لعبد بن حميد.
وعن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما: إن رسول الله ﷺ ربما قرأ القرآن إذا صلى قام على رجل واحدة في قوله: {طه (١)}؛ فأنزل الله: {طه (١)} برجليك {مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى (٢)}.
ذكره السيوطي في "الدر المنثور" ونسبه لابن مردويه.
* قوله تعالى: {مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى} [طه: ٢].
قال الطبري: معناه:"يا رجل ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى، ما أنزلناه عليك فنكلفك ما لا طاقة لك به من العمل، وذُكِر أنه قيل له ذلك بسبب ما كان يلقى من النَّصب والعناء والسهر في قيام الليل".
قال ابن الجوزي:"ومعنى قوله تعالى {لتشقى}: لتتعب وتبلغ من الجهد ما قد بلغت، وذلك أنه اجتهد في العبادة وبالغ، حتى إنه كان يرواح بين قدميه لطول القيام، فأمر بالتخفيف".
قال القشيري:"{ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى}: أي: ليس المقصود من إيجابنا إليك تعبدك، وإنما هذا استفتاح الوصلة، والتمهيد لبساط القربة. ويقال إنه لما قال له: {لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُم} [الحجر: ٨٨]، وقف بفرد قدم تباعدا وتنزها عن أن يقرب من الدنيا استمتاعا بها بوجه فقيل له: طأ الأرض بقدميك. لم كل هذا التعب الذي تتحمله؟ فزاد فى تعبده، ووقف، حتى [تورمت] قدماه وقال: «أفلا أكون عبدا شكورا»، أي: لما أهلني من التوفيق حتى أعبده".
=

=

عن قتادة: " {مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْءَانَ لِتَشْقَى}: يا رجل، {ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى}، لا والله ما جعله الله شقيا، ولكن جعله الله رحمة ونورا ودليلا إلى الجنة إلا تذكرة لمن يخشى قال: إن الله أنزل كتابه وبعث رسله رحمة رحم بها ليذكر ذاكر وينتفع رجل بما سمع من كتاب الله وهو ذكر أنزله الله فيه حلاله وحرامه".

وفي قوله تعالى: {مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْءَانَ لِتَشْقَى} [طه:٢]، ثلاثة وجوه:

أحدها: بالتعب والسهر في قيام الليل، قاله مجاهد.

عن مجاهد قوله: " {مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْءَانَ لِتَشْقَى}، يقول: في الصلاة هى مثل قوله: {فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْه}، قال: وكانوا يعلقون الحبال بصدورهم في الصلاة".

الثاني: أنه جواب للمشركين لما قالوا: إنه بالقرآن شقى، قاله الحسن.

الثالث: معناه لا تشْقِ بالحزن والأسف على كفر قومك، حكاه الماوردي عن ابن بحر.

أي: ليس المقصود بالوحي، وإنزال القرآن عليك، وشرع الشريعة، لتشقى بذلك، ويكون في الشريعة تكليف يشق على المكلفين، وتعجز عنه قوى العاملين. وإنما الوحي والقرآن والشرع، شرعه الرحيم الرحمن، وجعله موصلا للسعادة والفلاح والفوز، وسهله غاية التسهيل، ويسر كل طرقه وأبوابه، وجعله غذاء للقلوب والأرواح، وراحة للأبدان، فتلقته الفطر السليمة والعقول المستقيمة بالقبول والإذعان، لعلمها بما احتوى عليه من الخير في الدنيا والآخرة.

وهو استئناف مسوق لتسلية الرسول ﷺ عما أصابه من المشركين، والشقاء يأتى في اللغة بمعنى التعب والعناء، ومنه المثل القائل «أشقى من رائض مهر» أى: أتعب. ومنه قول أبى الطيب المتنبي:

ذو العقل يشقى في النعيم بعقله ... وأخو الجهالة في الشقاوة ينعم

أى: ما أنزلنا عليك القرآن- أيها الرسول الكريم- لكي تتعب وتجهد نفسك هما

=

=

وغما بسبب إعراض المشركين عن دعوتك، كما قال- تعالى-: فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلى آثارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا.

وإنما أنزلناه إليك لتسعد بنزوله، ولتبلغ آياته، ثم بعد ذلك من شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر، فأنت عليك البلاغ ونحن علينا الحساب.

ومنهم من يرى أن المقصود بالآية النهى عن المغالاة في العبادة، فقد أثر عنه ﷺ أنه قام الليل حتى تورمت قدماه فيكون المعنى: ما أنزلنا عليك القرآن لكي تهلك نفسك بالعبادة، وتذيقها ألوان المشقة والتعب، فإن الله- تعالى- يريد بكم اليسر ولا يريد بكم العسر، وما جعل عليكم في الدين من حرج.

ومنهم من يرى أن الآية مسوقة للرد على المشركين، الذين قالوا: ما أنزل هذا القران على محمد ﷺ إلا ليشقى، فيكون المراد بالشقاء ما هو ضد السعادة.

قال القرطبي ما ملخصه: «وأصل الشقاء في اللغة العناء والتعب، أى: ما أنزلنا عليك القرآن لتتعب، بسبب فرط تأسفك عليهم وعلى كفرهم.. أى: ما عليك إلا أن تبلغ وتنذر..

قال الشنقيطي: في قوله تعالى: {مَا أَنْزَلْنَا عَلَيكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى} وجهان من التفسير، وكلاهما يشهد له قرآن:

الأول: أن المعنى: ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى؛ أي لتتعب التعب الشديد بفرط تأسفك عليهم وعلى كفرهم؛ وتحسرك على أن يؤمنوا. وهذا الوجه جاءت بنحوه آيات كثيرة، كقوله تعالى: {فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيهِمْ حَسَرَاتٍ} الآية، وقوله تعالى: {فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا (٦)}، وقوله: {لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ (٣)}؛ والآيات بمثل ذلك كثيرة جدًا، وقد قدمنا كثيرًا منها في مواضع من هذا الكتاب المبارك.

الوجه الثاني: أنه ﷺ صلى بالليل حتى تورمت قدماه، فأنزل الله {مَا أَنْزَلْنَا عَلَيكَ

=

=
الْقُرْآنَ لِتَشْقَى (٢)} أي تنهك نفسك بالعبادة وتذيقها المشقة الفادحة؛ وما بعثناك إلا بالحنيفية السمحة. وهذا الوجه تدل له ظواهر آيات من كتاب الله، كقوله: {وَمَا جَعَلَ عَلَيكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ}، وقوله: {يُرِيدُ اللهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ}. والعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب.

ويفهم من قوله: {لِتَشْقَى} أنه أنزل عليه ليسعد؛ كما يدل له الحديث الصحيح: "من يرد الله به خيرًا يفقهه في الدين" وقد روى الطبراني عن ثعلبة بن الحكم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عن النبي ﷺ: أن الله يقول للعلماء يوم القيامة: "إني لم أجعل علمي وحكمتي فيكم إلا وأنا أريد أن أغفر لكم على ما كان منكم ولا أبالي". وقال ابن كثير: إن إسناده جيد، ويشبه معنى الآية على هذا القول الأخير قوله تعالى: {فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ}... ا.هـ

والآية الكريمة وإن كانت تتسع لهذه المعاني الثلاثة، إلا أن المعنى الأول أظهرها، وأقربها إلى سياق الآيات الكريمة، فإن قوله- تعالى- بعد ذلك: إِلَّا تَذْكِرَةً لِمَنْ يَخْشى بيان للحكمة التي من أجلها أنزل الله- تعالى- هذا القرآن.

أى: ما أنزلنا عليك يا محمد هذا القرآن لتتعب من فرط تأسفك على كفر الكافرين، وإنما أنزلناه من أجل أن يكون تَذْكِرَةً أى موعظة تلين لها قلوب من يخشى عقابنا، ويخاف عذابنا، ويرجو ثوابنا.

وما دام الأمر كذلك فامض في طريقك، وبلغ رسالة ربك، ثم بعد ذلك لا تتعب نفسك بسبب كفر الكافرين، فإنك لا تهدى من أحببت ولكن الله يهدى من يشاء.

قوله تعالى: {إِلَّا تَذْكِرَةً لِمَنْ يَخْشَى} [طه: ٣]

قال يحيى:"يقول: وإنما أنزله الله تبارك وتعالى تذكرة لمن يخشى الله، وأما الكافر فلم يقبل التذكرة".

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: ما أنزلنا عليك هذا القرآن إلا تذكرة لمن يخشى
=

=

عقاب الله، فيتقيه بأداء فرائض ربه واجتناب محارمه".

قال البغوي:"أي: لكن أنزلناه عظة لمن يخشى".

قال ابن زيد:"الذي أنزلناه عليك تذكرة لمن يخشى".

قال قتادة: وإن الله أنزل كتبه، وبعث رسله رحمة رحم الله بها العباد، ليتذكر ذاكر، وينتفع رجل بما سمع من كتاب الله، وهو ذكر له أنزل الله فيه حلاله وحرامه، فقال: {تَنزيلا مِمَّنْ خَلَقَ الأَرْضَ وَالسَّمَاوَاتِ الْعُلا}".

وخص- سبحانه- التذكرة بمن يخشى دون غيره، لأن الخائف من عذاب الله- تعالى- هو وحده الذي ينتفع بهدايات القرآن الكريم وآدابه وتوجيهاته وأحكامه ووعده ووعيده.. كما قال- تعالى-: فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخافُ وَعِيدِ وكما قال- سبحانه-: إِنَّما أَنْتَ مُنْذِرُ مَنْ يَخْشاها أى: الساعة.

ثم بين- سبحانه- مصدر القرآن الذي أنزله- تعالى- للسعادة لا للشقاء فقال: تَنْزِيلًا مِمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّماواتِ الْعُلى.

قوله تعالى: {تَنْزِيلًا مِمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَاوَاتِ الْعُلَى} [طه: ٤]

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: هذا القرآن تنزيل من الربّ الذي خلق الأرض والسموات العلى".

قال الزجاج:"المعنى: أنزلناه تنزيلًا، و (العُلَى): جمع العليا، يقال: سماء عُلْيَا وسمواتٌ عُلًى، مثل الكبرى والكُبَر".

قال مكي:"أي: نزلناه تنزيلًا من الله الذي خلق الأرض والسموات العلى".

قال الماتريدي:"كأن هذا نزل على إثر قول قاله أولئك الكفرة، وهو ما قالوا: إنه ساحر، وإنه مفتر، وإنه شاعر وإنما يعلمه بشر ونحوه، فقال جوابا لقولهم: {تنزيلا ممن خلق الأرض والسماوات العلى}، وليس كما يقول أولئك: إنه ساحر وإنه مفتر وإنما يعلمه بشر، بل تنزيلا ممن خلق الأرض والسماوات العلا، والله

=

=

أعلم".

قال مقاتل:"{العلى} يعني: [الرفيعة] مِن الأرض".

قال الزمخشري:"وصف السموات بـ«العلى»: دلالة على عظم قدرة من يخلق مثلها في علوها وبعد مرتقاها".

وقوله تَنْزِيلًا منصوب بفعل مضمر دل عليه قوله ما أَنْزَلْنا ... أى: نزل هذا القرآن تنزيلا ممن خلق الأرض التي تعيشون عليها، وممن خلق السموات العلى، أى: المرتفعة. جمع العليا ككبرى وكبر، وصغرى وصغر.

ثم مدح- سبحانه- ذاته بقوله: الرَّحْمنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوى أى: الرحمن- ﷻ استوى على عرش ملكه استواء يليق بذاته بلا كيف أو تشبيه، أو تمثيل.

قوله تعالى: {الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى} [طه: ٥]

أي: الرحمن على العرش استوى أي: علا وارتفع، استواء يليق بجلاله وعظمته.

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: الرحمن على عرشه ارتفع وعلا".

قال البغوي:"وأما أهل السنة فيقولون: الاستواء على العرش صفة لله تعالى، بلا كيف، يجب على الرجل الإيمان به، ويكل العلم فيه إلى الله ﷻ".

قال ابن كثير:"أن المسلك الأسلم في ذلك طريقة السلف: إمرار ما جاء في ذلك من الكتاب والسنة من غير تكييف ولا تحريف، ولا تشبيه، ولا تعطيل، ولا تمثيل".

قال الإمام مالك: الاستواء غير مجهول، والكيف غير معقول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة.

ثم أكد- سبحانه- شمول ملكه وقدرته فقال: لَهُ ما فِي السَّماواتِ وَما فِي الْأَرْضِ من كائنات وموجودات ملكا وتصرفا وإحياء وإماتة، وله ما بَيْنَهُما من مخلوقات لا يعلمها إلا هو وله ما تَحْتَ الثَّرى والثرى: هو التراب الندى. يقال: ثريت

=

=

الأرض- كرضيت- إذا نديت ولانت بعد أن كانت جدباء يابسة.

قوله تعالى: {لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى} [طه: ٦]

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: لله ما في السموات وما في الأرض وما بينهما، وما تحت الثرى، ملكا له، وهو مدبر ذلك كله، ومصرّف جميعه. ويعني بالثرى: الندى، يقال للتراب الرطب المبتلّ: ثرى منقوص، يقال منه: ثريت الأرض تثرى، ثرى منقوص".

قال ابن كثير:"أي: الجميع ملكه وفي قبضته، وتحت تصريفه ومشيئته وإرادته وحكمه، وهو خالق ذلك ومالكه وإلهه، لا إله سواه، ولا رب غيره".

قال الزجاج:"«الثرى» في اللغة: الندى، وما تحت الأرض ندى، وجاء في التفسير {وما تحت الثرى}: ما تحت الأرض".

قال قتادة: "و «الثَّرَى»: كلّ شيء مبتلّ".

عن الضحاك، قوله:"{وَمَا تَحْتَ الثَّرَى} ـ ما حفر من التراب مبتلا".

عن محمد بن كعب:"{وَمَا تَحْتَ الثَّرَى، قال: الثرى: سبع أرضين".

عن أبي رجاء العطاردي قال: " «الثرى»: الذي تحت الماء، الذي يستقر عليه الماء فهو يعلم ما تحت ذلك الثرى الذي مستقر الماء عليه".

عن جابر بن عبد الله قال: "كنت مع رسول الله ﷺ في غزوة تبوك، فأقبلنا راجعين في حر شديد، فنحن متفرقون بين واحد واثنين، منتشرين، قال: وكنت في أول العسكر: إذ عارضنا رجل فَسَلّم ثم قال: أيكم محمد؟ ومضى أصحابي ووقفت معه، فإذا رسول الله ﷺ قد أقبل في وسط العَسْكَر على جمل أحمر، مُقَنَّع بثوبه على رأسه من الشمس، فقلت: أيها السائل، هذا رسول الله قد أتاك. فقال: أيهم هو؟ فقلت: صاحب البَكْر الأحمر. فدنا منه، فأخذ بخطام راحلته، فكف عليه

=

=

رسول الله ﷺ، فقال: أنت محمد؟ قال: "نعم". قال: إني أريد أن أسألك عن خصال، لا يعلمهن أحد من أهل الأرض إلا رجل أو رجلان، فقال رسول الله ﷺ: "سل عما شئت". فقال: يا محمد، أينام النبي؟ فقال رسول الله ﷺ: "تنام عيناه ولا ينام قلبه". قال: صدقت. ثم قال: يا محمد، مِنْ أين يشبه الولد أباه وأمه؟ قال ماء الرجل أبيض غليظ، وماء المرأة أصفر رقيق، فأيّ الماءين غلب على الآخر نزع الولد". فقال صدقت. فقال: ما للرجل من الولد وما للمرأة منه؟ فقال: "للرجل العظام والعروق والعصب، وللمرأة اللحم والدم والشعر قال: صدقت. ثم قال: يا محمد، ما تحت هذه، يعني الأرض؟ فقال رسول الله ﷺ: "خلق". فقال: فما تحتهم؟ قال: "أرض". قال: فما تحت الأرض؟ قال "الماء" قال: فما تحت الماء؟ قال: "ظلمة". قال: فما تحت الظلمة؟ قال: "الهواء". قال: فما تحت الهواء؟ قال: "الثرى". قال: فما تحت الثرى؟ ففاضت عينا رسول الله ﷺ بالبكاء، وقال: "انقطع علم المخلوقين عند علم الخالق، أيها السائل، ما المسئول عنها بأعلم من السائل". قال: فقال: صدقت، أشهد أنك رسول الله. فقال رسول الله ﷺ: "أيها الناس، هل تدرون من هذا؟ " قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: "هذا جبريل ﷺ".

قال ابن كثير: "هذا حديث غريب جدًا، وسياق عجيب، تفرد به القاسم بن عبد الرحمن هذا، وقد قال فيه يحيى بن معين: "ليس يساوي شيئًا" وضعفه أبو حاتم الرازي، وقال ابن عدي: لا يعرف.

قلت-ابن كثير-: وقد خلط في هذا الحديث، ودخل عليه شيء في شيء، وحديث في حديث. وقد يُحْتَمل أنه تَعَمَّد ذلك، أو أدخل عليه فيه، فالله أعلم".

والمقصود: وله- سبحانه- بجانب ما في السموات وما في الأرض وما بينهما، ما وراء الثرى وهو تخوم الأرض وطبقاتها إلى نهايتها.

=

=

وخص- سبحانه- ما تحت الثرى بالذكر، مع أنه داخل في قوله: وَما فِي الْأَرْضِ لزيادة التقرير، ولتأكيد شمول ملكيته- سبحانه- لكل شيء.

وقوله- سبحانه-: وَإِنْ تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفى بيان لشمول علمه بكل شيء، بعد بيان شمول قدرته.

قوله تعالى: {وَإِنْ تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى} [طه: ٧]

قال الطبري:"وإن تجهر يا محمد بالقول، أو تخف به، فسواء عند ربك الذي له ما في السموات وما في الأرض، فإنه لا عليه ما استسررته في نفسك، فلم تبده بجوارحك ولم تتكلم بلسانك، ولم تنطق به وأخفى".

قال السمعاني:"معناه: إن جهرت أو أسررت فلا يغيب عن علمه".

واختلف أهل التفسير في قوله تعالى: {فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى} [طه: ٧]، على أقوال:

أحدها: أن «السِّرَّ»: ما حدَّث به العبد غيره في السر. «وأَخْفَى»: ما أضمره في نفسه، ولم يحدّث به غيره، قاله ابن عباس.

قال أبو عبيدة:"يعنى: والخفيّ الذي حدّثت به نفسك ولم تسرّه إلى أحد".

قال ابن عباس:"قال: السرّ: ما أسرّ ابن آدم في نفسه، وأخفى: قال: ما أخفى ابن آدم مما هو فاعله قبل أن يعمله، فالله يعلم ذلك، فعلمه فيما مضى من ذلك، وما بقي علم واحد، وجميع الخلائق عنده في ذلك كنفس واحدة، وهو قوله: {مَا خَلْقُكُمْ وَلا بَعْثُكُمْ إِلا كَنَفْسٍ وَاحِدَة}".

الثاني: أن «السِّرَّ» ما أَضمره العبد في نفسه. وأخفى منه ما لم يكن ولا أضمره أحد في نفسه. قاله قتادة، وسعيد بن جبير.

قال سعيد بن جبير:"السرّ: ما أسررت في نفسك، وأخفى من ذلك: ما لم تحدّث به نفسك".

=

=

قال قتادة:"كنا نحدّث أن السرّ ما حدّثت به نفسك، وأن أخفى من السرّ: ما هو كائن مما لم تحدث به نفسك".

الثالث: يعلم أسرار عباده، وأخفى سر نفسه عن خلقه، قاله ابن زيد.

الرابع: أن «السِّرَّ» ما أسره الناس، «وأَخْفَى»: الوسوسة، قاله مجاهد.

وقال عكرمة: {وأخْفَى}، " أخفى حديث نفسك".

الخامس: أن «السِّرَّ» ما أسره من علمه وعمله السالف، «وأَخْفَى»: وما يعلمه من عمله المستأنف، وهذا معنى قول الكلبي.

السادس: معنى: «أخفى» من السر: ما لم يفكره العبد فيه وهو مفكره نوما. قاله سهل بن عبد الله.

السابع: أن «السر»: ما أكننته في نفسك، و «أخفى»: ما يكون من الغيب الذي لا يعلمه إلا الله. قاله الزجاج.

الثامن: «السِّرَّ»: العزيمة، وما هو «وأَخْفَى»: هو الهم الذي دون العزيمة. حكاه الماوردي.

قال الطبري:"والصواب من القول في ذلك، قول من قال: معناه: يعلم السرّ وأخفى من السرّ، لأن ذلك هو الظاهر من الكلام.. تأويل الكلام: فإنه يعلم السرّ وأخفى منه. فإذا كان ذلك تأويله، فالصواب من القول في معنى أخفى من السرّ أن يقال: هو ما علم الله مما أخفى عن العباد، ولم يعلموه مما هو كائن ولم يكن، لأن ما ظهر وكان فغير سرّ، وأن ما لم يكن وهو غير كائن فلا شيء، وأن ما لم يكن وهو كائن فهو أخفى من السرّ، لأن ذلك لا يعلمه إلا الله، ثم من أعلمه ذلك من عباده".

والجهر بالقول: رفع الصوت به. والسر: ما حدث به الإنسان غيره بصورة خفية.

وأخفى أفعل تفضيل وتنكيره للمبالغة في الخفاء.

=

=

والمعنى: وإن تجهر- أيها الرسول- بالقول في دعائك أو في مخاطبتك لربك، فربك- ﷻ غنى عن ذلك، فإنه يعلم ما يحدث به الإنسان غيره سرا، ويعلم أيضا ما هو أخفى من ذلك وهو ما يحدث به الإنسان نفسه دون أن يطلع عليه أحد من الخلق.

قال- تعالى-: وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذاتِ الصُّدُورِ. أَلا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ.

وقال- سبحانه-: وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسانَ وَنَعْلَمُ ما تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ.

ومنهم من يرى أن لفظ أَخْفى فعل ماض. فيكون المعنى: وإن تجهر بالقول في ذكر أو دعاء فلا تجهد نفسك بذلك فإنه- تعالى- يعلم السر الذي يكون بين اثنين، ويعلم ما أخفاه- سبحانه- عن عباده من غيوب لا يعلمها إلا هو، ويعلم ما سيفعله الإنسان من أعمال في المستقبل، قبل أن يعلم هذا الإنسان أنه سيفعلها.

قال الجمل: وقوله: أَخْفى جوزوا فيه وجهين: أحدهما: أنه أفعل تفضيل. أى: وأخفى من السر. والثاني: أنه فعل ماض. أى: وأخفى الله من عباده غيبه، كقوله وَلا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا.

ثم أثنى- سبحانه- على ذاته بما هو أهل له فقال: اللهُ لا إِلهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْماءُ الْحُسْنى.

قوله تعالى: {اللهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ} [طه: ٨]، أي:"الله الذي لا معبود بحق إلا هو".

قال الطبري: يعني:"المعبود الذي لا تصلح العبادة إلا له، يقول: فإياه فاعبدوا أيها الناس دون ما سواه من الآلهة والأوثان".

عن كعب، قال: " {لا إله إلا الله}: كلمة الإخلاص".

قوله تعالى: {لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى} [طه: ٨]، أي:"له وحده الأسماء الكاملة في

=

=

الحسن".

قال الطبري: يقول:"لمعبودكم أيها الناس الأسماء الحسنى".

قال ابن كثير:""أي: الذي أنزل القرآن عليك هو الله الذي لا إله إلا هو ذو الأسماء الحسنى والصفات العلى".

قال السعدي:"أي له الأسماء الكثيرة الكاملة الحسنى من حسنها أنها كلها أسماء دالة على المدح فليس فيها اسم لا يدل على المدح والحمد ومن حسنها أنها ليست أعلاما محضة وإنما هي أسماء وأوصاف ومن حسنها أنها دالة على الصفات الكاملة وأن له من كل صفة أكملها وأعمها وأجلها ومن حسنها أنه أمر العباد أن يدعوه بها لأنها وسيلة مقربة إليه يحبها ويحب من يحبها ويحب من يحفظها ويحب من يبحث عن معانيها ويتعبد له بها قال تعالى {ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها}".

عن أبي هريرة، قال، قال رسول اللهﷺ: "إن لله تسعة وتسعين اسما مائة إلا واحد لا يحفظها أحد إلا دخل الجنة وهو وتر يحب الوتر".

وفي رواية:""إن لله تسعة وتسعين اسمًا من أحصاها دخل الجنة".

قال الزجاج:"وتأويل: «من أحصاها دخل الجنة»: من وحد الله وذكر هذه الأسماء الحسنى يريد بها توحيد الله وإعظامه دخل الجنة".

قال الشنقيطي: ذكر جل وعلا في هذه الآية الكريمة: أنه المعبود وحده، وأن له الأسماء الحسنى. وبين أنه المعبود وحده في آيات لا يمكن حصرها لكثرتها، كقوله: {اللهُ لَا إِلَهَ إلا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ (٢)}، وقوله: {فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إلا اللهُ} الآية.

وبين في مواضع أخر أن له الأسماء الحسنى، وزاد في بعض المواضع الأمر بدعائه بها، كقوله تعالى: {وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا}، وقوله: {قُلِ ادْعُوا اللهَ أَوِ

=

=

ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى} وزاد في موضع آخر تهديد من ألحد في أسمائه؛ وهو قوله: {وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٨٠)}.

قال بعض العلماء: ومن إلحادهم في أسمائه أنهم اشتقوا العُزَّى من اسم العزيز، واللات من اسم الله. وفي الحديث الصحيح عن النبي ﷺ: "إن لله تسعة وتسعين اسمًا مائة إلا واحدًا، من أحصاها دخل الجنة". وقد دل بعض الأحاديث على أن من أسمائه جل وعلا ما استأثر به ولم يعلمه خلقه، كحديث: "أسألك بكل اسم هو لك سميت به نفسك، أو أنزلته في كتابك، أو علمته أحدًا من خلقك، أو استأثرت به في علم الغيب عندك" الحديث. وقوله: {الْحُسْنَى (٨)} تأنيث الأحسن، وإنما وصف أسماءه جل وعلا بلفظ المؤنث المفرد؛ لأن جمع التكسير مطلقًا وجمع المؤنث السالم يجريان مجرى المؤنثة الواحدة المجازية التأنيث، كما أشار له في الخلاصة بقوله:

والتاءُ مع جمعٍ سوى السالمِ مِن ... مذكَّرٍ كالتاءِ مع إحدى اللَّبِن

ونظير قوله هنا: {الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى (٨)} من وصف الجمع بلفظ المفرد المؤنث قوله: {مِنْ آيَاتِنَا الْكُبْرَى (٢٣)}، وقوله: {مَآرِبُ أُخْرَى (١٨)} ا.هـ

مسألة: ذكر الأسس التي قام عليها معتقد أهل السنة في باب الأسماء والصفات.

ارتكز معتقد أهل السنة في باب أسماء الله وصفاته على ثلاثة أسس رئيسية، هي:

الأساس الأول: الإيمان بما ورددت به نصوص القرآن والسنة الصحيحة من أسماء الله وصفاته إثباتًا ونفيًا.

الأساس الثاني: تنزيه الله جل وعلا عن أن يشبه شيء من صفاته شيئًا من صفات المخلوقين.

الأساس الثالث: قطع الطمع عن إدراك كيفية اتصاف الله بتلك الصفات.

=

=

وهذه الأسس الثلاثة هي التي تفضل وتميز عقيدة أهل السنة في هذا الباب عن عقيدة أهل التعطيل (من الفلاسفة وأهل الكلام) من جهة.

وعن عقيدة أهل التمثيل (من الكرامية والهشامية وغيرهم) من جهة أخرى.

فالأساس الأول: فيه تمييز لعقيدة أهل، السنة عن عقيدة المعطلة، فأهل السنة يجعلون الأصل في إثبات الأسماء والصفات أو نفيها عن الله تعالى هو كتاب الله وسنة نبيه ﷺ، ولا يتجاوزونها، فما ورد إثباته من الأسماء والصفات في القرآن والسنة الصحيحة فيجب إثباته، وما ورد نفيه فيهما فيجب نفيه.

(وأما ما لم يرد إثباته ونفيه فلا يصح استعماله في باب الأسماء وباب الصفات إطلاقًا، وأما في باب الأخبار فمن السلف من يمنع ذلك، ومنهم من يجيزه بشرط أن يستفصل عن مراد المتكلم فيه، فإن أراد به حقًّا يليق بالله تعالى فهو مقبول، وإن أراد به معنى لا يليق بالله عر وجل وجب رده).

ومجمل القول إن في الأمر ثلاثة أبواب:

١- باب الأسماء: وهذا يجب الاعتماد فيه على الكتاب والسنة فقط.

٢- باب الصفات: وهذا كذلك يجب الاعتماد فيه على الكتاب والسنة فقط.

٣- باب الأخبار: وهذا لا يشترط فيه ورود النص الشرعي، ولكن يشترط أن يكون معنى اللفظ المستعمل ليس بسيء.

أما أهل التعطيل: فقد جعلوا "العقل" وحده هو أصل علمهم، فالشبه العقلية هي الأصول الكلية الأولية عندهم، وهي التي تثبت وتنفي، ثم يعرضون الكتاب والسنة على تلك الشبه العقلية، فإن وافقتها قبلت اعتضادًا لا اعتمادًا، وإن عارضتها ردت تلك النصوص الشرعية وطرحت، وفي هذا يقول قائلهم: (كل ما ورد السمع به ينظر فإن كان العقل مجوزا له وجب التصديق به..

وأما ما قضى العقل باستحالته فيجب فيه تأويل ما ورد السمع به، ولا يتصور أن

=

=

يشمل السمع على قاطع مخالف للمعقول.

وظواهر أحاديث التشبيه- يعني بها أحاديث الصفات- أكثرها غير صحيحة، والصحيح منها ليس بقاطع، بل هو قابل للتأويل).

فهذا النقل يبين لك مدى تقديم هؤلاء لشبههم العقلية وتعصبهم لها، وكيف أنهم يجعلونها هي الأصول والسمع معروضا عليها، فما أجازته عقولهم قبلوه، وما لم تجزه عقولهم شككوا فيه وانتقصوه، ومن ثم سعوا في تأويله وتحريفه، ومن يلقي نظرةً على كتب الأشاعرة مثلًا يجد أن القوم يقسمون أبواب العقيدة إلى إلهيات- ونبوَّات- وسمعيات، وهم في باب الإلهيات والنبوات لا يقبلون نصوص الكتاب والسنة، ولذلك لن تجد في هذين البابين إلا الشبه العقلية المركبة وفق القواعد المنطقية، ويا عجبا أنأخذ ديننا من كلام الله ورسوله، أم من ملاحدة اليونان وتلاميذهم!

وأما باب السمعيات- أي البعث والحشر والجنة والنار والوعد والوعيد- فهم يقبلون فيه النصوص الشرعية، وبالتالي سموا هذا الباب بالسمعيات. في مقابل باب الإلهيات والنبوات، إذ إنهم يعتمدون فيهما على العقليات، وهؤلاء شابهوا حال من قال الله تعالى فيهم: {أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ}.

وأما الأساس الثاني: وهو تنزيه الله عن مشابهة المخلوقين، ففيه تمييز لعقيدة أهل السنة عن عقيدة المعطلة من جهة، وعن عقيدة المشبهة من جهة أخرى.

فأهل السنة: يعتقدون أن ما اتصف الله به من الصفات لا يماثله فيها أحد من خلقه، فالله ﷻ قد أخبرنا بذلك بنص كتابه العزيز حيث قال: {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ}، فإذا ورد النص بصفة من صفات الله تعالى في الكتاب أو

=

=

السنة فيجب الإيمان به والاعتقاد الجازم بأن ذلك الوصف بالغ من غايات الكمال والشرف والعلو مما يقطع جميع علائق أوهام المشابهة بينه وبين صفات المخلوقين، فالشر كل الشر في عدم تعظيم الله، وأن يسبق في ذهن الإنسان أن صفة الخالق تشبه صفة المخلوق، فعلى القلب المؤمن المصدق بصفات الله التي تمدح بها أو أثنى عليه بها نبيه ﷺ، أن يكون معظمًا لله جل وعلا غير متنجس بأقذار التشبيه، لتكون أرض قلبه طيبة طاهرة قابلة للإيمان بالصفات على أساس التنزيه، أخذا بقوله تعالى: {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ}.

أما أهل التعطيل: فإنهم لم يفهموا من أسماء الله وصفاته إلا ما هو اللائق بالمخلوق، ثم شرعوا في نفي تلك المفهومات التي لا وجود لها إلا في أفهامهم الفاسدة، فعقيدة هؤلاء المعطلة جمعت بين التمثيل والتعطيل، وهذا الشر إنما جاء من تنجس قلوبهم وتدنسها بأقذار التشبيه، فإذا سمعوا صفة من صفات الكمال التي أثنى الله بها على نفسه كاستوائه على عرشه ومجيئه يوم القيامة وغير ذلك من صفات الجلال والكمال، فإن أول ما يخطر في أذهانهم أن هذه الصفة تشبه صفات الخلق، فيتلطخ القلب بأقذار التشبيه لم يقدر الله حق قدره ولم يعظم الله حق عظمته حيث سبق إلى ذهنه أن صفة الخالق تشبه صفة المخلوق، فيكون أولًا نجس القلب بأقذار التشبيه ثم دعاه ذلك إلى أن ينفي صفة الخالق جلَّ وعلا عنه بادعاء أنها تشبه صفات المخلوق، فيكون فيها أولًا مشبهًا، وثانيًا معطلًا ضالًا ابتداءً وانتهاءً متهجمًا على رب العالمين ينفي صفاته عنه بادعاء أن تلك الصفة لا تليق.

وأما عقيدة أهل التمثيل: فهي تقوم على دعواهم أن الله ﷻ لا يخاطبنا إلا بما نعقل، فإذا أخبرنا عن اليد فنحن لا نعقل إلا هذه اليد الجارحة، فشبهوا صفات الخالق بصفات المخلوقين، فقالوا: له يد كيدي، تعالى الله عن ذلك علوًّا كبيرًا.

=

=

وأمَّا العارفون به، المصدقون لرسله، المقرون بكماله فهم يثبتون لله جميع صفاته، وينفون عنه مشابهة المخلوقات، فيجمعون بين الإثبات ونفي التشبيه، وبين التنزيه وعدم التعطيل، فمذهبهم حسنة بين سيئتين، وهدًى بين ضلالتين.

وأما الأساس الثالث: ففيه تمييز لعقيدة أهل السنة عن عقيدة المشبهة، فأهل السنة يفوضون علم كيفية اتصاف الباري ﷻ بتلك الصفات إلى الله ﷻ، فلا علم للبشر بكيفية ذات الله-تبارك وتعالى (ولا تفسير كنه شيء من صفات ربنا تعالى كأن يقال استوى على هيئة كذا، وكل من تجرأ على شيء من ذلك فقوله من الغلو في الدين والافتراء على الله ﷻ، واعتقاد ما لم يأذن به الله ولا يليق بجلاله وعظمته ولم ينطق به كتاب ولا سنة، ولو كان ذلك مطلوبًا من العباد في الشريعة لبينه الله تعالى ورسوله ﷺ، فهو لم يدع ما بالمسلمين إليه حاجة إلا بينه ووضحه، والعباد لا يعلمون عن الله تعالى إلا ما علمهم كما قال تعالى: {وَلا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ} فليؤمن العبد بما علمه الله تعالى وليقف معه، وليمسك عما جهله وليكل معناه إلى عالمه).

وأما المشبهة فقد تعمقوا في شأن كيفيات صفات الله وتقولوا على الله بغير علم، فقالوا: له بصر كبصري، ويد كيدي،، وقدم كقدمي، تعالى الله عمّا يقولون علوًّا كبيرًا.

توضيح الأسس الثلاثة.

ا- الأساس الأول: الإيمان بما وردت به نصوص القرآن والسنة الصحيحة من أسماء الله وصفاته إثباتا ونفيا.

وهذا الأساس لابد فيه من مراعاة ما يلي:

أولًا: إن طلب العلم في المطالب الإلهية إنما يكون عن طريق الكتاب والسنة وكلام سلف الأمة.

=

=

فالذي يجب اعتقاده هو أن معرفة هذا النوع من أنواع التوحيد تتوقف على دراسة الكتاب والسنة، لأن هذا التوحيد يتطلب، أسماء وصفات معينة، وهذه لا سبيل إلى معرفتها والحصول عليها إلا من طريق الكتاب والسنة (فنحن نؤمن بالله تعالى وبما أخبر به عن نفسه سبحانه على ألسنة رسله من أسمائه الحسنى وصفاته العلى بلا تكييف ولا تمثيل، وننفي عنه ما نفاه عن نفسه مما لا يليق بجلاله وعظمته، فإنه أعلم بنفسه وبغيره وأصدق قيلًا وأبين دليلًا من غيره)، ولذلك كان معتقد أهل السنة هو الإيمان بما سمى ووصف الله به نفسه إثباتًا ونفيًا، لأنه لا يسمي الله أعلم بالله من الله، قال تعالى: {أَأَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللهُ}، وقال تعالى: {وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللهِ قِيلًا}، وقال تعالى: {وَلا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ}، وقال تعالى: {فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيرًا}، فالله ﷻ، هو الذي سمى ووصف نفسه بما جاء في نص كلامه الذي هو القرآن.

ولا يسمي ويصف الله بعد الله أعلم بالله من رسول الله ﷺ، الذي قال الله في حقه: {وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى}، ولقد جاءت رسالة النبي ﷺ بإثبات الصفات إثباتًا مفصلًا على وجه ثلجت به الصدور واطمأنت به القلوب، واستقر الإيمان في نصابه، وفصلت ذلك أعظم من تفصيل الأمر والنهي، وقررته أكمل تقرير في أبلغ لفظ، ولذلك كان لزامًا على كل مسلم أن يؤمن بأسماء الله وصفاته الواردة في الكتاب والسنة من غير زيادة ولا نقصان.

ثانيًا: تقديم الشرع على العقل، فالأصل في الدين الاتباع والمعقول تبع. فمعتقد أهل السنة في هذا الباب وفي غيره من أبواب العقائد والأحكام أن العقل المجرد ليس له إثبات شيء من العقائد والأحكام، وإنما المرجع في ذلك إلى القرآن والسنة.

فالعقل لا يمكنه إدراك ما يستحقه الله تعالى من الأسماء والصفات فوجب الوقوف في ذلك على النص، لأن العقل يقصر عن إدراك حقيقة المغيبات حتى

=

=

وإن كانت تلك المغيبات أقرب شيء إليه، فهو قاصر عن أن يحيط علمًا بحقيقة روحه التي بين جنبيه لما أخفى الله أمرها عنه، قال تعالى: {وَيَسْأَلونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا}، فإذا كان الإنسان يجهل أمر روحه فكيف يحيط علمًا بذات الله وما يصلح وما لا يصلح لذاته من الأسماء والصفات، والله قد أخفى عن الخلق كيفية ذاته؟!.

(ونحن إذا تدبرنا عامة ما جاء في أمر الدين من ذكر صفات الله، وما تعبد الناس باعتقاده من ذكر عذاب القبر، وسؤال منكر ونكير، والحوض، والميزان، والصراط، وصفة الجنة وصفة النار، وجدناها أمورًا لا ندرك حقائقها بعقولنا، وإنما ورد الأمر بقبولها والإيمان بها، فإذا سمعنا شيئا من أمور الذين، وعقلناه، وفهمناه، فلله الحمد في ذلك، والشكر ومنه التوفيق، وما لم يمكنَّا إدراكه ولم تبلغه عقولنا آمنا به، وصدقناه، واعتقدنا أن هذا من قبل ربوبيته وقدرته، واكتفينا في ذلك بعلمه، ومشيئته، قال تعالى: {وَلا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاء}).

(واعلم أن فصل ما بيننا وبين المعطلة هو "مسألة العقل"، فإنهم أسسوا دينهم على المعقول، وجعلوا الاتباع والمأثور تبعًا للمعقول.

وأما أهل السنة فقالوا: الأصل في الدين الإتباع، والمعقول تبع، ولو كان أساس الدين على المعقول لاستغنى الخلق عن الوحي، وعن الأنبياء، ولبطل معنى الأمر والنهي، ولقال من شاء ما شاء).

فالتقرير بأن النقل مقدم على العقل لا ينبغي أن يفهم منه أن أهل السنة ينكرون العقل والتوصل به إلى المعارف والتفكير به في خلق السموات والأرض، وفي الآيات الكونية الكثيرة، فأهل السنة لا ينكرون استعمال العقل، ولكتهم توسطوا في شأن "العقل" بين طائفتين ضلتا في هذا الباب، هما:

أهل الكلام: الذين يجعلون العقل وحده أصل علمهم، ويفردونه، ويجعلون

=

=

الإيمان والقرآن تابعين له، والمعقولات عندهم هي الأصول الكلية الأولية، المستغنية بنفسها عن الإيمان والقرآن.

فهؤلاء جعلوا عقولهم هي التي تثبت وتنفي والسمع معروضا عليها، فإن وافقها قيل اعتضادًا لا اعتمادًا، وإن عارضها رُدَّ وطُرِحَ، وهذا من أعظم أسباب الضلال التي دخلت على هذه الأمة.

وأهل التصوف: الذين يذمون العقل ويعيبونه، ويرون أن الأحوال العالية، والمقامات الرفيعة، لا تحصل إلا مع عدمه، ويقرون من الأمور بما يكذب صريح العقل.

ويمدحون السكر والجنون والوله، وأمورًا من المعارف والأحوال التي لا تكون إلا مع زوال العقل والتمييز، كما يصدقون بأمور يعلم بالعقل الصريح بطلانها.

وكلا الطرفين مذموم.

وأما أهل السنة: فيرون أن العقل شرط في معرفة العلوم، وكمال وصلاح الأعمال، وبه يكمل العلم والعمل، لكنه ليس مستقلًا بذلك.

فالعقل غريزة في النفس، وقوة فيها، بمنزلة قوة البصر التي في العين.

فإن اتصل به نور الإيمان والقرآن، كان كنور العين إذا اتصل به نور الشمس أو النار.

وإن انفرد بنفسه لم يبصر الأمور التي يعجز وحده عن دركها.

وإن عزل بالكلية كانت الأقوال والأفعال مع عدمه أمورًا حيوانية.

فالأحوال الحاصلة مع عدم العقل ناقصة، والأقوال المخالفة للعقل باطلة، والرسل جاءت بما يعجز العقل عن دركه، ولم تأت بما يعلم بالعقل امتناعه.

ثالثًا: الإيمان بما دلت عليه نصوص الأسماء والصفات من المعاني والأحكام.

فالسلف يؤمنون بأسماء الله وصفاته، وبما دلت عليه من المعاني والأحكام، أما

=

=

كيفيتها فيفوضون علمها إلى الله.

وهم برآء مما اتهمهم به المعطلة الذين زعموا أن السلف يؤمنون، بألفاظ نصوص الأسماء والصفات، ويفوضون معانيها.

وهذا الزعم جهل على السلف، فإنهم كانوا أعظم الناس فهما وتدبرًا لآيات الكتاب وأحاديث النبي ﷺ، خاصة فيما يتعلق بمعرفة الله تعالى، فكانوا يدرون معاني ما يقرأون ويحملون من العلم، ولكنهم لم يكونوا يتكلفون الفهم للغيب المحجوب، فلم يكونوا يخوضون في كيفيات الصفات شأن أهل الكلام والبدع، فإنهم حين خاضوا في ذات الله وصفاته وقعوا في التأويل والتعطيل، وإنما ألجأهم إلى ذلك، الضيق الذي دخل عليهم بسبب التشبيه، فأرادوا الفرار منه فوقعوا في التعطيل،، ولم يقع تعطيل إلا بتشبيه، ولو أنهم نزهوا الله تعالى ابتداء عن مشابهة الخلق، وأثبتوا الصفة مع نفي المماثلة لسلموا ونجوا، ولوافقوا اعتقاد السلف ولبان لهم أن السلف لم يكونوا حملة أسفار لا يدرون ما فيها.

ومن تدبر كلام أئمة السلف المشاهير في هذا الباب علم أنهم كانوا أدق الناس نظرًا، وأعلم الناس في هذا الباب، وأن الذين خالفوهم لم يفهموا حقيقة أقوال السلف والأئمة، ولذلك صار أولئك الذين خالفوا مختلفين في الكتاب، مخالفين للكتاب، وقد قال تعالى: {وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ}.

ومن له اطلاع على أقوال الأسف المدونة في كتب العقيدة والتفسير والحديث عند الحديث عن نصوص الصفات يعلم أن السلف تكلموا في معاني الصفات وبينوها ولم يسكتوا عنها، وهذه الأقوال هي أكبر شاهد على فهم السلف لمعاني الصفات وإيمانهم بها.

رابعًا: رفض التحريف والتعطيل لنصوص الأسماء والصفات.

فالسلف يعتقدون أن الواجب في نصوص القرآن والسنة بما في ذلك نصوص

=

=

الأسماء والصفات هو إجراؤها على ظاهرها، وذلك بأن تُفهتم وفق ما يقتضيه اللسان العربي، وأن لا يتعرض لها بتحريف أو تعطيل كما فعل المعطلة، الذين تلاعبوا بظواهر النصوص ! لمجرد أنها خالفت باطلهم ومناهجهم الفاسدة.

فنصوص الصفات ألفاظ شرعية يجب أن تحفظ لها حرمتها، وذلك بأن نفهمها وفق مراد الشارع، فلا نتلاعب بمعانيها لنصرفها عن مراد الشارع.

فمن الأصول الكلية عند السلف أن الألفاظ الشرعية لها حرمتها، ومن تمام العلم أن يبحث عن مراد الله ورسوله بها ليثبت ما أثبته الله ورسوله من المعاني، وينفى ما نفاه الله ورسوله من المعاني.

وبحمد الله وفضله نجد أن نصوص الصفات الواردة في القرآن والسنة هي من الوضوح والكثرة بمكان، بحيث يستحيل تأويلها والتلاعب بنصوصها، فلقد جاءت رسالة النبي ﷺ بإثبات الصفات إثباتًا مفصَّلًا على وجه أزال الشبهة وكشف الغطاء، وحصل به العلم اليقيني، ورفع الشك والريب، فثلجت به الصدور، واطمأنت به القلوب، واستقر الإيمان في نصابه، فلقد فصلت رسالة نبينا محمد ﷺ الأسماء والصفات والأفعال أعظم من تفصيل الأمر والنهي، وقررت إثباتها أكمل تقرير في أبلغ لفظ.

فالمطلع على نصوص القرآن والسنة الخبير بهما، لا يزيده تحريف المعطلة لتلك النصوص إلا احتقارًا لهم، ويقينًا بفساد معتقدهم وبطلانه.

ولا تروج تحريفات المعطلة إلا على الجاهل بمعرفة تلك النصوص قليل البضاعة فيها، فهذا الصنف! أتي من جهة جهله لا من قلة النصوص الواردة في هذا الباب، والله أعلم.

وأما الأساس الثاني وهو: تنزيه الله جل وعلا أن يماثل شيء من صفاته شيئا من صفات المخلوقين.

=

=

فتوضيحه يكون وفق ما يلي:

أولًا: ا لأدلة الشرعية الواردة في تنزيه، الله عن مشابهة المخلوقين:

١- قال تعالى: {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ}.

٢- وقال تعالى.: {فَلا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ}.

٣- وقال تعالى: {وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَى}.

٤- وقال تعالى: {وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَى}.

٥- وقال تعالى: {هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا}.

٦- وقال تعالى: {قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ}.

٧- وقال تعالى: {وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ}.

وجه دلالة الآيات:

١- قوله ﷻ: {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ}: دليل على أن الله منزه عن أن يكون له مثل في شيء مما يوصف به من صفات كماله.

والآية في تفسيرها وجهان:

الأول: أن يكون معناه: ليس هو كشيء، و أدخل "المثل "في الكلام توكيدًا للكلام.

والثاني: أن يكون معناها: ليس مثله شيء، فتكون "الكاف" هي المدخلة في الكلام توكيدًا وهذا وجه قوي حسن وهو الأظهر.

وقد اتفق أهل السنة على أن الله تعالى ليس كمثله شيء لا في ذاته، ولا في صفاته، ولا في أفعاله.

٢- وقوله تعالى: {فَلا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ}:

قال ابن جرير الطبري في تفسيرها: "فلا تمثلوا لله الأمثال، ولا تشبهوا له الأشباه، فإنه لا مثل ولا شبه".

=

=

وقال ابن كثير: "أي لا تجعلوا له أندادًا وأشباهًا وأمثالًا".

٣- وقوله تعالى: {لِلَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَى}.

٤- وقوله تعالى: {وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَى فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ}.

(فالله تعالى وصف نفسه بأن له المثل الأعلى، وهو الكمال المطلق، المتضمن للأمور الوجودية والمعاني الثبوتية، التي كلَّما كانت أكثر في الموصوف وأكمل كان بها أكمل وأعلى من غيره.

ولما كانت صفات الرب سبحانه وتعالى أكثر وأكمل، كان له المثل الأعلى وكان أحق به من كل ما سواه، بل يستحيل أن يشترك في المثل الأعلى المطلق اثنان، لأنهما إن تكافآ من كل وجه، لم يكن أحدهما أعلى من الآخر، وإن لم يتكافآ، فالموصوف به أحدهما وحده، فيستحيل أن يكون لمن له المثل الأعلى مثل أو نظير، وهذا برهان قاطع على استحالة التمثيل والتشبيه، فتأمله فإنه في غاية الظهور والقوة).

٥- وقوله تعالى: {هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا}: روي عن ابن عباس في تفسيرها قوله: هل تعلم للرب مثلًا أو شبيهًا.

وكذلك قال مجاهد وسعيد بن جبير وقتادة وابن جريج وغيرهم.

٦- وأما قوله تعالى: {قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ}: فالأحد يقتضي أنه لا مثل له و لا نظير.

٧- وكذا قوله: {وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ} فالوحدانية تقتضي الكمال، والشركة تقتضي النقص.

ثانيًا: دلالة العقل على بطلان.شبيه صفات الخالق بصفات المخلوقين:

١- القول في الصفات كالقول في الذات، فإن الله ليس كمثله شي لا في ذاته، ولا في صفاته، ولا في أفعاله، فإذا كان له ذات حقيقة لا تماثل الذوات، فالذات متصفة

=

=

بصفات حقيقة لا تماثل صفات سائر الذوات.

فقد علم بالضرورة أن بين الخالق والمخلوق تباينًا في الذات، وهذا يستلزم أن يكون بينهما تباين في الصفات، لأن صفة كل موصوف تليق به كما هو ظاهر من صفات المخلوقين المتباينة في الذوات، فقوة البعير مثلًا غير قوة الذرة، فإذا ظهر التباين بين المخلوقات مع اشتراكهما في الإمكان والحدوث، فظهور التباين بينهما وبين الخالق أجلى وأقوى.

وبهذا نعلم أن الله لا مثل له، ولا تضرب له الأمثال، التي فيها مماثلة لخلقه، بل له المثل الأعلى.

٢- أن يقال: كيف يكون الرب الخالق الكامل من جميع الوجوه مشابهًا في صفاته للمخلوق المربوب الناقص المفتقر إلى من يكمله، وهل اعتقاد ذلك إلا تنقص لحق الخالق، فإن تشبيه الكامل بالناقص يجعله ناقصًا.

٣- (إذا كان المخلوق منزهًا عن مماثلة المخلوق، مع الموافقة في الاسم، فالخالق أولى أن ينزه عن مماثلة المخلوق وإن حصلت موافقة في الاسم).

(فإن الله سبحانه وتعالى أخبرنا عما في الجنة من المخلوقات، من أصناف المطاعم والمشارب والملابس والمناكح والمساكن، فأخبرنا أن فيها لبنًا وعسلًا وخمرًا وماءً ولحمًا وفاكهةً وحريرًا وذهبًا وفضةً وحورًا وقصورًا.

وقد قال ابن عباس رضي الله عنهما: "ليس في الدنيا شيء مما في الجنة إلا الأسماء".

فإذا كانت تلك الحقائق التي أخبر الله عنها، هي موافقة في الأسماء للحقائق الموجودة في الدنيا، وليست مماثلة لها بل بينهما من التباين ما لا يعلمه إلا الله تعالى، فالخالق سبحانه وتعالى أعظم مباينة للمخلوقات من مباينة المخلوق للمخلوق، ومباينته لمخلوقاته أعظم من مباينة موجود الآخرة لموجود الدنيا، إذ المخلوق أقرب إلى المخلوق الموافق له في الاسم من الخالق إلى المخلوق،

=

=

وهذا بين واضح.

ثالثًا: الاتفاق في الاسم لا يلزم منه تماثل المسمى.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: "الله سبحانه وتعالى سمى نفسه وصفاته بأسماء وسمى بها بعض المخلوقات.

فسمى نفسه حيًّا عليمًا سميعًا بصيرًا عزيزًا جبارًا متكبرًا ملكًا رؤوفًا رحيمًا.

وسمَّى بعض عباده عليمًا، وبعضهم حليمًا، وبعضهم رؤوفًا رحيمًا، وبعضهم سميعًا بصيرًا، وبعضهم ملكًا، وبعضهم عزيزًا، وبعضهم جبارًا متكبرًا.

ومعلوم أنه ليس العليم كالعليم، ولا الحليم كالحليم، ولا السميع كالسميع، وهكذا في سائر أسماء الله.

قال سبحانه وتعالى: {إِنَّ اللهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا}. وقال: {وَبَشَّرُوهُ بِغُلامٍ عَلِيمٍ}. وقال: {إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا}، وقال: {فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلامٍ حَلِيمٍ}. وقال: {إِنَّ اللهَ بِالنَّاسِ لَرَؤُوفٌ رَحِيمٌ}. وقال: {بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ}. وقال. {إِنَّ اللهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا}.

وقال تعالى: {فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا}.

وكذلك سائر ما ذكر، لكن الإنسان يعتبر بما عرفه على ما لم يعرفه، ولولا ذلك لانسدت عليه طرق المعارف للأمور الغائبة، فإن الإنسان يعلم أنه حي عليم قدير سميع بصير متكلم فيتوصل بذلك إلى أن يفهم ما أخبر الله به عن نفسه من أنه حي عليم قدير سميع بصير، فإنه لولا تصوره لهذه المعاني من نفسه ونظره إليها لم يمكن أن يفهم ما غاب عنه، كما أنه لولا تصوره لما في الدنيا من العسل واللبن والماء والخمر والحرير والذهب والفضة لما أمكنه أن يتصور ما أخبر به من ذلك من الغيب، لكن لا يلزم أن يكون الغيب مثل الشهادة، فقد قال ابن عباس رضي الله عنهما: "ليس في الدنيا مما في الجنة إلا الأسماء"، فإن هذه الحقائق التي أخبر بها أنها في

=

=

الجنة ليست مماثلة لهذه الموجودات في الدنيا بحيث يجوز على هذه ما يجوز على تلك، ويجب لها ما يجب لها، ويمتنع ما يمتنع عليها، ويكون مادتها مادتها ويستحيل استحالتها، فإنا نعلم أن ماء الجنة لا يفسد ولا يأسن، ولبنها لا يتغير طعمه، وخمرها لا يصدع شاربها ولا ينزف عقله، فإن ماءها ليس نابعًا من تراب ولا نازلًا من سحاب مثل ما في الدنيا، ولبنها ليس مخلوقًا من أنعام كما في الدنيا وأمثال ذلك.

فإذا كان المخلوق يوافق ذلك المخلوق في الاسم وبينهما قدر مشترك وتشابه فعلم به معنى ما خوطبنا به، مع أن الحقيقة ليست مثل الحقيقة.

فالخالق جل جلاله أبعد عن مماثلة مخلوقاته مما في الجنة لما في الدنيا، فإذا وصف نفسه بأنه حي عليم سميع بصير قدير لم يلزم أن يكون مماثلًا لخلقه، إذ كان بعدها عن مماثلة خلقه أعظم من بعد مماثلة كل مخلوق لكل مخلوق، وكل واحد من صغار الحيوان له حياة وقوة وعمل وليست مماثلة للملائكة المخلوقين، فكيف يماثل رب العالمين شيئًا من المخلوقين".

رابعًا: توضيح المسألة من جهة اللغة ثم الشرع:

يشكل على البعض كون الله سمى نفسه بصفات وسمى عباده بنظير ذلك، فيتردد عند ذلك هل يثبت تلك الصفات لله حقيقة أم لا؟.

فمن أجل توضيح هذه المسألة أقول: اعلم وفقك الله أن الألفاظ منها:

١- ما هو مترادف: هو ما اختلف لفظه واتحد معناه.

مثال ذلك: الليث- الأسد- أسامة- الغضنفر.

هذه ألفاظ مختلفة والمسمى بها واحد، فتسمى الألفاظ المترادفة.

٢- ما هو مشترك: وهو ما اتحد لفظه واختلف معناه.

مثال ذلك: لفظ: " العين ":

=

=

فهي تطلق على العين الباصرة- والعين الجارية- والجاسوس- والحسد.

فاللفظ واحد والمعاني مختلفة، وهذه تسمى الألفاظ المشتركة.

٣- ما هو متباين: وهو ما اختلف لفظه ومعناه:

مثال ذلك: السماء والأرض- والجنة والنار.

فلكل لفظ من هذه الألفاظ معنى يختلف عن الآخر، فهذه تسمى الألفاظ المتباينة.

٤ - ما هو متواطيء: وهو ما اتفق لفظه ومعناه، وهو نوعان:

الأول: التواطؤ المطلق: وذلك إذا كان المعنى متساويًا في الجميع.

مثاله: لفظ "الرجل" يقال: زيد رجل وعمر رجل، فالمعنى متساو في الجميع.

الثاني: التواطؤ المشكِّك: وذلك إذا كان المعنى متفاوتا متفاضلًا، وسمي بالمشكك لتشكك السامع هل هذا اللفظ من قبيل المتواطيء أم من المشترك؟.

مثاله: لفظ " النور" فيقال: نور الشمس ونور السراج، فالمعنى في الاثنين واحد، ولكن هناك تفاوت وتفاضل، فشتان بين نور الشمس ونور السراج.

فالأسماء التي تطلق على الله وعلى العباد هي من الألفاظ المتواطئة التواطؤ المشكك، فالحق فيها هو أن يقال إنه بالنسبة للأسماء والصفات التي تطلق على الله وعلى العباد كالحي، والسميع، والبصير، والعليم، والقدير، والحياة، والسمع، والبصر، والعلم ونحوها هي حقيقة في الرب وحقيقة في العبد.

ولكن للرب تعالى منها ما يليق بجلاله.

وللعبد منها ما يليق به.

وذلك لأن الاسم والصفة من هذا النوع له ثلاثة اعتبارات:

الاعتبار الأول: اعتبار من حيث هو مع قطع النظر عن تقييده بالرب تبارك وتعالى أو العبد.

=

=

الاعتبار الثاني: اعتباره مضافًا إلى الرب مختصًّا به.

الاعتبار الثالث: اعتباره مضافًا إلى العبد كل مقيدًا به.

فما لزم الاسم لذاته وحقيقته كان ثابتًا للرب والعبد، وللرب منه ما يليق بكماله، وللعبد منه ما يليق به.

وهذا كاسم السميع الذي يلزمه إدراك المسموعات.

والبصير الذي يلزمه رؤية المبصرات.

والعليم والقدير وسائر الأسماء.

فإن شرط صحة إطلاقها حصول معانيها وحقائقها للموصوف بها، فما لزم هذه الأسماء لذاتها فإثباتها للرب تعالى لا محذور فيه بوجه، بل يثبت له على وجه لايماثله فيه خلقه ولا يشابهم.

فمن نفاه عنه لإطلاقه على المخلوق ألحد في أسمائه وجحد صفات كماله، ومن أثبته على وجه لا يماثل فيه خلقه به، كما يليق بجلاله وعظمته فقد بريء من فرث التشبيه ودم التعطيل، وهذا طريق أهل السنة.

وما لزم الصفة لإضافتها إلى العبد وجب نفيه عن الله كما يلزم حياة العبد من النوم والسنة والحاجة إلى الغذاء ونحو ذلك، وكذلك ما يلزم إرادته من حركة نفسه في جلب ما ينتفع به ودفع ما يتضرر به، وكذلك ما يلزم علوَّه من احتياجه إلى ما هو عال عليه وكونه محمولًا به، مفتقرًا إليه، محاطا به، كل هذا يجب نفيه عن القدوس السلام تبارك وتعالى.

وما لزم الصفة من جهة اختصاصه تعالى بها فإنه لا يثبت للمخلوق بوجه، كعلمه الذي يلزمه القدم والوجوب والإحاطة بكل معلوم، وقدرته وإرادته وسائر صفاته، فإن ما يختص به منها لا يمكن إثباته للمخلوق.

فإذا أحطت بهذه القاعدة خبرًا وعقلتها كما ينبغي خلصت من الآفتين اللتين هما

=

=

أصل بلاء المتكلمين:

١-آفة التعطيل. ٢- وآفة التشبيه.

فإنك إذا وفيت هذا المقام حقه من التصور أثبت لله الأسماء الحسنى والصفات العلى حقيقة فخلصت من التعطيل، ونفيت عنها خصائص المخلوقين ومشابهتهم، فخلصت من التشبيه، فتدبر هذا الموضع واجعله جنتك التي ترجع إليها في هذا الباب، والله الموفق للصواب).

ومن كلام شيخ الإسلام في هذا الموضوع قوله: "سمى الله نفسه بأسماء وسمى صفاته بأسماء، وكانت تلك الأسماء مختصة به إذا أضيفت إليه لا يشركه فيها غيره".

وسمى بعض مخلوقاته بأسماء مختصة بهم مضافة إليهم، توافق تلك الأسماء إذا قطعت من الإضافة والتخصيص.

ولم يلزم من اتفاق الاسمين وتماثل مسماهما واتحاده -عند الإطلاق والتجريد عن الإضافة والتخصيص- اتفاقهما، ولا تماثل المسمى عند الإضافة والتخصيص فضلًا عن أن يتحد مسماهما عند الإضافة والتخصيص.

فقد سمى الله نفسه حيًّا فقال: {اللهُ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ}.

وسمى بعض عباده حيًّا فقال: {يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيّ}.

وليس هذا الحي مثل هذا الحي.

لأن قوله: "الحي" اسم لله مختص به.

وقوله: {يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ} اسم للحي المخلوق مختص به.

وإنما يتفقان إذا أطلقا وجردا عن التخصيص، ولكن ليس للمطلق مسمى موجود في الخارج، ولكن العقل يفهم من المطلق قدرًا مشتركًا بين المسميين.

=

=

وعند الاختصاص: يقيد ذلك بما يتميز به الخالق عن المخلوق والمخلوق عن الخالق.

ولابد من هذا في جميع أسماء الله وصفاته.

يفهم منها ما دل عليه الاسم بالمواطأة والاتفاق.

وما دل عليه بالإضافة والاختصاص المانعة من مشاركة المخلوق للخالق في شيء من خصائصه سبحانه وتعالى.

وكذلك سمى الله نفسه: {عَلِيمًا حَكِيمًا} وسمى بعض عباده حليمًا {فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلامٍ حَلِيمٍ}، يعني إسماعيل، وسمى آخر عليمًا، فقال: {وَبَشَّرُوهُ بِغُلامٍ عَلِيمٍ} يعني إسحاق، وليس العليم كالعليم، ولا الحليم كالحليم.

وسمى نفسه سميعًا بصيرًا {إِنَّ اللهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا} وسمى بعض عباده سميعًا بصيرًا فقال: {إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا} وليس السميع كالسميع ولا البصير كالبصير...".

(وكذلك سمى صفاته بأسماء، وسمى صفات عباده بنظير ذلك، فقال: {وَلا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ}، {أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ}، وقال: {إِنَّ اللهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ}، {أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّة}، وسمى صفة المخلوق علمًا وقوة: {وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا}، {وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ}، وقال: {فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ}، وقال: {اللهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَة}، وقال: {وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ}، وليس العليم كالعلم و لا القوة كالقوة.

ووصف نفسه بأنه استوى على عرشه، فذكر ذلك في سبعة مواضع من كتابه أنه استوى على العرش.

ووصف بعض خلقه بالاستواء على غيره في مثل قوله: {لِتَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِه}،

=

=

وقوله: {فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنْتَ وَمَنْ مَعَكَ عَلَى الْفُلْكِ}.

قوله: {وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ}، وليس الاستواء كالاستواء.

ووصف نفسه ببسط اليدين فقال: {بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنْفِقُ كَيْفَ يَشَاء}.

ووصف بعض خلقه ببسط اليد في قوله: {وَلا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ}، وليس اليد كاليد، ولا البسط كالبسط، وإذا كان المراد بالبسط الإعطاء والجود فليس إعطاء الله كإعطاء خلقه، ولا جوده كجودهم، ونظائر هذا كثيرة.

فلا بد من إثبات ما أثبته الله لنفسه ونفي ماثلته لخلقه.

فمن قال: ليس لله علم، ولا قوة، ولا رحمة، ولا كلام، ولا يحب، ولا يرضى، ولا نادى، ولا ناجى، ولا استوى- كان معطلًا جاحدًا ممثلًا له بالمعدومات والجمادات.

ومن قال: له علم كعلمي أو قوة كقوتي، أو حب كحبي، أو رضاء كرضائي، أو يدان كيداي، أو استواء كاستوائي- كان مشبهًا ممثلًا لله بالحيوانات، بل لا بد من إثبات بلا تمثيل، وتنزيه بلا تعطيل)

خامسًا: فصل ما بين معتقد أهل السنة في هذا الأساس ومعتقد أهل التعطيل وأهل التمثيل:

قال شارح الطحاوية: " اتفق أهل السنة على أن الله ليس كمثله شيء لا في ذاته، ولا في صفاته، ولا في أفعاله.

ولكن لفظ "التشبيه" قد صار في كلام الناس لفظًا مجملًا يراد به:

ا- المعنى الصحيح: من أن خصائص الرب تعالى لا يوصف بها شيء من المخلوقات، ولا يماثله شيء من المخلوقات في شيء من صفاته، وهذا ما دل عليه القرآن، قال تعالى: {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ} فهذا رد على الممثلة المشبهة.

=

=

فمن جعل صفات الخالق مثل صفات المخلوقين فهو المشبه المبطل المذموم، ومن جعل صفات المخلوق مثل صفات الخالق فهو نظير النصارى في كفرهم.

٢- المعنى المردود: أن يراد به أنه لا يثبت لله شيء من الصفات فلا يقال: له قدرة، ولا علم، ولا حياة، لأن العبد موصوف بهذه الصفات ولازم هذا القول إنه لا يقال له: حي، عليم، قدير، لأن العبد يسمى بهذه الأسماء، وكذلك كلامه وسمعه وبصره وإرادته وغير ذلك.

وأصل الخطأ والغلط توهمهم أن هذه الأسماء العامة الكلية يكون مسماها المطلق الكلي هو بعينه ثابتا في هذا المعين وهذا المعين، وليس كذلك، فإن ما يوجد في الخارج لا يوجد مطلقًا كليًّا، بل لا يوجد إلا معينًا مختصًّا.

وهذه الأسماء إذا سُمي الله بها كان مسمَّاها معينا مختصا به.

فإذا سُمي بها العبد كان مسماها مختصًّا به.

فوجود الله وحياته لا يشاركه فيها غيره، بل وجود هذا الموجود المعين لا يشركه فيه غيره، فكيف بوجود الخالق؟

وبهذا ومثله يتبين لك أن المشبهة أخذوا هذا المعنى فزادوا فيه على الحق فضلوا.

وأن المعطلة أخذوا نفى المماثلة بوجه من الوجوه وزادوا فيه على الحق حتى ضلوا.

وأن كتاب الله دل على الحق المحض الذي تعقله العقول السليمة الصحيحة، وهو الحق المعتدل الذي لا انحراف فيه.

الأساس الثالث: قطع الطمع عن إدراك كيفية اتصاف الله بصفاته:

وتوضيح هذا الأساس يتم بما يلي:

أولًا: إن الله لم يطلع الخلق على ذاته ولم يكلفهم معرفة ذاته.

لم يشأ الله ﷻ أن يجعل للعباد من سبيل إلى معرفة كيفية وكنه صفاته، فقد سد

=

=

سبحانه الطرق الموصلة إلى ذلك، فهو من جهة لم يطلع الخلق على ذاته، فهذا باب موصود إلى قيام الساعة كما جاء في الحديث: "تعلموا أنكم لن تروا ربكم حتى تموتوا".

ومن جهة ثانية لم يخبرنا الله ﷻ بكيفية وكنه صفاته في كتابه، أو على لسان رسوله ﷺ، فما وردت به النصوص إنما هو إثبات وجود لتلك الصفات لا إثبات كيفية.

ومن جهة ثالثة فإن الله لم يكلف العباد معرفة كيفية صفاته، ولم يتعبدهم بذلك ولا أراده منهم، بل قصرهم على الإيمان بما أخبرهم به، فالواجب عليهم أن يؤمنوا الإيمان الصحيح بما كلفوا به، وأن لا يتجاوزوا حدود ذلك.

وقد ورد النص في وجوب قطع الطمع عن إدراك حقيقة كيفية صفات الله، فإدراك ذلك مستحيل، قال تعالى: {يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا}.

قال الشيخ محمد الأمين الشنقيطي رحمه الله: "إدراك حقيقة الكيفية مستحيل، وهذا ما نص عليه في هذه الآية من سورة طه، فقوله: {يُحِيطُونَ بِهِ} فعل مضارع منفي، والفعل الصناعي الذي يسمى (بالفعل المضارع، وفعل الأمر، والفعل الماضي) ينحل عند النحويين عن مصدر وزمن، فالمصدر كامن في مفهومه إجماعًا، فيحيطون في مفهومها (الإحاطة) فيتسلط النفي على المصدر الكامن في الفعل فيكون معه كالنكرة المبنية على الفتح، فيصير المعنى: لا إحاطة للعلم البشري برب السموات والأرض، فينفى جنس أنواع الإحاطة عن كيفيتها، فالإحاطة المسندة منفية (للخلق) عن رب العالمين".

ثانيًا: قصور العقل عن معرفة كيفية صفات الله.

إن على العقل أن ييأس من تعرف كنه الصفات وكيفياتها لعجزه عن معرفة ذلك، لأن الشيء لا تعرف كيفية صفاته إلا بعد العلم بكيفية ذاته، أو العلم بنظيره

=

=

المساوي له، أو بالخبر الصادق، وكل هذه الطرق منتفية في كيفية صفات الله، فوجب بطلان تكييفها.

وعلم الإنسان محدود كما أخبر الله بذلك، حيث قال: {وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا}، وقال تعالى: {وَلا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ}.

وإذا كانت نفس الإنسان التي هي أقرب الأشياء إليه بل هي هويته، لا يعرف الإنسان كيفيتها ولا يحيط علمًا بحقيقتها، فالخالق جل جلاله أولى أن لا يعلم العبد كيفيته ولا يحيط علمًا بحقيقته.

وقد أدب الله عباده المؤمنين ووجههم بأن لا يخوضوا في أمور لا علم لهم بها، فقال: {وَلا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولًا}.

وقال تعالى: {قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ والإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللهِ مَا لا تَعْلَمُونَ}.

ومن المعلوم أنه لا علم لنا بكيفية صفاته ﷻ، لأنه تعالى أخبرنا عنها، ولم يخبرنا عن كيفيتها، فيكون تعمقنا، في أمر الكيفية قفوًا لما ليس لنا به علم، وقولًا بما لا يمكننا الإحاطة به، ومخالفة لما نهانا الله وحذرنا منه، وحرمه علينا.

فيجب الكف عن التكييف تقديرًا بالجنان أو تقريرًا باللسان، أو تحريرًا بالبنان، لأن أية كيفية تقدرها الأذهان فالله أعظم وأجل من ذلك، ثم هي في الوقت ذاته ستكون كذبًا، لأنه لا علم لقائلها بذلك. ولهذا نقل أصحاب المقالات عن بعض المشبهة -الذين خاضوا في كيفية صفات الله- أنه قال في ربه في عام واحد خمسة أقاويل، وصدق الله إذ قال في كتابه العزيز: {وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافًا كَثِيرًا}.

=

=

فعلى المسلم أن يحذر من التكييف أو محاولته، فإن من فعل ذلك فقد وقع في مفاوز لا يستطيع الخلاص منها، فالخوض في ذلك هو مما يلقيه الشيطان في القلوب، وهو نزغة من نزغاته، فلذلك يجب على المؤمن أن يلجأ إلى ربه ويستعيذ به من نزغات الشيطان، قال تعالى: {وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ}.

ثالثًا: معنى قول السلف: "بلا كيف".

إن معنى قول السلف "بلا كيف" أي بلا كيف يعقله البشر، فليس المراد من قولهم "بلا كيف" هو نفي الكيف مطلقًا، فإن كل شيء لابد أن يكون على كيفية ما، ولكن المراد هو نفي العلم بالكيف، إذ لا يعلم كيفية ذاته وصفاته إلا هو سبحانه، فهذا مما استأثر الله بعلمه فلا سبيل إلى الوصول إليه، فكما أن ذات الله لا يمكن للبشر معرفة كيفيتها، فكذلك صفاته سبحانه لا نعلم كيفيتها. ولهذا لما سئل الإمام مالك رحمه الله فقيل له: {الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى} كيف استوى؟

قال رحمه الله: الاستواء معلوم، والكيف مجهول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة، ثم قال للسائل: وما أراك إلا رجل سوء، وأمر بإخراجه من مجلسه.

وقد روى عن شيخه ربيعة بن عبد الرحمن قوله: "الاستواء غير مجهول، والكيف غير معقول" أي لا تعقله العقول ولا تحيط به.

وهذا يقال في سائر الصفات، وقد مشى أهل العلم على هذا الميزان واعتبروا ذلك قاعدة من قواعد الصفات.

فقول الإمام مالك (الاستواء معلوم): أي معلوم المعنى في لغة العرب، فاستوى هنا عديت بعلى فهي هنا بمعنى علا وارتفع، وهكذا الأمر في سائر نصوص الصفات، فإن معانيها معروفة في لغة العرب، وليست مجهولة.

=

=

(والكيف مجهول): أي مع إثباتهم لمعنى الاستواء واعتقادهم بأن الله مستوٍ على عرشه ومرتفع عليه، إلا أنهم يكلون علم كيفية ذلك الاستواء إلى الله ﷻ، لأنه مما استأثر الله بعلمه.

(والإيمان به واجب): أي الإيمان باستواء الله على عرشه حقيقة واجب لوروده في النصوص الشرعية.

(والسؤال عنه بدعة): أي السؤال عن كيفية الاستواء، لأن السائل قال: كيف استوى؟

رابعًا: عدم معرفة الكيفية لا يقدح في الإيمان بالصفات ومعرفة معانيها.

إن عدم العلم بكيفية صفات الله لا يقدح في الإيمان بتلك الصفات ومعرفة معانيها، لأن الكيفية وراء ذلك، فالسلف يثبتون لله ما أثبته لنفسه من صفات الكمال ويفهمون معاني تلك الصفات، ويفسرونها، فإذا أثبتوا لله السمع والبصر أثبتوهما حقيقية وفهموا معناهما، وهكذا سائر الصفات يجب أن تجري هذا المجرى، وإن كان لا سبيل لنا إلى معرفة كنهها وكيفيتها، فإن الله سبحانه لم يكلف العباد ذلك ولا أراده منهم ولم يجعل لهم إليه سبيلًا.

وكثير من المخلوقات لم يجعل الله للعباد سبيلًا إلى معرفة كنهها وكيفيتها، فهذه أرواح الخلائق التي هي أدنى إليهم من كل دان قد حجب عنهم معرفة كنهها وكيفيتها، وقد أخبرنا الله عن تفاصيل يوم القيامة وما في الجنة والنار، فقامت حقائق ذلك في قلوب أهل الإيمان وشاهدته عقولهم ولم يعرفوا كيفيته وكنهه، فلا يشك المسلمون أن في الجنة أنهارًا من خمر وأنهارًا من عسل، ولكن لا يعرفون كنه ذلك ومادته وكيفيته كما قال ابن عباس: "ليس في الدنيا مما في الجنة إلا الأسماء".

فكذا الأسماء والصفات لا يمنع انتفاء نظيرها في الدنيا من فهم معانيها وحقائقها

=

=

والإيمان بذلك واعتقاد اتصاف الله بها.

فإيماننا صحيح بحق ما كلفنا به، وإن لم نعرف حقيقة ماهيته وكيفيته، والله أعلم.

وهذه الأسس الثلاثة يجب الأخذ بها جميعًا، ولا يجوز الإخلال بشيء منها، فهذا ما كان عليه معتقد السلف من هذه الأمة ومن سار على نهجهم.

وهم بهذا توسطوا في هذا الباب بين طائفتين ضلتا في هذا الباب هما:

١- المعطلة. ٢- المشبهة.

فمعتقد السلف هو الإثبات بلا تشبيه، والتنزيه بلا تعطيل، فهم لا ينفون عن الله ما سمى أو وصف به نفسه في كتابه أو على لسان رسوله ﷺ، فيعطلوا أسماءه الحسنى وصفاته العلى ويحرفوا الكلم عن مواضعه، ويلحدوا في أسمائه وآياته كما فعل المعطلة، كما أنهم لا يشبهون صفات الله بصفات خلقه كما فعل المشبهة.

مسألة: ذكر عقيدة الأئمة الأربعة في الأسماء والصفات.

أولا: الإمام أبو حنيفة النعمان رضي الله عنه.

١) قال الإمام أبو حنيفة: لا يوصف الله تعالى بصفات المخلوقين، وغضبه ورضاه صفتان من صفاته بلا كيف، وهو قول أهل السنة والجماعة، وهو يغضب ويرضى ولا يقال: غضبه عقوبته، ورضاه ثوابه. ونصفه كما وصف نفسه أحد صمد لم يلد ولم يولد ولك يكن له كفوا أحد، حي قادر سميع بصير عالم، يد الله فوق أيديهم، ليست كأيدي خلقه، ووجهه ليس كوجوه خلقه. [الفقه الأبسط ص٥٦]

٢) قال الإمام أبو حنيفة: وله يد ووجه ونفس كما ذكره الله تعالى في القرآن، فما ذكره الله تعالى في القرآن، من ذكر الوجه واليد والنفس فهو له صفات بلا كيف، ولا يقال: إن يده قدرته أو نعمته؛ لأن فيه إبطال الصفة، وهو قول أهل القدر والاعتزال... [الفقه الأكبر ص٣٠٢]

=

=

٣) قال البزدوي: العلم نوعان علم التوحيد والصفات، وعلم الشرائع والأحكام. والأصل في النوع الأول هو التمسك بالكتاب والسنة ومجانبة الهوى والبدعة ولزوم طريق السنة والجماعة، وهو الذي عليه أدركنا مشايخنا وكان على ذلك سلفنا أبو حنيفة وأبو يوسف ومحمد وعامة أصحابهم. وقد صنف أبو حنيفة - رضي الله عنه - في ذلك كتاب الفقه الأكبر، وذكر فيه إثبات الصفات وإثبات تقدير الخير والشر من الله. [أصول البزدوي ص٣، كشف الأسرار هن أصول البزدوي ج١ ص٧، ٨]

٤) قال الإمام أبو حنيفة: لا ينبغي لأحد أن ينطق في ذات الله بشيء، بل يصفه بما وصف به نفسه، ولا يقول فيه برأيه شيئا تبارك الله تعالى رب العالمين. [شرح العقيدة الطحاوية ج٢ ص٤٢٧ تحقيق د. التركي وجلاء العينين ص٣٦٨]

٥) سئل الإمام أبو حنيفة عن النزول الإلهي، فقال: ينزل بلا كيف. [عقيدة السلف أصحاب الحديث ص٤٢، الأسماء والصفات للبيهقي ص٤٥٦، وسكت عليه الكوثري، شرح الطحاوية ص٢٤٥، شرح الفقه الأكبر للقاري ص٦٠].

٦) قال الملا على القاري بعد ذكره قول الإمام مالك: "الاستواء معلوم والكيف مجهول...": اختاره إمامنا الأعظم - أي أبو حنيفة - وكذا كل ما ورد من الآيات والأحاديث المتشابهات من ذكر اليد والعين والوجه ونحوها من الصفات. فمعاني الصفات كلها معلومة وأما كيفيتها فغير معقولة؛ إذ تعقل الكيف فرع العلم لكيفية الذات وكنهها. فإذا كان ذلك غير معلوم؛ فكيف يعقل لهم كيفية الصفات. والعصمة النافعة من هذا الباب أن يصف الله بما وصف به نفسه، ووصفه به رسوله من غير تحريف ولا تعطيل ومن غير تكييف ولا تمثيل، بل يثبت له الأسماء والصفات وينفي عنه مشابهة المخلوقات، فيكون إثباتك منزها عن التشبيه، ونفيك منزها عن التعطيل. فمن نفى حقيقة الاستواء فهو معطل ومن

=

=
شبهه باستواء المخلوقات على المخلوق فهو مشبه، ومن قال استواء ليس كمثله شيء فهو الموحد المنزه. [مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح ج٨ ص٢٥١]
٧) قال الإمام أبو حنيفة: ولا يقال إن يده قدرته أو نعمته لأن فيه إبطال صفة، وهو قول أهل القدر والاعتزال. [الفقه الأكبر ص٣٠٢]
٨) قال الإمام أبو حنيفة:وهو يغضب ويرضى ولا يقال غضبه عقوبته ورضاه ثوابه. [الفقه الأبسط ص٥٦، وسكت عليه محقق الكتاب الكوثري]
٩) قال الألوسي الحنفي: أنت تعلم أن طريقة كثير من العلماء الأعلام وأساطين الإسلام الإمساك عن التأويل مطلقا مع نفي التشبيه والتجسيم. منهم الإمام أبو حنيفة، والإمام مالك، والإمام أحمد، والإمام الشافعي، ومحمد بن الحسن، وسعد بن معاذ المروزي، وعبد الله بن المبارك، وأبو معاذ خالد بن سليمان صاحب سفيان الثوري، وإسحاق بن راهويه، ومحمد بن إسماعيل البخاري، والترمذي، وأبو داود السجستاني.. [روح المعاني ج٦ ص١٥٦]
١٠) قال الإمام أبو حنيفة: ولا يشبه شيئا من الأشياء من خلقه، ولا يشبهه شيء من خلقه، لم يزل ولا يزال بأسمائه وصفاته... [الفقه الأكبر ص٣٠١]
١١) قال الإمام أبو حنيفة: وصفاته بخلاف صفات المخلوقين يعلم لا كعلمنا، ويقدر لا كقدرتنا، ويرى لا كرؤيتنا، ويسمع لا كسمعنا، ويتكلم لا ككلامنا... [الفقه الأكبر ص٣٠٢]
١٢) قال الإمام أبو حنيفة: لا يوصف الله تعالى بصفات المخلوقين. [الفقه الأبسط ص٥٦]
١٣) قال الإمام أبو حنيفة: وصفاته الذاتية والفعلية: أما الذاتية فالحياة والقدرة والعلم والكلام والسمع والبصر والإرادة، وأما الفعلية فالتخليق والترزيق والإنشاء والإبداع والصنع وغير ذلك من صفات الفعل لم يزل ولا يزال بأسمائه
=

=

وصفاته. [الفقه الأكبر ص٣٠١]

١٤) قال الإمام أبو حنيفة: ولم يزل فاعلا بفعله، والفعل صفة في الأزل، والفاعل هو الله تعالى، والفعل صفة في الأزل والمفعول مخلوق وفعل الله تعالى غير مخلوق. [الفقه الأكبر ص٣٠١]

١٥) قال الإمام أبو حنيفة: من قال لا أعرف ربي في السماء أم في الأرض فقد كفر، وكذا من قال إنه على العرش، ولا أدري العرش أفي السماء أم في الأرض. [الفقه الأبسط ص٤٩، مجموع الفتاوى لابن تيمية ج٥ ص٤٨، اجتماع الجيوش الإسلامية لابن القيم ص١٣٩، العلو للذهبي ص١٠١، ١٠٢، العلو لابن قدامة ص١١٦، شرح الطحاوية لابن أبي العز ص٣٠١]

١٦) قال الإمام أبو حنيفة للمرأة التي سألته أين إلهك الذي تعبده؟ قال: إن الله سبحانه وتعالى في السماء دون الأرض، فقال رجل: أرأيت قول الله تعالى: {وهو معكم} [سورة الحديد: الآية ٤] قال: هو كما تكتب للرجل إني معك وأنت غائب عنه. [الأسماء والصفات ص٤٢٩]

١٧) قال الإمام أبو حنيفة: والقرآن غير مخلوق. [الفقه الأكبر ص٣٠١]

١٨) قال الإمام أبو حنيفة: ونقر بأن القرآن كلام الله تعالى غير مخلوق. [الجواهر المنفية في شرح وصية الإمام ص١٠]

١٩) قال الإمام أبو حنيفة: ونقر بأن الله تعالى على العرش استوى من غير أن يكون له حاجة. [شرح الوصية ص١٠]

ثانيا: الإمام مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

١) سئل مالك عن الكلام والتوحيد؛ فقال مالك: محال أن يظن بالنبي ﷺ أنه علم أمته الاستنجاء، ولم يعلمهم التوحيد، والتوحيد ما قاله النبي - ﷺ: أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله. فما عصم به المال والدم حقيقة التوحيد.

=

=

[ذم الكلام ق - ٢١٠]

٢) عن وليد بن مسلم قال: سألت مالكا، والثوري، والأوزاعي، والليث بن سعد عن الأخبار في الصفات؛ فقالوا أمروها كما جاءت. [الصفات للدارقطني ص٧٥، الشريعة للآجري ص٣١٤، الأعتقاد للبيهقي ص١١٨، التمهيد لابن عبد البر ج٧ ص١٤٩]

٣) قال ابن عبد البر: سئل مالك أيرى الله يوم القيامة؟ فقال: نعم يقول الله ﷻ: {وجوه يومئذ ناضرة {٢٢} إلى ربها ناظرة} [سورة القيامة: الآيتان ٢٢، ٢٣] وقال لقوم آخرين: {كلا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون} [سورة المطففين: الآية ١٥]. [الانتقاء ص٣٦]

٤) عن ابن نافع، وأشهب، وأحدهما قال: يزيد على الآخر: يا أبا عبد الله: {وجوه يومئذ ناضرة {٢٢} إلى ربها ناظرة} [سورة القيامة: الآيتان ٢٢، ٢٣]، ينظرون إلى الله؟ قال: نعم بأعينهم هاتين؛ فقلت له: فإن قوما يقولون: لا ينظر إلى الله، إن {ناظرة} بمعنى منتظرة الثواب. قال: كذبوا بل ينظر إلى الله أما سمعت قول موسى عليه السلام: {رب أرني أنظر إليك} [سورة الأعراف: الآية ١٤٣] أفترى موسى سأل ربه محالا؟ فقال الله: {لن تراني} [سورة الأعراف: الآية ١٤٣] أي في الدنيا لأنها دار فناء ولا ينظر ما يبقى بما يفنى فإذا صاروا إلى دار البقاء نظروا بما يبقى إلى ما يبقى وقال الله: {كلا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون} [سورة المطففين: الآية ١٥]. [ترتيب المدارك للقاضي عياض ج٢ ص٤٢]

٥) عن جعفر بن عبد الله قال: كنا عند مالك بن أنس فجاءه رجل فقال: يا أبا عبد الله، {الرحمن على العرش استوى} [سورة طه: الآية ٥] كيف استوى؟ فما وجد - جاء في لسان العرب ج٣ ص٤٤٦: وجد عليه في الغضب يجد وجدا وموجدة ووجدانا غضب، وفي حديث الإيمان، إني سائلك فلا تجد علي أي لا تغضب من

=

=

سؤالي - مالك من شيء ما وجد من مسألته، فنظر إلى الأرض، وجعل ينكت بعود في يده علاه الرحضاء - يعني العرق - ثم رفع رأسه ورمى بالعود، وقال: الكيف منه غير معقول، والاستواء منه غير مجهول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة، وأظنك صاحب بدعة وأمر به فأخرج. [الحلية لابي نعيم ج٦ ص٣٢٥، عقيدة السلف أصحاب الحديث للصابوني ص١٧-١٨، التمهيد ج٧ ص١٥١، الأسماء والصفات للبيهقي ص٤٠٧، قال الحافظ ابن حجر في الفتح ج١٣ ص٤٠٦، ٤٠٧: إسناده جيد. وصححه الذهبي في العلو ص١٠٣]

٦) عن يحيى بن الربيع قال: كنت عند مالك ابن أنس، ودخل عليه رجل فقال: يا أبا عبد الله، ما تقول فيمن يقول القرآن مخلوق؟ فقال مالك: زنديق فاقتلوه. فقال: يا أبا عبد الله، إنما أحكي كلاما سمعته. فقال: لم أسمعه من أحد، إنما سمعته منك، وعظم هذا القول. [الحلية لابي نعيم ج٦ ص٣٢٥، شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة للالكائي ج١ ص٢٤٩، ترتيب المدارك للقاضي عياض ج٢ ص٤٤]

٧) عن عبد الله بن نافع قال: كان مالك بن أنس يقول: من قال القرآن مخلوق، يوجع ضربا، ويحبس حتى يتوب. [الانتقاء ص٣٥]

٨) عن عبد الله بن نافع قال: قال مالك: الله في السماء، وعلمه في كل مكان. [مسائل الإمام أحمد لأبي داود ص٢٦٣، السنة لعبد الله بن أحمد ص١١ (الطبعة القديمة)، التمهيد لابن عبد البر ج٧ ص١٣٨]

ثالثا: الإمام الشافعي رضي الله عنه.

١) عن الربيع بن سليمان قال: قال الشافعي: من حلف بالله، أو باسم من أسمائه، فحنث؛ فعليه الكفارة. ومن حلف بشيء غير الله، مثل أن يقول الرجل: والكعبة، وأبي، وكذا وكذا ما كان، فحنث؛ فلا كفارة عليه. ومثل ذلك قوله: لعمري.. لا

=

=

كفارة عليه. ويمين بغير الله فهي مكروهة، منهي عنها من قبل قول الرسول - ﷺ: إن الله ﷻ نهاكم أن تحلفوا بأبائكم، فمن كان حالفا فليحلف بالله أو ليسكت. [مناقب الشافعي ج١ ص٤٠٥] وعلل الشافعي ذلك بأن أسماء الله غير مخلوقة؛ فمن حلف باسم الله، فحنث؛ فعليه الكفارة. [آداب الشافعي لابن أبي حاتم ص١٩٣، الحلية لابي نعيم ج٩ ص١١٢، السنن الكبرى للبيهقي ج١٠ ص٢٨، الأسماء والصفات للبيهقي ص٢٥٥، ٢٥٦، شرح السنة للبغوي ج١ ص١٨٨، والعلو للذهبي ص١٢١، ومختصره للألباني ص٧٧]

٢) عن الشافعي أنه قال: القول في السنة التي أنا عليها، ورأيت أصحابنا عليها، أهل الحديث الذين رأيتهم، وأخذت عنهم مثل سفيان، ومالك، وغيرهما: الإقرار بشهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمدا رسول الله، وأن الله تعالى على عرشه في سمائه يقرب من خلقه كيف شاء، وأن الله تعالى ينزل إلى سماء الدنيا كيف شاء. [اجتماع الجيوش الإسلامية لابن القيم ص١٦٥، إثبات صفة العلو ص١٢٤، مجموع الفتاوى ج٤ ص١٨١-١٨٣، والعلو للذهبي ص١٢٠، ومختصره للألباني ص١٧٦]

٣) عن المزني قال: قلت إن كان أحد يخرج ما في ضميري، وما تعلق به خاطري من أمر التوحيد؛ فالشافعي، فصرت إليه وهو في مسجد مصر، فلما جثوت بين يديه، قلت: هجس في ضميري مسألة في التوحيد، فعلمت أن أحدا لا يعلم علمك، فما الذي عندك؟ فغضب ثم قال: أتدري أين أنت؟ قلت: نعم. قال: هذا الموضع الذي أغرق الله فيه فرعون، أبلغك أن رسول الله ﷺ أمر بالسؤال عن ذلك؟ قلت: لا، قال: هل تكلم فيه الصحابة؟ قلت: لا، قال: أتدري كم نجما في السماء؟ قلت: لا، قال: فكوكب منها تعرف جنسه، طلوعه، أفوله، مم خلق؟ قلت: لا، قال: فشيء تراه بعينك من الخلق لست تعرفه تتكلم في علم خالقه؟ ثم سألني عن

=

=

مسألة في الوضوء فأخطأت فيها، ففرعها على أربعة أوجه، فلم أصب في شيء منه، فقال: شيء تحتاج إليه في اليوم خمس مرات؛ تدع علمه وتتكلف علم الخالق إذا هجس في ضميرك ذلك. فارجع إلى قول الله تعالى: {وإلهكم إله واحد لا إله إلا هو الرحمن الرحيم {١٦٣} إن في خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التي تجري في البحر بما ينفع} [سورة البقرة: الآيتان ١٦٣، ١٦٤] فاستدل بالمخلوق على الخالق، ولا تتكلف على ما لم يبلغه عقلك. [سير أعلام النبلاء ج١٠ ص٣١]

٤) عن يونس بن عبد الأعلى، قال: سمعت الشافعي يقول: إذا سمعت الرجل يقول الاسم غير المسمى، أو الشيء غير الشيء، فاشهد عليه بالزندقة. [الانتقاء ص٧٩، مجموع الفتاوى ج٦ ص١٨٧]

٥) قال الشافعي في كتابه الرسالة: والحمد لله... الذي هو كما وصف به نفسه، وفوق ما يصفه به خلقه. [الرسالة ص٧، ٨]

٦) عن الشافعي إنه قال: نثبت هذه الصفات التي جاء بها القرآن، ووردت بها السنة، وننفي التشبيه عنه، كما نفى عن نفسه، فقال: {ليس كمثله شيء} [سورة الشورى: الآية ١١] [السير للذهبي ج٢٠ ص٣٤١]

٧) عن الربيع بن سليمان قال: سمعت الشافعي يقول في قول الله ﷻ: {كلا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون} [سورة المطففين: الآية ١٥] أعلمنا بذلك أن ثم قوما غير محجوبين، ينظرون إليه، لا يضامون في رؤيته. [الانتقاء ص٧٩]

٨) عن الربيع بن سليمان قال: حضرت محمد ابن إدريس الشافعي، جاءته رقعة من الصعيد فيها: ما تقول في قوله تعالى: {كلا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون} [سورة المطففين: الآية ١٥] قال الشافعي: فلما حجبوا هؤلاء في السخط؛ كان هذا دليلا على أنه يرنه في الرضا. قال الربيع: قلت يا أبا عبد الله وبه تقول؟ قال:

=

=

نعم به أدين الله. [شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة للالكائي ج٢ ص٥٠٦]

٩) عن الجارودي قال: ذكر عند الشافعي، إبراهيم بن إسماعيل بن علية [قال عنه الذهبي: جهمي هالك كان يناظر ويقول بخلق القرآن. ميزان الاعتدال ج١ ص٢٠، وانظر ترجمته في لسان الميزان ج١ ص٣٤، ٣٥] فقال: أنا مخالف له في كل شيء، وفي قوله لا إله إلا الله، لست أقول كما يقول. أنا أقول: لا إله إلا الله الذي كلم موسى عليه السلام تكليما من وراء حجاب، وذاك يقول لا إله إلا الله الذي خلق كلاما أسمعه موسى من وراء حجاب. [الانتقاء ص٧٩، والقصة ذكرها الحافظ عن مناقب الشافعي للبيهقي، اللسان ج١ ص٣٥]

١٠) عن الربيع بن سليمان، قال الشافعي: من قال القرآن مخلوق؛ فهو كافر. [شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة للالكائي ج١ ص٢٥٢]

١١) عن أبي محمد الزبيري قال: قال رجل للشافعي، أخبرني عن القرآن خالق هو؟ قال الشافعي: اللهم لا، قال: فمخلوق؟ قال الشافعي: اللهم لا. قال: فغير مخلوق؟ قال الشافعي: اللهم نعم، قال: فما الدليل على أنه غير مخلوق؟ فرفع الشافعي رأسه وقال: تقر بأن القرآن كلام الله؟ قال: نعم. قال الشافعي: سبقت في هذه الكلمة، قال الله تعالى ذكره: {وإن أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله} [سورة التوبة: الآية ٦] {وكلم الله موسى تكليما} [سورة النساء: الآية ١٦٤] قال الشافعي: فتقر بأن الله كان، وكان كلامه؟ أو كان الله، ولم يكن كلامه؟ فقال الرجل: بل كان الله، وكان كلامه. قال: فتبسم الشافعي وقال: يا كوفيون إنكم لتأتوني بعظيم من القول إذا كنتم تقرون بأن الله كان قبل القبل، وكان كلامه. فمن أين لكم الكلام: إن الكلام الله، أو سوى الله، أو غير الله، أو دون الله؟ قال: فسكت الرجل وخرج. [مناقب الشافعي ج١ ص٤٠٧، ٤٠٨]

=

=

١٢) وفي جزء الاعتقاد المنسوب للشافعي - من رواية أبي طالب العشاري - ما نصه قال: وقد سئل عن صفات الله ﷻ، وما ينبغي أن يؤمن به، فقال: لله تبارك وتعالى أسماء وصفات، جاء بها كتابه وخبر بها نبيه ﷺ أمته، لا يسع أحدا من خلق الله ﷻ قامت لديه الحجة أن القرآن نزل به، وصح عنده قول النبي ﷺ فيما روى عنه، العدل خلافه، فإن خالف ذلك بعد ثبوت الحجة عليه، فهو كافر بالله ﷻ. فأما قبل ثبوت الحجة عليه من جهة الخبر؛ فمعذور بالجهل؛ لأن علم ذلك لا يدرك بالعقل، ولا بالدراية والفكر. ونحو ذلك إخبار الله عو وجل أنه سميع وأن لد يدين بقوله ﷻ: {بل يداه مبسوطتان} [سورة المائدة: الآية ٦٤] وأن له يمينا بقوله ﷻ: {والسماوات مطويات بيمينه} [سورة الزمر: الآية ٦٧] وأن له وجها بقوله ﷻ: {كل شيء هالك إلا وجهه} [سورة القصص: الآية ٨٨] وقوله: {ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام} [سورة الرحمن: الآية ٢٧] وأن له قدما بقوله - ﷺ: "حتى يضع الرب ﷻ فيها قدمه." يعني جهنم؛ لقوله ﷺ للذي قتل في سبيل الله ﷻ أنه: "لقي الله ﷻ وهو يضحك إليه." وأنه يهبط كل ليلة إلى السماء الدنيا، بخبر رسول الله ﷺ بذلك، وأنه ليس بأعور لقوله النبي ﷺ إذ ذكر الدجال فقال: "إنه أعور وإن ربكم ليس بأعور"، وأن المؤمنين يرون ربهم ﷻ يوم القيامة بأبصارهم كما يرون القمر ليلة البدر، وأن له إصبعا بقوله - ﷺ: "ما من قلب إلا هو بين إصبعين من أصابع الرحمن ﷻ" وإن هذه المعاني التي وصف الله ﷻ بها نفسه، ووصفه بها رسول الله ﷺ لا تدرك حقيقتها تلك بالفكر والدراية، ولا يكفر بجهلها أحد إلا بعد انتهاء الخبر إليه به، وإن كان الوارد بذلك خبرا يقول في الفهم مقام المشاهدة في السماع؛ وجبت الدينونة على سامعه بحقيقته والشهادة عليه، كما عاين وسمع من رسول الله - ﷺ، ولكن نثبت هذه الصفات، وننفي التشبيه كما نفى ذلك عن نفسه تعالى ذكره فقال: {ليس كمثله شيء وهو السميع

=

=

البصير} [سورة الشورى: الآية ١١]... آخر الاعتقاد. [ذم التأويل لابن قدامة ص١٢٤، الطبقات لابن أبي يعلى ج١ ص٢٨٣، اجتماع الجيوش الإسلامية لابن القيم ص١٦٥، السير للذهبي ج١٠ ص٧٩]

رابعا: الإمام أحمد رضي الله عنه.

١) إن الإمام أحمد سئل عن التوكل، فقال: قطع الاستشراف بالإياس من الخلق. [طبقات الحنابلة ج١ ص٤١٦]

٢) قال الإمام أحمد: لم يزل الله عز وجل متكلما، والقرآن كلام الله عز وجل، غير مخلوق، وعلى كل جهة، ولا يوصف الله بشيء أكثر مما وصف به نفسه، عز وجل. [كتاب المحنة لحنبل ص٦٨]

٣) عن أبي بكر المروذي قال: سألت أحمد بن حنبل عن الأحاديث التي تردها الجهمية في الصفات والرؤية والإسراء وقصة العرش فصححها، وقال: تلقتها الأمة بالقبول وتمر الأخبار كما جاءت. [مناقب الشافعي لابن أبي حاتم ص١٨٢]

٤) قال عبد الله بن أحمد: إن أحمد قال: من زعم أن الله لا يتكلم فهو كافر، إلا أننا نروي هذه الأحاديث كما جاءت. [طبقات الحنابلة ج١ ص٥٦]

٥) عن حنبل أنه سأل الإمام أحمد عن الرؤية فقال: أحاديث صحاح، نؤمن بها، ونقر، وكل ما روي عن النبي صلى الله عليه وسلم بأسانيد جيدة نؤمن به ونقر. [شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة للالكائي ج٢ ص٥٠٧، السنة ص٧١]

٦) أورد ابن الجوزي في المناقب كتاب أحمد بن حنبل لمسدد وفيه: صفوا الله بما وصف به نفسه، وانفوا عن الله ما نفاه عن نفسه... [سير أعلام النبلاء ج١٠ ص٥٩١، تهذيب التهذيب ج١٠ ص١٠٧]

٧) قال الإمام أحمد: وزعم - جهم بن صفوان - أن من وصف الله بشيء مما

=

=

وصف به نفسه في كتابه، أو حدث عنه رسوله كان كافرا وكان من المشبهة. [مناقب الإمام أحمد ص٢٢١]

٨) قال الإمام أحمد: نحن نؤمن بأن الله على العرش، كيف شاء، وكما شاء، بلا حد، ولا صفة يبلغها واصف أو يحده أحد؛ فصفات الله منه وله، وهو كما وصف نفسه، لا تدركه الأبصار. [درء تعارض العقل والنقل لابن تيمية ج٢ ص٣٠]

٩) قال الإمام أحمد: من زعم أن الله لا يرى في الآخرة فهو كافر مكذب بالقرآن. [طبقات الحنابلة ج١ ص٥٩، ١٤٥]

١٠) عن عبد الله بن أحمد، قال: سألت أبي عن قوم يقولون: لما كلم الله موسى، لم يتكلم بصوت فقال أبي: تكلم الله بصوت، وهذه الأحاديث نرويها كما جاءت. [طبقات الحنابلة ج١ ص١٨٥]

١١) عن عبدوس بن مالك العطار، قال: سمعت أبا عبد الله أحمد بن حنبل يقول:... والقرآن كلام الله، وليس بمخلوق، ولا تضعف أن تقول ليس بمخلوق؛ فإن كلام الله منه، وليس منه شيء مخلوق. [شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة للالكائي ج١ ص١٥٧.

(تتمة): في تفسير قوله تعلى (الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى).

صفة العلو لله من أظهر الصفات التي جاءت بها النصوص مستفيضة متواترة من الكتاب والسنة، كما دلت عليها العقول والفطر السليمة، وقد أجمع على إثباتها سلف الأمة وأئمتها من الصحابة والتابعين وتابعيهم، وسطر أئمة السلف - في كتبهم وردودهم على الجهمية المعطلة - ما فيه بيان الحق من الضلال في هذا الباب والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم.

وليس العجب في أن يوجد من ينكر هذه الصفة من الجهمية أو المعتزلة أو غيرها ممن عرفوا بالزيغ والإلحاد في أسماء الله وصفاته وآياته، ولكن العجب أن يقلدهم

=

=

في ذلك جماعات من العلماء الفضلاء، الذين يعتبرون من أئمة الفقهاء والعلماء والقضاة. ولو كانت أدلة العلو دليلين أو ثلاثة أو خمسة أو لو كان القائل به عددا محدودا من علماء السلف، لكان لهؤلاء بعض العذر في موقفهم مما قد يقال فيه: إن الأمر التبس عليهم. أما أن تكون أدلة العلو بهذه الكثرة والوضوح والقطعية في الثبوت والدلالة، وأن تتوافق الأدلة النقلية - التي زادت على ألف دليل - مع أدلة العقل والفطرة، ثم بعد ذلك يأتي إجماع السلف على إثباتها، ويوافقهم على ذلك أئمة أهل الكلام المتقدمين من الكلابية والأشعرية وغيرهم - فهذا ما لا يجد له المسلم المنصف أي تفسير أو تبرير إلا أن باعثه التقليد والتعصب لشيوخهم النفاة.

وقد أولى شيخ الإسلام ابن تيمية هذه المسألة اهتماما كبيرا، وأطال النفس جدا في بيان أدلتها والرد على نفاتها ومناقشتهم، ولا يكاد يخلو كتاب من كتبه العقدية من عرض لها إثباتا أو ردا على الخصوم فيها. وقد وصل إلينا - والحمد لله - قسط كبير منها، بلغ مئات الصفحات، خاصة في كتابين من أهم كتبه، وهما:

١ - (درء تعارض العقل والنقل)، حيث أفرد لمسألة العلو الجزء السادس بأكمله وجزءا من الجزء السابع.

٢ - (نقض تأسيس الجهمية)، والذي يسمى أحيانا نقض أساس التقديس، أو بيان تلبيس الجهمية، وقد شمل البحث في العلو جزءا من الجزء الأول المطبوع، والجزء الثاني - المطبوع أيضا - بكامله.

إضافة إلى مواضع أخرى عديدة في (منهاج السنة)، و (مجموع الفتاوى) وغيرها.

.. ويمكن الإشارة بإجمال إلى منهجه في معالجة هذه المسألة، وذلك من خلال الأمور التالية:

أولا: الأقوال في العلو:

=

=

يطلق كثير من أهل الكلام على مسألة العلو والفوقية: الجهة، حتى صارت شبه علم عليها، مع أن "العلو" و"الفوقية" مصطلح شرعي وردت به النصوص، و"الجهة" اصطلاح حادث، ولفظ مجمل، قد يراد بنفيه أو إثباته ما هو حق وما هو باطل.

أما الأقوال في "العلو" فذات شقين:

أ- الأقوال في علو الرب تبارك وتعالى وفوقيته، وبينونته عن خلقه.

ب- الأقوال في ما يعتبره أهل الكلام من لوازم القول بالعلو مثل "الجهة" "والتحيز" و"الجسم" ونحوه.

أما الأول: فقد وقع الخلاف فيه بين الطوائف على أقوال:

١- قول من ينكر العلو مطلقا، ويقول: ليس فوق العالم شيء أصلا ولا فوق العرش شيء، وهذا قول الجهمية والمعتزلة وطوائف من متأخري الأشعرية، والفلاسفة النفاة، والقرامطة الباطنية وغيرهم.

وهؤلاء قسمان:

قسم يقول: ليس داخل العالم ولا خارجا عنه، ولا حالا فيه وليس في مكان من الأمكنة. فهؤلاء ينفون عنه الوصفين المتقابلين. وهذا قول طوائف من متكلميهم ونظارهم. وقسم منهم يقول: إنه في كل مكان بذاته، كما يقول ذلك طوائف من عبادهم ومتكلميهم، وصوفيتهم وعامتهم."وكثير منهم يجمع بين القولين: ففي حال نظره وبحثه يقول بسلب الوصفين المتقابلين فيقول: لا هو داخل العالم ولا خارجه، وفي حال تعبده وتألهه يقول بأنه في كل مكان، ولا يخلو منه شيء حتى يصرحون بالحلول في كل موجود - من البهائم وغيرها - بل بالاتحاد بكل شيء، بل يقولون بالوحدة التي معناها أنه عين وجود الموجودات"، ثم يعلل شيخ الإسلام سبب هذا التناقض فيقول: "وسبب ذلك أن الدعاء والعبادة والقصد

=

=

والإرادة والتوجه يطلب موجودا، بخلاف النظر والبحث والكلام؛ فإن العلم والكلام والبحث والقياس والنظر يتعلق بالموجود والمعدوم، فإذا لم يكن القلب في عبادة وتوجه ودعاء سهل عليه النفي والسلب، وأعراض عن الإثبات، بخلاف ما إذا كان في حال الدعاء والعبادة فإنه يطلب موجودا يقصده، ويسأله ويعبده، والسلب لا يقتضي إلا النفي والعدم، فلا ينفي في السلب ما يكون مقصودا معبودا".

وهذا تحليل دقيق جدا، غاص شيخ الإسلام من خلاله في ثنايا النفس البشرية وطبيعتها، وهو يفسر ما يلاحظه المطلع والباحث في كتب العقائد الكلامية من وجود أنواع من التناقض عند كثير من هؤلاء المتكلمين والفلاسفة، ومن أمثلة ذلك:

أ- جمعهم بين علم الكلام الفلسفي، والتصوف.

ب- تعويلهم على العقل في كثير من مباحث أصول الدين، حتى أنهم يقدمونه على النصوص، ثم في الوقت نفسه يعولون على الكشوفات والمشاهدات الصوفية عندهم أو عند أشياخهم.

ج- وفي العلو قد يقولون لا داخل العالم ولا خارجه، ثم يقولون هو في كل مكان.

د- وفي توحيد الربوبية قد يبالغ في إثباته إلى حد نفي كثير من الصفات الثابتة لله لأجل تحقيقه كما يزعم، ثم هو يناقض هذا التوحيد حين يرد في خاطره أو يعتقد أن النجوم أو القبور أو غيرها لها تأثير في الضر والنفع والرزق وغيرها.

وإنما طال القول في بيان مذهب هؤلاء لدخول كثير من متأخري الأشعرية النفاة فيهم. فهذان قولان، قد يجمع بينهم بعضهم.٢ - قول من يقول: "هو فوق العرش، وهو في كل مكان ويقول: أنا أقر بهذه النصوص وهذه، لا أصرف واحدا منها عن ظاهره وهذا قول طوائف ذكرهم الأشعري في المقالات الإسلامية، وهو

=

=

موجود في كلام طائفة من السالمية والصوفية، ويشبه هذا ما في كلام أبي طالب المكي... "، وهؤلاء غالطون وإن زعموا أنهم يجمعوا بين نصوص العلو والمعية.

٣- قول سلف الأمة وأئمتها، أئمة أهل العلم والدين، وهؤلاء آمنوا بجميع ما جاء في الكتاب والسنة، وأثبتوا علو الله تعالى وفوقيته، وأنه تعالى فوق سماواته على عرشه، بائن من خلقه، وهم بائنون منه، وهو أيضا مع العباد بعلمه، ومع أوليائه وأنبيائه بالنصر والتأييد.

والخلاصة أن الأقوال في مباينة الله لخلقه أربعة:

١ - منهم من يقول بالحلول والاتحاد فقط، كقول ابن عربي وأمثاله.

٢- ومنهم من يثبت العلو نوعا من الحلول وهو الذي يضاف إلى السالمية أو بعضهم، وفي كلام أبي طالب وغيره ما قد يقال إنه يدل على ذلك.

٣- ومنهم من لا يثبت لا مباينة ولا حلولا ولا اتحادا، كقول المعتزلة ومن وافقهم من الأشعرية وغيرهم.٤ - والقول الرابع إثبات مباينة (الخالق) للمخلوق بلا حلول، وهذا قول سلف الأمة وأئمتها...".

ويمكن أن يضاف إلى ذلك قولان آخران:

أحدهما: قول من يجمع بين قول الصوفية الحلولية، وقول المعتزلة بأنه لا داخل العالم ولا خارجه - كما سبق -.والثاني: قول من يتوقف في هذا الأمر، فلا يقول بإثبات علوه على العرش ولا نفيه، بل يقول إن الله تعالى واحد في ملكه وهو رب كل شيء ويسكت عما سوى ذلك. وقد رد شيخ الإسلام على هؤلاء.

وأما الثاني - وهو في إطلاق الجهة والتحيز، والجسم - ففيه أقوال:

١ - قول من يقول: "لا أقول إنه متحيز ولا غير متحيز، ولا في جهة ولا في غير جهة، بل أعلم أنه مباين للعالم وأنه يمتنع أن يكون لا مباينا ولا مداخلا"، وهذا

=

=

قول كثير من أهل الكلام والحديث.

٢- "قول من يقول: بل أقول: إنه ليس بمتحيز ولا في جهة، وأقول مع ذلك: إنه مباين للعالم. وهذا قول من يقول: إنه فوق العالم وليس بجسم ولا جوهر ولا متحيز، كما يقول ذلك من يقوله من الكلابية والأشعرية والكرامية ومن وافقهم من أتباع الأئمة الأربعة وأهل الحديث والصوفية. فإذا قيل لهؤلاء: إثبات مباين ليس بمتحيز مخالف لضرورة العقل قالوا: إثبات موجود لا محايث ولا مباين أظهر فسادا في ضرورة العقل من هذا..."٣. - "قول من يلتزم أنه متحيز، أو في جهة، أو أنه جسم، ويقول: لا دلالة على نفي شيء من ذلك، وأدلة النفاة لذلك أدلة فاسدة، فإنهم متفقون على أن نفي ذلك ليس معلوما بالضرورة، وإنما يدعون النظر، ونفاة ذلك لم يتفقوا على دليل واحد، بل كل واحد منهم يطعن في دليل الآخر... "، وهذا قول الكرامية وبعض أهل الحديث ومن وافقهم.٤ - "جواب أهل الاستفصال: وهم الذين يقولون: لفظ "التحيز" و"الجهة" و"الجوهر" ونحو ذلك، ألفاظ مجملة، ليس لها أصل في كتاب الله ولا في سنة رسول الله، ولا قالها أحد من سلف الأمة وأئمتها في حق الله تعالى، لا نفيا ولا إثباتا، وحينئذ فإطلاق القول بنفيها أو إثباتها ليس من مذهب أهل السنة والجماعة بلا ريب، ولا عليه دليل شرعي، بل الإطلاق من الطرفين مما ابتدعه أهل الكلام الخائضون في ذلك. فإذا تكلمنا معهم بالبحث العقلي استفصلناهم عما أرادوه بهذه الألفاظ... " فإن كان حقا قبل - ولا يمنع من قبوله تسميته بهذه المصطلحات الحادثة - وإن كان باطلا رد.

ومن خلال ما سبق من عرض الخلاف حول المسألتين يتبين مذهب الأشاعرة، القدماء منهم والمتأخرين، كما يتبين مذهب السلف رحمهم الله تعالى.

ثانيا: أدلة أهل السنة على إثبات العلو: إثبات علو الله تعالى معلوم بالاضطرار من

=

=

الكتاب والسنة وإجماع سلف الأمة، ولهذا كان السلف مطبقين على تكفير من أنكر ذلك لأنه عندهم معلوم بالاضطرار من الدين. وسياق الأدلة مما يصعب حصره، وقد ذكر شيخ الإسلام أنها تبلغ مئين، وأن الأحاديث عن النبي ﷺ والصحابة والتابعين متواترة موافقة لذلك. ونقل شيخ الإسلام عن بعض أكابر أصحاب الشافعي أنه قال: "في القرآن ألف دليل أو أزيد تدل على أن الله تعالى عال على الخلق، وأنه فوق عباده، وقال غيره: فيه ثلاثمائة دليل تدل على ذلك...".وقد ذكر ابن القيم في (نونيته) أكثر من عشرين نوعا من الأدلة، وكل نوع تحته عدد من الأدلة، كما ذكر في الصواعق ثلاثين دليلا من أدلة العقل والفطرة - وهي كلها ملخصة مما ذكره شيخه في مناقشاته.

وخلاصة هذه الأدلة: أ- أما أدلة الكتاب والسنة، فمنها نصوص: الاستواء: والنزول، والرؤية، وصعود الأعمال إليه، وعروج الملائكة إليه، وأنه في السماء، ونزول القرآن، وتنزل الملائكة، والمعراج، والسؤال عنه بالأين، والتصريح بالفوق، وغيرها كثير جدا.

ب- أما أدلة العقل والفطرة، فقد ذكر شيخ الإسلام الخلاف في العلو هل يعلم بالعقل أو بالسمع، وذكر أن قول الجماهير أنه يعلم بالعقل وبالسمع. وهذا قول الكلابية وطريقة أكثر أهل الحديث. وممن قال إنه يعلم بالسمع أبو الحسن الأشعري وبعض أصحابه، ولكن هؤلاء يثبتون العلو بالسمع ويبطلون أدلة نفاته.

يقول شيخ الإسلام: "والعقل دل على أن الله تعالى فوق العالم، وهذه طريقة حذاق أهل النظر من أهل الإثبات، كما هو طريق السلف والأئمة، يجعلون العلو من الصفات المعلومة بالعقل، وهذه طريقة أبي محمد بن كلاب وأتباعه، كأبي العباس القلانسي، والحارث المحاسبي، وأشباههما من أئمة الأشعرية، وهي طريقة محمد بن كرام وأتباعه، وطريقة أكثر أهل الحديث والفقه والتصوف،

=

=

وإليها رجع القاضي أبو يعلى، وأمثاله.

ولكن طائفة من الصفاتية من أصحاب الأشعري ومن وافقهم من أصحاب أحمد وغيرهم، يظنون أن العلو من الصفات الخبرية كالوجه واليدين ونحو ذلك، وأنهم إذا أثبتوا ذلك أثبتوه لمجيء السمع به فقط، ولهذا كان من هؤلاء من ينفي ذلك ويتأول نصوصه، أو يعرض عنها، كما يفعل ذلك في نصوص الوجه واليد. ومن سلك هذه الطريقة فإنه يبطل الأدلة التي يقال: إنها نافية لهذه الصفة، كما يبطل ما به ينفون صفة الاستواء والوجه واليد، ويبين أنه لا محذور في إثباتها، كما يقول مثل ذلك في الاستواء والوجه واليد، ونحو ذلك من الصفات الخبرية. وهؤلاء كلامهم أمتن من كلام نفاة الصفات الخبرية نقلا وعقلا..."ولاشك أن الراجح أن العلو معلوم بدليل العقل والفطرة، وقد قرر ذلك شيخ الإسلام بطرق منها:

١- أن هذا أمر مستقر في فطر بني آدم، معلوم لهم بالضرورة.

٢- أن قصدهم لربهم عند الحاجات التي لا يقضيها إلا هو، وذلك في دعاء العبادة ودعاء المسألة - إنما يكون إلى جهة العلو، فهو كما أنهم مضطرون إلى دعائه ومسألته هم مضطرون إلى أن يوجهوا قلوبهم إلى العلو إليه، لا يتوجهون إلى غيره من الجهات.

٣- وهذا أيضا متفق عليه بين العقلاء السليمي الفطرة، وكل منهم يخبر عن فطرته من غير مواطأة من بعضهم البعض، ويمتنع في مثل هؤلاء أن يتفقوا على تعمد الكذب عادة.

٤- ومنها الطرق النظرية مثل قولهم: كل موجودين فإما أن يكون أحدهما مباينا للآخر أو مداخلا له، وإذا ثبت أنه ليس مداخلا له فلابد أن يكون مباينا له، وهكذا.٥ - ومنها أنه إذا ثبت أن العالم كرة، وأن الله لابد أن يكون مباينا لخلقه، والعلو المطلق فوق الكرة، فيلزم أن يكون في العلو. وكثيرا ما يربط شيخ الإسلام

=

=

مناقشاته بأمور عملية واقعية، ولذلك فهو يورد قصة أبي المعالي الجويني مع أبي جعفر الهمذاني لما اعترض عليه وهو يقرر نفي العلو، فقال له الهمذاني: دعنا مما تقول، ما هذه الضرورة التي نجدها في قلوبنا، ما قال عارف قط يا الله إلا وجد من قلبه معنى يطلب العلو، لا يلتفت بمنة ولا يسرة، فكيف ندفع هذه الضرورة من قلوبنا. فصرخ أبو المعالي، ووضع يده على رأسه وقال: حيرني الهمذاني، أو كما قال، ونزل. ومن عجيب ما جرى لشيخ الإسلام ابن تيمية نفسه مع هؤلاء النفاة ما حكاه بقوله: ولقد كان عندي من هؤلاء النافين لهذا من هو من مشايخهم، وهو يطلب مني حاجة، وأنا أخاطبه في هذا المذهب كأني غير منكر له، وأخرت قضاء حاجاته حتى ضاق صدره، فرفع رأسه إلى السماء، وقال: يالله، فقلت له: أنت محق، لمن ترفع طرفك؟ وهل فوق عندك أحد؟ فقال: أستغفر الله، ورجع عن ذلك لما تبين له أن اعتقاده يخالف فطرته، ثم بينت له فساد هذا القول، فتاب من ذلك، ورجع إلى قول المسلمين المستقر في فطرهم".

أما أقوال السلف في هذا الباب فكثيرة جدا، وسترد الإشارة إليها عند الرد على زعم الرازي أنه لم يقل بالجهة سوى الحنابلة والكرامية.

ثالثا: حجج النفاة واعتراضاتهم، والرد عليها: ليس النفاة العلو دليل نقلي واحد على ما يدعونه، سوى أثر مكذوب رواه ابن عساكر فيما أملاه في نفي الجهة عن شيخه ابن عبدالله العوسجي عن النبي ﷺ قال: ((الذي أين الأين فلا يقال له: أين))، وقد حكم شيخ الإسلام بأنه مكذوب، وكثيرا ما يشير إليه باسم: حديث عوسجة.

ولما لم يكن للنفاة دليل من الكتاب والسنة عولوا على ما زعموه من أدلة العقل، والاعتراض على أدلة السلف المثبتة له.

ومجمل أدلة النفاة هي:

=

=

١- حججهم العقلية المعروفة مثل: التجسيم، والتركيب، والانقسام، والتجزء والتناهي، والتحيز، حيث قالوا: هذه لازمة لمن قال بالجهة والله منزه عنها.

٢- اعتراضوا على أدلة السمع كلها بأنها معارضة بالعقل، والعقل عندهم مقدم على النقل عند التعارض.

٣- أما دليل أن كل موجودين لابد أن يكون أحدهما داخلا في الآخر أو بائنا منه، وأنه لا يجوز أن يكون لا داخلا ولا بائنا - فقد اعترضوا عليه بأن هذا من حكم الوهم والخيال، وإلا فالقسم الثالث صحيح في القسمة العقلية، واستدلوا عليه بوجود العقول والكليات المطلقة.

٤- أنه قد لو كان بدهيًا لامتنع اتفاق الجمع العظيم على إنكاره وهم من سوى الحنابلة والكرامية.

٥- أما التوجه عند الدعاء إلى العلو فلأن السماء قبلة الدعاء وهو منقوض بوضع الجبهة على الأرض.

٦- كما اعترضوا بكون العالم كرة، ولا فرق بين الفوق والتحت.

وقد ناقش شيخ الإسلام ذلك كما يلي:

١- أما حججهم التي ذكروها من لزوم التجسيم والتركيب والتناهي والتحيز وغيرها فقد سبق الجواب عنها وبيان ما فيها من الإجمال وذلك في المسألة الأولى ضمن مسائل هذا المبحث، وقد استقصى شيخ الإسلام حججهم هذه كما ذكرها الرازي في كتابين من كتبه هما: (الأربعين)، و (أساس التقديس)، ورد عليها كلها في منهجه المعروف من حكاية الأقوال، ثم مناقشتها وبيان تناقض الخصوم، وردود بعضهم على بعض. وإذا تبين بطلان هذه الحجج - التي سموها براهين - وجب الرجوع إلى ما يدل عليه السمع والعقل.

٢- أما اعتراضه على أدلة السمع المثبتة بأنها معارضة بالأدلة العقلية، فهذه أيضا

=

=

سبق تفصيلها في المنهج العام في الرد على الأشاعرة وقد أفرد شيخ الإسلام مسألة العلو - وبين كيف عارض الرازي أدلتها النقلية بأدلة العقول - ثم رد عليه من وجوه عديدة منها: أ- أن القول بأن الله فوق العالم معلوم بالاضطرار من الكتاب والسنة وإجماع سلف الأمة، كالعلم بالأكل والشرب في الجنة، والعلم بإرسال الرسل وإنزال الكتب، ونصوص العلو متواترة مستفيضة وثبوتها أعظم من ثبوت كثير مما يقر به هؤلاء كأحاديث الرجم، والشفاعة، والحوض، والميزان، وسجود السهو وغيرها. ب- أن نصوص العلو صريحة لا تقبل التأويل، بل التأويلات في ذلك من جنس تأويلات القرامطة والباطنية وهي معلومة الفساد ضرورة.

ج- "أن يقال: لا نسلم أنه عارض ذلك دليل عقلي أصلا، بل العقليات التي عارضتها هذه السمعيات هي من جنس شبه السوفسطائية التي هي أوهام وخيالات غير مطابقة، وكل من قالها لم يخل من أن يكون مقلدا لغيره، أو ظانا في نفسه، وإلا فمن رجع في مقدماتها إلى الفطر السليمة واعتبر تأليفها، لم يجد فيما يعارض السمعيات برهانا مؤلفا من مقدمات يقينية تأليفا صحيحا. وجمهور من تجده يعارض بها أو يعتمد عليها، إذا بينت له فسادها وما فيها من الاشتباه والالتباس، قال: هذه قالها فلان وفلان، وكانوا فضلاء، فكيف خفي عليهم مثل هذا؟ فينتهون بعد إعراضهم عن كلام المعصوم الذي لا ينطق عن الهوى، وإجماع السلف الذين لا يجتمعون على ضلالة، ومخالفة عقول بني آدم التي فطرهم الله عليها - إلى تقليد رجال يقولون: إن هذه القضايا عقلية برهانية، وقد خالفهم في ذلك رجال آخرون من جنسهم، مثلهم وأكثر منهم...".ثم ذكر بقية الأوجه.

والقول بتقديم العقل على السمع من أصول البلايا التي بلى بها أهل الكلام، حيث أصبحت عندهم كالمخرج عندما يضايقهم أئمة السنة بالنصوص.

=

=

٣- أما زعمهم أن دليل العقل والفطرة إنما هو من حكم الوهم والخيال وأن حكم الوهم والخيال إنما يقبل في الحسيات لا في العقليات ثم استشهادهم بالكليات وبالنفوس - فقد أجاب عنه شيخ الإسلام في مناسبات مختلفة، ومن ردوده عليهم قوله بأن هذا باطل من وجوه:

أحدها: أنه إذا جاز أن يكون في الفطرة حكمان بديهان، أحدهما مقبول والآخر مردود، كان هذا قدحا في مبادئ العلوم كلها، وحينئذ لا يوثق بحكم البديهة.

الثاني: أنه إذا جوز ذلك، فالتمييز بين النوعين: إما أن يكون بقضايا بديهية، أو نظرية مبنية على البديهية، وكلاهما باطل... فإذا جاز أن تكون البديهيات مشتبهة: فيها حق وباطل، كانت النظريات المبنية عليها أولى بذلك، وحينئذ فلا يبقى علم يعرف به حق وباطل، وهذا جامع كل سفسطة...

الثالث: أن قول القائل: إن الوهم يسلم للعقل قضايا بديهية تستلزم إثبات وجود موجود، تمتنع الإشارة الحسية إليه - ممنوع.

الرابع: أنه بتقدير التسليم تكون المقدمة جدلية؛ فإن الوهم إذا سلم للعقل مقدمة، لم ينتفع بتلك القضية، إلا أن تكون معلومة له بالبديهية الصحيحة، فإذا لم يكن له سبيل إلى هذا انسدت المعارف على العقل، وكان تسليم الوهم إنما يجعل القضية جدلية لا برهانية. وهذا وحده لا ينفع في العلوم البرهانية العقلية.

الخامس: أن قول القائل: إن الحكم الوهم والخيال إنما يقبل في الحسيات دون العقليات، إنما يصح إذا ثبت أن في الخارج موجودات لا يمكن أن تعرف بالحس بوجه من الوجوه، وهذا إنما يثبت إذا ثبت أن في الوجود الخارجي مالا يمكن الإشارة الحسية إليه. وهذا أول المسألة فإن المثبتين يقولون: ليس في الوجود الخارجي إلا ما يمكن الإشارة الحسية إليه، أو لا يعقل موجود في الخارج إلا كذلك... السادس: أن يقال: إن أردتم بالعقليات ما يقوم بالقلب من العلوم

=

=

العقلية الكلية ونحوها، فليس الكلام هنا في هذه، ونحن لا نقبل مجرد حكم الحس ولا الخيال في مثل هذه العلوم الكلية العقلية، وأن أردتم بالعقليات موجودات خارجة، لا يمكن الإشارة الحسية إليها، فلم قلتم: إن هذا موجود؟ فالنزاع في هذا، ونحن نقول: إن بطلان هذا معلوم بالبديهة"... إلى آخر الأوجه.

ويلاحظ أن شيخ الإسلام بدأ من الوجه الخامس يناقش المسألة التي اعتمد عليها الرازي - ومن وافقه - في هذا الباب، حيث اتبعوا ابن سينا وغيره من الفلاسفة في مسألة الكليات الذهنية التي زعموا أنها موجودة في الخارج.

وهذه من المسائل التي تخبط بسببها المتكلمون في كثير من قضايا العقيدة ودلائلها. وهي من الباطل الذي لا حقيقة له، إذا ليس كل ما في الأذهان يكون موجودا في الأعيان، وهذه الكليات المطلقة توجد مطلقة في الأذهان فقط، أما في الأعيان فلا توجد إلا مقيدة، وقد سبقت الإشارة إلى هذا.

ولما تكلم شيخ الإسلام عن هذه المسألة - في موضع آخر - ضرب مثالا عليه في مسألة العلو عند هؤلاء النفاة، "ولكن طائفة من أهل الجدل والحكمة السوفسطائية، يستدلون على إمكان الشيء في الخارج بإمكانه في الذهن، كما يوجد مثل ذلك في كلام كثير من أهل الكلام والفلسفة. والرازي والآمدي ونحوهما لا مباين للعالم ولا مجانب بأن يقولوا: القسمة العقلية تقتضي أن كل موجود فإما مباين لغيره أو مجانب له، وإما لا مباين ولا مجانب، أو كل موجود فإما داخل في غيره وإما خرج عنه وإما لا داخل ولا خارج. ويجعلون مثل هذا التقسيم دليلا على إمكان كل من الأقسام في الخارج، وقد يسمون ذلك برهانا عقليا، وهو من أفسد الكلام..."ومثل هذا احتجاجهم بأن الفلاسفة وطائفة من المتكلمين من المعتزلة والشيعة والأشعرية - أثبتوا النفس، وقالوا: إنها لا داخل البدن ولا خارجه، ولا مباينة له ولا حالة فيه. وبطلان هذا مثل بطلان وجود

=

=

الكليات في الخارج. وكثيرا ما يختلط الأمر عند هؤلاء فيظنون أن الفرق بين الغيب والشهادة هو الفرق بين المحسوس وبين المعقول، وهذا أحد مداخل ملاحدة الباطنية والصوفية وغيرهم. والحق أن الغيب ليس غير المحسوس بل الغيب يمكن إحساسه، والله تعالى أعظم الغيب وهو يرى. وأكبر دليل على فساد ما زعمه هؤلاء من صحة قولهم بإمكان موجود لا مباين ولا محايث، أو لا داخل العالم ولا خارجه - أنهم عجزوا عن الرد على الحلولية من النصارى والصوفية، وقد أفرد شيخ الإسلام لبيان ذلك فصلا طويلا، ومما قاله: "ولهذا كان الحلولية والاتحادية منهم، الذين يقولون: إنه في كل مكان، يحتجون على النفاة منهم الذين يقولون: ليس مباينا للعالم ولا مداخلا له، بأنا قد اتفقنا على أنه ليس فوق العالم، وإذا ثبت ذلك تعين مداخلته للعالم، إما أن يكون وجوده وجود العالم، أو يحل في العالم، أو يتحد به، كما قد عرف من مقالاتهم.

والذين أنكروا الحلول والاتحاد من الجهمية، ليست لهم على هؤلاء حجة إلا من جنس حجة المثبتة عليهم، وهو قول المثبتة: إن ما لا يكون لا مداخلا ولا مباينا، غير موجود، فإن أقروا بصحة هذه الحجة بطل قولهم، وإن لم يقروا بصحتها أمكن إخوانهم الجهمية الحلولية أن لا يقروا بصحة حجتهم، إذ هما من جنس واحد"، ثم ذكر شيخ الإسلام نموذجا على ذلك، وهو رد الرازي على حلولية النصارى، حيث علق شيخ الإسلام بعد نقل كلام الرازي في الرد عليهم بقوله: "قلت ما ذكره الرازي من إبطال الحلول بإلزام النصارى كلام صحيح، لكن هذا إنما يستقيم على قول أهل الإثبات المثبتين لمباينته للعالم، فأما على قول الجهمية النفاة فلا تستقيم هذه الحجة...".وذلك أنه يلزم من تجويز إثبات موجود لا داخل العالم ولا خارجه تجويز قول الحلولية، ولا يمكن أن يوجد في النفاة من يرد على الحلولية ردا مستقيما، بل إن لم يوافقهم كان معهم بمنزلة المخنث -

=

=

كما يعبر شيخ الإسلام. وقد سبقت الإشارة إلى ما بين هذين المذهبين - النفاة والحلولية - من توافق، إلى حج أن الواحد منهم قد يتلبس بالمذهبين في وقت واحد، حسب حالته.

وكثير من النفاة يعظم ملاحدة الصوفية كابن عربي وابن سبعين وابن الفارض، بل إن أحد أفضل المتكلمين من نفاة العلو "يعتقد في مثل هذا أنه كان من أفضل أهل الأرض، أو أفضلهم ويأخذ ورقة فيها شر مذهبه، يرقي بها المريض، كما يرقي المسلمون بفاتحة الكتاب، كما أخبرنا بذلك الثقاة، وهم يقدمون تلك الرقية على فاتحة الكتاب...."ويركز شيخ الإسلام على أن هؤلاء جميعا ينطلقون من تلك المناظر المشهورة التي جرت بين الجهم والسمنية وقد ذكرها الإمام أحمد، فالجهم لما احتج عليهم بالروح بأن الروح لا ترى ولا تسمع ولا تحس ولا تجس، طبق ذلك على الله تعالى، فقال: وكذلك هو موجود ولا يرى ولا يسمع ولا يوصف بصفة.

ومن هذه المناظرة انطلق المبطلون:

- نفاة الأسماء والصفات من الجهمية وغيرهم.
- ونفاة العلو القائلون بأن الله لا داخل العالم ولا خارجه.
- والحلولية القائلون بأن الله في كل مكان.

فصاروا ينطلقون مما انطلق منه الجهم، والذين تفلسفوا كالرازي وغيره اعتمدوا على مثل هذا تماما وذلك حين احتجوا بالكليات التي لا توجد إلا في الأذهان، وبالنفوس المفارقة التي قال بها الفلاسفة وغيرهم. وهذا يبين ما بين أهل الباطل من ترابط، وكيف يوحي بعضهم إلى بعض زخرف القول غرورا. وقد بين شيخ الإسلام الجواب الصحيح لهؤلاء السمنية، وكيف عدل الجهم عن ذلك، وشبه حجته بحجة الرازي على نفي العلو واحتجاجه بما يقوله الفلاسفة في المعقول

=

=

والنفوس. وكثيرا ما يعتمد هؤلاء المتكلمون على شبه الفلاسفة.

٤- أما دعوى أنه لو كان بديهيا لامتنع اتفاق الجمع العظيم على إنكاره، وهم من سوى الحنابلة والكرامية. فجوابه من وجوه:

أحدها: أن العكس هو الصحيح، فإن أمم الأرض جميعا يقولون بأن الله فوق العالم، والذين خالفوا ذلك فئات قليلة من الفلاسفة والجهمية والمعتزلة والأشاعرة، تلقاه بعضهم عن بعض تقليدا. ومسألة العلو ليست من المسائل الصغيرة - التي قد تعرفها أمة أو أتباع نبي دون غيرهم - بل هي من المسائل الكبار المتعلقة بأصل التوحيد وهي مما ينفصل فيه أهل الإيمان عن الإلحاد، ولذلك اتفق الأنبياء جميعا عليها كما اتفقوا على التوحيد. ولتواتر النصوص الواردة في إثبات العلو لم يستطع - الأشاعرة المتأخرون ولا غيرهم - إنكارها أو معارضتها، وإنما صاروا يعبرون عن المعاني التي يريدونها من نفي العلو بعبارات ابتدعوها، ويكون فيها اشتباه وإجمال، مثل أن يقولوا: إن الله ليس بمتحيز ولا في جهة، وغيرها من العبارات المحتملة للحق والباطل، وهم قصدوا بها رد الحق. ولو كانت دعواهم كما صورهم الرازي أنه لم يخالف فيها الإ الحنابلة والكرامية لما تدسسوا إلى آرائهم وأقوالهم بمثل هذه الأساليب حين يتعاملون مع مئات النصوص الواردة المثبتة للعلو.

وقد رد شيخ الإسلام على هذه الدعوى بنقل النصوص العديدة لعشرات الأئمة والعلماء من السلف وممن جاء بعدهم من مختلف الطوائف: من الفقهاء: المالكية، والشافعية، والحنفية، والحنبلية، والظاهرية، وأهل الحديث، والصوفية والشيعة وأهل الكلام والفلسفة غيرهم. فكيف يقال مع هذا إنه لم يقل بالعلو إلا الحنابلة والكرامية؟.ومن هؤلاء الأئمة الذين أثبتوا العلو ونقلت أقوالهم: عبدالله بن المبارك، وربيعة، والإمام مالك، والشافعي، وأحمد، وأبو حنيفة، والبخاري،

=

=

والفضيل ابن عياض، وسليمان بن حرب، وابن خزيمة، والصابوني، والحاكم، وابن عبدالبر، وابن أبي زمنين، وأبو نصر السجزي، وأبو عمر الطلمنكي، ونصر المقدسي، وأبو نعيم الأصبهاني، وأبو أحمد الكرخي، وأبو محمد المقدسي، وابن أبي حاتم، والخلال، وعبدالله بن الإمام أحمد، والقرطبي، والبيهقي، وابن رشد، وغيرهم كثير جدا، وأقوالهم ونصوصهم مدونة يثبتون فيها هذه الصفة ويردون على من تأولها.

فكيف يدعي الرازي أنه لم يثبت العلو سوى الحنابلة والكرامية؟. الثاني: أن من المخالفين للرازي - ولمتأخري الأشعرية كالجويني والغزالي، والآمدي - شيوخهم المتقدمين من أئمة الأشاعرة، كابن كلاب، والقلانسي، والمحاسبي، وأبي الحسن الأشعري، وتلاميذه كابن مجاهد، وأبي الحسن الطبري، والباقلاني، وابن فورك - في أحد قوليه - والقاضي أبي يعلي، والقرطبي، والخطابي، وغيرهم ممن جاءت نصوصهم صريحة واضحة في إثبات العلو والرد على الجهمية. فهؤلاء المتأخرون النفاة من الأشاعرة مخالفون لأقوال شيوخهم، وقد علق شيخ الإسلام على ذلك - بعد نقله أقوال أولئك في إثبات العلو وغيره من الصفات - بقوله: "فإذا كان قول ابن كلاب والأشعري وأئمة أصحابه، وهو الذي ذكروا أنه اتفق عليه سلف الأمة وأهل السنة، أن الله فوق العرش، وأن له وجها ويدين، وتقرير ما ورد في النصوص الدالة على أنه فوق العرش، وأن تأويل "استوى" بمعنى استولى هو تأويل المبطلين ونحو ذلك - علم أن هذا الرازي ونحوه هم مخالفون لأئمتهم في ذلك، وأن الذي نصره ليس هو قول ابن كلاب والأشعري وأئمة أصحابه، وإنما هو صريح قول الجهمية والمعتزلة ونحوهم، وإن كان قد قاله بعض متأخري الأشعرية كأبي المعالي ونحوه".

الثالث: "أن يقال حول قوله باتفاق الجمع العظيم على إنكار العلو - "لم يطبق

=

=

على ذلك إلا من أخذه بعضهم عن بعض، كما أخذ النصارى دينهم بعضهم عن بعض، وكذلك اليهود والرافضة وغيرهم. فأما أهل الفطر التي لم تغير فلا ينكرون هذا العلم، وإذا كان كذلك فأهل المذاهب الموروثة لا يمتنع أطباقهم على جحد العلوم البديهية، فإنه ما من طائفة من طوائف الضلال - وإن كثرت - إلا وهي مجتمعة على جحد بعض العلوم الضرورية".أما دعوى التواطؤ فمردودة بأن الفطر التي لم تتواطأ يمتنع اتفاقها على جحد ما يعلم بالبديهة، وقد يوافق بعض الناس - أو بعض عامتهم - على إنكار الجهة والتحيز والمكان، حين يقصد بنفيها ما هو معنى صحيح مثل نفي أن الله محصور في خلقه، أو مفتقر إلى مخلوق، إلى غير ذلك من المعاني التي يجب نفيها عن الله تعالى. أما لو قصد بذلك أن الله ليس فوق السموات، وأنه ليس وراء العالم إله موجود، فهذا لا يوافق عليه أحد بفطرته، وإنما يوافق عليه من قامت عنده شبهة من شبه النفاة.٥ - أما الاعتراض على رفع الأيدي، وأن القلوب مفطورة عند دعائها ومسألتها - على التوجه إلى الله في العلو - بأن ذلك لأن السماء قبلة للدعاء وأن هذا منقوض بوضع الجبهة على الأرض، أو غير ذلك من التعليلات الهزيلة - والحمد لله. وقد ركز شيخ الإسلام في هذه الأوجه على بيان أن الاستدلال برفع الأيدي والأبصار إلى السماء عند الدعاء، إنما هو حجة أهل الإثبات من السلف والخلف، وأن من هؤلاء الأشعري وأئمة أصحابه، وقد نقل شيخ الإسلام كلامهم في ذلك، فالرازي في الحقيقة إنما يعترض على شيوخه الأشاعرة، وهم باستدلالهم يردون عليه. والإشارة إلى الله في العلو باليد والأصابع أو العين أو الرأس، قد تواترت به السنن عن الرسول ﷺ.

والنهي عن رفع البصر في الصلاة لأنه من باب الخشوع الذي أثنى الله على أهله، ولو كان الله ليس فوق، بل هو في السفل كما هو في الفوق لم يكن رفع البصر إلى السماء ينافي الخشوع، بل كان يكون بمنزلة خفضها. والناس على اختلاف

=

=

عقائدهم وأديانهم يشيرون عند الدعاء إلى السماء لأن هذا شيء يجدونه في فطرهم. ودعوى أن السماء قبلة للدعاء كالكعبة قبلة للصلاة، باطل معلوم بالاضطرار بطلانه من وجوه: منها أن المسلمين مجمعون على أن قبلة الداعي هي قبلة الصلاة، ومنها: أن كون السماء أو العرش قبلة لا يثبت بغير الشرع، وليس في النصوص أي دليل على ذلك، ومنها أن القبلة أمر يدخله النسخ، ولذلك تحولت القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة، ولو كانت القبلة هي العرش أو السماء لجاز تغييرها وتبديلها، ولجاز أن يدعو الإنسان ربه إلى سائر الجهات، وهذا فضلا عن أنه باطل، فإن العباد مفطورون على أن لا يتوجهوا إلا إلى جهة العلو.

ومنها: أن القبلة ما يستقبله الإنسان بوجهه، أما ما يرفع الإنسان إليه يده أو رأسه أو بصره، فهذا باتفاق الناس لا يسمى قبلة، ومعلوم أن مستقبل القبلة يستدبر ما يقابلها، أما الداعي فإنه لا يكون مستقبلا للسماء مستدبرا للأرض، بل يكون مستقبلا لبعض الجهات. إلى غيرها من الأوجه. ووضع الجبهة على الأرض يفعله الناس لكل من يعظمونه، ولهذا يسجد المشركون لأصنامهم. وهذا بين.

فتبين من هذه الأوجه وغيرها سلامة احتجاج السلف على العلو بما فطر الناس عليه من رفع أيديهم إلى السماء عند الدعاء والحاجة.

٦- أما اعتراضهم بأن العالم كرة، وأن الله إذا كان في جهة فوق لكان أسفل بالنسبة لسكان الوجه الآخر. فشيخ الإسلام لا ينازع في استدارة الفلك - كما قد ينازع فيه بعض الجهال -، وقد أجاب عن هذا الاعتراض بعدة أوجه:

منها: أن القائلين بأن العالم كرة يقولون أن السماء عالية على الأرض من جميع الجهات، والأرض تحتها من جميع الجهات.

والجهات قسمان:

حقيقية: ولها جهتان العلو السفل فقط، فالأفلاك وما فوقها هو العالي مطلقا، وما

=

=

في جوفها هو السافل مطلقا.

وإضافية: وهي الجهات الست بالنسبة للحيوان، فما حاذى رأسه كان فوقه وما حاذى رجليه فهو تحته، وما حاذى جهته اليمنى كان عن يمينه. وهكذا. ويتضح الفرق بينهما فيما لو علق رجل، فجعلت رجلاه إلى أعلى، ورأسه إلى أسفل، فبالنسبة للجهة الحقيقية لم يتغير عليه شيء إذ لا تزال السماء فوقه والأرض تحته، أما بالنسبة للإضافة فإن الأرض فوق رأسه."وإذا كان كذلك فالملائكة الذين في الأفلاك من جميع الجوانب، هم باعتبار الحقيقة، كلهم فوق الأرض، وليس بعضهم تحت بعض، ولا هم تحت شيء من الأرض، أي الذين في ناحية الشمال ليسوا تحت الذين في ناحية الجنوب وكذلك من كان في ناحية برج السرطان ليس تحت من كان في ناحية برج العقرب وإن كان بعض جوانب السماء تلي رؤوسنا تارة وأرجلنا أخرى، وإن كان فلك الشمس فوق القمر، وكذلك السحاب وطير الهواء، هو مع جميع الجوانب فوق الأرض وتحت السماء، ليس شيء منه تحت الأرض، ولا من هذا الجانب تحت من هذا الجانب... (فـ) علم أنه لا يلزم من كون الخالق فوق السماوات، أن يكون تحت شيء من المخلوقات، وكأن من احتج بمثل هذه الحجة إنما احتج بالخيال الباطل الذي لا حقيقة له..."."وإذا كانت المخلوقات التي في الأفلاك والهواء والأرض لا يلزم من علوها على ما تحتها أن تكون تحت ما في الجانب الآخر من العالم، فالعلي الأعلى – سبحانه – أولى أن لا يلزم من علوه على العالم أن يكون تحت شيء منه".

وقد سبق – عند ذكر أدلة أهل السنة العقلية على العلو – أن كون العالم كرة من أدلة العلو. ومنها: أنه لا يسلم لزوم السفول، وإن سلم لزومه فلابد من دليل ينفي به ذلك، ولا يلزم من ذلك نقص، لأن الأفلاك موصوفة بالعلو على الأرض – مع

=

=

لزوم ما ذكر من السفول تحت سكان الوجه الآخر - وليس ذلك نقصا فيها. وإذا كان هذا في المخلوقات فالخالق أولى أن يتنزه عنه حين يوصف بالعلو عليها كلها. أما دعوى أنه يلزم أن يكون الله فلكا محيطا بالعالم حتى يكون عاليا عليه فيقال: "على هذا التقدير إذا كان محيطا لم يكن سافلا البتة، بل يكون عاليا، وعلى هذا فإذا كان هو الظاهر الذي ليس فوقه شيء، وهو الباطن الذي ليس دونه شيء، ولو أدلى المدلي بحبل لهبط عليه - كان محيطا بالعالم عاليا عليه مطلقا ولم يلزم من ذلك أن يكون فلكا ولا مشابها للفلك، فإن الواحد من المخلوقات تحيط قبضته بما في يده من جميع جوانبها، وليس شكلها شكل يده، بل ولا شكل يده شكلها".

ثم إن العلو لا يشترط فيه الإحاطة، وإن كانت الإحاطة لا تناقضه والناس يعلمون أن الله فوق العالم، ـ وإن لم يعلموا أنه محيط به، وإذا علموا أنه محيط به لم يكن ذلك ممتنعا عندهم."والله تعالى ليس مثل الأفلاك، ولا يلزم إذا كان فوق العالم ومحيطا به أن يكون مثل فلك، فإنه العظيم الذي لا أعظم منه".

"والمقصود: أنه إذا كان الله أعظم وأكبر وأجل من أن يقدر العباد قدره، أو تدركه أبصارهم، أو يحيطون به علما، وأمكن أن تكون السموات والأرض في قبضته لم يجب - والحال هذه - أن يكون تحت العالم، أو تحت شيء منه، فإن الواحد من الآدميين إذا قبض قبضة أو بندقة أو حمصة أو حبة خردل وأحاط بها بغير ذلك، لم يجز أن يقال: إن أحد جانبيها فوقه، لكون يده لما أحاطت بها كان منها الجانب الأسفل يلي يده من جهة سفلها، ولو قدر من جعلها فوق بعضه بهذا الاعتبار، لم يكن هذا صفة نقص، بل صفة كمال. وكذلك أمثال ذلك من إحاطة المخلوقات ببعض المخلوقات، كإحاطة الإنسان بما في جوفه، وإحاطة البيت بما فيه، وإحاطة السماء بما فيها من الشمس والقمر والكواكب، فإذا كانت هذه المحيطات لا

=

=

يجوز أن يقال: إنها تحت المحاط وإن ذلك نقص، مع كون المحيط يحيط به غيره - فالعلي الأعلى المحيط بكل شيء، الذي تكون الأرض جميعا قبضته يوم القيامة، والسموات مطويات بيمينه، كيف يجب أن يكون تحت شيء مما هو عال عليه أو محيط به، ويكون ذلك نقصا ممتنعا؟".

والخلاصة:

١- أن كون العالم كرة دليل على العلو، لأنه ليس هناك إلا علو مطلق أو سفل، وهو مركز الأرض، وهذا بالنسبة لجميع سكان الأرض، وإذا ثبت أن الله بائن من خلقه فهو في جهة العلو مطلقا.

٢- أن الأرض والسموات إذا كان الله يقبضها بيده، فتصور أن يكون تحت شيء منها تصور فاسد، لم يقدر صاحبه حق قدره. فكل ما يفترضه المفترض من لزوم أن يكون الله محيطا بالمخلوقات، أو أنه فلك، أو غير ذلك من التصورات فهي إما تصورات فاسدة، كتصور أنه فلك أو أنه لا يلزم منها نقص ينافي كمال ربوبية الله تعالى ككون الله تعالى محيطا بخلقه. ولشيخ الإسلام في ذلك مناقشات مطولة بين من خلالها أن ثبوت العلو الذي جاءت به النصوص وفطرت عليه العقول - لا يلزم منه شيء من هذه اللوازم التي ذكرها نفاته.

ومن ذلك أن لقائل أن يقول: ما فائدة أن يتوجه الإنسان عند الدعاء إلى العلو، ولماذا لا يتجه إلى إحدى الجهات الأخرى من يمين أو شمال ما دامت نهايته العلو نفسه؟ يقول شيخ الإسلام - بعد توضيحه لبعض الأمور-: "وإذا كان مطلوب أحدهما ما فوق الفلك لم يطلبه إلا من الجهة العليا، لم يطلبه من جهة رجليه أو يمينه أو يساره لوجهين:

أحدهما: أن مطلوبه من الجهة العليا أقرب إليه من جميع الجهات، فلو قدر رجل أو ملك يصعد إلى السماء أو إلى ما فوق، كان صعوده مما يلي رأسه أقرب إذا

=

=

أمكنه ذلك، ولا يقول عاقل: إنه يخرق الأرض ثم يصعد من تلك الناحية،... الوجه الثاني: أنه إذا قصد السفل بلا علو كان ينتهي قصده إلى المركز، وإن قصده أمامه أو وراءه أو يمينه أو يساره من غير قصد العلو كان منتهى قصده أجزاء الهواء، فلابد له من قصد العلو ضرورة، سواء قصد من ذلك هذه الجهات أو لم يقصدها، ولو فرض أنه قال: أقصده من اليمين مع العلو، أو من السفل مع العلو، كان هذا بمنزلة من يقول: أريد أن أحج من المغرب، فأذهب إلى خراسان ثم أذهب إلى مكة...".

الفهرس

فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَىٰ آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا (٦). ٥
إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا (٧). ٩
وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا (٨). ٩
أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا (٩). ١٥
إِذْ أَوَىٰ الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا (١٠). ١٥
فَضَرَبْنَا عَلَىٰ آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا (١١).....١٦
ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا (١٢). ١٦
نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُمْ بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى (١٣). ٣١
وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَنْ نَدْعُوَ مِنْ دُونِهِ إِلَهًا لَقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا (١٤). ٣٢
هَؤُلَاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِمْ بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللهِ كَذِبًا (١٥). ٣٢
وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللهَ فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيُهَيِّئْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مِرْفَقًا (١٦). ٤٣
وَتَرَىٰ الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَتْ تَزَاوَرُ عَنْ كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَتْ تَقْرِضُهُمْ ذَاتَ الشِّمَالِ وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِنْهُ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللهِ مَنْ يَهْدِ اللهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْشِدًا (١٧). ٤٧
وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ وَكَلْبُهُمْ بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا (١٨). ٥٦

وَكَذَلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَابْعَثُوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ هَذِهِ إِلَىٰ الْمَدِينَةِ فَلْيَنْظُرْ أَيُّهَا أَزْكَىٰ طَعَامًا فَلْيَأْتِكُمْ بِرِزْقٍ مِنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا (١٩). ٦٨
إِنَّهُمْ إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَنْ تُفْلِحُوا إِذًا أَبَدًا (٢٠).
.....٦٩
وَكَذَلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا إِذْ يَتَنَازَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ فَقَالُوا ابْنُوا عَلَيْهِمْ بُنْيَانًا رَبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَىٰ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِمْ مَسْجِدًا (٢١). ٨٠
سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِمْ مَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَاهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِمْ مِنْهُمْ أَحَدًا (٢٢). ٨١
وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا (٢٣).....١٠٤
إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللهُ وَاذْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَىٰ أَنْ يَهْدِيَنِ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَذَا رَشَدًا (٢٤). ١٠٤
وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا (٢٥).....١٠٤
قُلِ اللهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا لَهُ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا (٢٦). ١٠٥
وَاتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ كِتَابِ رَبِّكَ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَلَنْ تَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا (٢٧). ١١٨
وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ

فُرُطًا (٢٨). ١٢٥
وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا (٢٩). ١٣٣
إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا (٣٠). ١٤٠
أُولَئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِنْ سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ نِعْمَ الثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا (٣١). ١٤١
وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا رَجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا (٣٢). ١٥٠
كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِمْ مِنْهُ شَيْئًا وَفَجَّرْنَا خِلَالَهُمَا نَهَرًا (٣٣). ١٥٠
وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا (٣٤). ١٥٠
وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا (٣٥). ١٥٠
وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُدِدْتُ إِلَى رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا (٣٦). ١٥٠
قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلًا (٣٧). ١٥١
لَكِنَّا هُوَ اللهُ رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا (٣٨). ١٥١
وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ إِنْ تَرَنِ أَنَا أَقَلَّ مِنْكَ مَالًا وَوَلَدًا (٣٩). ١٥١
فَعَسَى رَبِّي أَنْ يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِنْ جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِنَ السَّمَاءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا (٤٠). ١٥١

أَوْ يُصْبِحَ مَاؤُهَا غَوْرًا فَلَنْ تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَبًا (٤١). ١٥٢
وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَا أَنْفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَالَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا (٤٢). ١٥٢
وَلَمْ تَكُنْ لَهُ فِئَةٌ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللهِ وَمَا كَانَ مُنْتَصِرًا (٤٣). ١٥٢
هُنَالِكَ الْوَلَايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا (٤٤). ١٥٢
وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ وَكَانَ اللهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُقْتَدِرًا (٤٥). ١٧٧
الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا (٤٦). ١٨٢
وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَىٰ الْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا (٤٧).. ١٨٧
وَعُرِضُوا عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّنْ نَجْعَلَ لَكُمْ مَوْعِدًا (٤٨). ١٨٨
وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَاوَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا (٤٩). ١٨٨
وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا (٥٠). ... ٢٠٩
مَا أَشْهَدْتُهُمْ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنْفُسِهِمْ وَمَا كُنْتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا (٥١). ٢٢٢
وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا شُرَكَائِيَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ مَوْبِقًا (٥٢). ٢٢٢

وَرَأَىٰ الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا (٥٣)..... ٢٢٢
وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا (٥٤)..... ٢٣٠
وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ وَيَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ قُبُلًا (٥٥)..... ٢٣٠
وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَيُجَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَمَا أُنْذِرُوا هُزُوًا (٥٦)..... ٢٣٧
وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ فَلَنْ يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا (٥٧)..... ٢٤٠
وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُمْ بِمَا كَسَبُوا لَعَجَّلَ لَهُمُ الْعَذَابَ بَلْ لَهُمْ مَوْعِدٌ لَنْ يَجِدُوا مِنْ دُونِهِ مَوْئِلًا (٥٨)..... ٢٤٠
وَتِلْكَ الْقُرَىٰ أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِمْ مَوْعِدًا (٥٩)..... ٢٤٠
وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَاهُ لَا أَبْرَحُ حَتَّىٰ أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا (٦٠)..... ٢٤٩
فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا (٦١)..... ٢٥٠
فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَاهُ آتِنَا غَدَاءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا (٦٢)..... ٢٥٠
قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنْسَانِيهُ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا (٦٣)..... ٢٥٠
قَالَ ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ فَارْتَدَّا عَلَىٰ آثَارِهِمَا قَصَصًا (٦٤)..... ٢٥٠
فَوَجَدَا عَبْدًا مِنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا (٦٥)..... ٢٥١
قَالَ لَهُ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰ أَنْ تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا (٦٦)..... ٢٥١

قَالَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا (٦٧). ٢٥١
وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا (٦٨). ٢٥١
قَالَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا (٦٩). ٢٥٢
قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّىٰ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا (٧٠)..... ٢٥٢
فَانْطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا (٧١). ٢٥٢
قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا (٧٢). ٢٥٢
قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا (٧٣)..... ٢٥٢
فَانْطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا لَقِيَا غُلَامًا فَقَتَلَهُ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا (٧٤). ٢٥٣
قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا (٧٥). ٢٥٣
قَالَ إِنْ سَأَلْتُكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْرًا (٧٦). ... ٢٥٣
فَانْطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَّ فَأَقَامَهُ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا (٧٧). ٢٥٣
قَالَ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا (٧٨). ٢٥٤
أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا (٧٩). ٢٥٤
وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَنْ يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا (٨٠)..... ٢٥٤
فَأَرَدْنَا أَنْ يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا (٨١). ٢٥٤
وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ

أَمْرِي ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا (٨٢). ٢٥٥
وَيَسْأَلُونَكَ عَنْ ذِي الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْرًا (٨٣). ٣٢٠
إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا (٨٤). ٣٢٠
فَأَتْبَعَ سَبَبًا (٨٥). ٣٢٠
حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِنْدَهَا قَوْمًا قُلْنَا يَاذَا الْقَرْنَيْنِ إِمَّا أَنْ تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَنْ تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا (٨٦). ٣٢٠
قَالَ أَمَّا مَنْ ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُكْرًا (٨٧). ٣٢١
وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءً الْحُسْنَىٰ وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا (٨٨).. ٣٢١
ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا (٨٩). ٣٢١
حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَمْ نَجْعَلْ لَهُمْ مِنْ دُونِهَا سِتْرًا (٩٠). ٣٢١
كَذَلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا (٩١). ٣٢١
ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا (٩٢). ٣٢١
حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِنْ دُونِهِمَا قَوْمًا لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا (٩٣)... ٣٢٢
قَالُوا يَاذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰ أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا (٩٤). ٣٢٢
قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا (٩٥). ٣٢٢
آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ حَتَّىٰ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انْفُخُوا حَتَّىٰ إِذَا جَعَلَهُ نَارًا قَالَ آتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا (٩٦). ٣٢٢
فَمَا اسْطَاعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا (٩٧). ٣٢٣
قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا (٩٨). ٣٢٣

وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا (٩٩). ٣٥٦
وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِلْكَافِرِينَ عَرْضًا (١٠٠). ٣٥٦
الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَنْ ذِكْرِي وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا (١٠١). ٣٥٦
أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ يَتَّخِذُوا عِبَادِي مِنْ دُونِي أَوْلِيَاءَ إِنَّا أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلًا (١٠٢). ٣٥٦
قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا (١٠٣). ٣٧٣
الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا (١٠٤).. ٣٧٤
أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا (١٠٥). ٣٧٤
ذَلِكَ جَزَاؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُوًا (١٠٦). ٣٧٤
إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا (١٠٧). ٣٨٣
خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا (١٠٨). ٣٨٣
قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا (١٠٩). ٣٨٣
قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا (١١٠). ٣٨٣
سُورَة مَرْيَم ٤٠٦
بسم الله الرحمن الرحيم ٤١١
كهيعص (١). ٤١١
ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا (٢). ٤١١
إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا (٣). ٤١١

قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا (٤)..... ٤١١
وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا (٥)..... ٤١١
يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا (٦)..... ٤١٢
يَازَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا (٧). ٤٣٣
قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا (٨). ٤٣٣
قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا (٩). ٤٣٣
قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا (١٠). ٤٣٣
فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا (١١). ٤٣٤
يَايَحْيَىٰ خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا (١٢)..... ٤٤٩
وَحَنَانًا مِنْ لَدُنَّا وَزَكَاةً وَكَانَ تَقِيًّا (١٣)..... ٤٤٩
وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُنْ جَبَّارًا عَصِيًّا (١٤). ٤٥٠
وَسَلَامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا (١٥). ٤٥٠
وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا (١٦). ٤٥٨
فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا (١٧). ٤٥٨
قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا (١٨). ٤٥٩
قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا (١٩). ٤٥٩
قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا (٢٠)..... ٤٥٩
قَالَ كَذَلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَقْضِيًّا (٢١). ٤٥٩

فَحَمَلَتْهُ فَانْتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا (٢٢). ٤٧٥
فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَالَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسْيًا مَنْسِيًّا (٢٣). ٤٧٥
فَنَادَاهَا مِنْ تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا (٢٤). ٤٧٥
وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا (٢٥). ٤٧٥
فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا (٢٦)..... ٤٧٥
فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ قَالُوا يَامَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا (٢٧)..... ٤٩٧
يَاأُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا (٢٨). ٤٩٧
فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا (٢٩). ٤٩٨
قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا (٣٠). ٤٩٨
وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا (٣١). ٤٩٨
وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا (٣٢)..... ٤٩٨
وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا (٣٣). ٤٩٨
ذَلِكَ عِيسَىٰ ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ (٣٤)..... ٥١٣
مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ سُبْحَانَهُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (٣٥). ٥١٣
وَإِنَّ اللهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ (٣٦). ٥١٣
فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ مَشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ (٣٧)..... ٥١٣
أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا لَكِنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (٣٨). ٥١٣
وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (٣٩). ٥١٤

إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ (٤٠). ٥١٤
وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا (٤١)..... ٥٣٥
إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَاأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا (٤٢). ٥٣٥
يَاأَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا (٤٣). ... ٥٣٥
يَاأَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا (٤٤)..... ٥٣٦
يَاأَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا (٤٥). ٥٣٦
قَالَ أَرَاغِبٌ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِي يَاإِبْرَاهِيمُ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا (٤٦). ٥٣٦
قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا (٤٧)..... ٥٣٦
وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ وَأَدْعُو رَبِّي عَسَىٰ أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا (٤٨)..... ٥٣٦
فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا (٤٩). ٥٣٦
وَوَهَبْنَا لَهُمْ مِنْ رَحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا (٥٠)..... ٥٣٧
وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَىٰ إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا (٥١). ٥٦٢
وَنَادَيْنَاهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا (٥٢). ٥٦٢
وَوَهَبْنَا لَهُ مِنْ رَحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا (٥٣)..... ٥٦٣
وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا (٥٤). ٥٦٦
وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا (٥٥). ٥٦٧
وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا (٥٦)..... ٥٧٢
وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا (٥٧)..... ٥٧٢
أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَّةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِنْ ذُرِّيَّةِ

إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا (٥٨). ٥٧٦
فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا (٥٩). ٦٢٢
إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْئًا (٦٠). ٦٢٢
جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمَنُ عِبَادَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّهُ كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيًّا (٦١). ٦٢٢
لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَامًا وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا (٦٢). ٦٢٢
تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَنْ كَانَ تَقِيًّا (٦٣). ٦٢٢
وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا (٦٤). ٦٤١
رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا (٦٥). ٦٤٨
وَيَقُولُ الْإِنْسَانُ أَإِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا (٦٦). ٦٧٠
أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا (٦٧). ٦٧٠
فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا (٦٨). ٦٧٠
ثُمَّ لَنَنْزِعَنَّ مِنْ كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَنِ عِتِيًّا (٦٩). ٦٧٠
ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلِيًّا (٧٠). ٦٧٠
وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا (٧١). ٦٧١
ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا (٧٢). ٦٧١
وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا (٧٣). ٦٩١

وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَاثًا وَرِئْيًا (٧٤)..... ٦٩٢
قُلْ مَنْ كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدًّا حَتَّىٰ إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ إِمَّا الْعَذَابَ وَإِمَّا السَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَكَانًا وَأَضْعَفُ جُنْدًا (٧٥)..... ٦٩٢
وَيَزِيدُ اللهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًىٰ وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَرَدًّا (٧٦)..... ٦٩٢
أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا (٧٧)..... ٧٠٦
أَطَّلَعَ الْغَيْبَ أَمِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا (٧٨)..... ٧٠٦
كَلَّا سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدًّا (٧٩)..... ٧٠٦
وَنَرِثُهُ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا (٨٠)..... ٧٠٦
وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا (٨١)..... ٧١٣
كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا (٨٢)..... ٧١٣
أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا (٨٣)..... ٧١٤
فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا (٨٤)..... ٧١٤
يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْدًا (٨٥)..... ٧١٤
وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا (٨٦)..... ٧١٤
لَا يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا (٨٧)..... ٧١٤
وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا (٨٨)..... ٧٢٩
لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا (٨٩)..... ٧٢٩
تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا (٩٠)..... ٧٣٠
أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا (٩١)..... ٧٣٠
وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا (٩٢)..... ٧٣٠

إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا (٩٣). ٧٣٠
لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا (٩٤). ٧٣٠
وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا (٩٥). ٧٣٠
إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا (٩٦). ٧٣٨
فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنْذِرَ بِهِ قَوْمًا لُدًّا (٩٧). ٧٣٨
وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُمْ مِنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا (٩٨). .. ٧٣٨
سُورَة طَه() ٧٥٣
بسم الله الرحمن الرحيم ٧٥٨
طه (١) ٧٥٨
مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَىٰ (٢). ٧٦٣
إِلَّا تَذْكِرَةً لِمَنْ يَخْشَىٰ (٣). ٧٦٣
تَنْزِيلًا مِمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَاوَاتِ الْعُلَىٰ (٤). ٧٦٣
الرَّحْمَنُ عَلَىٰ الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ (٥). ٧٦٣
لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَىٰ (٦). ٧٦٣
وَإِنْ تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَىٰ (٧). ٧٦٣
اللهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ (٨) ٧٦٣
الفهرس ٨٣٧